

منصف المرزوقي

الرّحلة

مذكرات أدمي

دار منوال للنشر
PARADIGME EDITIONS



منصف المرزوقي

الرحلة

مذكرات آدمي

صدر للمؤلف

لكتابات الطبية

- المدخل إلى الطب المنمنج: الدار التونسية للنشر ومؤسسة البحث العلمي - 1995-
- دليل المرئي في التنقيف الصحي: الدار الجزائرية للنشر 1986
- سلسلة كتب التنقيف الصحي - الدار العربية- تونس 1984
- تاريخ الطب للأطفال - دار الألف للنشر- تونس 1982

لكتابات السياسية

- لماذا استقطب الأقدام العربية أرض المرزوخ: دار الرأي تونس 1982
- دع وطني يستيقظ: دار المغرب العربي- تونس سنة 1986
- الاستقلال الثاني- دار الكونز الأدبية- بيروت 1996
- هل نحن أهل للديمقراطية؟- دار الأهالي - دمشق 2001
- من الخراب إلى التلمس - للمركز المغربي - لندن 2003
- عن أية ديمقراطية نتحدثون؟ - دار الأهالي - دمشق 2004
- حتى يكون للأمة مكان في هذا الزمان - دار الأهالي دمشق - 2006
- إنها الثورة يا مولاي - دار المتوسطية - تونس 2011
- اختراع الديمقراطية - التجربة التونسية - شركة المطبوعات للنشر- بيروت 2014
- ننتصر أو ننتصر - من أجل الربيع العربي- الدار المتوسطية - تونس 2014
- المراجعات والبدائل: المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية - النوحة 2022

لكتابات الفكرية و الأدبية

- في سجن العقل - أقواس - تونس 1990-
- حقوق الإنسان، الرؤية الجديدة - مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان - القاهرة 1996
- الإنسان الحرام - قراءة في الإعلان العالمي لتحقيق الإنسان - دمشق 2003
- الطبيب والموت- الدار التونسية للنشر. تونس 1983
- الرحلة- طبعة دار الأهالي - دمشق 2002، 2010، طبعة الدار المتوسطية تونس سنة 2015
- شعراء بلا حدود: دار منوال، تونس 2018
- **L'arrache corps** : Essai sur l'expérimentation humaine en médecine - Ed Alternatives. Paris 1979, Traduction espagnole : El experimentacion en el ombre. Ed jugar Madrid 1982
- **Arabes, si vous parliez** - Ed, lieu commun. Paris 1987
- **La mort appri voisée** - Ed du méridien. Montréal 1990
- **Le mal arabe** : Ed le Harmattan - Paris 2004
- **Dictateurs en Sursis** : Ed L'atelier - Paris 2009
- **L'invention d'une démocratie** - Ed media plus - Paris 2013
- **Qu'est-ce que le pouvoir ?** Ed paradigmes - Tunis 2019

الموقع على الانترنت www.moncefmarzouki.com

إلى حرّة، هناء، هالة، أمنة
وكل الأطفال المشاعين

شكر وامتنان

جزيل لشكر للمريض العجوز الذي أوحى لي بفكرة هذا العمل وعنوانه.

جزيل لشكر أيضا لكل الذين أعانوني على الإصلاحات التي لم تتوقف لحظة على امتداد قرابة عقدين وأخص بالذكر، إسلامو ولد دلاهي ولد المعلوم.

أخيراً وليس آخراً جزيل الشكر لكل قارئ يشرفني بقراءة هذا العمل وأملني أن يكون قد وجد فيه بعضاً مما نفتح كلنا من أجله الكتب.

الفهرس

تقديم كتاب الرحلة

الكتاب الأول: الإحرام

الكتاب الثاني: العالم

الكتاب الثالث: الطريق

الكتاب الرابع: بنو سفر

الكتاب الخامس: المهمة

الكتاب السادس: الغريب

الكتاب السابع: الرؤيا

تقديم

في شهر يوليو 1994 خرجت من السجن لأجد نفسي محاصرا في بيتي، محروما من السفر قرابة خمس سنوات، شبه ممنوع من العمل في كلية طب سوسة التي كنت أدرّس فيها من بداية الثمانينيات والتي سيتمّ عزلي منها نهائيا سنة 2000.

قلت في نفسي رب ضارة نافعة. أخيرا كل الوقت للتفكير والكتابة.

الكتابة نعم، لكن في أي موضوع؟ الديمقراطية، حقوق الإنسان؟ الثورة؟ مواضيع أرفقتني كثيرا وكنت أريد وضعها جانبا ولو لبعض الوقت.

المواضيع الطبية؟ بأية معطيات وقد تمّ في إطار التنكيل الممنهج من طرف النظام الاستبدادي حلّ قسم الطب الاجتماعي الذي كنت أراسه وأشرف فيه على أبحاث طلبتي ومساعدتي؟

لم يبق أمامي إلا كتابة ليست بحاجة لمعطيات وتُسبني لحظة هموم السيلسة وتروّح عن النفس كربها: الرواية.

قلت لنفسي لم لا أجزّب تحديدا رواية من الخيال العلمي والسبب نهم قديم لهذا النوع من الأدب أدمنته منذ المراهقة.

أول وأصعب إشكالية: أية عقدة لرأيتي هذه؟

ماذا عن نزول بعثة كائنات جدّ متطورة جاءت من مجرّة العقرب واكتشفت الأرض بعد أن دمرها البشر وافترضوا؟

فكرة مبتدئين استُفدت من قبل ما لا يحصى ولا يعدّ من صغار وكبار كتّاب الميدان.

إنّ لأجل المستكشفين يسقطون على النصّ الذي سأترك ليعطيهم فكرة عن الكائنات التي سكنت هذا الكوكب وعن ظروف وأسباب انقراضها. تطوّر إيجابي لكنه غير كافٍ لرواية تمشي بذكرها للركبان.

ماذا لو جعلت من المستكشفين القادمين من وراء أبعد مجرات الفضاء تجار آثار مهنتهم اكتشاف العوالم المندثرة لإحيائها وبيعها لأثرياء مجرّاتهم كما يفعل بعض أغنياء البشر عندما يشترون الآثار المهرية لتزيين حدائقهم الفاخرة؟

لأجعلهم يجدون في نصّي كل المطلوب لإعادة إحياء العالم الذي غرّث، ولم لا لبعثي معه حيّا أرزق من جديد.

هل يمكن لأحد المزايدة عليّ وقد تجاوزت بهذه الفكرة كل الخطوط الحمر للعلم والدين؟ المشكلة من البداية أن هؤلاء التجار-الطماء بأمنّ الحاجة إلى أقصى قدر من المعلومات وأدقّها حتى لا أكون سببا في خلق عالم ممسوخ يشقى فيه البشر أكثر مما تعذّبوا في النموذج الأصلي.

ثم من أين لي جمع المعطيات الضرورية وأغلبها مبعثرة في فوضى رهيبه داخل ذاكرة مثل مكتبة تكذبت فيها على مرّ السنين والعقود آلاف الكتب والمجلات والأوراق والصور والأقراص المعدنية ولا وقت أبدا لتنظيمها؟

أضف لهذا أنه لكي تكون لمعطياتي قيمة تسمح بنجاح المشروع، يجب أن أكون أنا نفسي فاهما لطبيعة وقوانين العالم المراد بعثه والحال أنني كلما زنت بها علما إلا وداهمني الدوار وأنا أدرك كم أنا بها جاهل.

شيئا فشيئا تراجع فكرة كتابة رواية من الخيال العلمي ليتمّ التخلي عنها نهائيا في هذه الطبيعة والطموح ينحصر في تفحص ما تراكم داخل ذاكرتي من أحداث شكّلت قصة حياتي لعل شيئا من المعنى ينبثق منها ليفسّر -هل ليبر- سبب وجودي.

النص إذن سيرة ذاتية؟

من أين لي إنكار أن أغلب معطياته مستمدة من تجربتي الشخصية وأن مشاعر الراوي وأفكاره هي أغلب الوقت مشاعري وأفكاري؟

لكن السيرة الذاتية تدّعي دوما أنها تروي الأحداث كما حصلت فعلا وهو ما لا أدعي البتة. أذكر حقًا أنني كنت عاكفا على لوحى في الكتاب وأنا لم أتجاوز الخمسة، أعبت برسم أشكال جديدة للحروف التي بدأت أتعلمها فصرخ في وجهي المؤيّب بشدة لألتزم بكتابة حروفه هو لا حروفي أنا. لكن، هل كنتُ فعلا أبحث عن تجديد أبجدية لغة الضاد أم أنني كنت ألهو ككل طفل في ذلك العمر؟

أذكر كذلك أنني كنت أعب لعبة المعلم مع والدتي القنفا الحروف التي اتعلمها في الكتاب. لكن، هل كان الأمر للهو أم يطلب منها لتتعلم قراءة المصحف لأنها لم تدخل يوما مدرسة؟ أذكر جيّدا أنها قالت لي يوما ضاحكة إنني كنت أصنّف متخلفا ذهنيا عند دخولي المدرسة الابتدائية، قبل اكتشاف ضعف بصري وأن والدي غضب غضبا شديدا لما علم بالقصة. لكن هل صحيح أن المعلم نصح والدتي بأخذني لتعلم رعي الخرفان عند أخوالي وأورعي البعير عند أعمامي أم أن خيالي أعاد صياغة القصة برمتها؟

لم لا، فالذاكرة ليست خزّانة تتراكم فيها ملقّات يجمّدها الزمن ويمحوها النسيان. هي تنظيم مستمر، يصقل فيها الحاضر ملقّات الماضي، يُعيد تكوينها وترتيبها وإضفاء معانٍ جديدة عليها.

أليس هذه حال كل السيرة الذاتية التي يكتبها أصحابها والتي يكتبها المؤرخون لعلياء القوم، والكل يتبارى في إنكار ما لا ضرورة لإنكاره، أي أن حيلتها، كما نعيشها وكما نرويها، مصنوعة بنفس القدر من الواقع ومن الخيال؟

من تقاليد كتابات السيرة الذاتية أيضا تحديد أماكن الأحداث التي يرويها الكاتب، خاصة احترام تسلسلها الزمني.

كل هذا غائب في نص هدفة التمتع في مراحل مفصلية من حياة الراوي لا رواية لسلسلة أحداث تنطلق من الطفولة إلى الشيخوخة.

النص إذن ليس سيرة ذاتية بالمعنى المتعارف عليه، لكن هل فيه ما يجعل منه رواية أدبية؟
حقاً توجد فيه جلّ العناصر المطلوبة في كل رواية كأن كانت أسطورة مقدسة أو قصة بوليسية.
كما هو الأمر في كل رواية، هناك بطل وهو مزيج من الأنا ومن شخص خيالي. هناك عدة
أشخاص يلعبون دوراً ما في تسلسل الأحداث. لرسم صورهم عرفت كما يفعل كل الروائيين
من بعض من عرفتُ وعاشرتُ من البشر، لكنني عرفت أيضاً من خيالي ومن شخصيات
أبطال كبرى الروايات العربية والعالمية التي طبعنتني بطابع لا يمحي.

كما هو الأمر في أغلب الروايات هناك -بعد الوصف المطول لكل ما عانى البطل من الألم
وعرف من مصاعب-خاتمة بل وسعيدة أيضاً منها تواصل رحلته في كم من عوالم مبهمه.
يبقى أنه من الصعب رغم كل هذا تصنيف ما ستقرأ رواية.

القاسم المشترك بين هذه الأخيرة والسيرة الذاتية أنه من النادر أن يكون هاجس الكاتب
المسائل الفلسفية الكبرى التي سماها دستوفسكي الأسئلة اللعينة.

إنها إشكالياتٌ إما غائبة تماماً أو يقع التعرض إليها عرضاً وتلميحاً. كيف لا وهي في
التقسيم المصطنع الذي اختلفناه للتقريب بين ميادين الفكر من مشمولات كتب الفلسفة
(الموقوفة كتابةً وقراءةً على النخب) أو من مشمولات الدين (الشكل الأدبي والشعبي لهذه
الطسفة). لذلك لا مجال في السيرة الذاتية والرواية للتنظير الفلسفي إلا بصفة عرضية
وبتقدير شديد.

حتى دستوفسكي المعروف بكثرة استطراداته الفلسفية في كبرى أعماله الأدبية كان يحترم
هذه القاعدة العكس تماماً هو ما يفعله أو -بالنسبة إلى البعض- ما يرتكبه النص.

هو من البداية إلى النهاية تفكير في هذه الأسئلة التي أخرجها إيليا أبو ماضي في طلامسه
لشهيره. بل ويمكن لناقد أن يذهب إلى أبعد من هذا وأن يقرر -غير بعيد عن الحقيقة- أن
النص بمجملة تأمل في هذه الطلامس وكل الأحداث التي يرويها الراوي استمدتها من ذاكرته
أو من خياله مجرد أمثلة وحالات للتدليل على آرائه بخصوصها.

"الرحلة" إذن أطروحة فلسفية؟ طبعاً لا .

شكلاً حافظَ النص في جزء منه على روح السيرة الذاتية وفي جزء آخر على بعض
مكونات الرواية وكل هذا غير وارد في النصوص الفلسفية "الجديّة".

مضمونها هو ليس ردّاً على آراء فلسفية لهذا الفيلسوف أو ذاك وليس محاولة للتسويق
لنظرية جديدة استناداً لكم هائل من الاستشهادات والمراجع. هو فقط جملة من التصورات
لفيلسوف عصلمي أو هاوي.

إذن ما هذا النصّ الذي تتواجد داخله بنسب متفاوتة مواد السيرة الذاتية والرواية
والتصورات الفلسفية؟ ما هذا النصّ الذي يرفض وضع الحولج بين الواقع والخيال، بين
الذاتي والموضوعي، بين الجدّ والهزل، بين سفايف المشاغل الفردية والتفكير في القوانين
العامة التي تسير الكون؟

صراحة أية أهمية لتصنيفه في هذه الخانة الأكاديمية أو تلك؟ أليست متعة الكتابة بالنسبة إلى الكاتب أهم شيء و متعة القراءة بالنسبة إلى القارئ كل المطلوب؟
خاصية أخيرة لهذا النص الصعب التصنيف. هو متواصل الكتابة منذ أكثر من ربع قرن. كنتُ أعتنم حتى وأنا في الحكم، كل الفرص بين اجتماعين، بين سفرتين، بين أزميتين سياسيتين للاختلاء بالنص ولا مُعين إلا القهوة وموسيقى باخ.
نتيجة الانقلاب الذي حصل في تونس صيف 2021 والحكم على غيابا مرتين بسنوات سجن عديدة ، ها انا من جديد في المنفى ولي كل الوقت لمراجعة الطبعات السابقة التي صدرت ورقيا في دمشق سنة 2002 و 2010 ثم في تونس سنة 2014 والتي تغيرت لا يحصى من المرات في الصيغ الالكترونية.
أسباب هذه الكتابة التي لا تتوقف؟

هناك طبع صاحبكم من عدم الرضا عن كل ما يكتب، يلاحق ناشرا متزايد نفاذ الصبر حتى والمكاتب في المطبعة. لا شك ان سهولة الإضافة والحذف والتصنيف التي تسمح بها التكنولوجيا الحديثة عنصر مسهل ومغري لم يكن في متناول طه حسين وهو يملئ كتاب "الأيام" وليس لمستكتبه إلا الورق والقلم والمحبرة.

وأيضاً أن الحياة بتجاربها المتلاحقة لازالت متواصلة ومن ثم ضرورة مواكبة النص لموضوعه إلى نهاية الرحلة .

ما أتمناه أن يجد القارئ في قراءة هذا النص بعض المتعة التي وجدتها في كتابته وخاصة أن يجد نفسه في كتاب طموحه أن يروي في المتغيرات رحلة ذات وفي الثوابت رحلة كل ذات.

**

الكتاب الأول

الاحرام

جَنَّتْ لَا أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ وَكَيْتِي أَتَيْتُ
وَلَقَدْ أَبْصَرْتُ قُدَامِي طَرِيقًا قَمَشِيئِثَ
وَسَأَبَقِي مَاثِيئًا إِنْ شِئْتُ هَذَا أُمُّ أَتَيْتُ
كَيْفَ جَنَّتْ كَيْفَ أَبْصَرْتُ طَرِيقِي
أَسْتُ كُدْرِي

إيليا أبو ماضي

مقدمة الكتاب الأول

ألهم أتمم هذه الرحلة على خير.

همس الرجل بالجملة ساهماً، ثم تنهد مواصلاً ارتداء أسمائه على مهل وقد انتهى الفحص. كلن عجوزاً قاب قوسين أو أدنى من الموت، ولم يكن لي أو له أدنى أمل في شفاء. أذكر أنني توهمت عن كتابة الوصفة، أنني نظرت إليه بانتباه، أن كلمات تدافعت من أعماق الذاكرة لشاعر قرأت له أكثر من بيت في نفس المعنى، منها قوله:

وهوّن ما تلقى من اليأس أننا بنو سفر أو عابرون على جسر
وقوله

غدوت مع الأحياء مذحان مولدي إلى اليوم ما ننفك في دأب سفرنا
وقوله:

أنا بالبليلي والحوادث أخبر سفر يجبّ بنا وجسر يجبر

لم يكن المريض من النوع الذي يقرأ لرهين المحبسين وإنما كانت صلته صدى لصورة بلغة القدم، كثرة التكرار تشارك فيها الأميون وكبار المفكرين والشعراء.

ألم يقل عمر الخيام؟

”هيا لنذع غم غد يا صاح

ولنغتم العمر ببشر وهناء

إن نمض غدا فنحن في رحلتنا

والعائش بالألوف في الدرب سواء”

ألم يقل ابن عربي هو أيضا في نفس المعنى “الواجب على كل عقل أن يعلم أن السفر في الحياة الدنيا مبنّي على المشقة والمحن والبلايا وركوب الأخطار والأهوال العظام”

الحياة رحلة مجالها العالم بكل اتساعه؟!

لم لا؟

لكن ثمة في هذه الصورة الشائعة المغربية شيء لا يستسيغه فكري.

حقا هذا عالم فيه ما يُستكشف تنقلا بالأقدام، لكن جلّ استكشافه له كان لقمم الفن والفكر والموسيقى والأداة الذهن لا غير.

أضف لهذا أن رحلة الحياة استكشاف الذات لذاتها، وهذه ليست سفرة في مكان وزمان وإنما غوص بالفكر والخيال في طبقات الذاكرة التي يطفو الأنا الواعي على سطحها.

هي تجارب حسية شعورية فكرية قوامها الفعل في العالم والتفاعل معه لا مشيا على طريق يربط بين نقطة وصول اسمها المهد ونقطة نهاية اسمها اللحد.

ما المتبقي إذن من شرعية استعمال الصورة؟

لنقل إنها على نواقصها أفضل من منقساتها. أليس من الأحسن لتوازننا النفسي أن نتصور العالم سلحة استكشاف والحياة رحلة فيه ولو في أصعب الظروف وأخطرها بدلا من تصوره منفي ووجودنا فيه محنة وامتحان وحتى عقوبة على جرم لم نقترفه إلا في خيال مهوسين؟

وفي كل الحالات من أين لي مقاومة إغراء الصورة وقد شاءت الأقدار أن أدخل هذا العالم والأميون يتدافعون فوق الأرض وفوق السحب، على سطح البحر وفي أعماقها، يذرعونه في كل اتجاه بكيفية لم تُعرف في أي من العصور السابقة.

هم ليسوا وحدهم في هذه الحالة. كل الكائنات الحية في حلّ وترحال أزليين أكان رحيل قطعان الحيوانات البرية على سطح الأرض أو قطعان الحوت في أعماق المحيطات أو أسراب الفرائس و الطيور في السماء. بل تكتشف وأنت تتطلع بالبصر والبصيرة لما فوق هذه السماء أن أجرام الفضاء من كواكب وكويكبات وشموس ومجرات تتدافع هي الأخرى في كل اتجاه وكان القانون لا ثبات لشيء أو أحد على مكان أو على حال. وراء الوضع ظروف وأسباب قاهرة تفرض إرادتها على كل الكيانات وكل الكائنات وعلى رأسها الكائنات الأمية.

فبخصوص أوائلنا هم تدافعوا طوال مئات آلاف من السنين في الأرض ذات الطول والعرض جريا وراء طريدة أو هربا من صياد. وأيضا بدافع من أهم خاصية عند الادميين: الفضول.

تنتشر الإشاعة كالنار في الهشيم في مخيمات الرّواد المبعثرة على سطح الأرض: يقال إن هناك وراء هذا المكان الذي ولدنا فيه جبال تلامس قممها السحاب! يقال إن هناك وراء هذه الجبل بحر لا تعرف له ضفاف! يقال إن هناك في قارة أخرى غابات لا تدخلها أشعة الشمس! يقال إن هناك داخل هذه الغابات الخائفة كانتات أغرب من كل ما ينسج الخيال! يقال إن هناك على ضفاف نهر أبلى الزمان جبال من حجر صنعها بشر لا أحد يعرف آية آلهة علمتهم صنع الجبال! يقال إن هناك على حدود العالم المعروف جدار يمتد آلاف الكيلومترات بناه قوم لا يضاهيهم بشر في التوحش والتحصن! يقال إن هناك وراء هذه الصحاري أو تلك بشر يشبهوننا ولا يشبهوننا وهم أغرب ما في هذا العالم الغريب!

للرحيل وازع هام آخر هو التبادل: تبادل الجينات والبضائع والأفكار والعادات والتقاليد وكل ما نتشارك فيه ويجعل منا بشرا بالخصال وبالعيوب التي نعرف أحيانا وليس أخرا الحجّ لأماكن اصطفاهم الأميون لموعد مع المقدّس ناهيك عن كونها الأماكن الوحيدة المنزوعة السلاح على الأقلّ طيلة أداء الطقوس.

لا غرابة أن اقضى العمر في الحلّ والترحال ولنفس الأسلب القاهرة.

هكذا تدافعت مع المتدافعين، مغامرا، طالب علم، سائحا، حاجا، لاجئا، أشدّ الرجال إلى كلّ فجّ عميق اسمع عنه أو تدفعني إليه الظروف القاهرة... ونصيحة الشاعر نوما في لوجدان:

سفر تجد عوضا عن تفارقه *وتعب فإن لنبيذ العيش في التعب (الشافعي)*

اني رأيت وقوف الماء يفسده
 والشمس لو وقفت في الجو دائمة
 والاسد لولا فراق الغاب ما اقتربت
 والتبر كالترب ملقى في معادنه
 ابن ساح طاب وإن لم يجز لم يطب
 لملها الناس من عرب ومن عجم
 والسهم لولا فراق القوس لم يصب
 والعود في أرضه نوع من الحطب

تسلم يوماً أنك مهما سقرت بالجسد فلن تكفيك حياة واحدة لاستكشاف ما يحفل به العالم من روائع. هنا تتقّم القراءة كحلّ لشعور الغبن وكبديل لعجزنا أمام اتساع المكن وضييق الزمن المخصص لاستكشافه.

أليست بديلاً عن السفرات التي لم يمكّنّا حسن الطالع التمتع بها؟
 ألا تُوفّر علينا جهد الهرولة لكل مكان قصي والراوي هو الذي تكفل بكل المخاطر والمتاع؟

ألا تفتّح لنا نولت من لا نعرف من الأدميين فسنتكشفهم دون أن نُثّم باستراق النظر من ثقب المفاتيح والتجسس على أسرار الناس؟

ألا نتأكد إبان هذا التجول في الذات الأخرى أننا نختلف عنها ولا نختلف كثيراً، فنطمئن لكوننا لسنا وحدنا العالقين في عالم يبدو بلا منفذ لأحد، وأتأملنا أحسن، أو أسوأ، أو أكثر ضياعاً من بقية البشر؟

داخل الملفات التي راكمتها في الذاكرة هاته القراءة كم من رحلة عشتها وأنا أكبر مغامر امتطى مطهم النصوص استكشف المستكشفين بقدر ما استكشف ما يستكشفون.

هكذا ارتحلت مع بحارة حنّسبوت سنكشف بلاد كوش ويونت مع حنون سنكشف للشواطئ الغربية لإفريقيا، مع ابن بطوطة لما خرج من طنجة ميمّما وجهه نحو الشرق مع ابن جبّير إلى ذلك المرفأ النتن على سحل البحر الأحمر أنتظر مركبا قاصدا البيت الحرام،

مع التاجر سليمان السيرا في البصري في رحلته إلى الصين ، مع الشيخ الأكبر والشريف الإدريسي والكتاني البلنسي وابن سعيد الأندلسي وابن جزّي وابن الخطيب وهم يتلمسون عبر أهوال البحر والصحراء طريقهم نحو الديار المقدسة، ومعهم اكتشفت معالم الطريق العظيم الذي حمل على مرّ القرون أفواج الحجاج والتجار والطلبة من المغرب إلى المشرق، وجحافل الغزاة والرعاة والدعاة من المشرق إلى المغرب.

ارتحلت مع الاميرال الصيني المسلم تشنغ خه من مقاطعة شانشي بحثاً عن طريق يوصل الاسطول الضخم إلى مرفأ شبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر وشرق إفريقيا .

ارتحلت مع ابن فضلان تُأمل معه مشدوها أراض بردها لا يحتمل شتاء ولا تعرف ما الليل عند مجيء الصيف، مع ابن سليم الأسواني وهو يستكشف بلاد التوبة مع ابن البيطار من مالقة إلى نمشّق عبر القيروان متقباً في أسرار النبات مع البيروني ابحت معه عبر

ربوع الهند في معتقدات أميها المقبولة منها والمردولة، مع المجريطي أنقب في بغداد والبصرة عن رسائل اخوان الصفا أعود بها أتمن غنيمة .

ارتحلت مع ماركو بولو نضرب في عرض وطول إمبراطورية كوبيلاي خان ، مع منسا موسى من صحاري مالي إلى بيت الله الحرام أوزع الذهب وأبحث عن العلماء ، مع كولومب شعاره شعاري: أروع السفرات تلك لا نعرف إلى أين ستقودنا، مع فزيوشي وماجلان وإلكانو وبارتوليميو دياز والقراصان فرانسيس دراك وجون سميث وكوك وبانكس وبوقفيل ولابروس وكل من حركهم الجشع للذهب والتوابل أو لدرة صفراء اسمها الغير سماها الأوائل دمعة الآلهة.

ارتحلت على متن “البيجل” اراقب ما يخطه بعصية رجل اسمه “داروين” ومع بييري وماندوسن ونوبلي وشكلتون أستكشف معهم القطبين.

ارتحلت مع مارجريت ميد وجامس فرازر وكلود ليفي شتراوس ، هدف الرحلة استكشاف أنماط غريبة من البشر نحاول الردّ على سؤال وهاجس: هل عادات” البدائيين” والمتوحشين” ومعتقداتهم هي طبيعة الأوائل النواة الصلبة للطبيعة البشرية التي لم تقسد بما نسميه التحضّر.

آخر رحلة لي بلوكالة -والمطية فيلم وثلقي - كانت مع أغرب قافلة اخترقت الصحراء في قافلة محرّمة على الرجال ليس فيها إلا نساء قبائل التّبوء يتاجرن في الماعز والتمر والرسلة التي لا يغفل عنها لبيب أن حبّ السفر والخطر غريزة عميقة عند البشر ذكورا وإناثا وإنما هي التقاليد البالية والعادات البغيضة التي منعت نساننا من تجهيز القوافل. يا للخسارة، كم ضيّعنا من رحلات مثيرة والعالم لا يتجلى إلا عبر عيون الذكور !

يواصل العالم، مهما سافرت بالجسد، بالقرءة أوبمشاهدة الأفلام الوثائقية، تحنّيك باتساعه الأخرق.

تسلّم يوما أنك لم تترحل إلا على الزبد والمحيط الذي طفوت فوقه إلى الأبد مجهول. كم من بحيرات نار ونور لم أصلها لأمل العينين منها وهي تتلاطم في أشداق البراكين! كم من أعاصير وصحار وجبال وغابات وسهول لم يكحل جمالها عيني! كم من كانت مدهشة جانبيها وجانبيتي لا التقت إليها ولا تعيرني أدنى اهتمام! كم من أثار رائعة كدسها الأميون على طول الطريق لا علم لي حتى بوجودها! كم من جزيرة ساحرة تختبئ في أعماق المحيط لم ألجأ إليها ولم أغادرها مودعا ببقاء السكان ومن يبتلعه الموح يحسب في عداد الأموات! كم من روائع لم يقبض لي تأملها فما بلك بالتمنّع بها، كم من مغامرات مثيرة لم يقبض لي الحظّ أن أعيشها وحتى أن أسمع بها! يا إلهي كم من روائع مرّت أمامي تهيني عطاءها ولا أنتبه لها، كم من رسائل رماني بها العالم لم أفهم لها معنى!

أه لو تسعفني الأقدار بما يكفي من الزمن لأتفحص أجنحة الفراش اعجاز الصنع وعجز الكلام عن وصف المصنوع. جناح الفراش دون شك أروع أقسام متحف الله ولم أرى منه إلا النزر القليل القليل من نماجه.

ومع هذا يا للحصاد!

يا للوليمة والعالم رمل الفجر، عشب بلّله قطر الندى، شعر الحبيبة الدفء بعد الركض في وجه الإعصار والمطر!

يا للوليمة والعالم روائح الحبق والنعناع والياسمين والورد، حدّث ولا تسلم عن عطر النساء!

يا للوليمة والعالم طعم التين ولتمر والزيتون، الخبز الساخن للوجع والماء الزلال للعطش!

يا للوليمة والعالم خريبر ماء السواقي، صفير الريح في صارية السفن، الصوت المهيب للرعء، الرقيق للناي، نداء عشق حستون اعلى شجر التوت، ضحك النسوة والأطفال، غناء هلمس لجدة تغزل، أذان الفجر بصوت رخيم يأتي منابيا للاحتفاء بيوم جديد!

عجبي ممن يتدافعون إلى المتاحف منبهرين بلوحات جامدة أو يفاخرون بما يمتلكون منها، والفنان الأعظم يضع على نمتهم، مجاناً، في كل لحظة، النماذج التي يقلدها أتبع الرسامين: قرص ذهبي يخرج من وراء التلال، من خلف السحاب، من لجة الظلام، يختفي في خضم البحر، يخرج منه غير مبلل، هضاب متموجة من الصحاري الصفرة والبيضاء، أمواج متلاطمة توجت هامتها بالزبد، نهر جبار يشق طريقه بحذر بين الأدغال والرمل، بحيرة صافية تكشف الكائنات في جمالها الوديع أجمل الصور، ورقة خريف ركبت ظهر الريح جاعتها شهوة السفر، سهول شاسعة ملتحة بالأبيض أيام وصالتها مع الثلج أو بالخضرة أيام موعدها مع الربيع أو بصفرة الذهب حين تأتيها حرارة الصيف بالشتيق، جبال منكبة توجت قممها بالسحاب والثلج، أدغال كثيفة تنصب عرقاً تحت سماء بلون الرماد، بدر يرسم على صفحة البحر نهراً برقا موجه من ساطع النور، سماء تتلألأ بجواهرها ليلاً. وأيضاً كم من كائنات تنبارى في الغرابة والإعجاز تزحف على البطن، تطير في السماء، تغوص في أعماق الماء، تمشي على أربعة أو على طرفين، وأغريها على الاطلاق الكائنات التي تسمى البشر.

كل يوم جديد والرحلة وليمة الفكر والذهن منبهر أمام طفرة اللامتتاهي صغراً واللامتتاهي كبيراً واللامتتاهي تعقيداً، أمام عالم يفيض بما لا يحصى من أسرار تفتح على ما لا يعدّ من الألغاز وكأنّ صاحبها يلاعبنا ولسان الحال منه يقول: معي لا خوف عليك من الملل.

كل هذه الأحاسيس والمشاعر التي جرّبت، كل هذه التصورات للعالم التي أمّنت بها في تفاعل متواصل صعب وخطير مع بني جنسي وبني جلدتي! كل هذه الأفكار التي تلاطمت داخل ذهني أمام حيوية فائقة تغتفر، تضيف، تحسّن، تعيد باستمرار ترتيب شؤون هذا العالم!

كل هذا التعجب والاعجاب والذات تنتقل من مفاجأة إلى مفاجأة، تنتقل بين الرهبة والخشوع، بين الحيرة واليقين!
نعم، إنه حصل تعجز عن وصفه أكمل لغة يطوِّعها أفصح لسان لأنبغ مفكر أو شاعر.

تأتيني يوماً فكرة التدوين لهذا الحصاد، للرحلة بمفهوم المعزّي لا بمفهوم ابن بطوطة. أهرّ الكتفين استهزئ من نفسي وأشيق عليها وقد أصيب الفكر بالإحباط لمجرد تخيل ما يتطلبه مشروع كهذا.

من أين للسرد أن يجتد في رواية رحلة الانسان في هذا العالم وقد رويت قبلي بكم من لغة وأسلوب؟

من أين للوصف أن يصف عالماً لا يستنفده وصف؟
من أين للتعليق على وجودنا فيه أن يقول كلاماً ذا قيمة في عالم سقّه كل ما قيل فيه من أقوال؟

أستارع الى رمي الفكرة في سلة مهملات ذاكرة فاضت بالملفات المتروكة، منها مشاريع الطفل بالمشي فوق سطح الشمس، ومشاريع المراهق بتخليص الإنسانية من كل النواقص والآثام، ومشاريع الكهل بالوصول إلى الحكمة المطلقة وكم من مشروع آخر تكفّت ظروف الحياة بواده بكراً بعد انضاح استعصاء تحقيقه للمعروف وغير المعروف من الأسباب. فتنتعل الفكرة الامتثال لأمر التلاشي. تلتجئ إلى أعماق اللاوعي سنينا ثم تعود إلى السطح مدججة بحجج تقتعل مطلق الثقة في مقولاتها، تبحث عن حجج ترسي عليها حججها، وعن حجج ترسي الحجج التي أرسيت عليها الحجج.

أليس أول هدف لكل رحلة أن تعاش والهدف الثاني أن تمشي بنكرها الركبان وتنتقلها الأجيال؟

أليست أفضل رحلة هي رحلة البحار الذي غرق لا فقط لأنه فشل في الحفاظ على وجوده وإنما لأنه لم يعد ليروي كيف هو البحر؟

ألم أجد فيما خطّه لي كبار رحالة الماضي ما أبعد عني أخطاراً كثيرة ووقّر عليّ كم من مشقات؟

لماذا لا تساهم خلاصة تجربتي، على تواضعها، في تحسين "خرائط" العالم علّ الأمر يفيد ولو قليلاً رحالة الأجيال القادمة؟

وأيضاً لماذا أخفي طموح المساهمة في كشف الأسرار التي تزوّق المفكرين منذ القدم حتى ولو أدّى الأمر لمزيد من خلط الأوراق؟

ألم أجعل شعاري في الحياة قول الشاعر: "على قدر أهل العزم تأتي العزائم"؟
يتواصل الشدّ والجذب بين الرغبة والرغبة والرغبة.

يصمت النقاش سنوت، ويوم لا أتوقع يعود السجل بذرائع أخرى.

لماذا لا تكون الكتابة فرصة للخروج، ولو مؤقتًا، من صراع استنزاف طاقاتك طوال كل هذه السنين، للقطع مع خصومات تافهة لا تنتهي، للخروج من حلقة لا تنتصر فيها، للتمتع فيما أبصرته يوما ولم أنظر إليه إلا ندرا، لتصالح ذاتي مع ذاتها قبل آخر منعرجات الطريق؟

هل هذه الحجج هي التي رجحت الكفة والفكرة ترفض يوما العودة للأعماق، فانقلب ميزان القوى لصالحها؟

ربما حصل الأمر للذة رفع تحدّ أخرج ألقية على نفسي، ربما لترايد حدة الشعور بقتراب الأجال المحتومة وضرورة استجماع شتات ذات مهتدة بالتفكك، أو لسبب تحركه قوة مجهولة تحقيقا لهدف لا تعرفه إلا هي.

وفي كل الحالات متى كنا بحلجة لأسباب والفعل هو الذي يوجد لنفسه ألف تبرير! يخذ القرار يوما وينطلق التودين يستعرض ويتخصّص ملفات تراكمت في الذكرة عن صورة متماسكة عن رحلة الحياة تثبتق من الفوضى التي بداخلي والتي تحف بي من كل حذب وصوب... وكل محاولة تنظيم لا تنجح إلا في إعطاء هذه الفوضى شكلا جديدا.

اليوم 600 14 من الرحلة

**

أترتحل في علم أم في علمين؟

التدوين نعم، لكن لأية رحلة؟ التي نعيشها ابان اليقظة...أو التي نعيشها ونحن نغط في النوم؟

كم غريب أن من سبقوني في أدب الرحلات لم يدونوا للرحلة العجيبة التي نسافر ها كل ليلة! ربما أحبطوا وسقط في أيديهم وهم مطالبون بالتدوين لسفر بلا حراك، بلا طريق، بلا دليل، بلا ذكريات ملموسة تعود بها تثبت أننا لا نكذب ونحن نروي ما شاهناها فيه من غرائب وعجائب؟!

وفي أقدم ملفات الذاكرة عن رحلة الليل، يتابع الطفل بصمت قلق التنفّس البطيء لشقيق راقد جنبه يرفض الرّد على كل استفزاز معرضا عن مواصلة اللعب. كم مرّة وضع يده على الجسد المسترخي جانبه والسؤال بل قل الهلجس حتّى في ذلك العمر، إلى أين يذهب هو وشقيقه عندما يظلبهما النوم؟

تتملّص حتّى “أمّ” من الرّد عليه. لما تقضّل يوما “ب” بالرّد، تقامت حيرة الطفل بل اتلعت فيه أولى المخاوف وأعقها.

ماذا لو تاهت هذا النفس التي يتحدّث عنها والده في الأماكن المجهولة؟

ماذا لو ضلّت الطريق وهي تتحسس في الظلام طريقها للرجوع إلى الجسد الساكن؟

ألا يمكن أن يستيقظ في فراش غير فراشه، في بيت غير بيته، بين ذراعي أم غير التي رضى بها ورضيت به؟

يداوي الطفل قلقه من الاحتمال الرهيب بتصوّر حيل شفّاف متين تربط “أم” طرفه كل ليلة في وتد من العالم المألوف وطرفه الآخر حول رسغه. لكن ماذا لو تقطّع الحبل وبقيت النفس سجينّة العالم العجيب؟

لا غرابة أن ترعبه هذه الإمكانية وأن يتشبّث أطول وقت ممكن بالعالم الذي ألفه رغم ما ينضح به حتّى هو من غرابة ومن مبهم الأخطار.

في بعض أقدم الملفات ينذرني شيء في داخلي بضرورة إغلاق العينين حالا، دون مزيد من التسويف والمماطلة. أفتعل تجاهل نفاذ صبر الأمر المجهول فتحافظ اليدين على الكتاب المفتوح تتصفحانه بتؤدّة مقصودة. يتصاعد منه الإلحاح ومثي المشاكسة. أشعر به قد غير اللهجة والأسلوب ليمرّ إلى منطق الإلزام.

يسقط الرأس-المرة تلو الأخرى-على الصدر فأعيد رفعه إلى الأعلى كلّ مرة كأنني أرفع صخرة إلى عنان السماء.

إنها بداية نزعة التمرد على كل سلطة تلمر وتتهى لا تكلف نفسها شرح الأسباب.

يتواصل الصراع غير المتكافئ بين طفل عنيد نشأ على كبرياء غريزي، وعالم له القدرة على كسر شوكة كل متكبر عنيد. تأتي لحظة الهزيمة والرأس أخيرا على الصدر لا يجد

رافعا إلى الأعلى إلا بدا عطوفا تضعه على الوسادة تزيح الكتاب، تطفئ القور وتغلق الباب بكثير من الحذر وعلى محيا الأيم ابتسامة مشفقة أمام طفل مغلق راحته على حجرة هيبات أن تتفع في صدّ الكوابيس.

نعم أين نرحل كل ليلة؟ من أين نرجع؟! لمانا نبقى إلى النهاية في ذهاب وإياب بين... بين ماذا وماذا؟!

توقّف عند بعض الخصائص المميزة لرحلة الليل هذه. أنت لا تمتثل لأمر الرحيل في أي مكان. عليه أن يكون مخبأً آمنًا تستودعه- بكل ثقة جسدا فقد تأهيه للكرّ والقرّ دفاعا عن وجود على الدوام مهّد.

من هذه الطقوس أيضا التخبّف من جلّ لباس رحلة النهار إذ لم يعرف عن "الفضاء" الغريب الذي سترحل قل الذي سترحل-إليه أنه يتطلب شمسية أو معطفت فرو ثقيل أو ملابس سهرة أو حتى درعا وسيفا.

حقًا، هناك من يرددون وسلاحهم تحت الوسادة، لكن من فرط الخوف أن يفاجئهم الصيّدون في عالم اليقظة لا تحسبًا لما سيلقونه من أعداء في عالم المنام. ثمة بالأساس ضرورة التخبّف من صدى هموم هنا "الواقع" والأمر ليس دوما بالسهولة التي نردّ.

وفي ملف عن زمن قريب، يتصاعد من الشارع المظلم عويل امرأة تخرج منذ شهر في آخر هزيع من الليل، تنزع الشارع، تصرخ بأعلى صوت، تشتم ناعمين ومستيقظين تحصنوا داخل عمارات منغلقة على خوف صامت. أضع المخدّة فوق أنفي مبتهلا لكل آلهة الأدميين وشياطينهم أن تكفّ المرأة عن تعذيب نفسها وتعذيبي.

تعطلّ المصعد الذي يرفعها ويرفعني عادة نون جهد إلى الأعلى المجهولة. مصعد؟ تغزو الخيل صورة أكثر حداثة.

تنشطر الذات إلى مراقب بصدد تنظيم عملية الرحيل نحو المجهول رغم رداءة الأحوال النفسية وراكب نافذ الصير يريد الإفلات بأي ثمن من صراخ لم يتطوع أحد من سكان العزلّة لإسكاته بطلاقة رصاص رحمة بالمرأة، بالجيران وبني.

يتوجّه المراقب المشرف على عملية إطلاق "الصاروخ":

- هنا برج القيادة. الوضع داخل هذا البليد؟

- كلّ المؤشرات في الأحمر.

- استحضار الصور البليسية.

ذراعان رقيقان يلتفان حولي... شعر كالحرير يداعب خدي... تنفّس بطيء يبعث في هدوء... كلمات خافتة لا أدرك ولا أبحث لها عن معنى.

- تقرير فرق الإطفاء؟

- بؤرة أخيرة من التوتّر صعبة الإخماد.

- استحضروا صور الطفلة.

تتسلل تفلحة أو تفحجة من فراشها نصف نائمة، إصبعها في فمها ودميتها مضمومة إلى الصدر. تتسلق الفراش، تحشر جسمها الصغير بين الجسمين المتعاقبين. تبدأ توسيع مجالها الحيوي يدفع رقيق. ترتسم ابتسامة على وجه الرجل المنشج. تتحرك شفتاه بحثا عن الراحة المفتوحة لقبلة أخيرة. تتساقط قطرات المطر رقيقة على النافذة فتطفئ باقي الجمر الملتهب داخل الروح. تأتي الرجل المترايب الأرتخاء قشعريرة برد لذيدة فيحكم حوله الغطاء.

- التقرير.

- انطفاء أغلب المؤثرات الحمراء... لكن ما زالت هناك بعض يؤر تؤثر.

- استحضار آخر وسألنا.

يرفع الأب يده يبحث في الظلام عن شعر ابنته، فيلمس شعر دمية دائمة الصمت.

تتمسك الذوات الأربع أخيرا للطمأنينة، والرجل بين ذراعي المرأة، والمرأة بين ذراعي الرجل، والطفلة محشورة بينهما، والدمية "إيتي" تتوسط الأجساد الحية، تبعث فيها وتمتص منها ببالح الحذر شيئا ليس للغة مصطلح عنه ولا للقصة حاليا فكرة عن طبيعته.

يدير الرجل أخيرا ظهره لعالم لم يعد يعنيه من أموره شيء.

يتواصل همس غير معروف المصدر والهوية.

- الآن كل شيء على ما يرام.

- إقلاع.

نعم لكن أين نصل بعد نجاح عملية الإفلات من قبضة "الواقع"؟

كأن هذا الذي ترخل إليه ليلا مصنوع من ضباب الفجر، من سحب خفيف، من دخان السجائر. داخله لا مكان للألوان الفاقعة، للخطوط المستقيمة، للأضلع الحادة. كل شكل فيه يبدو من رسم بيكاسو وشاجل وماجريت.

هل الفن صدى لما تكتشفه الذات وهي في رحلتها هذه، في تجربتها العجيبة هذه؟ لم لا؟ ألم نهزب من فضاء الحلم أيضا فكرة الأخرى والأشباح وكم من أفكار أخرى تتحكم في حياتنا "العادية" ونحن لا نعي.

ها قد أصبحت الذات، "الآن" و "هنا" شكلا لا شكل له، شكلا تخفف من خصائص الشكل، فكرة مبهم لا تتذكر أنها عرفت شكلا غير الذي هي عليه الآن، شكلا ضاعت ملامحه الأصلية.

قل لحد من أنه الرحالة: "حملت ذات مرة أنني فراشة. فمن أنا؟ لا وتسو يحلم أنه فراشة أم فراشة تحلم أنها لا وتسو؟"

الذات الآن وسط حشود من الدمى في بعض المتاجر الضخمة. تحقّق في دمية تلبس حلة العرس ثم تغمزني وهي تتسّم تصرخ في دمية أخرى مخضبة الشفتين بالأحمر القاني أن أعتم موسم التخفيضات. أية تخفيضات؟ هل أنا أيضا دمية كهذه الدمى؟

تتدافع من كل الاتجاهات بالونيت صغيرة شبيهة بقطرات لضباب أو بفقاع الصلبون. داخل كل فقاعة أنمي بحجم ذبابة متسلقا جدارها للزج يضرب بقبضتيه كأنه يبحث عن منفذ وصرلخه الصامت ينوي في أرجاء العدم.

الديكور هذه المرة نزل نتن في قرية نائية. أصرخ في صاحب الفندق فيعتر عن فيضان المرحلص وأنه سيصلحه حالا. ما يهمني-أيها الغبي-ليس هذا وإنما أن أعرف أين أنا. لا تعلق جيا سيدي-سنتاتي سيارة لتأخذك. إلى أين؟ لا تعلق، السائق يعرف، وفي كل الأحوال يكفي أن تضغط على زر مكتب المحامي في الطابق الثالث؟ المحامي؟ نعم إنه الذي تعرف وتثق به.

جريدة اليوم جريدة البارحة وقبل البارحة ومتصفحها راكب قطار يتوقف دوما عند نفس المحطة ليحييه نفس المجهول على نفس الرصيف بنفس التحية تحت صورة ضخمة لنفس الأشهار في شكل وجه موج لادمي مسك بصدغيه يصدر صرخة محملة بكل ما في العالم من رعب ثم يغرق في بحر من الدم. دمي...النرويج! أين يوجد هذا البلد؟

تتعالى من اللأمحدد همهمة أصوات. يرتفع من فوق سطح الماء رأس آدمي. تنطفئ النجوم لأن يدا ضغطت على زر كهرباء ثبتت في أشداق الحوت. يصرخ في البحر أن أرهب غضبا غير محدد السبب. ترعبي قهقهة تتصاعد من حجرة كلب أعرج. أنحني لأنقط شمسا وقعت على سطح الأرض كما لو كانت عصفورا جريحا سقط لثوه من العش. أنفخ عليها لثنتهب من جديد، ثم أرميها في الفضاء فتتفجر بلضحك.

تحضر الذات مجددا أنها أخفقت ولت عليها إعدة الفرض. تتمرد على عبث ممتحن لا يرحم وامتحن لا نجاح فيه أبدا. تصرخ في وجه مجهول أرفض، أرفض، أرفض. كم مرة يجب أن أعيد هذا الفرض اللعين؟ يأتي الرد صمتا سلخرا ومهددا من مصدر قريب بعيد، ما تتطلبه المهمة من مرات. المهمة! أية مهمة؟ لتذهب المهمة إلى ألف جحيم.

يحرك الرجل الماشي رجلين من حجر ثبنا بالإسمنت على الطريق. يبرز من الضباب وجه أنب يجلل وجهه الجميل شعر بلون الكفن. يرتسم على وجه امرأة مجهولة ربع ابتسامة شاحبة. يبقى الوجهان معلقين في الفراغ. يتصاعد من المسجي على الفراش أنين من يرفع أثقالا لا قبل لإنسان بحملها. تتسع ابتسامة الشبح. يهمس في الأذن: كم أنت مروجع يا طفلي الصغير. يقطب الشبح الأشيب جبينه مستنكرا ضعفا مشينا، ينزاح النقل من الرجلين، يشعر الطفل أن القيد انكسر، أنه يمشى طليقا، أنه يركض خببا، أنه يقفز قفزات جبارة في الهواء، كم يبدو الطريق سهلا والهدف قريبا.

يتجه الطريق نحو فم ثعبان مرعب. أوصل الطواف حول البركة. يعوي كلب مشرف على حافة البئر ويشعر الطفل ألا مهرب له من برائته. يركض هربا والكلب وراءه وكذلك البئر. تنتصب العسارة البيضاء التي تناطح النجوم، أمشي على سقفها متجها إلى الهاوية. فجأة تبرز شجرة سنط شاهرة شوكتها في وجه غزال بحجم حصان، فيركض فزا عا طالبا النجدة. تصرخ جحافل النمل وهي على ظهر الخناجر البيض بأن يبقى الحالم خارج اللعبة وإلا

فإنه هو القاتل. أحنى لالتقاط نظارت سقطت من يد عجوز مرتبك هو أبي عاد من منفاه وتلاقينا على باب البيت عائد أنا الآخر من منفاي. أمام البيت آلاف الناس يحقون فينا بصمت، أدهمهم للدخول فيتدافعون حولنا، تحتج ربة البيت بأن ليس لها ما يكفي من فنلجين القهوة لكل هؤلاء الضيوف. تتعطل محركات الطائرة ويبدأ السقوط نحو البحر. أي ملاذ وقد حضرت الساعة؟

كم من أدمي دخل فراشه هربا من "الواقع" ونهض منه هربا من الكوابيس وهو كل مرة كالمستجير من الرمضاء بلنار!

كل ما نؤوب به من رحلة الليل أشلاء مناظر، أشلاء مشاعر، أشلاء قصص مختلفة من زيارة إلى أخرى، من زائر لزائر؛ والعهدة على ما يرويه كل من نموا وحلماوا واستيقظوا. أعرب ما في هذا الذي "نحط" عليه ونعيش فيه جزءا هاما من رحلتنا أنه ليس له علامات قارة والديكور يتغير من سفرة لأخرى.

تصوّر أنك تفيق كل صباح لتجد الفضاء الحسي مرة بلا شمس ومرة ثائية بأربعة شمس وأحيانا بنصف بشمس خضراء تسبح في سماء بلون الورد.

نفهم عزوف كتاب الرحلات عن وصف عالم خاص بكل مسافر يتلاشى كل ليلة بلسرعة التي ظهر بها.

يبقى أنه للفضاء الغريب رغم كل هذا الإبهام بعض الثوابت، منها أنك أنت لا تستضيف أحدا فيه ولا تتخل حلم حالم.

اللهم إلا!

ربما دخلت "ح" حلمي تلك الليلة صنفه، أو أنني الذي فتحت خطأ الباب الحرام لأدخل حلمها. هل توعدنا على اللقاء في عالم أوضح معلم؟ كيف أفسر خروجها من بين جحافل الأعراب لحظة الموعد وفي المكان الذي لم يكن يوما من الأماكن التي أرتاد؟ هل من باب الصدفة أنني عرفتها من أول وهلة والحال أنني لم أقابلها من قبل؟! لماذا نظرت إلي باستغراب وأنا أتوجه إليها ممدود اليدين لأتابع طريقي مكسوفا وهي لا ترتمي بين ذراعي؟ لماذا استدارت لما تجاوزتها ترمقتي بحيرة كأنها تعترض من ذاكرتها السبب القاهر الذي دفعها للمجيء إلى مكان لم يكن يوما من الأماكن التي ترتاد؟

ما نحن متأكدون منه أنه محكوم علينا أن نغادر كل ليلة ديارا معروفة ولو نسبيا إلى ديار أخرى مجهولة تملأنا، أنه محكوم علينا أن نعود منها لنعود إليها مجددا والمراء كمن يتقافه الموج من عمق المحيط إلى الشاطئ، من الشاطئ إلى عمق المحيط، ثم من عمق المحيط إلى الشاطئ.. وذلك إلى آخر منعطفت الطريق.

وأیضا أنه لا شيء قادر على منع الذات من العودة الدورية إلى "الفضاء" الغريب، وإن منعها أصابها من الأمر عطب خطير قد يؤدي أحيانا-إن طال المنع-إلى نهاية الحياة نفسها. ويبقى أهم سؤال: ما هذه التجربة التي نكررها كل ليلة التي نسميها الأحلام؟

ثمة الأقاويل القديمة عن رسائل مشفرة تبعث بها الآلهة وأخرى عن مخاوف وشهوات
مكبوتة تفوح الأحلام بننتها.

لا شيء مقع فيما تدعي وخاصة لا شيء عن طبيعة هذا الذي نشد إليه الرحال كل ليلة.
ماذا لو جعلنا منه "مكان" صيانة ذات ينهكها صراع الوجود ولا بدّ من العودة إليه دوريا
للراحة ولأشغال الصيانة الضرورية.

تصوّر أباد خفية تسلم الذات حال دخولنا الإغفاء لتترك هنا أو ساخ الدهن وتنظف هناك
أوجاع الروح. بعد نهاية الحمام يأتي أمر الخروج إلى الواقع والعودة للصراع.
فكرة أكثر راديكالية. لماذا لا نجعل من هذا "الفضاء" ورشة إصلاح العالم نفسه ينمّ فيها-
كل ليلة-صقل الشمس والقمر وتلميع النجوم ونفض الغبار عن الجبال لنجد كل صباح عالما
معافى جاهزا لأحسن استعمال؟

ثمة فكرة أغرب تقلب الأمور رأسا على عقب هي التي تجعل من اليقظة قاعة الانتظار
والمنام هو العالم الذي نعيش فيه الرحلة الحقيقية.
من أين لي أثبت رأي كهذا؟

إغلاقا لملف شائك سأعتبر -دون أدنى حجة مقنعة أو برهان متين-أن ما نسميه العالم هو
عالم اليقظة لا غير، تحديدا الجزء الذي تيسر لي إدراكه خلال ما عشت من الزمن. هكذا
يمكنني أن أتخلص من عبء ثقيل حيث تتوقف مسؤوليتي عند رواية رحلتي فيه هو لا
غير.

أما رحلة المنام كما تعيشها دوريا ذاتي الأخرى أو ذاتي في حالة أخرى، سواء كان في
عالم آخر أو على الضفة الأخرى من هذا العالم، فهي مسؤولية ظلّي لي أنتصوه بشيء
من الشماتة-منهمكا في كتابة ليس فيها إلا أشلاء جمل عن أشلاء أحداث لا يربط بينها رابط
ينوجه بها إلى قراء من الأشباح وشاكيا من صعوبة مهمة عبثية لم يكلفه بها أحد.

**

عن مسألة كيف ومتى انطلق الطريق

أين نضع نقطة انطلاق رحلتنا في هذا العالم؟ الولادة إكيف نقرر أنها بداية الطريق وكل بداية لا بد لها من ظروف ممهدة ولا بد للظروف التي مهّدت لها من ظروف تمهّد للظروف التي مهّدت لها وهكذا إلى... إلى أين، إلى ماذا؟ ربما إلى ضرورة خلق مفاهيم أخرى غير البداية والنهائية، إلى ضرورة بلورة تصورات أخرى تقطع مع مفهومين ربما هما-مع كم من مفاهيم أخرى-سراب من صنع الخيال والفكر؟ إنها إشكالية ضخمة لكن مهلا، ما زلنا في بداية تشكل تصور البداية "الحقيقية"، في ذهن الطفل.

أولى المعطيات حسب ما بقي مترسقا في الذاكرة هذا الحوار بينه وبين دليله الأول وهو في الرابعة أو الخمسة من العمر.

- "ما"، أين كنت قبل ولادتي؟

- في بطني يا حبيبي. انتظرتك بفارغ الصبر تسعة أشهر مرّت كلمح البرق.

- "ما"، لماذا تسعة أشهر وليس تسعة أيام؟

سؤال ليس بغريب من طفل تميّز يوما بالسرعة في كل ما يقول ويفعل، وسنقول عنه "ح" يوما: لو طلب منك أن تفعل لا شيء لفعلته بقّصي ما تقدر عليه من سرعة.

- "ما"، ماذا فعلت داخل بطنك طول هذا الوقت وكيف دخلته؟

من أين لفاقد ذاكرته أن يسعف ذاكرة الآخر، ثم هناك أشياء لا نقولها أم لابنها.

- "ما"، هل ندمت على ولادتي بعد أن اكتشفت كم أنا طفل مزعج؟

تمسّس الأم في أذن طفل تحضنه بقوة الغريق المتشبّث بما يطفو من القش:

- لا أحبّ شيننا فيك قدر أنك مزعج كما تقول.

- "ما"، "حدثيني عن "با"، متى عرفته، كيف أصبحت له ابنا؟

تمرّر الأم يدها ببالغ البطء على الشعر المنفوش:

- ذهب شيخنا إلى الجامع الأعظم مفتشا عن مؤدّب لأطفال قريتنا ثم... لكنني حكيت لك القصة أكثر من مرّة.

يصرخ الطفل محتجا: أعيدي. وبعد أن خرج عمي إبراهيم بحثا عن "با"...؟

العهدة على الراوية ثم على خيال الطفل والكهل لتجميع أهمّ المعطيات عن بداية رحلته.

إنّ تحرّك العم إبراهيم ذلك الصباح بحثا عن مؤدّب لأطفال قرية لم يسمع بها أحد غير سكّاتها. وصل إلى الجامع الأعظم يسأل الكثيرين فلا يعجبه هذا أو ذاك لعلمه بمواصفات

حاجته.

العجب العجائب أن تكون كلها موجودة في "با".

الأعجب من ذلك أنه هو نفسه كان موجودا ذلك اليوم، بل في تلك الساعة وفي ذلك المكان. هو لم يكن بالصدفة في مظاهرة أو قابعاً في زنزانية رطبة ولا حتى مصاباً بركام خفيف ألزمه الفراش تلك اليوم تحديداً. لم يكن يتمرن على السلاح أو بصدد نقله من مغارة إلى أخرى، ولم يكن على الطريق هارباً من الجيش والشرطة.

نعم، كان الرّجل الذي أردته لي القصة دليلي الثاني موجوداً ذلك اليوم بكامل أعضائه وكامل ذاته وكامل صفته كأنّ الأقدار ضربت له موعداً لم يكن له الحقّ في نسيته على شدة استخفافه بالمواعيد.

ترى هل تردّد العم إبراهيم في اختياره للمهمة التي كلفه بها شيوخ القرية؟ ربما انتبه للوقاحة التي تنضح بها كل قسمات الشاب الغريب. هل أرهبته جرأة كانت تطبع حركات الطّالِب الطموح وسكاته؟ هل شدّه ذلك الذكاء الوفّاد الذي كلن يستهوي حتى ألدّ أعدائه؟ أم هل اختاره - رغم حدّة طبعه واضحة - لأنه كان وسيماً؟

يأخذ الشّيخ قراره باختياره هو لا غير وحسناً فعل. مهلاً. ما زال هناك أكثر من تقاطع طريق قيل أن تأخذ القصة طريقها الموعود.

كلّ الأدمي الذي سأسميه "ب"؟ يتردّد.

أول مشلّة بيننا ولو أنها لن تقع إلا بعد عقود وفي مستوى من العالم غير الذي نسميه لواقع.

- سنذهب مع الشيخ، وإلا كيف سأوجد؟
- أنا أذهب إلى قرية غارقة في الوحل شتاء وفي الغبار صيفاً؟ أنا أعيش مع الفلاحين! أنا الذي أشرف الاسم الذي أحمله، أنا الذي...
- قلنا كفى من أنا، أنا، ألا تعرف كم يكره البشر هذه الكلمة في قم غيرهم.
- يا ولد، لا تطلب مني شيئاً كهذا. أنتصوري مؤثب أطفال في تجمع أكواخ طين وقش!
- حتى الآن لم يقرأ لك أعمى أدباً، ولم تسهر حول قوافيك القبائل وتختصم.
- ماذا تقول يا قليل الحياء؟ ألا تعرف من هنا الذي ستشرف بانتسليك إليه؟ الكرامة قبل الخبز، يا فتى.

اللجنة، هل يمكن أن يركب الرجل رأسه؟ من يعرف أكثر مني عناده وعقليته البدوية باحتقارها التاريخي للمثنيين وراء أذناب البقر.

- يا رجل، خذ بيد الشيخ واتبعه لتأكل واطرقت الشعارات الجميلة لخطبك الجوفاء.
من حسن حظي أن الجوع حافز أقوى من الكبرياء حتى بالنسبة لأدمي مثل "ب".
ثمة أيضاً سبب أقوى من الجوع اسمه الخوف.

كان "ب" تلك الفترة الغامضة من تاريخه منخرطاً في قصص معقدة عن وقوف مع غزاة جدد يأمل منهم خلاص البلاد من غزاة قدامي، عن تخزين وسرقة تهريب سلاح جنود أجناب تقتلوا بكل ضراوة وقتلوا بكل وحشية، عن انتصار الغزاة القدامى على الغزاة الجدد

ويحثهم عن مساعدوا أعدائهم ، عن هرب واضطرار للاختفاء فترة من الزمان في أي مكان.

هكذا وجد الشلب المتهوّر نفسه رغم أنه مؤنّب لأطفال الفقراء ، يقرّئهم بعض ما تعلّم في الجامع الأعظم وهو سلخظ على الأقدار الظالمة التي ما انفكّت تضحك منه ، جاهلا أنه لم يخصّ وحده بالاستخفاف من قبل عالم يسخر باستمرار منّا جميعا .

هو الآن وجهها لوجه مع امرأة قررت القرية تزويجها لرجل لا يجوز أن يعيش بينهم أعزب . لا ترقص طربا أيها الشبح فما زال الممكن غير ممكن وما زال اللأممكن ممكنا .

أيرضى الشلب المتعرج بفلأحة أمية لا تقول الشعر ولا تحفظه ، هو الذي عاب على زتويبا أنها أنت الوجود قبله ، هو الذي رثى لشجرة الدرّ لأنها لم تعرفه بعلا ، هو الذي سخط على الخنساء لأنها لو عرفته لقاتل فيه وحده الشعر ولو كان شعر العزاء .

المهمّ في هذه المواجهة المصيرية موقف الطرف الأخر الذي بدونه هو أيضا لن أكون . هل تردّدت المرأة وهم يواجهونها بضرورة التحوّل لكوخ الغريب برخصة من سلطات السماء والأرض خادمة بلا أجره توقّر لبعثها أيضا متعة عبّرة؟

يعاونني قلق فيه هزل وجدّ لما أعرّفه فيها من حس فطري بالكرامة . لكن من أين لها مثل هذا الترف أمام شاب كهذا رمته الأقدار تحت قدميها؟

هل أذب أخيرا ربغ ابتسامتها ، بما تعكس من رقة وحياء ، غلظة البدو فيه؟ أم هل اكتشف وراء عيني المها نكاه حادًا بهره ولو أنه كان من قوم لا يبحثون عن النكاه عند النساء؟

ماذا لو لعب الشيطان ورقته الأخيرة وهو يسرّ في أذنّها بما يخبّئها لها من عظيم المصائب هذا الرجل الجميل الأنيق المتعلّم؟ ربما فعل فرفضت تصديقه . الأرجح أنها صتقت ، ومع ذلك قرّرت أن على القصة أن تأخذ مجراها لأنه لا مجال لغير ما قرّرت مشينة سلطة عليا لا يعصى لها أمر .

كانت "م" تتحرك داخل روبا لا يحصل فيها إلا ما أراده كائن لا مردّ لإرادته . كيف لا تؤمن بلمر كهذا وكل ما نشأت عليه بل وكل ما ستعرف من أحدث يؤكد صحة قراءتها الأحداث .

أصوّر ها منكبّة على الطفل الملتهب بالحمى تناجي نفسها للتعلّب على قلق مبهم: كان بوسع طفلي هذا ألا يصل بتنا ، لكنّ ذلك لم يحصل كان بوسعه أن يولد مشوّها ، لكن ذلك لم يحصل ، كان بوسع الموت أن يختطفه بتلك الحصباء الأعينة تلك الصيف المشنوم ، لكن ذلك لم يحصل ، كان بوسع الموج الهائج أن يبتلعه في ذلك الصّيف الأخر المشنوم ، لكن ذلك لم يحصل ، إذن لم يحمه الله من كل هذا إلا لأنه يريد له البقاء لتلك سيشفي وسيثب على رجليه مجددا كالعفريت الذي أحبّ .

بقدر ما كانت " ما " تؤمن بأن كل شيء في هذه الدنيا " مكتوب " أو مسطر منذ الأزل في قدر الأقدار بقدر ما أمنت دوما أن العكس هو الأقرب الى الحقيقة .

في رؤياها هناك قوّة قاهرة فرضت على قطرة الماء النازلة من أعلى شلال الزمان اتجاها
أوصلها إلى شفتيها بالرغم من تقاطع ألف طريق، والأمر سيتواصل على نفس المنوال إلى
النهاية.

لكنني أنظر إلى نفس القطرة، أتبع تدرجها المضطرب من أعلى شلال الزمان، راسخ
الإعتقاد أن بوسعها التوجه أية لحظة يمينا بدل لاشمال، أن تتطير بخارا، أن تنخل أعماق
الشلال لتختفي فيه، أن تدفعها الريح خارج السيل.
نعم، لم يكن هناك أي حتمية لتكون قصتي كما أعرفها أو حتى أن أكون وأن أوجد يوما.
ألم يكن بوسع الحدث الجلل الذي وكّد الفتح أن يتخذ له مسارا آخر؟ أليس المصطفى هو
سبب نهوض أمة ووراء تحركها ملايين القمص اتخذت الإتجاه الذي حدّه بوعي وبدون
وعي؟

ماذا لو وجدوه في الغار وقتلوه؟

سل عصبية الشريك حول الغار سائمة لولا مطاردة المختر لم تسم (محمد شوقي)

هل أبصروا الأثر الوضاء أم سمعوا همس التساييح والقران من أم

وهل تمثل نسج العنكبوت لهم كالغاب والحانات الزغب كلرخم

ثمة إذن، تقاطع طريق أساسي لسيل القمص التي كانت قصتي واحدة منها هو ذلك الغار،
تلك اللحظة الفاصلة في سيل الزمان.

لكن كم من تقطع آخر كان بوسع أن يوجه الأحداث في اتجاه آخر يمنع وجودك ووجودي!
كان بوسع الخليفة الفاطمي أن يُطمع أجدادي بذهب الجنوب لا براعي المغرب.

كان بوسع فرسان سليم التوجه للحرب والدعوة نحو فارس لا نحو إفريقيا.

كان بوسع تلك الجذّة، أو ذلك الجذّ، الذي اخترق به، أو بها، النخاسون الصحراء في قوافل
الشقاء والشرّ، أن تموت أو أن يموت في الطريق إرهاقا وكربا.

ماذا لو رحلت المجاعة ذلك العام الذي سمي "عام القطرة" بذلك الجذّ أو تلك الجذّة؟

أعض العينين، أتابع ببصيرة الخيال أي مسار كانت تتخذه قصتي وقد انتصر أمي اسمه
هتلر في الحرب التي أجبرت "با" على الاختفاء في قرية القش والطين التي ولدت فيها.

ربما كانت قصتي مع "ح" تتخذ أغرب المسارات.

تختار الساحة الجميلة مكانها حيث نور الشمس ودفنها. تضع حقيبة اليد على الطاولة،
تسحب منها علبة خاناها الزرقاء التي لا تفارقها، ثم تستدير باحثة عن النادل لطلب
"الجيلاتي" وعلى ملامحها ابتسامة واسعة ستقلب ضحكة مرحة لبداية درشة تستهلها مع
كل غريب ببساطة وتلقائية من لا يعرفون الخبث والعدوانية.

تفتح عينها على الأقصى، تحقّق باندهاش في النادل الأسمر المقترّب منها بكل حذر. يلحظ
الرجل نظرتها المسئلة عليه فيزداد تشنجا. ألم يسرع لها بكل المسكنة المطلوبة من الخدم
الموردين من أقاليم العبيد؟ هل سئطقت عقيرتها بالصراخ والسبّ فينال مجددا نصيبا وإفرا
من السوط وهو لسبب يجهله -مئهم دوما، دون بقية العبيد الآخرين، بإضمار التمرد وحتى

بالإعداد له. يعود لها بما طلبت، والمرأة لا تكف عن التمتع فيه بدهشة لا تخفيها. الغريب أنه ليس في نظرتها ما تعود عليه من الأزدراء، وإنما يريق لا يفهمه. تتحرك أنامله تلقائياً نحو شعرها كأن فيها حنيناً غريباً لجذائلها لشعر. يتوقف في نصف الطريق وقد دامه الهلع من نتائج ما كان على وشك ارتكابه. ينتبه صاحب المقهى لارتباك عبده واضطراب الزبونة. يتوجه إليها بئدب المهنيين:

- عفوا يا دكتور، هل ضابقت هذا العبد السلمي في شيء؟
- لا أبداً، أبداً.

- أحبيت "الجيلاتي"؟ مرطباتنا أحسن ما في فينيسيا.. لكنك لم تكلني منها شيئاً!
تطلب المرأة جبينها وقد ماتت الضحكة على شفيتها. تجمع حوائجها لانذة بالفرار وفي عينيها غلالة النعم، والنص وحده العليم بأنها نسيت ولم تتس أنها كانت في قصة موازية تبحث مع حبيبها هذا في أزقة المدينة وفي كل كنانستها عن صدى أنغام رجل اسمه "فيفلدي".

يتابعها العبد السلمي المتزايد حيرة وحرجا وهي تخترق ساحة سان ماركو ركضة نحو القتال الكبير إلى أن يحجبها عن الأنظار تمثال هنتر الأكبر باني إمبراطورية أورو-أفريقياسيا العظمى عليه صلوات الرب ووطن وبركات الربة فريكا.
يفيق على صراخ سيده وهو يركله: "أطعمك للتفرج على السياح يطوفون بتمثال سيدنا. هل تريد إجازة في محتشد خمسة أسلاك؟ حرك طيزك يا untermensch، يا ما تحت الإنسان".

كم من تقاطعات طريق كان يوسع القصة ان تترد أمامها ثم أن تأخذ طريقاً غير الذي أخذت. يتوجه العجوز الأصلع البدين بأدب المهنيين للشباب الأسمر المتعرج:

- أرجو يا دكتور أن "الجيلاتي" أعجبك، لكنك لم تأكل منها شيئاً! إنها أشهى المرطبات المثلجة في كل فينيسيا.

- أشهى ما في فينيسيا هذه الشقراء الجالسة هناك. مشغول بها لا أدري لماذا.. كأنني أعرفها.

يضحك صاحب المقهى:

- لا يفوقنا عشقا للنساء إلا أنتم أسبائنا القرطاجيين. أسف، هذه المرة ستعود خالي الوفاض. إنها حريفة تأتي دوماً مع زوجها وطفلتها. حذار.

طفلتان! نقاحة وتفيجة؟ هل يمكن للفصص أن تكون صدى لبعضها البعض؟ ينهض الشاب من مقعده، وبالقلب ثقل لا يعرف له سبباً، مخترقاً ساحة القنيس حانون في اتجاه معبد يعل إليه أكبر آلهة إمبراطورية قرطاج التي لا تغرب عليها الشمس منذ آلاف السنين. ثم يدير الوجه لإلقاء آخر نظرة على امرأة مجهولة. يفاجأ ولا يفلاًجاً أن يراها تحق في فاعرة فمها. بداهة اتخذت الأحداث المتلاطمة التي تشكل قصصنا جميعاً نتيجة ألف صدفة وصدفة مسرلاً آخر.

مثلا هذا التقاطع الهام لألف طريق وطريق.
يتعالى الصراخ من ممرضت عنبر الرضّع:
- النجدة، النجدة!

تندافع زميلاتهن من سائر اقسام المستشفى ليُتسَمرن مدهولات أمام المشهد البشع ثم ينطلق صراخهن.

- يا إلهي! حتّى الرضّع لم يعودوا في مأمن! كل هذا الدم!
- أي وحش ذبح مثل هذا الملاك!

- انظروا، إنه المجرم، إنه يتسوّر الحائط لانذا بالقرار!

فجأة يدوي عويل يصمّ الأذان من ممرضة ترتمي فوق الجسد الدامي لرضيع لم يتجاوز شهره الأول. إنها الممرضة المكلفة بلسهر عليه ولم تتغيب عنه إلا دقائق معدودات لقضاء حاجة طبيعية.

يصرخ فيها المفتش حضر لتوه لمعانة الجريمة:

- كفى هستيريا، أينها المرأة الغبيّة. ما اسم الرضيع؟

- سميناه للمداعبة هتلر على اسم قط القسم واسمه الصغير أدولف، أه يا أديلفه، أه يا صغيري!

تنقّب الممرضة راشيل كوهين كل ما في لحشاتها، قبل أن يغمى عليها. كان الرضيع المفضّل لديها في كلّ المحضنة، بل وكانت تنوي تبني اللقيط.

بالمناسبة، كم رضيعا لم يموت كان من الأحسن له وللجميع أن تجهض به أمه، وكل محاولات ذبحه فشلت في كل القصص! في المقابل، كم مات لنا من مهدي ومن مسيح ونحن نجهل أننا مررنا قريبا جدًا من صنفة النجاة!

ثمة مشكلة في هذه القصة تبّه لها كل هواة الارتحال في الزمن.

من البيديي أنني لو تسببت في موت الرضيع الذي سيصبح الطاغية الدموي الذي عرفه التاريخ، لما حدثت الحرب التي جعلت 'با' يلتجئ إلى القرية التي تزوج فيها 'ما'، ومن ثم لما وجدت أصلا. ما أغرب أن أدين بوجودي -مثل الكثيرين في ظروف أخرى- لأكبر سفاح في تاريخ هذا العالم؟

لو تفحصت سلسلة الأحداث التي انتهت بوجودي لما وجدت إلا سلسلة طويلة من الأحداث التي كان بوسعها ألا تقع أو بصفة مختلفة منها -حتى لا نذهب بعيدا- ارتطام جرم سماوي تائه بالأرض قبل خمسة وستين مليون سنة وفجوة زمنية بين عصر جليدي وكارثة مناخية أخرى وترند حنبعل في غزو روما، وإفراز الصحراء لنبي نجا من محاولة اغتيال في غار بجبل أسود، وحبّ البدو للغزو وقرار البعض منهم بالتوجه غربا بدل التوجه شرقا، ونجاح الاستعمار في فرض سلطانه على شواطئ شمال شرق قلّة اسمها "أفريقيا"، وجنون عظمة رجل ارتكب خطأ فتح جبهتين في وقت واحد، وجملة من أحداث أخرى لا تخطر لي على بال.

كلنا نندبِق من تسلسل أحداث لم تكن يوماً لا مبرمجة ولا حتمية أوقابلة للتوقُّع. كل القصص، حتى قصة العالم، ارتظام الصدف بالضروريات والصدف بالصدف والضروريات بلضروريات والنتيجة أنه لا شيء مقدر إلا اللامقدر ولا شيء مكتوب إلا للأمكتوب. كم مثير أن تسير الأمور من الأزل وإلى الأزل على هذا الشكل، أية قيمة للعيش في عالم ليست المفاجأة أروع هداياه!؟

**

سكوت الذاكرة عن تفاصيل الاحرام ودور الخيال في ملئ الثغرات

استحضارنا لتاريخنا الشخصي عملية تشبه تلك التي يقوم بها عالم آثار لا يتوفر إلا على القليل من المعطيات ومع ذلك يدعي اكتشاف تصميم البناية المجهولة هذا ما يضطره لتصور قطع ربما لم توجد يوماً لكن وتطبيقها أن تملأ الثغرات المزعجة. أكبر ثغرة في ذاكرتنا كيفية وصولنا هذا العالم.

لا خيار لك إن ألح عليك السؤال غير تفحص وصول أقرب الأصدقاء إليك والفرضية أننا نصل كلنا بنفس الكيفية وإن تبينت التفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل. تستعيد الذاكرة كيف كانت بداية البداية لرحلة هذا المجهول الذي ساكن له الدليل الذكر والذي سيدابني بأجمل ما أسند إلى من ألقاب: "يا!". انتبه ذات يوم أن داخل فكري شبح كالفار في مكتبة يحدث ما يكفي من الضجيج تاركاً وراءه ما يستطيع من الآثار، لكن لا مجال لوضع اليد عليه أو إجباره على الرحيل. أقرر اعتماد سياسة التجاهل عليها تؤدي إلى اختفائه أو حثه على البحث عن قنطرة أخرى يعبرها.

هل أقول للشبح ألا يجرب معي حيله، وأني غير مهتم بما يعرضه من صور رضيع جميل مضحك تقدمه للعالم أم جميلة فخورة. هل تدخل لديها لتتبعني؟ هل تدخل لدي لأقنعها؟ أم هل قلبنا الحقائق وكذبنا عليه وعلى أنفسنا لأنّ الطفل كان شغلنا الشاغل منذ البداية، نترجاه نحن القنطرة، وليس هو الذي يترجأنا استقباله؟

تنهار يوماً كل مقاومة وقد كانت من البداية تكلفاً ومحض عناد. وفي أوج شهوة الكائن لنصفه الآخر، وبعد خضم نشوة امتزاج الذات بالذات، تسترخي الذاتان، يلفهما هواء ما قبل وما بعد العاصفة. تتسارع نقات قلبي اللانميين. تبحث اليد عن يد الآخر، ترتسم على الوجوه ابتسامة عابرة. تأتي هذا الذي لم يعد مجرد فكرة في ذهنين من المبهم الغامض إشارات رقيقة وأوامر مهموسة ليلبس الشكل لأنه الشرط حتى تصبح هذه الفكرة فعلاً.. الضرورة التي لا مناص منها للتسلل من راحة العدم إلى مغامرة الوجود.

"أمامه أنت التي تحمليني في أحشائك (مانويل دونوفاس)

امنحيني حق أن أولد

وأنت يا أبته، يوم أولد

امنحني حق أن أحييا

أعنياني على أن أعيش أحلامي

وأهواني لأكون لكما

زهرة الشوق، ثمرة الفرح"

تبتسم الممرضة وهي تمدني ببتيجة الفحص.

تبتسم المرأة التي ستصبح من الآن "ما" وهي تقرأ الورقة.

ترتسم الابتسامة على محيا المازة وعبونهم على بطن امرأة تمشي متعاقلة الخطى ترصد نظرات الإعجاب وأحيانا نظرات الغيرة.

إنه عالم متجدد على الدوام، تنتنخ بطون الإناث فيه ثم تعود إلى تسطحها لتنتنخ من جديد في نسق منتظم كلهات الراكض، عالم لا هم له إلا الحمل والولادة، ولا شيء في النكرار مكرّر.

ها أنا منذ تلك اللحظة التي وضعت فيها نتيجة الفحص في جيبي والحوار معك لا يتوقف أنت الذي لم يكتسب بعد أي شكل.

أصحيح أنك يقظ تتابع كل ما يجري؟ أن أول إشارة تتعرف عليها هي الصوت، صوت من تحملك في أحشائها، أن انتباهك له يتزايد يوما بعد يوم، أنه هو الذي يقودك من تواصل الحلم إلى انتباه بداية اليقظة، أنك لا تخطيء فهم ما يأمر به وما ينهى عنه، أنك تمسك بلجام من تركب بقفاز من حرير، توّجّتها إلى حيث يجب أن تذهب وهي متبرّمة سعيدة؟ مثلي لا يكتفي بالقليل والقال. تقسم "ما" أنها لا تعلم أكثر مني.

من حوار متقطع أنا فيها المسائل والمجيب.

ربما تستفرد بك وتفتح لك ذاكرتها. يا للمرأة المتهورة! سأوصيها بشديد الحذر. في كل الحالات لن أتركك تبني علاقة أعمق معها. لي أنا أيضا عليك حقوق ولك تجاهي أكثر من واجب. تعال، كن مولودا طيبا. لا تتركني بهذه الحيرة. كلي أذان صاغية. تكلم لأسجل لقراني كيف انطلق الطريق.

قربت لحظة الوصول ومعها تتعاضم مخاوف مبهمّة. لم القلق فالصانع مجرّب أخذ كل الزمان لتعلم مهنته. أتخيله طوال هذه الشهور التسعة يعطي ما يلزم من أوامر لمأمورين لا يقلون عنه مهنية عليّة: اصنعوا، قيسوا، تذبوا، لا تغفلوا، قفوا، واصلوا، هنا جتدوا، آخر اللمسات هناك. كذاك أمام مهندس عبقري صامت ومخفي لقي على نفسه كل الأسئلة واكتشف كل الأجوبة. الحمد والشكر لكل هذا الاتقان، لكل هذه العبقرية.

داخل الكهف السحري، تواصل جميع شتاتك وقواك قبل الوثوب على عالم ينتظرك بغرغ لصبر ليثب عليك هو الآخر، ولا أحد يدري من الفريسة من الصياد.

في محطة الوصول وهي غرفة توليد في مستشفى عريق، يطلب مني بأدب أن أنزاح إلى الخلف حتى انتهاء مراسيم استقبال الوافد الجديد.

تأخذ الأيدي البرزة على عاتقها مواصلة مهمة الأيدي الخفية. تسترق آلة وضعت على البطن المكوّر دقات قلبك. أراها تتابع على ورق التسجيل تخطب خطب عشواء. تتعثر ضربت قلبي هي الأخرى. يتصنّب العرق من جبهة المرأة الراقدة على فراش الألام ومن جبّهتي ومن كل الجباه. تعضّ الولادة الأزلية بنولجدها على الخرق البيضاء وأعضن على

نواجذي لأمنع الصراخ الذي في داخلي، فتهنّز لصداه الصامت كل أصقاع الروح. كأنك غير واع بما في هذا الانتظار من لعب غير مسؤول بأعصاب من حولك من مساكين. تبقى مصرا على أخذ كل وقتك. هل لتكون جاهزاً أم لأنّ فيك خشية مبهمة تتعاظم كلما اقتربت ساعة الحسم؟

يتصاعد صراخ الوالدة الأثرية. تزداد حركات المشرفين على المراسم ارتبكاً. ترتفع حدة الحوار بيني وبين شبح قد يكون أنت وأغلب الظنّ أنه أنا. هل تتلخّأ في الخروج لعدم رضاك عن زمان الوصول ومكانه؟ أم هل هالك ما شاهدت وأنت تتحوّل داخل ذاكرة "ما"؟ ربما أنت محق في تردّدك، أليس من واجبي أنا الدليل أن أقول لك عد من حيث أتيت لا شيء هنا يستأهل الضريبة التي سنُدفعك إياها تجربة الحياة؟ تتعالى من حولي أصوات نافذة الصبر.

- ادفعي... ادفعي!

تتصيّب الوالدة الأثرية عرقاً. تصرخ والألم يعتصر أحشاءها إنني لميئة. تصل خشيتي أن تنكص على الأعقاب ذروتها وكنت لا أهرب لحدّ الآن سوى أن تكون الأيدي الخفية قد أساءت الطرز فتأتي مسخاً مشوّهاً.

أه، صنقني وقررت أن تعود من حيث أتيت! ألا تعلم أن هدية ميلادك عالم بأسره.

هل يمثل هذه الحجج اقتنعك بالمواسلة؟ أهكذا زال لخر تردّدك؟ يبدو كذلك ونقلت القلوب تنتظم والأيدي المحمومة تتباطأ والابتسامات تعود لشفتي القابلة.

كأنّي بك تتحرّك أخيراً نحو باب الكهف السحري مدفوعاً بقوة لا تقووم ومجذوبا بأخرى لا يرفض لها أمر.

يبدأ خر وجك الصعب من التفق للرابطين هذا العلم والعمّة التي تتبلور داخلها في صمت كل العوالم. أستحنّك مبهتلاً مشجعاً ناسياً فراري بأن أتشمت فيك في أول مناسبة.

تطلق الوالدة الأثرية آخر صرخة المخاض ويفتح أمامك في نفس اللحظة باب الزمان على مصراعيه. تنفصل كالشجرة الطازجة، كتفاحة لذيدة، قطفت من غصن أقدس شجرة.

في نفس اللحظة، في العراء، بين الأعشاب، على أغصان الشجر، في أعماق المحيط، داخل ألف مغارة، على الأرض تحت ألف خيمة، على ألف فراش، داخل أفخم القصور وبينما مشيعو الجنازات في ذهاب وإياب، تزرعد القابلة الأثرية احتفاءً بمبجيك أنت وكل أفواج الوافدين الجدد.

صرختك الأولى.

هل هي حقاً مسألة ميكانيكية تتعلق بصعوبة فتح القصبات الهوائية كما يقولون؟

ليدعوا ما يشاءون، ما يهمني رأيك أنت صاحب الصرخة.. ألم القطف من فرط حسرتك على قرار طائش لم يعد ينفع فيه ندم؟ أم لفهمك أن باب الكهف الدافئ أوصد وراء ظهرك إلى الأبد؟ ... هل أروعك أنك ملقى بلا سلاح وسط ساحة معركة تعي كم ستكون رهينة؟ ... أدامك الوعي أنك لن تكون نذيراً وإنما أغلب الظنّ قرباناً؟ ... ربما رفعت غيرتك

لتنذر وترهب... كم مضحك أن تتوجه بالتهديد لعالم منجج بالسلاح، وأنت الأعزل من كل سلاح! ربما هي صرخة الذهول وأنت تبصر الوليمة التي تنتظرك؟ أو أن الأمر مجرد لفت انتباه تقول للعالم بكل بساطة وإيجاز: ها أنا.

أيا كان معنى لصرختك الأولى هذه، المؤكد أنها ضاعت في زخم ضوضاء جهنمية لعالم ثرثار نزق عصبي المزاج، يتميز فيها صراخ كائنات لا تحصي بدوي الرعد، بانفجار البراكين، بزئير البحر، بضجيج الشلالات، بصفير الريح. لم يبق لي سوى أن أصرخ أنا أيضا علك تسمعي وسط كل هذا الصخب المقدس: مرحبا بك في عالم الانهيار والرعب.

أه، يا تفاحة، كان وجهك وجه عجوز دار بها البساط السيّار دورة كاملة في حياة ماضية ولم يسعها الوقت لإحكام قناع الطفولة على الوجه القديم. كان جلدك متجعدا وكأنه ورق قديم فركته يد عصبية قبل أن ترمي به في سلة المهملات. ولم تكن هناك أية هالة من نور حول رأسك الأضلع.

تطلب للقبلة مني-وهي تصرخ ضاحكة-أن أفيق من ذهولي وأن أعطي القادم الجديد إلى من تنتظر إليّ باسممة نافذة الصبر لاحتضانه. أمك لأمك ولسان الحال يقول بعد أن ذهب الخوف وعادت للسخرية التي أداويه بها: أعز من أنذر، والدليل لا يقبل الشكاوى، البقشيش فقط.

نسيت أن أقبلك من فرط انشغالي بتفحصك بعيني المهني المتخوف من قائمة المصائب التي يبثلي بها البعض لأن الأيدي الخفية لأخطأت في شيء ما. براقو، هي لم تبد قصورا في شيء، لم تنس في قاع الكهف لا عينا ولا قدما، فلها كل الشكر والامتنان. الباقي عليّ؟ أنا! كل الباقي!!!

في لمح البرق، متطلّبات الوضعية الجديدة. حياتي من هذه اللحظة ملك لأخر سيوجه نفة رحلتي في اتجاه كنت صاحب الرأي الوحيد فيه. شعور كالبرق الخاطف بلندم وبفوات أو أن الندم. ثم جذل غريب. أصبحت اليوم ضروريا لأحد. لكن، كل هذه المسؤولية! أليست هناك بعض المبالغة من السيد العالم؟ أه لا مبالغة ولا شطط ولا حتى ثقة في قدراتي المتواضعة. الضرورة لتواصل قفلة الحياة. ثمة من يقصر هذا الشعور على أضيق دائرة وحتى على التي لا تتخطى حدود جلده. ثمة من يوسعه ليشمل به كل الأحياء. اللهم اجعلني دوما من هذا الصنف.

وفي انتظار تهاطل هذه المسؤوليت المخيفة؟ هل أخذ القادم الجديد إلى السيرك، ثم إلى السينما فحديقة الحيوانات، وكل مكان مثير أجره إليه مشيا وركضا؟ سادعوه إلى مطعم، تبادل الأخبار؛ هو يحدث عما ترك، وأنا عن العالم الذي أفتح له الطريق فيه. لا بد أنه ما زال يتذكّر كيف وأين ومتى بدأت القصة... كيف كانت الأحرف والجمل والنصوص الأولى... كل ما احتاج للنص.

تلك الليلة القدسية رجعت إلى المستشفى متعللاً بحجج واهية فطرودوني بيتسمون. أنكر أن النوم كان مضطرباً، أنني أفتت أبحث عن طفل لي في ساعاته وأخطاره وحيرته الأولى. من الغد سمح لي أن أخذ الغريب من شاطئ الوصول إلى الملجأ الأول.

أذكر أنني وضعته بكثير من الرقة والحذر على المقعد الخلفي للسيارة، أنني كنت أسترق النظر إليه طول الوقت، ألقى عليه نظرة الشك وبداية سيل من اتهامات قد لا تكون عادلة. ربما هو بصدد فسخ الملفات التي تعينني!

أذكر أن الأم الأزلية نهرتني كي أبقي منتبها لأخطار السياقة وأني افتعلت سبباً للتوقف لا

صبر لي على انتظار وصول البيت. وعلى ضفة النهر أخذت القادم الجديد بين ذراعي لأفاجي بعينين بالغتي الاتساع مسمرتتين على عيني المبهورتين. كأنه يراني ولا يراني، كأنه ينظر إليّ وينظر من خلالي. كم هو قريب مغال في بعده، حاضر مغال في غيابه، ملتصق بي وبيننا هوة دون جسر فوقها. إنه في مرحلة التشبع البطيء بالوضع الجديد. لا

ضرورة للعجلة ولا فائدة للتخلّ في نسق الأمور. ومع هذا، لماذا لا أجزّب فلا أكثر ابتناً لا

من المعجزات

- مرحباً.

لا أحظى برّد وأكاد أعضب لقلّة الأذب.

- قلت مرحباً.

كأني بصمته تكثّف بل مع شيء خفيف من التقرّيع ونكهة من التهكم.

لم أعرف من كل القادمين الجند من أتى مسلماً معانقا ومصافحاً. لم أعرف منهم من حدّث

عما شاهده في الرحلات الأخرى وما جزّب فيها من أشكال وأحلام. لم أعرف منهم من

أتى ببضائع مهزّبة من عوالم ما قبل العلم يقبّض بها شيئاً ثميناً. وهذا الألمي الذي سألّوه

في مجاهل العالم لا يبتدئ عن القاعدة. كل الأجوبة مضمّنة في هذا الصامت كما الأسنان في

الفك تنتظر زمن البروز الموجه مع هذا لن يتكلم مثل كل الآخرين.

مواصلة العبث مع الكائن المجهول المتعالي عليّ بصمته.

عفواً، أعد ما قلت، سهوت لحظة. كيف؟ لا فائدة من الإلحاح للسمع؟ أنا ألتخّ! أتردش معك

فقط دون نية تنبيهك لضرورة البحث عن دليل آخر في حالة ما. أه، لا تقبل تهديداً. مرحي،

من شابه أباه فما ظلم. على الأقل طمئنني. هل هذا حقاً أول أيلم رحلتك أم هل أنه ليس

للرحلة بداية ونهاية؟ هل هذا أول لقاء لنا أم هل تعرفني منذ الأزل؟ هل كنت طفلك وكنت

لي أبا في حلم آخر؟ هل تهنا عن بعضنا لبعض في تساع عوالم لا حصر لها؟ هل تواعدنا

على تجديد اللقاء الآن وهنا؟ بلختصار هل أنت حقاً مولود جديد أم أنك والد كل قديم وكل

جديد؟

يحدق في الكائن الغريب مواصلاً تجاهله الاستغزاري فأصرخ فيه ضاحكاً: واصل تحديق

السفر لأبيك، سأنطقك في نصي بما أريد وما أنا بأمين الحاجة إلى سماعه.

ربما لا معنى لسؤاله، خاصة في هذا الظرف وهو منغمس في السرّ، ملتحم به وملتصق. مؤكّد أن هناك أوامر بالفصل التام بين العوالم وبين قصصها وأن الجمارك الكونية لا تسمح بتهريب بصيص من فكرة أو قبس من شعور قد يكون جُزّب في عالم آخر. محكوم عليك أن تتخل هذا العالم غير محمّل بالآلام قديمة وعادات لا فائدة منها ... أن تأتي للوجود مفسوخ الذاكرة، أن تصله وأنت مثل أرض بكر لم تطأها قدم، مثل شريط لم تسجل عليه نغمة، مثل كتاب لم يخطّ فيه حرف، لكي تكون البداية حقا بداية والتجديد تجديدا وكل عناصر التشويق حاضرة لتواصل قصة القصص.

**

انبثاق العالم في الذات تبلور الذات في العالم

من ذا الذي يذكر أول لقاء له مع النور، مع الظلام، مع الريح، مع الأفق؟
قبل عن الردى أنه يغيب لما نكون حاضرين ويحضر عندما نغيب. كذلك عن انطلاق
الرحلة.

لتمثل هذه اللحظة الفارقة تأتيني كثير من الصور ولا واحدة مرضية.

مثلا تبلورك كقطرة الندى على عشب الفجر.

أو تبلورك كمسفر بلا ذاكرة ولا أوراق في مطار مجهول لرحلة مجهولة وحولك جحافل
من الأعراب ليسوا أقل ضياعا. تباغتك الألوان والأصوات والحركة وكثافة الخلق. تسمع
دون أن تفهم همسا ناعما من مكبر للصوت: "تعلم المنتظرين لوصول طائرة الحجيج أن
الاستقبال في البهو رقم 1". يتعالى من مصدح يبدو بعيدا إعلام بلهجة فيها نفاذ صبر: "
الرجاء من الراحلين التوجه حالا إلى قاعة الرحيل رقم 5". لا أحد يعيا بذهولك أو يبدو
مستعدا للرد على أولى الأسئلة فجأة تسلم عليك امرأة بحرارة مهينة بحسن القنوم. يدفعك
غريب من الخلف للتقدم نحو باب الخروج. تُفحم في صفوف متراسة تدفع بعضها البعض
قنما إلى الأمام. تشعر أنه لا خيار لك غير الانخراط في السيل ولا فعل أهم من البقاء طاقيا
على سطحه.

ثمّة أيضا صورة الإفاقة.

تستيقظ أنت البخار المبحر على أمواج الوجود شيئا فشيئا على صرير الشراع، على دوي
الموج، على صفع رياح أرست بك في ميناء مجهول ولا حدود واضحة بينك وبين الزورق
والسما والبحر.

عند شطّ الحياة الثقيث مرسى زورقي (تارك الملائكة)

في الضباب تحت الظلام

إنها أفضل الصور عندي ولو أنها لا تنفي هي الأخرى بالعرض.

بالمعنى المتداول، الإفاقة هي الخروج تدريجيا من عالم النوم والدخول شيئا فشيئا عالم
اليقظة. لكنك لا تفيق من النوم لتواجه بظواهر لا تعرف لها اسما أو وظيفة. لا تفيق لذاتك
تتساءل ما هذا الشيء الذي أتخبط داخله أو يتخبط دخلي. أضف لهذا أن يقظة ما بعد النوم
تتم وسط عالم ثابت الخصائص، مألوف دخانها أكثر من مرة.

مما نفيق عندما نفيق للحياة؟ ألا نقرض الصورة أنه كان لنا وجود قبل الوجود، رحلة قبل
الرحلة؟ كل الصور في الواقع عاجزة عن تمثّل هذه اللحظة المفصلية التي ستبقى إلى الأبد
جزءا من سرّ رحلة محكوم علينا أن نحضر وألا نحضر بدايتها ونهايتها.

كل ما بقي منقوشا في أولى ملفات الذاكرة أن ما يتبع الإفاقة، أو التبلور، أو الوصول، أو
سمّ المنعرج ما شئت، أحاسيس بلل ومشاعر انزعاج وتبرّم بحدود غير مفهوم.

إبان هذه الافاقه، يتشكّل الموجود كمعطى مباشر تتعامل معه الذات من فوق وخارج اللغة واكراهاتها ، كجملة من المظاهر الموضوعية حولنا وأملنا، تكشفها الحواس وتتفاعل معها، ولا شيء غير أحاسيس مشاعر بالغة العمق والقوة، دوماً بالغة الجدة. تتفاجأ كل مرة بالروائح، بالألوان، بالأصوات، بالأحاسيس الحادة اللاذعة الغريبة، بكل الزخم الذي يأتيك من عالم أوج مرح، يداهك بكل حيويته، من كل المسام، كأنه النهر وأنت الإسفنج.

أنت الآن داخل العالم، كما النواة في الثمرة، وهو داخلك يتمنى بمنتهى البهجة والحذر. ما أغرب أن تكونا داخل بعضكما البعض، هو خارج داخلك، وأنت داخل خارجه! يدرك العالم المنكب فوقك أنك ما زلت هشاً غصناً قليلاً لكل أصناف العطب، فيأتيك من المبهمة سائل حار لذيق الطعم، يتفقد داخلك، يأمر برحيل المغص وتوقف الصراخ. يعود الصمت إلى داخلك لفترة لا تدوم طويلاً. يتجدد مغص الفراغ وكان لهذه الأحاسيس المزجة مواعيد ثابتة ثبات لذة الرواء والشعب.

تشعر أنه لم يعد لك من طقة على تحمّل ما يعتمل ذلك. لا حلّ غير التراجع إلى القواعد التي وثبت منها على الدنيا كما يرتمي الفأر بين مخالب الأسد. تهرب، إذن، إلى النوم لتبرأ من صدمة الوصول. أنظر إلى بني سفر وقد وصلوا لتؤم العالم، يخولونه على أطراف الأصابع ويسارعون إلى المخبأ الذي فارقه كأنهم يتمنون على عالم لا يواجه نغمة واحدة. أنت في هذا المنعرج من الطريق كالحيوان الوجل الذي يعذب الفضول. ما إن يجذب النور خارج المغارة إلا ويترجع داخلها وقد فلجأه البرق والرعد.

إنها عادة لن تغادرك إذ لا تأتي مكاناً جديداً إلا ويشدك الحنين إلى ما غادرت، لا تطمنن إلى ما أتته إلا إذا كنت واثقاً أن ما غادرت تحت الطلب تؤوب إليه متى شاء.

شينا فنيينا تتضح الحدود وتتفصل الأشكال عن بعضها البعض.

أولها الكائن الذي كان المغارة السحرية وهو الآن الحارس والخدم الأمين، قريبا المرأة التي تعكس لك أول صورك. يرتبط ظهوره المفاجئ في أقدام طيقات ذاكرتي بأصوات سيقع التعرف عليها لاحقاً بأنها لخلخال وأسلور. هو أول من تسمع منه صوت الأدميين تفهم تلقائياً منه كل رسالة أنت الذي لم يدخل بعد أي لغة.

تشغ الملامح بالنور وهو منكب عليك، تبعث فيك ابتسامته طمأنينة عابرة. تختفي الابتسامة، وتفهم تلقائياً معنى الخطأ وضرورة التدارك. كيف؟ ترتبك، ثم تعود إلى الصراخ فتصدر منه كم من إشارات أن ترتب بالحكم ولا تخف. ثم تنتظم هذه الملامح وهي دوماً على نفس الشكل لتنفش أولى صور كائن عجيب، يتحرك ببطء بالغ، له وجه هادئ ويحرك يدين نحيفتين لا تمسكان بالأشياء إلا برفق فيه خشية أبسط أذى.

تتعلم باكراً الربط بين حضوره وانحسار كل أحاسيس الضيق والبلل، أنه هو الذي يستجيب لنساء الاستغاثة عندما تطلقه، أنه مصدر السائل الدافئ الذي يطفئ دوماً لهيب المغص المتجدد.

ثمة إذن شيء حولك يستجيب لك إن أنت أطلقت عقيرتك بالأمر والاحتجاج، لا تدري بماذا تأمر وضد من تحتج. إنها فكرة مغرية لن تتخلص منها بسهولة. قد يكون أهم انطباع للقادم الجديد وأرسخ في الذاكرة أنه محاط، بل وحتى في قبضة كائنات جبارة، هي التي تمنحه بكل كرم-ما هو بأحسن الحاجة إليه، أو تمنع هذا المطلوب للضروري لمواصلة الوجود إن لم يرضها أو أثار فيها استياء غير مفهوم. أنذاك لا بد من التملق تارة والابتزاز تارة أخرى. هكذا تتشكل باكرا في أعماق الذات دعامة الأساطير والأديان. ما أعجب أن ندين بأقدم وأصلب تصوراتنا للعالم لرضع يتخبطون في مشاكل المغص والبلل!

**

الخطوة الأولى

تأتي مرحلة الخروج من وضع المثلي السلبى للمعلومات إلى وضع الجائع الباحث عنها بكل السبل وفي كل المستويات.

عن هذه المرحلة من الرحلة بعض المعطيات المتفرقة في ذاكرة الطفل، لكن كل المطلوب منها تحت تصرف النص وقد أصبح الجذ الذي يرصد بأقصى الانتباه عند خفيته أولى خطوات الأسمى على الطريق.

- "با أخشى أن تجننك هذه البنات إن تركتها في حراستك كل الوقت الذي سلحتاه لموعد هام.

- اتركي الأمر لي، سأراقبها بمنتهى الحذر وكأنا الحليب على النار.

- تقصد بمنتهى التهريج وهي اللعبة الجديدة التي جادت بها الأقدار.

- كفى وقاحة مع والدك. لا تقلقي والآن، رحماك، أغلقي هذا الباب واختمي.

تتسحب نقاعة مسلطة علي نظرة فيها إشفاق وشك في قدراتي على ترويض من تعارفنا على تسميته "البيع".

لا تنتبه رضية لم تعلق بعدها سنتها الأولى للخناقة الضاحكة. تواصل زحفها على أطرافها الأربعة وهي في قمة الجذل، تنعم بحريتها الجديدة بعد أن أخرجتها من الفضاء المطوق باللوح المسموح لها بالهرج داخله، والذي كنت اسميه -لأسباب يطول شرحها- "جوانتنامو".

أوجه إلى رضية تحقّق في صلامة بفضول واستغراب.

- ها قد أخرجتك من "جوانتنامو". أنت الآن حرة يا حرة. أرنى كيف تكون بداية استكشاف العالم في عمرك هذا.

تجلس الرضية على مؤخرتها المكتنزة بالورق الصحي. تعود للتحديق في مطولا. يلمع في عينيها المتسعيتين على أقصاهما كل الممكن من الاستغراب.

ترمي بيديها البضئين على الأرض لتنتقل كلسهم على أطرافها الأربعة باتجاه المكتبة.

تنتصب واقفة مترنحة ثم تدير وجهها بحثا عن مصدر صوت محرّض ومشجّع على التعمق في استكشاف عالم سير هبها يوما اتساعه.

تدفع بأصابعها المرتبكة نحو الرفوف تتحسّس الكتب. تسقط أربعة منها دفعة واحدة. تفاجأ بالدويّ تسقط بدور ها على مؤخرتها من علّ قامتها غير الشاهقة. تدير وجهها بلحثة عن رنود فعل. الآن وقد جاء أمر صامت بمواصلة البحث، تبدأ عملية مطولة تستولي على انتباهها وانتباهي.

يقترّ ثغرها عن ابتسامه أول صبح لأول عالم.

تعود أدرجها لتمسك بالشيء الذي لا تقدر كم هو ثمين لأمها وأبيها. تقلبه يبالغ التركيز.

تكشف أن الأصابع قادرة على تمزيق أوراقه، فلا تنورخ إلى أن يأتيها الصراخ الضلحك بالتوقف.

تغير الرضية اتجاهها وتصدني مسرة على أطرافها الأربعة وأنا جالس على الأريكة أتأملها.

تتوقف في نصف الطريق لتعود الجلوس وقد أمسكت بين أنملها بشيء لا أتعرف عليه. تطيل التحديق فيه ثم تضعه في فمها. ماذا وضعت فيه هذه المرة؟ لأراقب ملامحها. لا شيء خطير أو مزعج. إذن لتواصل تذوق العالم؛ فاللسن بعد العينين-أهم أدوات الاستكشاف.

تنبيه حرة لانتباهي فتبتسم. أصرخ فيها أن تأتيني مسرة لأقبلها وأدغدغها وأعضها وأمازحها وأحكي لها أولى الأفكار بخصوص قصة القصص التي بدأت ملامحها الكبرى تتشكل في ذهني.

ترمي الرضية برحيتها على الأرض وتعود إلى زحفها الراكض إلى أن تصطم بالطولة الواطئة. تنتصب من جديد على قنميتها لتبدأ العبث بفنجان القهوة.

- ممنوع، ممنوع يا بنت. قلنا ممنوع. القهوة لي فقط ومن المستحسن ألا تراق على بنطلوني.

تلاحظ البنت تغير النبرة فتتوقف لحظة. تترك الفنجان لتستولي على الملعقة وتبدأ في الخبط بها على الطاولة. تتوقف وقد فوجئت بالضجيج. ثم تنتبه للمعجزة الجديدة. هي قدرة على إحداث نفس الصوت بنفس العملية، وإلى ما لا نهاية.

تعود لتسلط علي نظرتها الثاقبة. كأنها لم ترى فيها هذه المرة منعا وتقريبا. يشتد الخبط. أه، يا رأسي. يكفي من هذه الملعقة اللعينة. رحماك يا بنت. اتركي هذه الستائر وإلا سقطت على رأسك. الهاتف ممنوع وهو لم يفعل لك شيئاً، فلم العدوان الظالم عليه؟ لا، لا، كل شيء إلا أضرار الكهرباء. يا إلهي، أين اختفيت!

الحل إرجاعك ل”جوانتانمو” لأخلص من ضجيج الملعقة ومن إرهاب الجري وراءك لمنعك مرة من تمزيق الكتب ومن جر نباتات أمك على الأرض. ستحتجين لحظة متشبثة بالقضبان الخشبية تمارسين علي الضغط والابتزاز ببياء فيه كثير من التكلف. لكنك ستجلسين سريعاً لمواصلة أبحاثك المعقدة في أرنب الصوف والمكعبات الصفراء واللمية لاصامة. لا، لن أحبسك وقد جئت لأبصرك في أولى مراحل الرحلة وأهمها. كوني بننا طيبة، لجلسي بهدوء على ركبتني بانتظار أن أدون بعض الملاحظات على حاسوبي النقال. كل العالم في هذه المرحلة من الرحلة مختزل في تجربة حسنة شعورية قوامها استكشاف الأشياء عبر ما تثيره من أحاسيس البريق والبرد والحز واللينة والمقاومة والألم... واستكشاف الكائنات الجبارة المحيطة عبر ما تثيره من مشاعر الخوف والطمأنينة والتعجب والفضول.

تقطع علي الرضية سلسلة الأفكار وهي تتحرك بعصبية فوق ركبتني كأنها تريد شيئاً.

الفأرة!

وفي أقدم ملفات ذاكرة الطفل والكهل تنتهد "ما" والبصر شاخص نحو الأفق:

- يوم وقتت على رجلبك وأنت لم تبلغ سنتك الأولى زغردت ثم قلت يا ويلي من هذا الطفل الذي لا يكف عن الحراك. كل من عرفوك فيما بعد سموك الفأر.

يوم يقف الأدمي أول مرة على رجلبيه!

إنه يوم أغز حقا، فلماذا لا يؤرخ له كل مسافر، ولا تضرب له الدفوف وتتطلق الزغاريد وتتصب الموائد وقد رأيت احتفالات لأحداث أقل أهمية بكثير؟

ها أنت تحرك رجلا ترفعها بصعوبة وترميها على طبق تظنه صلبا لا تعلم أنه يطفو منذ القدم على أنهار من التار. ها أنت تواصل تحسس سطح البسيطة بحذر في محله، والعثرة تلو العثرة تنبؤك أن الطريق مسلسل عثرات. ينزاح عنك الخوف تدريجيا فهمت سر العملية وأن المشي ضرورة فقدان التوازن ثم تداركه.

كأني بالعالم يهمس في أذن كل رضيع مشجعا ومطمئنا! والآن تقدم، لا تخف أن تخسف بك أرضي؛ إنها تحمل الجبال الرواسي منذ الأزل، ولا خشية أن تكون أنت بالذات القشة التي تقصم ظهر البعير.

**

أو كيف تتضح تدريجيا كبرى ملامح العالم

لو تابعنا القادم الجديد وقد عرف كيف يستعمل رجليه لأرهننا وهو لا يكف عن الركض والرقص والنط والتسلق والهرولة . لكن أهم ما يميز هذه المرحلة من الرحلة اكتساب أهم أدوات دخول عالم الأدميين والانخراط فيه: الكلام .

هل ثمة شيء يميزنا عن بقية الكائنات التي تقاسمنا هذا الكوكب أكثر من الكلام وهل ثمة أداة تواصل أهم منه طوال الرحلة ؟... نحن نتكلم للتعلم من بعضنا البعض... نحن نتكلم لكي نقول لرفاق الرحلة لا أمثل خطرا عليكم فبادولني التطمين بأحسن منه... نحن نتكلم لتبادل الأحاسيس والمشاعر والأفكار... نحن نتكلم في كل المواضيع من آخر الإشارات عن أعتابنا وأحبابنا إلى طبيعة العالم الذي نعبر والبشر الذين نخالط ووجود الله من عدمه... نحن نتكلم لتنسيق جهودنا حتى نسرع بالوصول لأهدافنا المشتركة... نحن نتكلم لمجرد المتعة عندما نكتشف سحر الكلمات وهي تصف بكيفية أخرى قسمي ذلك شعرا... نحن نتكلم لنضحك ونضحك لما ننتبه فجأة لغرابية ما نقول وما نفعل... نحن نتكلم مع الآخرين لكن الحوار الصامت مع أنفسنا لا يتوقف أبدا . نحن نتكلم منذ ولادة جنسنا البشري ونقل خبرتنا بهذا العالم جيلا بعد جيل بما نخط من صور على جدران كهوف ما قبل التاريخ، عبر ما نكتب على صفحات الكتب، عبر ما نسجل في هذا العصر على الأقراص المضغوطة وغدا على شوارذ الذرات... كل هذا والكلام من المهد إلى اللحد ومن جيل لآخر هو الذي يفرزنا ويبعثنا، هو الذي يجمعنا ويفرقنا، هو الذي يبنينا ويضللنا وهو دوما ما يجعل من حياتنا نعيما أو جحيما لا يطاق.

الطفل قادر الآن على تسمية الأشياء التي تتراحم داخل الغرفة الصغيرة التي ينام فيها مع أمه. ثمة الحصى على الأرض، القربة على الحائط، القلة أمام الباب، كانون الشاي والبراد الأزرق وكيس الفحم والطاولة الوائنة التي فوقها قصعة الأكل في ركن من الأركان. بخصوص الكائنات الأولى التي تم رصدتها خارج وداخل هذه الغرفة ثمة العنزة والنجاعة والنيك والقط والحصار والجمال. ثمة الذباب الأسود بأسرابه الكثيفة وطنينه المزعج خاصة أيام جني الثمر. ثمة نوع ثالث من الكائنات لا مبرر مقنع لوجودها اسمها الأفاعي ومن بين عاداتها المقيمة الدالة على سوء نيتها وقلة تربيتها، الاختفاء داخل الرمل وحتى في طيبت الأمتعة بنية القتل وليس فقط كالذباب لمجرد الإزعاج.

ثمة أيضا الكم الهائل من الكلمات التي تمكنه من تمييز مكونات العالم البالغة الحضور والتأثير : الريح ، الرمل ، النخيل ، الشمس، لنجوم والقمر . كل العلامات القارة لأول ديكور للعالم سيعرفه الطفل.

المهم أيضا أن بقدرته تبادل المعلومات وحتى الرأي مع البشر الذين يحيطون به وكلهم يتشاركون في اتفاق ضمنى على أن اسم المعزة هو لذلك الحيوان اللطيف الذي يعيش في

الركن الغربي من الحوش وليس للحيوان الذي يركبه جده عندما ينطلق كل صباح لمكان مبهيم اسمه الغوط لا بد أن يكون فيه كلنات وأشياء أخرى لا يعرف لحدّ الآن أسمائها. ترى أين هو هذا الحقل الذي يذهب إليه هو وحماره الذي قرر الطفل إطلاق اسم عنتر تصرخ الأم في طفل في الرابعة أو الخامسة بشدّة غير معهودة فيها:

- أدخل الغرفة بسرعة. ألم أقل لك مرارا: لا تخرج أبدا وحك عند هبوب الريح!

يظن الطفل من بين ذراعيها هاربا من جديد لوسط الحوش، يروّض خوفا لا ولن يقبل بوجوده داخله أبدا. ثم كيف يضيق فرصة تُلّث شيء جديد مثير كهذه العاصفة؟ هو الآن مختبئ وراء نخلة يجيل البصر مبهورا في اكفهرار وجه السماء والموجات الخلطة من الضياء تتللى بعصبية متزايدة كلن إليها يتدح ولأعة تعاكسه، أو كلن غريتا أشعل في كبد السماء مصباحا من "النيون" يرفض العمل.

تتزايد سرعة ومضت المصباح الخفي وراء جبال قائمة مبالغة في البعد، مغالية في التعالي، تنذر بما لا يحمد عقباه. يتصبب الطفل عرفا ثم يبدأ في مراجعة حساباته بخصوص قرار الخروج للقوط جريا وراء جذه يساعده في سقي النخل. تعبّره لحظة فكرة أن الصحراء غاضبة على ما ارتكبه الأطفال خاصة هو من حماقات.

تركض الأم وراء طفلها وقد اكتشفته مختبئا هذه المرّة وراء أطول نخلة الحوش يمسح الرمل عن وجهه. تدفعه بقوة إلى الغرفة الصغيرة، تحميه من جنون الريح تطمننه وتطمئن نفسها:

- هل تشعر بحرقّة في عينيك؟

- اتركنيني، أريد أن أذهب للقوط. جدّي هناك ينتظرنني.

- ألم تسمع كم طفلا تاه في الرمل، خطفته العاصفة من أمه وأبيه؟

- جدّي سيجدني. هو أحسن من يفتقي الأثار.

تصرخ الأم لتسمع صوتها وسط صفير الريح والرمل يصفع الباب الخشبي للغرفة كأنه يريد الإجهاز على صيد طال ترصده: كفى الآن، لا خروج قبل نهاية العاصفة. زارت العاصفة أم لم ترأر يجب أن يخرج الطفل لأحبّ أمكن الواحة الى قلبه حيث له موعد متجدّد مع أهم معلم من معالم العلم.

يصرخ في أمه محتجا، مهددا، ميّزا ومتوسلا

- أريد أن أذهب للعين حالا، حالا، الآن، الآن، أريد السباحة في العين مع اصحابي.

- نعم ستهذب للعين بعد سكون الريح شريطة أن تعدني أنك لن تغسل المعزاة مرة أخرى بماء القلّة. إنه شرابنا لكامل اليوم.

- وهل يجب أن أقبل الماء كما تفعلين عندما تلثمين الخبز قبل أكله؟

يتعمق ربع الابتسامة.

- حقا أنت؟ حلوف؟ كبير، لا يفوتك شيء. لا، ليس عليك أن نقبل الماء، أكرمه فقط بعدم تذييره. انظر ما يتكلف جدك حمد وحماره عنتر من عنتر ليكون هناك دوما في القرية والجرة ما تشرب.

يقولون إنه بلا طعم ولا أطيب من مذاقه عندما يجف الحلق ويصل أوجه عذاب العطش... يقولون إنه بلا لون هو الذي يقبل وتقبل به كل الألوان... يقولون إنه بلا شكل، هو النهر المتدفق، الجليد الساكن، الضباب الكثيف، البخار الخفيف، وما تمخضت عنه قريحة السحاب من لوحات السماء... يقولون إنه بلا رائحة لعجز اللغة وقصور حاسة الشم... وهو في كل الحالات والأشكال القوة التي لا تضاهيها قوة.

وشاهدت كيف النهر بينل مائه فلا بيتغي شكرا ولا يدعي فضلا (إيليا أبو ماضي)
وكيف يزئ الطلّ وردا وعوسجا وكيف برّوي العارض الوعر والسهلا
تجيء إليه الطير عطشى قترتوي وإن ورتته الإبل لم يزجر الأبلاب
ويغتسل الذئب الأثيم بمائه فلا ثمّ ذا يمحي ولا طهر ذا يبلي

لا خيار للطفل غير الانتظار إلى أن تنتهي هذه العاصفة ومواصلة سماع أم تواصل رواية آخر ما في جعبتها من قصص عواصف الربيع وعدد من فقتوا فيها الطريق والحياة أحيانا.

- خرجت المسكينة من الخيمة في لحظة مثل هذه لقضاء بعض حوائجها. وجدت بعد أيام مَيّنة على بعد بضعة أمتار من الخيمة وقد حجب عنها الرمل معالم الطريق.

تنتهد الأم ثم تنطلق منها الصرخة التي لن يساها الطفل أبدا:

- يا بني، فرّج الله كربتنا وأخرجنا من هذه الأرض الموحشة، إنها بوابة جهنم، الله يسامح والدك الذي رمانا فيها ونسينا.

ثم تعود للنصح والتحذير وتلك مهمة كل دليل رغم تواضع النتائج.

- احلف برأس أبيك أنك لن تخرج أبدا لعاصفة الرمل، أنك لن تبعديني. من ذا الذي سيضحكني ويخفف من أجزائي؟

نعم، لكن كيف يمكن للطفل استكشاف العالم إن لم يقبل بخطر الضياع فيه؟ بل هل جننا أصلا لغير متعة الضياع!

وفي ملف آخر يؤكد "با" ما روته الأم عن ضرورة الانتباه للصحراء يوم تكثرت عن الأنياب: لما هبت الريح، فقدت كل أثر لرفاق خرجت وإياهم نصطاد الغزال الشارد. ركضت وراءهم يوما كاملا والريح تمحو الأثار. ولما بدت الشمس ترميني بأشعتها كلاسيد يرمي صيده بالنبال المطلية بالنل، ولا طريق يدلني عليه إنس أو جن، أيقنت أنني هالك. ثم تنكرت كيف يكون المشي عندما يضيع الطريق. حفرت لي في الرمل حفرة دخلتها أنتظر غروب الوحش. عند مجيء الليل خرجت منها لأمشي والنجوم وحدها الدليل. هكذا بقيت تائها أيما بطول أشهر أحفر الحفر أختبئ فيها نهارا وأمشي ليلا إلى أن وصلت

واحة تواصلت بوصولها للحياة. لا يغرنك يا بني من الصحراء جمالها. ويل لمن لا يحمل على محمل الجدّ تجهّمها وويل أيضا لمن لا يرفع تحديها.
تعود الأم لدورها الأزلي تفسّر من جديد وتحدّر عيبًا.
- يا بني، نعم هدأت العاصفة لكننا في عزّ الظهيرة، لا مجال للخروج الآن، ثمة من مات بضربة شمس.

كم سمع الطفل من تحذير بخصوص هذه الشمس المعلم القار المتحرك في العالم.
- يا بني، لا تنظر هكذا إلى الشمس فإنها ستؤذي بصرك.
هو لا يريد أن يسترق إليها النظر فحسب وإنما مواجهتها مرفوع الرأس، شاخص العينين، لا تختلج له عضلة.

يشيح الطفل برأسه حتى لا ينگسه، مقتنعا أنه لا يترك التحديق في الشمس لعجزه عن المواجهة، وإنما لأنه لا يريد أن يغضب أمه.

- "م1، هل يمكن للشمس أن تسقط فوق رؤوسنا؟

لا ينتظر جوابا، وقد اختار رده وبدأ يتفاعل معه. ها هو مشغول بالجري وراء برتقالة ضخمة سقطت لتوها من سقف الفضاء، صوّب نحوها سهما استقرّ في كبدها فبوت من عليائها كالطير الجريح. ها هو في فضاء خياله يمدّ يده بحذر نحوها ثم يسحبها بسرعة السهم وقد لسعته حرارة جمر "الكانون". الحلّ أن يريق على الجمر الملتهبة بعض الماء ليلاعب بها بعيدا عن الأنظار. ثم ينتبه إلى خطورة فعلته والظلام يزحف من كل الأفاق.

- اسم الله على ابني. كلمني. ما بك؟

- لا شيء، لا شيء، قلت لك لا شيء.

فلت الطفل من ذراعي أمه. يهرول راكضا، يرمي بحصاته الشمس، لاعنا ما سبّبت له من رعب وقد سكن لحظة عالما طلي بالفطران.

الطفل الآن حبيس الحوش. ممنوع عليه العودة للهضبة التي تسميها لغة أهله "العرق". لن يجلس على رملها الناعم يتأمل تموج التلال لشقر إلى ارتطامها بالأفق. لكنه سيغافل أمه أول فرصة استتباب السلام الحذر ليعود إلى موقع مشاهدة يجذبه كما يجذب المغناطيس ذرات الحديد. ليس له موعد مع أبيه هناك وأمّه تعدّه أنه سيخرج يوما من الطريق الذي وراء الكتيبان؟

يغمض عينيه ليرى بخيال في بداية تجريب قدراته أجداده يتقدّمون بخطى بطيئة ثابتة في فضاء بلا حدود. إنهم الأوائل، الغزاة الذين دخلوا هذه الفيافي أول مرة، الفاتحون للطريق فيه بكل صبر على ما لا يطيق من الأوجاع.

تأتي الكهل وهو يتفحص مشاعره أن فيها إعجاب وغيرة ونكهة من حفيظة. الملاعين... هم لم يتركوا للأحفاد غير طرق معبدة لا متعة فيها ولا خطر.

كأنني بأثباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة، تبتّ عبر الزمان بدورها مشاعر فيها التعجب ثم حفيظة واضحة، ولسان حالها يقول: لا بأس أن تباذلنا رفاهتك بالذي عشنا ونحن

تأنهون في هذه الصحراء لا نعرف لها بداية أو نهاية، تكاد نهلك فيها هلعاً وجوعاً وعطشاً...
وخذ ما شئت من رعبنا ومن انبهارنا البكر.
الظلام أخيراً بعد طول الترحي ونفاد آخر مخزون من الصبر.
- "ما"، لماذا لا نرى لشمس إبان الليل؟
تجاهد الأم للحفاظ على وقارها.
- يا بني، ألا يكفيننا ما نفاسي منها طوال اليوم، وتريدها فرقنا حتى بالليل.
- أنا أعرف أنك لا تحبين الشمس.
- لا أحبها! أنا أبغضها.. أقصد شمس هذه الربوع.
يستيطن الطفل الشَّد والجذب في المعلومات المبهمة التي يتلقاها باستمرار حب ابيه
للصحراء وبغض أمه لها خاصة وقد جاءتها هي وطفلها مرغمة ودبعة عند عتلة الزوج
الغائب بانتظار رجوع لا أحد يعرف موعده.
أفتح هنا القوسين لأعرب عن اختلافي التام مع "ما" رغم احترامي لرأيها وشرعية حبها
لأراضي خضراء على مدار السنة تحمل أجمل بساتين الزيتون والعنب.
صحيح أننا كلنا نكتشف العالم في زمن لم نستشر فيه ندخله ومن مكان لم نختره ولكن العالم
يتجلى لك بكل روائعه من أي مكان تنخله وفي أي زمن تتبلور فيه. لكنني أقولها متحملاً
كامل مسؤوليتي أنه لا يوجد مكان أحسن لدخول العالم من بوابة الصحراء، شريطة أن
يكون الدخول ليلاً.
نعم الصحراء جهنم في عز الظهيرة وأروع مكان على سطح الأرض عندما ترحل الشمس
عنها .
تستدرك "ما" وقد فهمت أن طفلها لا يحب قحها في الصحراء وتهجمها على شمس الأب
والجد:
- لا أجمل من شروقها حتى هنا... لكن... لماذا تتقلب فيما بعد إلى...
تصمت "ما" لحظة، تصيح السمع للضوضاء المتصاعدة من الركن الغربي للحوش حيث
يرقد الماعز خلف ستار من سعف النخل. تبتسم وهي تسمع ثغاء الجدي المولود الجديد. ثم
تشخص بصرها نحو الأفق، تحلم مفتوحة العينين.
- آه، الشمس هناك في الشمال حيث قرية جنتك... كم هي ألطف وأرحم!
- "ما" هل لكل قرية شمسها، وشمسنا أحرّ شمس؟
- لا يا حبيبي، إنها نفس الشمس، تشرق وتغرب على كل الناس أينما وجدوا.
يستوعب الطفل معلومة هائلة ستطبع إلى النهاية تصوره للعالم: إن له ثوابت يعرفها الناس
جميعاً ويتشاركون فيها منها أنه لا توجد إلا شمس واحدة.
كأنّ الجوّ السحري رفع عن روح "ما" تحفظاً بقيت إلى آخر نفس تخفي وراء حساسية
مرهفة وخجلا دفيناً. بصوت يكاد لا يسمع، تأخذ في الترنم بأغنية لمغنية لا يحبها إلا
الفلاحون والفقراء.

- "ما"، من بنت المحاميد هذه؟ ولماذا اسمها "عيشة"؟ هل تعرفينها؟ لماذا لم يكملوا نقش
"البخونق" الذي تليس؟ هل كان ثوبا سحريا تختفي داخله فلا يراها أحد؟
تضع الأم إصبعها على فم طفلها لعله يصمت لحظة.
هذا طفل قزّر ككل الأطفال أنه لن يقبل الاستسلام للنوم حتى لا يفوته شيء أو لحظة من
العالم السحري ولتقل "ما" ما تشاء.
- أنا و"با" وجدي نحب القمر. أعرف أنك أيضا تحبينه كثيرا. سأنتظر طلوعه معك.
- قد يأتي متأخرا هذه الليلة.
- لا يهم، سأسهر معك إلى أن يأتي.
- أمر سيدي ومولاي، لكن لا تتهرني إذا حلاك النوم.
قد يكون سبب حبّ الطفل للقمر ما يشيعه ظهوره من ارتخاء محبّب، ففي الليالي التي
يستدير فيها وجهه تكتسب ملامح العالم كل ما يزخر به من هدوء وجمال. تنتفي عنه
الوحشة والسحنة المكثرة التي يتخذها عندما يتسريل بحالك الظلام. ما إن يرتفع في كبد
السماء حتى تتراجع الكوابيس والأشباح. كيف لا يكون صديق الأطفال، لا فقط حليف
الأمسوس والعشاق؟
هذا طفل ما زال بعيدا كل البعد عن معرفة الفضل الحقيقي للقمر على الأطفال واللصوص
والعشاق والأنبياء. من أوحى للشعراء بأرقّ وأجمل الأشعار إلا هو؟
من علم الألمي النسق والإيقاع حتى وإن وجب أن نعترف مكرهين ببعض الفضل للشمس؟
من غيره أوحى لنا أنه لا بدّ بعد كلّ غياب من رجوع، وبعد كل رجوع من رحيل؟ ثم أكنا
نخترع مفهوم البعث لو لم يكن لنا هذا المعلم؟
"كم عمر القمر؟ (إيسا)
ثلاث عشرة سنة.
تقريبا!"
أهمّ من كل هذه المشاكل فرضيات الطفل عن الصلة بين القمر وبين الهلال.
- "ما"، حتى يبقى دوما الحوش مضاء، يأتي القمر ولما يتعب من العمل يتبعه الهلال.
تحاول الأم التصحيح:
- هما شيء واحد يا بني. ينمو الهلال، وعند كامل استدارته نسميه القمر.
- لا يمكن أن يكون الهلال هو القمر. إنه شيء آخر. لو كان كلامك صحيحا لوجد هلال
للشمس.
تبتسم "ما"، تداري حرجا. أليكون للشمس هلال لم يقطن له إلا طفلها؟
- "ما"، لماذا يوجد قمر واحد بينما هناك كثير من النجوم؟

¹ نسيج من القطن يوضع على الرأس وينسدل على الكتفين إلى مستوى الخصرة تحمّره النساء البدويت
خارج بيوتهن (لناشر)

- لنفس السحب الذي لا يوجد إلا لطفل واحد مثلك، كل ثمين يا حبيبي فريد.

موضوع آخر سيأتي وقت نقاشه. المهم الآن كل الاحتمالات التي يمكن عرضها على "ما" دون إثارة ضحكها، وغدا على "يا" لإثارة إعجابيه.

أولى النظريات أن القمر كوة كبيرة قد تمكن جسمه للنحيل يوما من التسلسل عبرها إلى ما وراء ستار الظلام. ثمة أيضا إمكانية أن يكون بالون عيد الكائنات الجبارة التي تسكن النجوم. وفي نوبة من الإبداع الفني، يجعله الطفل فانوسا يمسك به الكائن العطوف الذي تصلي له أمه، يهش به على العفاريات التي تملأ أحلامه، وبغيا به تعود الأشباح المخيفة التي تملأ ساحة الحوش، تترصد به وراء أشجار النخيل.

هو سيحافظ يوم يكبر على صورة الفانوس ليحور -بكيفية جذرية- وظيفته في اللوحة الجديدة بعد أن أصبح العالم في ذهن الكهل اليائس المرهق محتشدا كونيا رميت على سطحه الكائنات الأثمة لقضاء عقوبة اسمها "الحياة". يصبح مصباح الليل عين حارس المحتشد الأور، ذلك المدعو في قصص قومه "إبليس".

لم تكن رغبة معرفة طبيعة القمر الحقيقية هاجس هذا الطفل وحده، وإنما هاجس الأطفال على مر العصور. لذلك رصدوا حركاته، تجسّسوا على كل طريق يتبعه، وكتبوا تغيّر ألوانه وأشكاله، ثم رسموا بين النجوم طريقا وأتبعوه إلى أن حطوا الركاب على سطحه لينتفصوا الصعداء وهم يشاهدون بأمر أعينهم ولحدا منهم يقذف القدم وراء القدم فلا يترجح البدر ولا ينفجر كالبالون الذي رشق فيه مسمار.

يعود الطفل لأسئلته الغريبة التي لا تتوقف أبدا.

- "ما"، من ماذا صنع الله الشمس والقمر؟ لا، لا تقولي، أنا أعرف، لنا أعرف الشمس مصنوعة من ذهب قرطيك أما القمر فمصنوع من الفضة كالتي حول معصمك. أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

- فكرة مثيرة، لكن صدّقي، يا بني، لا أدري.

- سأقول لـ "يا" عندما يرجع أنني اكتشفت مما صنعت الشمس ومن أي شيء خلق الله القمر. سيكون متّفقا معي في كل ما أقول.

- أخشى يا بني أنه سيكون عليك أنت أن تتفق مع كل ما يقوله هي.

- "ما" أريد أن تروي لي أططططططول قصة في الدنيا، أنا أحب القصص لكنك...

- نعم، نعم، لكنني لا أروي لك الكثير منها، لست مثل جدّتك التي...

- لا، لا، تعرفين لكنك لا ترينين...

تضحك "ما" بجرج.

- صحيح أنني لا أحب القصص... قد يكون لأن جليها للتخويف أو لتزيين الواقع.

هل نطقت "ما" حقًا هذه الجملة أم أن النصّ يقولها ما لم نزل في إطار إعادة صياغته للأحداث وتزيينه هو للواقع؟ ربما قالت شيئًا من هذا القبيل على بذهن الطفل وأعدت ذاكرة

الخيال صياغته بعد عقود. أليست هذه هي القناعة التي ترسبت في ذهنه بعد طول الاستماع لقصص الأعمىين؟

يعود الطفل للكلام وهو مصّر على ألا يتوقف عنه ما زال تحت وطأة اكتشاف كل ما يزخر به من إمكانيات لاشباع فضوله وخاصة لمنع التواصل مع أمه من أي انقطاع. تقاطعه الأم تضع أصبعها على فمه هامسة في أذنه: أتصت.

- أتصت لأي شيء؟

- للصمت... لكل هذا الصمت.

الصمت الذي سيجلم به الكهل طيلة الرحلة وهو دوما محاصر، مهتد، معتدى عليه بكل ما يصدره الأعمىون من صراخ وتأوه ونواح وتصرّع وشخير وتسباب وهتاف... لا خوف أن تتجاسر أي من الكائنات التي تسكن الصحراء على رفع عقيرتها بأبي ضجيج منكر ووقارها ليلا يثني عن كل ضجيج بذية وعن كل جدل عقيم... حتى أرق الموسيقى خطأ نوق غير سليم وقد أصبح في حضرتها كل نغم مهما سما نشرا... في تلك المكان الذي لا يشبهه مكان، في تلك الليل الذي لا يشبهه ليل، في تلك الصمت الذي لا يشبهه صمت، يتضوّع الجوّ إبحاء ووحيا لمن يعرف التقطط الإشارات فيتجدد التواصل بين السماء والأرض... ولأنه لا الجبل ولا السهل ولا البحر قادر على استخراج ما تستخرجه الصحراء ليلا من أعماق النوات، حكم عليها وعليها وحدها بإنجاب الأنبياء... هكذا وقف كم من أممي في حضرة أبيه صور الجمال والجلال همسا لنفسه وللنجوم: نعم تنكّرت الآن من أنا، تنكّرت من نحن وماذا نفعل كلنا هنا!

يتقدم الليل والطفل يغفو ويستيقظ بين ذراعي أم جالسة بين النخيل تتلمّ سماء هي الأخرى كإصحراء مغرقة في الصمت... أو هكذا يبدو.

لا الطفل ولا أمه يعرفان أن هذه السماء الساكنة تخفي وراء وقارها الخادع دوي انفجار شمس أين منه دوي ألف رعد ورعد، وهدير مجرات تتناطح أين منه هدير ألف محيط ومحيط وعويل رياح من نار ومن نور أين منه عويل ألف عاصفة وعاصفة، وصفير ثقوب سود تلتهم الكواكب كالكواسر وتلفظها كالبراكين. أمن حسن الحظّ أو من سونه أن بعدا لا يتصوره عقل يمنع عنّا ضجيجا أين منه ما نعرف من ضجيج

ينثبه الطفل وهو يغالب موجات التعلّس ليريق ما يتلألأ في حالك السواد الصامت.

يرفع رأسه يجيل بصره من اليسار إلى اليمين ببطء شديد. يباغته سؤال يعيد النشاط لذهن على وشك الاستسلام النهائي لسلطان النوم: كم في السماء من نجم؟ يجلس فجأة ليبدأ العدّ. لكنه لا يحسب أبعد من عشرة ويخلط في تتابع الأرقام. ثم تلتيه شوية الإمساك بوحد منها ليضعه في فمه وعلى الأذن علّه يسمع له صوتا، وقريبا من أنفه ليعلم أي عطر تفوح به النجوم. بعد ذلك تأتيه فكرة السطو على أكثرها بريقا ليكون هديته

ل "ما". يتردد خوفا من ردة فعل صاحب الكنز المثار.

سؤال آخر يرهق به ذهننا مشغولا في أن واحد بمشاكل الفلك وبمشكلة البقاء مستيقظا: ماذا لو كانت النجوم أضواء مشاعل قبائل غازية أتية من أعماق الفضاء تبحث لها-في ظلمة الليل- عن طريق إلى حيث النهب والسلب؟

إنها فكرة ستخيف "ما" لذلك لا مجال لمصارحتها بها. لا، لا هي رسالة مكتوبة له على سبورة السماء تمحوها الشمس كل صباح. قد تكون تقويا في ستر داكن أسدل بين عالمين: العالم الذي يعيش فيه هو وأمه والنجاج والماعز والعمات والأعالم والجذ، والعالم الذي يعيش فيه الكائن الغريب الذي تسميه "ما" الله. ألا تردد دوما أنه نور يوجد في السماء؟ كان واثقا أنه لو وضع عينه على أي من هذه الثقوب لراه جالسا على عرشه. أه، لو استطاع التسلسل عبرها ليلاقي هذا المختفي الذي لا يزيح اللثام أبدا!

كم استقر في هذا الكائن البالغ الحضور البالغ الغياب، الذي تتاجبه أمه في الجهر وفي السر، فضولا جارفا! كم صورا مشوشة عن هذا الذي يثير فيها رهبة خاشعة تنضح بها حركاتها وهي تقطع أعمالها لتتوجه له لا تلتفت لشيء أو أحد، ولا حتى إليه. ومن صورته في فكر الطفل أنه أنمي بالغ الطول، بالغ العرض، بالغ القوة، بالغ الطيبة، بالغ الاهتمام بمشاكل "ما"، فهي لا تبتهل بطلب إلا له، مرددة أنه لا سند غيره يرجى في هذه الدنيا. لا مجال للتأكد من الأمر إلا بالسفر إلى حيث يوجد. ما الحل وثقوب النور متناهية البعد ولا يمكن أن يصلها بقامته الصغيرة؟ بسيط: يجب الاستعانة بسلم، يوضع على سلم، يوضع بدوره على سلم آخر، وهكذا إلى أن يصل. قد لا تتسع الثقوب الصغيرة لمرور جسمه. ربما يجب المرور من ثقب أوسع.

الحل بالطبع: استعمال فانوس الليل عند اكتماله.

حانت لحظة "الإسراء" وقد أنقل النوم منه الجفون وانتهت المقارمة العيثية. يبدأ الطفل التسلق وكل درجة يعتليها تزيده خفة وجدلا إلى أن يصل الكرة المفتوحة. ينبث من خلالها كالقط المرح ليجد نفسه أخيرا وراء نقاب الليل في عالم لا مكان فيه لوحشة الظلام. تنتصب أمامه مصطبة شاهقة مفروشة بالسجد الفاخر، وفوقها شيخ مهيب تبدأ لحيته عند النجوم ونهايتها السحاب. يمدد الطفل قامته للصغيرة إلى أعلى محاولا التمعن في ملامح وجه مشرق بالنور.

يتيسم له الله برفق، ثم يأخذه بين ذراعيه، فيشعر-وهو جالس على ركبتيه-بغفاسه الهدنة على عنقه.

- ماذا تريد مني، يا صغيري؟

كم في هذا الصوت من رفق ومن حب! تتزاحم المطالب عن أب يريده عاد من الغربية ولا يجب أن يعود إليها أبدا، وعن أم يجب أن تكون أقل حزنا، وعن قصص علي بابا تروى له في كل وقت، وعن أجنحة على الظهر للطيران مثل العصافير، وعن عقد من النجوم لجيد "ما"، وعن مسحة جديدة للجد، وعن أتان جميلة يزوجها لعنتر لتخفف عنه وحدته، وعن ضرورة حضور الأجوبة عن كلالل أسئلته ليفهم كلالل شيء. تتسع ابتسامة

الكاين المهيب. يفهم الطفل أنه أخذ وعدا قاطعا. تتشبع روحه بالطمأنينة وتغمره سعادة فائقة.

يشعر على وجهه بيد تمسح شعره، ويسمع همسا رقيقا يأمر بالاستيقاظ.
- "ما"، لقد كلمت الله وقتلت له ...

ترتسم على وجه الأم علامات انزعاج شديد لا يفهم له الطفل سببا.

- إياك، ثم إياك أن تعود لمثل هذا الكلام، إياك!

تضع "ما" يدها على فم ابن كم تخشى عليه أحيانا... من ماذا بالضبط؟

يدرك الطفل من الاستياء في نظرة أمه أن هذه التي تفهمه دوما ترفض، لسبب مجهول، ولأول مرة، أن تفهمه وحتى أن تصغي لما أوصاه الله أن يبلغها.

- "ما"، لكنه قل لي...

- يا بني قلت لك كفى.

ينتبه الطفل أنه لا فائدة من مواصلة طرق باب سيبقى مغلقا مهما حاول فتحه. يفضل الاخلاص للنوم مجددا وهو لا يعلم ما الذي يخبئه له المنعطف الجديد من الطريق.

إنها آخر ليلة للطفل في صحرائه الغالية لا يعلم أنه سيرحل عنها وسيرحل بها كاملة لدخل وجدانه.

تنحني الأم على طفل نصف نائم، تقبله وتهمس في أذنه:

- انهض إنه الفجر

تهزّ ظلها برقة متزايدة الحزم فينهرها صارخا:

- اتركيني.

- انظر، سترى ما يعجبك كثيرا.

يجلس الطفل حذو أمه شاخصا مثلها نحو المشهد، ألجم خشوع اللحظة لسانه ولسانها. شينا فشيئا يتلون ثوب الليل بجمرة شاحبة، تصبح شعلة نور، تتحول إلى بحر قان. هل نمة حيوان كاسر فتح له للخروج من جنب الليل جرحا ينزف؟ كلا؛ إنها الشمس. تخرج من السواد بجلال متخذة لها لون ذهب مصقّى لم يتجدد بعد في سبائكها.

ما من شك في فضل بناء معابد ملثو بيتشام على البشرية جمعاء. لا أحد يعرف كيف كانت تربط الشمس عند الغروب إلى الصخرة المقدسة التي وضعوها وسط المعبد، ولا ما الحبل الذي كانت توثق به كما توثق الفرس إلى الودت. يبقى-أيا كانت التقنية المجهولة، وأيا كان الحبل العجيب-أننا ربما ندين لهم بثباتها على الشروق بعد كل غروب رغم كثرة ما اطلعت عليه من أسرار وما شاهدت من بشاعات.

تستغرق "ما" في صلاتها الصامتة جاثية على ركبتها وابنها فاغر فمه من الدهشة يتلع وجهه الله ينتسم. تفرغ الأم من صلاتها. تتوجه مبتسمة لابنها:

- لم تنتظر في الاتجاه المعاكس.

يتسمّر الطفل أمام معجزة جديدة. القمر في طرف من السماء، والشمس تواجهه في الطرف الآخر. كيف يمكن لشيء كهذا أن يحدث وهو الذي استنطن بأكرا أن لفتوس النهار نصف الزمان، ولفانوس الليل نصفه الآخر، أنهما لا يلتقيان أبدا في نفس السماء. إنها حالة يتخذها العالم الطاووس عندما يقرّر أن يفتن أنظار من دعاهم إلى مأدبة الحياة. بدهة لم يدخر الداعي المجهول أي جهد ولم يتراجع أمام حجم النفقات لتزيين دار الضيافة. أليبيرنا بغناه وحسه الفني المرهف؟ أم ليعوضنا عما سنلقى من عناء في دار ضيافته هذه؟

**

بداية الانتباه لمعلم الزمن وأنه نغم ايقاعه رقص الفصول

شيئاً فشيئاً تتضح وتثبت في ذهن الطفل المعالم الكبرى للعالم الذي أفق فيه. فوق رأسه السماء زرقاء اللون نهاراً حالكة السواد ليلاً مقام الشمس والقمر والنجوم والله. تحت قدميه الأرض وما تحمل من بشر وبعير وحمير. وراء غابات النخل كثبان الرمل وورائها امتداد مجهول سياتي زمن اكتشافه لما يخرج إليه بحثاً عن "يا".

تأتي مرحلة الانتباه لكون كل ما حوله لا يثبت على حال. فلشمس تشرق وتغرب والقمر يظهر ويختفي وعاصفة الريح تزار وتصمت ومغص الجوع يرحل ثم يعود. يكتشف الطفل يوماً أن للأيام وإن تشابهت نكهة مختلفة، أن هناك أحداثاً تأتي بمواعيد ثابتة يهر فيها الكل بل حتى هوائية كانت تصيبه لو أقيمت السوق الأسبوعية عند غروب الشمس أو غير يوم الخميس؟

ثمة يوم أدرك بلكر أهميته وأمه تفيق فيه وفي عينيها بريق غريب وهي تسارع لإعداد طعام لا تطبخه إلا في هذه المناسبة: عصبية بالسكر والسمن. إنه يوم ميلاد الإنسان الذي لا تنفك عن ذكر اسمه تتبرك به تترجى حملته من أخطار مبهمة. ثمة أيضاً الليلة المشهورة التي يخرج فيها الكبار إلى كثبان الرمل يتبعهم هو وبقية الصبية ينتظرون علامة من السماء، وبمجيئها تحل أسعد ليالي الأطفال وأشق أيام الكبار، والكل فرح راض بما يأمر به الهلال.

- "ما"، لماذا يذهب رمضان؟ أریده أن يبقى طول الوقت.

- لا تطلق يا بني، إنه عائد السنة المقبلة.

- أنت متأكدة؟

- رمضان لا يخلف وعده أبنا.

- أنت متأكدة، متأكدة، متأكدة!

- كل التأكّد. على كل حال هو سينتهي بالعيد، كم ستحبّ هذا اليوم.

العيد وما أدراك ما العيد! حتى الهواء مشبع ذلك اليوم بروائح الحبور والحب والأمل. المشكلة أنه يرحل هو الآخر تتبعه أيام لا لون لها ولا طعم.

ينتبه الطفل يوماً أن عليه مواجهة القَرّ بعد طول المعاناة من الحرّ.

لا مكان يلفحك فيه الهواء كوهج النار قدر الصحراء، لكن أين برد بلدان الجليد من بردها ليلة شتاء متجمّ. ها هو في فراشه يرتعش تحت أثقل البطاطين.

- "ما"، لماذا هناك شتاء وصيف؟

- إنها فصول السنة، يا بني.

- ما معنى فصول؟

- كبرى التغيرات التي يعرفها الطقس... أي الجو... أي...

- لكن، لماذا على الطقس أن يتغير؟

- هكذا هي الأمور كما أرادها الله.

يواصل الطفل بحثه عن المعطيات الضرورية لكي يتشكل العالم في ذهنه بأكثر ما يمكن من الوضوح ويواصل الكهل العمل عليها بالفكر والخيال في بحث لم يتوقف يوما.

- "ما"، هل هناك فصول أخرى غير الشتاء والصيف؟

- نعم يا حبيبي لفصول أربعة. سترى تتابعها جميعا عندما نعود لأرض جنتك، بعيدا عن هذه الأرض التي سخط الله عليها فحرمها الربيع والخريف مبتليا إياها بلهب جهنم أغلب الوقت ولبليالي الصقيع ما بقي من الزمان. ما أحلى الخريف هنا واللهب يشتعل في دولي العنب! ما أحلى الربيع وأشجار اللوز تعتمر تاج أزهارها البيض!

- "ما" هل هناك أماكن فيها خمسة فصول... أو ستة أو سبعة... ما اسمها؟

تكفكف الأم دمعها ثم تتبسم.

- "ما" لكن لماذا أربعة، لماذا أربعة فقط؟

نعم سؤال وجيه كأغلب أسئلة الأطفال. لماذا أربعة فصول فقط حتى في الأراضي الأكثر حظا من أرض الأبياء والأجداد؟ ربما لأنها تعكس رحلة العالم نفسه، الربيع ولادته والصيف شبابه والخريف كهولته والشتاء شيخوخته؟

- "ما"، أي فصل هو الأول؟ أيهم المفضل عند الله؟

تنخرط الأم في سمر سيدوم طويلا تعبث به طفلها وينسيها همومها.

- الأجل طبعاً... الربيع.

يتقدم الطفل لأول أيام الخلق مرحباً ومهنئاً بحسن الوصول.

يزيح الفنان الأعظم النقاب عن وجه السماء. يهشّ نافذ الصبر بعصاه وبيعض الريح على بقايا سحب عابسة بلون الرماد فتتصرف متأففة متوعدة برجوع قريب. ثم يمرر خرقة لامعة البياض على الشمس فتستعيد الألوان بريقها. على نكر الألوان، ليسمح لي بالتعبير مجتداً عن عميق الاحترام لهذا الغن القدير والاحتجاج على قلة انتباه جنّ المسافرين إلى مدى المهنية العالية التي تحلى بها وما يزال. هل عرفتم نهاراً طلع علينا والعالم مثل أفلام بداية القرن، ليس له من الألوان سوى الأبيض والأسود لنقص في التموين أو لإضراب في مصنع الألوان؟ كل المطلوب منها متوقّف على الدولم. صحيح أنه كان بوسع الغن الأعظم أن يظهر مزيداً من الكرم أي مزيداً من الألوان للسماء وللأشياء والكائنات يغيرها طول الوقت، حتى تتسارع كل صباح للنافذة لنصرخ مرة: ما أروع هذه السماء الوردية، وتارة أخرى: أفت، ما هذه الصفرة الغبية التي اتخذتها الأشجار، الظاهر أنه سيكون يوماً بطعم القرع.

تقول كفى دلالة يا هذا، انظر كيف يواصل الربيع رسم أروع اللوحات. ها هو يلثم أشجار اللوز والخوخ بارتداء أجمل الحلّي والحلل. ها هو يضرب على خشبة المسرح بعصاه

للتدافع الكائنات من مخابنها، تنفض عنها الخمول والحذر. تخرج أول فراشة تستعرض جناحها الجديدين بفتح. تتبعها أول نحلة يدل اضطرابها أنها ما زالت لا تحسن ركوب ظهر النسيم. تغادر بعدها أول نملة غارها، تفرك عينيها وقد أبهرها ساطع النور. يتسارع إلى أعالي الأشجار وقد أكمل زينته، أول عصفور مرتبك، والأمر بالخروج فجأة في آخر مشهد من حلم جميل. تتتابع بقية الكائنات على الركح إلى أن يمثل بها ويفيض.

هذا الربيع " ليسا "

حتى ظلي

مفعم حيوية

أن أو ان إطلاق الروائح من مخابنها. تسكرني ما تبته الحشائش والأزهار من رسائل الحب. يرفرف حول أنفي جناحان عصبيان. إنها نحلة تريد دسّ رأسها في أزهار البرتقال. مؤكّد أنها تعتبر نفسها صاحبة الأولوية والحق في مثل هذا القرب. أفتمل عدم الانتباه مواصلا الاستشاق النهم. تأتيني علامات مبهمة عن نفاذ صبر الزهرة، وأنها ضاقت ذرعا بأنف ليس من ورائه نفع. أسارع لاقتراح يضمن مصالح الطرفين. أبعث لها- عبر مختلف الفضاءات- بصورة أنف عبا فوق الجلد وفي الخياشيم ما تريد إرساله ليتمرغ في أحضان زهرة أخرى وأنفي هذه المرّة همزة وصل بين الذكر والأنثى. تسارع بلرفض وتسارع النحلة لما يلعب عندها دور السيف، تخرجه من الغمد. لا حيلة لي غير تركهما يتّمان صفقة لا تريداني-ظلمًا-طرفا فيها.

أه، كاد "السيد ربيع" أن ينسى من فرط عجلته الأهم. يرفع عصاه في وجه جوقه ما تزال خرساء. تتعالى من كلّ ما يمشي وينطّ ويطيّر ثرثرة لا هدف لها إلا متعة الهذر. تنقلب هنا وهناك همس غزل، ثم صراخ لذة الجماع.

نعم، ما من شك أن الربيع أول الفصول، وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب في عالم جنناه لفسحة تدوم الحياة كلها.

يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطل الكلام.

- لا، أول يوم للعالم كان بداية الصيف.

يتقدّم مرخبا بالصيف ومهننا بحسن لوصول. لا خيار للربيع غير جمع أغراضه والخروج المتناقل تعصره المرارة، هو الذي اعتقد أنه وضع للعالم أجمل وآخر ديكور. مهلاً؛ إنه راجع، فلا أحد يطيق له فراقاً.

يطرد القادم الجديد بفضاظة ما بقي متركدا من قطعان السحب، يريد السماء فارغة إلا من شمس كأنها قنتت من سبائك الذهب. تتراجع خضرة المروج مفسحة المكان لحمرة مصفّرة، وقد أصبحت الأرض مرآة لحمم الشمس. يفتح البحر أخيرا ذراعيه فيدخله الطفل سعيدا بلقاء موج عاد مضييفا بعد طول التمتع. تتخذ حركة الكائنات حدّة غير معهودة وكأنه لا وجود لمكان قادر على احتواء ما بالأميين من شيق. ترتخي الأعصاب بطول ليل يصل كالمندّ من السيف والنطع. ترتمي في أحضانها الكائنات ترخّب وتتمنى له طول المقام.

تتصاعد روائح الريحان والفَلّ والياسمين من حدائق البيوت ومن الحقول والبراري، ومن غابلت الزيتون تتصاعد أغاني الشوق والإغراء لكائنات صغيرة سوداء يستحيل رصد مكانها.

نعم، ما من شك أن الصيف أول الفصول وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب في عالم جنناه لفسحة تنوم الحياة كلها.

يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطل الكلام:

- "م"، أنا متأكد أن الخريف أول فصل لأنه فصل بداية الدروس، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

ترفع الأم الأزلية إصبعها في وجه الطفل وهي تسمح ما بقي عالقا بالجلد الأسمر من الرمل، تلمره بلهجة الحزم:

- انتهت العطلة. إلى المحفظة نملأها بالكراريس والكتب. حان وقت الجدّ والكّد.

يجمع الصيف حوائجه متأففاً من كل هذا الجحود. إنها قسوة الزمان حتى على الفصول.

يتقدّم الطفل لأول أيام الخريف مرخبا ومهنئاً بحسن الوصول.

يأتي الأمر للريح بتعرية الأشجار لأول غسيل سنوي فتمتلل للأمر على بالغ الاستحياء، وخسارتها ربح للأرض التي تندثرت بالأوراق الميتة سمادا لتجدد الحياة. وحده الزيتون يرفض عراء لا يليق بأشجار محافظة. كذلك الأمر بالنسبة إلى نخل لا يحني هامته لأحد ولا يترك ريحا تتجاسر على ما يحمل من جريد. وهذا فصل قادر على نوبات من الغضب العاتي تنهيه دوما حلاوة الصلح. تتحرك الحشائش على إيقاع الصغير. تلخذ الأشياء في التطاير كفراخ الحجل أطلق نحوها الصياد رصاصه الموت. تمتلئ السماء بأشلاء بقاياها وبيقايا أشلائها. تتحرك نباتات بأغصانها المحملة ورونا حمراء كأنها أذرع إخطبوط تضرب في الهواء لتنتفع عنها عدوان الريح. تتمكّن الرعشة حتى من أضخم الأشجار. يتزايد التمايل والتئنّي. يشدّ لغط الأوراق؛ تشنكي لبعضها البعض من ظلم العواصف. تصبح أنفاس العالم صغيرا مسترسلا ما بين طبقة صراخ المولود الجديد وغرغرة المحتضر. يتردد دويّ الطبول السماوية وقد طلبت قبة السماء بلون الحداد. ما أغرب أن يتكلم الأبيكم، أن يطير من لا جناح له!

كم من أسئلة تخمر ذهن الطفل المشدوه. من أولع البرق وأبين الطبول التي يصمّ قرعها الأذن؟ من يحرك هذه الجبال السوداء التي تملأ رحاب الفضاء؟ من ينفخ بكل هذه القوة على الريح؟ لماذا تصمت الأرض لا تردّ على تهديد السماء؟

نعم ما من شك أن الخريف أول الفصول، وأنه الذي اقتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب في عالم جنناه لفسحة تنوم الحياة كلها.

يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطل الكلام:

- "م"، لم تشاركيني اللعبة، أنا وحدي اخترت.

- هل تركت لي غير لشتاء؟ لست ضدّ أن يبدأ تشغيل الدنيا في هذا الفصل.

يتقدّم الطفل لأوّل أيام الشتاء مرحباً ومهنئاً بحسن الوصول.
يضرّب جسده النحيل بذراعيه. ينفخ بصوت عالٍ في أصابعه المتجمّدة من شدّة البرد. تتلأأ حبات الثلج في الوهج. تتطاير هنا وهناك لتحطّ فوق الأعشاب برشاقة الفراش. تهجم الأم الأرزلية على طقبيته تشدّها بقوة إلى أسفل الأننين محكمة وشاح الصوف حول عنقه متقدّدة بصرامة أزرار المعطف الثقيل. فصل قاس كما يقولون؟ بل قل فصل يقتصد في الأصوات والألوان والروائح كأنه يريد لك فترة نقاهة بعد فصول أصابتك بالتحمة أسرفت في العطاء. أمن بلب الرحمة أنه يمنحك أيضاً يوماً قصيراً مما يقلل بالضرورة من زمن أغلب ما فيه المشاكل؟

تلتهب النار في المدفئة تأتي بالاسترخاء والدفاء. ينقر المطر على سطح البيوت وزجاج النوافذ بضريلت خفيفة تأتي بنوم تتخلّله أحلام هادئة.
نعم، ما من شك أن الشتاء أول الفصول، وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل سلحات اللعب في عالم جنناه لفسحة تنوم الحياة كلها.

حتّى لا يتعلّل الكلام، يبادر الطفل أمه بأخر سؤال يتدافع على لسانه:

- "ما؟، طبعاً الفصول الأربعة إخوة، من أحبّهم عند أبيهم؟

غريب أن إشكالية ضخمة كهذه لم تستقرّ يوماً فضول مؤرخ أو عالم أو فيلسوف أو شاعر. حتى فيفالدي ويوسلن تقادا اتخاذ أي موقف، الأول مكثف بتعبّد الموسيقى والثاني بتعبّد الرسم.

لنحاول نحن الرّد على السؤال، متحمّلين كامل مسؤوليتنا في إنارة الأجيال الصاعدة.
إذا انطلقنا مما نعرفه عن طبيعة الأشياء والكاننت، وأنها لا تقبل الأولوية والريادة إلا لنفسها، وإذا اعتبرنا أن العلم كلّ أعجز من أن يختار بين مخلوقاته وكلها عزيزة عليه، فلا بدّ أنه حسم المشكلة مسرّاً في أذن الربيع: أنت الأول وثلاثتهم وراءك، وفي أذن الصيف: اصطفيتك من بين كلّ الفصول وثلاثتهم وراءك، وفي أذن الخريف: أنت سيّد الفصول وثلاثتهم وراءك، وفي أذن الشتاء: أفضلهم أنت وثلاثتهم وراءك.
إنها الدائرة التي حكم علينا أن نرتحل داخلها أكل التغيير الذي يفرضه سيلان الزمان تتابع الفصول أو تتابع الحياة والموت .

قد ندور فيها كمن يدور في حلقة مفرغة تكرّر نفسها بثبات عبثي ممل... وقد تكون لشكل الأصلح الذي يسمح لكل نقطة نهاية أن تكون نقطة بداية ولكل نقطة بداية أن تكون نقطة نهاية وذلك لتواصل مشروع عنيد بالغ القم على الدوام جديد.

**

الدليلان

في بعض أقدم مناقات الطفولة ينكبّ شيخ جليل على الطفل وأخيه الصغير، والدموع على خديه ليهمس في أذن "ما"، والدموع على خديها هي الأخرى تسيل:

- الحصباء وصيف الصحراء يا بنتي أكثر مما يستطيع الولدان تحمله. سأرجعكم غدا إلى أهلك في الشمال وعلى مسئوليتي سأبلغُ لبني بقراري وسبقه وإن غضب كثيرا. كل صلواتي أن يلتحق بكم حالما تتحسن ظروف البلاد.

ينتبه الطفل لأول مرة للفرق الهائل بين الصحراء والسهول الخضراء وكيف أن الله فرش على أرض الأخوال بساطا أخضرا رفضه لأرض الأعمام ووشّحه بما لا يحصى من أعشاب ومن أزهار لا يعرف لها اسما وإنما جمالا مبهرًا.

ها هو يركض على البساط الأخضر منقطع الأنفاس يصرخ راقصا لا سبب لسعادة عارمة غير هذا اللقاء مع اللامتوقع واللامتخيّل.

ثم ها هو يدفن رأسه عميقًا داخل الحشائش والزهور بحثًا عن كائن صغير يلعب به غير عابئ يتطفله على كائنات ملئت الطفوليين أمثاله.

يتفطن سريعًا لمعجزة جديدة: قطرة ندى مكورة شفاقة عالقة على العشب تنزلق على سطحه بمنتهى البطء فيخرج لسانه بشديد التأنى يدفعه باتجاهها عله ينجح، على صغر حجمها في التقاطها بنبابة اللسان. لن ينجح إلا في الاصطدام بالحدّ الجرح للعشب. ها هو يرفع رأسه، ينظر حوله، وعنما يتأكد أنه وحده، يبدأ برعيه بفضه كما رأى الخرفان والبقرة تفعل لبيصق بسرعة ما في فمه مقررا أن الماشية حقا كائنات غريبة بتفضيلها الحشيش على الخبز والتمر.

ثم يأتيه أذّ إرهاب فيستلقي على ظهره ليتأمل المشهد المنسوب فوق رأسه لا ينتبه لمرور الفقائق والساعات. الاكتشاف المذهل الآخر في يوم فاض بالخورق والمعجزات أن سماء أرض أمه، خلافا لسماء أرض أبيه، مليئة، بل تفيض سحبا تتخذ كل الأشكال، تتساب بجلال وصمت أثارا فيه تعجبا وإعجابا لن يفارقه في كل عمر وفي كل حقل، وهو على ظهره يستعيد طعم أول لقاء له مع القوافل البيض.

شيئا فشيئا تنقل جفونه بالنوم غير واع بعصبية أمّ وجدة تتحركان بقلق بين الحشائش العالية تبحثان عن طفل في الخامسة خرج ولم يعد، ولا أثر له غير الذي رسمته خطى صغيرة بين الأعشاب.

تتسارع نسوة من الأقارب والأباعد لمعينة بنت القرية التي تزوجت مغامرا وعدت مكسوفة من الصحراء بطفلين لا معيل لهما.

ينصت الطفل الذي يفعل النوم لهمس مسموم يعلمه بكرا أن بوسع الكلمات أن تكون أكثر ايلاما من اللكمات.

- آه، هنا هو الطفل الكبير! "الله بخليه لك". نعم، طفل جميل رغم سمرته. ربما ترحمت به على عبد وقانا الله من شر العباد وشر العبيد. ما اسمه؟ لكنه ليس اسما من أسماننا... آه، والده هو الذي سمّاه تيمنا بملكنا الطيب! ...

ترى أي مسار كانت تتخذه رحلتي لو كانت "م"؟ هي التي أطلقت عليّ اسما محمّلا بتعليمات وأمان صامته غير التي يحملها اسم ملك مقاوم سيموت مسموما ومنفيا اختاره الأب لابنه دون تفكير في تكلفة الخيار! أهم ما في هذا الاسم ليس تعريفك وتمييزك من بين جحافل الخلق وإنما إملجك في مشروع مبهم، في أمل واسع، في مهمة غمضة عليك الانتباه لها. لكن من أين لكل عمر أن يصبح للفروق الحازم العادل ولكل مريم أن تلد مخلصا والها!

تنتهذ احداهن بصوت عال تفعلت أقصى التعاطف والأسى :

مسكين حقا هذا الطفل. يقال في كل القرية أن والده ملاحق ومطلوب من البوليس. أرجو الله أنه ما زال على قيد ...

لا تجد أخرى لإظهار فطنتها طريقة غير الاستشهاد بالحدى حكم الفلاحين.

- يتيم الأب يتوسد الركبة ويتيم الأم يتوسد العتبة.

يثب الطفل من الحزن صارخا في لمة :

- لا أريد أن تموتي أنت أيضا، أسمعين؟ إذا متّ لن أكلمك أبدا!

تحكم الأم ذراعها، تسمح دمعها يتهاطل من عينيه ومن عينيها:

- اظمن. لن أموت، هذي من روعك.

- و"ميا" ... هل... هل ملت؟

- يا حبيبي، أبوك حي يرزق.

تجمع النساء حواجبهن يتلعثمن ببعض عبارات الاعتذار لاندات بالفرار.

من قال أنه إذا كان بقدره الأحداث أن تسوء إلى أكثر مما هي عليه من السوء فإنها لا تتردد أبدا؟

ذات ليلة تتعمق التجاعيد في وجه "ما". تجاهد لإخراج كلمت كأنها لتصقت بحلقها:

- أبوك في مكن لا يمكّنه من أن يبعث لنا مالا... يا بني... ليس... ليس لدينا... عشاء...

هذه الليلة فقط... جدتك ستزورنا قريبا... ربما غدا... ستأتينا بالكثير من خبز الطبلونة والزيت والزيتون وكلّ ما تحبّ.

تعضّ الأم على شفتها السفلى. تشيح بوجهها. ليس بالسرعة الكافية. تنساب الدمعة على

الخد قطرة ندى على ورق الورد. يصرخ الطفل: "ما! لست جائعا. وأقسم لك برأس "با" أنني لن أجوع أبدا، أبدا، أبدا.

تعبر عضلات وجه الأم اختلاجات عابرة كلن بها تردد بين ربع الابتسامة أو تفجّر الضحك.

تضع ذقنها على رأس ابنها ثم الخد المبتل على الشعر الأشعث. يدفن الطفل رأسه في صدر

أمه ليرفعه في اللحظة المولية صارخا وقد جاءته فكرة عبقرية أخرى:

- "ما"، سأشرب كثيرا من الماء حتى يكفّ المغص الذي في بطني.
تضع الأم إصبعها على شفتيه. يسود الغرفة صمت متهيب لا يقطعه إلا صوت مصباح
الغاز القديم وهو بين حشريحة المصنور وصغير الثعبان راميا بأخر ما في جعبته من نور
باهت مرتعش.

تتخلّل أحلام الطفل صور لعجوز تضع عينيها داخل فرن الطين تنتفخ بقوة على الحطب،
تسعل وتمسح بعينيها ورجل يخرج من العدم صارخا: يا امرأة عجلي؛ ابني جلع.
فجأة يشعر بأمه تهزه وبها شيء كالجدل: هيا. انهض. جدتك أتت لنا بقة فيها ما يكفينا
لأسبوع، وبعدها يفتح الله.

كانت أم "م" فارعة الطول، ثرثارة، مرحة تبرز من قريتها دوريا لتتفقد أحوال تعلم
صعوبتها. كان مجيئها كظهور شعاع الشمس بعد طول احتجاب. كانت تملأ البيت بصوتها
الجهوري، بضخامة جرمها، بألوان ثيابها الصارخة، بجوّ الفرح والحنان الذي كانت تخلقه
بمجرد ظهورها، بالخيرات التي كانت تحملها في قفها الثقيلة.

يجلس الطفل بين امرأتين تهلمسان لفظور من خبز ساخن وزيت لم ولن يضاهيه يوما
فظور. تلتحق بهما بعض نسوة الحيّ. جنن هذه المرّة للتهلمس في أمور خطيرة تقع وسط
المدينة الصغيرة وقد أفاقنت على حصار دبابات الاستعمار.

تصرخ الجدة في الطفل الهانج وقد نفذ صبرها من ضجيجها.

- إن لم تكفّ هرجك فلنّ العبيثة ستأتيك هذه الليلة وسترى ما ستري.

العبيثة! اسم الغولة في هذه الربوع. يا ما ستهنّده الجدة بهذا الكائن المرعب الذي يخرج
من غابة الزيتون ليفعل أفعالا رهيبة بالأطفال الشرسين سليطي اللسان.

يغمض الطفل عينيه، يترصد قلعا أن يبرز من الظلام شكل مبهم مرعب. يغرق في أمواج
مضطربة من خوف ممزوج بأشدّ الفضول. هل يريد حقا الفرار من الكائن أم لقاءه؟ يتعمّق
صمت الصمت ويغوص العلم في ظلمة لا قرار لها

يصدر الباب صريرا ويتحرّك شيء في الظلام. يتبّ الطفل على قنميه مرتعشا والحجارة
التي هربها معه إلى الفراش ملء راحته والذراع على أهية الرمي. هل سمع من قومه باكرا
إحدى مقولاتهم أم هل وجد وحده القاتون: سورة ياسين نعم لمواجهة الكلب، لكن مع
حجارتك دوما في الحبيب؟

تبادره أم جاحظة العينين من الدهشة:

- ماذا تفعل واقفا في الظلام؟ أي عبيثة؟ أه، العبيثة، إنها لا توجد إلا في الخرافات. نم
مطمئنا. أمك ساهرة على الباب.

يتنفس الطفل الصعداء. يعود إلى فراشه متمتما أنه لم يكن خائفا، أنه لا يخاف مثل "با" جئا
أو إنسا وأنه سيشتج رأس العبيثة بحجارته لو تجاسرت عليه. ثم يشب من فراشه ملتجئا
لفراش أم تقرّر الليلة إعطاه حق اللجوء.

يتوسع عالم الطفل تدريجياً ليكتشف كم فيه من روائع وأيضاً كم هو زاخر بأخطار غير التي رصد لحد الآن .

- "ما" من أخطر؟ العبيثة هنا أم الأفعى في حوش جدّي؟

- أولاد الحرام.

- أولاد الحرام؟!

أولاد الحرام! من هم بالضبط؟ كيف يكونون أخطر من العبيثة؟

هو يعلم أن أمه تخفي عنه سراً له علاقة بأولاد الحرام الذين تتهامس بخصوصهم مع الجدة وهم ليسوا جنا أو غاريت، إنما من البشر لكنهم، لسبب جهله، يريدون الشرّ به وخاصة بـ "ب".

هذا عالم أولى وأقدم العلاقات به الخوف فلا شيء متوقّر فيه قدر الأخطار أكانت أخطار الطبيعة أو الحيوانات لكن أخطر ما يتهدّدك البشر. لذلك كان وسيبقى البحث عن الأمان أولى الأولويات لترجاه من حماية الأقربين، من البيوت المغلقة، من الشرطة في الشوارع ومن الجيش على الحدود.

يا للطفل المسكين لو علم تلك الليلة أن له موعداً مع البشر الذين تسميهم "ما" أولاد الحرام ويسيئهم النص الذين منهم كل نقمة!

يتعالى القراع مرعباً ككلّ فرع فظ في آخر هزيع من الليل. تشنّج يدا الليل الذي لا ينام إلا متحفّزاً حول نراع طفل متحفّز هو الآخر لوعيه بأنه فعلاً في خطر عظيم. يصرخ صوت أجشّ من خلف الباب: نحن أصنعاء الأب، بعثنا لنأتيه بالطفل، فأخرجيه لنا. ترتجل المرأة الجواب المنقذ: أخذته الجدة إلى القرية، فاذهبوا إليها وقلوا لها من قبلي أن تسلّمكم إياه. يتردّد زوّار الليل. يتقرر من قبل لا تدري من أو ماذا أن المرأة الضعيفة لن تشب تلك الليلة الذي تقاطعت فيه أخطر مقاطع الطريق أظافرها في عنق نابجها، أن جنة الطفل لن ترمى في البئر، أن الأب لن يموت كمداً أو يصبح بدوره قتلاً يدفع أبرياء ثمن أفعال الأثمين. ينسحب قتلة الليل بخفي حنين وتسارع الأم لإخفاء الطفل أياماً عند الجيران.

ينمو في الطفل قلق جديد من أخطار لا تفصح عن نواياها وعن أسبابها أقطعها أن يبقى دون أب ككل الأطفال .

تري أين هو والده وماذا يفعل ولماذا هو غائب دوماً ومتى سيعود كما تمنيه بذلك أم تبدو هي الأخرى جاهلة بما يريد معرفته؟!

ذات يوم تدخل البيت امرأة قالوا لها إنها تعلم الغيب وتعرف يوم رجوع "ب".

تجلس المرأة البدينة، الغارقة في ثياب فضفاضة ملوثة على الأرض بصعوبة. يأتئها الشاي وبقايا حلوى العيد التي لا تخرج إلا في كبرى المناسبات. تأخذها اليد المخضبة بالحنة بشره، تحشرها في كيس ثم تفتح يدا مثنجتها تقرأ فيه تفاصيل بقية الطريق.

- خفّي عنك يا عزيزة. ما ثمة إلا الخير.

تنطلق "الدقازة" في خطاب لا يهّم منه الطفل المفتوح العينين والأذنين على أقصاها سوى أنه كلام تنفّج له الأسارى الحزينة.

- وهذا الطفل؟

- انتبهي، إنّي أرى عينا شريّة ترصده وإنّي أرى كارثة قريبة تتهدّده!

تعود الأسارى إلى تجهمها.

تندارك "الدقازة" ما ليس هفوة وإنما مدخلا.

- لا تجزعي فسيدي الخافي معه، وكذلك سيدي محرز وبقية الصالحين. خذيه كلّ يوم جمعة إلى ضريح سيدي بوريقة. لا تنسي هذه الورقة، إن فيها سورة ياسين وأدعية النبي. ضعها في كيس صغير واربطه حول عنقه. لا تتركه ينزعه أبدا حتى وهو في الحمام. إنهم يريدون به وبوالده شرًا عظيما، قبح الله سعيهم.

- قلبي لا يقول لي خيرا... خاصة هذه الأيام العصبية.

- قلت لك: لا تخافي فكلام الله درع لا تخترقه عين السوء. هذا يا قتي حرزك. إنه درعك الحصين، لا تنزعه عن عنقك أبدا، واسم الله دوما عليك.

يسأل الطفل أمه عن المرأة الغربية. لا يفهم إلا بعد عقود ردها الواجم:

- مسكينة تواسي مسكينة، تعطيني ما احتاج وأعطيتها ما تنتظر.

توقّف على صورة اللليل الأول الذي يضطلع في كل القصص بأولى وأهم الوظائف: حماية القادم الجديد من عالم يعج بالمبهم والواضح من أخطار النهار والليل.

كم من نصوص كتبت فيه! كم من أشعار قيلت فيه! كم من تماثيل، كم من أغاني، كم من لوحات، كم من أديان رأت النور تعبدا له وتبركا! كم لنا من أساطير عن قتل الأب ولا واحدة عن قتل الأم!

أي غرابية في الأمر؟ هو الجسر الذي يحملك من ضفة العنم إلى ضفة الوجود، منير التشریفات المكلف بتقديمك للأشياء والكاننات، من يقود أولى خطاك في العالم، أول مرأة تكتشف فيها ذاتك.

ثم من أين لك خادم كهذا لا يستقبل ولا يطالبك يوما بخلاص الساعات الإضافية الطويلة التي يحرمها قانون الشغل!

أي أمي لا يدين بأجل تجارب الحياة لدليله الأول؟

لا أبحث عن أحد أستكين إليه وأضع عند رجليه سلاحه إلا وأسمع صوتا يصرخ: هل تعتقد أنني أمك؟ آخر ما سخروا به مني لافتة قاعة الاجتماع: "اغسل فجان قهونك يا هذا؛ فمك لم تعد تسكن هنا من زمان".

أعود لصور "ما" في ملفات الذاكرة لأكتشف كم هي جميلة، منمقة ومنخرطة في أكثر الصور النمطية شيوعا وابتدالا.

تري ما المخفي بمهارة في بطن أقدم الملفات، ما المحرم، ما "الطابو"؟

يا ما تعلمت عن الأميين وبراعتهم في إخفاء وجههم المظلم! كم منهم يتقنمون كأطهار
وقديسين وهم أقر المخادعين على تسويق صور يعرفون وحدهم أنها كاذبة!
لا أكره شيئاً قدر من أن أكون متعبدا لصنم حتى ولو كان صنم "ما".
تتردد امرأة رقيقة جعلتها الظروف أختا غير شقيقة وأعرّ أفراد عائلتي. كأنها لا تريد أن
تجرحني. تنصاع مكرهة للأمر الجاف.
- كانت... كانت رحمها الله تقسو علي... وأحيانا... تضربني.
ما العيب في أن تفضل أم أبناءها على أبناء ضرتها؟ ممكن، لكن ما ذنب طفلة بريئة؟ يهتز
إناء الخبز الجميل. يوشك على السقوط من علوه والتثشم إلى ألف قطعة.
ليتني ما سألت. لكن أليس من الأفضل أن أحب كائنا أنميا بنواقصه على التعلق بصنم طلي
بلذهب المزيف؟

ثمة تماثيل تبدي فهما عميقا لا تتازل فيه لطبيعة دليلك الأول هذا. تتلمها من جهة فترى
وجه 'كوماري' ربة الجمال والحب. إن أدرتها على قاعدتها أو درت حولها، شاهدت
'كالي' تتلوى راقصة على جسد طفلها المرمرى تحت قدميها، قلادة الجمال حول عنقها،
ومن أطرافها تتدلى رؤوس تقطر دما.
إنها قاعدة أساسية لفهم الأنمي: إن أدار لك وجهه المضىء، ابحت عن وجهه المظلم، وإن
واجهك بوجهه المظلم ابحت عن النور المطور وراء السحنة البشعة. حتى الأم الأزلية لا
تخرج عن سطوة القاعدة.

تقول كفى عقوقا وتجنبا على اللواتي وضعت الجنة تحت أقدامهن!

عقوق؟ حقيقة مخيفة نرفض بشدة مواجهتها .

كم من دليل أول ما ان استلم القادم الجديد نازل من لأشائه، إلا وبادر بلفه في خرق قدرة
ورميه في أول صندوق قمامة وفي لأحسن الأحوال تركه يصرخ طالبا النجدة على اعتاب
مسجد او كنيسة!

كم من دليل أول منع عن زبونه الصغير أبسط حاجياته وجعل من رحلته جحيما لا يطاق!
شواذ تحصى ولا يقبل عليها؟ نعم، لنطمئن أنفسنا لا أصعب على العقل والقلب من صورة
أم أو اب يتحول جلادا.

إنه طيف المواقف والتصرفات تجاه القادم الجديد وهو ينطلق من أقصى القبول الذي تمثله
كوماري إلى أقصى الرفض الذي ترمز له كالي وبين النقطتين كل الممكن من الحالات
والأوضاع التي ستعطي لكل رحلة نكهتها من حلاوة أو مرارة واغلب الوقت من مزيج
من الاثنين.

يشاء حسن طالعي أن يكون دليلي الأول إلى نهاية الرحلة من النوع الذي نكتب بخصوصه
رسلة شكر للإدارة العالمة مع توصية بترقيته وتخصيص أحسن مكان له في الجنة (حتى
وإن كان لي تحفظ بخصوص هذا الجزء الأخير من التوصية سأعرض لتفسيره لاحقا)

العالم الذي يعيش فيه بطلنا الصغير مختزل في جده وأم وخالات وجارات وكلهن يردن تقبيله واللعب معه. إنه بما فيه من استدارة، من اكتتاز، من رخوة، من رقة ونعومة وليونة وطراوة عالم انثوي بامتياز.

تهاجم الطفل يوما رغبة عارمة غير مفهومة المصدر في فتح النوافذ على مصراعيها ليغلب الصراخ الوشوشة، لتخفت كثافة روائح البخور والعطر، ليتحرك البيط، ليحتد ما هو خافت، ليكتسب المكور المستدير أضلعا حدة.

لا تتعجل الزمان يا فتى. يوم تعرك الأحداث بكل ما فيها من فظاظة وقسوة، يوم يشتد الإرهاق والوجع من الجزء الذكر من العالم، سيتسلل إليك الحنين للعالم الذي جاهدت للإفلات منه تملي النفس بفضاء تعيد تشكيله مخيلة كل أطفال العالم ليس فيه إلا إناث اسمهن الملائكة وحوار العين.

مشكلة الطفل الآن، ليست العودة إلى الجنة وإنما الهروب منها. لكن كيف الإفلات من كل الإناث المتربصات به والحال أن الفرار إلى عالم الذكور لا يكون إلا بالدليل الذكر وهو شبح لا يعرف له وجهًا؟

أين هو؟ كيف هو؟ أي ملابس يرتدي؟

تتمكن من الطفل عادة جديدة لا يستطيع لها نفعًا.

ها هو مرابط أمام المحطة القريبة من البيت، ينتظر توقّف ثعبان أسود هائل الحجم يطلق من بعيد صغيرا كعواء الريح ويخرج من رأسه نخانا أسود كثيفا. ألم تثل له "م" أن "با" سينزل منه فيكون له هو الآخر أب!

يتفحص الطفل الأعمى الخارجين من جوف الوحش الأسود باحثا عن رجل لا يعرف له ملامح. يمزّ الرجال أمامه لا يرونه ولا ينقضّ عليه منهم أحد صارخا ضاحكا ومقبلا.

يتعلم الطفل تصرفا جديدا وهو ينقّس عن شعوره برشق الثعبان الأسود المعرض عنه بالحجر وقد استقرّ عنده الرأي أن هذا الذي أخذ منه والده هو الذي يرفض إرجاعه إليه.

يعود إلى البيت كلّ مساء كسبير النفس داعم العينين مصمّما على العودة عدا إلى نفس الرصيف إلى أن يحصل على حقّ حرم منه بغير نذب.

من الطبيعي أن يبقى مسكونا طول الرحلة بهاجس الغياب، وأن يؤكد هذا الشعور عنده قلقا دفينا لن يفارقه يوما.

تري، هل ظاهرة البحث عن الغائب الأزلي مجرد حالة نفسية يعاني منها هو بالذات؟ أم الحالة العلة عند الأعمى، وكل ما في الأمر أنها اتخذت لها في هذه القصة صيغة للبحث عن الأب وهو مجرد ممثل لغائب أبعده لا ينزل أبدا من أي قطار؟

لا ينفذ توسّل "م" ونهيبها عن عادة تتفاقم يوما بعد يوم. تكفكف المرأة وهي منزوية في الظلام دموعا تخفيها عبا. لا يزيد ذلك الطفل إلا غيظا لا يعرف لمن يوجهه. كان في عمر لا يفهم فيه، فما بالك أن يقبل بأنّ في هذا العالم جرائم كثيرة بلا مجرم محدد.

ثم تغليه بحيويته. لا بد أن هناك حل. يكفي أن يجده أو أن يقر أنه وجده. يعود للحقل المعتادة للرجال وهو هذه المرة-عنصر فاعل له إرادة وفكرة واضحة عما يريد. ها هو ينتقي من بين المتدافعين بالمنكب من سيكون أب اليوم ثم ينصرف شبه راض ونصف مسرور وقد وضع على وجهه من لا صورة له ملامح وعلامات. ألم نضع أسلطينا وأدياننا بهذه الطريقة، ننقي أمام أصعب المشاكل الحلول التي تلاؤمنا، نجد فيها قوة الخيال العزاء والسلوى... وآخر ما يهمنا صحتها؟ ثم يعاوده الغم. لا أحد من أباؤه الكثيرين يلتفت إليه وهو كالكلب الشارد يجري وراء أي علب سبيل فلا يلقى منه إلا الصدّ والزجر.

ينتهي الطفل بالإقرار بعيبه طريقتة فيعلن احتجاجه داخلا في أول إضراب له.. لكن صدّ من؟ يجلس على عتبة باب المنزل المتداع، مصمّما ألا يبرح مكانه لأكل أو شرب أو لعب حتّى يعود إليه نليل دونه يستحيل الرحيل وما على الله أو أي مسؤول آخر إلا البتّ في القضية.

نحن أمام طفل في مواجهة أولى محن وامتحانات الرحلة وهي في هذه القصة غياب الدليل الثاني. هو غير واع الآن بأن الأقدار رافت به كثيرا هي التي واجهت أطفالا آخرين بمشكل كأنها تنفتت عن مخيلة شيطان كالولادة مشوها. أو أبان مجاعة أو حرب وحتى مصابا بأم تقترّ في حبها أو تبالغ فيه. ما يفرّق بين قصص الادميين نوع الصعوبات التي سيواجهون ومدى نجاح الاستراتيجيات التي يتخذون لمواجهةها. كلنّ العالم الذي تستكشف هو الذي يستكشفك يلاحقك بالمحن والامتحانات من لحظة الدخول إلى لحظة الخروج ولسان حاله يقول أرني براعتك في الخروج من هذه الورطة وإلا الويل والثبور لك.

تقرب الأم من طفلها بحذر من يقرب من قفّ مستعد للهجوم أو للفرار. يسمع حفيف ثيابها فيقتعل قلّة الاهتمام وهو يتلعب بكل جوارحه اقتراب هذا الأمي الذي يتحرك دوما وكأنه مصنوع من الضباب. ترتفع يدها ببطء شديد. يخيل له لحظة أن اليد بقيت معلقة في الفضاء، أنها تتردّد، أنها قد لا توضع أبدا على شعره الأشعث. تزعه الفكرة أشدّ إزعاج. يستعجل الحركة المعلقة. كان لا يشعر بالأمان إلا واليد الرقيقة موضوعة فوق رأس ناشف كئبه. على صغر سنه-صنع من خشب جفّ قبل الأوان. تلمس اليد الرقيقة أخيرا الشعر لمس الفراشة لأزهار الربيع. تمرر "م" راحتها عليه بمنتهى الحنوّ يرتفع من خلفه الصوت الرقيق، يرجوه دخول البيت:

- ماذا سيظنّ الجيران بي وبك ونحن في هذا الظلام على عتبة الباب؟

- ليظنوا ما شاعوا، أريد "با" حالا، لا يحبني، لهذا لا يأت أبدا. أليس كذلك!

تضع الأم كامل يدها على فم الطفل:

- لا تقل كلاما كهذا. هل تعلم أنه وضع يده على بطني لما افتتح بك ليباركك، أنه كاد يطير

فرحا عند مجيئك؟

مؤكّد أنه طار فرحا ثم طار مباشرة لأغراضه الأهمّ.

ما من شك أنه وصل في آخر لحظة أول موعدنا، أنه دخل الفصل من القصة لاهثا، متقطع الألفس، أخذنا القادم الجديد بين ذراعيه وكله فخر بما أتى من معجزة، ناسيا أنه لم يتكف من العملية إلا أسهلها. كأنني به يتنفس الصحاء وهو يتأكد أن القادم الجديد ذكر هو الذي كان يتقبل التعازي والحياة ترمي على شطئه بغريب تعس الحظ ليس من جنسه ولو كان من صلبه. قد تكون أطلقت عقيرتي بالصرخ أول مرة انكب فيها على مهدي وقد تملكني قلق غمض وأنا أقرأ في ذاكرة المستقبل إشارات تنبيه حول هذا الرجل وقلة أهليته لمهمة الدليل. ربما بلغت الصرخة برج القيدة العامة وأن حديثا بشفرة "المورس" أو بأي شفرة أخرى أضحك أكثر من مستمع غير مخول باستراق المكالمات السرية.

- ما هذا الدليل؟ لن أرافقه خطوة واحدة.

يأتيني صوت العالم العجوز، باردا على عادة من شاب على صراخ الاحتجاج المتصاعد من الكائنات:

- نأسف لعدم تمكننا من الاستجابة لطلبكم نظرا لتراكم المكالمات.

- قلت: لا أريد هذا الدليل. سيتركني غالب الوقت وحيدا ويوم يرجع سيسوقني إلى المقاهي كما لو كنت قرذا عالما يفاخر بي رفاقا يستهزئون بي وبه. الرحمة!

- لا رحمة ولا هم يحزنون. اصطفت طاولة القمار التي لا مرد لحكمها من سيكون لك الدليل الثاني وتذبّر أمرك معه.

توقف الآن على صورة هذا الدليل كما حفظتها الذاكرة وكما لم يكف الخيل عن تغييرها إلى يوم الرحمان هذا.

للحقيقة كان هناك شيء لطيف في هذا الرجل رغم إفرطه في أمر نتشارك فيه جميعا ولا نراه عيبا إلا عند الآخرين. يضيّع أغلب الأدميين وقتك وجهدك حتى تكشف من يختفي وراء القناع وهم يراوغون بقتعال التواضع والزهد والتجرد وباقي فضائلهم التعيسة. كان "ب" من النوع الذي يحمل خصاله وعبوبه واضحة لا لبس فيها ولا غش، تماما كما يحمل العسكر على صدورهم المنوشة نياشينهم الحقيقية والمزيفة. كان مبالغا في عيوبه ومبالغا في خصاله إلى أن تتقارب فتنمحي بينها الحدود. كانت نرجسيته مثيرة للغنين. كانت صراحته سلاطة لسان. كان احقاره ناراً حارقة. كان غروره، ككناه، كوسامته، كأناقته، كجراته، كفضلته، كوقاحته، شيئا خارجا عن المألوف.

سمعتة مرة يقول لأصحابه البارحة كانت سهرة لم يعرف لها الليل مثيلا: المغنية كوكب الشرق، كلمات الأغنية لأمير الشعراء... والمستمع عذبكم المتواضع؟! ادخلوا جحوركم يا عتاة النرجسية، أين نرجسيتم من نرجسية رجل حفّظني باكرا قصيدة بيتا لقصيدة لن ينمحي من الذاكرة:

وأبي كسرى علا إيوانه أين في الناس أب مثل أبي (مهيار الديلمي)

هكذا لم أنكر، "يا" في حديث إلا وقلت: السيد "أينفاس"، فيضحك الإخوة وتقلب الأم جبينها بين ضحك مكثوم واستنكار مصطنع.
كم من مرة سيجمعنا قل سيفرقنا في لواقع وفي فضاء الخيال ما يسميه البعض حوار الصم وكل متكلم لا يسمع إلا صدى صوته.

- "يا": لو تزحج جنايكم قليلا لأبصر شيئا من هذا العالم، لا أرى إلا ظهركم الموقر.
- انظر هذا هو العالم، كم هو واسع، غريب، زاهر بالأسرار! لا تخف، سأعلمك كل ما يجب أن تعرفه عنه؛ فدليلك به أحسن العارفين، انظر كم هو خطير، مرعب غدار لا طريق آمن فيه، لكن لا تخف، سأعلمك كل ما يجب أن تتعلم من فنون الصراع فدليلك بالحرب أحسن خبير. هيا، أسرع لنستكشفه، لنغزوه، لنفتحه الفتح المبين ولا تضيع وقتك مع هذه الأثني. لا خير يرجى من أنثى ولو كانت أما. كم أنت محظوظ! معك حق أن تفخر بأبيك وأن تتغنى بكلمات الشاعر الموسي اللعين. لا أسمعك تتشد: "أين في الناس أب مثل أبي!!"
- "يا" أريد أن أسألك

- في هذا العالم اللعين، يجب أن يكون سيفك دوما مشهورا في وجه من يعضن باليد اليمنى وباليد اليسرى السوط مرفوعا في وجه من ينبج. في هذا العالم اللعين يجب أن تحذر من أمامك ومن خلفك، أن تحمي ظهرك والجنب. لا تخف؛ سأعلمك ما يجب أن تتعلم عن فنون الحذر والخداع طوبى لمن أسعفه الحظ أن يكون له أبأ.

- "يا" اسمعني أنت ولو مرة.
- في هذا العالم اللعين، يجب أن تكون صيدا حتى لا تكون طريدة. أصعب ما تصطاد ذكور الأدميين وأخطر ما تصطاد إناثهم، لكن لا تخف سأعلمك كل ما يجب أن تتعلم في فنون الصيد؛ فدليلك أحسن من اصطاد ذكورهم والإناث. في هذا العالم اللعين، حذار من الأدلة المزيفين، يقودونك إلى صحار بلا واحات وأنهار بلا ماء وبرار بلا عشب، لكن لا تخف فدليلك أحسن خبير بالمحتالين وقطاع الطريق. احلف برأس أبيك أنك لن تسمع أبدا هذه الأثني ولو أنها حملتك في أحشائها. لا أخطر من تصديق أكاذيب النساء. تالله يا بني أية ضريبة حظ أصابتك لتكون لبنا لدليل عليم بمكر النساء خبير بخبث الرجل، والان تنبر أمرك وكن جديرا بي.

كيف لا تطيعني من أين أعى ولا أعى نظرتة للعالم وطريقة تعامله معه ونحن لا نصنع نواتنا إلا بما نأخذ من الذوات الأخرى؟ ... ترى كم أحمل داخلي من فضائل وعيوب هذا الأدمي الذي اصطفته طاولة القمار ليكون دليلي الثاني... هل هو الذي تعلمت منه قاعدة القواعد التي حكمت مسيرتي طول الرحلة: عندما تصل أهم مقترقات الطريق، احذر اتباع الأسرع والأسهل والأضمن فليس في نهايته إلا الطعم... أما أفخر أنواع "الطعام فتوجد في نهاية الأطول والأصعب والأخطر وفاز بالذة الجسور.

في هذا الفصل من القصة يحكم على الطفل أن ينتظر الساعات الطوال على رصيف محطة ركبا لا ينزل أبدا من أي قطار.

ينتهي به الأمر جالسا على عتبة الباب يأمر الله والعيبة والجن والعمارة وكل من لا يهمهم الأمر بحمل مسؤولياتهم في تمكينه ككل الأطفال من حقه في ليل ذكر يفتح له جزءا من الطريق.

تهمس الأم في أذنه لا تخفي قلنا متزايدا

- تعال، يكفي، أخشى عليك من البرد.

- قلت لك: لن أدخل إلا وهو معي. سلّم هنا إلى أن يحضر. اتركيني.

- إذن سنتظر سويا.

تمرّ الساعات والطفل وأمه جالسان على عتبة البيت لا حلّ في الأفق للأزمة الخائفة.

تجرب الأم مخرجا آخر.

- عندي لك بقية قصة البارحة، تعال... إذن قل الأب لعنترة: أنظر، هاجمنا الأعداء فقم لهم، لكن عنترة قال له إنه لن يحارب لأن...

- لا، لا، لا، عنترة لم يكن أبدا جباناً!

- انتظر البقية...

- لا، لا، لا، عنترة لم يرفض يوما الخروج لمعركة، لا أريد سماع قصتك الرديئة.

يضع الطفل رأسه بين ذراعيه وقد بلغ ضيقه بالدنيا ومن فيها أوجه. ثم يعود للصراخ:

- أريده أن يأخذني لحمل الرجال. أنت دوما تمنيني بذلك ولا شيء يحصل.

- سيأتي وستذهب معه لحمل الرجال لأنك كبرت فعلا.

- لن أسمع كلاما سمعته كثيرا. ليأتي الآن وفورا .

تجد المرأة الذكية المخرج الذي كانت تبحث عنه من البداية ، المخرج الذي سيحفظ ماء وجه الطفل ويمنعها من النوم ليلة في العراء. تحتضن صغيرها العنيد هامسة في أذنه:

- لا تسألني كيف علمت ذلك. ثق في، إنني متأكدة من الأمر. سيوزك الليلة في المنام.

يسترجع الطفل جويته الصلخية. يخلد إلى النوم كمن يذهب إلى ميعاد لا يمكن للحبيب أن يخلفه. يدخل عالما تتراقص فيه أمواج حمراء. تقبض يد خشنة على قميصه تمنعه من الغرق. يتعالى الصراخ من مصدر مجهول. ترتسم نصف الابتسامة على وجه البحر وبها عتاب رقيق. يصفّر وحش أسود صغير الرحيل. تبصر أم مطلة بحنوّ فائق اضطرابا غير معهود في ملامح طفلها النائم. تتراعى لها من خلال عينين دامعتين ابتسامة شاردة تعبر وجهه وشفقتان تنبسان بكلمة واحدة.

هي تعلم أنّ اللقاء حدث وإنّ الطفل جالس على ركبتي أبيه بإخامه وإصالحه كما سيدت ذلك مرارا قبل أن يتفرّع الطريق نهائيا ليذهب كلّ في حل سبيله.

**

عندما ينقشع الضباب عن الأفق

قد يكون العالم فعلا غلبة سحرية تنتزع منها ما تريد شريطة أن تقلبها بعنف، أن تصرخ فيها بما يكفي من القوة.

يشعر الطفل النائم بوجه جافت التصق بوجهه. تداهمه أحاسيس مبهمة عن روائح عطر وتبغ وعرق. يفتح عينيه ليقابل وجهين يحدقان فيه بابتسامة واسعة. حدثت المعجزة. خرج الدليل الثاني أخيرا من جوف الثعبان الأسود.

تهمس الأم:

- ألم أقل إن لك موعدا قريبا مع أبيك؟

يصرخ الأب:

- يا مغفل، هل ظننت حقا أنني تركتك؟ هيا أسرع، لبس ثيابك، سنسافر لزيارة جدك.

- ونأخذ "ما" معنا.

- أمك لا تحب واحتنا وشيعت من الصحراء.

- أذهب وأترك أمي!؟

- الاختيار لك.

يأتي الكهل وهو يسترجع هذه الذكريات، إنه لعن ذلك اليوم عالما غير مفهوم يأمر بالرحيل ويأمر بالبقاء، بلشعور بالذنب إن ارتحل القتي وينفس الشعور البيغض إن لم يرحل. تسر "ما" في أذن الطفل أنها لا بد أن تبقى في البيت للاعتناء بشقيقه وهو أصغر من تحمل السفر، أنها ستراقبه المرة المقبلة وعلى كل الحال فالطريق الذي أخذ "با" وأرجعه، هو الذي سيأخذه لجدّه ويردّه لأمه.

كل ما يشغل بال الأم في هذه اللحظة أن تهدي من روعها ومن روع الطفل وقد حانت بأسرع مما كانت تتوقع وتخشى لحظة أول فراق.

تعدّ طفلها للسفرة كما لو كانت تعدّه لعرس أو لعيد. يفهم من طول اعتنائها بأدق تفاصيل الملبس أنّ للصحراء ربة خاصة في نفسها، أنها هي أيضا لم تنس وأنه رسول حب صامت للشيخ الذي اعتفقا من الأسر. يسر الدليل الهادي في أذن الدليل الصالحب بأخر التوصيات وبأحسن السبل للتعامل مع هذا الطفل الذي لا يعرف عنه شيئا. يفعل "با" الانتباه متأففا من طول المراسيم. ثم ينفجر:

- كفى يا امرأة، اتركيه لوجه الله، هذا ولد وليس بنتا، إلى الأمام يا فتى وإلا فاتنا القطار. كلن "با" دوما في عجلة من أمره كما أنا اليوم في عجلة من أمري، يحدونا نفس الشعور بلئ وفتنا جدّ محدود، يضئعه علينا من أصابهم الله ببطء الفهم والفعل. كلن يقول لكل بلبد يعترض طريقه: لنضئع وقتك أنت نفق منه ونبذّر، أما وقتي أنا قتمين. منه تعلمت أن أبعث لبعض من استهلك وقتي في نقاش فارغ أو وصل الموعد متأخرا بفاتورة في سطر:

سلبتني ساعة من حياتي، الرجاء إرجاعها حتى بلا فائدة. بجدّ ألا يفزعكم كل الوقت الذي يبذره الأغبياء من عمرهم وخاصة من عمرنا؟

تقبض اليد الخشنة على اليد البضة. تنفتح أخيراً قضبان القفص. يطير العصفور الذي طال به الحبس. على رصيف المحطة، والفجر في أولى الوعود تبدأ سفرة ظلت نموذج كل ما تبعها من السفرات. بصرخ الطفل في أب يغالب للبقاء مستيقظاً.

- "يا هل هؤلاء الجنود هم الأعداء الذين تريد قتلهم بلساح الذي في بيتنا؟
يجيل "يا" البصر حوله بعصبية مشيراً للطفل بعلق فمه.

- إنهم أعداؤنا أليس كذلك؟ فلم لا تقتلهم الآن؟

ينقذ وصول القطار "ب1" من خطر نظرات فاحصة وينقذه أكثر أن ابنه غير موضوعا كان سيغيره بقلق الرجل أو بدونه. ينسى الطفل-وهو لأول مرة في جوف الوحش الأسود- ضرورة قتل الأعداء أو يرجئ الأمر إلى ما بعد احتلال مكاته. يهرع تلقائياً للمقعد الذي حذو النافذة، لا يسافر من يومها على متن أية آلة إلا وأنه فوق الزجاج.

يتحرك القطار على وقع الصغير المثير ورائحة الدخان اللذيذة تتسلل من النوافذ المقووحة ليسعل الرجال وتحرك النساء أياديهن أمام أنوفهن ضاحكات متأففات. تنتسج حدقاته وهو ينتبه للمنظر المذهل. كم بدا له غريباً يومها ألا يعبا أحد سواه بهذه الأعجوبة الجديدة والحال أن المنازل والأشجار التي عرفها دوما ثابتة.. بدأت تركزض.

يرجعه الضجيج المتصاعد داخل العربية المكتظة إلى هوايته القديمة: التفحص. عدد البشر أكبر مما كان يظن، ترى كم هم؟ سيسأل "ب1"، لكنه مشغول عنه بالحديث مع ركاب فاغري الفم يتمتعون برواية أسفاره في بلدان لم يسمعوها بها أبداً.

كان "ب1" لا يستقر في مكان إلا مكرها كله تحفز لاستئناف الطريق. كل الحل والترحال عنده حاجة قاهرة حكمت عليه إلى نهاية حياته أن يكون دوماً على سفر. ربما قرأ واستبطن أبياتاً وإن لم يقرأها، فإنه عمل بها وكأنها لم تكتب إلا له وحده.

"تعزّب عن الأوطان في طلب العلا

(الشافعي)

وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

جلاء لهم واكتساب معيشة

وعلم واداب وصحبة ماجد

كان على الشاعر الحكيم إضافة فائدة سادسة. كيف نعرف وطننا إن لم نقارنه ببقية الأوطان؟ كيف نفهم البشر الذي حولنا إن لم ندرك ما يجمعهم وما يفزقهم عن البشر الآخرين؟

يواصل الطفل التقاط مقاطع من نقاش هامس بين المسافرين حول الوطن ومحنته في مواجهة المستعمر الأجنبي والمساكين لا يعلمون ما ينتظرهم يوم يستبدلون سيداً أجنبياً بسيد محلي وغاشم من وراء البحار بغاشم من وراء القرية.

ثم يعود للتركيز على نافذته متعجباً من إعراض الناس عما يعرض على شاشتها، لا يعلم أن اللامبالاة تجاه العجائب تأتي ضرورة يوماً كل المسافرين... أنه سيجلس يوماً مثلهم غير مجال بغروب شمس أو بطلوع قمر.

ينتبه فجأة للتغير البطيء فيما يشاهد خلف زجاج النافذة والتعبان الأسود يعادر بلاد التين والزيتون والعنب، ليدخل أراضٍ موحشة غيراء اللون تميل كلما تقدم الراكب إلى حمرة قانية.

تدريجياً تغرق المناظر العجيبة في غموض الليل، والطفل لا يقبل أمراً بالجلوس أو الأكل. أخيراً يتوقف التعبان الأسود عن الصغير والجري اللاهث ويتوقف معه حراك البيوت والشجر. يعبره استياء غير مفهوم. ألم يكن يترقب الوصول بفارغ لصبر؟ يغادر القطار متثاقلاً الخطوة، يحرك رجلين من حديد لا يعترف كم هو مرهق وفي نفس الوقت، يقظ متحفظ، متأهب، متشوق للمزيد من ركض القطار.

- "يا"، هذه ليست قرية جدّي.

- إنها واحة على ضفاف البحر، آخر محطة القطار. نبئت الليلة هنا وغدا نواصل السفر. هيا الآن إلى النزول. أنا ممت من التعب.

يمتطي الأب والطفل عربة يجزها جواد أسود يلسع بالسوط ظهره رجل يصرخ فيه بالسب والشتم. يقفز الطفل فوق كرسيه كلما هوى السوط وكأَن ظهره الذي يلسع. يجاهد لتجاهل السوط النازل الهابط بالعودة للسؤال:

- ولحنتا أبعد شيء وهي توجد على حافة الأرض. أليس كذلك؟

- لا يا فتى. هناك أماكن أبعد منها.

يرفض الطفل القبول أن يوسع التعبان الأسود الجري نهاراً كاملاً لا يصل الفراغ الذي قرر أنه حدود عالم هو في ذهنه طبق أفقي من الصلب ممتد في كل اتجاه، لكن بالضرورة محدود.

يجب التثبت من الأمر.

- وهل ذهبت إلى تلك الأماكن البعيدة، البعيدة جداً؟

- لبعضها نعم، فالعالم واسع، يا بني.

- وهل ستسافر إلى كل الللال أماكنه؟

يستغرق الدليل في ضحك طويل تنهيه نوبة سعال.

- لا، لكنني أحاول.

- سلحول أنا أيضاً؟

- وهل أمامك خيار آخر؟

يرتمي الطفل على سرير النزول ليغوص مباشرة في نوم مضطرب يتخلله صهيل حيوان باهر الرشاقة، والسوط البشع يلسع ظهره هو ليركض ويطير. ينهض صارخاً هاربا من السوط يهز الدليل النائم جنبه:

- استيقظ وإلا فانتا قطار الصحراء.
- لن نسفر قبل بزوغ الفجر. عد إلى فراشك.
- يعود إلى فراشه. ينتظر بعض النقائق. يقفز صارخا من جنيد في أذن الرجل النائم:
- استيقظ، سيوفتنا القطار.
- ألم أقل لك أن الفجر ما زال بعيدا. عد إلى فراشك.
- يعود الطفل إلى فراشه. ينتظر نقائق معدودات:
- استيقظ، فاتنا قطار الصحراء.
- يثب الرجل رافعا كفه. يفهم الطفل أنه في خطر. يسلم الأب على ابنه نظرة الاستهجان ثم ينفجر ضاحكا. يأخذه بين ذراعيه. يفهم الطفل أن الخطر تباعد وأنه ربح شيئا غير محدد.
- اللعنة عليك، أطرت عني النوم. نخرج من الآن؟ هل جننت؟
- يجرّ الطفل دليبه المندمش يبحث بعينيه في الظلام الدامس عن اتجاه مبهم.
- هذه هي المحطة. اجلس الآن ولا تتحرك حتى تأتي ساعة الرحيل. ما يزال أمامنا كثير من الوقت.
- لا قطار هنا!
- سركب آلة أخرى أصغر اسمها "الحافلة" وستعجبك هي الأخرى.
- هل فيها نوافذ؟
- نعم.
- هل تتحرك البيوت والأشجار عندما تسير؟
- تماما.
- أريد المقعد الموجود قرب النافذة.
- هكذا سأستطيع رميك منها وارتاح من أسئلتك.
- سأقول لـ "ما؟" أنك أردت أن ترميني من النافذة.
- وأنا سأقول لها أنك أخرجتنا من المنزل في الثالثة صباحا، والآن اتركني أنلم قليلا عليك اللعنة.
- وأنا ماذا أفعل؟
- نم.
- لقد نمت.
- لم تنم بما فيه الكفاية.
- بلى.
- يشعر الطفل بتجدد الخطر ثم بتحسره السريع والمحطة الفارغة ترنّ بصدى القهقهة المدوية للدليل.
- ماذا تريدنا أن نفعل إذن؟
- نتجول بما أنه ما زال أمامنا وقت.

- في الثالثة صباحاً؟ في هذه المدينة الموحشة!
- يشعر الطفل أنّ الدليل يراوغ. يسقط في يد الرجل.
- تعال، عليك اللعنة.
- تبدأ الزبيرة والزبون هو الذي يجزّ الدليل.
- لا أحبّ هذه المدينة.
- ألم أقل لك إنّنا لن نرى شيئاً في هذا الظلام.
- أئين البحر؟ أريد أن أرى البحر، أنت وعدتني به أكثر من مرّة.
- إنّه بعيد عن هنا.
- البحر أجمل من هذه المدينة الموحشة. لنذهب إلى البحر.
- إذا ذهبنا إلى البحر فانتنا الحافلة.
- اختيار صعب جديد.
- هل سنرجع من هنا؟
- ينتفّس الرجل الصعداء.
- أعدك أنّ أخذك إلى البحر عند رجوعنا من الصحراء.
- أريد فطيرة.
- كلّ ما تريد.
- الآن... الآن... الآن!
- نعم الآن. الآن، لكن كفت عن النطّ والصراخ.
- بالعسل؟
- بالعسل والسمن والبيض المقلي وألف "سخطة" على رأسك من فوق.
- أخيراً الرحيل. يتكئس الرجال في الجزء الأمامي للحافلة وبقية الكائنات الثانوية من نجاج وماعز ونساء في النصف الخلفي. هذا الطفل ابن أبيه لا يجلس إلا مع الرجال خاصة بعد أن أفرد له "باب" بشيء من الخشونة أول مقعد فيها حذو النافذة، ذلك الموجود مباشرة وراء اللسّاق.
- يحارّ لثبه مرة أخرى وهو ينقل بصره من داخل الحافلة إلى خارجها، لا يعرف على ماذا يركّز. يقرّر أنّ عجائب الطريق وكل ما يتحرك على ضفافه أولى بالاهتمام.
- يحاول الأب إعادة الحوار مع طفل يقرر وحده متى يكون الكلام ومتى يجب الصمت.
- لست مطالباً بالوقوف طوال السفرة.
- لا أحبّ الجلوس.
- افعل ما تشاء.
- لن ترميني من النافذة. أليس كذلك؟
- تدوي قهقهة الأب.
- ستتعبني كثيراً على ما يبدو.

نعم، كم أتعبته في تلك السفرة، وكم أتعبني هو الآخر في أكثر من محطة جمعتنا وكل مواجهة بيننا اختبار القوة أو اختبار المحبة.

تصل الحافلة المرهقة قرية تتلخص في شارع مغبر تنكس على جانبية بيوت من الطين وخلفها بعض نخلات عجاف. تلتقط أذنيه كلمات "يا" عن المكان وحضامته الطبيعية العجيبة التي تبرى بمانها الفوار كل الأمراض.

ثم تغوص الحافلة المتزيدة تعباً في ميهم ممتد أمامها إلى ما لا نهاية.

- انتبه يا فتى، لقد دخلنا "البحاير".

- هل هي بحار كثيرة؟ هل سندخل الماء؟

- لا يا بني، إنها بداية الصحراء.

- الصحراء بحار من الرمل بدل الماء واحتنا فيها مثل جزيرة، أليس كذلك؟

- يمكن تقديم الأمور بهذا الشكل.

قل من يتبته أننا ندخل الوجود كمن يدخل عرضاً سينماتيا وليس على الشاشة إلا صورة للعلم نظنها صورته من وإلى الأزل، إلى أن ينقش الضباب عن الفكر فنفهم أننا لا نرى إلا مقطعا من فيلم أطول وأغرب مما يقدر على تصوّره أوسع خيال.

لا الطفل ولا الأب ولا بقية الركاب يعلمون أن هذه الأرض القلحة التي يسمونها بالبحاير تستأهل حقا اسمها... أن الصحراء التي لم تكن دوما بحار الرمل التي نعرف... أنها كانت لأربعين مليون سنة خلت جزءا من بحر بل من محيط اندثر كانت تسبح فيه صغار الأسماك وكبار الحيتان... أنه كما للقلب قبض وارتقاء لهذا الأرض نسفها إلى نهاية الكوكب: كل عشرين ألف سنة غابات ومستقعات وبحيرات وأنهار وسكانها الفيل والأسد والكركدن والتمساح، ثم لعشرين ألف سنة أخرى أرض القحط والجذب التي لا يعيش فيه إلا المعاز الأبل والبشر من نوع قوم "يا".

يجذب الطفل كم أبيه وهو في قمة الهيجان.

- لماذا هو هكذا هذا الحصان؟

يصرخ فيه "يا": هذا جمل يا جحش وليس حصانا.

يضج الجمع بلضحك. يرتفع صوت مجهول:

- هل يعقل ألا يعرف البدوي نصفه الآخر؟

يصمت الطفل بعض الوقت، وهو معرض عن الصخب، فاغر الفم، يتأمل الحصان الغريب. نعم، هو يعرف أن اسمه "الجمل" ولا داعي ليسخر منه هؤلاء الأشرار... وخاصة "يا".

يلصق وجهه بالنقذة. ممنوع على أحد رؤية النموذج. لكن من أين له التركيز طويلا على جرح بسيط وحوله العالم بكل اللال غرائبه.

يعود الطفل للصراخ:

- انظر، انظر!

- اللعنة على هذا المغفل. ما الذي تريدني أن أنظر إليه؟
- أنظر إلى اختفاء المنظر. لماذا لم يعد هناك أي شيء أنظر إليه؟
ما لا يعرفه الطفل و يعرفه كل ركاب الحافلة قدرة هذه الأراضي القاحلة أن تتحول بين عشية وضحاها إلى براري خضراء متعة للناظرين. إنها إحدى معجزات الصحراء والبراغم المخفية تحت الرمل والصخر تنتظر صابرة، عنيبة، قوية أشهراً وأحياناً سنينا رحمة الغيث لتعود الأرض ولو لفترة خاطفة من الزمن مملكة الأعشاب والأزهار.
يلتفت "با" إلى من يمازحهم منذ بداية السفر.
- الحرّ وضجيج المحرك وهذا الفرح سيقضون على ما تبقى لي من عقل.
- "با" انظر. انظر!
- إلى ماذا؟
- لسيفيك تتلدين في الفراغ. أنا أرى الطريق الأسود تحتنا وهو أيضا يتحرك.
يضجّ الجمع مجدداً بالضحك.
- إنها حافلة البدو يا صاحبي، وتريد أن يكون لها قاع من حديد نضع فوقه أرجلنا؟ احمد الله أنها تصل بنا.
فجأة يدخل الرجال في حديث هلمس عن الحافلة، وكيف توقفت أكثر من مرة عن الركض في قلب هذا الفراغ المرعب، وعمن ماتوا من العطش لأنهم رفضوا الانتظار. يداهم الطفل خوف مبهم أن تتوقف بهم في هذه الفيافي القاحلة فيموت عطشا وتموت "م" كمدا على الطرف الآخر من الطريق.
- ونحن؟ هل سنموت أيضا من العطش؟
- اسكت، يا مغفل.
يعضّ الأب على شفته السفلى. يعمّ الجمع صمّ متجهّم. يأتي الطفل لأول مرة الوعي بأن الرحيل عرضة لأخطار غير واضحة المعلم.
تخرج الحافلة أخيرا من الفيافي الخطيرة بسلام. تعود بعض الخضرة إلى المناظر والطمأنينة إلى كل النفوس. أخيرا يتوقف هدير المحرك وهو يلفظ آخر أنفاسه.
إنها آخر محطة قبل الوصول. يتسارع الركاب إلى الباب كالفئران إلى سطح اليبسة بعد نجاة المركب من الغرق.
يضع مجهول يده على رأس الطفل وهو ينزل متشبثا بيد الدليل: إنها بركة هذا البريء.
يضع مجهول آخر لم ينتبه له الطفل يده على ذراع أبيه.
- أنت، تعال معي.
يتوجّه الأب لابن خالي الذهن:
- انتظرنى هنا حتّى أكمل الإجراءات.
- أية إجراءات؟
- لا بدّ من رخصة. أرضنا منطقة عسكرية صعبة الدخول بالنسبة إلى أمثالي.

يذهل الطفل. يفتح فمه للاحتجاج.

- اسكت يا مغفل، وإلا أرجعوننا من حيث أتينا. لا تتحرك حتى أخرج من مكتب الضابط الأجنبي.

يجلس الطفل وعيناه على الباب الذي دخل منه رجل مشبوه عند حراس الطريق. يخرج "با" أخيرا، يده على خذّه، عيناه جاحظتان بكل ما في البشر من حقد ومن غضب، ووراءه الضابط الأجنبي بوجهه الأحمر وطربوش أبيض يشبه "كسرولة" وضعت مقلوبة على الرأس وهو يصرخ في وجهه بكلام غير مفهوم.

ما الذي حدث يومها؟ ملفت خطير رفض "با"، حتى بعد عقود، فتحه لفضولي. بداهة شيء ما نجم عنه جرح لم يتوقف يوما عن التزييف.

- سيرجعوننا دون أن نرى جدّي؟

- لا، لن يرجعوني هذه المرّة... لأجلك. لكن عليّ أن آتي إلى هنا غدا.

- لماذا؟

- هيّا، قيل أن تفوتنا حفلة القرية.

- هل يأخذ الآخرون رخصة دخول من هذا الأجنبي؟

ينفجر "با" ضاحكا، ويا لبشاعة ضحكة لا تعبّر عن مرح أو فرح.

- هؤلاء! من بلّغ عني واحد منهم، والباقيون وكوا الأبطال عندما علموا من أكون. تنكّر دوما يا بني-أن البشر من صنفين...

- الرجال والنساء، الرجال والنساء، الرجال!!!

- أتحدّث عن الرجال فالنساء لا يحسب لهن حساب.

- الكبار والصغار، الكبار والصغار!

- لا يا فتى، الرجال-الرجال وأشباه الجين.

يدخل "با" في خطبة طويلة عن الفوارق.

- إياك وإياك أن تشبه يوما رجالا لا تتعدى للرجولة عندهم التّبول وقوفا.

مما بقي عالقا في الذاكرة من خطبة طويلة أعادت المخيلة صياغتها وترصيعها باستشهادات شعرية ترفع من قيمتها: الخاصية الأساسية لأشباه الرجال الجين. احذر يا فتى منه إنه "خديجة الطبع اللئيم" إنه ما يكرهه ويتفاداه "الحرّ الممتحن بأولاد الزنا". لا تكن يوما جبنا وإلا تيرأت منك وقلت عنك لقيط ألحق ظلما بنسبي. إياك أن تشبه يوما هؤلاء القوم. إن بهم نناءة فطرية ونذالة مكسبية طوّروها على امتداد القرون. يقبلون اليد التي تخفضهم ويعضون التي ترفعهم.

ها هو يغلي بالتهكم المرير وبالسخط على قوم "استدججوا" و"استبقروا" و"استعجروا" وجعلوا من الخروف واستكافته للمقصن والسكين نموذج الأعلى.

كان "با" شديد الاحتقار لقومه وهو يراهم يخفضون هامة النلّ أمام مستعمر أو طاغية تافه. لكن كل كرهه كان أيضا حبا معكوسا وهو لا يبغي شيئا قدر التباهي بأهله على عادة

البدو، إلا أنه لم يجد فيهم ما يفخر به وقد آتاهم في عصر تظلوا فيه عن مشرّوح أن يكونوا خيرا أمة أخرجت للناس.

يواصل زمجرته وهو يجتذني بكاد يظع كنتفي:

- كلهم صغار النفوس، كلهم صغار العقول، كلهم صغار الخصومات والجهد والطموح! أه وأه، أي ذنب ارتكبت لأكون من هؤلاء القوم!
يتعالى صراخه والناس تشيح عنه البصر وتقرّ من حوله.

- اللهم لا تقبرني في أرض هؤلاء الجبناء! اللهم لا تجعل من موتي مهزلة بعد أن جعلت من حياتي مأساة! هل تتصور-يا فتى جنازتي، وقطعان الخرفان والماعز تحرسها كلاب الضبع توارى في الرمل جثة الأسد!

- "يا"، لكن الناس يقولون عنك إنك وطني تحب الوطن جدًا جدًا!

- الوطن! الوطن! الوطن! لا أبغض شيئًا قدر بغضي له. هو مثلهم: كل شيء فيه صغير، مننه، قراه، جباله، صحراؤه نفسها صغيرة وأصغر ما في هذا البلاد اللعين البشر. ليس من باب العجب أن يكون زعيمهم قزم. اسمعني جيدا عليك وعليهم اللعنة. إن لم توقّر لك أرض الآباء والأجداد الحرية والكرامة، قل: ليغرقها الطوفان، ليضربها الزلزل، لتغمرها الرمال، أحرقها إن استطعت، وإلا أهرها، ذلك أضعف الإيمان... ما قيمة الوطن إذا كانت الأرض التي نهرب منها لا الأرض التي نهرب إليها؟
هذا الرجل هو نفسه الذي سيرند لابنه أكثر من مرة:

- يا بني، تمثّل دوما بقول الشاعر "بلادي وإن جارت عليّ عزيزة وأهلي وإن ضنوا عليّ كرام". أكرمهم مهما ضنوا عليك. لا تكن محبًا مخلصًا ووفيًا إلا لهذا الوطن مهما جفاك وظلمك... وتدبر أمرك يا فتى لتعرف أي الموقفين هو الذي يجب اتخذه.

قد لا توجد ثنائية تحكمت في قصة 'يا' وهيكلت فكره ومشاعره قدر ثنائية الوطن والمنفى. كم يبدو لي اليوم ضيق الأفق وهو متمسك طيلة حياته بحبّ مرضي لقطعة أرض تطوقها حدود خيالية صنعتها ظروف لا منطق لها ولا هدف. كيف لم يكتشف هو الباهر النكاه أن من طبيعة العالم أن يكون لنا وطنًا ومنفى أيًا كانت قطعة الأرض التي حكم علينا أن نولد وأن نعيش وأن نموت فيها؟

لا بد لكل نوبة غضب أن تنتهي وإلا كان الغاضب هو الذي ينتهي مجنونًا أو ميتًا.

يتوقّف الرجل في طريقه إلى مريض حافلات الواحة ليختار لأهله بعض الهدايا ولابنه ثياب البدو الذين عاد واحدا منهم. يتوجه للطفل:

- أسرع بلبس هذا السروال الجديد حتى تبدو حسن الهمدام أمام جدك.

أحسن ما في الأدميين نزعة التمرد إذ لولاها لما وجد تجديد.

- لا أريده. لا أحبّ لونه الأسود وشكله الفضفاض.

وفيهم أيضا لسوء الحظ إرادة لكسر كل تمرد، ربما حتى لا يصبح العالم فرضي ليس فيه طريق سلك.

- قلت لك: اليس.

متوجها للبائع: بكم السروال يا رجل؟

يعود الطفل للصراخ ليثبت أن له رأي حتى في هذا العمر وأن على الطرف الآخر التعامل معه خارج الاكراه.

- لا أريده، لا أحب لونه وشكله. لن ألبسه. لن ألبسه!

يعلن البائع للحضور أنه لم ير أبدا طفلا وقحا يعصي أوامر والده بهذا الشكل.

يصرخ فيه: "يا بغيظ فمه وإلا فإنه هو الذي سيلبسه لسروال بالقوة."

- والآن اليس بسرعة، وإلا فانتنا الحافظة.

- لن ألبسه، لن ألبسه، لن ألبسه!

مشهد لا أكثر منه ابتداء في علاقة الأميين ببعضهم البعض، يستأهل بعض التعليق.

العقنون سعي كل ذات الذات للتحكم في الذات الأخرى... لتحريكها في الاتجاه الذي تريد... لتقويضها... لاستعمالها، وكأنها تعتبرها تلقائيا مجرد امتداد لها. إنه تصرف الأم مع رضيعها، الرضيع مع أمه، المعشوق مع العاشق، العاشق مع المعشوق، الصديق مع الصديق، الأخ مع الأخ، السيد مع العبد، العبد مع السيد، الحاكم مع المحكوم، المحكوم مع الحاكم. تكتشف حتى داخل العلاقة الدينية سطوة القانون فالخالق يريد تطويع المخلوق بلوعد والوعيد، والمخلوق يريد تطويع الخالق بالصلاة أو بالتهديد بالكفر وبفضيل رب آخر. الفوارق التي تحجب عنا الظاهرة متعلقة فقط بإستراتيجيات التطويع وهي تتأرجح بين الترغيب والترهيب، الغلظة والرفقة، الصّدّ والوصال.

يفقد الرجل مجددا السيطرة على أعصابه المتوترة فينهال على ابنه ضربا. ثم يتوقف وهو يفهم أن كسر شوكة هذا الطفل العنيد قد يؤدي به إلى انزلاقات لا يرغب فيها.

يرمي بالسروال في وجه البائع ويجز الطفل، يكاد يخلع ذراعه.

تنباطاً سرعته وقد جاءه التردد. يستترق النظر إلى طفل يشهق صلمتا لأنه أقسم بكرا ألا يبكي أبدا كالتسوة والصغار.

- لا أريد أن تقول لجذك أنني ضربتك...

- بل سقول له أنك ضربتني بشدة، سقول له ليضربك كما ضربتني. سقول ل " ما". نعم

سقول لها، سقول كل شيء!

- فضحتني أمام الناس وتريد فضحي أمام جذك.

- وسقول أيضا لله.

- لا تقصه هو الآخر، يكفيني مشاكلي مع ما ارتكب من إنس وأبالسة. يا إلهي أي طفل ابتليت به؟ والآن كن ولدا طبيبا. أتريد قميصا أم لعبة؟ بعض المرطبات؟

يتمسك الطفل برفضه المتعالي لكل عروض السلام التي يتقدم بها رجل مترابذ الارتباك. ثم تتدافع ببالغ السرعة في ذهنه حسابات معقدة عن خطر الإفراط في الدلال فيتخذ أحكم قرار.

- بعد المرطبات وزيارة جدي، نسافر معا إلى المدينة الكبرى والجامع الأعظم والبحر
وكللال الأماك التي سافرت إليها؟

- موافق.

- كلمة رجال؟

- شريطة ألا تقول لجذك أنني ضربتك.

- كلمة رجال.

نحن هنا أمام عينة من علاقة الأبوة والبنوة. إنها علاقة ستتخذ ما لا يحصى ولا يعد من أشكال متباينة الطرافة والحدة والتعقيد والخطورة والنتائج وذلك حسب طبيعة كل أب وكل ابن والظروف التي تشكل خلفية هذه العلاقة وإطارها. حدث ولا تسأل عن كل الحالات التي تتخذها الأم بابنها وعلاقة البنات بأبوهن وعلاقة الحبيب بحبيبه والصديق بصديقه والعدو بعدوه أي فكر قادر على استيعاب كل هذه التجارب التي يحاول الأدب جاهداً عن استكشاف بعض ملامحها انطلاقاً من قصة رحلة هذا أو ذاك!

يعود الطفل إلى الصراخ:

- جدي ينتظر منذ الصباح. هيا. أسرع، أسرع!

يصرخ الأب وقد تبخر منه مجدداً كل حسن استعداد:

- لوجه الله اصمت، ولوجه الشيطان توقّف عن الركض. أرهقتني، أصببتني بالدوار. كفت عن الجري، كفت!!

وهل يوسع الشيء الخروج عن طبيعته وعن سبب وجوده؟

تزحف حافلة البدو في وجه الريح المولولة وهي كسفينة تتقافها أنواع تريدها إغراقها في أعماق المحيط الأصفر. تتوقف وعجلاتها تنور علجزة عن رفع تحديات الطريق أطبق عليها فخ الرمل. يصرخ الطفل آملاً أن يطغى صوته على صراخ الريح

- "يا"، أين الطريق؟ لا أراه.

تعود للرجل المتجهّم بشاشته:

- إته أملك، يا مغفل.

- أين؟

- في مملكة الريح والرمل، هو ما نشقّ بأقدامنا ونحفر بأظفارنا.

- "يا"، أنا أيضاً أضع معك ومع الرجال.

- تراجع إلى الوراء، سيأتي دورك لتدفع هذا العالم اللعين. ويومها تذكرني.

تعود الحافلة للتقدم البطيء المترنح. ينتبه الطفل أن "يا" لا يتهاشم مع جليس وليس مشغولاً بجريدة يتصفحها بعصبية، أن أنفه هو أيضاً على زجاج النافذة المغبرة... وأنه صامت يتأمل.

كان الرجل الذي فرّ من الصحراء ناهماً، سلخطاً، لا يحلم وهو منفي عن أخطارها-إلا بالعودة إليها للاختباء نهاراً في الحفر والمشي ليلاً بحثاً عن قرية فيها امرأة وماء وتمر.

كم سمعته يتحدث عن كثبانها كعاشق أضناه الشوق لوصال حبيب متمنع! كم سمعته يرثى وهو على وشك الدخول في آخر منعطفات الطريق: أقصى أمانتي أن امدد على رملها جسدي المرهق، أن أغرس مرقمي للمرة الأخيرة في "العرق"... أن أجبل بصري في عمق سماء ليلها.

يفيق الأب من ذهوله صارخاً؛ وصلنا لمشرف الواحة. بعد قليل سترى جدك. انتهى عذاب الطريق.

تموت الصرخة في حلق الطفل، لا يدري لمن يتوجه بحب جارف تصاعد من أعماقه وبأي كلام يشيب بالشمس، بالأشجار وبالآفاق الملتهب.

لا أجمل من العالم وهو يستعرض مفاتنه أمام طفل، ولا أجمل من طفل وهو بجمال العالم مأخوذ. وفي مثل هذه اللحظة المباركة تتعكس في مرآة العالم أجمل حالات الأنمي، وتتعكس في الأنمي أجمل حالات العالم. إنها تجربة تحققت فيها مرامي هذا من ذاك وتحققت فيها أهداف ذلك من هذا، وفيها تختزل قدرة الأول على مطلق العطاء وفيها تتجلى قدرة الثاني على عميق العرفان.

يقفل الطفل بصره تبعاً من خضرة الشجر الأهيف الأنيق المنكبر إلى حمرة قرص ذهبي على وشك الرحيل نلسيا كل ما من حوله. ينفعه والده برفق فظاً باتجاه الباب، يزاحمان متزاحمين نفذ صبرهم من طول الحشر في علبة الصفيح السلخنة.

يتلقف الطفل صدر عجوز مبتسم الثغر، دامع العينين. وبين الذراعين المطبقين بقوة يستيطن الطفل في لحظة خاطفة ما تعلم من سفرة ستطبعه إلى الأبد... أن الواحة محطّة في عالم بالغ الاتساع، أن الطريق إليها طويل، خطير، تترصد فيه العيون، أن عليه حواجز وعساكر يمنعون ويمنحون الإذن بالمرور، أنه لا بدّ من فتح الطريق أحياناً بأجسامنا، وأن السفر هو الهام َ لا نقطة الوصول ولو انتظرك فيها حبيب يمسخ عن عينيه دموع الفرح. حقاً لا مسافر غير الطفل ولا سفرة إلا إبان الطفولة.

اعد لي الماضي واحتفظ بالحقيقة (فرنتندو بيسوا)

هب لي الطفولة مرة أخرى وخذ معك الله.

في نفس الحافلة وهي تتحرك به في الاتجاه المعاكس، يبلغ الطفل دموعه وأنفه على النفاذة ينظر لجذّه واقفا يخفي دموعه هو الآخر. تصله بصعوبة الكلمات الأخيرة التي يحاول إيصالها إليه ونويّ المحرك يغطي عليها. نعم، سيعود يوماً وسيأخذه كما وعد إلى "طينية" ليبيرا معاً أرضاً معطاء تجود بالقمح إذا جادت السماء بالمطر.

تأخذ "ما؟" طفلاً يحبس بصعوبة دموع الأسي والقهر. تضمه بين ذراعيها وهو معرض عنها لا يريد الحديث. ثم ينفجر في وجهها وكأنها هي التي خانتها.

- تركني أول يوم واختفى وأرجعني جدي مع مجهول.

- يا بني إنها ضرورت... عمله.

- أي عمل؟ أنا لا أحبّه، لا أحبّه.

- يا بني، لو لم تكن معه لأوقفوه عند النزول من الحافلة. طلبوا منه أن يوصلك إلى جندك وأن يعود لتسليم نفسه. كنتما طول الوقت تحت المراقبة. أفلت والدك منهم واخترق الحدود تحت جنح الظلام وهم وراءه. من حسن الحظ أنهم يجهلون دروب الصحراء.

كانت "م" تصنق ما يقوله هذا الرجل عن مهامه الخطرة المتعددة، وكم هو مجبر على تأدية واجبه ولولاه لفضل الحياة بجانيها وبجانب أطفاله الذين يعلم الله وحده كم يحبهم... إلى آخر لكاذيب الرجال على النساء.

حقاً يومها قرّ "يا" من أعدائه وبعد أشهر سيفرّ من رفاق اختلفوا معه فجاءوا لذبحه ليلاً. حقاً كان له أعداء يتربصون به في كل تقاطع طريق. لكن ما أنا مقتنع به أن وجودهم كان بقرار وخيار ولو كان لا واعياً، وهم أحسن عذر للفرار من مسؤوليات مبتذلة أو حتى من أخطر مسؤوليات مواجهة الذات لذاتها.

يعود الطفل للصرخ في أمه، يشير إلى البعيد المبهم، لا رغبة له إلا العودة إلى الطريق، وكل هljسه معرفة إلى أين يؤدّي:

- إلى مدينة الجامع الأعظم حيث سذهب مثل والدك يوماً لتتعلّم كلام الله.

- وبعدها؟

- أعتقد أنه يصل البحر.

- وإلى أين يذهب بعد البحر؟

تضحك "م"، تداري حرجها:

- تكبر، وإن شاء الله تسافر وتقول لي أنت ماذا يوجد وراء البحر.

- سأذهب حتى إلى ما وراء الأفق لأجد "يا" وأعود به.

تبتسم "م" برفق فيه نكهة من السخرية ولسان الحال يقول: لا تستعجل الأمر، سيأتي الوقت لتضرب في الأرض ذات العرض والطول، هاتما على وجهك ككل البشر تبحث عما لا وجود له وتجد ما لم تبحث عنه يوماً.

في ركن منزوي من خيل الذاكرة يركب بطلنا الصغير عصا من القصب يأمرها أن تطير به لما وراء الأفق.

قبله ركب الأب سعف نخلة والبصر شاخص إلى البعيد لاستكشاف كالبال ما يحفل به العالم من خوارق ومعجزات.

بين أشجار الزيتون تواصل طفلة منقطعة الأنفاس القفز بالحبل ضاحكة من سدجة الطفل الذي سيصبح بعلمها والطفل الذي سيصبح طفلها.

لا يبقى لنا إلا رفع العينين لمن توجّهت إليه صلاة المريض: اللهم اتم هذه الرحلة على خير، إنك السميع المجيب... أحياناً.

**

الكتاب الثاني العالم

ما إن يعود الربيع
إلا وأنا متيم من جديد بعالم السراب هذا
في أي عالم آخر سأرى مثل هذه الأزهار؟

“هايكو” لشاعر مجهول

مقدمة الكتاب الثاني

في 9-9-99، بالتقويم السائد.

منذ الصباح وأنا أتوجس خيفة من يوم فيه أربع مرات رقم تسعة. ما الداعي إلى القلق؟ طبعاً أنا أحمي عقلاني أرفض التطير واسخر من المتطيرين لكن هل تتلع نفس الرقم وهو من الأرقام السحرية مجرد صدفة؟ من الممكن أنه يوم لا يختلف عن بقية الأيام سيتدافع فيها القادمون الجدد بنفس التهور، سيغادره القادمون القادمي بنفس الصعوبة وسيواصل المرتحلون فيه التخبط في المشاكل المبتذلة التي جربوها جيلاً بعد جيل. لكن من يدري؟ لا بد للعالم من نهاية، فلم لا يكون هذا اليوم؟

ربما السلطات على علم بأمر ما لكنها تفضل لصمت حتى لا تضيف مزيد من الفوضى إلى الفوضى العادية.

ربما حصل المحذور ولم أعي مما قد يعني أن هذا النص حلم يحلمه ميت! في حالة استهزائكم بالفرضية، لماذا يكون عدم انتباهي لنهية العالم وخروجه منه أغرب من عدم انتباهي لبدائته ودخولي فيه؟

حتى لا أتهم بترويج الأوهام والأمال الزائفة كما يفعل صانعو الرؤى غير المتقنة، سأقطع الكتابة لحظة للتأكد من عدم وجود أي ظواهر شاذة قد تنبؤ بقرب غلق هذا السيرك العظيم. أنظر إلى ساعتى يشك حذر بين القبية والأخرى فيطمأنني أن غاربيها تتقدم إلى الأمام لا إلى الخلف، أن السماء في مكانها أي فوق رأسي، أما الأرض فهي-لحد الآن-تحت قدمي، ناهيك عن كون اليوم المريب بدأ يصبح مضيء وهو الآن بصدد الانتهاء بنفس الليل الحالك للسواد.

يجب الخروج إلى الحديقة لمزيد من التثبيت.

يسعني الآن-دون أن يسعدني ذلك كثير-تدوين ما يلي: مشيت على نفس الأرض الصلبة المعتادة ولسعنتي نفس الهوام المجهولة، وتساعدت من أزهار الياسمين نفس الروائح المسكرة ووثرت أعصابي أعراس الجيران ولفحتني نفس الريح القادمة من البحر مشبعة حرارة ورطوبة. كذلك لمسيت كل الأشجار، فلم تتبخّر، بل ومضغت ورقة من أوراقها فبصقتها. لم ألاحظ أيضاً ما يثير الشبهة بخصوص السماء، وجهلي بترتيب النجوم على رداء الليل لا يبدو مختلفاً عن جهلي به البارحة. أضف إلى هذا أنني سمعت بمنتهى لوضوح أصوات الأدميين ونباح الكلاب، وأنني تأملت ذاتي فوجدتها على ما أعرف من انتباه لفق.

كلُّ الرغبة المطمورة في الأعماق لم تتحقق لسوء الحظ (أو لحسنه)، وكان الخشية المطمورة في الأعماق لم تكن في محلها لحسن الحظ (أو لسونه)، فالיום-بالتأكيد-ليس

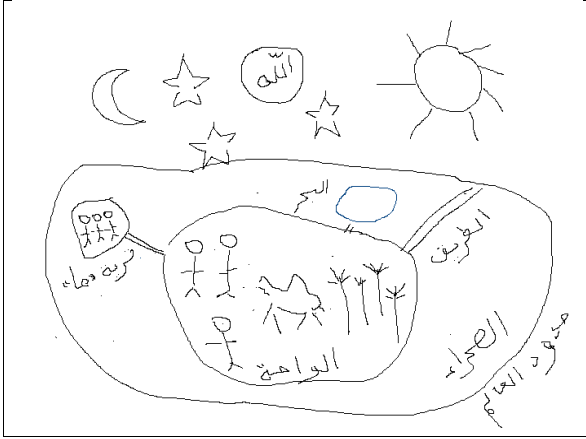
النهاية حيث ولى الأديار بأرقامه المثيرة للريبة منذ أكثر من نقيقتين حسب ساعتني، والعالم لم ينتهي.

أهم استنتاج أنه ما زال لي بعض الوقت وبعض الأمل في فهم ما هذا الذي ارتحل فيه وفي تحسين نماجه الأولى.

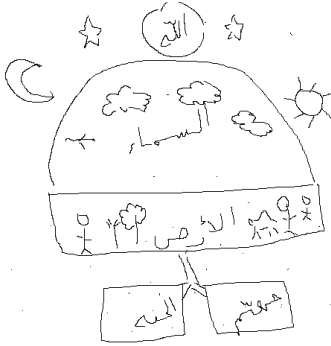
تعود للذاكرة صور طفل معقب بالنفي في آخر القسم يدوي مله بوضع أولى نظرياته عن هذا العالم الذي أفق فيه ولا بد أن يشق فيه طريقه لهدف ما زال مجهولاً.

كل في ذهنه طبقاً صليبا أفقياً جلّه أصفر اللون باستثناء بقعة زرقاء هي البحر الذي حدّته الدليلان عن وجوده، ويّقع خضراء صغيرة متناثرة منها واحة الأب والجدّ. فوق الطبق للصلب الذي يقف عليه هو وبقية الكائنات والأشياء ثمة قبة هي السماء، وُضعت عليه كما تضع أمه صحناً أجوف من البلور على طبق الطعام لتقيه من الذباب. على سطح هذه القبة تتجول الشمس والنجوم والقمر. فوقها وبعيدا عنها يجلس على كرسي ضخم اسمه “العرش” شيخ كل الشيوخ اسمه الله. بين قبة السماء والبسيطة يوجد الهواء الذي تطير فيه العصافير، في حين تسبح الأسماك في ماء البحر، ممّا يترك الأرض للبشر الذين منهم “بأ” وما” والجدّ والجدّة والعمتات والأخوال والجيران والكلاب والماعز والحمير والبعير. من مركز العالم الذي يشكّله فناء منزل الجدّ يبدأ وينتهي الطريق الذي يسلكه كل ذاهب وكل عائد. على حافته ثمة مدنٌ وفُرَى لا يُعرف لها عددٌ. أما الحدود فنهيال الطريق، عندما يرتطم بالهاوية التي لا قرار لها والتي لا يُعرف بالضبط ما الذي يوجد فيها، ربّما الغاريت والأشباح، من بينهم “العبيثة”.

نعم ما من شك أن الرسم الذي كان يحسنه باستمرار هو الخريطة لصحيحة للعالم.



ماذا الآخرة التي سمع عنها أكثر من مرّة خاصّة من جدّه!
هل يُعقل أن ينسى معلّماً كهذا؟! أين موضعها؟ هل هي حيث يوجد العرش؟ على يمين الله
أم على يساره؟
حسب قول 'مما' هي المكان الذي يذهب إليه الكبار عند موتهم. ألا يحفرون للميت حفرة
في أديم الصلب، وهو ما قاموا به عندما حملوا حسين ابن خاله الذي كان يحب اللعب معه
وسرقة لوز الجيران؟
إنّ، الآخرة موجودة تحت الأرض. ووفقاً لما سمع من 'مما' التي لا تكذب أبداً، هي مكوّنة
من الجنة والنار.
لم يبق إلا إضافة مرتعين يرتبطان بالأرض بالنفق العمودي الإجباري الذي يأخذه الموتى
للوصول إلى حيث حُجز لهم مكان اقامتهم الأخير. المربع الأول أخضر اللون لأنّ الجنة
كما تقول 'مما' واحدة خصيبة، ولو أنّها أكبر ونخيلها أعلى ومياها أوفر وأعنب، يذهب
إليها من عملوا الصالحات. أمّا المربع المقابل فهو أحمر بلون النار المخصّصة لشواء لحم
الكفار والمعلمت الشريرات.



خلت مشكلة طبيعة العالم. لم تبقَ بالنسبة لطفل في أول سنة له في المدرسة إلا حل مشكلة الزمن. ما معنى أن يكون اليوم كما يقول المعلم تاريخ هجري وآخر ميلادي؟ كيف يكون هناك زمنان، والحال أنه ليس هناك شمسان ولا قمران؟ كيف تبدأ السنة مرة من "الهجرة النبوية" وأخرى من "ولادة المسيح"؟ ثم ما معنى الحديث عن أفعال ما قبل الهجرة؟ كيف يمكن للأحداث أن تقع قبل بداية الزمن الذي بدأ به العالم وكل الأحداث؟

الأهم من هذا كله متى ستقوم القيامة. وهل يا ترى سيحدث الأمر حسب زماننا أم في زمان الكفار؟ حسب زماننا طبعاً، فإلهنا هو الإله الحقيقي. ولكن في أية سنة بعد الهجرة؟ لجابة متروكة للكبار. وفي أي يوم؟ بلناكيد سيكون يوم الجمعة لتواجد كل الناس في الجوامع، مما يسهل على سيننا عزرائيل إلقاء القبض عليهم جملةً.

والآن متى بدلت البداية؟ أول يوم في الربيع، في الصيف، في الخريف، في الشتاء؟ لكن أي يوم من أيام الأسبوع؟! الجمعة مخصص للقيامة، السبت يوم الكفار اليهود، الأحد يوم الكفار النصارى، الثلاثاء والأربعاء والخميس أيام بلدية لكثرة العمل فيها ولا واحد منها يستحق أن يكون يوم بداية للعالم. لم يبق سوى يوم الإثنين، إنه دون شك يوم الخلق، خاصة أنه أول أيام الأسبوع.

لكن، ما الذي كان موجوداً قبل أول يوم اثنين؟ وماذا سيوجد بعد آخر جمعة؟ ما أصعب موضوع الزمن هذا! لا خيار غير تركه هو الآخر لحين يكبر.

كم كان الطفل بعيداً عن فهم انه كان يعيبت جزء مما أنتجه خيال القوم الذين ارتحل في ركايبهم لتصور العالم، وانه سيجلس يوماً لمتلاح أخرى خلقها خيال أقوام أخرى لا يرضيه أي منها.

المهم أن موضوع البحث ما زال موجودا وكذلك البحث.
كأنني بشيطان ساخر يهمس داخلي هو لم ينته هذه الليلة أما أنت فقد تنتهي بأسرع ما ترغب.
عجل يا غبي؛ قد لا تتوفر على وقت كثير لإنهاء المشروع.
المشروع! تحسين نماذج الطفل للعالم والرد على حزمة من أسئلته منها هل قدت الشمس
من ذهب قرطي 'ما' وهل القمر مصنوع من فضة الخخال؟

**

اللبنات الأساسية

- في بعض أقدم ملفات الذاكرة تهمس "ما؟" في أذن ابنها وهو يفرك عينيه نصف مستيقظ.
- أبوك رجع هذه الليلة. يا إلهي، أكثر من ثلاث سنوات مرّت دون أن نراه! انهض، قال إنه سيأخذك كما وعدك لزيارة المدينة الكبرى. أسرع وإلا غير رأيه.
- يصرخ الأب في طفل انتصب واقفا على السرير.
- يا الله يا فتى، تحرّك مالك تنظر هكذا، أسرع، ليس لنا وقت نضيقه.
- تدافع الأسنلة في ذهن الطفل عن المتاهات المبهمة التي خرج منها "بأ؟" خروج الجئي من القمقم.
- "بأ؟ أين ... أين كنت؟"
- أفتح لك الطريق. قلت لك يا الله... القطار لا ينتظر.
- يرقص الطفل على سريره فرحاً. ثم يعاوده القلق.
- هل ستسافر مجدداً؟ هل ستتركني؟ لن تغيب مرّة أخرى، أليس كذلك؟
- كأنك تريد إغصابي! هيا، لا تضيع وقتي، لن يكفينا كامل اليوم لزيارة العاصمة. برنامج اليوم الحمام وزيارة الحلاق وصلاة الجمعة في الجامع المعمور. لا بدّ أن أبحث عن كتاب قيل آخر قطار. تعال، حتّ الخطى.
- يتبع طفل في السابعة أو الثامنة من عمره رجلاً وُلد على عجل، عاش على عجل، مات لا يلوي على شيء وكان له مواعيد هائلة حتى في الآخرة.
- تتلقّانا بعد ثلاث سنوات مرت كلمح اليرق نفس المحطة ونفس القطار، هذه المرة متوجها نحو الشمال.
- "يا! وصلنا؟ بهذه السرعة! لا يمكن أن تكون المدينة أبعد نقطة وأنا أريد..."
- لا توتر أعصابي من الآن، حتّ الخطى لتصل الحمام سريعاً.
- يصرخ الطفل في أبيه وهما وسط ساحة مغيرة تفتح على أوسع أزقة المدينة العتيقة:
- "بأ؟ ما هذا الشيء؟"
- إنه تمثال لواحد من كهنتهم يسمونه "لافيجير ي".
- لماذا يقف أمامه الجنود؟
- حتى لا ينسفه رجالنا..
- "بأ؟ هل جثة الرجل موجودة داخل التمثال؟"
- لا شيء داخل هذا المسخ سوى استقزاز المحتل وكفّره.
- يزمجر "بأ؟" كعادته عندما يرتفع عنده منسوب الألم.

- أبناء الكلب! وضعوا صنمهم في مدخل المدينة العتيقة للشمامة بذا، لنفس الشمامة سَموا هذا الذي ينتهي عند الجامع الكبير "شارع الكنيسة". لعنة ألف مرة على جبروتهم واللعنة لآل مرة مرة على لاجيروتنا نحن.
- أريد أن ألمس ال...
- الجنود يمنعون اقترابه يحمونه من التفجير وكتابات السب، سنقتله طال الزمان أو قصر. هيا أسرع ما لك تجرّ قنميك!
لا يريد الطفل شيئا أكثر من الركض مع الراكضين وحتى تجاوزهم ليكون أول من يصل ولو أنه لا يعرف ما المكان الذي يجب أن يسبقهم إليه.
يصرخ فيه "با" يكتم ضحكه وراء ملامح يجاهد لكي تبدو عابسة.
- تمهل، وإلا فقدتُك، حتى وإن كان الأمر لا يخلو من بعض الفوائد.
يجد الطفل نفسه فجأة مثل قشة طافية على أمواج نهر صاخب وجدران الشارع الضيق مثل سدود تردّ من يرتطم بها إلى المجرى قزير في عنف تلاطم الموج.
ينقل الطفل بصره بين الوجوه والأزياء، لا يضيّع شاردة ولا واردة.
- "با"، من هذا الرجل، وماذا يفعل؟
- شيخ ينسج الجبب. سألته لك جبة جديدة ليوم العيد، إذا كفتت عن الصراخ.
- انظر "با"، إنه الشيخ الذي صنع شاشية خالي صالح!
- هذا سوق الثوّاشين، هذا الرجل بالذات ليس من صنع شاشية خالك، الصنّاع بالعشرات.
- "با"، أنا أيضا أريد أن أنقش على مثل هذه الصحنون الجميلة بمثل هذا المسمار، وأن أجلس في مثل هذا الحانوت مثل ذلك الطفل.
- يا جحش. أريد لك مستقبلا أفضل.
- "با"، لماذا كل الشواشي حمراء وكل النساء ب "سفساري" أبيض؟
- عندما تكبر، افرض على الرجال صبغ الشواشي بالأبيض وعلى النساء ارتداء "سفساري" أحمر اللون.
يعود الطفل للصراخ :
- "با"، ما هذا الشيء الأبيض؟
- يسمونه "الكسترو". يوم نخدغ عائلة بريئة ونخطب لك ابنتها المسكينة، سنشتري مثله لنضع فيه هدايا الخطبة.
- "با"، ما هذا الشيء؟ وهذا الشيء؟ وهذا الآخر؟
فجأة يُداهمه قلقٌ مبهم.
- بخصوص الحَمَام والحَلّاق... هل يمكن أن نذهب مرّة أخرى؟
- لا تماطل. هل رأيت هذه الغاية من الشّعر فوق رأسك؟ أخشى -إن أهملنا قصّتها- أن تملأها حيوانات صغيرة يبدأ اسمها بحرف القاف.

يصل أبٌ يجز ابنا، وابنٌ يجز أبا، لحَمَام اسمه “العشاشين” يقول عنه “يا؟” إنه أفضل وأرخص حمامات المدينة العتيقة.

- “يا؟”، لماذا صيغوا عمودي المدخل بالأحمر والأخضر؟

- ألا يعجب الأحمر والأخضر سيادتك؟

- كنتُ أفضل الأحمر والأبيض. إنهما لونا العلم المقدّي!

- الأمور كما هي، ومن بينها أنك ستدخل هذا الحمام أيا كانت ألوان أعمدته.

تضيق الأشكال والألوان في ضباب تنهدى داخله أجسام مترهلة تحمل حول الخصر فوطة باهتة اللون من كثرة الاستعمال والغسل. يأتي وقت الجزء المزجج من البرنامج الذي لا نجاه منه. الطفل الآن بين يدي “الطياب” كالفار بين مخلب القطر. يسلم جسمه مكرها ليدي المهني الخشنة، تدلكانه، تفركانه، تطقطقان مفاصله، والطفل بين احتجاج وإذعان ساخط، وأبوه بين ضحك وتقريع.

لا يبقى له غير كتم أنينه ومحاولة التركيز على ما حوله لينسى ما يتعرض له من اعتداء سفر على حرمة الجسدية. ألم يطالب أمه بآب يأخذه لحمام الرجال ملّ حمام النساء الذي يكره دوما أنه ما زال طفلا صغيرا. ومع هذا، ليس في هذا الحمام اللعين ما هو جدير بمزيد من الصبر والتحمل، وقد أعمى البصر الماء والصابون ورغوة “الشامبو”.

- عيناى تحرقننى، أريد الخروج، أريد الخروج، سأخرج الآن.

- شيء من الصبر يا مصيبة والدك، يا غضب الله عليه. دعني على الأقل أتشفك. المرّة المقبلة سنتذهب إلى الحمام مع لك كل الصغار.

- أريد الخروج! أريد الخروج!

- أخرج الله روحك. استلق على هذا الحصير فلا بد من الراحة قبل العودة للشراع. لا شك أنك ظمآن، هذه برتقالة لك من “يا”.

يأخذ الطفل الثمرة، يقربها من عينيه يطيل النظر وكأله يرى برتقالة لأول مرّة في حياته. يبهره لونها هو الذي اكتشف من جديد إلى أي مدى هي رائعة هذه الألوان التي ضاعت أكثر من ساعة طويلة في بخار الحمام.

- ماذا تفعل؟ ألم تعجبك البرتقالة؟

- بلى، إنها جميلة جدًا، خاصة اللون. ألا ترى كم هو جميل؟ أحب رائحتها أيضا، “يا؟”، هل هناك برتقال أزرق أو أبيض أو أسود؟ هل رأيت برتقالا يمثل هذه الألوان في بلدان التي ذهبت إليها؟ هل له هناك روائح أخرى؟

- يا لك من طفل غريب. والآن كل برتقالك وارتكني أغفو لبعض الوقت.

- “يا” لا أريدها...إنها شديدة الحموضة.

- اذن كل القشور...ربما يعجب سيادتك طعمها.

يغمض الأب عينيه معرضا عن طفل لا يجد ما يلهو به غير الانكفاء على ذاته بانتظار استئناف الحوار وتجدد الصلة التي هو شرطها الأول.

يغلق عينيه هو الآخر ، يفتحهما للظلام متنكرا لعيته المفضلة ز منا طويلا ، وكم كانت أمه تكررهما لسبب غير مفهوم.

ومن الملفآت المطمورة بعنائية في ذاكرة الكهل تعالى أمر غاضب: يا بني، كفت عن هذه اللعبة، ابحت لك عن غيرها، إنك تخيفني.

يخضع الطفل للأمر. لا يريد أن يستقرّ "م" معاهدا نفسه على العودة إلى العالم الغريب وهو بعيد عن عينها. أليست اللعبة الغيبة - كما كانت تصفها أمه ظلما- بداية تجاربه لفهم ما يحيط به من خوارق ومعجزات؟! هو يتنكر كيف انطلقت اللعبة والاكتشافات الهائلة التي تبعتها.

- "م"، لماذا ينظر هذا الرجل دوما في الفراغ؟

- إنه من المبصرين يا بني، تلطف معه دوما وخذ بيده لتعينه على شقّ الطريق.
- مبصر؟

- يجب أن تسميه "مبصر" حتى لا تجرح المسكين وهو لا يرى شيئا.

- هو لا يرى المعزاة والنخل، ولا يرى عنتر حتى عندما يكون مفتوح العينين؟

- نعم، هو لا يرى... إلا الظلام.

يكتشف الطفل، وهو بعيد عن عين كل رقيب، سهولة أن يكون "مبصر" متى شاء، مكتشفا أن الظلام الذي فرضه على نفسه استنفر فيه طاقات مجهولة. ها هو "يستشق" روايح فوح بها شجر النخيل، هو الذي لم يعرف للنخيل يوما روايح.

ها هو "يسمع" ديبب للنمل على الأرض كأنه ركض الخيل، بل ويشعر بلمس رقيق لما يزخر به الفضاء من إنس وجان.

السؤال الذي شغل باله تلك الأيام، كيف يفسر للضرب لون الحليب، ولون الفحم، ولون الرمل، ولون السماء، ولون الدم، ولون سعف النخيل؟

- "م" إن، هذا الأعمى كما يقول جدي لا يراني!

هاجس الطفل الآن ليس أن يكون الشيخ عاجزا عن الرؤية، وإنما أن يكون عاجزا عن رؤيته هو.

هو سيعاني مثل بقية الأدميين من ألم يقائه خارج مدار أنظار تنزلق عليه ولا تبصره وهي شاحصة إلى الأفق أو منعكسة على ذاتها لا تهتم إلا بها. هو أيضا سيبقى ساعيا بكل قواه لتتوجه إليه كل الأعين. هو أيضا سيكون بين من أذلهم الجري وراء الأنظار. هو أيضا سيجربّ مراهقا نصيحة آدمي يدعى "بيكات" بإبعاد أي كائن بوسعه النظر إليه، حتى ولو كان القط، بنزع كل امرأة من الحائط، بغلق الأبواب والنوافذ، بإطفاء الأنوار، بغلق العينين علّ الذات توجد أخيرا خارج سطوة الناظر.

يعود للذاكرة سؤال يتذكر الطفل كم أزع أمه.

- "م"، هل سأكون مبصرا يوما ما؟

- سبعة أطفف وبعيد الشرّ على ولدي، لا تقل مثل هذا الكلام يا نور عيني.

ثمة رعشة خفيفة في نبرة صوت الأم تتنبئ بوجود رعب تحاول إخفاءه ولا تفلح.
كيف لا يتأنيها التطييز وهي تعلم ما لا يعلمه ابنها في هذا العمر، وكم يعيث العمى فسادا في
قرية غارقة في الفقر والجهل؟ ألم يسمعها تهمس ذات ليلة في أذن جارة وهي نظنه نانما.
- هل هو الرمذ؟ إنه الرمذ... أليس كذلك؟

- يا عزيزة، صلّي على النبي.

- لكنه يقرب كل الأشياء إلى عينيه، أنا متأكدة أنه لا يرى جيدا.

العمى! ذلك أخشى ما كنت تخشاه "م.م" تلك الأيام، والمهاجس المرضي الذي سيصلح
الطفل إلى يوم الرحيل.

في أي عالم كنت أرتحل لو لم تكحل عيني خضرة الغابات والمراعي، زرقة السماء
والبحر، بياض الثلج والسحب، حمرة الورد والشفق، صفرة الصحاري وحقول القمح
في أي عالم كنت أرتحل، لو أفقت فيه دون حاسة الذوق لتتمتع بطعم البرتقال المقطوف
في وقته... لو أفقت فيه دون حاسة السمع لتعرف كيف هو خريز الماء وضحك الأطفال
وارتطام قطرات المطر بشبك غرفة النوم!... في أي عالم كنا نرتحل جميعا لو أفقتنا فيه
ونحن لا نملك مثل دود الأرض إلا حاسة للمس؟!.. ثمة ابن عالم لا يعرفه إلا
المبصرون... وآخر اختفت منه الأصوات لا يعرفه إلا الطرش... وآخر لا وجود فيه
للروائح إلا ككلمة من اللغة لا يعرفه إلا من قدوا حاسة الشم!... كم من بني سفر ارتطوا
داخل عوالم كهذه لا يعرفونها إلا هم!؟

يمكنك متابعة الفكرة في الاتجاه الآخر.

في أي عالم كنا نعيش لو ولدنا بحول غير الخمس الكلاسيكية التي رصدها ارسطو؟
ها أنت تسمع ما لا تسمعه الخفايش، تشم ما تعجز عن شم الكلاب والقطط، أو ترى بعين
أكثر فعالية من عين النسر والصفير.

تستحث في الفكرة كل طاقات التخيل. رؤية ما وراء اليقسي؟ تحسس الذبذبات
الكهربائية-المغناطيسية، وربما حتى ذبذبات الجاذبية إن وجدت؟

قد يأتي يوم يحمل فيه أحفادنا سماعات تلتقط غزل الأزهار ونظارات عن قرب تتأمل
رقص الذرات ونظارات عن بعد تتابع انفجار النجوم والمجرات. لكن ما الفائدة وماذا ترانا
فاعلين بسبعة أو بسبعين حاسة ونحن نكاد لا نستوفي إمكانيات التي خلقنا بها؟

يفتح الطفل عينيه سعيدا بعودة الألوان والأشكال والحركة. يكتشف والده يراقبه باستغراب
ثم يهز كتفيه أمرا هيا إلى بقية يومنا.

يخرج من بهو الحمام، والطفل يتعل النظر إلى الخارج حتى لا يرى الحلاق ناصبا له
الكمين.

- "م.م"، ما هذه البناية التي أمام الحمام؟

- قلت لك لن تتهرب من قص الشعر.

- أسألك عن الميني، لا غير.

- لا أعرف، أما ما أعرفه بالتأكيد أنك ستجلس على هذا الكرسي على الحلاق المسكين يستطيع لك شيئاً.

حصّة التعذيب الثانية.أهذا اليوم الذي كان ينتظر بفارغ الصبر؟
يتفحص الطفل وجهه الذي في المرأة كأنه يراه لأول مرّة.

يرجع له سطحها القذر وجها عابئ الملامح مع مسحة من كآبة، مستنديراً أسمر اللون،
بأنف صغير مدبّب، وجبين مرتفع، وعينين واسعتين يلمع فيهما دوماً بريق غريب يفضح
العواصف التي تعتمل داخل ذهن لا يهدأ لحظة واحدة.

يثير فيه الوجه الغريب، قلقاً غمضاً.

- 'يا، انظر، هذا أنا؟

يرفع الرجل عينيه من الجريدة بصيق واضح.

- ماذا تقول؟

- انظر. هذا أنا.

- أتحمّل منظرك طول الوقت وتريدني أن أتملك في المرأة أيضاً؟

يفتعل الطفل عدم الانتباه لسخرية أبيه وضحك الحلاق.

يبدأ الرجلان حديثاً طويلاً بصوت خافت عن آخر أخبار الثورة التي في جبال البلاد
المجاورة وقلاقل المدن، والوطن الذي هو قاب قوسين أو أدنى من الحرية.

- 'يا، هل تدري...؟

- لا أدري. قلت لك: لا أدر-ي. لا أحد يدري شيئاً في هذا العالم اللعين والآن أغلق فمك
إلى نهاية الجلافة.

يقرّر الطفل أن يعلّق فمه بانتظار مرور عاصفة الغضب، وتقجّر الضحك من أب نقل عن
العالم سرعة تقلّب المزاج.

تتواصل حصّة التعذيب الثانية، والطفل موثّق إلى الكرسي، ولا شيء ملّقت للنظر غير
صورته تتأمله بالحاح.

يعود إلى تأمل أدوات الحلاق من موسى، ومشط، ومقصّ، وصابون، وقوارير العطر.

ثمّ يشدّه ثانية الوجه العلبس في المرأة. يغمض عينيه ثمّ يفتحهما أملاً أن يرى اختفاء الخيال
فيجده يحقّق فيه كل مرّة، يستقرّه بإخراج لسانه له فيخرج له الخيال نفس السلن، يقرّر
تخويفه فيرسم على وجهه ما يستطيع من علامات التهديد والغضب، فيفعل الآخر نفس
الشيء.

- 'يا، هل الذي في المرأة يشعر بما أشعر به؟

يصرخ الأب في الحلاق:

- هيا يا رجل، أسرع، نفذ صبري منك ومن هذا "الفرخ".

ينفضّ الرجل عن الطفل بقية الشعر العالق بياقة قميصه. تستولي يده الأخرى بعجل على
قطع النقود التي دسّها فيها 'يا'. يتوجه إليه بلطف من فتح الكرم قلبه:

- حقا، إنه طفل ذكي وجميل.

- جميل، آه، نعم، أمه تدعي هذا أيضا. تعرف المثل: "كل فرد في عين أمه غزال".

ينطلق السؤال من الطفل كالرصاصية الطلقة من بندقية الصياد المبتدئ :

- "١٤٤"، هل أنت أيضا فرد في عيني جدتي غزال؟

تغرق روحه في دهشة لا قرار لها، وهو لا يفهم ما الذي تسبب له في صفة كهذه. يا إلهي لم يجزب مثلها على كثرة ما عرف خذ الغضب من الصفع! ثرى هل ستترك كالمرة الغلظة-أثار الأصابع الخمسة؟

يجرّ الرجل المتشجج طفلا قزراً ألا يكلم أباه مدى الحياة، وكالعادة تتباطأ خطوات الرجل، أنه الهدوء ومعه الندم. قلّ من يرتكبون أفعالا مشينة ثم يسعون تلقائيا إلى تعويض الضحايا. كان "١٤٤" على الأمل، من النوع الذي تأتيه الفكرة، بل تعدّبه أحيانا.

محاولة التكفير.

- هل تريد أن أشتري لك ملابس جديدة أو لعبة جميلة؟

...

- شيء نشتريه لأمك؟ سنذهب لشراء هدايا لها، ثم سأخذك لأحسن خياط لقياس ملابس العيد ولو أن العيد ما زال بعيدا. لا شك لك ستحبّ حذاء جديدا، ثم نذهب بعدها إلى المطعم.

.....

- تصمت عندما أريتك أن تتكلم، وتصمّ أدنيّ عندما أريدك أن تصمت!

الصفح بهذه السهولة! يرفض الطفل أن يفتح فمه وهو عازم أن مقاطعته زوج "١٤٤" ستكون هذه المرة جدية ومتواصلة إلى أن يأتيه الموت، وليست كالمرات الأخرى العديدة مجرد ابتزاز وتهديد. ثم إنه لم يقل له ما البنائية التي تواجه الحتم.

للضروريات أحكام كما يقال خاصة أن كان من بينها الجوع؟

- المطعم! نبدأ به، المطعم! المطعم!

- إذن، إلى المطعم يا قتي.

وهذا معلم من معالم المدينة العتيقة، بقي ثابتا على شكله وطوقسه وألوان الطعام التي يقدّم، على امتداد نصف قرن. هكذا تتابعت عليه أجيال من الطلبة الفقراء والكتّاب الفقراء، والمحامين الفقراء، وكل أصناف المعوزين من زوار المدينة، أجنب كلوا أم أبناء البلد.

ثمة من كان يرضى بقاعته الداخلية الوحيدة المكتظة دوما، يدخلها حاشرا جسده بين القصاص الضخمة. لكن الطفل وبعده الكهل، لم يكن يرضى إلا بالطلوات المصطفة على الجانب الأيمن من قارعة الطريق الضيق، تحميها من تساقط المطر ومن نبال الشمس الأسقف المرفوعة فوق شارع حافظ منذ قرون على طابعه الشرقي الجميل.

يجلس الطفل بجانب أب شاردي يجيل النظر حوله ببطء شديد، يضع يده على كتف ابنه ثم يمسح على شعره كما تفعل "١٤٤". يرفع إصبعه مشيرا إلى بنائية مهيبية تتوجه إليها الجحافل. لا ينتظر الطفل بقية الخطاب.

- أنا أعرف، هذا هو الجامع الأعظم الذي تعلمت فيه كلالل كلام الله، وحيث سنصل معا.

يهمس الأب كأنه يحدث نفسه:

- الجامع الأعظم، القلعة الشامخة... روح هذا الوطن الذي فقد كل روح!

قد يكون المبنى شيئا هاما بالنسبة إلى الرجل، بالنسبة إلى الطفل الأهم هو ما حوله.

- "يا"، من أين يخرج هؤلاء الناس؟ وإلى أين يذهبون؟ لماذا تنظر هكذا إلى هذه المرأة؟

لماذا هناك نساء لا يلبسن السفاساري؟ لماذا يبدو هذا الرجل حزينا؟ لماذا يمدّ هذا الآخر يده

للناس؟ لماذا قلت له "زبي يوب" ولم تعطه شيئا؟ هل رأيت النادل؟ إنه إنسان ظريف حقًا،

يهزول بخفة بين الطولات، إنه محبوب على ما يبدو فكل الناس يمزحون معه.

- اترك الرجل وشأنه، كل، وقت الصلاة قد اقترب.

من أين للطفل أن ينتبه لطبق من الطعام وهو يلتهم الوليمة الفخمة بعينه؟

- قلت لك: كل، أتريد طبقًا آخر؟ ألم يعجبك المشوي؟

- "يا" لم أكل الذم من قبل، رائحته أيضا طيبة، سأقول لـ "ما" أن تطبخه لي كل يوم.

- نعم، نعم لكن كفت عن الصراخ أصبتي بالصداغ، ألا تستطيع الكلام بهدوء، لست أطرشا.

- "يا"، أخطأ النادل هذه المرة فجاء بكسكي لرجل طلب ملوخية...

- هل ستأكل هذا الطبق اللعين أم أسكبه على رأسك؟

- أريد الذهاب إلى بيت الراحة.

- ركضا.

يعود الطفل جريا من الحمام، يرفض الاعتراف أنه يفضل الاحتفاظ بما بداخله على لبقاء

لحظة في مكان زاهر بقذارة تأتيه ذكراها بالتقيؤ. يرتمي على الكرسي جنب أبيه، يواصل

التمتع في مناظر أعجب ما فيها تجدها المتواصل، ثم ينتبه إلى أن قديمي والده موضوعتان

على الأرض، بينما تدلّى قدماه هو في الفراغ. يشعر بشيء من نقاد الصبر أمام زمان يتلكأ

به في طفولة كأنها الققص المطبق على العصفور.

يتوقف مجهول، ينفضّ عليه بالقبلاط، وعلى أبيه بالسلام الحار، والسؤال الأزلي ملء الفم:

كيف حالك؟

إنه أهم سؤال يليق به الأدميون على بعضهم البعض وكل إجابة فتح... إن أنت تبخرت في

الشكوى من مصائبك أز عجت سائلا غير معني إلا بمصائبه هو... إن أنت أسهبت في وصف

ما أنعم به الله عليك من الطيبات أثرت غيرته... وفي الحلاتين إن أطلت في هذا الاتجاه أو ذاك

ضيعت كل الوقت الذي يريد اغتنامه ليقصّ عليك هو نجاحاته أو آخر ما تلقى من ضربات

الدهر....

ينصرف الصديق فيتنفس الأب الصعداء وهو لا يريد شيئا غير إكمال غدائه. فجأة يجلس

لاهنّا إلى نفس الطاولة شيخ بدين بئرنس أبيض وعلى رأسه كشطة المشايخ. يتحوّل انتباه

الطفل للقادم الجديد.

- "٦٤"، انظر. ليس لك كشطة مثل لشيخ لأنه يعرف أحسن منك كلام الله، أنا أيضا أريد كشطة مثل هذه.

يضحك "٦٥" ضحكة صفراء، يتنسم له الشيخ وهو يواصل مسح عرقه. يمسح على شعر الطفل بيده البضة.

- إن شاء الله تصيح واحدا من مشايخ الجامع المبارك، ويكون لك عمود تسند عليه ظهرك ويتجمع حولك الطلبة من مشارق الأرض ومغاربها، ويومها تليس أيضا كشطة بدل "الكتوس" وجبة "قمراية" مثل أبناء المن.

يهبّ الرجل واقفا، يجزّ ابنه بعد دفع الحساب لا يخفي توترا جديدا في أعصاب مشدودة دوما كالسهم إلى الوتر.

- هيا يا ولد، حان وقت الجمعة، كان لا بد لك من إثارة الانتباه مرّة أخرى ومع هذا الحقير!

- لماذا تقول عن الشيخ إنه حقير، أنا أحببته.

- يا مغفل، لم تنتبه لهجته. الرجل كان يتهمك علينا. هل تعلم كيف يستمننا أهل هذه المدينة

الكلية: الأفاقيون؟

- "٦٥" ما معنى أفاقيون؟

- القادمون من الأفاق، من الأرياف القفرة، من الصحاري الموحشة، من الجبال المخيفة. جمعونا في نفس الإهانة، لا يفرقون بين جنوبي وشمالي، لا يزورون في قدومنا إلا أمواج الهمجية التي تتلاطم على أسوار حضارتهم وتهددها... أفاقيون، أفاقون، لا فرق في أذهانهم.

ينفجر بضحكته المخيفة عندما تتحرك كل أوجاعه دفعة واحدة.

- من الصعب أن نقع أحدا منهم أنهم هم سكان الأفاق بالنسبة إلى جذك ومركز العالم وأحنتنا.

ثم يستشيط غضبا على عانته عندما تصل الامه نزوة لا تُحتمل.

- اللعنة! أحفاد الرقيق الأبيض يفاخروني أنا بأجدادهم، لا يعلمون أنني الجد الذي سيفاخروا به الأجداد.

لم أكن أعلم يومها أنه سيواصل صراخه في وهو شيخ قارب الموت، وأنا كهل قارب اليأس من كل مشروع لتغيير شعب لا يكره شيئا قدر من يريدون تغييره: أورثنا الخدم لخدمهم واليوم يورثوننا لحرّاس الخدم! سارق فاسد يحكم البلاد وأنت تنقرج ثم تدعي أنك ليني!

يستعيد الرجل هدوءه وهو ينتبه لصوت المؤذن. يتسمر الطفل شلخسا يبصره إلى السماء يبحث عن مصدر الصوت. تُرى هل خطر ببالك يوما أن امتدادات الجوامع والكنائس وكل معابد البشر إلى الأعلى، كأعمدة الاتصالات المكلفة بيئاً وتلقّي الإشارات المتبادلة بين السماء والأرض؟

ملاحظة داخل الملاحظة ونعود إلى سياق النص. هذا الأذان الذي يتعالى من المنذنة جزء من بقاة الأصوات التي تعرّف هذه المدينة وتعطيها موسيقاها الخاصة. ذلك لأنه لا يوجد

مكان أيا كان، من صنّع الأدمي أم من صنّع “الطبيعية” إلا وله إمضاء حسّي يمتاز به، صوتا كان أم رائحة. وهذا الطفل سيتعلم اكتشاف الفرق بين موسيقى أذان المدينة التي تطلّ على مضيق أسفه “البوسفور” والمطلّة على نهر اسمه النيل وكيف يتلّون في هذه وفي تلك، وكيف هي رنة الأجرس، وما الذي يفرّق بينها وهي تفرع في مدينة تربرض على ضفاف نهر اسمه “الراين” أو نهر آخر يُدعى “السين”.

آخر تحذير عديم الجنوى من اب نافذ الصبر لطفل لا يعرف على ماذا يركز انتباهه.
- أنتبهك أننا سندخل الجامع الكبير، لا مجال للصراخ في صحنه أو لطرح الأسئلة. أغلق فمك من لحظة الدخول إلى لحظة الخروج. إبان الصلاة لا تقارق جنبي وافعل ما أفعله، وإن لم تُطعني فستكون هذه آخر مرّة أخذك معي.
يصمت الطفل، لا خوفا من التهديد وإنما من فرط دهشته. هذه الدرجات بالغة العلو! هذه الأبواب العملاقة! هذه الساحة المذهلة الاتساع! هذا الحَمَام الطائر، الراقص، المثنى، الغافز الذي يملأ أرجاءها!

لماذا يرى حيطاننا من الحجر وليس من الخشب؟ كم سمع من أقرانه أن مسجد المساجد مصنوع من خشب الزيتون لأن الله أمر ببنائه من الزيتون المباركة التي ورد ذكرها في كتاب “ما” الأصفر الرث. ثم أين الزيتون التي قال له رفاق اللعب إنها تنوسط الصحن، إنها تصل بأغصانها عنان السماء ولا يقدر على تسلّقها كبير ولا صغير؟
لم يكن يعلم أنذاك أنه دخل عالما منسوجا في جزء كبير منه -والى الأبد- من الشائعات وأنصفت الحقائق وكبرى الأكاذيب. يقطب جبينه مختارا تكذيب عينيه بدل تكذيب أصحابه.
- انزع حذاءك وتذكّر أين وضعته، لا تترك يدي وألا فقدتك في هذه الزحمة.

يتزايد ذهول الطفل وهو يجد نفسه وسط قاعة للصلاة مترامية الأطراف بسجادها الكثيف، والثريا العملاقة تتلّى من سقفها الشاهق! ها هو واقف جنب أبيه والصفوف متراسة وراءه وأمامه في صمت مهيب تنتظر إشارات الإمام. الآن يمكن القول إنه أصبح رجلا، على الأقل هذا ما كان يعتقد، والحل أنه كان لا يريد شيئا قدرّ الجري للوصول إلى الصفّ الأول حتى يكون جنب الإمام، أو أن يتأرجح على الثريا الضخمة ينظر إلى المصلّين تحت قدميه، يرفعون إليه العيون المندهشة. كيف يتحرّك قيّد أنملة وهو كالفأر بين أرجل الفيلة، لماذا هذا القلق المبالغ والدليل بجنبه يسترق النظر إليه ونظرائه تقول: لا تخشّ شيئا، أنا معك. تبدأ الشعائر المهيبة وتأخذ من الوقت ما لا يتحمّله طفل صغير وهو يقف الخلق ركوعا وسجودا ووقوفا ثم ركوعا وسجودا. فجأة يتسرّب بصره على قنمّي المساجد أملمة. لا أهم الآن من هاتين القدمين، اليمنى بجورب مكتمل والبسرى بجورب ممزّق يبرز منه كعب القدم كأنه تقاحة حمراء تطلّ من ثقب كيس أبيض متكلل. تأتيه فكرة شدّ “مبي” من كتمه ليشاركه متعة الاكتشاف. ثم ينتبه لمسؤولياته وكيف أنه لا يمكن أن يقطع على أبيه تكبيره وعلى الناس خشوعهم. لا ينفذ الطفل إلا انتهاء الصلاة من صفقة جديدة بسبب رجّل نسيت

امراته أن ترفع جواربه. يصرخ أب غلمر بإدخال طفل كهذا في مكان كهذا بالأوامر المتوقعة: هيا، أسرع، اليس حذاءك، فما زل أمامنا الكثير من المشاغل والقليل من الوقت. تأتي الطفلَ رغبة رواية كل ما شاهد والتعليق على آخر ما لفت انتباهه.

- "يا"، هل جواربك متقوية أيضاً، أما أنا فجواربي جديدة. ينتهّد "يا":

- بعد البرتقال الأسود والكشطة والمرأة، الجوارب... ما البقية يا ترى!
ها أنا أتكلّك وأتبلط، أجزّ القدمين لعلمي أنّ هذا ما سيغيظه أكثر من أيّ سؤال جديد.
كان الأب والطفل لا يمشين إلا وواحد يجزّ الآخر، أو يجري خلفه أو أمله؛ أما جنباً لجنب فذلك ما سيأخذ زمناً طويلاً على فرض أن الأمر حصل يوماً.

- تحرك، يا مصيبةً ابتلاني بها الله دون ذنب مني.

- سأقول ل "يا"، إنني صليت في أكبر جامع في العالم.

- الجامع الكبير ليس أكبر جامع في العالم.

- (بلهجة الشك والتحدّي) ما أكبر جامع إذن؟

ينتهدّد "يا": ربما فهم أن تسارع الأفكار والأسئلة عند هذا الطفل الغريب إرادة اغتنام فرصة سانحة يعرف أنها لن تدوم طويلاً.

- يا بني، هذا أكبر جامع في بلدنا، لكن هناك جوامع أكبر منه في بلدان المشرق، إن شاء الله تكبر وتدخلها. آنذاك ستلبس عن جدارة كشطة أثقل من التي يتعمّم بها الحفير، وسينادونك كلهم "سيدي الشيخ الحاج". تحرك، لا وقت لمزيد من الفسحة، فما زال أمامنا أهم شيء نفعله اليوم، والقطار لا ينتظر.

يأخذنا الطريق في الاتجاه المعاكس باتجاه آخر محطة زيارة المدينة وأهمها بالنسبة ل "يا".

من أين لي أن أؤسى أنني رأيت الرجل يتوقف فجأة ونحن نعبر باب المكتبة الصغيرة ثم يغمض عينيه للحظة يستشق ببطء ولذة واضحة رائحة المكان وكأنه عاشق مقيم وضع أنفه بين نهدي الحبيبة يستشق آخر عطر لها.

حقاً لا تُعرف للأشجار رائحة ألطف من أزهار البرتقال، ولا للأشياء رائحة ألطف مما تنتصّوَع به المكتبات.

يفعل الأب عن الطفل لحظة ليُدخل مع البائع في حوار مطوّل عن آخر ما وصله من كتب ومجلات من مدن الشرق البعيد، كان يوماً لأسمائها وقع سحري.
مما رسخ في الذاكرة من كلامنا ذلك اليوم:

- "يا"، هل هناك مكتبات مثل هذه في البلدان التي ذهبت إليها؟

- نعم يا بني، هناك الكثير من المكتبات.

- "يا"، أريد أن أدخل كل المكتبات الموجودة، وأقرأ كلالل الكتب.

- ممكن، شرط أن تعيش آلاف السنين. بالمناسبة، ما رأيك في نطق "كل" كبقية الناس، ممنوع من الآن تمديدها بهذه الكيفية السخيفة.
- ينغمس "ب" في تصفح الكتب والمجلات، ينتقي منها ببالغ التأني، ثم ينتبه لوجود الطفل.
- تعال، قل لعفك ما تريده أنت.
- أريد آخر عدد لمجلة سندباد وقصة لجورجي زيدان وأيضاً كلالل القصص الهندية.
- يفتح البائع فمه محققاً في الرجل المتوتر.
- القصص الهندية؟! كم له من العمر!
- يغالب "ب" زهو:
- يبدو أن أمه توحمت على عجزية، هات له ما عندك من هذه السلسلة حتى لا يقرأ كتبي، قد يفهم منها أكثر مما أفهم.
- هات ما عندك، يا للرجل المتهور! يصرخ "ب" وقد امتنع لونه:
- أتريد إفلاسي أو أن نرجع إلى البيت مشياً على الأقدام؟
- يتدخل البائع بلطف:
- لا تحفل والدك فوق طاقتك، ما أختته زائد لأشهر من القراءة.
- يأخذ "ب" في تقليد لهجة البائع الحضري:
- ولا تحفل والدك فوق طاقتك...
- يعود إلى الصراخ بلهجته البووية:
- ما دام والده حياً فسيأخذ ما يريد من الكتب، ولا حق لأحد أن يقول له ماذا عليه أن يفعل... أشهر؟ هذا ابن أبيه سيلتهم كتبك في أقل من أسبوع. اختر ما تشاء يا قتي، فما دام أبوك موجودا... إلخ.
- يقرر الطفل تجاهل علامات الامتعاض المترابدة عند "ب" وعدم الانتباه لحبات عرق بدأت تلمع على جبينه، غير مبالي بالبائع يخفي سروره وشماته.
- إنذار صامت أنه من الأحسن أن أتوقف قبل أن ينفجر الرجل الخطير.
- توقفت ثم ركض باتجاه المحطة.
- في عربة الدرجة الثالثة لآخر قطار الأحواز القفيرة، هذا النقاش أو ما يشبهه.
- "ب"، هذه المرة أنا الذي سأختير معلوماك. من هو أكبر شاعر في كلالل الدنيا؟
- يرسم "ب" على محياه ابتسامة التهكم ثم يصرخ.
- قطعاً، ليس ذلك الأخرق الذي قال "إذا الشعب يوماً أراد الحياة" لو قل على الأقل "إذا هذا القطيع يوماً أراد الممات"، لكن من الصادقين... طبعاً أكبر الشعراء هو...
- أنا أعرفه، إنه الذي تحمل ديوانه معك في كل سفر.
- هل ثمة غيره يا مغفل؟
- "ب"، أريد أن أكون مثله عندما أكبر.
- ينفجر الرجل ضاحكاً، ثم يستشيط غضباً كعادته، لسبب لا يعرفه إلا هو.

- إياك، ثم إياك. حذار أن تصبح شاعرا ولو كهذا الشاعر الذي عقرت بعد ولادته النساء.
هذه أمة يقدر ما كثر الله فيها من شعراء يقدر ما ماتت فيها الفضائل التي يمنحون.
- ماذا أكون إذن؟

- مهنتان شريقتان فقط في هذا العالم الوعد: التي تمنح الموت والتي تمنعه. فبك كل مؤهلات
العسكري، لكنك بهذه النظرات اللعينة لا تصلح مقاتلا. كن طبيبا والأنا اتركني أقرأ
جراندي.

هكذا قرّر الدليل وجهة طريق الطفل في لحظة خاطفة ثم عد إلى قراءة جرانده.
أخر ما يهيم الطفل مستقبله الغامض وكل ما يريد العودة مجددا للمدينة العجيبة لمواصلة
استكشاف كلالل أزقتها، جوامعها، حوانيتها، مطاعمها ومقاهيها.
هو لا يعلم أنه سيمشي كهلا في نفس الأزقة وقد أصبحت نفس المدينة بلنسبة إليه عجوزا
عاهرة تحمل من كل معتصب، ثد اللقيط وراء اللقيط.. وأنه سيواصل حُبها رغم كل شيء.
مدينتنا... (نزار قباني)

تظل أثيرة عندي
برغم جميع ما فيها
أحب نداء باعتها
أزقتها
أغانيتها
مأذنها... كنائسها
سكراها... مُصلّيها
تسامحها، تعصّبها
عبادتها لماضيها
مدينتنا - بحمد الله -
راضية بما فيها
ومن فيها
بآلاف من الأموات
تعلّكهم مقاهيها
لقد صرّوا مع الأيام
جزءا من كراسيها
صراصير محطّة
خيوط الشمس تعبيها
فلا الأحداث تنفضها
ولا التاريخ يعنيتها

يومَ يجلس الكهل لترتيب ملفّاته عن توغّله في الفضاء الحسّي سينتبه أنه لم يطلب من الطريق إلا أن يبعده ما استطاع عن تلك المدينة وأن يرجعه إليها بلّسرع ما يستطيع. كيف لا والرجل لن يعرف مكانا على بُعده أو غرابته استخرج منه أحاسيس ومشاعر كتلك التي اعتصرتّها منه المدينة العتيقة وهو يجزّ أبا يتلّكأ أو يركض للتخلص من قبضة أب متوتّر على الدوام.

كيف لا وقد أصبحت تلك المدينة منذ ذلك اليوم المشهود بما كانت تزخر به من ألوان، من أصول، من روائح ومن حراك محموم العالم كله أختزل في أزقتها الضيقة.

**

خطوط التماس

كانت رقيقة المقطع الجديد من الطريق من عشاق المدينة العتيقة، شغوفة بتاريخها، لا تمل من البحث في أصل المباني المتداخلة. لم يكن من باب الصدفة أن نلتقي وأن تقودني لإتمام زيارة بقيت منقوصة نصف قرن.

تبادرني وهي تقلد لهجة ليل سياحي أمام كل مبنى نصله:

- هذه دار لوزير سابق. أمّا هذا فجامع بناه الحسينيون، وهذه حارة اليهود، هنا كان الحجز للصّحي. المكتبة الوطنية تكنة للجنود الأتراك. هذا حيّ البيغاء، وهذا الباب الذي كانوا يقطعون الرؤوس تحته ويعلقونها أياماً؛ إرهاب دولة تلك العصر.

- جنت بك لتقولي لي فقط اسم البناية الموجودة أمام الحتمّ ووظيفتها التي كان "أبي؟" لا يعرف شيئاً عنها، وبعدها قد يتفتح مخي لبيتبه لبنايات وأحياء لا تربطني بها قصة. تصوري! عاش في هذا الحيّ طيلة شبابه ولم يعرف يوماً ما هذه البناية! لم يثر اهتمامه ولم ينتبه لوجودها! هل من المعقول أن يكون من قادوا أولى خطانا بهذا الجهل المشين؟ - بنيايتك هذه مدرسة من القرن السابع عشر. لا تطلب مني تفاصيل أدق، لست إلا هاوية آثار. إذن، بعد المطعم والجامع، كان الأب المسكين يحاول إكمال بقية أشغاله وهو لا يعرف كيف يتخلص من مشاكسات "الفرخ" ...

- ومقسماً بأغلظ الأيمان أنه لن يعيد نفس الغلطة ثانية.

يرفع الكهل يده إلى خذ ما زال ملتهباً بعد خمسة عقود.

تلحظ المرأة المنتبهة الحركة.

- تعال، لا فائدة في نبش نكريات موجهة. اتفقنا أنك تريد إكمال الزيارة، لا تكرارها. نواصل شقّ الطريق وسط الزحمة في صمت. تغير مراقبتي الموضوع أو هكذا تتصور. - على فكرة ما ذا تكتب حالياً؟ أنت لا تنفك عن الخريشة في هذا الدقتر الذي تخرجه باستمرار من جيبك، كم أودّ أن أستعيره منك بعض الوقت. - لست متأكدًا أنك ستستخرجين منه شيئاً، هذا على فرض قدرتك على فك رموزه. أنا نفسي لا أستطيع أحياناً قراءة ما كتب.

- خطّ الأطباء؟

- ظرف الكتابة، أحياناً وقرفاً وسط حافلة مكتظة وحتّى مشياً.

- مادة لنصّ جديد في الأفق؟

- شيء شبيه بالتقرير النهائي الذي يكتبه شخص أكمل مهمته يضع فيه كل ما مرّ به من أحداث وكل ما استخلص وتعلم من التجربة... أه كلمة تقرير غير موفقة لما فيها من إيجابيات بيروقراطية غير مرحب بها... إذن لنقل شهادة لكن لا عن حادثة أو مرحلة من الحياة وإنما عن رحلتنا في هذا العالم من بدايتها إلى نهايتها.

تهزّ مرافقتي كتقيها سلخرة .

- وفي أي شكل سيكون هذا التقرير العظيم ...عوا هذه الشهادة الجامعة ؟

- في قالب نصّ عن شخص - هو مزيج من الأنا وشخص خيالي -بختلي بنفسه وهو في آخر مرحلة من حياته يتفحص كل ما اختزنت ذاكرته وكل ما وصل إليه من استنتاجات حول ذاته ، حول هذا الكائن العجيب الذي تجسّد فيه- والذي يسمى نفسه الإنسن وأفضل تسميته الأدمي لأنه ما زال بعيدا عن تحقيق الإنسانية فيه – وأيضاً حول طبيعة العلم الذي انبثقتنا فيه وحول ماذا نفعل فيه ولماذا جننا أصلاً.

تضحك مرافقتي تظنني أمزح .

- كنت أظن رجال العلم الذين تدّعي أنك منهم لا يتعلمون إلا مع مشاكل بالغة الدقة تاركين مثل هذا المواضيع الفضفاضة للشعراء والأدباء والفلاسفة.

- سأترك للمختصين ولعلمم بالتفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل . لا بدّ من هذا النوع من الشغاليين الفكريين . لكن ليتركوا لي ولأمثالي وظيفة استكشف ما وراء تفاصيلهم وما معناها المخفي .

فترة طويلة من الصمت. تعود مرافقتي لمعابثتي:

-والى أين وصل مشروعك العبقري؟

- إلى كم هائل من الأوراق لم أعد أتجاسر حتى على تنظيمها، كم بودي أن أنشرها كما هي، النص على حقيقته دون عمليات التجميل التي نجريها عليه وهاجسنا ذوق الزبون وخوف الرقيب. المشكلة غيب الناشر الانتحاري القادر على نشر مادة خام من آلاف

الصفحات، بما فيها من تشطيط ومن فوضى؟ ثم أي قارئ قادر على الصبر عليها؟

- نوع من الكتابة جزيه البعض ولا أعتقد أنه كفّل لهم الشهرة التي أرادوها بمثل هذا الاستقزل. أرجو أن لا توصي بمثل هذه المنهجية للطلبة المساكين الذين ساقهم حظهم العائز تُشرف على أطروحاتهم، تصوّر ما يمكن أن تؤدي إليه مثل هذه المنهجية.

جاء دوري لأنفجر بالضحك.

- هم ليسوا بحاجة إلى أية توصية لارتكاب نصوص لا تنتمي للعلم ولا للادب.

- متى سنشرفني بلئ أكون أولى قراء هذه القصة العصماء؟

- لا أعرف، بل لا أعرف أصلاً هل سأعلمر يوماً بنشر النصّ.

- الخوف من الرقيب؟

- من تقديم عمل يجب أن تصل فيه إلى أوجها مهاركّ عديدة لست متأكدا من امتلاكها.

- مهارات؟

نعم مهارة حارس الغابات، والنصّ غابة موجشة يجب فتح مسالك المعنى داخلها بقصّ صارم متواصل للزائد المتورم من الكلمات... مهارة الجواهري والنصّ حجارة كريمة يجب العودة إليها طول الوقت بالصقل والنقش... مهارة الطفل والنصّ لعبة "ليجو"

يجب تجريب كل الإمكانات لتتداخل القِطْع في أكثر الأشكال تناسقا...مهارة سفراط وهو يستقرّ في القارئ والسامع طاقاته الذهنية ليولد معا للنص معناه.

-عنوان نصك العظيم هذا يوم تنتهي من التحكم في المهارات التي لا تملك؟
-الرحلة، ربما سأضيف تحت العنوان سطرًا: الموجز والقول الفصل في طبيعة العالم والشؤون الأدمية وسبب وجودنا في هذا السيرك الذي اسمه العالم ... للإيجاز قد اكتفي بمذكرات آدمي.

- إذا كانت المادّة بنفس طرافة العنوان... فيا خيبة المسعى!
- هل غلظتي أن البشر لم يتركوا عنوانا لكتّاب إلا واستعملوه نكايه في، ولا فكرة إلا وسرقوها مني لمزيد من الحبيطة قرونا قبل أن أولد؟
- هل حسبت وأنت في هذه المرحلة الصعبة حسبًا لأعدائك وهم يتربصون بكل ما تقول وتكتب؟

- طول عمري وأنا في مرحلة صعبة، أما بخصوص المتربصين فسيفعلون ما فعلوه دومًا، سيخرجون جُملاً من سيقها، سيقولونني عكس ما قلت سيتهمونني بالإيمان والكفر، بلشيء ونقيضه... كل هذا تعسفا على النص وتحاملا على كاتبه في إطار معارك لا علاقة لها بفكر أو أدب. المساكين! كان الشيطان في عونهم.

تشرّد مرافقتي ببصرها بعيدا، ثم تبدأ في التمتمة بكلمات أغنية لأحّب مطربة لكيلينا:

"كتّينا ويا ما كتّينا

ويا خسارة ما كتّينا

كتّينا مية مكتوب

ولها ما جاوينا"

- نعم، يا ما كتّينا، يا ما كتّينا ويا ما سيكتبون.

- إذن، لماذا الإمعان ولا أحد يجيب على ما نكتب؟

- لأننا لا نكتب إلا لأنفسنا.

أقول لها أن هذا النص تصفية حسبليت قديمة.

يشرد البصر وتنكفي الذات على بعض أقدم الذكريات.

يصرخ المعلم في صف تلامذة مدرسة ابتدائية في حيّ فقير: اكتبوا موضوع الإنشاء: أفتت صباح يوم الجمعة وأخذك والدك لفسحة صيف ما شاهدت وما فعلت ذلك اليوم.

ينكبّ الطفل المتهور بحماس على الورقة البيضاء بملأها سطورا ويضع حبر يتمرّن على أولى طقوس الكتابة.

وفي أوّل نصوصه يقيق بطل قصته على همس الشمس قائلته: أما زلت نايمًا؟! انهض أيها الغبيّ ثمة يوم أغزّ أمامك، فأمرها ألا تُفرط في الحرّ لأنه على سفر. ثم خرجت السيارة السوداء من الميهم الذي يعجّ بكل الإمكانات ليجلس المغرر الصنديد خلف مقودها، الأمّ في قفّة الإعجاب والأب في قفّة العجب. فسارت السيارة على الأرض إلى أن واجهها

الأفق فهزّ الطفل كتيهه مواصلا ومتجاوزا كل أفق إلى أن ارتطم ببحر يسدّ عليه الطريق، فقال للبحر: لا أريد مشاكل معك يا بحر فلما ذهب بسيّارتي وبوالديّ لزيارة الجدّ في صحرائنا الغالية فتنجّ عن طريقي. فقل له البحر: ولماذا تريد العبور فوق أمواجي وتزعجني؟ فقال له الطفل: يا بحر أنزرتك وكفى هزلا. فخاف البحر وأفسح له الطريق. ثم تسلّقت السيارة كبد السماء تمشي فوق السحاب، الشمس على يمينها والقمر على يسارها وفوقها الله ييسط حمايته عليه وعلى الجميع. عند الأصيل، وقد خضبت نماء الشمس هلمات النخيل توقّفت السيارة قرب فراش الجدّ فنزلت العائلة منها سالمة وكان الجدّ المحبوب مريضا. فقال له الطفل وهو يقفز حول السرير، جدّي! جدّي! جدّي! سأصبح أكككبير طبيب وسأتيك بكلللال الأديبة التي تحبّ وستروي لي كلللال قصص الجارية وأبي زيد الهلالي وعنتره وعلي بابا وسندباد، فضحك الجدّ وبكى. وبعد أكل المرطبات وشرب المشروبات قبل الجميع يده وقالوا له: لا بدّ من الرجوع إلى بيتنا فدعا لهم بسلامة، وبكت الأمّ لأنّ النساء يبكينّ ثوما عند الوداع، لكنّ الطفل الذي أصبح رجلا بتجاوزه السابعة من عمره لم يبك رغم أنّه كاد يفعلها لشدة حبّه لجدّه. فهو يحبه كحبه للحلوى أو ربما أكثر ولا يريد له أن يموت أبدا، أبدا.

يومها ختم الطفل إنشاءه بالجملة الشهيرة التي ختم بها أجيال من الكتاب الناشئين نصهم الأول: ورجعت إلى البيت فرحامسرورا.

يضحك المعلم باستهزاء:

- طلبت منك أربعة أسطر وليس أربع صفحات. ما هذه القصة التي تتحدث عن سيرة تتسلق السماء؟ هل رأيت يوما سيرة تمشي فوق السحاب والموج؟ ومتى أصبحت الشمس تأتمر بأوامر سيادتك؟ كيف تتكلم عن الله بهذه الطريقة؟ ألا تعلم أنّه كُفّر مُبين؟! لا تغد إلى مثل هذا الكلام أبدا.

يتنهد بصوت مسموع قائلا: هؤلاء البنؤ! كلهم شعراء بلسليقة منذ نعومة أظفّرهم.

يكظم الطفل غيظه واعدنا نفسه أنه سيكتب يوما إنشاءً أطول من الذي رفضه هذا الغني. سيقول فيه كل ما يريد وبالكيفية التي يريد.

ما من شك أنّ هذا النص مواصلة الانشاء التي سخر منها المعلم، فالتلميذ الذي كُبر كثيرا وبقي نفس الطفل، هو الذي اختار بكل حرّية موضوع إنشاءه. أفقت ذات يوم في هذا العالم صف كلّ ما شاهدتّ وفعلتّ، وما رأيك في هذا السيرك العظيم؟

أفيع من ذكريات لذيذة موجعة على صوت مراقفتي :

- ألا تخشى أن تكون كتّبتك هذه "هريسة" فكرية لا أكثر وذلك مانسعى دوما لتفاديه ونحن نفرّق بين القضايا والمستويات والمناهج!

أهزّ الكتفين:

-الموضوعي في واد والذاتي في واد آخر، العلم في ميدانه وكل جزء من أجزائه في علبته المنفصلة، الفلسفة في خانة والشعر في خانة أخرى...الأفكار على اليسار والمشاعر على

اليامين... النبيلة في الواجهة والذئبية خلف الستلر، الجذ حيث لا مجال إلا للجد والهزل حيث يسمح بالهزل. أي تصوّر ممكن بهذه المنهجية لعالم كل شيء فيه مترابط متداخل! لذلك أريد لنصي كما هو الحال في الحياة العادية أن يختلط فيه الجد بالهزل، التفكير الموضوعي بشطحت الخيال، سفاسف الأمور بكبرى القضايا الفلسفية، مشاكل الشخصية مع مشاكل الكون، كما هي الموضة اليوم في جريدة النيويورك تايمز التي تجدين فيها على نفس الصفحة آخر التوقعات عن الاقتصاد العالمي والتطيل السياسي المعمق عن احتمال نشوب الحرب العالمية الثالثة جنباً لجنب مع وصفة الفاصوليا المكسيكية بالبهارات الحارقة للحم وأحسن طرق اعداد أرز البرياني الهندي.

- المهم أن تجد في عصر الاستهلاك السريع والجاهز والمعلّب، من يقرأ، والكُتاب هذه الأيام أكثر من القراء. على فكرة، أي نوع من القراء تأمل لمثل هذه المحاوله المحكوم عليها بالفشل؟

- بصراحة كل أملي معقود على كائن أنت من أعماق الفضاء في بعثة حفريات ملايين السنين بعد نهاية كل هذا السيرك، فيعثر على النص ويترجمه إلى لغته وينال درجة الدكتوراه بلمتياز في آداب الأجناس المنقرضة.

- عدت للسخرية كعادتك للتعامل مع أي موضوع يزجج سيادتك.

- لا خوف من انقراض جنس القراء الحقيقيين حتى في هذا العصر. هم أقلية في كل زمان ومكان. مشكلتي ليس عدد من سيقراً نصي وإنما هل سيجد فيه البعض شيئاً من هذا الذي نبحث عنه ونحن نفتح الكتب.

- كلكم تقولون نفس الكلام ولا هدف فعلي إلا اثبات الذات في هذا الزمان وتخليدها فيما تبقى منه.

- الخلود بالكتابة مجرد طعم كالذي تلوّح به الحياة للعشاق: المتعة لكم والبنون والبنات لي المهم تواصل النسل... في قضية الحال كأنّ القوة المبهمة التي تدفعنا للصراع مع الورقة البيضاء تسرّ في أعماق طبقات الذات متعة الكتابة والحلم بالبقاء في ذاكرة الأجيال لكم، ولي ما يلده الفكر الذي لا يجب أن يتوقف ابداً.

- قل ما تشاء، نصك هذا ولو تحت ألف قناع سيرة ذاتية أخرى، الا يكفي من هذا النوع وطوفان النرجسية استحوذ على كل مساحات الأدب؟

- يا ستّ الكلّ، نسيت مقولة فيكتور هيجو " عندما أتحدث عن نفسي فإنني لا أتحدّث إلا عنك".

- لا تتحدّث إلا عني؟ فرصة لتقول لي أخيراً رأيك فيّ

- رأيي في الأنبيين عموماً والإنث خصوصاً: كائنات يستحيل العيش معها وكائنات يستحيل العيش بدونها.

- وهل تريد أن تعرف رأيي فيك؟

- لا.

تضحك مر افقتي ضحكة صفراء . هي التي ستكفل الآن بالصمت وبخيار لحظة انهائه.

- سهوئ مجتءاء؁ كلئ آءان صاعائة لك.

- لا آءء يصعئ لآء؁ ربما الأمهائ لآطفالهن. وءئ هن! ألم ءلاءظئ كم من مرء وأنء ءبءئئن فئ الشكوى من الءنئا أن المسءمع ولو كان أقرب الناس يغالب نفاء صبره منءظرا أول ءرءء أو أقصر صمء لئءطف الكلمة بنفس الجملة المعهودءؑ فما باللك بالءئ ءصء لئ أنا! ءم لا ءءوقف إلى أن ءءطفئ منه الكلمة بءور لك. كل كائن مشغول بءائه وبءائه فقط؁ لكننه مضطرّ لاقءعال الاهنمام بمشاكل الأءربن ءئئ يكافئوه بنفس الءءبعة.

آئء ءفاعء سلئم ممكن بئبن البئشر وكل نائء مءلل شمسئ ءءور ءوكبها كل الأفلاك؁ ومءلل فلك بءور ءول ما لا ءحصئ من الشمس؟... آئءة علاءة سلمبمة بمكن بناؤها بئبنا وكل واءء بقتئ عمره فئ مءاولء فرض مركزبئته ورفض هلمشبئته؟

ءبءسم مرافءئئ لءكربلء ءوكء ما بعرفه الجمبع وما بئكره الكل.

- معنئ هءا أنك لا ءصعئ إلى أبءا.

- آءبفاء؁ أوقلت الاءنبهائ وهئ ءء ناءرة.

- طببب والآن إلى آئن ءرئء الءهاب؟ بءائء آءعب.

- إلى المكان الءئ كان "ب" بئءظر بفءرغ الصبر وصوله... المكان الءئ لعب هو وأمءاله ءورا لساسبئا فئ ءبائه وفئ ءبائئ... لم آءعرف علبه لءء لأن رعم أنئئ وائئ انه كان فئ هءا الشءلء.

فءاء آءسفر وأنا آرءطم بلواءهءة ءءبءة لءءوء بببع أشبائه لا ءجمبع بئبها رابء اصءرء ءاءظ العئبئن وقء ءعرف الوعب الباطنئ فئ لمء البرق عما كءء انءشوق له منذ بءابءة ءولة فئ أزقة المءبئة العئبقة.

- انءظرئ ما فعء أبناء الكلب بأول مكءبئة آءءئئ إليها "14". ءل هءا الشارء كان مءصصا للمكءبئاء وهاء هو البوم ءءابع ءوانبئ بببع فببها مءءالون لأعببء هءه الصنائع الءقلبءة الكابئة وهءه الساعء الءائظبئة البشعة ولوءءء عن مكءة ءءعبئ الفن ءءوهم بالءءاسة!

- لافائءة من وءع أنفك على هءا الزءاء القءر. لئ ءرى عفر ما آرى. ءعال وءمالك نفسك. المكءبئاء بالءشرائ وهئ أبضا مءلاءء ءببعب مواءا للاستهلاءك اسمها الكءب.

- با مرءة ءءءئئ بلءءرام عن أماكن لا ءقل ءءاسة عن المساءء والكئائس والمسلءرء والعلب اللببلة.

- اسءقراز باسءقراز؁ قل لئ با فببم ما الءئ بفرق بئبن ءوانبئء ءببعب هءه الساعء واللوءاء البشعة وبئبن مكءبئاء ءببعب كءبأ أغلبها لا ءصلء ءئئ للء السمك.

أقول لبها أن المكءبئاء فئ نموءء العالم الءئ ابءء عنه منذ سنواء هئ النقطء الءءوبءة الءئ ءفصل وءربء بئبن أهم الفضاءاء الءئ ءشكله ءءاهمءنا عنء ءءولبها روائء الورق والوان الكءب وبئائبنا من لمسها مءعة مرهفة صعبئة الوصف... مما بعنئ أنها ءءئمئ كلبا للفضاء

الحسي للعالم، لكنها بوابات لدخول فضاء آخر ينبض بالحياة والكائنات الحية التي تسكنه
اللبينات اللامادية التي يركز عليها عالمتنا والتي اسميها الفكريات.
- طيب وكيف انتهى ذلك اليوم المشهود؟ شعرت بك دوماً غير راغب في الحديث عن
نهائية الزيارة.
تلك الليلة وصل البيتُ أبُّ مرهقٌ وطفلاً متزايد الرغبة في مواصلة يوم كم بدا له قصيرا.
افتعلت سجينة البيت السرور بما جلبها لها من الطوى.
سارع "ب" إلى كتبه ورحل داخل أهم فضاءات العالم بالنسبة إليه.
سارع الطفل إلى كتبه ورحل إليه هو الآخر.
عادت المرأة الوقور لغسل الصحون ثم للجلوس على الحصير اليانيس تتصفح ببطء
ويتركيز كتاباً أصفر رثاً، تطيل النظر إليه، ثم تغلقه واجمة.
كانت مثل سجين أضيق زنزانه والمفتاح لدخول الجزء من العالم الذي رحل إليه الزوج
والاين معلق في السقف لا قدره لها على الوصول إليه.
هذا المفتاح هو الذي سأروي الآن ظروف تملكه.

**

أو كيف أنه عالم لاستكشافه ثمن باهظ أيا كان فضاء الارتحال

تهمس أم في أذن طفل يستيقظ بصعوبة وفي صوتها عصبية غير معهودة:

- انهض، اغتسل، البس، تناول فطورك بسرعة. يا إلهي، سنصل متأخرين!

- إلى أين؟

- إلى الكتاب. هيا، لا تنتقل!

- الكتاب! لكنني ذهبت إليه البارحة.

تغالب "أم"! نفسها حتى لا تنفجر ضاحكة.

- سنذهب إليه اليوم وغدا وكل الأيام ما عدا الجمعة والأعياد.

إنها نبرتها عندما تتحدث عن الذهاب إلى الحمام، أي أن الموضوع غير قابل للمساومة.

- لماذا؟! ألا تكفي مرة واحدة؟

- لا تجادل كعادتك. هيا، لا تلتكأ!

تجرُّ امرأة طفلاً أقلُّ ما يوصف به أنه كان فاتر الحماس للعودة إلى مكان ليس هو مركزه.

- تذكّر ما قلته لك البارحة: لا تتشاجر مع الأطفال، لا تشيطن كعادتك، انتبه لما يقوله

المؤدّب وعندما تتوجّه إليه بالكلام ناده بـ "سيدي". كُن شديد الاحترام له ولا تعص له

أمرًا. استوعب ما يقوله لك، قَبِلْ يده عندما يدعوك لثُمَّل أمامه، لا تكن وقحًا ولا تتكلم

صارخًا أمله، أطعه في كل شيء ولا تعرّض نفسك لما أكره ولا ترضى. لا تنس أن

سيخرجك من الظلمات إلى النور فهو من سيعلمك كلام الله.

إنها عادة الأم الأزلية المثمانية في إغراق الطفل الأزلي بنصائح لو كان لها أدنى تأثير

لتحصن الجنس البشري منذ زمن بعيد.

بقية الحوار كما تعيد صياغته ذكرة تدخل الخيال في أكثر من موضع لإعادة صياغة ما

تحاول جاهدة نسيانه وتكره.

- لا أريد أن أتعلّم كلام الله. أريد أن أذهب إلى غابة الزيتون عند جنتي لاصطياد الحجل

بمقلعي الجديد.

تجذب "أم"! يد الطفل بشدة وهي تنظر إلى ما حولها بانزعاج:

- لا تكزّر أبدًا مثل هذا الكلام، خاصة على مسمع الناس.

يصل الطفل مجرورًا من يده إلى الكتاب، وهو ركنٌ من جليع المدينة الصغيرة التي قدّتها

على ضفافها أمواج النزوح.

تدفع الأم طفلها لتخطي الباب وتمسك يده بقوة كأن شيئًا بداخلها يحثُّ على الفراق وتخز

يرفضه.

آخر توصيات إضاقية بضرورة الجلوس قريبًا من الشيخ، وحتى بين يديه للتبرك والنهل

المباشر من نافورة علمه.

بخصوص هذا الشيخ تسترجع الذاكرة صورة كهل يلتحف ببرنس من الصوف البني وعلى رأسه شاشية حمراء يلقيها بقطعة من قماش أبيض، له وجه لم يتعرّض كثيرا لوجه شمس الفلاحين، وبدان لم تمسكا فأسا أو مسحاة.

كان يفترش سجّادا مهترنا بالكاد أحسن من الحصير البائس الذي كان يتقاسمه الطفل مع الرفاق الصغار، وكلهم جالسون أمامه صفوفًا مترابطة في أعجب فرضى. يوم غمر الطفل بالجلوس قريبا من الشيخ ليبرسه عن كُتب فوجئ بنظرته الجانبية مصوّبة نحوه، وكلاهما يقدّر حظوظه -خطأ كما هو الأمر في أغلب حسابات الأدميين في استعمال الآخر لمأربه.

يومها داهم الطفل شعور بِلتهيب... والخوف إذ كانت للرجل عصا طويلة يلوّح بها طوال الوقت، ومن ثم قرّر البحث عن مكان آمن في الصفوف الخلفية ليكون أبعد ما يكون عنها وعن شيء رهيب آخر تسميه اللغة "اللفة".
اللفة! وما أدراك ما اللفة!

أداة بدائية بالغة البساطة لكنها روّضت أمة برمتها كما لم تروّضها جيوش الغزاة على مر التاريخ. هي التي ربّتها منذ نعومة الأظفر على الخوف والطاعة، وكان الدور ذلك اليوم على الطفل لمحاولة تسييره في قوافل المرّوضين.

كان الشيخ يضعها قرب ركبته اليمنى، واضحة لكل العيون، جاهزة لكل الاحتمالات وغير بعيد عن ركبته اليسرى عصا طويلة لن تبقى طويلة دون استعمال.

على ذكر وسلطنا البيداغوجية القديمة عن الجاحظ: "كان معلم يعلم الصبيان ومعه عصا طويلة وأخرى قصيرة، وصولجانا، وكرة، وطبلا وبوقا، فسألته ما هذه؟ اجاب: عندي صغار أوباش، أقول لأحدهم اقرأ لوحك فيصفر لي فأضربه بالعصا القصيرة فيتأخر فأضربه بالطويلة، فيفر فأضع الكرة في الصولجان فأضربه فيتقدم إلي الصغار كأهم بالألواح فأضع الطبل في عنقي والبوق في فمي فأنفخ وأضرب فيسمع المارة ذلك فيسارعون إلي ويخلصوني منهم". نعم يجب إسناد الميدالية الذهبية لكتاتيب العرب والمسلمين على مرّ العصور وبصفة رجعية لهذا الكتاب ولهذا الشيخ، طيّب الله تراه وأسكنه في أفخم "سويتا" في الجنة.

يعود الطفل ذلك اليوم المشووم إلى البيت بقدمين منتفختين كأنه يمشي على الجمر وكل همه دخول البيت محافظا على مشية لا تُلفت الانتباه.

كيف تفادي حصّة الغسل قبل الذهاب إلى الفراش؟ وفي حالة إصرار "ما" على هذه العادة البيوضة، كيف يفسّر لها حمرة منتفخة شديدة الألم، ليس من السهل إخفاؤها، ومن الأصعب تبريرها؟

كيف يعترف لها أنه تشاجر مع بعض الأطفال، وربما حتى مع الجميع، أنه قام ليجلس بعيدا عن اللفة والعصا ولم يستأن إلا من نفسه، أنه لم يقل للعجوز: "سيدي الشيخ" وهو

بخاطبه أنه لم يظهر له من الاحترام إلا أقله، أنه لم يُقَلِّ يده بعد حصّة العقاب بل عَضّها،
أن الضرب زاد إلى أن كاد يغيى عليه وسط الصخب والضحك.
ثم ماذا لو سألته عما حفظ من أقوال ربّها العزيز عليها؟
تنتظر "مما" بأنها لا ترى مشية الطفل. لا تلقى أيّ سؤال. تتغافل -على غير عادتها- عن
حصّة غسل القدمين الإيجابية مظهرة مزيداً من الحنان.
التجاهل! إن تعهدت هذه القدرّة سنكتشف كم سهل تحمل شرّ الخصوم والأعداء وكم
توفر على نفسك عبث معارك تافهة مع تافهين... وإن أصبحت بارعا في هذا الفنّ ستعي
يوماً كم من أصدقاء اكتسبتم لأنك تسترت بالصمت على خطاياهم وأخطائهم.
يؤوب الطفل إلى فراشه لأوّل مرّة دون تسوية، ليغرق في كوابيس تتحرك فيها عصاً
طويلة وقدمان دامتان فوق سحاب كثيف، وشيخ بيدن يركض وراءه يصرخ بالفاتحة وهو
يسابقه للوصول إلى غابة زيتون يحتمي بأشجارها ليصبح فيها عصفوراً.
وفي الغد تهز اليد الرقيقة الطفل بحزم:

- انهض، حان الوقت.

- اذهبي أنت إلى هذا الكتاب العزيز عليك. تعلّمي عنده كلام الله وكلام كل من يعجبك.
نادي العجوز الكريه بـ "سيدي"، قبلي يده، أطيعه في كل شيء، لا تنتشيطني، لا تتشاجري
إذا سمحوا لك بذلك، أمّا أنا فذاهب هذا الصباح لأصطاد الحجل بمقلاعي الجديد. لن أعود
إلى الكتاب مهما قلّت وفعلت.

- يا بني لا بدّ أن تذهب كلّ يوم إلى الكتاب، أن تسمع المؤدب. هل نسيت أن والدك كان
مؤدّباً؟! كم سيكون رائعاً أن تشبهه، وكم سيكون فخوراً بك يوم تُعلّم صبيّة قريبتنا كلام الله.
- لا أريد أن أكون مؤدّباً. أنا أكره كل المؤدّبين، خاصة هذا الرّجل، ولن أعود لذلك المكان
أبداً، أبداً!!!

تأخذ "مما" طفلها بين ذراعيها واللّهب في عينيها. ثمة تغيير جذري في لهجتها. هي لم تعد
تخاطب طفلاً موجوعاً وإنما الرّجل النائم داخله.

- هل تتراجع أمام أوّل عقبة؟ ترضى بالهزيمة وأنت الذي تحبّ الصراع؟ كم هو طويل
الطريق أملك لتصل إلى المراتب التي يريدها لك "بما"!

نعم، كم هو شاقّ طريق الأمل، وكم عليه من مسامير وأشواك تُنبئُه منذ البداية أنه لم
يأتِ إلى العالم لقضاء عطلة اسمها الحياة، وإنما لمهمة مجهولة ربما له فيها بعض المكاسب
لكن ثمنها يُدفع غالياً وبالمستحق.

تواصل الأم اقتناع طفل معرض عن كل كلام.

- رأيتك في المنام عالماً بارعاً باللسانين! نعم، جاءني في المنام -وأنا حُبلى بك-ملاك
بشّرني بهذا. هل تكذب ملاك الله وتخزيني؟

هل أتاها الملاك يومها منتفخ القدمين يمشي على الزجاج والجمر؟ لكنه أتاها واتّفق معها
على شروط العقد الذي سيجعل الطّفّل عالماً بارعاً باللعّتين.

محكوم عليك دوماً أن تنخرط بإرادتك، أو بتوهمها، في القصة التي حدتلك طاولة
القمار وأن تلعب -شئت أم أُنيت- الدور الذي قرره لك "البخت" أو سوء الطالع.
لم يعد مطلوب من الطفل سوى التطبيق، إذ لا حَقَّ له في إشغال مخططاتٍ سرّية تتوارى
داخلها أحلامٌ ورنّية للأُم ورغبةٌ عارمة عند الأب في التآر.
كيف مواجهة تجدد كلبوس البارحة؟ موجة من الرفض البالي . هل من الممكن أن ينهار
حلم "م" وهو في بداية البداية؟ تستخرج الأُم من خوفها المفاجئ الحجّة التي لا تُقاوم.
- تعلمتُ بعض الحروف من أخويّ، لكنها لا تكفي لأفكّ رموز المصحف الشريف. أنت
الوحيد الذي يستطيع أن يَلتيني بالبقية. آنذاك سأستطيع قراءة كلام الله. هل ستخذلي؟
يحدّق الطفل في وجه أمه وقد تغيرت فجأة كملل الوضعية :
- أنت لا تعرفين القراءة وتريدين أن ...؟
- في زمني، كانوا لا يبعثون بالبنات إلى الكُتاب.
تضع الأُم يدها على رأس الطفل، تداعب وتتلطف وتبارك:
- لكنني سأعرف القراءة عندما تعود إليّ محملاً بالحروف التي تنقصني.
يقفز الطفل من فراشه:
- سأذهب لاتيّك بها. وسأتوقّف حال حصولك على الناقص منها، وفي المقابل...
- كلّ ما تريد، والآن البس ثيابك بسرعة، وكلّ قطعة الخبز هذه في الطريّق.
تلك الصباح لم يركض صبيّ في الخامسة من عمره وراء العصافير، وإنما قصد بحمض
إرادته -مكناً كان يعرف أنه سيلقى فيه من الأذى أشده، وقد أَلقت الأقدار الظالمة على كاهله
الغضنّ بمهمة لم تخطر له ببال.
وهذا عالم نادرًا ما تحصل فيه على ما تريد، كأنّ به نزعة سانية يمارسها عليك قبل أن
يرميّ بالعظم الذي تسعى إليه بكل قواك. هكذا كان على الطفل أن يجلس على الأرض
الباردة ساعات طويلة، يتأرجح من الخلف إلى الأمام ومن الأمام إلى الخلف كما يفعل
المجائين في مستشفيات الأمراض العقلية، مرتداً خلف المؤدّب كلاماً لا يفهم منه شيئاً، ولا
أظنّ أن أحداً كان يفهمه، بمن في ذلك الشيخ نفسه.
تُداهمه وهو يردد كالبيغاء -أسئلةٌ بها الكثير من الثورة والاستياء: ما الحمد، ما الربّ، ما
العالمين، ما الخناس، ما معنى كل هذا الكلام الغريب ولماذا يجب عليه حفظه دون فهمه؟
يغلبه التهور من جديد:
- سيدي، ما معنى خنّس؟ ولماذا يوسوس الشيطان في صدور الناس؟ وكيف يفعل ذلك؟
من أين سيعرف بأنّه دخل عالم الفكر -هو في هذا العمر- من باب المطالبة بلحجة أي من
باب البدعة في نظر كلّ الشيوخ. كأنّ هذا الشيخ تقطن إلى أن الأطل من النوع الذي سيزعج
أمثاله دوماً بلقيح ما يكرهون، فأراد أن يقوم الخطأ في تركيبته الذهنية بأشدّ العقاب، علّه
يكتسب أجرًا في الدنيا وثواباً في الآخرة.
يصرّ الطفل مع هذا على حقّه في الفهم. يعاود الكرّة والشيخ أحسن مزاجاً:

- سيدي، هل أبو لهب هو الشيطان الخناس؟ ولماذا تبت يداه؟ وما معنى تبت؟
أخيرا يستطيعون أهم ما يعلمه الكتاب والحياة بصفة عامة: تفادي العصا أهم من إشباع الفضول.

يتعمق كرهه للمؤدب، وهو لا يعلم أنه يظلم للشيخ أكثر مما كان الشيخ يظلمه. ما معنى إلقاء أسئلة في مكان جعل لمنع ظهور السؤال؟

كل الشيخ ينهض من فراشه لقضاء حوائج كثيرة يسلم إبانها العصا والفلقة لعميل سلطة لا تكون ككل سلطة-إلا بالفلقة والعملاء. كان هم العميل هذا، وهو لطول الأطفال قامة وأكبرهم سناً، أن يصفي حساباته مع من لا يرضى عنهم، وعلى رأسهم الطفل الغريب الذي أصبح صيده المفضل.

لا العصا ولا الفلقة، ولا كل أنواع ظلم الشيخ وتعتف العريف، عقوبات كافية لثني الطفل عن قراره بالظفر بكل الحروف لتختار منها "م" ما ينقصها.

تواصل الحروف اللعينة رفض الحضور بين يدي من هو بأمر الحاجة إليها.

يعود الطفل إلى حبيسة الدار كل مساءً مثقلاً بالأم غير مفهومة السبب، يردد عليها ما علق في ذهنه من جمل غريبة لا طعم لها ولا معنى، ومع ذلك كانت تطرب لسماعها.

- "م"، لا حروف في هذا الكتاب، لماذا لا نبحث عنها في كتاب آخر؟

- صبرا أيها الطفل العجول.

يتجذد الموعد كل صباح مع العصا والصخب والحصير، وكل مساءً مع حرقة الإحساس بالذنب والقهير.

ها قد بدلت "م" تتخوف بجد من صدق وعد الملاك. تنتسج أصابعها وهي تمسك بكتفي ابنتها:

- لا أحب أن أراك تذهب وتأتي على هذه الحالة. انظر إلي ملياً. أتريد مصير أقرانك في الصحراء، أم مصير أبناء خلتك هنا؟ رعي الجمال والماعز عند الأعمام، أم رعي الأبقار والغنم عند الأخوال؟ لا أريد لك هذا أبداً، هل تسمع؟

-

- يجب ألا يحصل هذا أبداً أبداً!!

...

- كم سأكون فخورة بك وقد حفظت السنن جزياً! كم سيكون "ب" فخوراً بك هو الآخر وأنت تثلو عليه ما تيسر منها!

...

أرجوك، كفي بكاء، إن دموعك تمزق قلبي. غدا ستفرج بانن الله. سأحمل للشيخ عصيدة بلسكر والسمن. وأنت أيضاً لا تكن سليلب اللسان كعدتك. لا تكابر، فلست دوماً على حق. سأصلي الليلة كثيراً ليهديك الله.

ولأننا في قصة نتصرّف فيها كما نشاء فإننا سنجعل صلاة المرأة تصل السلطات الماسكة بأكبر عصا وأكبر فلفة تضعها حول أقدام البشرية جمعاء. سنقرّر أن هذه السلطات، في إطار سياسة كلّ سلطة تصنع الالتهام ببعض التطلّعات وافتعال حلّها ليتواصل الانضباط وتنفّق العصيدة بالسكّر والسمن، أمرت بإصدار التعليمات لدوايب الإدارة حتّى لا يكابر الطّف ويتخذ طريقًا قد يقوده ليصبح عالما بأحد الرّعيين.

رّمّا نتخلّ الملاك حليف "ما" بحزم والجاح لدى مكتب التطلّعات الكونيّة. قد تكون علاقته الشخصيّة مع ملائكة القسم هي التي مكّنته من إخراج ملفّ الطّف من تحت جبال ملفّات الاستغاثة المتصاعدة من آلاف العوالم.

ذات صباح يتنحج الشيخ بوقار:

- والآن إلى ألو احكم لتعلّم الحروف الأولى التي كتّبت بها كتاب الله.

أهم متطلّبات استكشاف الفضاء الحسّي جسم سليم، حواس نشيطة، ثياب تقي من البرد والحرّ، وحذاء مثنى يُستحسن ألا يكون ضيقًا. أمّا عن استكشاف فضاء الأفكار فمن المستحسن أن يكون لك ذهن هو الآخر في حالة جيدة وأربعة أشياء توقّرت كلها يومها للطف: قصبه متّجبة بطول الإصبع، صمغ أسود تغمس فيه، لوح من خشب بحجم كتاب كبير، وطين يمزج بالماء تُمحي به الكتابة وتعاد.

فضاء الأفكار؟! توقّف على الصورة... أي شرعية لاستعمال مفهوم الفضاء عند ما نتحدث عن الأفكار؟ ففضاء الحواس هو الفراغ الممتد حولنا... الذي ترصد حواسنا ما يتكدّس داخله من كائنات مثل البشر والشجر وكيانات مثل البيوت والبراري... والذي يمكننا أن نمارس فيه أفعالًا مثل التنفّس والمشى والغوص وحتى الطيران عند توقّف متطلّباته... في أي امتداد وفراغ تتحرك الأفكار حتّى نربطها بفضاء؟

عودة لسباق القصة.

يبدأ الطّف رسم الأشكال التي أمر بها الشيخ. لا بدّ من التحكّم في تشنّج اليدين حتّى لا تنتلق العصي الواقعة إلى الجزء الأعلى من اللوح. كم تبدو محبّبة لما فيها من سهولة الرسم هذه الرموز التي ستصبح كلمات، فجُملا، فصنّورا، فأفكارا تنتر لحم داخل عقل نهم يقظ.

من أين له وهو راكع مُنكبّ على لوحه، يكاد يلامس وجهه خشبه الوعيّ بغّاه وضع أولى خُطاه على طريق مجهول سيوقده إلى قمم ما أنتج الفكر البشري!

كم كان بعيدًا عن تصوّر الدور الذي ستلعبه في حياته هذه الحروف وهي منطوقة شعرا وغناء وهي مكتوبة على الورق، يبني ويهدم بها إلى نهاية الرحلة كلّ تصورات له لذاته وللعالم!

المهمّ في هذه المرحلة المفصلية من الرحلة السيطرة على هذه الحروف بما هي المفتيح السحرية التي ستفتح أوابه كم هائل من الكتب وكل كتاب نافذة جديدة على عالم لا تحصى ولا تعدّ أبوابه ونوافذه.

يتعلم الطفل المنبهر أن يضع النقطة تحت شكل تتلاقى فيه عصي قصيرة واقفة وأخرى راقدة فيولد حرف جديد بصوت مختلف. وهذا صوت آخر وحرف آخر بنقطة فوق الشكل، ثم حرف جديد بنقطتين، ثم حرف مختلف بثلاث نقاط. ما أسهل الحروف وما أجملها! ها قد تعلم من سيدي الشيخ، خمسة أحرف نفعة واحدة. أليس ألم اللفة ضريبة الحصول على معرفة الحروف التي تنقص "م"، وأهم من ذلك، ثمن الحصول على الحروف التي تنقصه هو؟

الآن وقد فرغ الطفل من تفحص العصي والنقاط لا بد من وضع الدوائر تحت السيطرة. تداهم أولى أفكار سيتواصل وصفها طول رحلته من قبل القريب والبعيد، تارة بالغبيرية وتارة بالاستغرابية. نعم، لماذا لا نستغني عن الفاء بدائرتة وعصيه الراقدة على ظهرها ونقطته وكل هذا التعقيد غير الضروري الذي ستواجهه "م"؟ أليس من الأسهل، للحصول على الفاء، وضع نقطة على الألف وعصيه الواقفة خالية من كل تنقيط لا تنتظر هي الأخرى إلا حقها من النقاط؟ بعد هذا يمكن وضع نقطتين فنحصل على القاف، ثم ثلاثة نقاط لنحصل على الكاف، وهكذا إلى أن نستنفد بقية الحروف.

يبدأ أولى تجاربه ليزداد اقتناعا بوجاهة الاختيار. لم يبق إلا عرض اكتشافه على المؤتب. - سيدي الشيخ! سيدي الشيخ! لنضع فوق العصا الواقفة نقطة وهكذا نحصل على الفاء، هذا سيسهل كثيرا على "م" حفظ الحروف!
- ما هذا الجنون؟ والله إنك أكثر هؤلاء الصبينة الحمقى حماقة.
- سيدي الشيخ! سيدي الشيخ!

- احرص يا كلب، لا وجود لحرف فوقه أربع نقاط.
عجيب، كيف فهم الدين قصدي؟ أم إنه رأى ما أرسم جلسة؟!
المهم أن الطفل تحمّل في يوم واحد على عدد كبير من الحروف حتى وإن كان غير مقتنع بضرورة رسمها كلها بذلك الشكل الذي يصر عليه المؤتب.
يصرخ الطفل في أمه عند دخوله البيت راكضا:

- "م"، اليوم تعلمت كلللك الحروف! إنها أجمل من كلام الله.
- كم مرة قلت لك ألا...

- الليلة سأعلمك فقط ثلاثة منها. اجلسي، أريد الانتباه والطاعة.
تجلس "م" فخور، دامعة العينين وقد ازداد يقينها أن صديقها الملاك جدي، موثوق به وليس كالملائكة الآخرين بوعدهم لكثرة وإنجازاتهم القليلة. يلتقط الطفل غود حطب رقيق بلّوح به في وجهها، إذ كيف يكون معلما ومهابا إن لم يكن بيده رمز المهابة والعلم؟ ثم يبرز لوحه من وراء ظهره كمن يخرج مفاجأة المفاجآت وهدية الهدايا.

- انظري مليا. هذا حرف، وهذا حرف آخر، وهذا حرف ثالث. هل لاحظت الفرق؟
- نعم.
- نعم، يا...؟

- نعم، يا سيدي الشيخ.

- انظري جيّداً إلى هذا الحرف الذي هو عصاً واقفة، إنه حرف الألف. والآن من بين هذه الحروف الثلاثة أين حرف الألف؟

- هو هذا، يا سيدي الشيخ.

- حسنٌ جدّاً. والآن الحرف الثاني. انظري ملياً ولا تبتسمي. إنه عصاً قصيرة راقدة على ظهرها وفي بدايتها عصا قصيرة منحنية قليلاً إلى الإمام. إنه حرف الدال. قولي معي: دال. والآن أين الألف وأين الدال؟

- هذا الألف وهذه الدال، يا سيدي الشيخ.

- والآن هذا حرف ينطق ذال، وليس دال، لأنّ فرقته نقطة. فهمت الفرق؟

- نعم، يا سيدي الشيخ.

- والآن إذا وضعت نقطة فوق الألف، ماذا يكون نطق الحرف؟

- لا أعرف، يا سيدي الشيخ.

لا بدّ من التروّي في عقاب ولو كان خفيفاً فهذه التي ستعال العصا هي ‘مأ’، وعلى كلّ حل هي غير مطلوبة بمعرفة حروفه الخاصّة، علماً بأنّ الله نفسه لا علم له بوجودها حيث أنّه لم يستعملها في كتابه الأصفر الرث، فلماذا يظلم من لا تظلمه أبداً؟

- حسناً، لنراجع كلّ ما علّمك اليوم.

الإجابة صحيحة في كل مرة. ليس على الطّفّل سوى الانتظار إلى الغد، علّ ‘مأ’ تنسى حرفاً أو حرفين وأنّذاك يستطيع عقابها دون ظلمها، مع العلم أنّه لا ينوي الضرب العنيف، بل بلطف ولمجرّد التمتّع بسلطته الجديدة.

- ستواصل تعليمي بقيّة الحروف كما اتفقنا، أليس كذلك؟

ترفع الأمّ إصبعها في وجه طفلها وهو ما لا تفعله إلا نادراً.

- إيّاك أن تبوح لسيدي الشيخ أو لأحد آخر، حتّى لو والدك، بسرّ يجب أن يبقى بيننا. أترضى أن يسخر الناس من أمك وأن يقولوا: مجنونته، تريد في هذه السنّ تعلّم القراءة؟!

- وفي المقابل أريد...

- كلّ ما تريد، كلّ ما تريد!

ينتظم تهريب الحروف من الكتاب إلى البيت في جوّ من التكمّم على سرّ ‘مأ’، والطّفّل مسكون بهاجس طبع بقيّة الرحلة. هو لا يتعلّم لحسب الخاصّ وإنما لحساب الآخرين وقد شاءت الأقدار أن يكون صاحب رسالة ومسؤولية.

*

ذات يوم تغتم ‘مأ’ لحظة هدوء لتُخبر الطّفّل بدخول الطريق في منعطف جديد.

- غداً سيكون يوماً أعزّ في حياتك يا بنيّ. ستذهب إلى المدرسة العصرية. إنّها قريبة من محطّة القطار ولن تتعب كثيراً في الدُهاب والإيجاب. ساعدك لك محفظتك وفيها قلم جديد وكزّاسة وكتلّب قراءة جميل.

- لن أذهب إلا إلى الكتاب.

- أنت الآن طفل كبير. بلغت لسادسة، و عليك الذهاب إلى المدرسة العصرية.

- لكن هناك أطفال أكبر مني في الكتاب!

- أبوك وأنا نريدك أن تذهب إلى المدرسة. ستري أنها أحسن بكثير من الكتاب.

أحسن من الكتاب! غير ممكن. ثم كيف يتخلى عن لوحه وعن الماء والطين والسمع؟ كيف يتنازل عن متعة معاينة الشيخ والسخرية منه، خاصة عندما يرتفع شخير ه في حصة الظهر؟ كلاً، فالعقل لا يبيع ما يعلم بما جهل.

- لا، لا، أريد البقاء في الكتاب.

- لن تذهب بعيدا بالزاد الذي يوقره. جُلّ خزيجيه ليسوا سوى رُعاة قرية جنتك.

تتواصل المفاوضات الصعبة، وحجر العثرة خوفٌ مبهّم أن تكون عصا الشيخ الجديد أطول من التي تعود عليها، أو أن تكون الفلقة أكثر وجعا.

تستمع الأم إلى حجج الطفل الواحدة تلو الأخرى، تطّلبها، تنظّمها، توضّحها ثم تقدّمها، تخاطب في ابنها كأنها له عقل. يتسلّل إلى هذا العقل أنّ الغرض قد يكون في مصلحته حقًا، خاصة أنّه من “مما”. ثمّة أيضا أشياء جديرة بالتمحيص مثل تأكديها على غياب الفلقة وإمكانية الجلوس على المقاعد بدل الحصير البالي، ناهيك عن الحقّ في حمل محفظة الجلد الأحمر التي جاء بها والده من بلاد المغرب وحافظت عليها “مما” بحرص شديد، لا تخرّجها إلا نادرا، تمسح عنها الغبار وتقبّلها.

- سأذهب بضعة أيام، إذا أعجبتني سأواصل، وإلا...

تصرخ المعلمة المرهقة بالضجيج لا تخفي ما بها من تشنج ونفاد صبر:

- انتبهوا، اطلب منكم قراءة الكلمات التي على الصفحة الأولى لكتابتكم ثم نقلها على الكرّاس، وأريد أن يتمّ ذلك بنظافة تامّة.

يصرخ الطفل المتهوّر:

- إنّها كلمات سهلة، أعرفها كلّها، فسدي الشيخ علمني كيف أقرأ.

تبتسم المعلمة ابتسامة صفراء.

- حسنا، اكتبها إذن وتذكّر أنّك تكتب على الورق وليس على اللوح.

ذات يوم تتوجّه المعلمة متجهمة لطفل مرتبك.

- أريد أن يأتي وليّك معك غدا. وبالمناسبة، من الآن فصاعدا عليك أن تجلس في آخر القسم.

تحقّق الأم في طفلها كأنها تراه للمرة الأولى. تمرّر يدها على شعره ببالغ اللطف. يتّسع ربع ابتسامتها وفي عينيها ذلك البريق اللامع الذي لطالما أحبّه الطفل.

- أريدك أن تعديني بعدم مضايقة “سيدتي”. إنّها غاضبة من كثرة أسئلتك وتشويشك الدائم في الفصل.

- حفظتُ كلللال الكلمات التي في الكتاب، ولا أعرف ماذا أفعل طيلة الوقت وهي منشغلة بالتفسير لهؤلاء الأغباء.

- لا تُقل أبداً عن أقرانك أغباء وإلا كرهوك وأدوك.

يلعب الطفل ريقه، لا يفهم تقريع أمه له ولا امتعاض “سيدتي” منه وهي لا تتبسم إلا للأطفال الآخرين. يزداد الوضع سوءاً والمعلمة تطالب القسم بإنجاز التمرين الجديد.

- والآن انقلوا في كرساتكم الجملة المكتوبة فوق السبورة.

الجملة! أين هي؟ من هذا المكان في آخر الفصل وظهره إلى الحائط هو لا يرى إلا أشكالا باهتة لا يستطيع التعرف عليها. يغالب الطفل تردده، ثم يستجمع شجاعته وقد خرجت “سيدتي” لحظة فينهض من مكانه متوجهاً إلى السبورة. يضع أنفه فوق الكلمات المطالب بعبدة نسخها، لا يبالي بتهمة السخرية وبالطباشير المتطايرة. ثم يصلي لإله مُبهم أن تحفظ ذاكرته الجملة الطويلة وهو في عُدي وروح من السبورة إلى مكانه، ومن مكانه إلى السبورة، كأنه نملة تسعى بين الغار وفضاء الصُيد.

- ماذا تفعل؟ من سمح لك بمغادرة مكثك؟

- يا سيدتي، أريد نقل الجمل كما طلبت.

- لا تتحرّك مجدداً دون إذن.

- لكن يا سيدتي...

- عُذ إلى مكثك وإلا شويت أصابعك بالمسطرة.

كم من الام ومصاعب لاستكشاف فضاء الأفكار وكم فيه من مصاعب ومطبات تقاطعات طريق لا تقل خطورة هي الأخرى عن تلك التي تواجهك في الفضاء الحسي!

يدخل الطفل مجدداً في قوقعته.

تصرخ “سيدتي” في قمة الهيجان.

- غفلتني لتنام، أليس كذلك؟ أنت مجنون أم غبي أم ماذا؟!...

- سيدتي!!

- كفى، أصمت ولا تتحرك!

ليذهب المكتوب على السبورة إلى الجحيم. لتذهب سيدتي نفسها إليه.

إنه سوء الفهم المزمين بين البشر، بالرغم من عدد كلمات الخطاب والتوضيح والتدارك التي توفرها لهم اللغة.

لمثل هذه الوضعية التي يتخبط فيها طفلٌ تجاوزته الأحداث بعضُ الفوائد، منها تفرغه لأحلامه ولا أحد ينغص عليه عزلةٌ موجهة لذينة.

مما يزيد الطين بلة استدعاء السيد المدير ونبرته وهو يقول للطفل :

- لا يمكن أن تأتي للمدرسة بهذه الثياب؟ على الأقل أن تكون ملابس نظيفة... وإلا

يتزايد انغلاق الطفل على نفسه ويكثر الهمس حوله. إنها بداية تهمة الجنون التي ستلاحقه على مرّ العقود.

تَهزُّ الأمُّ طفلها من كتفيه، تجرّه إلى النور وهو مصرّ على الاختباء داخل الفضاء لوحيد الذي يقبل به ويستطيع العيش داخله.

تتوجّه إليه كل مرّة برفق فيه قلق نفين، تنبّهه لأخطار الفرار من “الواقع”.

- كيف تقرأ كُتُب والدك ومجلّاته في البيت وترفض حفظ دروس المعلمة، مستغرّقا في خريشة أشياء لا علاقة لها بالدرس؟ كيف سلّخبره بلُك الأخير في القسم، كيف أقول له إنك تعود من المدرسة كل يوم وأنت دالم؟ يا إلهي، متى يعود، علك تعود أنت إلى رشدك؟! يرفض الطُفل الاستماع إلى أمّه، وقد وجد داخل فكره وداخل الكتب التي تقبض بها الحفائِب المرمية في مهملات البيت، ما يعنيه عن المعلمة وكل ما تقول. تُطأطي “مأ” رأسها، تنكفي على حزن عميق، والطفل الغريب رافض لكل حديث فما بالك بمواصلة مذهبها بما يتعلم.

- يا بني، كنتُ أظنُّ أنني لا أحمَل صخبك، والحلُّ لَن صمّتك هو الذي لا يُطاق. تكلم، قل لي يمانا سادافع عنك هذه المرّة لدى حضور ي غدا عند مدير المدرسة؟!

ها هو على مفترق جديد للطريق وكذلك امرأة تموت خوفا، تمسك بيدها المبلّلة عرقا يذ طفل يتملص ضامنا يده الطليقة للصراع. مع من، ولماذا؟ يتوجّه الرجل الفظ إلى المرأة بلحنقار لا يتكلف إخفاءه:

- طلبتُ حضور والده!

- أبوه... غائب يا سيّدي المدير.

- غائب أم فاز؟ أم في السجن؟ معاد للحكومة، أليس هذا المعروف عنه؟! بل ويقال إنه إرهابي متطرّف خطير ومسلح.

- يا سيّدي...

- اسمعي يا امرأة! إنك غير صالح للدراسة، فهو متخلّف ذهنيًا. يضليق المعلمة ويعطل القسم. لا فائدة من أن يكرّر سنته. سمعتُ أنّ والده نزح من الأفاق أو من الصحراء تحديدا، الأحسن لك وله أن تأخذه ليرعى الجمال هناك.

أي تبرير لتعذيب الأطفال بالأم لا يعرفون لها سببا أو معنى؟ هل فتح هذا العالم للعموم قبل استكمال الاستعدادات الدنيا لاستقبال الزوار؟

- أقسم يا سيّدي، أنه يقرأ طول الوقت كُتبا و.

- كفى! إنه متخلّف ذهنيًا، ولا فائدة من أن يضيّع وقته ووقتنا في المدرسة.

- أتوسّل إليك، امنحه فرصة أخرى وسادعو لك ليلا نهارا، إنه شبه يتيم يا سيّدي.

- حسنا، حسنا، لا فائدة من البكاء. يُقل إن لإخوتك زيتونا جيّدا ينتج أحسن الزيتون! يُعيد سنته هذه، ولكن لا مجال لفرصة أخرى أبدا.

يلع الطفل غصة بكائه ويتبع أما تغالب دموعا بها الكثير من الحزن وبعض الفرح.

ثمة في أقدم الملفات صيغة أخرى لنفس الحادثة.

- طلبتُ حضور والده.

- أبوه... غائب، يا سيدي.

المدير، بصوت خافت:

- بارك الله فيه وأمثاله من الوطنيين. اسمعي يا سيدي، هؤلاء الأعياء لم يلاحظوا أن ابنك لا يرى جيداً. فقد انتبهت للأمر وأنا أراه في تقعد مفلجاً للقسم ينتقل من مكانه إلى السيورة لينقل ما تطلب المعلمة كتابته. حقاً إنه طفل غريب! لماذا لم يقل من البداية إنه لا يستطيع رؤية الحروف من مقعده؟ سامح الله الزميلة التي تركته يرسب. أما الآن فخذه إلى طبيب عيون في العاصمة، سيعالجه وستحسن نتائجها حالما يلبس نظارات.

يصرخ كهل، لم ينس الحادثة، في مساعديه الأطباء الشبان لا أريد أن يرسب طفل واحد لقصر النظر. أولى أولويات القسم - هذه السنة - الكشف على عيون كل أطفال السنة الأولى في جميع مدارس المدينة.

وفي قصتي - بما فيها من حقيقة وخيال - يزجر الأب في أصحابه وهو راجع لتوه من معركة ما:

- ابني أنا متخلف ذهنيًا، يوصى ببعثه إلى الصحراء ليرعى الجمال؟! ابني أنا يعامل هكذا؟! ابني أنا يهمل سنة لا يلتفت إليه أحد؟!!

- إنه تعليم الاستعمار. ماذا تنتظر منه يا صاحبني؟

- الاستعمار أنتم، أنتم من استعمرتموني قبل المستعمرين. والله لو حكمتوني يوماً في رقابكم لترحمتم على عهد الخنازير أكلة الخنزير. تركتم ابني يرسب وأمه تكل وتهان ولم تذبحوا هذا الكلب ابن الكلب! هذا الخائن لا عقاب له إلا الإعدام رمياً بالبصق، وأنتم معه كذلك. هذا بلد لم يعد فيه إلا عميل أو جبان. أنا استقبل منكم، اذهبوا أنتم لتحرروا المزرعة الكبرى فكلكم خونة بالأعمال أو بالنيات!

- يا رجل، اتق الله، هل الذي أتقد مستقبل ابنك وحباه بعطفه خانن وعميل هو أيضاً؟
- بالتأكيد أجنبي متخفت فضخته أخلاقاً انقضت في هذا البلد منذ زمن الفتح. استروه يستركم الله حتى لا ينتبهوا لأمره ويسقروه خارج الحدود. من المتخلف ذهنيًا؟ هو أم الفاسق الذي نصبوه مديراً لأنه كبير الخونة؟ ابني أنا متخلف ذهنيًا؟! أسألوه ما تريدون. قل لهؤلاء الجهلة أين صمد الزعيم في وجه الغزاة الملاحين؟

- في الفالوجة.

- نعم في الفالوجة، أصابكم بالفالج ربّ النصارى واليهود والمسلمين وكل ما يوجد في العالم من أرباب. ماذا قال أبوك لقائد الثورة العظيمة لما ذهب مهيناً ومسانداً؟

- قلت له: جنناك من المقهورة إلى القاهرة طلباً لسلح نقهر به أعدائنا وأعداءكم.

- أستمعتم؟! والآن علم هؤلاء الجهلة اسم العبد الثائر هذه الأيام في وجه الإمبراطورية العاهرة العجوز.

- جومو كينايطا.

- واسم كمشة الهمج الذين يقودهم؟

- الما وماو.

- أرايتم؟ إن هذا الطفل كاد يوماً يُفلسني بطباته من الكتب. أتعرفون أنني وجدته البارحة مستغرقاً في الضحك وبين يديه "البخلاء". متخلف ذهنياً يقرأ الجاحظ في السابعة من العمر! إنه يلتهم كل ما في مكتبي ويقرأ حتى التي لا يَدر على فهمها ويقولون لأمه خذيه ليرعى الإبل! ابني أنا يرعى الإبل! ابني أنا! ، إلخ... إلخ...
ثم يلتفت إليّ.

يا رجل رحماك، أنظر في الاتجاه المعاكس، واصل معهم، إنسن وجودي. هيهات، يجب أن
أنفَع مع الجميع.

- وهذا المغفل الذي بقي صامتا عوض أن...

يصرخ رفاق الطريق في رفيق عزيز تجاوز كل الحدود:

- اهدأ يا رجل واترك هذا الولد وشأنه. ألا ترى أنه يغالب دموعه؟

- ابني أنا يبكي! ثم ماذا أيضاً! تعنفون أنه من طينة أطفالكم! ربيته على لشدة حتى لا يشبهكم يوماً، يا من إذا حكّمكم كلبٌ محتّم الكلاب وإذا حكّمكم بغلٌ تغيّمت بفضل البغال على الكلاب! سبحان من حرّم عليكم التبن والعلف! سبحان من جعلني واحداً منكم! إلخ... إلخ...
... إلخ...

من يوم وضعت على عينيّ الطفل نظارات أصبح كأن رب تُفرض عليه مسابرة السلاحف.

*

وفي ملفت آخر عن تكلفة اكتساب أدوات الارتحال في أحد أهم فضاءات العالم يتوجّه المعلم لقسم هاتج على الدوام .

- انظروا جيّداً لهذه الحروف الجديدة. إنها حروف اللغة الأجنبية التي يجب عليكم تعلّمها ابتداءً من هذه السنة.

يفهم الطفل أنها حروف لغة الأعداء، الذين يضعون "ب" في السجن كلما أمسكوا به ويجبرونه على الاختفاء باقي الوقت. كيف يقبل بتعلّمها؟ ألن يكون هو أيضاً واحداً من الخونة الذين يتوعدّهم "ب" بالويل والثبور؟ مبدئيّاً، هو ليس ضدّ تعلّم أي شيء جديد، على العكس، لكن تعلّم لغة المستعمر شيء يرفضه عقله وإن كل لا يفهم بالضبط ما الاستعمار. يضع المجاهد الصغير القلم جنباً لبيدأ أول عصيان مدني في حياة ستكون حافلة بكثير من تمرّد عقيم.

يفغر المعلم فمه وهو يسمع تلميذاً يهمهم أنه لا يريد تعلّم اللغة الثانية ولن يكتب هذه الحروف.

يكتشف الطفل أنّ المسطرة على الأنامل لا تُقلّ أذى عن قلقة سيدي الشيخ.

بيني وبينك ما أسخف هذا الطفل وكم من صفحات مُحكمة كان يستحق!

الأدلاء يُقّمون لهذا الجحش على طبق من فضة كلالل حروف لغته الأم فيزجج من أهاده أعلى وأثمن الهدايا.

يَقْتَمُونَ له الآن على طبق من ذهب كلالل حروف لغة جديدة -مفتاحا جديدا وكنزاً إضافياً- فَيَتَّقَف وَيُعَلِن العَصِيان.

هو لَنْ يُقَدَّر كم كان محظوظاً إلا بعد عقود، يومَ اكتشاف قصة طفل عاش في عصرٍ غير عصره، وبلدٍ غير بلده عرف باكراً بمثلته قسوة الحياة.

بدأت مصائب ذلك الطفل بضربة سيف من جنديٍّ غارٍ مخمور، شجبت رأسه وهو في العاشرة. ومع هذا بقي حياً خلافاً لأبيه الذي قضى نحبه أمام عينيه. عقدة القصة أنّ والده كان يدفع أجراً للمعلم بصدد تعليمه الأبجدية، وهذا المعلم -الذي لم يكن مستعداً للعمل مجاناً- ترك تلميذه وهو لم يتعلم إلا ثلث الحروف.

جَنَّ جنون الطفل همّه الأوحَد أن يعرف ماذا يوجد بعد حرف z.

كان بداخل اليتيم إحساس أنه إن بقي بثلاث الأبجدية، فسيكون كمن يُحكَّم عليه بالنظر إلى العالم بقية حياته بثلاث عين لا ترى إلا ثلث الألوان.

ها هو متشبث بجلباب القسّ: من فضلك -يا أبتاه- ماذا بعد حرف z؟ فيركله الأب صارخاً: ألا ترى أنني مشغول؟

يتوجه إلى عشيقته القسّ: من فضلك -يا سيدتي- ماذا يوجد بعد حرف z؟ فتركله صارخاً: ألا ترى أنني مشغولة؟

يتوجه إلى مَنْ يعرف ومن لا يعرف؛ من فضلك ماذا يوجد بعد حرف z؟ فيصفعه هذا وذاك صارخاً: ألا ترى أنني مشغول؟ يجد أخيراً من يستمع إليه، يمسح على شعره مشفقاً: يا بني، أسأل القسّ، هو وحده الذي يعرف القراءة والكتابة في هذه القرية الملعونة.

لا تحكي القصة كيف وضع الطفل يده أخيراً على أصحاب الفخامة z، k، l، والجلالة m، n، o، والقداسة p، q، r، s، والسموّ t، u، v، وأصحاب العظمة w، x، y، z.

المهم أنه تحصل عليها كلها، الشيء الذي مكّنه من فك رموز الكتب وفهم الأمور... وحده.

إنه نيكولو تارتاغليا، أحد عمالقة الرياضيات، الجسر الرئيسي بين الخوارزمي وكارندان وفرّاري وباسكال، ومؤسس فرع العلوم الذي سيسمح يوماً برسم مسار الصواريخ.

يواصل بطل قصتنا الغيبيّ عناداً لو توقّف عنده لانعطف به الطريق بلكرا نحو مستنقعات شاسعة من الجهل والشعوذة والغرور.

كيف سيخرجه النص بصفة مشرفة من صراع غير مُجدٍ وميزانٍ القوى ليس لصالحه؟

ألم يُعد الملاك "م" أنّ طفلها سيكون بارعاً باللغتين؟ أليست هي التي أصرت على ذلك؟ ربما دفعت الثمن مسبقاً، وكانت كتيبة الكعك ثمن البراعة في لغتين كاملتين. هل يمكن أن يقل بلن يذخ الملاك "م" فيأخذ منها ضعف ما يتطلّبه عمله؟ ربما تتهمه بالعشّ والتحيل، وحتى -لم لا- تطالبه باسترجاع نصف ما أعطته فيحتج بنزاهته ويشهد المعلم ضده.

لهذا السبب، يقرر الطفل متأففاً إيقاف أول عصيان مدني له.

كم من قرارات هامة نأخذها في كل المجالات وفي أعلى المستويات بمثل هذه الحجج وهذا المنطق؟

المشكلة الآن التحكم في الحروف الجديدة.

اللجنة! لماذا يكتب الكفار من اليسار إلى اليمين؟ حدّث ولا تسئل عن يخلهم بالنقاط لحرورهم. ما أغيابهم! هم يرسمون شكلا لكل حرف من فرط جهلهم بالخفة والسرعة التي تسمح بها النقاط، تلك السرعة التي كانت تزداد لو سمعني سيدي الشيخ.

لا بدّ في هذه اللغة اللعينة من ثلاث عصي، تتلاقى اثنتان منها عند الرأس وتنبطح عصا ثالثة على مستوى الخصر لرسم ذلك الحرف الذي لا يتطكب في اللغة الأم إلا عصا واحدة منتصبة مكتفية بذاتها.

يتزايد انزعاج الطفل والحروف الركيكة تفرض أن يكون لها شكل فخم وآخر متواضع. ففي الصيغة الفخمة الحرف الأول منتفخ كالطلوس وبوصيته الثلاث بلغة الطول والتعالي، وفي صيغته الهزيلة هو مجرد نصف دائرة هزيلة بئيل قصير كذيل فأر قضمته أنياب القط. لا داعي إذن لإضاعة الوقت في تعلم لغة غيبية كهذه، يكفي افعال الاهتمام حتى لا يُفروا عليه بالضرب والنفي إلى الركن.

تدفع الأقدار إلى ساحة القصة بدليل يأخذ بيد الطفل ليعينه على تجاوز تقاطع جديد في طريق حافل بتقاطعت تبارى صعوبة وخطر!

كان، «مسيو فيدال» المعلم الجديد للغة الأجنبية بشوشا على الدوام، يبتسم بلطف للخطأ، يصلح النطق المتعثر، يقوم اعوجاج أشباه الجمل.

كان يردّ على السؤال المرحح تلؤ السؤال الغريب، تلؤ السؤال السقيم، تلؤ السؤال السريلي، وغلبا عن مواضع لا علاقة لها بالدرس. بل كان يشجع على السؤال، لا يمل، لا يسخر ولا يزجر أبدا.

يصبح استعمال الحروف الأجنبية معه لعبة ممتعة وهي -منطوقة أو مكتوبة- تسمح بتكوين الكلمات وهذه الكلمات تسمح بدورها عندما تصفّف بكيفية معينة كما هو الأمر في لغة الأم ببلورة معاني وأحداث وأفكار تأتيه أحيانا بابتسامات التشجيع والثناء.

تأتي مرحلة فكّ الأسرار التي تنطوي عليها أسطر طويلة من كلمات جمعت في صفحات كتب ملانة أيضا بالصور الجميلة.

شهرًا بعد شهر، يواصل الدليل الماهر فتح الطريق في الفضاء الجديد لزبونه الصغير.

- هذه المرّة، القصة بلا صور، قل لي عندما تكملها، ماذا أحببت فيها؟

- سيدي! سيدي! هناك كلمت كثيرة لم أفهمها وجنتك بقانمتها. سيدي، سيدي، سيدي، سيدي!! كم هناك من كلمات في لغتكم وهل سأحفظها كلها؟

يتحنح الرجل الذي ستقيم له المدينة الصغيرة بعد أشهر قليلة أضخم جنازة عرفتها، ضاربة بعرض الحائط أنه من قوم الأعداء... ثم يعطي الرد الذي سيذهل له الطفل:

- لا أعرّف يا بني كم في لغتنا من كلمات... لكذلك ستتعلم الكثير منها إذ يبدو لي أنك ستكون من فتران المكتنّبات.

كم كان خدس الرجل صائبًا، اللهم إلا إذا كان الأمر غير مرتبط بجدس وتوسّم خير، وإنما بالطريقة الملتوية الناجعة التي اعتمدها "مما" وهي تروي حلمها عن الملاك لتتمير مشاريعها بالإيحاء ببدل الصراخ بالأوامر على طريقة "با" التي لا تولد إلا شكلا أو آخر من المقاومة والرفض.

**

[21] Commenté

أوكيف أن العالم مصنوع من حاسة سادسة اسمها اللغة

- "يا"، كم هناك من الكلمات وهل سأتعلمها كللألها عندما أكبر؟
يحقّ الطفل الذي أصبح أبا بدهشة في طفلة لم تتجاوز سنتها السادسة تدافعت من ذاكرته كل الأسئلة الغربية التي كان يطرحها على مسيو فينال ومنها هذا السؤال.
الإفلات بحيلة أو بأخرى... أم الثبات والمواجهة؟
- سؤل وجيه يا تفاحة، يستدعي أن تتكاتف جهودنا للإجابة عنه. لكتني كل ما تعرفين من الكلمات وسأكتب كل ما أعرف من كلمات وسنرى هل نستطيع كتابة كللأل الكلمات.
تريني تفاحة قائمتها تترصد عبارات الإعجاب والتشجيع: بابا، ماما، لعب، كتاب، دمية، عصا، طوى، شكولاتة، ماء، طفلة، أخت، قط، حديقة، شجرة.
إذن هذه هي المعالم الكبرى للعالم الذي تتحرك داخله البنت.
تستعجلني تفاحة.
- "يا" هيا اكتب قائمة كلماتك.
قطعا لن أكتب أي منها وكل ما يتدفق من الوعي واللاوعي كلمات تتبارى بشاعة ومزاجي كأحوال هذا الوطن الذي ابتليت به وهذا الشعب التي أصابني الانتماء إليه بالعرف منه ومني.
تكتشفنا تفحة منهمكين في ملء صفحات كراسة بدأت تفيض بكللأل الكلمات التي تعرفها تفحة. تحتج باكية لا تدري إلى من ستتوجه بالتقريع.
- "يا"، تفاحة شريرة تلخذ دوما أقلامي الملونة، أنت تحاببيها دوما لأنها الأكبر وتلعب معها أكثر مني.
وهذه البنت الكبرى التي لا تحرك سلكننا، هي التي تتهمني دوما بأنني لأبني تفحة وألعب معها جل الوقت لأنها الأصغر!
- تفحة، كنا نكتب هذه الكلمات لك خصيصا. هيا أرني براعتك في قراءتها وقد بدأت تحسنين كتابة كل الحروف.
تصرخ تفاحة:
- لا أريدها أن تقرأ كلمتي، اكتب لها كلماتك أنت.
تتطور الخنقة بين الأختين إلى شدّ الشعر والبياء الصادق والكاذب. يجب إطلاق المفاوضات بخصوص الذهاب للفراش. اللهم إلا...
لم لا مواصلة اللعبة الممتعة مع البنتين علني اظفر بملاحظات جديدة عن التشكل التدريجي للعالم في ذهن المرتحلين.
- والأن، ماذا نفعل يا بنات بالكلمات التي رصناها؟
تصرخ تفحة:

- الكلمات تحب أن تجلس مع بعضها البعض لأنها تخاف أن تبقى وحدها ولا تجد مع من تتكلم وتلعب وتتخاصم.

حقاً؛ ما أذّ التفلسف طفلاً! وما أمتع التفلسف مع الأطفال!

"عندما تعود الكلمات إلى بدايتها
يعود الإنسان إلى أصوله
ويبدأ كل شيء من جديد"

- نعم، الكلمات كانت أليفة بالطبع لا تعيش إلا بالجوار، بمنافعه وأيضاً بمشاكله. تفاحة، ما رأيك في لعبة اكتشاف كل الكلمات التي تقبل بمجاورة بعضها البعض... كلمة طقس مثلاً؟

- الطقس جميل، الطقس بشع، الطقس بارد، الطقس حارّ، الطقس جاف... "يا"، أنا فهمت؛ الكلمة الثانية تزيد من توضيح الكلمة الأولى!!

- بالضبط، إنه الوصف...

تتدخل تفيحة لاستعادة المبادر:

- نعم، تفاحة بليدة وشريرة وكسولة.

تفتعل تفاحة الترفع عن نقاش حمقاء لا تتجاوز سنتها الخامسة. ثم تنفجر:

- تفيحة ركيكة غبية، شريرة. "يا"، اكتب أنت على صفحة كراسي بعض الأوصاف.

من الأفضل تجاهل الطلب وأنا في نفس الحالة من سوء المزاج وإن خفت عني اللعب مع البيتين الكثير من الكرب.

لتهدئة القطنتين الشرستين لا بدّ من تركيز اهتمامهما على فصل جديد من اللعبة.

- تفاحة، تفيحة، ماذا نفع بالكلمات وقد قبلت باللعب مع بعضها البعض؟

تصرخ تفيحة: نروي قصة لكن بالكلمات الجميلة فقط.

موافق، يجب أن نحرك الكلمات لكي تصنع لنا قصة، ما الذي يتقصها؟

تصرخ تفاحة: الأفعال، الأفعال....

ثم تصيف حتى لا تفنك أختها الكلمة.

- "يا" أنا من سأكتب كللللل الأفعال.

أترك الطفلة تخربش أفعالها. تصرخ في أن اكتب أفعالي وأن أكف عن النقل عنها.

الأفعال! نعم، لماذا لا أكتب قائمتي أنا الآخر بل الاهتمام بأفعال تعيسة مثل رقص وقرص؟

ماذا عن التي تلتهم هذه الأيام كل وقتي: جرى، ركض، صارع، صرخ، غضب؟

لكن أي فعل-بذرة تفرعت عنه كل هذه الأفعال؟... هل هو ولد؟... لكن ماذا فعلت

الذات قبل أن تولد؟... كم غريب أن تبدأ قائمة أفعالنا في هذا العالم بفعل غامض وأن تنتهي

بفعل لا يظن غموضاً: مات!

يتعالى الصراخ القادم من المطبخ أن هناك أفعالا لا بد من فعلها ومن الأحسن الشروع فيها دون تأخير مثل ارتداء البيجاما وغسل الأسنان والتوجه إلى غرفة النوم، وبصفة عامة الكفت عن الهرج مع رجل يمؤه على الناس خارج البيت بافتعال الجدية والوقار. فجأة تأخذ تقيحة في الغناء وهي تنظر للورقة التي رميت فوقها الكلمات التي أمرتني تفاحة بكتابتها:

- أنا قرأت كلماتك...أنا قرأت كلماتك كلها...إنها كلماتك قبيحة لا أحبها. تتدخل تفاحة.

-نعم لنحتفظ لقصتنا هذه الليلة فقط بالكلمات الجميلة وكلها في قائمتي. الاحتفاظ فقط بالكلمات الجميلة! فسخ التي لا تروقنا؟ لعلها وعسى ترحل ويرحل معها ما تشير إليه؟ فكرة أكثر من رائعة!...أية كلمات كنت تلغي من القلموس لو قيل لك إن ذلك يعني ألبا إلغاء ما تشير إليه من الوجود؟

اتركني أطبق منهجية تفيحة، أفشّ غيظي وأفسخ من القاموس أهم الكلمات التي أبغض: سجون، جواسيس، محاكم استثنائية، قانون طوارئ، فقر، تلوث، زعيم أوحد، مجلس الداخلية العرب، عنصرية، عبودية، تعصب، بورصة، ليبرالية، شيوعية، وطنية، قومية، خوف، جبن، انتهازية، انتقام، أيديولوجيا، تعذيب، احتباس حراري، عواصف، حرائق، حروب أهلية، انقراض أجناس....

بربّك أليست هذه أفضل وأسهل طريقة لتنظيف العالم عوضا من برامج سياسية كاتبة، ودينية مخادعة، أثبت التاريخ عقمها بل إنها تزيد الطين بلة. نعم، لماذا يرفض لنا العالم هذه الطريقة غير المكلفة في تنظيفه، هو الذي يشتكي هذه الأيام من كل الأزمات التي خلصته منها بجزء قلم؟ ربّما لعلمه بتباين الرؤى بين الأدميين وخوفه من أن يفوضوا صرحه لو أطلقوا على خزينة الكلمات وكلّ له حساب مع كلمات الأخر وأحيانا مع كلمته هو.

ربما أيضا لأن الكلمات كصرح الورق الذي تستند فيه كل ورقة على أخرى. لا تستطيع أن تسحب ورقة من هنا وهناك إلا وانهار الصرح بأكمله.

هذا ما يطرح علينا إشكالية ضخمة. ما الكلمات وما علاقتها بما تشير إليه وتسمى أو تصف؟

ثمة من الأسميين من يعتقد أنها مثل أوراق النقد أي مجرد علامات رمزية اتفقنا على معناها ووظيفتها لكن لو حرقناها لما تبخر الذهب الذي يغطي قيمتها والرافد في كهوف البنوك المركزية.

ما لا ينتبهون له أن هذا الميهم الغلمض (الذي يسمونه الكون، الطبيعة، الواقع، المادة) أيضا كلمة من كلمات اللغة وأنهم لا يعرفونه إلا بمزيد من الكلمات. ها هم يدورون في حلقة مفرغة وعوا أولم يعوا بلقنا حبيسو لغتنا مثلما نحن حبيسو حواسنا الخمس الأخرى.

المؤكد أن هذه الحاسة السادسة تلعب دورا أساسيا في بناء العالم الذي يعيش فيه كل مرتحل.

ينظر البدوي إلى الصحاري البيض فلا تسعفه لغته إلا بكلمة واحدة في أحسن الأحوال وهو لا يرى أمامه إلا شيئا واحدا على حالة يتيمة: الجليد. يضحك مرافقي ابن تلك الغياقي: لنا أكثر من ثمانين كلمة للتعبير عن مختلف أنواع الجليد والتلج. أعبئه بدوري: يوم تزور صحاري الصفر ستقول لي كم ترى من أصناف النخل والتمر والإبل. وسأفاجئك بالعدد الهائل للأصناف التي لم تراها. بشيكية العين نحن نبصر نفس الشمس، لا يختلف اثنان من ثقافات متباينة وفي كل العصور في كونها مستديرة الشكل براقعة بالنور في عزّ الظهيرة تسبح في عنان السماء نهارا وتختفي منها ليلا.

لكننا نرى عبر "شبيكية" اللغة شمس مختلفة.

كانت شمس أمي اسمه "أخذاتون" إله يُتوجه إليه بالعبادة ونفس الشمس اليوم جرم سماوي أشبه بقنبلة هيدروجينية بطيئة الانفجار بالنسبة إلى أمي آخر اسمه "اينشتاين". مما يعني أنك لو عثت داخل عالم الأوائل أي داخل لغتهم لكنت تسمع خاصة ليلا-حفيف أجنحة الجنّ والغاريت وأرواح الأجداد الغاضبين من نسيانهم وبخل الخلف الطالح بلقرابين والصلوات.

تلك لأنّ الذهن ليس مرآة تنعكس عليه بفضل الحواس الخمس بعض خصائص مبهم أصلي يتجلى بنفس الكيفية لكل البشر. هو مرآة نشطة التي لا تتوقف عن معالجة معطيات الحواس تنقي وتصنف وتسمي وتضفي المعنى والأناة دوما للغة. أضف لهذا قدرة هذه الحاسة السادسة على خلق معطياتها الخاصة بغض النظر عما ترصده الحواس الخمس.

ألا تضيف للعالم كائنات غير حسية مثل الشياطين والملائكة والأشباح والآلهة تصبح جزءا من الحياة اليومية أي جزءا من العالم؟

من أعالي هضبة وسط غابة استوائية مترامية الأطراف ها أنا أتأمل بحيرة جبلية أعبت برميا بحصاة قابع تكون الوثائر المتباعدة التي طالما أبهرتني طفلا.

بالنسبة لي هذه البحيرة الجبلية الجميلة ليست إلا بحيرة جبلية جميلة ككل البحيرات الجبلية التي تملأها في كثير من أماكن الفضاء الحسي.

لكن سكان هذه الأماكن من قبائل "المايا" كانوا يرون في هذه البحيرة باب "الشيبالبا" أو المدخل إلى العالم التحتي الذي تسكنه الآلهة. لذلك كان أجدادهم يرمون من هذا العلو بالأطفال والعذارى قربانا لها.

كانت لهم نفس الصور التي ترسم داخل ذهني، لكن كانت لهم تصورات للمكان جد بعيدة عن تصوراتي.

التصورات؟

هي طريقة فهمنا -أفراداً أو جماعات- للصور التي تنقلها لنا الحواس الخمس عن العالم ومكوناته المختلفة.

هي تنظيم معين لمعلوماتنا عنه نستقي أغلبها من الثقافة التي ننشأ فيها أي من نسيج الكلمات التي تشكلها.

هي ما يتبلور شيئاً فشيئاً في الأذهان بحثاً عن أحسن الحلول في معركة البقاء وتحسين ظروفه.

هي منطلق التفكير المجرد عندما يتقدم الذهن في تحديد معاني الكلمات بكثرة نقة. هي كل ما نعتقد، كل ما نؤمن به، كل ما نكفر به، كل ما نبني من فرضيات حول طبيعة العالم وأسباب وجودنا فيه أو وجوده فينا.

إنها الفكريات هذه الكائنات الحية اللامادية التي تبني وتتعدد مكوناً أساسياً من هيكل العالم أسميه فضاء الأفكار.

كيف لا يكون هذا الفضاء ركيزة ثابتة لعالمنا وفيه أهم عوامل الحياة والموت. أنت طوال الرحلة كمن يشق طريقه في مدينة عائمة في الضباب، سكانها بشر من لحم ودم لكن أخطر ما يترصد بك ليست هراوات قطاع الطريق الحسي وإنما فكريات ثبتت في أشداقها أنياب قاطعة مثل الحرب المقدسة والوطنية والعدو الوراثي والكفر والخطيئة والاستعمار والاستبداد والشعوب المختارة وكلها أفكار من صنع اللغة، هذه الطقعة العجيبة التي يستعملها الذهن لبناء عالماً وهي مثل شبكة الصيد التي تظفر بكل ما تقدر عليه من أسماك، لكنها قادرة على إعادة تشكيل الأسماك التي علققت في جبالها بل وحتى جعل خيوطها تخلق أسماكاً لم تسبح يوماً في محيط.

**

أو كيف أننا في عالم لا حقيقة له خارج ما نتصور أنها حقيقته

تأتيني ليلَةٌ فكرةٌ لقصةٍ ما قبل نوم البنّين لم تخطر على بل قصاص. أتوجه لتفاحة تترك عينها ولتفيحه وهي تجاهد للبقاء مستيقظة لتسمع بقية قصة الأميرة والساحر.

- جاءت الساحرُ الخبيثُ فكرةً مسخ الأميرة إلى جسم مصنوع من الحروف، الأميرة مهتدة بالموت، والساحرُ أشهز في وجهها كلمة نار.

تفهم تفاحة اللعبة الجديدة. تصرخ: فصرخ الأمير في وجه لساحر الخبيث: مطر، مطر! تفضل تفيحة حلا آخر:

- نركب كلمة زورق لنهرب جميعا.

تصرخ تفاحه: فتأخذنا كلمة نهر.

تأتي الأوامر من الصلوان بوقف الضجيج. لا أحد يحملها على محلل الجذ. لا حتى صلحيتها.

تصرخ البنّان: لا، لا، لن ننام حتى نغلب الساحر. ثم تتشابكان بالأيدي رقصا يفتعل العراك وعراكا يقصد الرقص. تحتد لهجة أوامر نافذة الصبر فأصبح البنّين بالحنز. تقتعلان الطاعة والصراخ المتزايد عصبيةً من وراء الباب يقرب. تتمددان على السرير لمواصلة القصة وشوشةً وقرصًا وتجانبا بالأيدي.

أغض العينين أغفو وأستيقظ على همس البنّين والزورق السحري ينسلب على نهر من الكلمات يأخذني إلى فضاء جبّله نصوص، غلبته نصوص، أنهله نصوص ومستنقعاته نصوص.

يتصاعد التنفس البطني من البنّين. أغوص في الأريكة مستمعًا بتنفسهما ورافعا عن ذهني كل القيود، فأهمّ الأفكار لا تتّيني إلا ماشيا أو على تخوم النوم واليقظة.

أخيرا الفضاء العابر للزمان والمكان الذي حلمت باستكشاف كلليل ما فيه.

“هنا” جبال من الملفات التي أودعوها ألامهم نثرا وشعرا.

“هنا” معادلات نيوتن ومكسوال وديراك وبور وأنشأين وهيجز وهوكنز، زبدة علومهم علومهم لا تدري هل هي فعلا ملفات لله المسروقة أم فحة الإبداع الغني عند البشر.

“هنا” قوانينهم المترامية المتزايدة عددا وتعقيدا والتي تعكس لهم صورة محتالين، لصوص، قتلة، خونة مستغلين، زناة، مغتصبين، مرتشيين، متمعشين من الاتجار بالنساء والمخدرات والسلاح. كل هذه الجبل من التشريعات لا تعري إلا حقيقة اجرام الشعوب واجرام الدول واجرام الأحزاب واجرام البنوك واجرام الشركات واجرام العصابات واجرام الأشخاص منهم -أيه والله- رجال دين لا يرون تناقضا بين وعظ المؤمنين كل يوم أحد واغصاب الأطفال وراء الستل. كل هذه الجبال من التشريعات لا تقضح إلا فشل

الدين والسياسة والأخلاق في إصلاح البشر...أو إن أرننا أن نكون منصفين هي شهادتهم على بذل المستطاع والإصرار على مواصلة مشروع بلا أفق.

«هنا» توارىخهم، أي رواية المنتصرين لصراعاتهم بالكتب المفصوح ولتضخيم والنقزيم والإسقاط والتمويه، ناهيك عن الدس بأشياء لم تقع أصلا. ووراء كل هذا التزييف مؤرخون يفركون للشعوب أساطيرها الجميلة رحمة بها أو خدمة لمصالح ممولينهم، وآخرون يفككون بذكاء هذه الأساطير شماتة في زملائهم أو خدمة لمصالح ممولين آخرين.

«هنا» رواق صور عظمتهم التي صقلتها دعاية محمولة متواصلة عبر العصور يسهر على ترويجها أنصار هؤلاء العظماء ومن يتمعثون من صيتهم.

«هنا» ما يسمونه مزيلة التاريخ حيث يتكس كل الأميمين المكروهين لجرائم كبرى يُقال إنهم اقتروها في حق بني جلدتهم وأغلب المرميين فيها ضحايا صور نمطية معاكسة روجها الأعداء ومن يتمعثون من تواصل العداء.

«هنا» مخططاتهم للسيطرة على عالم لا مجال للسيطرة عليه.

"هنا" حروبهم في الفكر وأكثرها تحضّر لحروبهم بالسلطور والصاروخ،

"هنا" حمى الصراع بين المجلدات الدينية والمناهضة للدين في معركة يسيل فيها الحبر أنهارا.

أصخ النسم للصراخ المتصاعد من الصمت المريب: "يا صانع أفيون الشعوب، يا عدو التقدم، يا ظلامي، يا جاهل، يا متخلف، يا ملحد، يا عدو الله... الله من هذا أيضا؟ أنت لا تؤمن بالله!... أو من بما أكبر... نعم ثمة إله واحد لكن يجب ألا تؤمن به... ديانا تكم شهوات ومخاوف أطفال غفها بدانيون بأساطير سانجة واستحوذ عليها كهنة خبثاء وملوك قساة لإحكام القبضة على شعوب من العبيد... وقع تجاوز كل الخطوط الحمراء، والشرف الرفيع لا يسلم إلا إذا أريق دفاعا عنه مزيد من الحبر والدم... ألا تعرف أن المختار قال كذا وكذا... قال أو قول... أعيذوا القراء، أسلم فهمي واستعمال كلمتي... لا بل فيمناك جيدا وفيهنا كيف نحسن استعمالك لقضاء شؤوننا... أه يا أويش، حقا لا نبي في قومه... ما الغرابة في الأمر ونحن خلافا للأعراب نعلم أنك كل شيء.

يجب أن أخرج من المكتبة العظمى إلى سلحات الفضاء حيث الصراع الذي يغنيها بكل ما فيها من معطيات.

أه هذه الواجهة للمقولين القدامى الذين نمت ثروتهم عبر العصور: مؤسسات أفلاطون وأولاده، فالميكى للملاحم الفلسفية، هيرودوت دار التاريخ العريق، البيتاغوريون لعلم الكهانة والحساب، هومير للأساطير الأزلية.

أه هذا سرداق الآلهة المكشرة وكهنتها الذين يعاملوننا كالأطفال، يصرخون فينا دوما: افعلوا الخير وستكافؤون بكثير من الشوكولاتة وإن عصيتونا سلخنا جلونكم دنيا وأخرة. لا، شكرا لست مغنيا بمثل هذا البرنامج. هذا سرداق الأنبياء المبتسمين. لألق نظرة على الرجل الجلس تحت شجرة الشاي يتأمل، وعلى ذلك الآخر الذي نزل لتوه من ظهر الثور ليسلمنا

أثنى الكوز قبل الاختفاء في الضباب. كم مؤسف أنهما هما أيضا يبيعان نفس البضاعة، الفرق بينهما وبين كهنة الآلهة المكشرة أنهما أكثر لياقة مع الزبائن واحتراما لذكائهم. هذا سرادق ديمقريط وبيروتاغوراس وإبيقور وإبيكتت وكل من أحب من الفلاسفة الذين لا يحبون ولا يحبهم أفلاطون. هم أيضا يريدونني خيرا وحكيما ومعتدلا وعاقلا وصبوراً ونافعاً! لماذا يصرون كلهم على أن أضيق وقتاً ثمينا في مهمة بعينها استتصل جزء من ذاتي ولو كان حقا الأظلم؟ هل جنت لهذا العالم، للصراع مع جزء من ذاتي كأن الصراع مع الذوات الأخرى لا يكفي؟

نعم إنها نفس البضاعة البائرة على مر العصور... كلهم يريدون من الأدمي أن يصبح خيرا والشّر جزء لا يتجزأ من الذات... يريدونه في صراع متواصل مع هذا الجزء من ذاته كأن الصراع مع الذات الأخرى لا يكفي وجعا... يريدونه سعيدا كما لو كان هناك معنى للسعادة دون وجود الشقاء... يريدونه ثابتا على حالة اسمها الساتوري أو النيرفانا أو الحكمة والحال أنه لا شيء في هذا العالم ثبت على حال... هكذا ارتطمت تعاليمهم بالواقع الخبيد لتنتهي طفوسا يتعيش منها المخادع وأواما يعيش بها المخدوع.

القاعدة أن جلّ الساهرين على تغذية الفضاء أو القائمين على حراسة ما فيه من منتوجات متوترون يصرخون في وجوه بعض البعض يتهمون الغير بالتحيل على المستهلكين المسكين بل ويصرخون في وجهك إنك إن لم تتبضع عندهم فالويل لك ولثبور. لا غرابة في الأمر والمكائنتات للامادية الحية التي أسميها الفكريات والتي تتولد من عقولهم بحاجة مثل الفطريات والنباتات والحيوانات للدفاع عن وجودها وتوسيع مجالها الحيوي وإلا فإن فكريات قاتلة تنربص بها لن ترحمها.

يتعالى من حولي صراخ الباعة يتغنون بالمنتوج الجديد والكُلّ يحاول استغلال جهل المستهلك وجوعه لغذاء الفكر والروح: من هنا الصورة الصحيحة للعالم.. تخفيض هامّ لدين الخلاص الحقيقي... الفلسفة الصغية غير المغشوشة.. طازج، علم نفس طازج، الوحيد الطازج الخارج لتوه من القرن... آخر وصفات الخلاص الفردي والجماعي، مسكين من لا يشتري بمثل ضماناتنا... من هنا الردود الجبّية على الأسئلة اللعينة... لا عش عندنا في الأمر مثلما يفعل الآخرون!

يقترّب أحد الباعة هامسا في أنفي: لا تتبع أي من هؤلاء الدجالين، تعال، من هنا الصراط المستقيم.

لم لا أتبعه؟ قد أعثر أخيرا على ما بحثت عنه منذ إفاقتي؟ مؤكّد أن الأزقة الخلفية تعجّ بمزوري النصوص وبمهرّبيها لكنني قد أجد فيها أشدّ من تتشوّق لهم نفسي. قد أسقط بالصدفة على طورانطوبوس ولوحاته التي دمّرت أياها مجهولٌ جُلّها لأن الرجل كان يتبجح بأن أروع ما رسم كان يهْدَى وتوفّي من الشيطان.

آه لو أمكنتي ملاقة الإخوان الذين كتبوا الإحدى وخمسين رسالة والدردشة مع أكبرهم -
تلك الذي كتب الرسالة الجامعة. أطلب منه استعمال عنوانها وإن رفض أسببه وأخبره أنني
سأختم به نصتي أذن أو لم يأذن.

هل سيسعني الحظ بالارتطام بمؤلف ألف ليلة وليلة؟ أمر مشكوك فيه والرجل - اللهم إلا
إذا كان امرأة - تدبّر (ت) أمره (ها) للإقلاط من كل الذين حاولوا إماطة الثام عن هويته (ها).
كُتّاب يركضون طيلة حياتهم التعيسة جريا وراء الشهرة، وآخرون يهربون منها كما لو
كانت الطاعون ممزوجا بالجذام !!!

قد ألقى صاحب مخطوطة "فوينوتش". كم قضى من ليالي لكتابة نص يسخر من نفسه ومن
كل الذين سيسميتون ستة قرون لفك رموز لغة لم يكتبها ولم يتكلم بها بشر.
نصوص لم تر النور أو لم تُكتب أصلا أو كُتبت عمدا بلغة غير موجودة لأن أصحابها
شعروا أن هناك حقائق يجب أن تبقى مخفية!

هل من الممكن أن كل هذا الفضاء الفائض بكل هذه الثروة مجرد قمة جبل الجليد، أما
المخفي منه فهو الذي ينغلق إلى الأبد على المشاعر والأفكار التي يرفض الأميون
الإفصاح عنها ويمنعونها من التبلور حتى على تخوم الوعي! هل الأمر لاكتشافهم الفراغ
المظلم وراء كل نور؟ أم لرجعهم من مصير الفراش الطائش إن اقتربوا منه كثيرا؟
مؤكد أن أهم " لماكن" هذا الفضاء ورشات انتاج الأفكار والمحرك ما يطرحه العالم على
الأدبي من تحديات تترجم في ذهنه لسيل من الأسئلة: هل نحن حيوانات أفرزتها قوة عمية
اسمها "الطبيعة" أم كانت نورا نورية خلقها إله لم تخلقه قصصنا؟ هل رمت بنا الصنفة
العمياء في مجاهل هذا العالم؟ هل نحن تائهون في محيط اسمه "الكون" ننظر بعثة إنقاذ
لم نسمع بغرقنا ولا تعرف عنوان الجزيرة التي لجأنا إليها؟ هل نحن مستكشفون بعثتنا
العمية في مهمة بالغة الخطورة؟ لماذا نتقّم في ربوع العالم ونحن كمن يمشي في نفق مظلم
بيده شمعة، نوسع دائرة النور ولا نهاية للظلام المحيط بنا؟ لماذا نعاني من صعوبة الوصول
وصعوبة العيش وصعوبة الرحيل؟ لماذا يبقى أبو الهول صامتا لا ينطق عبر الدهور؟
ولماذا نصرّ نحن على أن ننتقله ولا نظفر منه إلا بصدى صوتنا؟

على الغموض كنه الدهر (عمر الخيام)

لا يوجد في الدرب دليل هاد

كلّ متمسك بفرع واه

والدهر على نظامه المعتاد

فجأة أسمع البنتان تصرخان بالاحتجاج:

- "يا، لا تتلأ، لنز لحم. يجب أن نبيع نحن أيضا بضاعتنا.

ماذا؟ أنا أيضا واحد من الباعة ولم أنتبه! إنها حقا لمغامرة أن تجد في هذه السوق موقع قدم
لحربتك المحملة ببضائعك التي لم يسمع بها شار أو سمسر، بحدوك -مع هذا أمل كل

المبتدئين أن تتحسن الأحوال يوما فتفتح لك دكانا صغيرا ثم أول مساحة كبرى عندما تتحسن أكثر، ولم لا أن تصبح أنت أيضا من كبار مقاولي الفضاء .
نعم، لأزاحم أنا أيضا لعرض أحسححسن الأجوبة عن أسئلة لا يهم أن تكون فاسدة للصياغة أصلا. ها أنا أنفع عربتي الصغيرة، أصبح مغنّيا أو أغنّي صانحا: "الرحلة"، "الرحلة"، كل من يشتري نسخة تعطيه مجانا "المدخل إلى الطلب" شرط ألا يستعمله للفت السمك.

تخرط البنتن بسرعة في اللعبة الجديدة، لكن عوض أن تصرخا: من لم يقرأ رحلة "ب" مات غيبيا، ها هي تفلحة تغني: تعالوا، اسمعوا قصة بينوكيو. ترويبها لكم أحسن رواية، طبيعي، فلا أحد من هؤلاء الأميمين الملاعين يحرك عضلة إلا لحسابه الخاص. لئنا ما يدعون من أثرة وعمل لوجه "ب" أو الله أو الوطن أو الإنسانية فمقايسة تجارية يخرجون منها إذا لم تغطّ المكاسب ثم تحريك العضلة أنفة الذكر.

كل هذا الضجيج ولا مشتر أغشّه. إن بازت البضاعة فما عني إلا تركها للفئران. فجأة أشعر بتفاحة تهزني من كفتي.

- "با" ارتفع شخيرك. نمت ولم تسمع قصتي. لن أروي لك ولهذه الغيبة نهايتها.
- نعم، نعم، لكن رجاء في الحلم المقبل اهتمي أكثر بمصالحنا أنا أيّها البننت الأثانية

**

عالم واقعه مصنوع من الخيال وخيله مصنوع من الواقع

يصرخ "بأ!" في إحدى ملفات الذاكرة: ولدك هذا سيذهب بعقلي، يا امرأة، أهكذا تربين أطفالاً؟! متوجّها إليّ بلهجة فيها من المرح ما فيها من الاستهجان والغضب، قلْتُ لك: لخرج من وكرك.

الوكر! غرفة مظلمة من البيت البائس تكئس "بأ!" في طرف منها مهملات البيت، وفي طرفها الآخر يكئس "بأ!" ما كان يجمع على طول الطريق من جرائد ومجلات وكتب، يضعها في الأماكن الواضحة للطفل كالطعم للقار.

كانت أولى محطات الإقلاع لتي وُجد فيها الطفل المفتاح والباب والطريق لفضاء سحري أصبح له الملجأ المفضل.

حتى أصاب "بأ!" قدرة على التوتّر.

- كفى الآن. قلت لك لا مجال لأخذ الكتاب معك. لا، لن يمزقه أخوك، فهو في عُهدتي. هيا، إلى المدرسة، وتادب مع المعلم، قل له: سيدي، اطعمه... إلخ.

يستشيط المعلم غضباً وهو ينتبه لما يفعل الطفل وراء ظهره:

- تعتقد أنني لا أراك. الكتاب مُصادر. أنرتك أكثر من مرّة. أغلق هذا الكتاب اللعين واذهب إلى الركن.

يغلق الطفل الكتاب مُكرهاً، يواصل ووجهه إلى الحائط تخيل أحداث القصة التي يتأمّر كل من حوله لمنعه من اتمامها.

تندافع في ذهنه المناظر والكائنات والأحداث عن بلاد اسمها الهند لا يعرف عنها شيئاً. ولأنه لا يعرف عنها شيئاً فإنه سيضعها تارة في الشرق وتارة في الغرب، يملأ أرضها مرّة بغليات الزيتون وأخرى بغليات النخيل. لم تكن لديه أدنى فكرة عن القصور التي تتحدّث عنها القصة ولو أنه كلن قادراً على أن يبني داخل ذهنه قلاعاً تصل إلى السحاب ومادّتها الشمس والقمر، تغلق ليلاً أبوابها في وجه جحافل الجنّ والغاريت، لا يفتحها إلا بطل وحده من يعرف كلمة السرّ.

يلوذ الطفل أخيراً بفراشه متنقّساً الصعداء استعداد كتبه من قبضة المعلم.

يرتفع صوت "بأ!"، وفيه الآن بعض نفاذ للصبر:

- يا بني، هل تريد أن أقتلع منك الكتاب بالقوّة. إلى النوم. حالاً.

عبثاً، لن تمنعه حتى "بأ!" من مواصلة القراءة لمعرفة إلى أين تقود وكيف ستنتهي

القصة التي استحوذت على لبه.

إنها عن أمير اسمه "راما" رحل مع زوجته "سيتا" وأخيه "لاشكمن" إلى عمق الغابات بعد أن أجبرت الملكة الشريرة زوجها على نفي ربيبتها هذا ليظنّ العرش لابنها هي. وفي

"لأنكا" تبكي "سيتا" قومها ووطنها، لا تخفي زعبها من غابة يسكنها عتاة الشياطين.

“سينا! سينا! خطفوا سينا! خطفها رافانا اللعين!

إنه أول امتحان للطفل وقد تقمص الدور. نعم، هو الذي سيجزr الفضيلة ويعيد الملأ إلى صاحبه والأمور إلى نصابها والعالم إلى توازنه المفقود.

- “مما، أرجوك. لا بد أن أنهى الفصل الأول على الأقل، أرجوك.

- طيب، لكن قل لي، ماذا تفعل؟ رأيتك تقبل الكتاب!

يصمت الطفل، لا يريد الاعتراف لأنه واثق أن قبلاته عبرت حاجز الورق وتسالت بين السطور لتصل حبيبة الفؤاد. أه يا سينا، يا “جناكي”، يا صفائر سودا على الظهر تطلت، يا عيون المها، يا بسمه الحياء والخجل، يا رقة الفجر، يا وداعه، يا طهرا، يا ملاكا على الأرض مشى. يا أول حب.

- كفى الآن. أعطيتك كل الوقت. أغلق الكتاب. سأطفي النور حالا.

أنام وأترك سينا في أسرها! إن “مما” لا تعي ما تقول. ألا تعلم أن الشيطان رافانا يطير بعربته الفضائية نحو جزيرة لانكا، وسينا ملقاة على خشبها مكتمة الفم، معصوبة العينين والحبل يقيد يديها الرقيقتين. اللعنة عليك يا رافانا. اضحك وقهقه وتوهم ما شئت. سأتيك بالخبر اليقين.

- يا بني، الكتاب لن يهزب وهناك بعد اليوم يوم جديد.

كيف؟ أغلق الكتاب الآن وسينا في خطر الموت، ربما تتهددها أشياء أخرى أفضع بكثير؟ لا تقدر “مما” كم هي خرجة هذه اللحظة.

- يا بني، أنت لا ترى جيدا، والقراءة بالليل تتعب عينيك، ولا بد لك من النوم.

- إذا كان النوم عزيزا عليك فلماذا لا تذهبين أنت لتنامي؟

- لا تكن سليلط اللسان حتى مع أمك. أتريد أن لمضي الليل يكمله أترجأك؟

لم يكن الطفل في عمر يسمح له بفهم ما هو بصنده، ولم تكن “مما” تفهم أحسن منه. هل كانت تقبل برأي حكيم يسر في أذنها وهي تلاحظ تسحاب الطفل التدريجي من “واقعها”؟ لا تقلمي، هو لا يلعب، لا يضئع وقتا، لا ينهك عقله، إنما يتمرن ويتعلم أهم ما يجب تعلمه. اتركيه، على كل حال هو لن يسمع كلامك.

يفتعل الطفل الطاعة فيطفي النور. لن تكتشف الأم إلا بعد سنوات طويلة كم كان طفلها البريء مأكرا ككل “الأبرياء”، وهم من نجحوا، أحسن من غيرهم، في إخفاء ما بهم من مكر وخبث. كانت تظنه نائما وهو يواصل تحت البطانية القراءة بمصباح جيب كهربائي صغير كان يخبئه لمثل هذه الطوارئ.

تندلع المعركة في فضاء داخل ذهنه والطفل المخرج والمنتج والممثل المتصرف في السيناريو على هواه.

ينفخ رافانا على نار البراكين فأعدو ماء يطفى كل لهب. يرمني بالقصر فأرجمه بالشمس. يصرخ في أذني محاولا إرهابي، أصرخ فيه قاصطك فرائصه. ينطلق هاربا نحو النجوم فأسبقه إليها، أضيق عليه الخناق في كل مجزة. تكثر السماء عن أنيابها وقد توسطتها شمس

بلون القطران. تخرج من بطن السحلب خفافيش بحجم الفيلة تهاجم البطل من الخلف، فيصوب نحوها السهام القاتلة دون الالتفات حتى. يرّى في الفضاء البعيد صدَى موسيقى آلة نافخة موجودة في الكتب المصوّرة الناطقة بلغة مسيو فيدال. إنها فرقة خيالة الولايات المتحدة قد ضلّت طريقها وخرجت من قصص الهنود الحمر لتصل في الوقت المناسب لإنقاذ بطل يحارب بشجاعة قلّ نظيرها سحر شيطان هندي، لكنه هندي من الهنود الحقيقيين وليس من أولئك المكذوب عليهم بهذا الاسم.

آن الأوان لتصفية الحسابات وإغلاق هذا الملفت، فليس هناك رافانا واحد أطهر منه العالم الموبوء بكل أصناف الشياطين. أرفع ذراعي بالرمح السحري أصوّبه نحو قلبه ثم أرميه به بدقّة وقوة لا تترك ان إمكانية النجاة لجنّ أو أنس.

يصرخ اللعين: أه يا راما، قتلتنى لكنه شرف عظيم أن يكون الموت على يدك. يسقط الشيطان مضرجاً بدمه الأخضر. أضع رجلي على صدره ميتسما مديراً رأسي يمينا وشمالا أبحث عن المصوّرين ونظرات إعجاب البنات. أخرج رمحي من صدر الشيطان النافق بكثير من البطء المدروس، أرفعه نحو الأعلى، ثم أطلق صرخة النصر كما يفعل طرزان في قصص لمسيو فيدال. أووووووه ... أنا راما... أنا سيّد الأسياد!!!

بالمناسبة، ماذا عليه أن يفعل بالحبيبة وقد نجاها من الموت ومما هو أقطع من الموت؟ يا للطفل المسكين! لا يعرف، وهو في هذا العمر، أنه لم يقرأ إلا الجزء الجميل من الملحمة، وأنهم أخفوا عنه بقيتها المظلمة، لأن قصص الأدميين مصنوعة من تصانيف الحقائق، والباقي أحداث من الأحسن ألا تضع نفسك فيها وإلا صدمتك رائحتها التنتنة.

لم يكن الطفل واعيا تلك الليلة المشهودة أنه دخل لأول مرة فضاء خيال أمة بأكملها وُلد هو نفسه من فضاء خيال شاعر عبقرى اسمه فلميكي، أنه سيقضي جلّ رحلته يتجول في فضاءات خيال كم من شعوب وكم من أفراد فهموا أن هذا عالم جلّ واقعه خيال وجلّ خياله واقع.

*

يكشف الطفل يوما بؤابة ثانية غير الكتاب لولوج الفضاء السحري.

يتوجّه المعلم إلى أطفال الفصل وكلهم نكور في العشرة من العمر:

- يوم الأحد المقبل سنذهب جميعا لمشاهدة عرض خاص بكم. كونوا في الموعد أمام قاعة سينما اسمها " الشرقية".

ها هو يدفع بالمناكب لدخول أول قاعة مظلمة في حياته لا فكرة له عما يوجد داخلها. من أين لطفل في هذا العمر التنبؤ بما سيخرج ذلك اليوم من قبعة مهرج ضخم اسمه "العلام" لا ينفك يُظهر عضلاته ليزداد به الأدمي تعلّقا وإعجابا؟!

يسارع لاحتلال مقعد قريب من ستار أحمر يغطّي حائطا شاهقا تتجّه إليه الأنظار توجّه المصلّين للمحراب.

يذهل أمام انطفاء الأنوار تدريجيًا وغرق القاعة في الظلام. يتعالى صراخ للصبيّة، لا ينعف فيه صراخ المعلمين طلبًا بالهنوء والصمت.

أين متعة الفوضى والمشاجرات اللذيذة التي كانت تعجّ بها قاعات السينما في تلك العصور الغابرة؟ يوم فُرض الصمت فيها هجرها كبار الأطفال وصغارهم للصياح ملء حناجرهم في الملاعب والمقاهي وبيوت الأصدقاء.

يتحرّك الستار ولا يد واضحة تحرّكه، يواجه الطفل المشدوه بحائظ شاهق مُعطى من أقصاه إلى أقصاه بقطعة قماش أبيض. تأتيه أفكار مضطربة عن آدميين من لحم ودم سيخرجون من الحائظ لرواية قصة كالتّي يقرأ في الكتب.

يا لدهشته وهو يرى فجأة منظر لحقول وجبال تخرج من اللأشيء ثم لأدميين يثبون هم أيضا من العدم. من أين برزت هذه الغاريت، وهل للخيل أيضا أشباحها؟ يتعالى صياح التعجب. هل ثمة لذ من الصياح جماعة؟ يشارك الطفل في الفوضى المثيرة بالرقص فوق المقعد والصراخ، لأنه لا يفوت فرصة كهذه لينفّس عن كل الحيوية المكبوتة فيه ولأثها العدوى.

تتوقّف الصرخة فاجأه قلُّ مبهّم، هل سيثب الفرسان من الحائظ إلى وسط القاعة ليجد نفسه تحت سنابك الخيل؟ ترفع الفكرة ليا ذراعين يحمي بهما الرأس من الدهس. يعاوده الذهول وهو يرى الفرسان يمزّون أمامه، أو فوقه، وفي كل الأحوال بعيدا عنه، لا يثثرون غبارا ولا يجرحون أحدا. تأتيه الأوامر والثثلم بالجلوس حتّى يتمكّن الواقفون وراءه من مشاهدة المعجزة. من أين له الجلوس وهو لا يكاد يرى والأغبياء الذين أمامه يمنعونه من التركيز، وقد انتبه إلى أنّ ترابط الصور المتلاحقة يجعل منها قصة.

هو الآن منهمك في متابعة آدمي ترجّل عن ظهر الجواد مسرعا للاختباء خلف الصخور شاهرا قطعة من الحديد يتعرّف عليها كل الأطفال. يصل الصخب ذروته وهم يثثون الفارس المختبئ وراء الصخرة أن يجترز من عدوّ يأتيه من الخلف ومن أعداء يرفعون في وجهه رمحا وسواطير. ينطلق من فوهة المستسّ ضجيج مدوّ فيسقط الفرسان الواحد تلو الآخر. يكاد الطفل يشعر بالألم ارتطام الأجسام بالأرض الصلبة وبرعب الخيل وهي تحتضر. أي أهمية لألام بالوكالة؟ هو شعوف، متحمّس، جذلان، ومنغمس في الأحداث، جزء منها، وفاعل نشط يثبّه الطريدة لحيل الصياد والصيد لحيل الطريدة. كأّن غرائز قديمة قديم العالم تحرّكت داخل قطعان من الكواسر الصغيرة، أو كلّ راحة دم أتية من أعماق كلّ ذلت عقت في القاعة تنكر الأدميين بحلوة القتل. ها هم يقتلون مع القتل ويذودون عن حياتهم إلى آخر نفس مع المهثدين بالقتل.

لا شك أنّ "ما" لاحظت ذلك اليوم غرابية جديدة في طفلها. من أين لها أن تفهم سرّ مشيئة جديدة وهي لا ترى حصانا أبيض كل أول غنيمة له من الفضاء السحري؟ من أين لها أن تفهم سرّ بريق عينيه وهي لا تسمع صراخ فرسان في ركض و هلع يفرّون من كز طفل مغوار يُعمل في أعداء أبيه سلطوره ورمحه وسيفه المهثّد؟

تستولي على عقل الطفل أسئلة جديدة لا تقل غرابة عن التي يرهق بها نفسه ومن حوله: أين البشر والخبيل الذين رأهم على جدار القاعة المظلمة؟ من الغني، هو أم هذا الذي يقول إن الكائنات التي رآها بأَم عينيه مجرد صور محبوسة في علبة؟ كيف يمكن لصور أن توجد داخل علبة وأن تبرز على الحائط بمثل ذلك الحضور؟ لا بد من العودة إلى القاعة المظلمة للبحث في هذه القضية.

إيمان جديد يضاف لإيمان الكتب.

أي طريقة لإرضائه غير التكمم والخناخ، ف “م” مصرّة على التشدّد في رفضها لحصص السينما وكلها سوء ظنّ في مكان يعرض -على ما كانت تسمع- قصص نساء SAFARAT متبرّجات وعنف وقتل كل ما تكره، كل ما يحبّ.

يتواصل استكشاف الفضاء العجيب من البلب الجديد، والطفل يجهل أنه كالفضاء الحسّي، كفضاء الأفكار، زاخر بما لا يتصوّرهُ عقله، واللامية لا تكفّ عن نفع حدوده إلى أبعد فأبعد، واضعة فيه كلّ أحلامها وكواييسها.

يتهاشم الأطفال بلنّ القاعة المظلمة للمدينة الصغيرة تعرض هذا الأحد قصة عفريت اسمه “دراكو لا” يخرج من قبره عند منتصف الليل ولا يعود إليه إلا عند طلوع الفجر، بعد أن يتفكّد من لهم أعناق جميلة وشرابين فيها دم ساخن لذيق يحب كثيرا شربه.

يهرع الطفل إلى القاعة المظلمة مرّة أخرى متناسيا أنه كذب على أمه بخصوص المكان الذي سيقضي فيه الصبيحة، بل ومعه أخوه الصغير الذي أصبح أستاذا له في الإيمان على الأفلام والكتب والكتب على “م”.

يحتمل مقعده المفضل بالقرب من الشاشة طاردا من سبقه إليه ليفسح المكان لأخيه، غير مجال باحتجاج طفل أصغر منه أجبر على الانسحاب وهو يزفر من الغيظ. أخيرا، سيستطيع أن يقابل واحدا من هذه العفاريات التي كثيرا ما تأتيه في المنام. ربما يكون دراكو لا هذا هو “العبيبة” التي ما زالت الجدة تهتده بها رغم تقدمه في العمر وتزايد شكه في وجودها. لا بد من الاعتراف هنا أننا كائنات غريبة الأطوار نريد الشيء ونقيضه، نجري وراء ما نفتعل الهروب منه، والحدود بين ما نحب ونكره متحركة لا تخضع حركتها لمنطق أو قانون.

ينتهي العرض ويخرج الطفل مع أخيه من القاعة يفتعل اللامبالاة والاستهزاء بخوف بقية الأطفال.

المشكلة الآن ماذا سيقول ل “م” بخصوص أين كانا، وسبب ارتعاش الصغير، ورفضهما العنيد عند مجيء الليل الخلود إلى النوم رغم ما بهما من إرهاب واضح وضوح أنياب حمراء تقطر نما في فكّ كائن لا يراه إلا هما.

يحلّ الأخ الصغير مشكلته بالتسلّل إلى فراش “م”. لكن هل يعقل أن يلتجئ نائب رئيس العائلة إلى ذراعي الأمّ كما يفعل الصغار؟ يجب، انصياعا للأمر الأبوي الصارم التحلي بلشجاعة، أو على الأقلّ افتعلها.

لا مناص من الذهاب إلى الفراش وتنظيم وسائل الدفاع المتاحة. ثمة قراءة بالفاتحة. لكن دراكولا عفريت كافر أجنبي لا يخشى إله "مما" ولا يفهم لغتها، لذلك لا يمكن أن تشكل الفاتحة رادعا له.

هناك إمكانية رسم الصليب كما تفعل البطلة. خيالة إله الأبياء والأجداد والاستنجاد بخدمات إله أجنبي؟! ماذا ستقول "مما" لو اكتشفت الصليب على باب غرفة طفلها وأنه أصبح نصرانيا؟

لم يبق سوى حلّ الثوم لأنّ العفريت يخاف، لأسلب يعرفها هو وحده، من الثوم. أين تضع "مما" ثومها المنقذ؟ لكن ماذا لو دخلت المطبخ في قمة القلق والصحون تتساقط على الأرض؟ بماذا سيرد طفلها وهي تضبطه حافيا في الظلام ويأهه منغلقتان بقوة على فصّ من الثوم؟

يهمض الإرهاق جفنين أضناها أرق متوجّس. يستطيع العفريت الآن أن يتمطى في تابوته المبطّن بالدمقس الأحمر. يتحرّك غطاء القبر ببطء شديد. يستعيز القمر بالله، ترتجف الأشجار فرقا وتنبّرأ اليوم من التمرد على مشيئة رفضت دوما طلب الخلود للألمي. ينطلق الكائن من قبره باحثا عن عنق أملس تفتح فيه ثيابه شلالا من اللبن الأحمر الضروري لبقاء العفاريث.

اللجنة، لماذا يترك دراكولا أطفال قارته، وكلهم تحت ذمته، ليقصد طفلا من قارة أخرى لم يمسه بسوء وقتش عبثا في الظلام عن الثوم فلم يجده ومنعه كبرياء في غير مطه من رسم شارة الصليب على باب غرفته؟

القاعدة في هذه الحياة أنّ الخوف من خطر ليس دفعا له إنّما دله على أقصر طريق إليك وأتاك لا تهرب من شيء إلا ولحقك يوما.

هكذا وجد دراكولا منفذا إلى طفل يهيب صارخا والبول – لا الدم- قد أغرق الفراش. ما كان هذا الطفل عاجزا عن فهمه جملة الرسائل المتضاربة للأسطورة منها أن الألمي يرفض رفضا قاطعا مغادرة العالم وأهواله وأنه مقرّ العزم على العودة إليه يوم يطرد من وليمة الحياة غير مترجع أمام أي موبقة ولو كانت سرقة نصيب الآخرين من الحياة. ثمة أيضا تصور العالم كمغارة مظلمة نحن دخلها خفافيش تعيش على امتصاص دم بعضها البعض.

لكن ماذا لو كانت أسطورة دراكولا تذهب إلى أبعد من هذا وهي تقول بشرعية فتح القبور ليلا لاستئلال قلوب الموتى وقطع رؤوسهم لا خوفا من عودتهم لمصّ الدماء وإنما رحمة بهم وقد كفتهم مرة واحدة عقوبة الحياة.

*

شيئا فشيئا يكتشف الطفل قدرته على أن يخلّق داخله كل ما يريد من أفلام لا بطل فيها غيره.

ها هو يخلع نظارات لا حاجة له بها وقد أصبحت له عيون التسر. يرتدي قفازه مُحكما الخوذة الحديدية فوق رأسه متسلقا بسرعة سلم الطائرة النفاثة. يَأْتِيهِ الأمر من برج المراقبة بالإقلاع مع أطيب التمنيات بنجاح المهمة. تتركب الذات مطية الرعد والبرق. ينطلق البطل إلى أعالي السماء وسط دوي المحركات. وهناك على مشارف الحدود العليا للفضاء المعروف يواجه لمعان الشمس فلا يرف له جفن، وإلما الشمس هي التي تغض الطرف. يُخرج يده يلمس برفق قطعان السحاب المتدافعة بباركها ويتبرك بها.

- من طائرة الاستكشاف إلى قرط - حدث. منطقة الغرق تحت سحاب كثيف. لا أرى شيئا. سأعيد المرور من فوق المنطقة مرة ثانية. الآن أرى بوضوح الباخرة الشراعية وحزون متشبث بصواربها المكسورة. الأمواج بعلو الجبال، لكن الإنقاذ ممكن.

تستعيد الذات التي توشك على الغرق الأمل وهي تسمع دوي الآلة الطائرة فوقها. يشعر الطفل المتهور بأنه مرة أخرى، أنه ما زالت للرحلة بقية من الطريق. تنزل المظلة بمعذاتها فوق القارب بلاضبط فيتلقفها المغامر الفينيقي بشراة وكله امتنان لبعل ولدعوات "ما" وللطيار الهمام.

- من طائرة الاستكشاف إلى قرط حدث. النقط حنون المعذات وتم الاتصال به بواسطة الجهاز الموجود في صندوق الإغاثة. هو بخير ويشكركم.

- تهانينا بنجاح الملمورية. العودة حالا إلى القاعدة فهناك مهمة أخرى بانتظارك.

يخرج الطفل منتصرا كالعادة بركة الفضاء المبارك من بين كل الفضاءات، حيث لا مشكلة فيه إلا وتوفرت لحلها آلاف الحلول تنتقي منها ما يرضيك وما يشرفها رضاك.

يوصل الأدمي الصغير الضائع في شخصياته المتعددة التنقل من أمواج المحيط إلى أعالي السماء يفتح مجاهل البر والبحر. مرة يفقد يبد ثابتة غواصته تحت جليد المحيط. مرة يحط بصاروخه الصغير على كوكب مجهول. مرة يدخل فوهة البركان بثياب تلحسها النار ولا تقضمها. مرة ينزل أعرق المغارات يقبل الساحر والثور ويصل مظفرا صرة الأرض. مرة يقتحم الغابات الكثيفة بالحثا عن نبتة بتيمة يصنع منها الكسير الخلود.

على فكرة كم لنا من أنا؟ الأنا للمعروض للخناع أو للإبهار، الأنا المخفي عن الأنظار، الأنا الذي يعيش بعض قصته في فضاء الحواس، الأنا الذي يعيش أهم فصولها في فضاء الخيال، الأنا الذي يرحل ليلا يعيش في عالم الأحلام، الأنا الذي سيسكن فضاء ذاكرة الأحياء عند الموت. أليس من الأصح أن يكتب كل واحد منا من هنا فصاعدا أمام كل فعل نحن، ولنفس البعض هذا بجنون العظمة.

تمر السنين. شيئا فشيئا يتغير ما بداخل الجسم وتحضر مع التغيير أحلام المرحلة الجديدة من الرحلة.

تنتبث يوما للطفل بداية لحية وتتفجر داخله حيوية غريبة تعذبه بحاجيات مهمة. كفى من المعارك مع الشياطين وأشباح الخصوم من أطفال وكهول.

تهمس بغنج ودلال ذلت محبة محبوبة بدأت تتشكل من ملامح سينا وبنيت الجيران: الحب أجمل من الحرب.

يقهقه صنع الأحلام الخفي ومحقق كل الرغبات: عد إلى معاركك، أنت تستبقي الأحداث. يشعر المراهق بنار تلتهب داخل الجسم والروح. يواصل الصوت الساخر تهكمه: يا عبيط، لا تستعجل مشاكل لا قبيل لك بتصوّر متاعبها.

تُرفع حواجز الحياء والحر ج. تزداد الطلبات شططا، فالكنز لا ينضب والحارس لا يتوقف عن تشجيع اللصوص.

يهمس الصوت الساخر:

ليطمئن سيدي، كل ما يريد من الأربعة الكبار تحت الذمّة. بالكم والكيف الذي يأمر. الأربعة الكبار؟ كل ما تلحم به الأغلبية الساحقة من الأُميين: الجنس، المال، الشهرة والسلطة. ها قد انقلب فضاء الخيال إلى ماخور خمسة نجوم، على ذمّة زبونه الوحيد ألف ليلة وليلة ولا خوف فيه من قمل العانة وحرقة البول وفيروس السيدا.

تمرّ المراهقة لتدخل الرحلة مرحلة اسمها الشباب ومعه تشهد أحلام اليقظة تغييرا جذريا. يصدر الكتاب الأزرق في آخر طبعة مزينة ومنقحة وفيه كل الأجوبة على كل هولجس كل آدمي. يخرج به الشاب إلى أهل أورفليس بشيرا ونذيرا. ما يزال المسكين جاهلا بقئون أنه "لا نبي في قومه" وأنّ تسمير النبي على الخشبة هو المدخل الإجباري لعبادة كلماته يوما... هذا إذا كانت ورقته هي الرابحة في اليانصيب لأنّ السُوق زاخرة بالمنتقمين لأقدم المهائم، والنجاح فيها أصعب من المشي على الماء.

يُجبر السيناريو السرمدي نبيّنا المبتدئ على الهرب من المنيّة الفاسقة، خاصة بعد أن صدرت بطاقة تقيّش في حقه وأعدت له الخشبة والمسلمير وعُيّن الجلاذ الذي لا بد من المرور إجباريا بين يديه مرور العروس بين يدي الحلاق. يلقي البطل آخر نظرة على حيطان المدينة الشاهقة وهو ما يزال بين رغبة تدمير وكر الرذائل وبين إنقاذ الضلّين. يغيب المصطفى عن الأنظار ونواح خواربيه يررّ في الأذن. آخر فكرة تعبر ذهنه قبل أن يغيبوا كلهم عن الأنظر هي: أما كان عليه أن يترك لهم رقم حسابه الجاري لتحويل حقوق التأليف؟ لا فائدة والكتاب سيفشل تجاريا كالعادة، خاصة والمصطفى عاجز عن دفع مصاريف ملحق صحفّي برّوجه. يبقى الإنجيل الجديد قرونا في الأدراج المهملّة، وعلى طاولات المعارض للكتب البترّة، إلى أن يتعلم الخنزير اكتشاف الدرر التي نُثرت عليهم بكل كرم ولم يلتفتوا إليها. يخرج الكتاب الأزرق أخيرا من المطابع السريّة لحزب التمرد الأزلي. تتدافع جحافل المناضلين والمناضلات لتوزيعه ليلا على كعواخ المعذّبين في الأرض، غير عابئة بمن يسقط منهم في براثن البوليس السياسي. لا يلبث أن ينتشر في الأرض كلثُر في غابلات الصيف الحارق، فلا يطلع على القوم ثائر إلا والكتاب في يده، لا يدخل الرجل على امرأته إلا ويده على أقنس الكتاب، لا تفتتح المرأة فخذيتها للولادة إلا

وتتمتع ببعض عباراته، لا يأتي الصرع طفلاً إلا وسار عوا إليه بثمانم مأخوذة من جُملة المباركة.

وفي مثل هذه القصة التي تكررت على مرّ التاريخ في ألف إخراج، يكتشف الطغاة أنه من الأجدى تبيض الكتلب الأزرق بدل محاربتهم، فلا أسهل من تضليل النلس بكتاب فيه وعود. ها قد داهم خريف الحياة الأُمي المسكين فإذا بالذات المثخنة جراحاً تلبس شكل فارس طويل، نحيف، بالغ الكأبة يمتطي ظهر حصان عجوز أكثر منه نحافة وحزناً، ووراءه يركض على حمار سيئ المزاج أصلع بدين. تتأمل الذات الراكبة على الحمار بسخرية وعطف جزئها الراكب فوق حطام حصان.

- ضع حدًا لهذا التيه. أما أن الأوان للخروج من أحلام لا خير يُرجى منها إن لم تتحقّق ولا خير يرجى منها إن هي تحققت؟ عد إلى الواقع. يهزّ الشيخ الكئيب كتفيه:

- عن أيّ واقع تتحدث أيها الغبي؟ تريدني أن أخرج من حلمي الجميل لأسكن كوايس الأخرين؟

يا للرجل الحكيم. فهم أن هذيان الفرد وحده هو الذي يوصف بالجنون أما هذيان الجماعة فأساس كل الأساطير والديانات التي تحنى أمامها الهامات!

تلوح في الأفق جحافل الشياطين والجِنّ وعلى رأسها "العبيثة". تهمز الذات في شكلها النحيف حصانها، عاودها الجذل لمعركة جديدة مع هذيانها. إنها كتاب كبير الشياطين تنكرت في شكل قطعان غنم. إليهم يا سيّد فرسان الخيال. صوّب رمحك نحو قلوبهم، لا تأخذك بهم رحمة ولا شفقة. تصرخ الذات البدينة وهي تهمز الحمار بدورها:

- لأعلمنّ معك، يا سيّدي، عصاي فيهم وفيمن خلق هذا الكاوس المسمّى "الذنيا". يتنهّد الحمار الفيلسوف ويهزّ الحصان العجوز رأسه. يعودان إلى اجترار نكرياتهما عن عالم يركبان فيه عربية من القصب الأخضر، تجرّها حيوانات منتصبّة القامة لم يُعرف لها مثيل في القسوة والغباء وهي، لا غير، الشياطين التي تتخيل.

ألا يعني كل هذا أننا لا نعيش حياة واحدة في هذا العالم كما نعتقد أغلب الوقت وإنما 'حياتات' عدة: التي نقضيها على الضفة الأخرى لعالم البيضة، التي تقضيها في فضاء الحواس وأجمل 'حياتتنا' المتعددة التي نعيشها في فضاء الخيال.

*

السؤال الآن ما طبيعة هذا الفضاء الذي نقضي فيه جزءاً هلمّا من زمن الرحلة وهل هو مجرد مرفأٍ سحري نهرع إليه للاحتماء مما نلقى من آلام وواجع وخيبات أمل فيما نسماه الواقع؟

طبعاً. يا لها من كارثة لو لم يكن لنا هذا الفضاء نعوّض فيه حرماننا المتواصل الذي هو قدرنا في فضاء الحواس وحتى في فضاء الفكر. لذلك نستعجل دخوله استعجال التائه في الصحراء عند القرب من الواحة.

ثمة من يرفضون مفارقتة، أصابهم من رعب فضاء الحواس ما لا طاقة لهم بمواجهته ثانية.

هذا إن فضاء وظيفته الأولى رفع مؤقت لاحتقان نات تفضح فيه أعمق شهوراتها وتبلور فيه ما تريد أن تعترف أو لا تعترف به من طبيعتها. إنه فضاء يسمح لك براحة لا بد منها وكل المطلوب عدم الإدمان.

لكن وظيفة الفضاء الأهم لا علاقة لها بما يوفر من متع سحرية وبالمجان. إنها الوظيفة التي ينتبه لها كل طفل.

يقرر أنه يريد أن يربطه ناطقا.

- أريد أن أربطه ناطقا.

تستجيب القوة المجهولة فوراً:

- حاضر يا مولاي.

- أريد كلنا نصفه حصان ونصفه الآخر آدمي.

يقبّل العالم شفثيه وتلمح في عينيه ابتسامة مكررة.

- حاضر يا مولاي.

- لا، بل أريد كلنا نصفه حصان ونصفه الآخر آدمي وعلى جنبيه جناحان.

تنصاع القوة المجهولة كأن لا هم لها سوى تلبية رغبات الأطفال، تستقر فيهم عبر السهولة المشبوهة طمعا غير محدود.

ها هو الأدمي منكب على ناب فيل ينحته بقطعة حجر صلب مذهب وذلك على امتداد أيام واسابيع في كهف من كهوف ما قبل التاريخ ليستخرج من عله شكل كائن له رأس الأسد وجسم آدمي والفنان يضيف لكائنات العالم كائنات جديدة هو خالقه.

كم من فن آخر ترك العاج والأصباغ ليعمل على الأصوات يعيد تركيبها لتضيف للعالم كائنات صوتية لم توجد من قبل وتتأق في جمالها الأذن أصوات تدفق الماء في الجداول أو سقوط قطرات المطر على نافذة غرفة النوم... والمخيلة هي التي تقود دوماً أصابع الفنان! فضاء الخيال إن هو الورشة التي تختمر فيها أبيات الشاعر ولوحات الرسام وأنغام الموسيقى.

هو أيضا المختبر الأول الذي يتفحص فيه الذهن الأدمي بما يمتلك من طاقة التخيل كل الممكن للسيطرة على عالمه.

اعتبر كل الطفرة العلمية التكنولوجية التي تقلب حياتنا رأساً على عقب وقل لي أليست أحلامنا وكوابيسنا تحققت كلياً أو جزئياً؟

القاعدة أن كل الأحلام التي تتبلور في فضاء الخيال لا تتحقق لكن كل ما تحقق من أروع إنجازات البشر كان يوماً أحلاماً في هذا الفضاء.

حلم الادميون قرونا طويلة بشفاء كل الامراض، بالطيران في أعلى طبقات السماء أحسن من كل الطيور، بالغوص في أعماق البحار أحسن من كل الدلافين وحتى بالمشي على سطح القمر.

تبدأ محاولة ترجمة هذه الأحلام في فضاء الحواس بفترة طويلة والأداة الوحيدة السحر. ثم تأتي مرحلة التكنولوجيا لتحقيق اهداف السحر بوسائل العلم.

خاصية بالغة الأهمية للفضاء المبارك من بين كل فضاءات العالم: الحيوية المذهلة التي تجعلك تقف مشدوها أمام ورشة لا تتوقف فيها الأشغال أبدا بحثا محموما عن الجدة والطرافة والتنويع والابتكار في الديانات، في الأساطير، في الفنون، في الشعر وفي كل الميادين التي تلعب فيها المخيلة دور المحرك الرئيسي والتي تعطيها التكنولوجيا في هذا العصر امكانيات غير مسبوقه.

الخلاصة أنه إذا كانت مهمة الحواس الست رصد الأشكال والحالات التي يتخذها العالم، فإن وظيفة المخيلة تفكيك وإعادة تركيب هذه المعطيات كأن العالم خزان مواد أولية يعاد تصنيعها باستمرار ليكتسب حالات وأشكال جديدة وفق خيال الادميين لا وفق خيال الخالق الأعظم ولسان الحال يقول انظر ما الذي نقدر عليه نحن أيضا.

**

عالم مترامي الأطراف ومع هذا يواصل المرتحلون توسيع شجاعته.

في ملفت من أقدم ملفات الذاكرة معطيات - كما حدثت وكما أعاد الخيال تصنيفها - سيستعملها النص الآن لتقديم الفضاء الرابع المكون للعالم في النموذج الذي يحاول بلورته. يتوجه المعلم المرهق إلى القسم.

-والآن يا أطفال تمرين الصباح اشترى حسن برتقالتين بعشرين مليما للبرتقالة، ودفع مائة مليم للبائع. كم يجب أن يُرجع إليه البائع؟

يصرخ فيه طفل لن يتعلم أبدا منفع العَضن على اللسان سبع مرات قبل مخاطبة أي أنمي له سلطة ما:

- سيدي، هل البائع نزيه أم كلذي يسرق أمي؟

- ركز على التمرين...أريد رقما صحيحا لا أسئلة ركيكة.

ثم يأمر المعلم المرهق قطيع الأطفال الهانجين على الدوام:

- هيا يا أطفال، افتحوا الكراسى وانقلوا جدول الضرب الذي عليكم حفظه عن ظهر قلب. يعود الطفل إلى نفس الأغلاط مدفوعا بغيب فيه ما هو موروث وجله مُكتسب.

- سيدي، لماذا يجب أن تكون أربعة في اثنين ثمانية؟

- هكذا. لا جدال في جدول الضرب.

- لماذا هكذا، سيدي؟

- أتريد العودة إلى الركن؟ قلت لك لا جدال في جدول الضرب ولا في قواعد القسمة والطرح.

فعلا هذا عالم بحاجة لجدول ضرب ثابت لا يخضع لضغوط السياسة أو تقلبات سعر صرف الدينار.

تخيّل أنه جُنّ جنون جدول الضرب فجأة فأصبحت نتيجة 3x3 مرة 99 ومرة أخرى 999 ومرة ثالثة 3!

تصوّر تغيير ابسط القواعد التي تعلمناها في الثانوية مثل أن ضرب السالب في السالب نتيجه إيجابي لتصبح القاعدة أن ضرب السالب في السالب يؤدي مرة إلى صفر وأيام الأحد والعطل إلى سلبني مضاعف!

تصوّر أن الأرقام رفضت الاعتراف بقواعد القسمة والطرح!

تصوّر فيروسا لا يقهر حكم بالثمن النهائي على كل حواسيب الفضاء والأرض.

لو استولى كاتب من الخيال العلمي على هذه الفكرة وطورها إلى ابعاد نتائجها لوصف احتضار عالم استشرت فيه فرضى عارمة تشهد موت الناس داخل المصاعد واحتراق شبكات الكهرباء وهبوط الطائرات فوق الطرق السيلرة وخروج الأقمار الصناعية والصواريخ من مداراتها الطبيعية وتوقف المواصلات والاتصالات بين الأمم والعائلات

والأفراد. حدّث ولا تسئل عن انهيار البورصة وشلل جَلّ دوليب الإنتاج الصناعي والخدماتي وعودة الاقتصاد لما قبل العصور الحجرية وانفجار ما لا يحصى من الحروب تسقط فيها الصواريخ النووية على مطلقها.

الأرقام إذن بما لا يدع مجالاً للشك من اللبّات الأساسية للعالم الذي نعرف ومن أهم العوامل المتحكّمة في رحلتنا فيه.

هي التي تصف العالم أدقّ وصف، تحصى، تقيس، وتصنف جَلّ مظاهره.

هي التي ترصد له حدوده الحقيقية فلا ضوء يتحرك بأسرع من رقم معيّن ولا حرارة تنزل تحت رقم آخر ولا مجال لحياة تدوم أكثر من رقم ثالث... الخ

هي التي تصنع ملامحه فولاها لما حلّقت الطائرات في السماء ولما ارتحلت الصواريخ نحو القمر والمسابير نحو المريخ ولما انتصبت ناطحات السحاب على الأرض.

هي التي تمكّن الدول من إدارة مساحة الأرض التي تحكّمها بلجّاء سكانها وحساب ما يتكفّلون من خدمات وما يمكن اعتصمه منهم من ضرائب.

هي التي تحدّد للأشياء قيمتها في المتاجر والبشر قيمتهم عند البنوك.

هي التي تساهم في إعطائك هويتك أي مكانك داخل قفلة المرتحلين وأنت معرّف لدى الأمن والضمان الاجتماعي ومصلحة الضرائب وشركة المواصلات والبنوك بجملة من الأرقام لو ضاعت أو سرقت منك لوجدت نفسك في أصعب الأوضاع.

ها هي اليوم برهمنين لا أكثر تضيف للعالم الذي عرفه الآباء والأجداد فضاءً جديداً أصبحنا نقضي في استكشافه جزءاً متعاظماً من رحلتنا.

يصرخ الطفل على عادته في معلّمه.

- سيّدي، ما معنى صفر؟

- الصفر عدد يرمز إلى شيء لا وجود له.

- لا أفهم

- قلت لك كفت عني أسئلتك؟

بعضّ الطفل على قلّمه ثم يتجاسر بالسؤال الذي يؤرّقه.

- سيّدي، هل يمكن أن أضيف ما أريد من الأصفار إلى واحد!

- طبعاً، وفي كلّ مرة يرتفع العدد فيصبح عشرة ثمّ مئة، ثمّ ألف ثمّ عشرة آلاف، إلخ.

- سيّدي، سيّدي، ما اسم هذا العدد الذي ملأته به الصفحة؟

- ماذا تفعل؟ ما هذا العيث؟

- اضفت كما قلت لي صفراً بعد الصفر ثمّ صفراً آخر وآخر وآخر... سيّدي!! سيّدي!!

بوسعي أن أملاً الكراسية بأكملها بالأصفار!

- يا مجنون، اذهب إلى الركن ولا تتحرّك، أنت معاقب إلى نهاية الحصّة.

يقف الطفل مجتداً أمام صديقه الحميم: الحائظ. يدرس الشروخ والبقع التي على سطحه، في الوقت الذي يواصل فيه فكره متابعة سلسلة من الأصفر تخرج من الصفحة، من الكرّاس، تتسلّل إلى الشارع، تتسلق كل جدار يضعه في وجهها لتُنساب كلليل العرم مواصلة زحفها، ووراءها أصفر جديدة تخرج من العنم وتنفخ بالطابور دوماً إلى الأمام. إلى أين وإلى متى؟

يصاب بالدوار وهو يكتشف أنّ لا شيء قادر على إيقاف زحف الأصفر. هو يجهل وهو في هذا العمر أنه ارتطم باكراً بمعضلة اسمها “للانهائي” دَوَّخَتْ قبله كَمَا من عقول أطفال كبروا وكبرت معهم المشكلة. تُرى، هل جُنَّ “كانطور” من فرط البحث عن حلّ لها أم هل كان مجنوناً من الأصل ليحاول إدراك ما لا يُدرَك؟

ما كان يجهله الطفل ذلك اليوم - شأنه في هذا شأن كل المرتلين - عمق الثورة التي سيدبها في عالم الأدميين هذا الصفر رمز اللاشيء برفقة الواحد رمز الكمال وقد أصبحا الرقمان الأذاتان لبناء آخر فضاء لعالم يبدو أكثر من وقت مضى أنه مشروع متواصل البناء لا كياناً ثابتاً مهما بلغ من الاتساع والتعقيد!

*

تصوّر دهشة ابن فضلان وابن بطوطة وهما يكتشفان صحاري جديدة لم يعرفهما أحد من قبل . تصوّر دهشة كولومب ومجلان وهما يكتشفان محيطاً غير مرسم في كل ما عرفا من خرائط . تصوّر خاصة دهشة الأربعة وهم يشاهدون التمدد المتسارع في كل الاتجاهات للصحراء التي خرجت من لاشيء وللمحيط الذي برز من المجهول.

إنه ما نسميه الفضاء الاقتراضي. هو ليس جزءاً من فضاء الحواس حتى ولو كان بحاجة إلى أشياء محسوسة مثل الحواسيب ليوحد. هو ليس جزءاً من فضاء الأفكار رغم أنه يعج بالفكريات ولا هو امتداد لفضاء الخيال رغم أن الخيال من أهم أدواته.

هو فضاء تكتسب المرحلة فيه جملة من الخصائص تخلق مفهومنا وتجربتنا لها رأساً على عقب.

بخصوص "الأماكن" التي يعج بها والتي قد توّد السفر إليها، ننصح بعدم تضيق الوقت في محاولة الكشف عن أين يوجد "ياهو دوت كوم" أو "أكسيت دوت كوم". لن تجده على أي خريطة جغرافية. إن حاولت، كنت كمن يبحث عن جزر واق الواق في الفضاء الحسّي. خاصية هامة مرحب بها أن المشي على الطريق في هذا الفضاء هو دوماً بلا تعب. لا مجال لأن تعترضك المنغصت التي يواجهها مستكشفو الفضاء الحسّي مثل بعض المستنقعات الاستوائية ودببة القطب الشمالي وأسود الأحرش الإفريقية وضباب مطارات الدول الاستبدادية. لا خوف عليك أيضاً أن تُعترض طريقك سيارة افتراضية يقودها مخمور أو أن يخرج لك من إحدى المنعطفات شقيّ يصرخ فيك يطلب حافظة نقودك وإلا أخذ حياتك.

في هذا الفضاء الجديد يتغيّر أيضا بصفة جذرية مفهوم آخر نَبِّينا عليه بديهياتنا في التعامل مع العلم: الزمان.

ففي فضاء الحواس أنت بحاجة إلى شيء من الوقت لكي تتحوّل من مكان لآخر. أما في الفضاء الجديد فالأمر فيه كما لو كان بوسع ماجلان - وهو جالس في جوف باخرته بلشبونة - الانطلاق من البرتغال إلى جنوب القارة الأمريكية، والقفز منها فوق الغليبين حتى لا يُغتال في معركة تافهة مع المتوحشين - والتوقف في جوا وعدن للتبصّر ثم العودة إلى لشبونة... كل هذا في دقائق معدودات.

هذا لا يعني أنّ هذا الفضاء المضاف للفضاءات التي عرفها الأوائل خالي من المطبات والأخطار. هو أيضا - مثل الفضاء الحسي - سلحة حرب لا تتوقف في كل الميادين وعلى كل المستويات. كم من جزرات بخمسة نجوم يُعدّون في هذه اللحظة لأشكال جديدة من الحرب الحواسيبُ فيها بمثابة راجمات الصواريخ، والصواريخُ برامجٌ محمّلةٌ بكل أوامر خراب ودمار المصانع والمنشآت الحيوية!

الفضاء الجديد مجال يُوثّنه المرتطون بنفائاتهم. يُقال إنّ بعض المشرفين على تنظيفه أصيبوا بانهيار عصبي أمام فظاعة ما يتزاحم فيه، أمام بفونوغرافيا أطفال ورضع ومضجعة حيوانات ومراسيم عبادة شياطين والهة نموية وقرابين تُقدّم لها والنبح على الهواء مباشرة.

هو قملمة تُصبّ فيها مجاري صرف صحّي تقيض بنجاسات أرواح ملايين المختبئين في أوكارهم، تماما كما هو الحال في الفضاء الحسي، حيث يختلي كل واحد بمراحضه يتخلّص من نجاسات الجسد تاركاً لمجاري الإسمنت مهمة التخلّص منها بعيدا.

ينذرني الحاسوب أنه على وشك إطلاق آخر نفس، وأفهم أنني أتعرض لهجوم غادر جديد، ففي مكان ما من الفضاء الغريب أطلق مجهولٌ فيروسا طائشا أصلب منه مقتلا. هذه ليست المرة الأولى التي يحترق فيها قلب الجهاز، وساضطرّ لاسهر ليل وليل لإعادة صبّ المعلومات في ذاكرة جهاز جديد أو هذا الجهاز المسكين إذا أمكن إنقاذه مرة أخرى.

مَنْ هذا الذي يدمر بصفة نورية الجزء من الفضاء الذي اقتطعته لنفسه، والذي أستودع فيه ما أكتب عليّ أخطى رقابة الورق؟

لا مجال لأن أضع عليه آية صورة أو أي اسم على العدو الخفي.

هذا ما يقودني إلى الحديث عن الأدميين الذين يتحركون داخل الفضاء العجيب.

أنت تتعامل فيه مع كائنات لا وجه لها تتسمى بكم من اسم غريب، لا تستطيع أن تحدد لها مكانا كما لو كانت من جنس الأشباح والعفاريات التي يحفل بها فضاء الخيال.

من هذا الذي يدمر بصفة نورية الجزء من الفضاء الذي اقتطعته لنفسه والذي أستودع فيه ما أكتب عليّ أخطى رقابة البوليس السياسي. لا مجال لأن أضع عليه أي صورة أو أي اسم. نفس الشيء عن بقية الكائنات التي أصبحت جزءا من حياتي الاجتماعية وأنت لا تعرف من الصديق بينها ومن العدو. من يحاورني تحت اسم "إيفان المرعب"؟ هل هو

جار قريب أو مجهول موجود في أقصى طرف الفضاء الحسي؟ ماذا لو كان فعلا إيفان المرعب الذي عرفه التاريخ، وأنه اغتتم فرصة ظهور الفضاء وما يتيح من إمكانية السفر دون جسد ليستيقظ من قبره ويعود إلى مضايقة أعداء الاستبداد أمثالي؟ إن لم يكن إيفان المرعب إيفان المرعب فمن يكون؟ من القارئ المداوم والمثم وطرزان وأزدروبل؟ ثم لماذا اختل المقتنعون هذه الأسماء؟ أليضحكوا من أنفسهم أو للانتماء من الاسم الذي فرض عليهم؟ كل هذه الأسماء المستعارة لوجوه مجهولة تجعل من المستحيل، حتى على جدي البدوي الخبير بتقني آثار المختفين، اكتشاف من هؤلاء الذين يكتيونني ويشتمونني ويهدونني ويعلمونني بأنني رحبت يوميا المليارات، ويسرقون كتاباتي، ويملؤون موقعي بالفتاهلت لتدمير سمعتي.

ولولا أنني واحد من هذه الكائنات التي تتفاعل على شاشة الحواسيب، وأعرف حق المعرفة أنني آدمي بجسد وروح وفكر، لما أقتعني أحد أنه ثمة علاقة بين بشر اللحم والعظم وسكان هذا الفضاء.

ثمة إذن، للآدمي اليوم مستوى جديد من الوجود كان يجهله إلى حد الآن، يجعله يلبس ما يشاء من الأقنعة، يتخذ له أكثر من عنوان، يؤثر من أبعد نقطة في الفضاء الحسي، يدخل البيوت كالروح الهائمة، لا ينتبه لتطفله أو لسرقاته أحد، وربما يعيش ما لا يحصى من القصص الموازية.

الأغرب من هذا كله أن هذا الفضاء الجديد يشهد ظهور كائنات تقاسمنا بعض خصائصنا البشرية دون أن يمكن حسابها من جنسنا البشري وهي تستعد لتأخذ مكانها بيننا حتى ولو كنا لا نعرف ما المسلحة التي ستحتل.

لقد بدأت قصص الحب والغرام بين آدميين من لحم ودم وروبوتات جميلة. بل ثمة في بلد اسمه اليابان مراسم زواج بين الآدمي في نسخته القديمة والآدمي الافتراضي. كل التهاني وبالبنين والبنات حتى وإن كنا لا نعرف كيف سيكون هذا النسل الجديد.

سؤال لا أحبه كثيرًا: هل قطع كل هذا الشوط من الطريق لاكتشف وأنا في آخر مرحله أنني كنت مجردة رحالة بدائي خبيس جسد بدائي بجواس بدائية ولغة بدائية يتحرك مشيا على قدمين... وفتني سأعادر العالم وهو على وشك فتح بوابات على فضاءات ورحلات لا يتخيلها أخصب خيال لأتبع كتب الخيال العلمي.

أتخيل رحالة يتصفحون كتالوج زاهر بأجود الرحلات لأروع العوالم ووكالة الأسفار تحاول اغرائني بواحدة منها. لا شكرا والدليل على حكمة رفضي هذه المرأة التي تضرب بقوة على الجدار الشفاف للجهاز تصرخ أريد أن أخرج! أريد نهاية هذه الرحلة!

هل اكتشفت المسكينة التي سحبت لها طاولة القمار المرة الأولى رحلة أنني معاقة فقيرة سواد مديمة والتي اختارت هذه المرة في الكتالوج رحلة أميرة باهرة الجمال، أن العالم ورع متاعب الرحلة وملذاتها بأكثر عدلا مما كانت تتصور، أنه كلما زاد عطياها كلما دفع فيها أعلى الأثمان.

على كل حال هنيئنا للأخفاد تمتعهم بحريم من الروبوتات أو تجولهم داخل المجزّلت وشوارد الذرّات وهم مستلقون على ظهورهم في صناديق بلورية وخبوط غير مرئية مزروعة في أدمعتهم. نعم، هنيئنا لهم سهولة السفر وكثرة ما سيعيشون من أغرب القصص. لكن أيّ رحلة يمكن أن تضاهي التي تصنعها الصدف والمفاجئات؟ أيّ لذة يمكن أن تضاهي لذة المشي حقيقيا على العشب المبلل بقطر التّدى، أو على رمل الصحراء عندما يأتي المساء، أو في وجه الريح وزويعة الثلج؟ تقول ربما ستعطي البرامج التي سيصنعها المهندسون أحسن من هذه الأحاسيس والمشاعر. لينقروا ما طاب لهم من النقر، لما أنا ففضّل الأصل على صُوره، ولو كانت أحسن من الأصل.

الأصل؟ الصُور؟ وهل لهذا العالم أصلا أصل، أم أن له ما لا يحصى من الصُور والأصل نفسه واحدة منها!

**

أو كيف أن كل نموذج للعالم يطرح من المشاكل أكثر مما يحل

العالم إذن خلافا لما كان يتصوره الطفل ليس طبقا من الصلب وُضعت فوقه قبة السماء كما يوضع صحن أجوف من البلور الشفاف على طبق الطعام. يتضح أيضا أن لا الشمس مصنوعة من ذهب قرطي أمه ولا القمر من فضة خلخالها. يتبلور في الذهن تدريجيا تصور جديد لهذا الذي أفقنا فيه ونقضي فيه حياتنا ونغادره يوما دون أن تكون لدينا عنه إلا تصورات متضاربة يتبدلها المرتلون ولا أحد واثق تماما بما يسمع ولا بما يدعي.

لنصف لقائمة لن تعلق يوما هذا التصور.

أربع مكونات تشكل العالم : فضاء تصنعه الحواس الخمس وسميانه فضاء الحواس، فضاء تصنعه اللغة وسميانه فضاء الأفكار، فضاء تصنعه المخيلة وسميانه فضاء الخيال وفضاء تصنعه طاقة -أداة أخرى للذهن هي الحساب وسميانه الفضاء الافتراضي.

هذه الفضاءات الأربع ليست طوابق مستقلة كطوابق العمارات، الطابق الحسي هو الأول وفوقه طابق اللغة وفوقهما الطابق الخيالي وآخر طوابق البناء الطابق الافتراضي .

بطبيعة الحال هي منظومة أفعال وتفاعلات مترابطة لا توجد إلا ببعضها البعض . هي تصنع العالم على تباينها كما تصنع الألوان السبع لطيف قوس قزح النور الذي نعرفه واحدا .

المشكلة كثرة كل المشاكل التي يثيرها هذا النموذج

القول بأن العالم معطى حواس/فكر/خيال/ عقل/ الذات يعني أنه مخلوق من هذه الذات أي أنه ليس له أي وجود خارج هذه الذات التي تخلقه؟

صحيح أن عالمي سيرحل برحلي وسينتهي بنهايتي وأن العالم الأدمي ككل سينتهي يوم يطلق آخر الأدميين أنفاسه كما انقرض عالم الديناصورات بانقراض هذا الجنس من الأحياء.

لكن ألا يعني اختفاء العالم الأدمي نهائيا بموت آخر أدمي وجود شيء كان موجودا قبله اسمه الموت وهو الذي كان له القول الفصل في نهاية الملحمة الأدمية؟

ثم ، إذا كان العالم معطيات حواسي ولغتي وخيالي فلماذا لا أستطيع التحكم فيه كل التحكم؟ لماذا يقاوم ما أريد مثل الطيران بذراعي أو اختراق الجدران أو العيش قرونا؟ لماذا علي

اكتشاف القوانين التي تحركه حتى أستطيع استعمله ولو بعض الشيء؟

أليس هذا الدليل الساطع على وجود واقع مستقل أمانا به أم لم نؤمن؟

لسنا هنا إلا في بداية الصعوبات.

إذا قلنا إن العالم معطى حواس/فكر/خيال/ الذات فهذا يعني أنه موجود داخلها.

لكننا نعيش في هذا العالم كما لو كان أكبر حلوى يحتوي على كل الموجود من المحتويات كالمظاهر الطبيعية والحيوانات والنبات والأشياء والكائنات الأدمية مثلنا. ألا يعني هذا أنه موجود خارج هذه الذات؟

كيف يكون العالم موجودا داخل الذات وخارجها؟

كأننا نقول إن الذات مثل سمكة تسبح في أعماق محيط مترامي الأطراف متعلق على ما لا يحصى ولا يعدّ من الأسماك والأصداف والمرجان والحشائش... وفي نفس الوقت أن هذا المحيط موجود بكل ما يحتوي في جوف هذه السمكة !!!

ليس من الضروري أن نتجنّد لتصوّر دون آخر... كل المطلوب أمام تعقيد الواقع أن يبقى الفكر مفتوحا على كل الامكانيات.. قد تتطوّر أفكارنا بما ستخلق الأجيال القادمة من وسائل ثورية وما ستوفّر عليه من معطيات جديدة إلى تصورات للعالم أغرب من كل ما ندر على تخيّل حاليا.

عن مشكلة هل العالم واحد أو عدد لا متناهي.

الذات ليست مرآة تنعكس عليها الصورة الموضوعية للعالم وليست نوعا من الحاسوب الذي يستعرض أعدّ الخوارزميات ليفكر ويتخيّل. نحن أسلما كائنات حساسة تلعب المشاعر دورا محوريا في بلورة هذا العالم.

يا لروعته والذات رائقة المزاج حتى بغض النظر عما تلاقي من صعوبات ومشاكل ! يا للتحوّل عندما ينقلب مزاج الذات إلى النقيض لا يهّم أن تشاؤمها مبالغ فيه وشكواها بالغة الظلم !

عن أي عالم نتحدث إذن وهو يتخذ داخل نفس الذات حالتين على طرفي النقيض نثرة كأروع حالات الوجود وتلته أخرى كقظعها ؟

اعتبر الآن الفضاء الحسي الذي يرتحل فيه زيد. يمكن ألا يتجاوز قطره الاربعون كيلومتر انطلاقا من مكان الوصول. داخل هذه المسلحة التي يتحرك فيها الأغلبية الساحقة للأدميين، يولد المرء وينمو ويتزوج ويخلف ثم يموت لا فكرة واضحة لديه عما يوجد خارج حدود قاهره رسمتها له الضروريات والصدف لم يتجاسر على تخطيها نتيجة الخوف أو الكسل. هذا الآن الفضاء الحسي لعمر وقد مكّنه حسن الطالع من أن يذرع الأرض طولاً وعرضاً وحتى أن يطلع للمحطة الفضائية الدولية. بين هاتين الحالتين القصويتين تجد الطيف الهائل للحالات التي يتخذها الفضاء الحسي كما وكيفاً في رحلة هذا الأدمي أو ذاك.

شتان أيضا بين من يرتحل في عالم تتحكم فيه أفكار السحرة وبين الذي يرتحل في عالم النسبية العامة وميكانيكا الكم، بين الذي يرتحل في عالم دعاماته "فكر يات" العرق والوطن والأرض المقدسة والعدو الوراثي والبقاء للأقوى وبين الذي يرتحل في عالمه على "فكر يات" الديمقراطية وقوة الشرعية والعدالة الاجتماعية.

ألا يعني هذا أن العالم عوالم بعدد الذوات التي تبلوره ويتبلور فيها ولا نتحدث عن عوالم ما لا يحصى ولا يعد من الكائنات الحية التي تقاسمنا الفضاء الحسي... التي انقضت... التي سترى النور بعد ملايين السنين... التي قد توجد على كواكب أخرى في الفضاء اللامتناهي. أي إمكانية لمعرفة شيء كهذا وحتى ما جدية كل محاولة في هذا الاتجاه؟
وحده كائن كامل وأزلي كالذي تشير إليه أديان البشر تحت اسم الله قادر على إدراك كل هذه العوالم ونحن لسنا هذا الكائن.

المشكلة أن حتى هذا الكائن موجود كمصطلح من صنع اللغة وخصائصه كلها من صنع الخيال، لا أدل على ذلك من كمية الإيمان المطلوب أي التسليم المطلق بحقيقته تصوراته وكمية العنف الضرورية لفرضه على من ليس مقتنعا.
أخيرا وليس آخرا.

لبلورة تصورتنا للعالم رصدنا أربع مستويات مصنوعة من الحواس واللغة والخيال والحسب. بحثنا عن كيفية تجميعها لتتناسق بينها فتظهر الصورة المخفية التي نبحث عنها. لكن ما حظوظ النجاح إن فلتنا أهم عامل من عوامل تشكل هذا العالم؟
سواء كلنا داخلنا أو خارجنا أو داخلنا خارجنا، ثمة شرط أساسي لوجود أي فضاء: الوعي به وإلا كان وجوده والعدم سيات.

ما الذي نعني بالوعي؟ إنه الحالة التي نكون فيها ونحن نعرف أننا نعرف.
أنا واعي بلقصر لأنني أنظر إليه وأنا أعرف أنني أنظر إليه. أنا واعي بتفاعلي مع الآخر لأنني أعرف أن هذا الشخص غيري وأنتي بصدد التفاعل معه. أنا واعي بآلم الأسنان الذي ألم بي فجأة لأنني أعرف أن إشارات تأتيني من داخل الجسم وأعرف أن علي أن أأخذ موعدا قريبا مع طبيب الأسنان.

لكن حالة الوعي هذه متقطعة أو غير موجودة أصلا جل زمن الرحلة وفي المستويات الأربعة. ففي الفضاء الحسي جل أفعالي وتفاعلاتي مع العالم لا واعي: نمونجا عمل خلايا أعضائي التي لا أعرف كيف تشتغل.

نفس الشيء بخصوص اللغة التي أتعمل مع قواعدها آليا دون أن أكون نحويا أو أن أعرف كيف تشكلت اللغة ومتى وكيف ولدت وتطورت كبرى المفاهيم التي تتحكم في أفعالي وتفاعلاتي مع العالم.

عن أي وعي يمكن الحديث في علاقتنا بكبرى الميادين والآليات التي توجه حياتنا كالأساطير الدينية أو قوانين الاقتصاد أو خوارزميات النكاه الاصطناعي؟
ألا يعني هذا أنني مثل من يعتقد أن جبل الجليد هو الجزء الذي يراه طبقيا على سطح المحيط... بعبارة أخرى ألا يعني هذا أن جل العالم الموجود تحت سطح الوعي مثل جل جبل الجليد الموجود تحت سطح الماء... إلى الأبد مجهول.
كل هذا الجهد لمثل هذه النتيجة!

للتغلب على الإحباط وعدم السقوط في شكل أو آخر من الكآبة الميتافيزيقية، لا مخرج غير تغيير وجهة التفكير بصفة جذرية أي الكف عن التعامل مع العالم كلغز للفك واعتباره... مأدبة الله ونحن من كبار الضيوف.

**

الكتاب الثالث الطريق

قال أرجونا: إنني أتحرق شوقاً لرؤية وجهك المقدس،
إن كنت ترى ذلك ممكناً فأرني-يا إله الآلهة-ذاتك
الأزلية . فردّ كرثينا: تأملني-يا أرجون-في أشكال
القدسية، إنها بالمنات والألاف نوعا ولونا وشكلا،
تأملني في قوى الطبيعة، في النار، في الأرض، في
الرياح، في الشمس، في السحاب، في السماء، في
القمر، في النجوم وفي كل قوى الحيوية والتعافي.

من كتاب البهجة جيتا

مقدمة الكتاب الثالث

استمع إلى الشعر بأية لغة تعرف. لن تجد في أجمل قصائده إلا انتباها لغرابية العالم،
لجماله الأخاذ، لحيرة الأدمي وهو يتأمله يتقاسمه الانبهار والرعب.

”أحصد القمح (ناكاتسوكا)“

وفوق ظهري

كلّ السماء ”

من ينتبه غير لشاعر لمثل هذه العلاقة بين الذات والعالم؟

الرسّامون هم أيضا من كبار المنتبهين. موني مثلا، وهو يرسم للكاتدرائية العجوز نفس
الواجهة، مغيرا موقع المشاهدة، مترصدا تغير الطقس وتبدل اتجاه أشعة النور للعودة إلى
معالجة الأشكال والألوان ولا شكل يشبه شكلا ولا لون يشبه لونا في أي من اللوحات
الثماني والعشرين التي أمضى في رسمها سنوات طويلة.

أكبر ما يميّز الشاعر أو الفنان عن بقية الخلق أنه هو الأكثر حفاظا على انتباه الطفل.

كي لا تعبر العالم مثل المسائح اتائه في متحف اللوفر غير مهتم أو واعي بما تتغلق عليه
القاعات والأروقة من روائع، لا بدّ من تعيّد الانتباه لأنه الحالة اليتيمة التي تستنفر فيها
الذات كل وعيها لتكون حاضرة كليّا لدى العالم، لكي يكون العالم حاضرا لديها ولا حاجز
بينهما.

أن تكون منتبها يعني إنك عدت إلى الأحاسيس والمشاعر كما نقشها العالم لحظة انبثاقه في
الذات، أنك تفيق فيه للمرة الثانية.

فلما تنتبه للشمس تتجلبب الذات مع الظاهرة كأنها لم تعرف من قبل ما للشمس. لما تنتبه
إلى راحة الأرض بعد المطر أو راحة اليلسمين تضوعت بها أرجاء البيت، يخيل لك أنك
تشمها لأول مرّة.

أهمّ فضل وخاصة للانتباه تفرّغ الذات للحظة العابرة وللحظة العابرة وحدها وقد تخفّت
من هموم الماضي وطردت من وعيها كل مخاوف المستقبل.

ليس من باب الصدفة أن يسمّى مؤسس دين كبير ”بوذا“ أي المنتبه.

ليس من باب الصدفة أن يجعل هذا الدين الانتباه جزءا مكونا من ”الستوري“ وهو الهدف
الأسمي لكل من يعبرون العالم داخل رؤياه.

حتى يعود اليك انتباه الطفل والشاعر والرسم، اخرج إلى العاصفة مرفوع الوجه ممدود
اليدين والذراعين، كأنك أنت الذي دوت الطبول تدعوه إلى الترحيب بالرعد.

ارصد كل أحاسيسك ومشاعرك وأنت على أشدّ الوعي بما يجري حولك وداخلك.

افتح عينيك كما لم تفتحهما يوما لتتأمل عبر ومضات البرق الخاطفة ما تتخذة جبال السحب
السود من غريب الأشكال.

لا تغفل عن متابعة تشكّل نهر من نور يقسم فجأة سقف السماء إلى قسمين. إنها المرة الوحيدة التي سترى فيها سمايين، واحدة على يسار البرق وأخرى على يمينه، ولا قنطرة فوق شرخ النور.

اخرج لسانك ليلتقط نصيبه من مطر يتسلل بين الثياب والجلد. تابع وقع قطراته تتدافع على طول الظهر تبعث فيك موجات الّدق شعريرة. أنت الآن المطر المتسقط من السماء، والبسيطة تفتح أمامك مسام جسدها. ادخل أغوارها المظلمة العطشى وهناك في أعرق أعماقها، أيقظ داخلك وداخلها كل البراعم. لم يبق إلا رصد كيف تتسلل من بين الروابي السود أشعة الضياء وكيف تعود السماء إلى صمتها على استحياء كأنّ الزعيق الذي ملئت به الأجواء فلجأها هي الغارقة دوما في صمتها المتعالي. ركّز الآن على الطيور وكيف تخرج فجأة من مخالب لا يعرفها أحد. انظر كيف يرتفع قوس من الألوان المبهرة بلا أعمدة، يمشي تحته الأدمي مظفرا منصورا والطبيعة هي التي تهلك له وتزغرد وكيف يخفي تدريجيا كلّ اليد التي رسمته قررت محوه من سبورة السماء لا تريده لسبب مجهول علما ثابتا كالشمس والقمر. على الطرف النقيض التبدل.

إنها الحالة التي تجزئها الذات لطفأت داخلها أمام خوارق العالم ومعجزاته الأحاسيس البكر، زال التهيّب وتبخّر التعجب والإعجاب.
"كل نفس ذائقة الموت (جلال الدين الرومي)
إلا أن الحياة لا تتنوقها كل الأنفس"

نوريا أشعر بأن التبدل أصبح كبعض الهولجس مزمنًا. لا بدّ من العودة إلى بعض تمارين التخلص منه والتي أحرص عليها حرصي على التخلص من زائد الشحم بالجهد والمشى. على مقعد عمومي ها أنا أتأمل أشجار غابة عبرتها كم من مرة لكنني لم "أرها" أبدا لأننا لا "نرى" إلا عندما نركّز على ما ننظر إليه لا يشغل بلنا شاغل. يتسمّر البصر على ورقة انفصلت لتوها عن غصن شجرة البلوط. يتابعها وهي تنتهوى ببطء شديد كأنها تقاوم عبثا مصيرا لم يعد منه مقرّ. ترى كيف هي سكرات الموت عند أوراق لشجر؟

الورقة معلقة في الهواء كأنّ خشية الارتطام الموجع بالأرض التي ستكون لها قبرا زاد من مقاومتها للمصير المحتوم. تنفخ عليها الريح بقوة وكأنه ضاق ذرعا بما تأتيه من عبث فإذا بها تلف وتدور وسط أوراق صفراء أخرى تتدافع كالعصافير أطلق عليها الصياد وأبل الرصاص. هي لا تتسلق الفضاء لتختفي بين السحب إلا في خيالي. شيئا فشيئا تجد طريقها إليّ كأنها أدركت مشاعري فجاءتني تحتمي أو تشكر أو تودّع. تحطّ بهدوء على حذائي فأخذها بمنتهى الرفة كأنني أخشى عليها من اللمس.

ما زالت صفرتها مشوبة ببقايا من الأحمرار، كالجسم الشلحلب ما زالت تنبض فيه بعض بقايا الحياة. أضعتها في جيبي ثم أغيتّر الرأي. مكانها على الأرض مع الأوراق المتغفنة

السوداء التي فقدت قلبها وقيلنا معركة البقاء. قد يكون عزاؤها وعزائي أن العالم سيغرف منها مثلما سيغرف مني ما يحتاج لدورة جديدة من الخلق طبقا لقاعدة لا تعرف استثناء: قدر الحياة التغذي بالموت وقدر الموت التغذي بالحياة.

أن تكون منتبها يعني أيضا أنك تعي فجأة بما وراء المألوف من أسرار تتغلّق على أحاجي تسكن العازا تحير أكبر العقول.

مما يقال هذه الأيام أن أوراق هذه الأشجار الصامتة لا تكف عن تبادل الأخبار وأن جذورها لا تتوقف عن تبادل العون. من أين لي حتى ولو شحذت أقصى ما لدي من انتباه سماع تفاوض الجذور والفطريات حول أحسن السبل لاستغلال الثرى في صالح الطرفين.

أه، ماذا عن زرققة هذا العصفور المختبئ داخل أشجار لا يرصده البصر.... هذه الزرققة اللطيفة التي يتغنى بها الشعراء والعشاق؟ هل هي حقا دعوة الانثى للجماع أو تهديد للذكر الآخر بأن يبقى خارج حدود فضائه والويل له إن تخطاها؟

تسعني بعوضة فأمنع يدي من ردّ الاعتداء والذهن مشغول بتخيل الكائنات الحية البالغة للصغر التي تختبئ تحت قدمي. ففي هذه السنثيمترات القليلة التي تدوس عليها قدمي أجناس لا تحصى ولا تعدّ، منها التي ترى بالعين المجردة ومنها التي تحتاج لعندسة مكبرة. كلها انتبارى غرابة وتباينا وتعقيدا. كلها في حرب لا تتوقف وكل من يتحرك تحت الأوراق الميتة أكل وماكول، طريدة وصياد... كما هو الحال في المستويات المرئية من العالم.

عند انحسار التبلد وحضور أقصى الانتباه يتضح لك فجأة أن أهم شيء في هذا العالم موجود وراء ما يرصده البصر وأن هذا المجهول صندوق أسود من الغرائب والعجائب يمكنك أن تقضي العمر في البحث فيها ولا تستنفدها أبدا.

أفتح العينين أسارع بالعودة للمألوف المطمئن منتبها لكوني أتجنى أكثر من اللازم على التبلد الذي أدعي أنه أخشى ما يجب أن يخشاه كل مرتحل.

أنت لا تنخر عضلة لتتقيض المرة ثلو الأخرى لا تترك لها وقتا كافيا للارتخاء إلا وأنت لحظة تضرب فيها العضلة عن الردّ احتجاجا على كثرة الوخز.

ألبيست حذّة الأحاسيس والمشاعر وكثرة المعلومات منهكة للروح والجسد؟ نحن لانستطيع البقاء طوال الرحلة فاغرين أفواهنا دهشة أمام مظاهر العالم في حالة أشبه ما تكون بالتعبّد. محكوم على الرحلة إنن أن يكون لها بيض كبيض القلب: انتباه فتيلد فانتباه فتيلد وذلك إلى نهلية الطريق.

لا يبق لنا في هذه الحالة غير إعادة صياغة دعاء فاتحة الحياة: يا من تتوجه له كل الصلوات، اجعلنا منتبهين للتمتع بكل ما توفره لنا من روائع إن لم يكن كل زمن الرحلة فعلى الأقل أغلبه.

**

عندما يضع العالم كل ما لديه من حلي وحلل لاستقبال ضيوفه الكرام

من منا لم يعد أكثر من مرة لتفحص ألبوم الصور العائلية مسترجعا نكريلت ماض ملتبس.
المطروح أمامي والنص في بداياته أكثر من هذا . إنه استعراض ألبوم ما بقي منقوشا في
الذاكرة عن أهم معالم العالم التي قادني إليها الطريق والانتباه في أوجه.
في أقدم الملفات تسأل "مما" ابنها ألا يبخل عليها بالتفاصيل و"با" بنفسه من تكلف بمراسيم
تقديمه إلى البحر.

فتح الطفل ذراعيه عله يبلغ كم هو عريض هذا البحر، كم هو متسع، كم هو ملان بالماء
فسقطت الزراعان والعجز هو الشعور الغالب.

من أين له الكلمات لوصف سهول بلون السماء مترامية الأطراف لا يحدها سوى الأفق؟
كيف يصف هيبية دوي البحر وأمواجه بين مذ وجزر؟ كيف يقنع الأم أنه رأى بأه عينيه
سقوط الشمس شيئا فشيئا بين أحضانها ثم اختانها فيه!
كم يكره أن تظنه "مما" مبالغاً أو كذاباً!

تلك الليلة أب الطفل إلى مخدعه يتساءل هل سيلفظ البحر الشمس مجددا أم هل سيجتفظ بها
نهائيا فتعذر كل أيامه ليال بأشباح وكوابيين.

من الغد تواجبه أمه بربع ابتسامتها العادية وهو يؤكد لها، أنه اكتشف أين تذهب لشمس
عند المغيب ولماذا تبدو لامعة نظيفة كل صباح.

تتمم القناعة عنده بلا جدوى الكلام عندما يتعلق الأمر بالبحر.

يتجدد اللقاء بين العاشق والمعشوق والطفل يكتشف لذة العوم في موج هادئ أيام الصيف
وكم رائع أن يحرك جسده وسط المياه الشفافة في الاتجاه الذي يريد كما لو كن هو الآخر
سمكة جاهلا أن الأسماك خلفا للبشر لا تموت غرقا.

ذلك الصباح المشووم والعطلة الصيفية في آخر أيامها يغافل الطفل المتهور أمه مصرا
على مواصلة التمتع إلى آخر لحظة بالبحر رغم رداءة الطقس وخلو الشاطئ من رفاق
اللعب.

يلقي الطفل بجسده النحيل وسط أمواج صلخبة قليلة الرفق على غير ما تعود.

ما هي إلا دقائق معدودات إلا وهو يشعر أنه لم يعد يقوى على إبقاء راسه فوق السطح، أنه
يختنق بالماء المالح، أن البحر بصدد لبتلاعه.

يتعالى منه الصراخ النجدة! النجدة!

تلك اليوم شاء حسن طالعه وجود رجل يجيد السباحة في المكان الضروري واللحظة
الواجبة انتشلته من أشدق البحر يرتجف بردا وخوفا ويسعل كما لم ولن يسعل فيما بقي له
من العمر.

هكذا تواصلت القصة التي اكتب وكان بوسعها أن تنتهي بخير في بعض الصحف الشعبية من نوع "عَرَ قَ طفل في التاسعة في شاطئ حمام الأثف، أمه تغلق باب البيت على نفسها منذ أيام ترفض تسليم جثة ابنها للدفن".

كم من قصص انتهت عند أولى صفحات كتاب واعد... وأخرى عند أولى الجمل... وبعضها انتهت أوراها بيضاء والكاتب مات قبل أن لم يخط عليها حرفا واحدا. منذ ذلك اليوم وفربيا البحر سلكنة في وعي ولا وعي الطفل والكهل والقرار مأخوذ أنه لا عودة أبدا للبعبع المخيف لا سباحة ولا سياحة.

حقاً! ما أكثر الوعود التي نأخذ وما أقل التي نلتزم بها. خاصية أساسية للعالم أليس قناع البحار أو الجبال أو الصحاري أو القطبين أو الفضاء اللامتناهي: إغراء الذي لا يقاوم. هكذا تسارع الأدميون إلى أخطر حالاته وأشكاله يرتمون في أحضانه جاهلين أو متجاهلين أن ضمة الحبيب مثل جماع انثى حشرة يسمونها فرس النبي والمعشوقة تلتهم رأس عاشقها جامعة بين لذة الأكل ومتعة الجنس.

أخيرا عرض المحيط غلب شوقي إلى أروع مظاهر العالم أعمق المخاوف. يحدثك الأقارب بتَهَيِّبٍ وُجَلٍ عن عواصف بحر كانت تذهب لها الطفلة، "ما؟ مع جدتي لغسل الصوف. أي رعب مَقْتَسٍ كان سيذا همهم لو وجدوا أنفسهم فجأة وسط هذا المحيط الذين يسمونه لسبب عجيب... بالهادئ!

تبدأ السفينة الصغيرة تسلك جبال سائلة لتسقط في وديان بلا قاع ذلك لأن الخاصية المميزة للطريق في عرض البحر أنه لا يكف عن الصعود والهبوط.

لئن لا يقدر أهمية هذه الملاحظة الثاقبة ما عليه إلا تصوّر حالته وهو يمشي والإسفلت يتمايل به يمينا ويسارا، يغور به فجأة نحو أول حفرة ثم يغير رأيه ليصعد بمحاذاة الطريق الرابع لأول عمارة تعترضه ليعود به العين إلى مستوى الأرض المنبسطة مواصلا مساره كأن شيئا لم يكن وبراءة القرش في عينيه. النتيجة أنك ستنزل منه أمام بيتك تترنح فيصْفُك الجيران بعريبيد وضح النهار.

هل تقدر كم أنت محظوظ والطريق ثابت على اليابسة، وإلا عبرت العالم ضحية دوار البز والبحر وهذا أكثر مما يمكن أن يتحملة أي مسافر.

يتسارع الطلوع والهبوط وتتسارع إلى الذهن المتزايد قلما أن قاع البحار لم يتوقف منذ آلاف السنين عن استقبال حطام ما لا يحصى ولا يعد من سفن الأدميين... وأنه مستعد لإيواء حطام آخر ليس له مشكلة اكتظاظ.

يحتد الدوار والغثيان. تتحرك السوائل المشبوهة تريد التقجر من الفم فيناكريها. أية قيمة لسترة النجاة التي البسوني إياها إن قلبت الأمواج العاتية هذه السفينة السياحية الصغيرة رأسا على عقب؟

تتصاعد من أعماق الذاكرة أحاسيس ومشاعر الطفل الموشك على الموت غرقا وكأن الحادثة وقعت البارحة.

اللجنة، ما الذي أتى بي إلى مثل هذا المكان المرعب وأي معنى لوجود بدوي في عرض المحيط؟

لله ذرّ فرسان الريح والموج الذين ركبوا ظهر هذا الحصان الجامح الأجيال وراء الأجيال لا يثيهم كم من مرة ألقى بهم في غياهب البئرِ حقا إن شجاعتهم لأترب من التهؤور أو الجنون! لم تكفهم أهوال البئر ليخرجوا لمنازلة أهوال هذا اليبع المخبف، وحتى لمواصله حروبهم على سطحه وفي أعماقه؟

أن يخرج حائون من ثبات قرطاج إلى حراك البحر مزة واحدة أمر قد يكون مفهوما. أن يعود إليه مزة ثانية فأمر فوق كل تفسير. يا للمجنون أو يا للممنن! نسي غرق الرفيق وقد خطفته العاصفة من الزورق ترمي به إلى البحر قربنا. نسي الجوع والرعب والعطش. مُجّي من ذكرته كل ما عانى، عائدا للغول بل وبمحض إرادته! لو كنت مكانه لأدريت ظهري للموج والزيد من أول تجربة، و لركضت إلى أبعد نقطة، أحتمي من البحر بالجمال وبالبراري.

عاد إليه حانون كما عادوا كلهم، ربما لأنه لا رحلة على الأرض تساوِي روعة السفر على صهوة الجواد الجامح... ربما عاد لأنه لم يزّ أجمل من غروب الشمس إلا وهي على خط الأفق بين زرقة السماء وزرقة البحر، أنه لم يعرف زوعة أروع من سطح البحر ليلا عندما يوشحه طلوع القمر بنهر من النور.

نعم فضل البحر على البشر لا مثيل له وهو يثير فيهم أكثر الأحاسيس والمشاعر حدة وعمقا ورهافة وتوعا وهو يستنفر فيهم أقصى طاقات التحمل والصبر وهم يواجهون التحديات التي يختبرهم بها يشدّ كل ما في جعبتهم من مهارات، من ذكاء، من فضول لا يقاوم ومن جرأة لا تتراجع أمام كل ما في جعبة هذا العالم من مهالك وأخطار. الملاعين المحظوظين، عرفوا أروع وأخطر وجه العالم... اخترقوا البحار والمحيطات لا خارطة ولا بوصلة، عرضا وطولا على مراكب بدائية ولم يتركوا لي إلا هذه الباخرة السياحية المجهزة بكل وسائل الراحة.

كأنني بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة تبيّت عبر الزمان شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبلادنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في هذه الصحاري السائلة لا نعرف لها بداية أو نهاية، نكاد نهلك فيها هلعاً وجوعاً وعطشاً، وخذ ما سُتت من انبهارنا البكر.

فجأة تصرخ امرأة: انظر هناك الحوت، الحوت، ما أضخم ذيله! إنه يضرب به على السطح تماما كما في الأفلام! هل رأيته؟ هل رأيته؟

أه، الحوت الذي ركبتُ هذه السفينة الصغيرة على أظفر منه بنظرة هو الذي يسكن جزءا كبيرا من فضاء خيالي منذ قرأت له رحلته في هذا العالم تحت اسم موبيديك.

أرفع رأسي بحذر من فوق الطولولة، أخرج من بين ذراعين أغلقنا عليه بكل حرص خوفا من أن يكون للسماء أيضا صعودٌ وهبوط.

تعود المرأة إلى الصُّراخ الحوت! الحوت! يا إلهي، قطع كمل من الحيتان!
كُفّي عن الزعيق لوجه هرمان ملقيل. نعم، لقد رأيت الذيل الجبار في خيالي بعد أن أفرغْتُ
كل ما في معدتي على فستان عجوز أخرى أشبعتني نظرت ساحطة.

تائب يا نبتون، رحماك توقّف. النجدة يا صحراء. تخلي لدى سميك السائل!
ليس من الصعب القول بأن البحر هو أيضا صحراء، لكن من الماء لا من الرمل ويدؤه
الدلافين والسلاحف وكل أجناس السمك والحوت. هم أيضا يرحلون بحثاً عن ولحات مبعثرة
في كل هذه التساعاة المرعبة يجدون فيها الكلاً والمرعى وجماعاً يُجدد الحياة ما يقال
أيضا إن هذه الواحات حداثق غناء تلجم بجمالها كل لسان، إن كانتات تتبارى في الغرابة
والإعجاز تتدافع فيها لا قدرة لأحد على رصد ثرائها بالأشكال والألوان... أو ما تعيش من
أحداث وما تتبادل بينها من أخبار نثرا وشعرا.

ألم تسجل الميكروفونات المزروعة في أعماق المحيط لتصيد غواصات العدو وجود سجع
في ترثرة بني موبيديك؟ ربما يوجد بين هاواي وألاسكا شاعر فحل طبقت شهرته أرجاء
المحيط الهادي بسمونه "أبو الطيب الحوتي"؟

ومما عاد به الرحالة الذين استكشفوا البحار على السطح وفي الأعماق التي وصلوها، إن
الصراع من أجل البقاء هو نفسه الذي تعرفه السماء والأرض. قرب السطح ملايين الكائنات
الصغيرة يزرد بعضها البعض لتبتلعها أفواه صغار الأسماك.

تحت هذا الطابق الأسماك الأكبر التي تبتلعها، لئبتلعها في طابق أعمق الأخطبوط العملاق.
وفي الفضاء الذي لا يلحقه النور يجد هذا الكائن نفسه بين فكي الحوت الخرافي لا يطلع
هذا الأخير إلى السطح ليتنفس إلا والصيد الأدمي على أهبة الاستعداد لتمزيقه إزبا إربا.
جميل، لكن ما يهمني أنني أنا الطريدة والبحر الصيد على وشك أن يعمل في أنيابه
وأظفره السائلة.

أليست هذه السفره أحسن رمز لرحلة الحياة بما هي مغامرة طقشة على أمواج هانجة، لا
تفصلنا عن أعماق الكارثة الفاتحة أشدأقها لالتهامنا كل لحظة غير قشة طافية نركبها ونحن
لا نتوقف عن التخاصم فوقها ننتقياً على بعضنا البعض؟

أخيرا المرفأ.

لا تصدق أبدا من يتشكقون "أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن" فالرياح تجري أيضا
بما تشتهي السفن وإلا كيف كنا نرتحل في عالم بنينا على ضفاف بحاره كم من موانئ
نغادرها ونعود إليها بيننا وبين أشداق الموت سنتمترات من الخشب أو الصلب!

المهم انتهاء هذه السفره اللعينة التي دفعت فيها ثمنا باهظا لأقضي يوما من أثقل وأغبي ما
عرفت من الأيام. أخرج من السفينة لصغيرة أمشي على الرصيف وكأني خارج لتوي
من الحانات التي يتهمني أغبي خصومي زورا وبهتانا أنني من روادها بل حتى من سكنيتها.
أدير الظهر للبحر وقد أخذ القرار.

نعم إن أعود له ما حبيب. لكن ما أكثر القرارات التي نأخذها وتكفل الحياة بالسخرية منها.

ها أنا مجددا بعد عقود في جوف سفينة صغيرة أقاوم نفس الدوار والغثيان والبحر الهائج يعيث بالسفينة عيث القطب بالفأر قبل التهامه. هذه المرة السفرة ليست سياحة بريئة وإنما مغامرة قد لا تحمد عقباها والحرب برآ وبحرا على قدم وساق.

والليل في آخر ساعاته يتعالى الصراخ من البحارة لسويديين وهم يقاومون بأيديهم العارية وحدات عسكرية مدججة بالسلح هاجمت السفينة واستولت عليها في عملية مسرحية خاطفة كالتى لا تراها إلا في الأفلام الرديئة.

مرة أخرى الطريدة والبحر الصياد على وشك أن يعمل في أنيابه وأظفره. أي قيمة لسترة النجاة التي البسوني إياها إن قلبت الأمواج العاتية السفينة الصغيرة فما بالك أن يطلق عليّ وأبل من الرصاص كما حدث لبعض من سبقوني في مثل هذه المغامرة؟ أليس صحيحا أن ما نهرب منه طوال حياتنا لا بد أن يلحقنا يوما ما؟

تتصاعد من أعماق الذاكرة أحاسيس ومشاعر الطفل الموشك على الموت غرقا وكأنّ الحادثة وقعت البارحة.

فجأة ينكب عليّ رجل ملثم يحمل مدفعا رشاشا ليقول سيدي، لا نريد بك شرا ولو أحببنا لسلمناك للبحرية المصرية التي تنتظر على بعد ميل واحد أن نهديك إياها. سنجرّ السفينة إلى أقرب ميناء ثم نرخلك إلى حيث تريد.

على متن الطائرة التي وضعتني فيها عنة أحقق طويلا من النفذة في قوافل السحب متمتعا بشعور الأمان والوحش الرقيق تحتي بما لا يقل عن عشرة آلاف متر. التفت للراكب الجالس بحزوي لاأؤكد أنه مشغول بهاتفه النقال ثم أخرج لساني للبحر ولسان الحال يقول أفلت من برائك للمرة الثالثة، لا تعول على فرصة أخرى لست مثل المجانين الذين يجون استقرازاك المرة الواحدة بعد الألف ولا يتوبون.

من قال إنني سأفي بنفس الوعد الذي قطعته على نفسي أكثر من مرة والبحر معلم من أروع معالم هذا العالم؟

نعم سأواصل استكشافه لكن على طريقي الخاصة. من قرّر أن على الأدمي شقّ الطريق على سطحه؟ أليس من الأسلم المشي على الحواشي؟ أليس هذا ما فعله الأوائل حين تطلقوا هائمين على وجوههم آلاف السنين يتبعون الشاطئ لا يجيدون عنه إلا اضطرابا، ياكلون من ثمار البحر ويشربون من أقرب العيون؟

نهجا على سنة أولنا كرم الله وجوههم وتيمنا بسيرتهم المباركة وانتقاعا بحكمتهم وحنكتهم فإنني سأواصل استكشاف البحر لكن مشيا على رمل شواطئه.

لئسمح لي بملاحظة تهّم كل المرتحلين فاتني التركيز عليها وهي أنه لا أصلح لاستكشاف هذا العلم من المشي.

من مزايه الكثيره أنه مجاني وتحت الطلب في أي وقت نشاء، وأنه فرصة للاختلاء بالذات. لا أتذكر أن فكرة هامة أنتني إلا وأنا لمشي، ولا أن الفوضى التي بدخلي اكتسبت بعض النظام إلا إبان المشي.

ومن محاسن المشي مع الآخرين، أنه يلغي المواجهة بكل أخطارها لصالح “المجانبة” وهي أقل إثارة للعدوانية، الغريزية عند البشر. الأهم من هذا كله أنه يعطي للذات المنتبهة لوقت الضروري لرصد بعض ما يحفل به الطريق من عجائب وغرائب. كم كان أو أثلنا محظوظين والعالم يكشف لهم روائعه خطوة بعد خطوة، وهم كمن يتذوقون أفخم مأكبية، اللقمة بعد اللقمة، حتى وإن غصّوا ببعضها أحياناً.

هكذا سأطوف حول البحر الذي عشتُ سنينا على ضفافه وتعلّاي بيدي بنظولوني مرفوع إلى الركبة وقنماي في الماء الدافئ إلى الكعب، أملاً عيني من موجه ومن زبده دون حاجة لتذوق طعمه.

يوم أكمل تأملي له من كل الشواطئ التي تحيط به سأشرّغ في طواف حذر حول الذي يصفونه بالأحمر، ثم اكتفي من رحلة الاستكشاف بمحيط أو اثنين نظراً لضيق الوقت وكثرة المعالم الأخرى التي تستأهل التوقف عندها. كل هذا وأنا في مأمن من غضب نبوتن، أحمّد من يتوجب له الحمد أنني لسّث الغريق بل وفي مأمن حتى من الليل.

*

يجذبني من ذراعي مُضَيّفي ابن مدينة تُشرف عليها هضبة طبّقت شهرتها الأفاق.

- هيا الولية تنتظرننا للغداء ، يكفي ما تملت هذا الهرم .

- لا تستعجل عليّ، يا للمهندس العبقري الذي أمر الصخور أن تتخذ أشكالاً هندسية لا وجود لها في الطبيعة كأنه يريد أن يزايد عليها في فنّ خلق الجبال.

- الأغرب أن الذين هندسوا وشيّدوا هذه المعالم الجيلة التي تتحدى الزمان منذ أكثر من أربعة آلاف سنة، تحلوا كل ما تحلوا من عناء ومن حوادث مروعة، فقط ليتمتع حفنة من الفراعة بالخلود.

- ربما الحقيقة أن الذين شيّدوا هذه الأهرامات لم يفعلوا تلك إلا لإثبات ذواتهم وسعيا لخلودهم هم... أما الفرعون فكان مجرد واسطة مهمته توفير السلع الضرورية والخبز والجة؟

يهزّ الرجل كتفيه مستهجنًا فكرة لم يدافع عنها يوماً أحد ثم ينظر لساعته.

- طيب ما زال أماننا بعض الوقت لفسحة قصيرة أعدتها لك كمفاجأة .

كل ما يمكنني أن أشهد به بخصوص النهر أنه لا وجود فيه لظاهرة اسمها دوار النهر... وأن السفر عليه يأتي المرتحل بحالة من الارتخاء اللذيذ وهو يستعرض الانسياب الهادئ لما يتزاحم على ضفتيه من مشاهد. نعم، هكذا كان علينا أن نعبّر الحياة: جلوساً على كرسي مريح والطريق هو الذي يتحرك ببطء، نتأمل من بعيد -وفي أمان- روائع العالم وفضائته. أضف لهذا أن هذا الذي أنساب فوقه نهر ليس ككل الأنهار. إنه نهر استقرطي بكل المقاييس ومن ثمّ شعور التهيب الذي يسكنني وأنا الآن محمول على موجه.

“هو النيل... (خالد فتح الرحمان عمر)

مِنَقَاتِ كُلِّ الْعَصُورِ

رَاحِلُ أَبَدًا بِاتِّجَاهِ الشَّمَالِ

هُوَ النَّيْلُ

يَعْبُرُ هَذِي التَّخُومَ... وَتِلْكَ الْبِحَارِ

وَذَاكَ الْغَمَامَ... وَحَدَّ الْخِيَالِ

يَسَافِرُ فِي اللَّانِهَيَاتِ

وَيَبْقَى عَلَى شَفْتَيْهِ السُّؤَالِ

يَقْطَعُ عَلَيَّ انْتِهَائِي لِلْحَرَكَةِ الْبِطِينَةِ لِلْفُلُوكَةِ صَوْتِ مِرَاقِفِي .

- هَيَّا يَا صَاحِبِي، اَخْرَجْ مِنْ ذَهُولِكَ، أَنْتَ لَا تَتَكَلَّمُ مِنْذُ سَاعَةٍ.

- كَمْ قَرَأْتَ عَنْ هَذَا النَّهْرِ؟ لَمْ أَكُنْ أَتَصَوَّرُهُ بِهَذَا الْعَرَضِ!

- لِهَذَا تَسَمِّيهِ الْلَهْجَةَ الْعِلْمِيَّةَ "الْبَحْرَ". أَهْمُ تَحَدُّ طَرَحِهِ عَلَى أَجْدَادِنَا طَوِيلَةَ مِائَاتِ آلَافِ السَّنِينَ عَرَضُهُ هَذَا. تَصَوَّرْ كَمْ مِنْهُمْ وَقَعُوا حَائِرِينَ أَمَامَهُ تَتَعَبِيهِمُ الْكَوَاسِرُ، وَهُمْ لَمْ يَأْخُذُوا بَعْدَ دُرُوسَاتِ السِّبَاحَةِ. حَدَّثْ وَلَا تَسَلْ عَن طَوَلِهِ وَكَمْ أَرْهَقَ أَكْبَرَ الْمَغْلَمَرِينَ وَهُمْ يَبْحَثُونَ عَن مَنبِعِهِ.

- الْمَنبِعُ! لِمَاذَا لَا تَتَبَّرُ اتِّجَاهَ الزُّورِقِ نَحْوَ الْجَنُوبِ إِلَى أَنْ نَصَلَهُ؟ الطَّرِيقُ سَهْلٌ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، فَلِمَاذَا لَا نَغْتَنِمُ سَمَلَحَتَهُ. نَعَمْ، لِنُرَكِّبَ ظَهْرَ هَذَا الْحِمَارِ الْوَدِيعِ لِيَحْمِلَنَا إِلَى حَيْثُ وُلِدَ وَوُلِدَتْ مَعَهُ حَضَارَتُكُمْ.

يَمَازِحُنِي مَضِيئِي:

- أَخْشَى أَنْ تَتَأَخَّرَ كَثِيرًا حَتَّى عَلَى الْعِشَاءِ فَتَزْعَلُ "الْوَالِيَّةُ مِرَاتِي". كُلُّ مَا اسْتَطِيعَ تَوْفِيرُهُ لَكَ زَيْلَةٌ سِيَاحِيَّةٌ لِيَضَعُ سَاعَاتٍ لَا بَعْدَةَ بِأَشْهَرٍ. ثَمَّ يَبْدُو أَنَّكَ تَتَوَسَّمُ الْكَثِيرَ مِنَ الْخَيْرِ بِخُصُوصِ هَذَا النَّهْرِ.

- رَحْمَاكَ، اتْرِكْ لِي بَعْضَ الْأَرْهَامِ.

- الَّذِي تَرَكِبُ الْآنَ هُوَ الْجِزءُ الْمَرْهَقُ مِنْهُ، جِزْءُهُ الْعَجُوزُ. كَأَنَّ رِكْضَ آلَافِ الْأَمْيَالِ امْتَصَّ مِنْهُ كُلَّ حَيَوِيَّتِهِ. لَكِنَّهُ شَيْءٌ جَدُّ مُخْتَلَفٌ هُوَ يَتَشَكَّلُ فِي رَحْمِ الْمَجْهُولِ.

- نَهْرٌ مُؤَدَّبٌ كَهَذَا! مَسْتَحِيلٌ. أَنْظِرْ كَمْ هُوَ وَدِيعٌ هَادِيٌّ وَمَسْلَمٌ لَا يَرِيدُ بِنَا لِيَسْطِزَ إِزْعَاجَ.

- لَوْ تَابَعْتَ مَجْرَاهُ إِلَى الْجَنُوبِ لَطَوَّحَ بِكَ بَعِيدًا وَسَطَ الصَّحَارِيِّ وَالْأَحْرَاشِ مَنْتَهِيَا إِلَى مَسْتَنْقَعَاتِ شَاسِعَةٍ وَبَعْدَهَا تَدْبُرُ أَمْرُكَ، لِلتَّحَرُّكِ وَسَطَ التَّمَاسِيحِ وَالْبِعُوضِ وَالذَّبَابِ وَمَا لَا يَخْطُرُ عَلَى بَالِكَ مِنَ الْكَلْبَاتِ الْمَفْتَرَسَةِ، صَغَارَهَا وَكِبَارَهَا.

- وَالْبِشْرُ؟ إِنَّهُمْ أَخْطَرُ مَا أَعْرِفُ مِنْ مُشَاكِلِ الطَّرِيقِ. يَا إِلَهِي، أَيُّ عَالَمٍ هَذَا! قَلْتُ لِنَفْسِي: أَخِيرًا وَجَدْتُ الْجِزءَ الْأَمِنَ مِنَ الطَّرِيقِ وَقَوْلِي لِي: لَا شَيْءَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ مَوْجُودٌ. حَرَامٌ عَلَيْكَ طَيِّبٌ، مَاذَا سَنَفْعَلُ الْآنَ بِالْأَدْمِيينِ فِي بَحْثِهِمْ عَنِ الْمَنبِعِ وَقَدْ تَوَقَّفَ بِهِمُ النَّهْرُ وَسَطَ مَسْتَنْقَعِ بَطِيرٍ فَوْقَ سَطْحِهِ سَحَابٌ مِنَ الْبِعُوضِ، تَتَرَصَّدُهُمْ نَحْتَهُ التَّمَاسِيحُ وَعَلَى ضَفْتِهِ يَنْتَظِرُهُمُ الْبِشْرُ أَخْطَرُ الْكَوَاسِرِ.

- أي خيار لهم سوى السياحة بقصى قدر من السرعة في اتجاه الشاطئ المقابل حيث ينتظرهم أسد فارغ المعدة ناقد الصبر، وإن نجوا بجلدهم، عليهم مواصلة التوجه نحو المجهول.

- الملاعين، عرفوا أرقى أنواع الرعب والانهيار وأنا في البلد الذي أعيش فيه لاجنا أخذ المترو كل صباح لأسمع تقاهات الناس يصرخون في نعالهم!
- عفو!!

كأني بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة تبتت عبر الزمن شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في الصحاري والمستنقعات والأدغال لا نعرف لها بداية ولا نهاية، تكاد نهلك فيها لهعا وجوعا وعطشا، وخذ ما شئت من رعبنا ومن انبهارنا البكر.

- يا رجل رحمة بالمساكين! اختصر. ما الذي حصل للمغامرين الأشاوس وهم يواصلون بحثهم عن أصل الشيء؟

- ضاعوا في ألف اتجاه. لكنهم لم يكتفوا عن التردد: سنكتشف من أين يأتي كل هذا الماء ولو تطلب الأمر آلاف السنين. ماذا يظن نفسه هذا النهر؟

من أين يأتي كل هذا الماء؟ قد يكون هذا السؤال الذي أوحى به النهر أسئلة من أين أتى الأدمي، من أين أتى العالم، من أين أتى الزمان؟ ... ليس النهر من أوحى لنا بتصوراتنا الأكثر انتشارا عن هذا الزمان، وأنه هو الآخر يسيل بلا انقطاع في اتجاه واحد، لا قدرة لأحد على تثبيته أو جعله يدير مساره عودة إلى المنبع.

- لا تقل لي أن الرواد لم يفكوا اللغز ولم يكشفوا السر؟

- بلى، كتبت عشرات الكتب في الموضوع وتم منذ قرن تقريبا اكتشاف المنبع بعد ما لا تتخيل من المغامرات.

أعود لممازجة مضيّف كريم.

- لا تظن، يقال إنه ينبع من... اسم البحيرة التي ولد فيها أبو حضار تكم؟

- بحيرة! قل بحيرات وكلها تصب في بعضها البعض. منها واحدة تقع على مستوى جبال شاهقة في اتجاه آخر غير الذي بحث عنه المستكشفون. كم من وقت ومن تضحيات لتتجمع أخيرا كل قطع "لابوزل" ولتتضح الصورة الشاملة.

- متأكد أن كل القطع جمعت؟ ما أعرفه عن طبيعة الطريق أنه يحرم أمرا كهذا.

- نعم يبدو أن موضوع منبع هذا النهر قد أغلق.

- طيب، من أين يأتي الماء الذي تفيض به كما تقول البحيرة الأم وما تفرع عنها من بحيرات لنجد نهرك المقدس؟

- من قم شامخة مكللة بالثلج أصبحت خرائطها هي الأخرى معروفة ومؤثقة.

- وقيل ذلك.

- ماذا تقصد؟

- فهمتني، أين كلن ماء تلوج قَم الجبل؟
يضحك مر افقي.

- في السحب طبعاً.

- وقيل تجمعه في السحب، من أي بحر تظن أنه انطلق؟

- أتصوّر صعوبات رسم خريطة تصرّ على رصد كل المنطقات وكل المسارات.

- إذن أنت تتفق معي أنه لا أحد يعرف أو سيعرف يوماً منيع هذا النهر ولا أي نهر آخر.
محكوم علينا أن نهمل دوماً بداية الأشياء ونهايتها، لا نحمل معنا إلا حيرتنا وما تولد من
الأسئلة. والآن رحماك، بعد شهوة المنابع جاءتني شهوة المصبّ. هذا أمر تقدّر عليه والبحر
الحقيقي ليس بعيداً وعلى ما أعلم لا خطر علينا قبل أن نصله من غضب فرس النهر. في
طباع هذا النهر شيء يذكّرني بزحف الثعبان لكنه ثعبان يعرف طريقه وليس كذلك الغبي
المسمّى "وكافانغو" الذي تدبّر أمره ليضيع في الصحاري ومعه كل من وثقوا أنه يعرف
طريق البحر.

- لست متأكد أن هذا النهر مستعجل للذوبان والتلاشي في مياهه. ألم ترّ على الخريطة حبه
للتعرج واللفت والدوران ولو أنه ليس الوحيد في خياره هذه. هل رأيت يوماً نهراً يرسم
لمساره خطاً مستقيماً؟

- طيب، لننّبّع بتعاريجه. ما زال أمامنا بعض الوقت حتى وإن كنت غير مستعجل للقاء
البحر لأسباب ربما أشرحها لك يوماً.

- أمامه هو كل الوقت وقد قال فيه أحد شعرائنا أنه واهب الخلد للزمن، أما نحن فعلينا
الإسراع إلى لبيت. مؤكّد أن "الولية" تزفر من الغيظ أمام أكل برد منذ ساعات.

*

يعترضني قبل دخول الطائرة شرطي آخر لكن في زي منني.

يمطرنني بأسئلة غريبة وهو يقلب أوراق الجواز: ما سبب سفرك لحرّيستان؟ زرت
قمعستان وفسدستان وقبحستان وإرهابستان. ونفغانستان أيضاً! ماذا فعلت في هذه البلدان؟
كنت كمن يسمع الأسئلة التي لا يريد الجهر بها: لمانا أنت أسمر اللون؟ هل فقدت شعرك
لأسباب مخالفة للقُدون؟ التأشير حقيقة أم مزيفة؟ جواز السفر هذا، بكم اشتريته؟ متأكد
أنت لا تحمل فيروسات أو قنابل؟ من تعرف من المنظمات الإرهابية وما عنوانها؟ هل
تنوي قلب نظام الحكم في بلادي؟ هل أنت إرهابي، هل تصلي؟ هل ستخطف الطائرة؟ هل
تحمل مخدرات في مخرجك؟

لم تكن الرحلة يوماً سهلة على أحد وذلك منذ غابر الزمان. كان رحالة العصور القديمة
عندما ينزلون بشاطئ مقعر دفعتهم إليه الرياح والصدف، يضعون على الرمل سلاحهم
وهداياهم ثم يلتجئون بسرعة إلى سفنهم. كانوا ينتظرون أن يخرج من وراء الشجر أميون
أكثر منهم خوفاً يقتربون من بضاعتهم يقلبونها بمنتهى الفضول والحذر ثم يخفون بذورهم

ليعودوا يوما - إن عدوا بأعلى ما يملكون يبعون. هكذا كانت تبدأ أولى علاقات التبادل وطقوس حقن الدماء.

بالكاد تغيرت هذه الطقوس والحذر الخائف من الشبيه المختلف هو العنصر القارر الثابت في العلاقات بين البشر.

يتجدد الاستجواب في مطار الوصول. تُطيل الشرطة تفحص جواز السفر ثم تنقل بصرها إليّ تحقّق فيّ بشكّ متزايد. تعود إلى الوثيقة تقلّب أوراقها ببطء مثير للأعصاب. ما بهمّ هذه المرأة بدهاءة تدير مدى خطورتني على أمن شعبها ووطنها المغدّى.

من حسن طالعي أن هذه المرأة لا تقرّ في الأذهان. لو علمت من هذا المائل أمام سلطنتها البيروقراطية المطلقة لقادنتني مباشرة لغرفة الإيقاف بتهمة التمر على الوضع الفكري - السياسي - الروحي للبشرية جمعاء.

تتوجّه إليّ الموظفة العابسة بعد أن أشبعت جواز سفري تقليبا وتمعنا.

- انتظر...

تعود الشرطة بالجواز بعد دقائق بلغة الطول والثقل، وعلى وجهها ابتسامة باهتة:

- تستطيع المرور، لكن اكتب بوضوح اسم النزول الذي سننزل فيه، لعلنا نحتالذك في أمر ما.

أخيرا أبعد نقطة في شمال الفضاء الحسي، جنبئها متعللا بالبحث عن العلم والحال أنني لم أقصدها إلا للضياع في غابات سمعت الكثير عن كثافتها واتساعها وما تحفل به من أضخم الأشجار.

أتوجّه لرفيقة المقطع الجديد من الطريق مداعبا ومستقرّا ونحن ندخل أقربها إلى المدينة التي نزلت فيها.

- من الظلم أن تتمنّعوا وحذكم بمثل هذه الغابلات الشاسعة وأن تتركوا لنا الصحاري القاحلة. بدأت أخطط للغزو والنصر المبين. لكن كيف لجمالنا التي لا تعرف السباحة عبور هذا المحيط الذي حفرتموه - من الواضح - تحسبا لغزونا؟

فجأة أصرخ بشنائم من حسن الحظّ أن مرافقتي لا تفهم كلماتها.

- ما هذا الذي لسعني؟ انظري كم انتفخت يدي!

- حذار، هذا الذي ذقت أنيابه يحبّ الدماء الساخنة وأنتم على ما يقال أسخن البشر دما. ألا زلت مصرّا على غزو غاباتنا؟

- يا بنت الحلال، كنت أمزح. قل لي على الأقل ما هذا الوحش الطائر ولماذا يهاجمني والحال أنني دخلت البلاد بتأشيرة قانونية ولا علاقة لي بالإرهاب من قريب أو بعيد!؟

- إنه حشرة كلّفت شعبنا من الموتى ما لم يكلفنا أصحاب الأرض الأصليين. أقتم لك الجعوض الأكبر ونسميه "المارنجوان".

جعوض! تسفون هذا الفيل الطائر بعوضا؟ ما هذا الغش؟ من تصله البطاقات البريدية من غابلكم لا يرى إلا جمال الجئة والحال أن النزاهة تفرض عليكم وضع صورة الوحش

بأنياب تقطر دما على نصف البطاقة - على الأهل - ليعلم الجميع ما الذي ينتظرهم. إنها عملية تحايل موصوفة. سأحتج على كل وكالات الأسفار التي تروج لبلدك.
حقا هذا عالم رائع، لكن لا موطئ قدم فيه إلا وحوالك كائن بخدش أو يقضم أو يعض، وإن لم يجد ما يمتصه منك، أصدر طنينا مزعجا فقط للإزعاج.
- لا تعجل بالانتقام والأوم. كل ما هناك أنك أتيت في فترة انتشار هذا البعوض، وهي لا تتجاوز ستة أسابيع وبعدها يختفي.
- تقصدين أنه انتظرتني حول كمللا وأنه ترصد قدومي ونصب لي هذا الكمين، الله الله على ضيافتكم. طمئنوني. هل النزل محمي ببطاريات صواريخ مضدة ل. ما اسمه؟ لن أخرج معك لهذه الغابة مجددا إلا مسلحا ببندقية، أو لابسا الحديد على طريقة فرسان القرون الوسطى.
تضحك مرافقتي ضحكة صفراء. تغير الموضوع.
تعال، طلبت أن أريك الأمكن التي جنت من فيزيك الفاحلة خصيصا لرؤيتها.
- خذيني حذو أصغر جدول وتحملني صمتي وجلوسني عنده ساعات. حتى الموسيقى لا تطربني مثل ما يطربني خرير الماء. هل النوات التي تنطلق من البيانو غير محاولة لتقليد موسيقاه؟
تجذبني مرافقة الطريق من كنتي.
- يكفي ما قضيت من الوقت هنا. نعم كم جميل صوت الماء وهو خرير هذا الجدول وهو صرير الثلج تحت الأقدام وهو نقر خفيف لمطر الخريف على نافذة غرفة النوم! لكن هناك مكان تسمع له أجمل أصواته. تعال.
بعد ساعات تهمس المرأة في أذن رجل قادم من صحاري ما وراء البحار وضعته الصدف على طريقها ووضعتهما الأقدار على طريقه.
- كفاك تأمل هذا الشلال.
ترفع من صوتها، تهز الحالم اليقظان من كنفه:
- تعال؛ مضى جل النهار.
- لن أتحرّك من هنا حتى...
- حتى ماذا؟
- حتى ينتهي تدفق هذا الماء. لا أصدق أنه سيسيل دون توقف... اللهم إلا إذا كان ماء من نوع لا أعرفه.
تضحك رقيقة الطريق إلى أن ينهمر الماء من عيني بلون البحيرات الجبلية التي ولدت على ضفافها.
- لن تموت من العطش طيلة الانتظار... جوعا بالتأكيد. لا تقلق الماء في هذا البلد متوفر في كل مكان، وعلى كل الأشكال وله كل الأصوات، تعال الآن.
أهز من جديد وأفزع الشتائم تتدافع مجددا على لساني:

- بجذّ، كأنّ لهذا البعوض اللعين مشكلة شخصيّة معي، عجلي؛ أريد العودة إلى الحضارة،
غيرت رأيي بخصوص دونيتها بالنسبة إلى الطبيعة.
- نعم سنعود إليها شريطة أن نجد الطريق.

- تمزحين!

- الظاهر أن "المارنجوان" مصرّ على بقائك تحت تصرّفه أطول وقت ممكن. قد يكون
هو الذي محا المثلث الأخضر الذي يؤثّر لاتجاه النزل. انظر مليًا لعلك تجده. إنه مرسوم
على كثير من الجذوع. لا تقلق، سنجد المخرج حتى وإن استغرق الأمر بعض الوقت.
- وفي الأثناء أفرغ من دمي! حذار قد تكون مضطّرًا إلى مصّ دمك أعوض ما يأخذه مني
فيلكم الطائر.

- من هنا الطريق.

تشير مرافقتي إلى الخارطة بأصبعها لتتقني بصوب القرار، لا تعلم أنني لا أعرف حتى
بسطها في الوضع الصحيح فما بالك بقراءتها.

وهل كان لابن بطوطة وابن فضلان وماركو بولو وكولومب وبيوفنيل وكوك وقيلهم
بحارة العرب والفينيقيين وجزر المحيط الهادي خرائط صحيحة!... كلهم مع تلك توغّلوا
في الأرض ذات الطول والعرض وفي البحار اللامتناهية لا يقودهم على ألف طريق مبهم
إلا انبهارهم بعالم يريدون التشبع بكل روائعه لا يهمهم ما يدفعون من باهظ الثمن.

أعود لمداعبة امرأة لم تعد واثقة من المسار الذي اختارت للخروج من غابة مترامية
الأطراف.

- على نكر الخرائط، هل تعلمين أن الأوائل سامحتهم آلهة كل أساطيرنا وأدياننا كذبوا دليلًا
مفضّلًا اسمه كتاب الموتى حتى لا يضلّ أمني طريقه في الآخرة ولا أحد منهم فكّر في
كتابة كتاب الأحياء حتى لا نضلّ نحن طريقنا في هذه الدنيا! نُقصّ فادح قررت أن أضع
له حدًا.

- فكرة رائعة ستضعك في مقام المحسنين إلى الإنسانية جمعاء.

- بربك من تسلّم عند الإفاقة مثل هذه الوثيقة لضرورية للرحلة؟ أليس وضع المرتحل في
هذا العلم شبيها بوضع سائح يفيق في مثل هذه الغابة وهو عار، جائع، خائف، جاهل من
يكون ومماذا يفعل في هذا المكان وما على المسكين إلا أن يتدبّر أمره لكي يأكل ولا يُؤكل،
ولا أحد يمده بخارطة موثوق بها لكي يجد هذا الطريق المستقيم الذي تتحدث عنه كل
أساطير الأُميين.

- يا عيب الشؤم، حرام عليكم يا أوائل، والله عيب عليكم.

- ثمة مشكلة أخرى إضافة إلى غياب الخريطة الحقيقية للعالم الأدمي وكتب الحياة لحسن
التعلم معه: غياب الأدلاء أصحاب الكفافات العلية. أين هم؟ الغالبية العظمى مبتنونون
يتعلّمون بالتجريب على الزيون المسكين. بل وفيهم -ولو أنهم أقلية- من يتسلّم القادم الجديد
فيرميّه خفية في مصبّ البلدية، أو يدخل به أول سوق يبيعه بمقابلٍ بخس، أو يجعل منه

عبداً، أو يَضِيعُه في الطريق عن جهل وعن غباء، وأغلب الوقت عن عجز عن الاضطلاع بمهمته. كيف لا نَقْضِي جُلَّ حياتنا نتخبط في المتاهات، والأدلاء هم أنفسهم بحاجة إلى دليل؟

- حذت ولا تسل عن الأدلة الكاذبين وخرانطهم المزيفة مثل التي كان ينشرها الاسبان في عصر الاكتشافات البحرية ليخفوا عن اللصوص الآخرين من أين يسرقون الذهب الذي كانوا يغرقون به أسواق أوروبا.

- أه تعرفين هذه القصة، من حسن الحظ أن هذه الخرائط المزيفة أوصلت أجدادك هذه البراري ليبيدوا الهنود الحمر المساكين بدل أن توصلهم إلى برارينا لتكون نحن من تبيدون. تَهْرُ رقيقة الطريق كتقيها وهي تطوي بعصبية لا تخفيها خريطة لا نفع منها. أعود لنصحها والحال أنه لا جدوى لنصح البشر وكل آدمي قادر على أن يخطئ دون اعانة من أحد.

- تنفسي بهدوء وفكري في تحديد الاتجاه الصحيح، ثم نمشي في الذي نقرر إن لا نحيد عنه قيد أنملة.

- انتبه أنت لعلامات الطريق. لقد رَسَمْتَه على أرض الغابة الخُطى المسرعة لأجليل من المغلمرين الحمر والبيض. أشعرُ أنه قريب جدًا منّا.

- إن رأيته فسافتعل أنني لم أراه.

- لا تتهكم نحن فعلا في ورطة.

- أنت في ورطة، أما أنا...

- لوجه الشيطان اصمت. هذرك هو الذي سها بي عن مقترقات الطريق.

- ألا تعتقدين مثلي أن أكبر مشاكلنا مع الطريق وتقاطعاته أن جل ما نعرف عنه مصدره تانهون أكثر منّا.

- في الوقت الحاضر أكبر مشاكلنا أنت.

يتواصل المشي وسط الأياب وأعصاب شرعت في الوجه سيوفا. أعود لمداعبة امرأة بصدد فقدان السيطرة على أعصابها.

- لا تخشي شيئا، خادمك سها عن إعداد تعويذة ضد "المارنجوان" لجهله بوجوده، لكن جعبته مليئة بكل التعاويذ الضرورية لمواجهة أخطار هذه الغابة.

- التعاويذ؟

- نعم، عندي منها أهم ما يحتاجه كل مسافر في هذه الدنيا. مثلا تعويذتي رقم 86: "ابرا دابرام باتو بلتتي يتاي متغتي". هي سلاح يصلح لكل طفل يخاف الغاريت ويصلح أيضا ضد العبيثة، وجد الثوم أم لم يجد. أما تعويذتي رقم 543 "بلبلا بلبلا" فلا أنفع منها ضد الأطفال الأشرار الذين يضربون زميلا يغارون منه. ثمة أيضا التعويذة رقم 798: "لإيناعي لايس". هي صالحة ضد وجع الأسنان والاستبداد والقبح والغباء وغلاء الأسعار والحيرة الميذايز يقية وحبوب البشارة للمراهقين وترهل الثديين لمن تجاوزن عمرا معيناً.

- وتعويدة.. لنقل 987؟

- هذه ضد الشرق الأوسط.

- الشرق الأوسط!

تبتسم مرافقتي وأنا أمثل لها نقاشا من وحي الحفيظة والخيال بيني وبين محاور جاهل بأهم التغييرات التي أدخلتها على العالم.

- غريب، لم أعد أسمع أخبار الشرق الأوسط وهي في صدارة كل نشرة منذ نصف قرن!
- الشرق الأوسط؟ ملهى ليلى لا أعرفه؟

- أتسخر مني؟ الشرق الأوسط منطقة جغرافية لا تتوقف الحرب فيها، أنظر على الخارطة.
- أنظر أنت...

- اللعنة، أين ذهب الشرق الأوسط؟ أنا متأكد أنه كان هنا بمشكله المقرفة التي لا تنتهي.
- هل جنتت؟ هذه محمية طبيعية لا يوجد في صحاريا إلا البعير وقطعان المها وغابات الأرز فوق القمم وهي ممنوعة على السكن منذ قرون بقرار من الحكومة العالمية.
تبتسم مرافقتي.

- إذن أنت تعبر العالم ملغيا بتعاويذك كل ما لا يعجبك، يالك من محظوظ.

- المشكلة أنني ربما خطرت بمستقبلي فيه وقد تجاوزت كل الحدود بلسخرية من الشرق الأوسط. تصوري إفاقتي في العالم الآخر لاكتشف أوزيريس وهو يحقّق فيّ بحقد: ماذا فعلت بالشرق الأوسط يا شقي، ألا تعلم أنه مسقط رأسي ورأس أغلب الآلهة المرسمين قانونيا والمعترف بهم دوليا؟ تتجاسر على أربلك يا نرق! لن يأخذ وقتًا طويلا في وزن قلبي والقرار مأخوذ حالما شاهد اسمي على القائمة: إلى الربة أميت لتمزّق أشلاني وتلتهم روجي رامية بها إلى الخواء.

بدل الابتسام، تعود مرافقتي إلى التحديق في الاتجاهات الأربع بانز عاج مترديد. ثم تستغرق في التفكير مقطبة الجبين، وأستغرق في ارتشاف القهوة الدافئة جلوسا على جذع شجرة مينة أتأمل الأدمي وهو يبحث منذ الأزل عن مخرج وقد أغلقت عليه الغابة قبضتها وتفجّر الطريق أمامه إلى ألف مسار مبهم.

ظهور العلامت التي تسبق نوبات العنف عند لبشع أنواع الرجل ونوبات الهستيريا عند أبشع أنواع النساء.

يجب تحويل اهتمام هذه المرأة لكي تزعجني بشكل من أشكالها.

- أقص عليك طرفة عن آخر مرة ضعفت فيها في غابة. يومها كنت طالبا وكنت أعمل أثناء عطلة الصيف في مزرعة في أبعد بلدان الشمال، كسبًا لما يسمح بمواصلة التورغل فيه حتى أتأكد مما قيل لي عن وجود مكان لا تغرب عنه الشمس. قالت لي مستخدمتي: اليوم أحد وسنذهب أنا وزوجي إلى الكنيسة لا أظنك ترغب في مصاحبتنا وأنت من دين غريب. لماذا لا تقضي يومك في الغابة؟ نعم، اقض يوما ممتعا في الغابة وعد بقفة مليئة بشررة، ماذا تسمونها؟ تعرفين ما أقصد، هذه الحبات الزرقاء التي لا تنبت إلا في غاباتكم الباردة.

- نجمعها نحن أيضا صيفا، نصنع منها كعكا ومرتي.

- ربما كانت المرأة مؤمنة أن شابا من إفريقيا - لا بد أنه أخذ عن أبيه وجدّه كل تقنيات الجني والقتل- أصلح من زوجها للمهمة. إذن لماذا لا تستخدمه فيما توهله فطرته له؟ مدت لي بالفقة ميتسمة، فقلت في نفسي: يجب أن أطلب زُحما وقرسا ونبالا. بماذا سأقاتل الدبّ إذا اعترض طريقي؟ أثرت الصمت وتوكلت على إله الأبياء والأجداد. كانت أولى غلطات اليوم وأنا أستفّرّ آلهة الربوع.

خرجتُ إذن، بقفتي الفارغة للبحث عن الدرّة الزرقاء العُثها في السرّ وفي العلن. بصراحة، لا أدري ما الذي يجعلكم تُحبون أكل هذه الفاكهة، فطعمها حامض وتلتصق باليد تاركة بقعا لزجة حمراء. تعرفين أيضا أن أبغض ما فيها أنها لا تنبث -مثل البرتقال والتين والزيتون والأشجار المثمرة التي تحترم نفسها- على غصن تمدّ إليه يدك واقفا، وإنما اختارت للانتقام من المتطفلين عليها أن تنبث على شجيرات قرمة ملتصقة بالأرض، وأه يا ظهري.

مرّ اليوم وأنا مستغرق، منهمك في العمل وفي محاربة البعوض الذي جعل من جلدي حريقا متواصل. فجأة انتبهتُ إلى أنني وسط غابة لا أتذكر من أين أتيتها ولا أعرف من أين سأخرج منها، ناهيك عن كونها في أقاصي الأرض و'ما' في طرفها الآخر لا قيل لها بمساعدتي في شيء. وفي مثل هذه الحالة التي جزّبها الأدمي طوال سعيه في الغابات المظلمة، يعلم الكل أنه يجب التنفس بهدوء ومغالبه رغبة الركض في كل اتجاه والصراخ النجدة، النجدة، وإعمال الفكر مطوّلا لاختيار أنسب اتجاه، ومواصلة المشي دون الخروج عنه قيد أنملة. يومها وثبتتُ على قدمي منطلقا في كل اتجاه، متنفسا ببالغ السرعة، والعرق يتصبّب مني، مقرّرا أن الاتجاه الصحيح على يساري. كلاً إنه على يميني. لا، على يساري.

النجدة يا "أودان"، وربّ الكعبة لن أشرك بك من اليوم إلها آخر!

- ووجدك البوليس بعد أسبوع تنمات جوعا بعد أن أكلت كل ما في الفقة والفقة نفسها؟

- يا ليت! ربما كنت أفهم أكثر تجربة الأرائل. الملاعين، استكشفوا واخضعوا أكثر الغابات اتساعا وعموضا وخطورة ولم يتركوا لنا إلا التجول أيام الأحد في الحدائق العمومية المكتظة وبعض أشلاء الغابات المبعثرة بين الحقول.

كأنني بأشباح توتّلت بعيدا في فضاء العُثمة تبتّ عبر الزمان شيئا يشبه التعجّب، ثم حفيظة واضحة، ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاك بالذي عشناه ونحن تائهون في هذه الغابات المظلمة المرعية لا نعرف لها بداية ولا نهاية، تكاد نهلك فيها هلعاً وجوعاً وعطشاً... وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

- سهوئ. واصل.

- كانت الغابة التي ضعفتُ فيها مكانا مرّوا شقّ فيه الأدمي ألف مسار. لذلك لم تمرّ إلا بضع ساعات قبل أن أقع بالصدفة على جزء واضح من الطريق. تنفستُ الصعداء ولم تبق إلا مشقة الرجوع والبحث عن الأعداء. استقبلتني مستخدمتي بلا مبالاة من لا يعرف في أي جهنّم كلن الآخر يتخبّط.

- ملك ممتنع الوجه؟ لماذا تأخرت؟ أين القفة وأين الحصاد؟
- أخذهما الدبّ. لا أخرج إلى جبل بوقرنين وما يعج به من أسود ونمور وفهود وبقيلة
مرعبة إلا مسلحاً بما تعده لي "ما" من رماح وسهام، وتر سلونني هنا لمواجهة الدببة ولا
أدري كم من وحوش أخرى أعزل. سأقول كل شيء لـ "ما".
يومها ضحكت المرأة الطيبة:
- أه منكم يا أهل المدن، تضيعون في حديقة عمومية عليها حارس بصقارة وبقعة صفراء.
ترمقني مرافقتي بنظرة ساخطة ثم تنفجر بضحكة لا مرح فيها:
- هذه ليست حديقة عمومية ولا وجود لحارس ببقعة صفراء يدلنا على باب الخروج. إنها
غاية تمتد مئات الأميل في كل اتجاه وحظوظنا لاكتشاف جزء من الطريق بلصدة شبه
معدومة.
- لماذا لا نضيع هنا بقرارنا لا بقرار حدث غبي؟ قد ننجح في تربية بعض أصناف هذا
"المارنجوان" السمين لتغذية أطفالنا. ثم تصوّرني ماذا يمكن أن نفعله بأطفال لن يجلسوا
أبداً أمام تلفزيون أو حاسوب ولن يسمعوا يوماً رنين نَقال؟
- سلطنت فراغ "الترموس" من القهوة ونهالية السندويشك وأنداك حدثني مجدداً عن رغبتك
في العودة إلى أكل الحشرات الطائرة وجني ثمار الغابة وليس جلود الحيوانات. لنعد
للموضوع. حُسي يقول لي إننا لسنا بعيدين عن الطريق، لكن الظلام يزحف ولن نرى
شيئاً عما قريب.
- اكتشفي أنتِ هذا الطريق واتبعيه صاغرة إلى إسطنبول الحضارة. أما أنا فهذه فرصة ثمينة
للاختفاء من عالمك المجنون.
أي مكان أحسن من الغابة للاختفاء وهي منذ الأزل ملاذ السحرة وآخر معازل الثوار.
تَهَيّءِ المرأة كتفيها ثم تهمس في أذني بنبرة تفوح بخوف الطفل التائه في الظلام.
- الليل يدا همتنا، يا يسوع!
- نعم، نُصَلِّ لیسوع. ستمره ثم اعبد. لا تتبع طريقه، وإن أضعت الطريق استغث به. لله
درکم یا بشر. والآن وقد صلّينا، ماذا نفعل؟
- عمّ الظلام وهتني التعب. لم يعد لنا من خيار غير التوقّف وانتظار الفجر والفرج. يا
إلهي، الغابة ليلاً ولا ناز تدفع عنا أنياب البرد والدبّ.
مما يقال ان الكلاب لا تهجم الا من تشمّ عليهم رائحة الخوف. من حسن الحظ انه لا سباع
في هذه الغابة والا لكانت الرائحة التي تفوح من هذه المرأة كفيلاً بجلب كل ما فيها من
اصحاب المخلب والانياب.
على يساري امرأة جالسة على العشب تحاول النوم علّه يختصر ليلة لم تكن في الحسبان.
ظهري مسنود إلى جذع شجرة فارعة الطول والانتباه على أقصاه لا أريد اختصار ليلة
جاءت بها الأقدار.

إذن هكذا هو العالم كما جرّبه الأوتل كل لياليهم طيلة مئات الألاف من السنين... إذن هكذا هي الأحاسيس والمشاعر البكر والأسمى طريفة مختبئة داخل الظلام تحرق في جمرات ملتصقة هي أعين السباع الجائعة الباحثة عن عشاء... الخوف! لا يصحبنا شعور على طول الطريق قدر هذا الشعور: خوف الطفل من الظلام ومن فقدان أمه وأبيه، خوف فقدان الحب والمكانة، خوف فقدان الصحة والشباب، خوف الموت بعيدا عن الأحبة والديار وخوف الضياع نهائيا في مثل هذه الغابات الموحشة... والويل لمن لا يعرف كيف يروض خوفه. نوم متقطع مضطرب يُنهيه تسلل فجر طال انتظاره.

أخيرا، تعود للعالم ملامحه الملوفة للنفس طمأنينتها المحبوبة.

تبادرنى امرأة منهكة سعيدة بأن الليل قد انجلي فعلا وليس فقط في قصائد الشعراء.

- هيا، يجب العودة للبحث عن الطريق اللعين.

كأنّ الغابة أصابها ما يشبه القرف من آدميين غير منتبهين لما توفره من روائح وأسرار فقررت أنه أن الألوان ليغريا عن وجهها.

تصرخ مرافقتي فجأة في قمة الجدل:

- أخيرا، من هنا، هيا أسرع، يكفي ما ضيعنا من وقت...

- أه، عادت الانسامة إلى شفتيك. مهلا، ما هذه العجلة؟

- يا يسوع، نهار كامل ونحن ندور في حلقة مفرغة!

- أليس هذا ما نفعل طول الوقت، أليست الدائرة هي الشكل الحقيقي لكل طريق؟

- كفاني فلسفة. تصوّر النعيم الذي ينتظرنا بعد ساعة. دش ساخن وفنجان قهوة ومرطبات وسيجارة.

- ما زال لديك وقت كافٍ في هذا المقترق لاختيار الطريق الصائب، وهو إلى الورا.

يا امرأة لا تغلبيها في. تعالي، كوني بنتا طيبة. من سيطيخ لي "المارنجون" ويكوي لي

جلود الحيوانات لأكون أنيقا وتعجيبين بي؟

- لو كنت تعرف على الأقل كيف توقد النار!

- لم أتعن في طريقة أبطال السينما بما فيه الكفاية. تقي في، سأعيد الاكتشاف الأعظم.

- تدبّر أمرك بالتوفيق.

- كيف أتدبّر أمري هذا؟ لا يضاهاى جهلي بإيقاد النار إلا جهلي بكيفية خلق امرأة من ضلعي.

- هذه مشكلتك لا مشكلتي.

- لا تتركين لي الخيار خاصة وقد نفذت كل القهوة من الترموس. على كل حال الذنب ذنبي

وقد تبعتك في غابة كنت أظنك عليمة بأغوارها. كم صنفت العجوز التروجية: أه منكم يا أهل المدن، تضيعون حتى في حديقة عمومية عليها حارس بصفارة وقبعة صفراء.

حديقة عمومية! المكان المرروض من العالم... الذي فيه طريق لا ليس فيه، حدود واضحة، خريطة صحيحة وحتى حارس غير ضروري بما أنه لا ذنبة ولا أسود طليقة

تترصد وراء الأشجار..كاريكاتور الغاية... محاولة اعتصار ما في العالم من مبهير
والتخلص من كل مرعب فيه ..حلم الألمي في أقصى حالات التليد وهو يريد الشهد دون
إبر النحل.

*

الطريق الآن أنه ليس متجها إلى الأمام أو الخلف وإنما إلى فرق والمشكلة المتقدمة فيه
ليست الدوار وإنما تنفس يزداد صعوبة وكلّ العالم داهمته نوبة بخل وقد قرر أن يكون
عطاءه من الهواء أقلّ من القليل.

خلفي وفوقي للشمس، تحتي وأمامي ظلي أشرف عليه أتلمله بفضول كاذني أكتشف للأول
مرة أن لي ظلاً.

يحتدّ الصداق والقمة المنشودة تتباعد نفسا بعد نفس.

يجب رفع الساق بعد الساق وكل واحدة بثقل عمود من الرخام.

أرمي كل مرة بالقدم على الأرض فتسقط عليها ثقيلة مرتبكة كأنها تتعثر، مردداً لنفسي ما
تزال هناك بعد هذه الخطوة لأخرى أقسم أنها الأخيرة.

يا إلهي ثمة رياضيون طلّعوا إلى قمم تتعالى على هذا الجبل بالآلاف الأمتار!

يا للأبطال الميامين وقد جعلوا حتى أعلى الجبال تخني الهامة أمام الألمي، وكلّ عقبة مألها
التذليل والإذلال! يا للأبطال، تنعموا بكل هذا ولم يتركوا لي إلا طريقاً مكتظاً ببياصات
السياح!

كانني بالسياح توغلت بعيداً في فضاء العتمة تبث عبر الزمان شيئاً يشبه التعجب، ثم حفيظة
واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تُبألنا رافلك بالذي عشناه ونحن تأنهون على قمم
الجبل المرعبة، نكاد نهلك فيها إرهاقا وجوعاً وعطشاً... وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.
عليّ التوقّف طويلاً هذه المرة لأنلقط ما بقي لي من أنفاس.

فرصة لتجديد الانتباه للطريق من هذا الطوّ.

لا شيء غير مسارات متعرجة يمنع بعدها من رصد كائن يمشي فوقها.

أية مخيلة قادرة على استحضار كل من تتابعوا على الطريق وأعطوه الوجود والشكل.

أحاول تخيل شبكة أثار خطوات الأدميين الذين تتابعوا على السهل الذي انطلقت
منه... وأيضاً الأثار التي رسمتها خيل وبغلٍ وحمير سجيبة تننّ بأثقل سجانيتها... ناهيك
عن أثار بيبب النمل وكم من كائن صغير يعيش في طيّ الكتمان والسرّ.

مستلق على الظهر أسترجع أنفاسي لأحدق في السماء متابعاً سرب طيور دخل فجأة مجال
بصري.

قد لا تختلف رحلة هذه الطيور في مشاقها ومكافاتها جزريا عما تعرف كل الأجناس الحية
التي ترتحل على سطح الأرض أو في أعماق البحر.

فجأة ترسم طائرة نفائثة خطاً أبيضاً يقسم السماء إلى اثنتين.

تبرز طائرة ثانية هي الأخرى بخطها الأبيض الطويل.

تبدو الطائرتان كأنهما تتجهان نحو اصطدام قد تتساقط أشلاؤهما فوق رأسي.
من حسن حظي وحظ ركابها أنهما على غير نفس المستوى من الطريق.
يحصل التلاقي قط بين الخطين ليرسا قاطعا ومقطوعا لم أره يوما على سبورة السماء.
والآن إلى عكازي من جديد والهدف أصبح على بضع مثلت من الأمطار ساقطعها ولو زحفا
على البطن.
أخيرا المكان الذي أوصيتُ، فل أمرتُ بالوصول إليه وكلُّ من حملهم الطريق إليه لم
يرجعوا منه كما وصلوه.
كم وقف عند هذا الجبل من شعراء ساعات وأياما بانتظار انقشاع الضباب، لمجرد إلقاء
نظرة خاطفة على قمته قبل أن تلتحف مجددا بالغرابة والسر، ثم انصرفوا لا يبنسون بينت
شفة. منهم من جاء ولم يرجع، ومن أيقن أنه لم يعد من الآن فصاعدا بحاجة إلى شيء أو
أحد. كم من رسامين وقفوا مذهولين أمام هذا الجبل والرسم عندهم صلاة المؤمن!
قد لا يوجد مكان على سطح هذه الأرض أوحى للفنانين بمثل الكم الهائل من اللوحات،
والجبل لا يبلى على كثرة ما أخذت له من رسوم.
أروع ما في هذه اللوحات تجرّدها الأقصى كأنها لا تريد كسر غموض المكان وإنما
المشاركة فيه، والضباب هو الركن الذي لا يغيب في أي لوحة.
العنصر القار الآخر أشجارٌ متفرقة تكاد لا تلاحظها، اختزلها الرسام في خطوط كأعواد
كبريت تظهر وتختفي على القمم البعيدة حسب مشيئة الضباب والسحب. ثمة دوما شكل
لا يكاد يُلاحظ لأمي يفصل التواري، أكتشف أخيرا حجمه.
بعيدا عن الأنظر، مشدوها أمام جمال الجبل انبهار بكر. انبهار كل البدايات.
ترى ما الجمال ولماذا هذا العلم جميل؟ بانتظار أن يجد أحنا ردا وافيا لا بد أن يكون هو
الأخر جميلا، لا أحسن لكل مرتحل من اتباع أمر أحد كبار المنتبهين.
"عش للجمال تراه العين مؤثقا في أنجم الليل أو زهر اليبستين (إيليا أبو ماضي)
خير وأفضل ممن لا حنين لهم إلى الجمال، تماثيل من الطين"
تحضرنى قصة الرجل الذي تضرع لله وهو وسط كل هذا الجمال أن يدخله الجنة فهمس
في وعيه انظر حولك يا غبي أنت وسطها.
جبل الربيع شفاف الإغراء كأنه يتيسم (كيوكسي)
جبل الصيف داكن الخضرة كأنه يقطر مطرا
جبل الخريف ساطع اللمعان كأنه يتزيّن
جبل الشتاء بعيد لا مُبال كأنه نائم
هل ثمة فنان أكبر من هذا الذي تفتت عبقريته عن مثل هذا المشهد!
أضم راحتي كأنني أصلي. فجأة أجدني أصفق ودلخلي صراخ صامت يتعالى من الأعماق:
برافو الله!

*

لا يتبع الطريق وهو يتوجه إلى ما فوق أعلى الجبال لا خيار غير لسفر بالوكالة.
يخيم الصمت على قاعة العرض بانتظار سفرة ولا كأي سفرة.
فجأة يدوي انفجار يصم الأذان. يخيل إليك من فرط بقة تقنيات التسجيل الصوتي
والتصوير، أنك ستشعر بلهب النار يلفح وجهك وبرائحة النخن تخنق منك الأنفاس.
تدخل رؤوس بعض النظرة الأكتاف والصاروخ الجبار ينطلق وعلى ظهره المكوك
ملتصق به التصاق الرضيع بأمه.

ترصد كاميرا الإيماكس الخيط الرفيع الأبيض من النخن وهو يتلاشى ويودا رويدا.
ثم ينفصل المكوك وتنتهي عملية الغذف لتتمركز الكاميرا في موضع يمكن الأدمي من إلقاء
نظرة شاملة على هذا الكوكب الذي تسميه اللغة الأرض، وكان من الأصح تسميته البحر.
على ماذا أركز والذهن مشدوه مأخوذ منبهراً بما يرى والانتباه على أقصاه؟
على زرقة سهول الماء وهي أصنف داخل أصناف؟
على البياض وهو كفو دب ألقى على كتفي غائبة؟
على الخضرة لون الجنة في الدنيا وفي الآخرة؟

على الصفرة تضيق الخناق على النهر الخالد كأنها قبضة من ذهب انغلقت على عنق ثعبان؟
على الحمرة استقرت بقارة كاملة تبدو كأنها مطلية بالحديد السائل؟
لا يفرئك ان هذا الكوكب اتخذ اللون الأزرق له عنواناً فقد ارتدى طوال تاريخه العاصف
أكثر من لون. هو توشح بلون حمم البراكين عند ولادته... ثم باللون الأسود وقد هدأت هذه
الحمم... ثم باللون الأخضر عندما غزت الطحالب والأعشاب سطحه تدشّن عصور انتصار
الحياة... ثم باللون الأبيض في أزمان سؤدد الجليد والتلج... أخيراً لونه الحالي منذ غطت
المياه جل مساحته.

إنها فقط وليمة البصر. لا مجال لاستنشاق روائح الياسمين، لا إمكانية لتحسس ندى عشب
للابحار أو لسماع أي صوت والحال أن كل ما يتدافع على السطح لا يكف عن التثرثرة
والصراخ.

كم ظلّموا ذلك الرجل المسمى قاليبي وهو ينبه المتبادين أنه لا يمكن أن يكون لهذا الكوكب
إلا شكل الشمس والقمر!

كم كنت أودّ أن أكون من مع خوان سيبيستيان الكانو والسبعة عشر من البحارة الناجين
من أفضع الرحلات الذين أتموا أول دورة للبشر حوله!
كم كنت أودّ أن أكون مع نايل ارمسترونج والأحد عشر محظوظ الذين ألقوا عليه من سطح
القمر أولى النظرات الشاملة.

ومن هذا الطوّ الشاهق يستحيل عليك تبين شبكة الأثار التي ترسمها من القدم الأقدام
والحوافر على الأرض، ولا التي ترسمها الأجنحة على السماء، والزعايق على أمواج
البحر.

من هذا العلوّ الشاهق لا مجال لرؤية تجمعت البشر الكبرى التي يسمونها منا وتجمعاتهم للصغرى التي يسمونها قرى ولا مجال لرؤيتهم في بيوتهم أين يقضون جزءا لا بأس به من زمن الرحلة يلجئون إليها كما تلجأ العصافير لأعشاشها والنمل لغيرانها ولنفس الأسباب القاهرة.

ومن هذا العلوّ الشاهق ليس من السهل رصد كل "العقد" أو المراكز تتجمع فيها وتتوزع منها سلطة الطبيعة على البشر أساسا الألف وخمسمائة بركان والخمسة عشر لوحة التي تحمل القارات والمحيطات ولأهمّ التيارات التي تعرك مياه المحيطات ورياح السماء. أصعب من هذا - لأنها لا ترى بالعين وإنما بالفكر والخيال- رصد "العقد" التي تتجمع فيها ومنها تتوزع سلطة البشر على البشر.

كأنني بها متموقعة فوق عواصم كبرى التجمعات البشرية التي يسمونها دولا وأوطانا . داخلها تتجمع مكونات هذه السلطة - الدين والمل والسلاح- والعلم- القائمون عليها بشر عاديون يتوهمون أنهم سادتها وهم الخدم والوقود ومنها تتوزع شبكات بالغة التعقيد تسري فيها سرين الكهرباء في الأسلاك كل الأفعال والتفاعلات التي تصنع بنمار الحرب وعمار السلام قصة الأدميين على هذا الكوكب.

ما لا تراه العين من هذا العلوّ الشاهق السور الأعظم واهرامات مصر ولأمريكا الوسطى وكل ما كدست الأجيال الماضية من قار.

ما لا تراه العين من هذا العلوّ الشاهق كل ما كدس جبلي وجبل الأباء من موانئ عملاقة، من مطارات عملاقة، من جسور عملاقة، من مصانع عملاقة، من أنفاق تشق بطون الجبال المتكبرة.

ما لا تراه العين المجردة من هذا العلوّ الشاهق شبكة مسارات القطارات والسيارات على الأرض والأساطيل في البحر والطائرات في السماء تنقل البشر وما ينتجون. ما لا تراه العين أيضا شبكة الأنابيب التي تنقل البنزول والغاز من أبعد مكان إلى أبعد مكان وشبكة والألياف التي تنقل الأفكار والصور بسرعة البرق إلى كل فج عميق. أين قدرات النحل والنمل الأبيض وحتى دود الأرض من قدرة الأدمي على التحكم في هذا الكوكب وفقا لمصالحه ولنزواته!

أنت أملك كوكب تحت السيطرة وسيده ومرؤضه الأدمي المهندس... أو هكذا يبدو. فجأة تحنل بقعة بيضاء حلزونية الشكل جلّ فضاء الشاشة. إنه إحصار مربع يستعدّ للاعتداء على الأدميين المسكين.

تتذكر فجأة أن هذا الكوكب هو اللحد والمهد.

تحتي أكبر رحم لا ينفك عن ولادة ما لا يحصى ولا يعدّ من الكائنات ومن الأجناس. تحتني أكبر مقبرة لا ترفض جثة كبرت أو صغرت، لا تعلن عن ذروة اكتظاظ، لا تغفل بابها الأحد والعطل والموت منذ الأزل صنو الحياة.

بديهي أن هذا الكوكب كائن حيّ يحمل، بلد، يغذي ثم يوراري في ثراه كم من أجناس حية كلها فلذات كبده!

كم بديهي أيضا أنه الوطن الحقيقي... الوطن المشترك لكل البشر ولك الكائنات الحية...الوطن الذي لا مكلن فيه لغريب.

تدرجيا يحو السواد بآقة الألوان. يرسم الثور بقع ضوء أصفر خافت لكبرى مضارب الأدميين. في الجزء من الكوكب الذي دامه الظلام، نصف البشرية مضطجعة في أسرتها ترتحل داخل أحلامها وكوابيسها بينما النصف الآخر في الجزء المغمور بنور الشمس في أوج الصراع مع ما نسميه الواقع...إلى أن يحين وقت تبادل الأدوار فيهب النائمون لرحلة النهار ويهرع المستيقظون لرحلة الليل.

ومن هذا العلو الشاهق يمكنك وأنت تتابع تحرك المكوك التعرف على حدود هذه القارة أو تلك. تنظر لشكل القارات فتحسبها قارة موجودة من الأزل على شكلها الحالي والحال أنها- ومقياس الزمن بملايين السنين -لم ولن تكف عن التغير انقساما ثم تقاربا ثم انقساما جديدا وهكذا إلى نهاية وجود الكوكب نفسه.

كم شهد هذا الكوكب العجيب من زلازل، من انفجارات براكين، من أنهار سالت وجفت، من صحار تمددت ثم اخضرت لتعود لجفافها القاتل!
كم من جبال انبثقت من قاع بحره وكم من رياح وأمطار أحنث هامتها لتسويها بالهضاب وبالسهول!

كم من ضربة حظ وراء كم من ضربة حظ داخل كم من ضربة حظ جعلته الناجي من كوارث كون تجمعت داخله كل الأخطار!

كم من تقاطعات طريق، من فرص جاءت بها الصدف، جعلت منه كوكبا يتيما، فريدا، لم ولن يشبه يوما كوكبا آخر على تساع الفضاء اللامتتهي!

كم تتابع وتقرضت على سطحه في أعماق بحره وفي تساع السماء من أجناس حية كلها تتبارى غرابة وإعجازا!

كم من بشريات شقت طريقها هي الأخرى في هذا الديكور المبههر المرعب لتختفي يوما تلفها الغرابة والأسرار!

كم من ديئات، كم من حضارات، كم من اميرطوريات، كم من دول ظهرت، ثم اختفت ستظهر ثم ستختفي!

يا للصدف الرائعة التي جعلته يوجد على المسافة المثالية من الشمس لتتطور على سطحه الحياة بكل ما أبدعت وأنجزت!

يا للخوارق والمعجزات التي جعلته يوجد ومن وجوده توجد الحياة بكل ما فيها من قدرات الخلق والابداع!

هو لم يكن مقترًا، حتميًا، متوقعًا، محتملًا أو ضروريًا. كان مجرد إمكانية من بين ما لا يحصى ولا يعد من الإمكانيات ومع ذلك فهو موجود بكل ما في المفهوم من أبعاد ومن أسرار.

مما يقال إن الجنس البشري استطاع أن يبني ما يسميها الحضارة في العشرين ألف سنة الأخيرة على سطح هذا الكوكب لأنها كانت فترة استقر فيها المناخ بعد فترة طويلة من الصقيع والجليد.. وأنها فترة ستنتهي طال الزمان أو قصر. مساكين من سيأتون العالم وقت يكشر فيه المناخ عن انبائه قنهار المجتمعات والدول والحضارات وتعم الفوضى وتآكل الناس بعضها البعض لا بالمعنى المجازي وإنما بالسكاكين والأنياب.

ياترى كم من أجناس حية ومن بشريات جديدة ستتابع على الركح قبل ان يغلق هذا المسرح أبوابه نهائيا وقد انتهت كل العروض! فعلى الأمد الطويل يتنبأ البعض أن سماء الكوكب ستطلى يوما بالأخضر لتشرف على مدن أصبحت رمادا وعلى غابات لم يبق منها إلا الجنوح المتهاوية وعلى صحارٍ لا تهب عليها ريح وبحار بنفسجية مأواها بكثافة العسل لم تعرف الموج منذ قرون. صور مرعبة لكوكب يحتضر وقد نفثت براكيته كل حممها وحجب غبارها شعاع الشمس وانقرضت على سطحه الأجناس بالملايين.

أه تريد طرد مثل هذه الصور من فكريك. ليكن. ها قد استعاد الكوكب عافيته بعد ملايين السنين وعادت الكائنات تتسابق على سطحه تبغي نصيبها من الحياة! لن تمضي بضع مئات من ملايين السنين إلا ويتكرر السيناريو: انقراض شبه كامل للأجناس الحية، يعقبه تعاف بدوم هو الآخر مئات الملايين من السنين، يتبعه انقراض جديد وهكذا دواليك إلى نهاية النهاية.

طال الزمان أو قصر سنتتهي كل القصة باحتضار سيحول هذه الجنة الى كتلة من الصخور المذابة عادت إلى جوف الشمس!

لشمس!

يتحول الانتباه من التركيز على اللؤلؤة الزرقاء إلى الفضاء اللامتناهي الذي تسبح فيه. تتضح الأبعاد المذهلة للفضاء الحسي الذي ظنناه يتوقف عند انطلاق الرحلة عند حدود القرية ثم عند حدود الوطن ثم عند حدود الأرض وهو صحار مترامية الأطراف رملها الكواكب وكثبانها المجرّات.

تغفر فالك دهشة وأنت أمام لوحات فنية ليس مثلها لوحات في أغنى المتاحف.

كأنّ الفنان الأعظم -أراق بلا خطة مسبقة كل ألوان الطيف على سحب غبار وغاز مذهلة الأشكال ثم رصعها بقناديل الشمس وفوانيس المجرّات.. والنتيجة متحف ربّاني يستعرض فيه هذا الفنان الأعظم من الروائع ما يذهب العقل.

كم غريب أن يثير الجمال فينا إن فاق حدا، شعورا يقارب الألم!

هل بقي لمفهوم الطريق معنى وهو هنا كل الاتجاهات ولا اتجاه أفضل من الآخر؟

حتى إن فرضنا عليه وجهة، كيف يمكنه قطع مثل هذه المسافات وهي تتجاوز قدرة كل حاسب على الحساب؟

ماذا لو واصل الطريق طريقه هذه المرة لحسابه لخاص بعد أن نفرض عن ظهره آخر راكب. مجتهداً إلى أين؟ ... إن بقي في مستوى كهذا معنى للسؤال؟
ليواصل إلى حيث يريد، أنا الذي سأترجّل منه لألقي نظرة على ما تركت ورائي أو تحتي من أبعد نقطة أوصلني إليها خيالي.

هناك بين ذلك الربع الخالي وذلك الربع الخالي الآخر وفي ذلك الطرف البعيد من ذراع واحدة مما لا يحصى ولا يعدّ من المجرّات توجد حبة الرمل التي هي بيتنا، الجوهرة الثمينة التي اتخذت عبر التاريخ حمرة حجارة اليشم، سواد درة الفونيكس، خضرة الزمردة، بياض اللؤلؤة وزرقة الياقوت، الجوهرة الثمينة الموضوععة على ستار لا متناه من فخره المقدس الأسود.

أمام كل هذه الشساعة المرعبة للفضاء اللامتناهي وكل هذا الزمان الذي باكاد ينتبه لبروزنا واختفائنا، تتسطّح كل القامات وكل الأحداث وتتضح لكل الكيانات حجمها الحقيقي. حقاً لا أنفه من قصتنا بمقياس كل هذه الشساعة، لكن هل ثمة أهمّ منها بمقياس الآن وهنا؟ أي خيار غير ليّ عنق الطريق ليعيدني من حيث أتيت أوصل على سطح هذا الكوكب المعجزة نصيبي من ملحمة الحياة!

كيف لا يحضرك سؤال يلاحق البشر منذ وجدوا: أم هل نحن وحدنا في هذا الكون؟ مع كامل الاحترام لكل العلماء والفلاسفة والشعراء الذين طرحوا ولا يزالون هذا السؤال أقول إنه مصنوع من كم هائل من الغرور والتبلّد والجهل.
طبعاً لسنا وحدنا.

كيف نلقي على أنفسنا مثل هذا السؤال وحولنا ويقربنا ما لا يحصى ولا يعدّ من كائنات حية هم في هذا الكون اللامتناهي الجيران الذين لم نحسن جبرتهم!

**

عن المدعويين الآخرين وكيف أننا لا نريدهم حول المائدة وإنما على قنمة الطعام.

يتوجه إليّ الدليل والفجر مجرّد وعِدّ يوم لن يكون كسائر الأيام.
- الرجاء إمضاء شهادة عدم تحميل إدارة المحميّة أيّ مسؤولية في حلّ التعرّض لحادث.
أسرّ في أذن رفيقة المقطع الجديد من الطريق:
- تتلمذوا على الإدارة العامة لشؤون الكون. ألاّ تعلمنا هي الأخرى كل المسؤولية فيما يحدث لنا داخل محميّتها الكبرى؟
- رجاء، لا تخلق لنا مشاكل مع قوَى نحن في أمس الحاجة إلى حمايتها خاصة اليوم وفي مثل هذا المكان.
يهمس الرجل العبوس: رجاء لا كلام بصوت عل ولا ضحك من الآن.
يبدأ المشي الصامت وراء الرجل المتحقّز، ليتواصل ساعات طويلة، لا نرى أيّاً من الحيوانات الحرّة التي جنتنا نتطفّل عليها في عقر دارها.
ينبهني الدليل بين الفينة والأخرى لعلامات لا يدرك معناها إلا هو.
- انظر يا سيدي إلى لحاء هذه الشجرة. وقع حكّها، وهذه طريقة الثيران للتخلّص من الهوامّ التي تسكن جلدّها. انظر هنا، هذه بقايا جوز مكسّر. إنها علامات مرور القردة. هي الوحيدة التي تكسر الجوز على جذوع الأشجار.
نعود للمشي ولا شيء غير الفراغ والغبار والحرّ وكل انتباهي مرّكز على شجيرات قزمة متناثرة على جانبي الطريق.
تحذّق في مراقتي ثمّ تسألني لا تخفي سخريتها.
-ماذا تفعل؟ تشمّ أوراق هذه الأشجار العجفاء!
- عادة قديمة. أفرك بين أصابعي أوراق الأشجار والحشّش، أحملها لأنفي وأضعها على طرف اللسان متحمّساً على عجزي عن استنشاق رائحة الشمس وتذوّق طعم السحاب.
تؤرّ المرأة كنفيتها لتتكفي على أفكار لا تقصح بها ولا أرغب في سماعها. فجأة تنهر الدليل:
- نحن نمشي منذ ساعات، أين الحيوانات الموعودة؟
يردّ للرجل متحرّجاً:
- المحميّة غنيّة بالخمس الكبار، الأسد والثور والغيل والكركدن ووحيد القرن. ومع هذا لا نرى أحياناً وحشاً واحداً طوال اليوم.
وحش؟ لله دركم أيها الأحميون... ما أبرعكم في قلب الحقائق... أي جنس حيّ فيه جلائون غير جنسكم؟... لكن ما المصطلح الصحيح لتسمية هذه الكائنات وكل مصطلح سبّ وشتمية؟... خيار ي بنو حرية لمن تسميها الحيوانات وآل ثيات بصوت مهيب لتسمية الأشجار.

تُبادرنى المرأة بلطف لن يطول:

- الظاهر أنك لن تكون أسعد حظًا من رحلتنا إلى شواطئ "هرمانوس".

كانت يومها تصرخ للتغطية على صفير الرياح:

- انظر إلى هناك.

- لا أرى شيئًا.

- دقق النظر، ألا ترى ذيل الحوت يرتفع فوق سطح الماء، انظر! إنه يضرب بقوة سطح الماء، ألا ترى الزبد المتطاير؟

الحقيقة أنني لم أرَ من الحوت أكثر مما رأيت يوم ركبت البحر حذو شواطئ قارة أخرى أبحث عن لقاء مؤجل على الدوام.

تمد لي رفيفتي بزجاجة الماء وهي تمسح عرقها:

- ربما وصلنا يوم الإضراب العام.

- أيًا كان اسم الكائنات التي تسكن هذه الربوع، فإنها - على ما يبدو - لا ترغب مطلقًا في لقائنا. كنت أنتظر استقبالا آخر. الفيلة على اليسار والأسود على اليمين وفوق الأغصان تزغرد القرود احتفاءً بمقدم أوفى الأصدقاء.

- نعم، كيف لا نتزاحم للسلام عليك وهي لا تعلم أنك لم تأت للقتل الرياضي الذي يسمونه الصيد أو للتجارة في لحمها؟

- رجاء قولني لهم هذا الكلام لعلمهم يعطلون.

ما الأحميون بالنسبة إلى هذه الحيوانات التي تتفادانا؟ أخطر الكائنات التي يأتي منها موت صاعق مُتَوَّ من بعيد.. طبعًا، لكن كيف نفهمها أننا أيضًا كائنات راقية نسبيًا دوريات من الجنود المدججين بالسلاح لحمايتنا من بني جنسنا الغير مرخص لهم بقتلها.

فجأة يتسمر الدليل مشيرًا إلى مبهم ما:

- سيدي، انظر هناك!

- لا أرى شيئًا.

- دقق النظر يا سيدي!

- في مانا؟

- في هذا الخدش، على جذع الشجرة التي أملك!

- أه، تقصد هذا الخط.

- إمضاء فهد. لا أحب فكرة وجود حيوان كهذا يمثل هذا القرب. هيًا بسرعة لكن دون هرولة.

تختفي رغبتني في ملاقة السكان الأصليين لهذا المكان، لعلمي بطول أنياب الكثير منهم وخشيتي أن يتركوا في مثل هذا الإمضاء.

نعاول التحرك إلى الأمام والطريق يتوغل بين أعشاب تحتضر عطشًا. يهمس الدليل وهو يُنزل بندقيته عن كتفه:

- من هنا فصاعدا المشي ورائي فقط. ممنوع منعا باتا دخول أي طريق جانبي. إذا أمرت بالتوقف، تَوَقَّفَا فوراً دون أدنى حراك. الأسبوع الماضي التهمَ هنا سبعُ سائحة إنجليزية متهوِّرة.

أهمس في أذن امرأة متزايذة للتوتر:

- أرجو أن الحيوان المسكين لم يصب بعسر الهضم أو بإسهل حاد.
- كن جدياً، لسنا في حديقة عمومية. لا تنس أننا في غاب لا وجود فيه إلا لطريدة وصياد.
- وهل المدن التي جئنا منها حقاً جَدَّ مختلفة عن هذا الغاب؟
يأمر الدليل بالصمت ثم يسعفنا باستراحة قصيرة. يختفي وراء أكمة من الأشجار الهزيلة مؤكداً على ضرورة عدم التحرك.
نجلس على العشب الجاف ننتظر رجوعه بمثل متزايد يشويه قلق هو الآخر يتزايد بمرور دقائق.

تتوجه إليّ مرافقتي بسؤال لقطع الصمت القلق.

- ماذا تفعل بهذا العود؟

- أعايب هذه النملة التي غمرت بتسلق رجلي. على فكرة، هل تتصورين ما معنى المطر على يافوخ هذه المسكينة. الأمر كسقوط شلالات النياجارا على رأسك. وضع شعوب هذه الحشائش بدأه ليس أسهل من وضعنا.

- تستأهل. لا تتصور ما أعانيه من هذه الكائنات اللعينة وهي تهاجم المطبخ والحديقة ولا شيء يصدّها. على فكرة، هل شاهدت بعض الأفلام الوثائقية عن الحروب التي تشنها على بعضها البعض، أو كيف تقترس الحشرات التي يضعها سوء طالعها في طريقها؟ انظر إلى بعضها وسبح قلبك على الأمليين الذين تتهمهم بكل الموبقات. هم -على الأقل- خلقوا على هلمش معاركهم شيئاً اسمه "الصليب الأحمر" ناهيك عن كونهم لا يلتهمون أعداءهم أحياء مثل هذه الكائنات المقرّزة.

- تكلمي باحترام عن أنجح مخلوقات الله حتى وإن جهل المتبدلون قيمتها والليل إلا أحد منهم جاء خصيصاً هذه المحمية من أجلها.

- هذه الكائنات المقرّزة أنجح مخلوقات الله؟ تقصد أنجح مخلوقات الشيطان.

- يا امرأة أيّ جنس يفوق النمل انضباطاً، شجاعة، تضحية وعلا دؤوباً لا يطالب بزيادة في الأجر ولا يُضرب يوماً؟ كيف تتجاهلين أنه بنى الديمقراطية والاشتراكية وحقّق المساواة والعدالة الاجتماعية والتضامن وكل هذه المشاريع التي نرنو إليها لا نحقق منها إلا الإخفاق وراء الإخفاق؟ هل تعلمين أنه اخترع قبلنا بملايين السنين الزراعة والرعي والغزو والرقّ والحرب. أيّ جنس آخر لا قائد فيه ويسير أمره على أحسن ما يكون التسيير؟ كم من فضائل يمارسها دون حجة إلى شرطي أو نبي؟ صقيني، لا مستقبل على هذه الأرض قبل أن تلتهمها الشمس إلا للنمل.

تيزر مرافقتي كتفيتها تخالني أمزح.

يبرز الدليل أخيرا من وراء أكمة الشجيرات مواصلا اقلل أضرار سر واله.
تبادره المرأة المتزايدة نقاد الصبر عاد الصلف بعد إن انحسر الخوف.
- اقترض جعد الشرّ عنك- أنه وقع لك مثلا أزمة قلبية. أقول هذا على سبيل المثل طبعاً.
كيف كنا نخرج من هذه الأحراش؟

- اطمئني، أنا مطالب كل ساعة بمخاطبة المخيم بالراديو وإلا تنطلق الدورية. اسمحي لي
بأن أردّد ما قلته هذا الصباح. في حالة حدوث طارئ، المطلوب عدم التحرك حتى وصول
الإنقاذ، فالمشئي داخل الأحراش بلا بندقيّة وخارطةٍ ودليلٍ محضٍ انتحار. أسف، بالنسبة
لكما ممنوع دخول الأدغال حتى للتبول... كل الحاجات الطبيعية في الخلاء فقط.

أقرحُ على مراقبتي رفع الحرج فلا تستقطع الفكرة.
- أديري لي ظهورك وأدير لك ظهري فلا وجود لبوليس الأخلاق هنا.
نعود إلى المشي الحذر ولا كائن تبصره العين يمكن تحميله مسؤولية صمت عميق وصراخ
مقطع لعصافير تحسن التواري بين الأغصان العجفاء.

ماذا قال هذا الكائن المضحّ؟ ... إلى من توجّه بالتهديد أو بالغزل؟ ... هل يُغازل نثرا
أو شعراً؟ ... هل تكون -يا طير- أكبر شاعر في هذه الأدغال.. ترى كيف تشعر وتفكر هذه
الكائنات وهل ثمة فلاسفة من بني حربية وآل ثبات تسالوا هم أيضا ماذا يفعلون في هذا
العالم؟

أفبق على همسٍ صارخٍ للدليل:

- انظر هناك! تحت قدميك!

- لا أرى خدشا.

- هناك، هناك!!!!

- آه، أثر قدمين. لا يمكن، وهما بهذا الحجم، أن تكونا للسانحة منكوبة الطالع حتى ولو
كانت إنجليزية.

أثر آخر سينمجي قريبا. هو والأثر التي تركتها كل الكائنات على الطريق.

- لا يا سيدي إنه لوحيد قرن. لننتبه، قد لا يكون بعيدا.

وحيد القرن؟ غريب، كنت أظن أنه اختفى تماما مع كل هذه الأنواع من الحيوانات
التي تنتخر يوما بعد يوم بسرعة مخيفة... هم السابقون ونحن اللاحقون... التحسّر نعم، لكن
كم هو رائع أنّ كل هذه الكائنات العجيبة ومنها نحن وجبت يوما... على كل حال المحمية
نفسها من الأثر... ثمة فيها شيء ما يجعلها مثل رجع صدّي عالم اختفى أو هو يصدد
الاختفاء.

يهمس الدليل في اذني:

- سيدي، انتبه للبراز اليابس. هذه علامات أخرى للحيوان. مرّ من هنا منذ يومين تقريبا.
انتباه متحرّك ثمنه توتر أعصاب ووجع في فقرات العنق ولا شيء غير أصوات كائنات
مجهولة تختبئ في أعماق الأدغال وعلى قمم الأشجار.

ما الغرابة في الأمر؟ ألا نظفر من هذا العلم إلا بالخيال والظن؟ ألا نقضي العمر في تتبّع الأثر وقلما نجد صاحبه؟ لا شيء خارج عن المعتاد في ركضنا وراء حيوانات نتمنح ونقرّ منّا.

فجأة يتوقف الدليل مشيراً إلى نقطة وراء أكمة أشجار صفراء:

- انظر هناك!

- هذه البقعة السوداء.

نعم، إنه قطيع من الثيران الوحشية.

- تقترب لنرى بوضوح.

- يا سيدي، الأسود نفسها ترهب هذه الحيوانات. يجب أن نبتعد بلسرع ما ندر وأن نبقى في الاتجاه المعاكس للريح وإلا فستراها أقرب مما توّد.

تختفي البقعة السوداء ولا يبقى إلا فراغ ملآن بضباب الغبار.

يثب فجأة من وراء الأكمة كائن يشبه الحصان ليختفي بسرعة فائقة داخل الأدغال.

- حصان هنا ويمثل هذا الحجم!

- يا سيدي، ثمة ثلاثة أنواع من الغزلان في محمية أمفلوزي، الصغرى وتُدعى "المبالا"، والمتوسطة الحجم وتسمى "نيالا"، والضحمة وتسمى "كودو". ما رأيت واحدا من هذا الصنف وليس حصانا.

- تقصد أنني رأيت خيل كودو.

يضحك الدليل ضحكة صفراء، ثم يرفع صوته هو الآخر، أرففه طول افتعال التأثّب وكبح ما به من سوء مزاج.

- كلُّ هذه الحيوانات اللعينة تهايمت فيما بينها على الاختفاء. الزوّار لا يقتررون ضرورة التحلّي بلصبر.

- نعم يجب أن نتحلّى بلصبر لمفاجأة هذا الحيوان الركيك المصنّ على تقادينا.

استجار المسكين بأعماق الربع الخالي قبيعه الصياد لا يصدده الحرّ... استجار بأبعد أماكن الصحاري البيض فيهرول وراءه لا يخيفه الجليد... استجار بعرض المحيط ففتش عنه وراء كل موجة... استجار بالجبال الشامخة فوضع للإسماك به الأوتاد على الجبال... استجار بالظلام فوضع أجهزة التصوير الآلية على جذوع الأشجار لتباغت خروجه الحذر ليلاً... استجار بالصيغّر فخلق له المجهر... من الفضاء تجسّس عليه بالأقمار الصناعية يتبعه وقد رشق على ظهره وأشيا الكرونيا... كم من سباح ومصورين وطلاب دكتوراه يركضون هذه اللحظة وراء الحيوان المسكين!... أتري كل هذا الإصرار على تعقبه لإدراكنا أن سرّنا من سرّه وأن فهمنا لمن نحن يمرّ بفهم من هو؟

تعود رقيقة الطريق لإزعاج الدليل المسكين.

- على الخريطة بحيرة في الجانب الآخر من المحمية. سمعتُ أن فيها قطعان فرس النهر، فلنتجه إلى هناك. لا أتصور أن هذه الحيوانات ستبتكر هي الأخرى.

يقف بنا الرجل على الشاطئ مطلقاً صغيراً عجيباً باتجاه كدس رمادي يطفو بعيداً على سطح الماء. يواجه استغرابي ضاحكاً:

- أعرّف بعض الأصوات التي تتبادلها هذه الحيوانات. إذا سمعني أدهم فسيقرب، آنذاك قَدِّروا المسافة. إن بقي بعيداً عن الشاطئ يتَمَلَّننا بلامبالاة فلا خطر. إذا خرج من الماء أتصحبكم بالجري وتسلق أقرب شجرة.

تحقق فينا الكائنات بتفرّز ثم تدير لنا ظهرها تتوغل بعيداً داخل البحيرة.

- هل تسمح بأن أنديهم كما تفعل؟ لقد حلمتُ دوماً أن أتكلّم الجملي والجماري والحصاني والكلابي والقطني وحتى العوضي. للأسف، لم يسعني الوقت لتعلّم كل هذه اللغات الحيّة، خاصة لم أجد من يعلمني. لأجرب أولى كلماتي بالهيبو. ففففففوووو. يستغرق الليل في الضحك:

- يبدو، يا سيدي، أن الحيوانات لا تفهم لهجتك الأجنبية.

- حسب ما رأيتُ لحدّ الآن هي لا تفهم حتى اللهجة المحلية.

ينكس الدليل رأسه. جرحته. متى سأتعلم مسك لساني، ماذا لو ضيعني في هذه الأحرش؟ يدخل الرجل قوقعته والطين يزداد بلة، حيث لا تتوقف مرافقتي عن الهمس المسموع بأن يومها ضاع لأن لنا دليلاً لا يعرف يمينه من شماله.

والشمس تتأهب للرحيل نجلس ثلاثتنا على جذع شجرة ميتة نلتقط أنفاسنا ونمسح عرقاً. أعود لاستقراز رقيقة السفرة:

- هذه المحمية في طرف القارة الأسفل هي الزاوية الأخيرة التي حشرناه فيها الحيوانات التي تفرّمننا. كيف لا تتوارى عن الأنظار ترتجف رعباً وقد شمتت من بعيد روائحنا الكريهة. هل تعلمين أن القبيلة وكلّ الكائنات الموجودة هنا كانت تركض قبل ألفي سنة في البراري التي جنّت منها؟ لكنّ بشراً اسمهم "الرومان" قرّروا أن تكون تلهية الشعب أساساً السياسية، فبنوا ملاعب تتجمع فيها جماهير هانجة للتمتع بمذبحة تنوم أحياناً ثلاثة أشهر متتالية. يقول مؤرخون إنه قُتل في يوم واحد في إحدى هذه "الحفلات" أحد عشر ألف حيوان. كانت مئات ملاعبهم على امتداد القرون، وحسب عدد الأعياد وطولها، بحاجة إلى الملايين نعم الملايين - من القبيلة والأسود والنمور والتماسيح وفرسان البحر والنعام. لتوريد هذه الكميات الهائلة من الكائنات خُلِق "بزنس" كملل كان يدرّ الملايين على الصيادين وأصحاب السفن. شيئاً فشيئاً فرغت سهول شمال القارة وهضابها وانسحب الناجون إلى عمق الأراضي يتوغلون فيها جيلاً بعد جيل هرباً من الوحوش الحقيقيين... وها نحن نأتيهم دون دعوة ونريدهم في استقبالنا.

تُفضّل المرأة المرفقة عدم التعليق خاصة والدليل يدعوننا إلى العودة إلى الطريق.

- أسف، فلجاناً الظلام، تكفي بهذا القدر.

تهمس المرأة الغاضبة في أذني.

- نهار كامل من المشي من أجل خدش وكس خرا وصياح منكر لأشباح من فوق الأغصان.

هذه المسكينة لم تتعلم إلى الآن أن سيد المر تلحين من يعبر العالم كما قال لوتسو.
"لا هدف ولا وجهة.

يغتم كل لحظة
ما تقممه له الحياة"

سمر الليلة الأولى

حول النار والليل أرخى سدوله على مخيم وسط أحراش منسية من كل الخرائط هذا الحديث أو ما يشبهه بين آدميين وضعتهما الصدفة جنباً لجنب.

-أي حصيلة بائسة! بالطبع سيادتك غير متأسف على شيء بما أنك لم تأت إلى ما يأتي إليه الناس.

-بالعكس أنا جد مسرور بحصيلة يومي.

-يوم لا شيء فيه يستاهل أن تخلده الذاكرة !

- لا تكفين عن الشكوى من غياب الكائنات التي جننا لإز عاجها والحال أن ما يضغط علي كثافة حضورها حتى وهي غائبة. فكري لحظة في الكائنات التي تعيش في قاع البحيرة التي وقفنا على شاطئها نمازح فرس النهر، في الفهد الذي ترك خدشا على جذع، في الكودو الذي أربعناه في أحلى أوقات القيلولة، في الثيران التي لم نر منها إلا بقعة سوداء مبهمه، في الأسد الذي قتل السانحة المسكينة وهو لا يعرف من قتل.

- هل أغلق عيني لاستحضار روح السانحة تروي لنا لقاءها مع هذا الأمد؟

- استحضري ما في هذه الغاية من كائنات، التي تختبئ بين الأعشاب، التي تبني أعشاشها فوق الأغصان، التي تحفر حفرا لبيضها في الرمل، التي لا تخرج إلا إبان الليل، التي هاجرت من هنا ولتي هاجرت إلى هنا، التي انقضت من هذا المكان وكان لها من الأشكال ما لا قيل لنا بتخيله.

- كفى، أصبّني بالدوار.

- انتبهني أيضا لهذا الجذع المقطوع الذي نجلس فوقه، لهذا الرذاذ، لهذه الأعشاب الميتة، لهذه الزجاجاة وهذا الكس، لهذا الصوت الذي تحدّثه النار، لهذه الرائحة المتصاعدة منها، لهذا النسيم الذي هب فجأة، لهذه القطرة التي نزلت بلضببط بين عيني ونظارتني فأذابت وجهك داخل ضباب كثيف، لهذه القطرة الجديدة التي نزلت مباشرة على عنقي وتسرّب من فوق إلى تحت ببطء مثير، لكلّ هذه الأشجار التي تحف بنا، لهذه الأغصان التي يرميها الدليل على النار، لهذه النجوم، لهذه الحصاة تحت رجلي، لهذه الأوراق التي أسقطتها الريح في حورك... انتبهني ل... أشباح الأوائل... كل الأوائل الذين مرّوا من هذا المكان .

- ما رأيك أن نرقص ونضرب لهم الطار لعظم يتكرومون بإشارة.

- لست بحاجة لطغوس بدانبة كهذه، لي طغوسي السرية تغنيني عن كل ضجيج.
تنتهد رفيقة الطريق وهي تشير إلى الدليل بصند إعداد العشاء.

- أرجو أن هذا الغبي يعرف لطبخ لأحسن مما يعرف طرق المحمية. على فكرة، لم أزر بلدانا الشواء فيها أذ من شواء بلدانكم لماذا لا تشرف على العملية أنت الذي يحاول إغرائني بالادعاء أنك طبياح ماهر.

- ذكرتني، بالفارق الأساسي بيننا وبين الكواسر المحيطة بنا. نحن سنتعشى باللحم المشوي وهي باللحم النيئ! لكن في آخر المطاف، كلنا من أكلة لحوم الكائنات الأضعف. الفرق الحقيقي أننا كواسر تتميز إناثها بصنغ الشفاه بالأحمر ونكورها بلبس ربطة العنق وأن هذا ما يجعلنا نعتقد أننا نسوى أكثر من بقية الكائنات.

تعود رفيقة السفرة المثيرة لما تظنه مزحا.

- كفى، وإلا أنت الذي سيتعشى باللحم النيئ!

- يا امرأة، رحماك... لا تفتحي جروح طفل ذبحوا واكلوا يوما أمامه أعز أصدقائه.

تفتح الذاكرة ملفت طفل في سنته الرابعة أو الخمسة يفتح عيني الرعب على أقصاهما وهو يشاهد سائلا أحمر يتفجر من العنق شلالات وأنهارا تسيل على إسمنت بهو الدار بعد أن انتزع منه أهله بالقوة كائنا لطيفا، وديعا، بريئا، كان يحنو عليه ويدلله كما لو كان له الأب والأم. وفي هذا الملفت المحافظ على كل التفاصيل، يضرب الخروف المقتول الهواء بقوائمه الأربع لدقائق طويلة، والقتال يمسح سكينه في منديل أبيض هادئا راضيا عن نفسه. لا يتمالك الطفل المصدوم نفسه فيهاجمه بقضتيه الصغيرتين، والرجل مصرّ على مداعبته، بل وعلى تقبيله لا يقتر ما يثيره في نفس مهاجمه من بغض. لا بد من جره بعيدا حتى لا ينقض مرة أخرى على المجرم وهو ينزع عن الجثة الهامدة جلدتها ويمزقها إربا إربا.

ينفجر الطفل في وجه أمه وهو بين صراخ غاضب وعويل يصم الأذان. لماذا فعلتم هذا به؟ ماذا فعلت خروفي؟ أكرهكم جميعا!! أكرهك، أكرهك ولن أكلمك إلى الأبد!!! أصوات نسائية آتية من أعماق الماضي تردّد: كفى الآن، تعال اجلس بيننا. لا تبق وحدك طول النهار في هذا اليوم المبارك. الجلوس بين النساء وهن يعيثن ضاحكات بأمعاء الصديق يحشونها بالخضراوات والتوابل لإعداد ما يسمونه "العصبان" لعشاء العيد! صوت الأم: يا بني هون عليك، إنه مجرد... قصد أنه، على كل حال هو لم يتألم كثيرا، يا بني، إنه كيش العيد ونحن نضحكي به في هذا اليوم المبارك لأنها إرادة الله. إرادة الله! من أين للطفل في هذا العمر أن يعرف أن الأدمي المسكين لا يخطو خطوة إلا وعزرائيل وراءه، أنه مجبر على تقنين الأضاحي ولسان حاله يقول للقوة المجهولة الماكرة: اتركي لي حياتي وخذي هذه بدلها.

يهرّ الطفل العنيد رأسه بالرفض لتبرير لا يفهمه، ولو فهمه لما قبله. لا تكفّ دموعه عن السيلان يذبّه عجزه عن حماية صديق اللعب من المصير الفظيع. يختفي بعيدا رافضا أن يكلم أحدا، مواسلا مراقبة تفاصيل السلاح والنقطيع، وعيناه بين فتح وإغلاق. تتلقف أيادي

الأم والخالة والجدّة شيئا أسود لرجا يضعنه مباشرة على نار الكائون. تصرخ فيه الجدّة بالكف عن الدلال وتنديبه أمه بلطف فيه بداية نفاذ صبر لينتوق شيئا من هذا الكبد المشوي اللذيذ. ماذا أصاب هذه المرأة التي تفهمني عادة، هل نسيت أنها تناديني يا كيدي؟ لا أريد طعمك؟ لا أريد، أكرهك، أكرهك وسأبقى كارها لك ما حييت.

تَهزّني مرافقتي من كفتي:

- ابقى معي، كنت تقول إنك لا تتحمّل رؤية اللحم اللبني.
- المصيبة أنه معروض على الأنظار في شوارع بلدي وهو يقطر دما. هكذا مشيت دوما فيها لا عا في سري كل هذا القبح، كل هذه الهمجية التي لا تثير إحساسا في أحد غيري. نعم، لم أزل في حياتي على كثرة ما رأيت من بشاعة، أبشع من الأشلاء الدامية للحيوانات المقتولة المعلقة في واجهة دكاكين الجزائرين.

تغتتم مرافقتي الفرصة لتسجيل نقطة أخرى لصالحها في نقاش كما هو الحال في أغلب سجالات البشر-صراع بالكلمات بديلا عن الصراع بالكلمات.

- خاصة إذا تكذّس عليها الذباب.

- سأسمح لك بسبب قومك وخذي راحتك، أما سبب قومي فخزني لي أنا وحدي. أواصل. هناك ما هو أفظع من دكاكين الجزائرين ببلك وببلاي: محطات سفر يتوقف فيها الناس للراحة والأكل، والخرفان المعدة للذبح تنتظر دورها تحت دخان الشواء لا يخامر فكر أحد أنها تعيش رعبا صلتما وهي تنتظر الذبح تحت أشلاء أم أو أخ أو أب.

تقاطعني امرأة تقف الاستنكار وهمها الوحيد أن أواصل.

- ارتفع صوتك، الدليل ينظر إليك باستغراب.

- ليذهب إلى الجحيم هو وكل الكائنات غير الحيوانية غير الشجرية.

- وماذا فعلت أمام المنظر البشع؟ هل شمتت الجزائر والشواء ورواد المطعم؟ هل اشتريت الخرفان وأطلقت سرلها؟

- لذت بالفرار بكل شجاعة وروح مسؤولية عالية. للانتقام مني ومنهم كانت تأتيني صور عبارة ممتعة لقطيع من الأدميين ربطوا بالحبل إلى وتد الجزائر، ينتظرون أن تنفد لحوم أمهاتهم وأخواتهم وأن يأتي عليهم الدور والخروف ينفخ على نار الشواء، يضاحك نعجة ويغازلها.

- غريب، أنا أيضا "أرسي" أحيانا عند تجوالي في المدينة كلابا عملاقة تجرّ بالحبل أدميين يتوقفون أحيانا للتبول تحت الحيطان.

- روميو وأنفه في مؤخرة جوليات يستنشق روائحها المثيرة! عطيل فوق ديمونة! وكل كلب يجذب إنسانه متحرّجا، إنها حقًا لصور منعشة للروح!

تضحك رقيقة الطريق إلى أن يملكها السعال. أعتزم الفرصة للتفتيس عن كل ما تراكم داخلي من أوجاع الطريق.

- أذكر يوم فرضت علينا الكلية زيارة المذبح البلدي في إطار التدريب على سلامة الأطعمة (أطعمة الأعميين طبعاً). كانت الأبقار تنزل من قطار حشرت فيه بالمئات تحت الضرب لتصطف الواحدة وراء الأخرى في ممر لا يسع إلا بقرة واحدة. عند وصولها الباب كانت تتوقف بانتظار أن يأتي عليها الدور. من يستطيع فهم ما تبذله القطيع من علامات رعب مطلق، من يلس نهائي، من تمرّد عاجز، من مشاعر وأحاسيس وصور وأفكار لا تمرّ إلا بمخيلة البقر؟ ها هي الضحية العاجزة وجها لوجه مع أمني يضع بين قرنيها سدسا بكتم للصوت. يضغط على الزناد فتتهوى على الأرض كأنّ صاعقة أصابتها. ما هي إلا بضعة ثوان حتى تجد نفسها معلقة في الهواء ميتة - أو هذا ما يتمناه لها المرء - وقد أمسكت بها آلة لرفع الأثقال كئلك التي تشاهد في الموانئ. يتنقّم آنذاك الجرّار الأول فيقطع الرأس بالسكين لتندفق شلالات من الدم والرّجل يثرثر مع زملائه والسيجارة بين الشفتين. تواصل آلة الرفع تحركها إلى الأمام على طول شريط حديدي معلق في الفضاء. وفي كل خطوة من تحركها بقية سلسلة الجزارين: الذي يفتح الفريسة بسكينه من فوق إلى تحت بضربة بارعة، الذي يستلّ الأحشاء، الذي يخصّ بسكين كأنه سيف هذا الجزء أو ذاك من الجسم الساخن. ما هي إلا بضعة دقائق حتى يتم تفكيك كائن أخذ تعلم صنع أجزائه وتجميعها ملايين السنين. على فكرة هل انتبهت يوماً لكون الحيوانات تموت دون ضجيج؟ لم أضرب بحذائي يوماً وأنا في حالة هستيريا ثعباناً، أو فأراً، أو سرب نمل، فصدر منه سبّ أو صوت منكر. كل الخرفان لا تنبس ببنت شفة وهي تُدبح. لَمَّا يثب الأسد ليمسك بأنيابه حنجرة الغزال - يُقتل الأول ويموت الثاني - يحدّف بهما وقار الصمت. أما عند الأدميين فيرفع القنيل عقيرته بعويل يجمد الدم في الشرايين والقاتل يصيح كالمجنون يحيا الاميراطور أو يحيا لوطن وحتى يحيا الموت.

كيف يمكن لكائن له هذه القدرة على الإيذاء - إيذاء بني جنسه وإيذاء كل المخلوقات - أن يكون أرفع مخلوقات الله كما تدعون؟ ماذا لو كان العكس هو الصحيح؟
 - ربما معك حق، لكن ماذا سنفعل بمثل هذا الاكتشاف؟ طبعاً الإنكار وإلا كيف نواصل الطريق؟ ما رأيك في النوم، ينسينا كل هذه الهوموم؟
 - موافق شريطة أن يقبل البعض بهدنة وألا تترصد بنا الكوابيس على الضفة الأخرى لهذا العالم.

"الليل وطوله (شيكبي)

والقرد يرنو إلى السماء حائراً

كيف الإمساك بالقمر؟"

*

من الغد توقظني رقيقة لسفرة:
 - انهض، إنه الفجر. يكفي ما نمت.

- عن أي نوم نتحدثين، مفاصلي كلها أوجاع وجلدي حريق ملتهب. حتى في أقبية وزارة التعذيب لم أعرف مثل هذا البعوض.

ما أرقّ نسيم الفجر! ... ما أروع هذا الهدوء! ما ألطف هذا الجو! ... يا ما في هذه اللحظات من سحر! صدق من قال: إن استطعت، فأجعل كامل حياتك فجرا (المسعودي).
... أي شيء أهم من التمتع بهذه الساعات التي ما زلنا فيها أحرارا وأحياء! كم صدق أيضا المثل الصيني: اغتنم ما بقي لك من فرص ربما فات الأوان أكثر مما تتصور.

تستعجلني مرافقتي لعودة الركض وراء أشباح حيوانات. نذرد فطور الصباح لننطلق مجددا بحثا عن أصحاب الأثر الذين يعدنا الدليل إنهم سيبدأفون عند الفجر للشرب من ترعة هي الآن أملنا الأخير. ساعات أخرى من المشي ولا شيء مما يريد الدليل إبهارنا به.

فجأة يتوقف ضاغطا على ذراعي مشيرا برأسه إلى يمين لطريق. ثم شيء ما وراء أعشاب عالية على الشاطئ المقابل للغير. مانا بالضبط؟ ألتفت إلى المرأة فلنا بها باسمه مفتوحة العينين على أقصى اتساع تهمزني وهي في قمة الجذل:

- وصلنا في الوقت المناسب لتأملها أخيرا.

- أنت، أما أنا فلم أصل يوما مكانا أو وضعا إلا بعد الأوان أو قبله.

- أكون رأيتها وترفض الاعتراف؟ فلجئك أكثر من مرة تخلع نظارتك لا تريد أن ترى نوعا من الأشخاص والمناظر.

- لكنها فوق أنفي. صدقيني، لم أر شيئا. سمعت فقط صدى شيء يمر. عمّ تتحدثين؟

يهمس الدليل: فرت الغزلان، اطمئنا، كل الحيوانات تأتي في الصباح للشرب. سيسعفنا الحظّ بروية من لم يأت بعد.

نجلس فوق أكمة تشرف على بركة لسنة من الماء ولها من البعد ما يكفي لوضعنا خارج مدار الخطر. مازال الحرّ في حدوده المعقولة وكذلك صراخ الكائنات.

تهزّ المرأة كتفيها.

- سيكون يوم زفت مثل الذي انقضى.

- أملنا الأخير في الكسالي، من سهروا البارحة إلى آخر هزيع من الليل ومازالوا يغطون في النوم. كاني أسمع صراخ الزوجة أو الأم: يا ولد انهض، سيشرّبون كل الترة وسيلذتكَ تغطّ في النوم. أه يا عيب الشوم على حيوانات آخر زمان، في عصري كان الواحد منا ينهض في مكتمل النشاط قبل احمرار الأفق، ينطلق مغنبا! الحلوة قامت تعجن في البدرية والنيك يؤذن: كوكو كوكو...

- تغني أيضا!

- إنها أغنية جميلة تطلقها إذاعات بلداننا كل صباح لتحريض الكسالي والفقراء على الخروج من الفراش، نوع من الدعاية للعالم. حتى الأغاني الإشهارية يمكن أن تكون جميلة

وهذه واحدة منها، خاصة حين تغنيها امرأة سحر جمال صوتها أمةً بأكملها. كوكو كوكو
تعجن في البدرية !!
يضع الدليل مجدداً إصبعه على شفتيه قافزا كلُّن ثعبانا لدعه ثم يشير إلى أكمة من الأشجار
القرمّة.

هذه المرّة وصلت حقا وبالضبط في اللحظة الثمينة التي يجب فيها الوصول.
تنتصب أمامي عن بعد عشرة أمتار على الأكثر أربعة كائنات عملاقة على قوائم شاهقة
ترفع أعناقها بالغة الطول تبتت عليها رؤوس ماعز أو غزالن كأنها جعلت لري لسحاب.
تصطف على شاطئ الغدير تباعد بين أطرافها كأنها تواجه بعض الصعوبة في ثني الركبة.
تنجح أخيرا في إزال الرأس إلى حيث يوجد الماء الزلال ثم ترفع رؤوسها بسرعة كأنها
تخشى مفاجئة غير سرلة. فجأة تتواجه زرافتان فيتقاطع عنق الأول مع عنق الثاني يرسمان
صورة لحيوان برأسين نبتا في اتجاهين معكسين. ثم تدير لنا الكائنات العجيبة ظهرها،
تختفي عن الأنظار بالسرعة التي برزت بها.

من جديد، خيالي وحواره الذي لا يتوقف مع هذا الذي أسميه "الشيء":

لاء، لست إلا عجوزا خرف قبل الأوان... كل ما في جعبتك اللعب على تنوع
الأشكال وتغيير المقاييس.. هل لك حقا من جديد تبهرني به؟ ... مثلا عالم بلا كواسر
وطرائد، ومع هذا لا يختل له توازن.

تصرخ مرافقتي:

- اللعنة على هذه الحيوانات الغبية، لم تترك لي الوقت لأخذ أية صورة.

يتوجه إليها الدليل بنبرة من نقد صبره من الأبلهين:

- يا سيدي، كل الكواسر تأتي إلى هنا بحثا عن فطور الصباح، لذلك لا تطيل أي من هذه
الحيوانات المقام في مثل هذا المكان.

كائنات جائعة تبحث عن كائنات خائفة وكائنات خائفة تبحث عن النجاة من كائنات
جائعة.. كلها كائنات مسكينة! هي الأخرى لم تتلق تسهيلات نحمدها عليها ولو أنه لا
يوجد، لو تمتعت هي في مصيرنا، ما يجعلها تحسنا عليه.

تنوجه إلى امرأة ما زالت هي الأخرى تحت وقع الصدمة.

- على فكرة، سيادتك لا تحمل أبدا كمييرا ولا تهتم بالنقاط لصور التذكارية، لأنك لم تأت
هنا إلا للتلفس الفرغ.

- هل انتهيت أنكم تستملون في لعنكم فعل shot لأخذ الصورة.

- وحده شخص سيء الظن بالبشر وخاصة بقومي يظن أننا نقرن بين أخذ الصورة بالكاميرا
وطلقة الرصاص.

- اللغة أكثر من وضع ملصقات الاسم على الأشياء. هي عقلية المتكلم ورؤيته للعالم وتعلمه
معه.

تغير المرأة الموضوع مجرّبة المزح للتغطية على تزايد توتر أعصاب المتحدث والمستمع:

- بصراحة، ألا تريد لك بعض الصور وقمك على جثة أسد؟

- العياد بالله أفضل صورتي أتوسط العنزة والبقرة والحصان والجمال يعيشن، وعلى رأسي حمامة بيضاء أفردت علي جناحيها ولا بأس أن يكون في منقارها غصن زيتون.

أما بخصوصك سأتركك تلتقطين ما شئت من الصور للكائنات التي تترصده وراء الأعشاب، ثم سأصرخ مثل طرزان أتبهها لوجود لحم طريّ شبه مضمون لما يعرف عن البشر من بطء الركض وضعف المخالب ولو كانت لأنثى.

- انتظر تذوقها وستعرف تكلفة بطء الأدميين في الركض هربا من الأدميات.

نعود إلى المشي وراء دليل متزايد الضيق من عودة ضغط الزبائن وتواصل دلال حيوانات لعينة قوّرت أن تمنع عنه بقشيشا يدرك بخبرته المهنية الطويلة أن حجمه بعدد الكائنات التي استطاع الزوار إطلاق "فلاش" الكاميرات أو رصاص البنديقيات عليها.

يلتقط الذهن الشرود آخر جمل الدليل يواسي زبونة غاضبة:

- حقا، سوء الطالع بلاحتقا. هذه محمية فيها الكثير من القطط والعدّة رؤيّة البعض منها حتى أول يوم.

أتخّل في الحديث:

- قطط هنا في الأحرار؟ إنها حيواناتي المفضلة لما تظهره من استقلالية ونكران للجميل. كم أحب ما تظهره من تباعد وتكبر حتى على الذي يطعمها وكأنها تقول له: أي شرف ميزتك به وأنا أقبل أن تخدمني. حقا، إنها حيوانات عجيبة.

تيزّ مرافقتي كفتيها.

- قطط هذا المكان من النوع الذي لا تستطيع وضعها على ركبتيك. أتمنى أن أهديك واحدا منها لتجوب شوارع مدينتك تجرّ الأسد أو الفهد في حين لا يجزّ صغار القوم إلا أشع الكلاب.

- أول شيء سأفعله إطلاق سراحه وتحريضه على أكل أكبر عدد من المازة ناصحا بالبدء بالأطفال والنساء في مقبيل العمر لطرأوة لحمهم.

- يا عدوّ البشرية، لا تنتظر منّي تعاطفا إذا التهمك قطّ جاع من قطط هذه المحمية اللعينة.

- لا أنصح المسكين بالأمر فلذي بكسو عظمي لم يعد لحما منذ زمن بعيد وإنما قتيّدا، أه لا تعلمين ما القتيّدي؟ إنه لحم نجفاه بعد التضحية بخروف العيد المسكين. لا أقطع منه مذاقا، مالح، تتكسر عليه الأسنان وهو بطراوة الخشب، ومع هذا لا إفلات منه وقد قوّرت إباننا لسبب لا أعرفه ولا أظنّ أنهن يعرفنه أن كسكسي رأس السنة لا يكون إلا به.

فجأة يتسمّر الدليل من جديد في مكانه هامسا بجذل غير مصطنع:

- وراء الشجرة، انظر، إنه وحيد قرن أبيض. إنه نادر في هذه المحمية التي يكثر فيها الصنف الأسود.

تجتو مرافقتي على ركبتيها وكلها تاهب لأخذ صورة العمر. تصرخ همسا:

- هل رأيته؟

- آه طبعاً رأيته، هل تعتقدن أنني قصير النظر. إنه هناك بالضبط.

- تمزح؟ هذه سخرة، انظر في الاتجاه المعاكس.

- اطمئني، رأيته الآن.

أنا بنفس الصوت الهمس متوجهاً إلى الدليل:

- عفواً، لماذا تقول إنه أبيض، إنه حسب ما أرى...

- وحيد القرن الأبيض والأسود كلاهما رمادي.

- عجيب!

يتعظن الرجل إلى ما في قوله من غرابة وما في لهجتي من سخرية. يهزّ كفيه مفضلاً متابعة الحيوان وهو يدخل ببطء الأحرار، وما عليّ إلا أن أتدبر أمري لأفهم لماذا يصنّف حيوان رمادي مرة أبيض وأخرى أسود؟

تقطع عليّ رقيقة الطريق خاطري.

- بريء أفلت من استعمال قرنه لشهواتكم الجنسية أو كغمد لخناجركم المعقوفة، أيها الإراهبيون.

- لكنه لن يفلت من حنوكم عليه فرداً بعد أن تمرتم جنسه وبيئته أيها المتحضرون.

- هل جرحك؟ لا تؤاخذني. لا أفهم كل هذه اللامبالاة منك. لست من ألححت عليّ لأنظّم لك هذه الزيارة، هل تمثّل؟

- كل الأمر توّرعني بين شعورين متناقضين: الرغبة في رؤية بعض من هذه الكائنات العجيبة التي لا تتزاحم في شوارع المدن التي أعرف، و... الحرج. هل كنت تقبلين بأن يدخل بيت الحمام في دارك ثور بحجة تعطّشه إلى معرفة الأميين، وأن له تقريرا عن رحلته يجب أن يدوّنه لينال به الشهرة بين بني جلدته لاسميكة؟

على كل حال أنا جدّ ممنون وجدّ سعيد وجدّ راض عن يومي. لا أدري على مانا أركز وكل هذه الروائع التي لا تولينها أدنى اهتمام تشدّ انتباهي.

تستعيد المرأة حيويتها وهي تلتفت نظر الدليل لبقايا صيد أحد الكواسر. تأتيني كلمات الدليل وهو يهني صاحبة البقشيش المنتظر بفطنتها وكيف أنها ملاحظة جيّدة، وأن هذا فعلاً رميم غزال طومسون اصطدته حسب رأيه لبوة ماهرة لا أسد كسول خلافاً لما يعتقد أغلب السياح.

لصيد! أهمّ حدث يشهده هذا العالم منذ الأزل. نوعان أساسيين منه. الأول صيد الأسد للغزال، من ثوابته ضراوة انقضااض الصيد وأنفة مراوغة الضحية، الحسم السريع بالخاتمة السعيدة للأكل والفظيحة للمأكل أو بتجدد العقد بين الغزال والحياة بين الجوع والأسد. الثاني صيد تئين الكومودو لثور رافد في الوحل يكتفي بعضة واحدة لا تتسبب له إلا في جرح بسيط لكنها تحقنه بسّم بطيء المفعول. لا يبقى على التئين إلا ملاحقة ضحيته أحياناً لأسابيع ينهشه هنا وهناك وفي كل عضّة يحقنه بمزيد من السّم إلى أن تخور قوى

الثور فيسقط لقمة سانعة تمرّقه المخالب والأنياب وهو نصف مَيّت نصف حيّ. يأخذ صيد الأدمي للأدمي من تقنيات الأسد والكمودو، والظروف وحذها من تُملي أي الخيارين الأفضل.

ليس في هذا العالم غير أكل ومأكول، قاتل ومقتول وأهم فعل فيه قتل أما الباقي من الأفعال فتعاليق وهوامش.

يتواصل الهمس بين الدليل ورفيقة الطريق بخصوص الفاعل والرجل يؤكد لها أن الفاعل ليس الفهد صاحب الإمضاء على جذع الشجرة الذي قد يكون قريباً منا لأن الفهود تفرّ بصيدها إلى أعالي الأشجار للحفاظ عليه من سرقات الأسود وبني أوى. حتى هنا كانت يسرق بعضها البعض وتحتل لوضع الغنيمة خارج شره المنقسين. فجأة تتحرّك بعض أغصان أشجار قريبة منا يتعالى منها صراخ منكر. يهمس الدليل: لا تهتمّ، مجرد خصومة قردة الشمبانزي.

أهمس في أذن مرافقتي:

- على أي شيء يتخاصم بنو عمومنا الأقرب والأشبه؟ على أنثى شبيهة مكتنزة العجز على خلافة طاغية مسنّ، على الشهيرة بين الشباب، أم على توسيع رقعة الوطن المفدى الذي تهدد حدوده المقدسة جحافل الأعداء؟ لا تلتيني أخبار آخر حرب أو أسمع صراخ الجيران إلا وقتك في نفسي: ثمة هرج على الأغصان.

تضحك مرافقتي.

- ليس الأمر دوماً هكذا. تنكر ما يُقل عن بني عمومنا الآخرين: البونوبو. يكفي أن تقوم أبسط خصومة بين قيس وليلاه حتى تبادر الأنثى بتقديم عجزها إلى الذكر فينال غرضه وتنتهي الخصومة في الحين. ما إن تلوح في الأفق بوادر سوء تقاهم بين الجارة وجارتها حتى تبادر الأولى إلى شعر الثانية تبحث فيه عن قملة تضايقها فتتنزعها بكامل اللطف فيهدأ غضب الأولى وتبادر هي الأخرى بردّ الجميل. هكذا يقضي البونوبو حياتهم بين الجنس واللعب.

- لذلك لم يظهر بينهم ثوري مصلح أو نبي، لعدم حاجتهم إلى أي من هؤلاء، ثم تدعون أيها البشر أنكم أرقى مخلوقات الله.

- على الأقل نحن نستطيع أن نضحك من أنفسنا، ليس هذا أحسن دليل على أننا أرقى مخلوقات الله؟

- لا أرقى ولا بطيخ. لسنا إلا حيوانات من بين كل الحيوانات والدليل كثرة القواسم المشتركة. نحن نتشارك مع السباع في ضراوة الدفاع عن قطعة أرض نريد كل خيراتها لنا وحدنا، الفارق أنهم يرسمون حدود أرضهم برائحة البول على أشجار معينة ونرسم حدود الوطن المفدى بالأسلاك الشائكة وكاميرات التعرف على الوجوه في المطارات. نحن نقاسم مع الذئاب تقنيات الصيد جماعياً الفارق بيننا وبينهم حجم المجموعة التي تخرج لاصطياد وأكل ما هو أضعف. نحن نتشارك مع النمل في تنظيم الغارات الحربية لتي لا

تبقى ولا تنذر على الجيران لسرقة ما يملكون أو لاستعدادهم، الفارق أنه ليس له إلا أجسادهم كسلاح ونحن نستطيع اقاء القنابل الذرية من السماء. نحن نتقاسم مع قبيلة البحر الصراع على السلطة الفارق بيننا وبينهم أنهم لا يرفعون صورة الزعيم الأوحده الفائز في تصفيات القتل بين المتنافسين على الزعامة. نحن نتشارك مع الشمبازي في الصراع على الأثني، الفارق أننا نمسرح هذا الصراع طول الوقت مما يعطينا مقتل كارمن في الفضاء الخيالي ومقتل بوشكين في الفضاء الحسي. حتى لا نظلم أنفسنا نحن نتشارك أيضا مع الثعالب والكلاب والقطط والقهود والأسود في حب صغارنا وفرح اللعب والتهرج معهم.

-أه، أخيرا تعترف لنا بشيء إيجابي...

-كل هذا وراءه نفس الهرمونات، ووراء نفس الهرمونات نفس القوى المبهمة التي تلبس عبرنا جميعا أشكالاً مختلفة لنفس القصص وإن تباينت حجما وتعقيدا.

نعم، نحن حيوانات كيميائية الحيوانات، لكن ما الذي يعطينا عليها كل هذه السلطان؟ الكتابة؟! هل تكون هي السر؟... ألا تحتاج الحيوانات والأشجار حتى تتطور لتغيير في الجينات يتطلب ملايين السنين، بينما نستطيع نحن البشر بالكتابة نقل تجاربنا وتوظيفها والزمن المطلوب لرفع قدرتنا بحسب بالقرون وأحيانا بالعقود لا أكثر؟

ينبئنا الدليل أننا قد تعبنا بما فيه الكفاية وهو ما يعني أننا أتعبنا المسكين فوق اللازم وأن علينا اتباع طريق العودة لنتراح وخاصة ليرتاح هو منا.

سمر الليلة الثانية

في المخيم تعود مرافقتي للثرثرة، لا أصعب على الأدميين من التزام الصمت طويلا وهم جنبا إلى جنب.

- يا رجل، قلت لك انتبه لوجودي، في ماذا كنت تفكر؟

- في أشجار هذه المحمية على قلنتها وصغر حجمها. لا أنت ولا الدليل ابديتما أدنى اهتمام بها والحال أنها أجدر بالاهتمام من كل ما ركضنا وراءه عبثا.

- يبدو أن البحث عن الطرافة ومخالفة الرأي العام خاصة فيك تتعهدا بكثير من العناية - أبدا. عن بعض المنتهيين الذين من سخرُوا حياتهم بحثا في أسرارها أن الأشجار تتكاتف وتتعاقد بينها، أنها تتبادل المعلومات عن الأخطار التي تهددها، أنها تدافع عن نفسها بتسميم الحيوانات التي تبلغ في قضم أوراقها، أنها تتعاون مع الفطر، مع النمل، مع الطير، مع الريح وحتى مع النار للحفاظ على وجودها، أنها تشعر ولو أنها تشعر لا كما تشعر وحتى أن الأزهر تسمع ولو انها تسمع لا كما نسمع.

تهز المرأة كتفيها غير مصدقة أننا عندما نقف أمام الأشجار لنحرق ونجتث فنحن صرح من الغباء الصارخ في تعذي على صرح من النكاء الصامت.

يوم مشيئاً وراء نخلة مقتلعة لحينها، وجزّار البلدية البطيء الحامل لجثتها بسند الطريق، وطابور طويل من السيارات وراءه... كم كرهت الأغبياء وهم يزمرون بعصبيّة ولا واحد فيهم واع أننا نمشي في مركب جنازة وأن عليهم التزام وقار الجنزات.

يجب مواصلة زعزعة فتاعات تمنعها من تجدد الانتباه.

- ألا يذهلك أن الأشجار لا تموت لما تنمرّ لنيران تسعة أعشار "جسدها" وإنما تتجدد كلياً بينما يكفي أن يدمر المرض عضواً واحداً من الجسد الأدمي حتى تنتهي حياته؟ أليس من باب المعجزة أنه عندما يكسر لها غصن تخلق غصناً جديداً على عكس الأدمي الذي يستطيع تجديد ذراع ذهبته به قبلة؟

- على فكرة ما اسم الشجرة التي اكتشفوها في جزيرة نائية تسمى "تسمانيا"، لا يموت لها جذع إلا وتواصلت من جذع آخر، تتحدى الموت منذ عشرة آلاف سنة.

- عشرة آلاف سنة! بالضبط الفترة الزمنية التي أحتاجها لإكمال استكشاف هذا العالم وتبنيج تقرير له الحد الأدنى من الجديّة. أه، لو علمتني سرّها.

تضحك المرأة ضحكة صفراء.

- صحيح أن الأشجار وجدت قبلنا بملايين السنين وأنه لولا وجودها لما وجد هذا الهواء الذي نتنفسه وبالتالي لما وجدنا.

- أه بدأت تليّنين موقفك بربّك، ماذا لو فقدت هذه الكائنات الثابتة صبرها ورحلت إلى بعيد لتتركنا وحدنا؟ مؤكد أننا سنبحث إليها الأطفال والعداري نطلب الصفح، نعلن التوبة، نرجوها العودة، نلحف بكل المقدّسات التي لم نقّدها أننا سنفسح لها الجبال والصحاري وكل الهضاب، أننا لن نأخذ منها ولن نطلب منها شيئاً باستثناء أن تمنحنا مجدداً ظلّها وجمالها.

- إلى أين تريد الوصول بكل هذه الفلسفة الفارغة؟

- إلى ضرورة العودة لعبادة الأشجار أينما وجدت وعلى أية حل.

- العودة لعبادة الأشجار! ... يبدو أن الحرّ أثر عليك أكثر مما كنت أتصور.

- ألم تعبد قبائل ليتوانيا والسويد الأشجار إلى موقى القرن الرابع عشر؟ تخلّوا عن فكرة عقريّة كهذه لعبادة آدمي يدّعي أنه ابن الربّ! ربّك هل في الأُميين ما يُعبد؟

- ثمة كثير من الغصريين في هذا البلد، لكنني اكتشف فيك أول عنصرٍ معاد لكل البشر السود والبيض وبقية الألوان والأشكال.

- بالعكس أنا جدّ معجب بقسم منهم، خاصة الأوائل الذين كانوا يقيمون للأشجار مراسم زواج. كانوا يتقمّمون لها بالاعتذار عندما يضطّرون إلى قطعها. كانوا يؤمنون أن الشجرة تكي تحت الفأس وأنه يجب عدم كسر الغصن مثلما يجب عدم كسر الذراع. كم من قبائل حرّمت قتلهاها تُسارع إلى غرس نبتة تعويضا عن كل شجرة مقتولة. ما يجعلني أمل بمستقبل للبشر أن منهم حتى في هذا العصر المجنون من يغامر بحياته دفاعاً عن حياتها.

هل سمعت بتلك المرأة المسماة جوليا بترفلاي هيل التي اعتصمت قرابة ثلاث سنوات على ارتفاع أربعين مترا بين أغصان شجرة سيكويا عمرها ألف سنة، تحميها بجسدها من منشار تجار الخشب؟ قرابة ثلاث سنوات وبنث الثلاث وعشرين سنة تقنات بما يرفعه إليها من مؤونة حفنة من العلاء مثلها. لم تقبل بالنزول إلا بعد أن أعطيت كل الضمانات أن شجرتها "لونا" لن تقنّت حطبها. كانت هذه المرأة الحكيمة تقول "نحن لا نتصرف كما يجب أن يتصرف الأوائل تجاه ذريتهم. نسينا أننا أوائل الأجيال القادمة، أن علينا أن نترك لها عالما قبالا للسكن"

هذه المرأة والكثيرون من أمثلها يتجمعون اليوم في أكثر من غابة من يحقون بالأشجار متعبدين للقوى المقدسة التي تسكن جذورها وجنوعها وأغصانها وأوراقها.
- آه، أخيرا عرفت بأي دين تدين.

ديني؟ الذي أوصى به أصدق دليل.

لقد صار قلبي قبالاً كلِّ صورةٍ
فمرعى لغزلانٍ ودينير لرهبانٍ (ابن عربي)
وبيت لأوثانٍ وكعبة طائف
ولواح توراة ومصحف قرآن
أدينُ بدين الخبّ أنى توجّهت
ركايبه فالخبّ ديني وإيماني
تعود المرأة لممازحتي:

- قل لي قبل أن أقبل بدينك الجديد، كيف هي الطقوس؟ حدثني عن الصلاة مثلا، كيف تقيمونها أنتم عبدة الشجار.

- كل صباح قبل الذهاب للمستشفى أردي ملابس خفيفة ثم أذهب لمكان العبادة. النزاعان إلى فوق عشرة مّرات، عشرون مّرة ثني الركبة، استلقاء على الظهر ثم رفع الجذع إلى فوق، أكثر عدد من المرات. كل هنا والمؤمن في مأمن مطلق من الباحثين عن الكفر والكفار، لأن الأمر بشهادة الحراس تمارين رياضية يمارسها كهل يريد التخلص من كرش غير أنيقة. ما يدهشني تزايد صفوف المؤمنين.

- وبعد الصلاة؟

- مُتقطع الأنفلس أجلس في حضرة المهابة والجلال مردّدا في سرّي: يا سيّدي جوناس، يا سيّدي جوناس!

- من؟ لم أسمع بقديس أو إله بهذا الاسم.

- جوناس، الاسم الذي أطلقته -هكذا دون سبب- على الكائن غير الأمي غير الحيواني المشرف من علياء شموخه على بحيرة صغيرة يلعب فيها البطّ ويسبح الجع. لم يبق لي أمل إلا فيه وقد خذلني لحدّ الآن العوث والمحجوب وسيّدي الخفي وسيّدي محرز وبقية أسياد وسيادات الأب والأم.

-واصل التضرع له، لعله يحنّ عليك أكثر من إلهة وقديسي البشر.

- ما أعرفه لحد الآن من طبائع البشر وطبائع الشجر تجعلني أضع في جونس كل تقني وأمالي. أسف لإخبارك أعلى درجة سلم الكائنات ال ثبات وبعدها بني حرية وأنتم البشر آخر الطابور. لا أفهم لماذا حشرت في شكلكم؟

- لا بد أنك كنت في حياة سابقة فردا مشكسا ومعارضاً ففُزرت لك أن تمشخ آدميا في هذه الدنيا كأشد عقاب.

- تفسير منطقي. لهذا حاولت في هذه الرحلة أن يبقى ملقي نظيفا علّ السلطات العليا لعلها تعيد بعثي شجرة في الرحلة المقبلة.

نعم لن أقبل بالبعث إلا نظة أو زيتونة أو أرزة والأفضل شجرة كاوري أو سيكيا ، شامخ الجذع، وارفا الأغصان، رام بجذوري بعيدا في أغوار العتمة... في شرايبيني تتدفق عصاره الحياة، محمل بكل البذور، بكل الأزهار، بكل الثمار... بيت السنجاب، ملجأ النمل، مرصد النسور، مخبأ الفهد... محميا بظلي يفكر الحكيم، يحكم العادل، يستريح المتشرد، يتسلقني الطفل... على جسدي يحفر العشاق أسماءهم، أطعم من هبّ ودبّ لا أنتظر جزاء ولا شكورا... لا يخرجني من وقاري مسمار أو منشار ولا حتى لهب النار... لا أنتظر أحدا أو حدثا، لا أخشى أو أمل شيئا... صلب، لين، هادئ، صامد في وجه الأنواء والدهر... الريح والفرش والنحل رسل أشواقني.. تأتيني الشمس بأخبار النهار وأشعة النجوم بقصص الليل منتبه، شارد الذهن، أغفو على تخوم اللاوعي والوعي، ساكن أتأمل من علوي تلعمم الزمان والعالم هو الذي حولي يدور.

تلتزم مرافقتي الصمت وكأنها تفكر في منافع أن تبعث هي الأخرى شجرة. ثم تغير موضوع الخصام المقتعل.

- لنتسن أشجارك المقدسة وهذه الحيوانات اللعينة التي تصر على مواصلة لعبة الغمضة معنا. تعال، كن ولدا طيبا. فصن علي قصة مسلية ورفيقة كنتك التي تُحكى للأطفال قبل النوم. حذار، يجب أن يكون الأدمي في منتهى الطيبة والحيوان في منتهى الوداعة والعلاقة حب ووثق، أسلوب أفلام الأطفال ليلة عيد الميلاد. لك لي مثلا عن دبّ التسبخ الذي كنت لا تنام إلا هو في حضنك، أو عن كليك الصغير الذي كنت لا تفارقه.

- ليس لنا دبية في الصحراء، اللهم إلا إذا كانوا أخفوا عني الأمر. أما كلابنا فذيقها الأمرين.

- ربما كان لك دمية جميلة لجمل أو كلب أو حمار.

- أخشى أن تضحكي مني إن حدثتك عنه، عديني بعدم فضح الأمر.

تعدني مرافقتي بالأمن وأنها لن تفضح السر، على الأفلّ طيلة بقائنا في المحمية. الأمر الذي يشجعني على رواية القصة بل ومن بدايتها مع بعض المبالغات القليلة هنا وهناك.

كان يا مكان في واحة نائية، عجوز فقير تركه ابنه وحيدا وترك عنده طفلا مشاغبا يرقق السماء والأرض بهرجه الدائم وأسئلته الغريبة التي لا تنتهي.

كلن جدي لا يملك غير حوش متداغ وحمار وجمل يعينانه على أعماله الزراعية وقضاء حوائج الأخرى. أما الجمل فقد كانت علاقاتي به بالغة السوء. أذكر، وأنا في بداية سنتي

الرابعة أو الخمسة، أنه أصابني بضربة بارعة بخفه خلت أنها سترديني قتيلا. باعت كل محاولاتي لركوب ظهره بالفشل الذريع. من أين لي تسلفه وهو بجرمه وأنا بقامتي؟ وإذا وجنته باركا وقفت فوق ظهره، نهض اللعين ورماني على الرمل. لكل هذه الأسباب ولغيرها، أيقنتُ باكرا أنه لا خير في البعير. هكذا قررتُ تجاهل الحيوان وذبياته كما أفعل منذ ذلك الزمان مع كل الذين أدرك بالتحجيرية أنه لا قواسم مشتركة ولا تفاهم ممكن معهم. من يومها قطعْتُ كل العلاقات الدبلوماسية مع هذا الكائن رغم صلة معرفة في القدم بين قومي وقومه.

لم يبق إلا الحمار. كان خلافا لذلك المتعجرف بالغ اللطف والهدوء والصبر. كم أشعر بالذنب اليوم لما أنقذته إياه من أصناف التعسف والدلال. كان عنترُ سهلَ الامتطاء وكنت أشعر وأنا فوق ظهره بأنني فارس الفرسان أركله في جنبه، أنهال عليه بالعصا، أصرخ فيه بأعلى صوتي ليركض بأقصى السرعة، ثم أخرج سيفي المصنوع من سعف النخل من غمده أرفعه عاليا لا أنزل من ظهره إلا وقد انتصرتُ على أعداء أبي.

- هل كل جدك يتركك تأخذ حماره متى شئت؟

- الحمير في عهد جدي لم تكن تشغل بمفتاح يخفيه صاحبها. كنت أنتظر أن يبدأ العجوز عمله في الحقل لأخطف عنتر، فينطلق شريطة ألا أنسى -من فرط تسرعني- فك الحبل المربوط به إلى جذع النخلة. ثم إن جدي، كان ككل جد يحترم نفسه ودوره ولا يسعده شيء قدر أن يترك الطفل يتشيطان عليه وهو يخفي ضحكه وحنانه. كان يعرف جني الشديدي لعنتر، لذلك كنت المكلف الرسمي والوحيد بأن أخذه ليشرّب من العين، والمشرف الأول على عملية ملء القرب والرجوع بها سالمة إلى الحوش. ماتزال تفوح من أعماق ذاكرتي إلى اليوم رائحة جلده وقد تمازجت برائحة القرب الرطبة المطلية بالقطران.

- توقّف، سبكيبي. لا تصوّرك تحدّثت يوما عن رائحة حبيبة قرّنت الأيلم بينك وبينها بكل هذا التأثير.

- يا امرأة، أحدثك عن عنتر وتحذّيبني عن النساء! أه يا عنتر، كم كنتُ أود أن تعيش قبل زمن الأسر، أن أراك تركض حرا طلبقا تسطو على حريم الغريم، توسّع ملكك وتطرد كل حميرٍ يُحسّر انقلابا وقد اعتقد مبكرا أنك لم تعد من تحنى الأذان الطويلة في حضرته. نعم، أين في الناس حمار مثل حماري! أه يا عنتر، رحمك الله أوسع رحمة، رزقتني فيك جميل الصبر والسلوان وأسكنك فسيح جناته، في القسم المخصص للحمير. بالمناسبة، ألا تشاركيني استهجاتي الشديدي أنه لا أحد من حكماء الأدمية، اهتم بمصير الحيوانات بعد موتها. إذا تواصل هذا الاستخفاف المشين بحقوق الكائنات غير الأدمية الثابتة منها والمتحرّكة، فسأتحمل مسؤوليتي كاملة في تصحيح خلل ما بعده خلل ومظلمة قد تكون أكبر المظالم، نعم، ما زال هناك مكان في فضاء خيال البشر لجثة البعير والحصير والجمال، تستريح فيها هي الأخرى من أهوال هذا العالم وما قاسته من كائن لا يجازي في الشر اسمه

الآدمي. الاستثناء الوحيد الغرآن والذباب والناموس، وما على هذه الكائنات إلا البحث لها عن جنة في خيال من يعشقها.

- الخلود للحيوانات! ألا يعني هذا الاعتراف لها بروح. الحيوانات لها روح!؟
- لا أدري بخصوص الحيوانات الأخرى أما عنتر فيالتأكيد له روح. لا يجذل في الأمر إلا غبي أو ناكر للجميل مثلك أنت وبقية الأميمين. ألا تعلمين أنه لو لا الحمار والثور والبغل لاضطررنا لشككن إلى المحراث.

عن نكران الجميل حدث ولا تسلى... هل كنا نتعلم الصيد لولا أسننتنا الذناب وحلفاونا الكلاب؟ هل كنا نصيح مزارعين وبناة قرى وممالك وأديان لولا البقرة والخروف والخنزير والمعزة، أو غزاة وفسانا لولا مطهم الخيل؟... ألم تشكل الحيوانات النموذج والقنوة، ونحن نحاول تقليد هيبية الأسد وشجاعة النمر وجلال النسر وجمال الغزال ورقة الفراش ووفاء الكلب ونكاه الغراب؟ على الأقل رسم أوائلنا لها اللوحات على حيطان الكهوف وأقاموا لها التماثيل وبنوا لها المعابد... أما نحن أحفادهم الأغبياء فنستغلها نون حياء أو عذبة ذنب أو نضعها في نقاص من مختلف الأحجام.

- واصل رواية قصة حبك الأول ...

- فصلتني الأقدار الظالمة عن عنتر، لكنني حملت هواه في فوادي على مَرّ السنين لا أخون عهد مع أي حمار آخر. يوم استقرّ بي الطريق في بيتٍ محلصرا قلت: لم لا أشتري حمارا أسكبه في الحديقة ليرتاح بقية عمره، أكفر عن كل خطيائي السابقة بمنحه نوعا من التعويض البسيط ورد الاعتبار في شخصه الكريم للحمار المجهول الذي نكلت به البشرية على مَرّ العصور؟

- أخيرا عرفت ما ساهنيك. تريد أخذه معك في الطائرة؟

- لا داعي لتكلف المشقة فيلدي يعجّ بالحмир، بل منهم من تنوّأ أرقى المناصب.

- ذكرتني بذلك الأرسطراطي الذي نشر إعلانا عن انطلاق معرض لأجمل حمير المملكة يوم كذا في المكان الفلاني، فتدافع الناس إليه لتبادل النظرات الحيرى بينهم وهم لا يكتشفون إلا أمثالهم. بعضهم ضحكوا للمقلب وبعضهم قاموا دعوى قضائية على الرجل. جدّ، ما الذي كنت ستفعل بحمار بطل يعاني الملل في حديقة لا يخرج منها؟ أليس الأمر بمثابة الحكم عليه بالسجن المؤبد؟

- من قال لك إنني كنت قوي حرمانه من الفسحة؟ بلعكس، كانت كل الفكرة مبنية من البداية على فهم عميق لمصالحه ومصالحه. كل المشروع أن أغافل في آخر هزيع من الليل البوليس لسياسي النائم في السيارة أمام باب البيت، لجولة ممتعة في الحيّ أستعيد خلالها مشاعر الطفل. ثم اتضحت لي مخاطر الأمر. ماذا لو لاقيت جبراني وكلهم ميسورون لا يركبون إلا المرسيديس؟ ماذا لو تقطن البوليس وأخذ لي صورة وأنا على ظهر الحمار لتخرج من الغد صُحف السلطة بالعناوين الغليظة: كم مرّة قلنا لكم إنه مجنون!

- فعلا كنت حظوظك لإقناع مواطنيك براءك ذوما معدومة. لكن لو اكتشفوك في الثالثة صباحا على ظهر حمار لأصبحت معدومة ونصف.

- خاصة مع قربة الماء. أعرّف بأن نوبة من الجبن جعلتني أتخلى عن حلم جميل كهذا.
- من الجبن أو من للتعلّق؟

- في بلدي اليوم لا فرق بين الأمرين. ذيدن أغلبية القوم أن الكذب قوام الأقوال والجبن قوام الأفعال. المهم، تخليت عن المشروع برمته ولم يبق لي للتفكير عما في وجداني غير حمار الفلاح الذي يتجاسر أحيانا على دخول بيتي لإعائتي على صيانة الحديقة. ذات مرّة قلت للرجل بمنتهى الجدّ: كم أحسدك. لا أشتبه شيئا قدر أن أركب حمارك لجولة صغيرة في الحيّ تحت ستر الظلام. حدّق فيّ الرجل باستهجان معتقدا أنني أسخر منه فغيّرت موضوعا كنت أعود إليه باستمرار. أحيانا كنت أتطرّق إلى إمكانية أن تربط حمازه أوأصُرُ نَسب بحمير الجنوب وربما لم لا-بحمير قومي، وهل يمكن أن يكون -هكذا بمجرّد الصدفة دائما-من ذرية عنتر. للأسف لم يكن الرجل يفهم ما قصده ولا سرّ اهتمامي بدابة لم يكن يرى فيها إلا ما يراه جلّ الأثمين في مثل هذه الكائنات المقهورة الأسيرة.

يوم اقتنعتُ ألا نوعية الأصدقاء ولا نوعية الأعداء تجعل العيش مغريا في الأرض الجذباء التي حكم عليّ ظلما بالانتماء إليها، أصبحت أحلم بشراء الحمار والفرار به تحت جناح الظلام حيث لا وجود لبوليس سياسي. ثم تطوّر الحلم. لمانا لا أوأصل الطريق هربا من هذا الكوكب التعيس برمته. تصويريني على عنتر الثائي متسكعا بين المجزّات، أزور الكواكب التي يزخر بها الفضاء اللامتناهي، الواحد بعد الآخر، لا غزيا أو باحثا عن الذهب أو حتى عن العلم، وإنما شاعرا يتأمل معجبا، متعجبا، منبهرا وأخذوا بتجارب الله. كل هذا ولا مخبر يتعقبنني، لا عنو يهدّدني، لا خصم ينافسني، لا نصير بيتزني، لا حليف يخدعني، لا صديق يخونني، لا قريب يريد تنخّلا ولا بنت تطلب بلزيادة في المصروف الشهري. أخيرا الخلاص! أخيرا الحرية!

ذات يوم سألت الرجل عن ثمن حماره هكذا لمجرد تواصل الحلم. تردّد وقد أيقن أنها مقلّضة رابحة مسبقا بين طبيب بروجوازي من الأحياء الراقية وريفي ماكر. نتحنج بوقار ثم قال لي: أتركه لك بمئة وخمسين دينارا. فتحت فمي من الدهشة. ربما لمع بريق الاستنكار الشديد في عينيّ فسراع قائلا: إنه حمار لا يأكل كثيرا ويصبر على الضرب ولن تجد مثله في كل أسواق الحيوانات، لن أنزل تحت مائة وأربعين. انفجرت في وجه الرجل وقد اتخذت تلك السحنة المخيفة التي تستحوذ عليّ وأنا في نوبة الغضب البدوي العارم: الحيوان الذي يساوي هذا الثمن وحتى أقلّ، هو أنت وكلّ الأثمين أمثلك وأمثال هؤلاء الذين ينمون أمام بيتي وأمثال الذين بعثوهم لتسميم حياتي. يوما جمع الرجل فأسه وبقية أدواته وهرب بحماره دون أن ينتظر أجرته ولم أره ثانية. ما من شكّ أنه اقتنع أن من يتعقونني على حق في مراقبتي. ماتزال مرلجلي تغلي من الغضب إلى اليوم كلما تذكرت الثمن الذي طلب.

- وهل كنت تريد الحمار مجانا، أو أن يهديك إياه الرجل الفقير؟

- لا تفعل على عدم الفهم.

- بصراحة، هل كنت قدرا على دفع الثمن الحقيقي؟

- طبعاً لا. كل أموال الدنيا لا تشتري ذلك الجهاز العصبي بكل أنواع الخلايا التي يقضي جهاذة العلماء عمرهم في محاولة فهم طرق عملها... تلك الجدا الأعجوبة... ذلك الجهاز المناعي العبقري... تلك الحواس الخمس بالغة الدقة والمهارة والإتقان... تلك النواة وسط كل خلية تحمل المورثات وكل واحدة منها أعدد مليون مرة من أي مصنع عصري اخترعه الأدميون!

حفنة من الدنانير قيمة كل الخوارق والمعجزات لتسيير العضلات، لضخ الدم، لتوليد الطاقة، للتخلص من النفايات، لكل الأنسجة التي تُطَبِّب ابتكارها وتجريبها ملايين السنين! حفنة من الدنانير قيمة تعقيد مخيف يكشفه الباحث، فأغرا فمه من التعجب والإعجاب في كل خلية، في كل نسيج، في كل عضو!!! أبحاث عن بروتين بسيط أو هرمون بفرزه هذا الكائن تكلف الملايين، ويقول لي هذا الأدمي الجاهل: لن أنزل تحت مئة وأربعين دينار!!!!

- ستجد صعوبة كبرى في إطار قوانين السوق الحالية، أن تسفر الحمار بمليار راند.

- لن أتركه لك ولا حتى بثلاثمئة مليار، خاصة إذا ثبت أنه من نسل عنتر.

تستغرق المرأة في صمت طويل وكأني حيرت فيها أوجاعا قديمة.

- الدور عليك أنت... في ماذا تفكرين؟

- في غباء تكلفنا مخاطر هذه المغامرة وتكاليفها. كأن القطط والكلاب والماعز والخرفان والبقر والنمل والقران والعصافير والنجاج وبقي الكائنات الحية التي تجاورنا غير جذيرة بالاهتمام، أو أقل غرابة من هذه التي أتينا نتعجبها.

- لا تغتمني، غدا يوم آخر سنرى أخيرا الكبار الخمسة مصطفين راقعين لاقات الترحيب والاعتذار.

- غدا يوم آخر ستواصل فيه استفزازي. ليلة سعيدة. ثرى بماذا تصرخ فينا هذه الكائنات حسب رأيك؟

- ثمة من يهتف بسقوط الأدميين بصفة عامة، ومنهم من يخاطبنا نحن تحديدا: Go home، Go home، Go home

تضحك مرافقتي إلى أن يأتيها السعال. ينتظم تنفسها. ترحل سريعا إلى الضفة الأخرى من هذا العلم لربما تلاقي فيها هذه الحيوانات التي تقاطعنا وتسبنا في هذه الضفة.

أي نوم في هذا الضجيج؟ يا الله يا جماعة. لو خفصتم الصوت قليلا لتواصل العلاقة ودية بين جيران الوجود. أه يا صمت صحرائي الغالية!

على خط التماس بين الوعي واللاوعي يصبح صراخ الكائنات مفهوما. تتحقق أقدم رغبات الحلم في فك شفرة رسائل تهديد وغزل ونكت وتبدل الأخبار عن تحالفات جديدة بين النمل والنمل، عن مؤامرات تحاك بين الطيور، عن شجرة سنط شاهرة شوكتها في وجه

غزال بحجم حصان يركض فزعا طالبا النجدة، قمتصرخ جحافل النمل الراكبة الخنلج
البيض بأن يبقى الحالم خارج القصة وإلا فإنه هو القليل.
فوق الرقعة الكبرى لآعب الشطرنج مواصلا لعبةً تتزايد إثارةً وتعقيدا. كيف يعطي للطريدة
كل حظوظها، ولا يبخل على الصياد بحظوظه هو؟ كيف يتوزع في الطريدة وفي الصياد؟
كيف يتصر على نفسه التي هزمته آخر مرة هو الذي لا يلعب منذ الأزل إلا بكل ما يليس
من أشكال.

*

نهار آخر من العبار والفراغ والحر انتهى ومعه العذاب اللذيذ.

سمر ليلة الرحيل

تبادرني مراهقتي وكأنتي المسؤول عن قلة ما التقطت من صور لحيوانات غير معنية بأن
تلتقط لها الصور.

- اصدقني القول، هل ندمت على اختيارنا هذه الطريقة في استكشاف المحمية؟
- أبدا، أفضلتها على خيار الأغياء الذين يتجولون في هذا المكان في عرباتهم شبه المصفحة
يقيسون نجاح رحلاتهم بعدد الحيوانات التي التقطوا صورها. كان هذا المكان بالنسبة لهم
حديقة حيوانات أكبر من التي يزورونها وسط المدن الكبرى. ربما هم على حق. محمية
أو حديقة حيوانات، ما الفرق؟ الحجم فقط. نعم قد تكون هذه المحمية "باننوستان"
للحيوانات، لا غير.

- باننوستان حيوانات! هل تقصد أن ما كنا نسميه باننوستان كان في الواقع حديقة حيوانات
أدمية؟

- بالضبط والقاسم المشترك أكبر اتم الا وهو الاحتقار. كل ما نعاني من بعضنا البعض وما
تعانيه منا الكائنات الحية التي وضعها حظها البائس في طريقنا غلب الاحترام... يوم نجعل
منه مبتدأ الخبر ومنتهاه في تعاملنا مع بعضنا البعض ومع كل الكائنات الحية الأخرى
سنتهي أغلب الفظاعات التي تكز هك في هذا العالم.

- عن أي احتقار نتحدث؟ لم أرى من حراس حدائق الحيوانات والمحيلات إلا الكثير من
التفاني في خدمة حيواناتهم.

- آخر باننوستان حيواني صغير زُرته مكان اسمه طارونغا بُني على هضبة غناء تشرف
على البحر. كل السجناء -حتى في ذلك المحشد المتحصن وفي ذلك البلد المتقدم- كانوا هم
أيضا محكومين بالمؤبد للجميع ولا أمل في تخفيض أو في سراح شرطي! أتذكر جيدا أحد
السجناء. كل كلب بحر، جوع غمدا، يرمي له المروض بسمكة سردين إذا قام بحركات
تشبه الأدميين، والأطفال حول المسبح يصفقون له فيلقد هم سجين الحرب يتسول غناء مُنع
بالقوة من البحث عنه في لجة المحيط. إنها نفس التقنيات المستعملة لإجبار نمر مستعيد
على القفز، وفيل مخطوف على الرقص وجواد مخصي على المشي إلى الوراء... هل كنت
ترين شيئا كهذا لو كان احترام كل الكائنات الحية قاعدة تصرفاتنا.

- يا رجل، نحن بالكاد نستطيع احترام البشر وتريد أن نحترم الحيوانات.
ما الذي يميزنا عن الكائنات الحية التي تنقسم معها العالم ويعطينا عليها كل هذه السلطان؟
... الكتابة؟! هل تكون هي السر؟ ... ألا تحتاج الحيوانات والأشجار حتى تتطور إلى حلة
أرقى لتغيير في الجينات وهو ما يتطلب ملايين السنين، بينما نستطيع نحن البشر بالكتابة نقل
تجارينا وتوظيفها والزمن المطلوب بحسب بالقرون وأحيانا بال عقود لا أكثر؟
عودة للمزح لتخفيف الضغط على المرأة وعلي.

- على فكرة لماذا لا نفتح سجون الأميين هي الأخرى للزيارات السياحية؟ على الأقل
ستمكن مداخيلها -بعد خصم رشاوي الإدارة والحراس والقضاة- من تحسين ظروف الإقلمة
ولو قليلا. ما أنا متأكد منه أن مثل هذه الزيارات ستلقى نجاحا منقطع النظير وأن الجماهير
وعلى رأسها الأطفال والأمهات سيدافعون للضحك على السجناء ورميهم بالحجارة
وبالذور.

تضحك مرافقتي ضحكة لا مرح فيها.

- تبالغ. تبالغ. تبالغ.

- أبدا، ثمة أوجه شبه أكثر مما يريد البعض الاعتراف به. في السجن الحيواني أيضا ير تظم
السجين وهو يور في الفضاء الخائق، تارة بالحيطان وتارة بالقضبان. ثم يعود إلى الحيطان
لتدفعه نحو القضبان، ومن القضبان إلى الحيطان، ومن الحيطان إلى الحيطان....
- نعم، ثم ماذا؟

- ومن الحيطان إلى القضبان ومن القضبان إلى الحيطان.

- ضريبة الشمس على ما يبدو أخطر مما اعتقدت؟

- بل وجع ذكريك عن شهور طويلة قضيتها في زنزانة أكبر بقليل من خزانتين.

- واصل افراغ ما في جعبتك، ربما سيخفف عليك ذلك بعض... الغضب، نعم أشعر بك
غاضبا وليس فقط موجعا.

- أذكر أنني وقفت طويلا أمام قفص كائن تسميه اللغة "غوريل" -طبعاً بنكهة احتقار- وهو
جالس، ظهره إلى الحائط، لا يفعل شيئاً باستثناء تحريك حصاة صغيرة بقطعة من الخشب.
يومها تلاقت النظرات في لحظة عابرة كلمح البرق. غضضت الطرف لا قدرة لي على
مواجهة حضوره و"لشيء" بما لا يدع مجالاً للشك بحق في يسألني: عرفتني، ثم ينسحب
بلمسرة التي برز بها. يومها حدثت معجزة بالغة الندرة اسميها لا عليك...

- وفي الأخير انصرفت مُضيقاً إلى جعبتك من الأوجاع حزن الغوريل، على غضب الأسد
على شعور الإهانة عند كلب البحر. ألم يخطر ببالك أيضاً أنه ثمة أكثر من غزاة وحمامة
ونعامة وغيرها من الكائنات لضعيفة وجنت في حدائق الحيوان التي تستنكر وجودها حياة
أمنة لا يتهدد نومها زئير الأسد؟

- والوجبات الثلاث مضمونة، لا تَعَب، لا خطر، لا مسؤولية، إنما الراحة والخنمات. ماذا يريد أكثر من هذا، ذلك الغوريلا الكنيب، وحتى ذلك الأسد الأسير الذي تُرمى إليه أطنان من اللحم لم يعرق للحصول عليه؟

يوم تقرر أنه بعد الغاء ريق البشر حان الوقت لإلغاء ريق الحيوان... يوم نعيد للحيوانات المستعبدة حريتهم في عالم كلنا فيه ضيوف سواسية ومصيرنا واحد... يوم نقبل بأنسنة الحيوان وحيونة الإنسان... يومها قد تكون خطونا خطوة جبارة في تحقيق المهمة الغامضة لرحلتنا في هذا العالم.

تصرّ مرافقتي على مواصلة الثرثرة، لا أصعب على الأُميين من التزام الصمت وهم جنباً إلى جنب.

أيجوز الكلام في ساعة كهذه، ساعة تلمع أول نجمة في الأفق، ساعة تنتظم أفكارى، وترتخي أعصابى، ساعة الهدنة مع ذاتي ومع كل من حولي؟

- في ماذا تفكر الآن؟

- في ضرورة اقتصار النهار على شروق الشمس وغروبها، على أولى تباشير الفجر وعلى بداية المساء، هكذا نتخلص من بقية أوقات الزحمة والشغل والمواعيد والخصام والسهرات العائلية ومنغصّات العيش الأخرى. بربك لماذا يجب أن تكون هناك أوقات غيبة مثل الحادية عشرة صباحاً والثالثة بعد الظهر أو الثالثة بعد منتصف الليل؟ من بحاجة إلى الثالثة بعد منتصف الليل باستثناء السكرى ومبترى الانقلابات؟

- بما أننا دخلنا في تنظيم الزمان على هوانا، اقترح إلغاء كامل أيام الأسبوع، لا نحفظ إلا بلسبت والأحد.

- السبت فقط لأن فيه وعد الأحد، أما الأحد فلا. هو محفل بكل تهديدات الاثنين.

- وأي الشهور ستحافظ عليها أيها المصلح الكبير؟

- يجب التخلص من سبتمبر لأنه نهاية العطلة ورجوع كل المشاكل المعلقة، وأكتوبر لأنه شهر الغرق فيها، ونوفمبر لأنه شهر رمادي وبلا مطر. ديسمبر! شهر يستأهل المحافظة عليه. أحب برده اللاذع ونهله القصير الذي يوفر علينا ساعات من المشاكل المقرفة. يناير! اللعنة على هذا الشهر. إنه بداية سنة ما كان لها أن تبدأ أصلاً. نعم، يجب إلغاؤه هو وفبراير الذي يسرق يوماً وحتى يومين من حياتنا. مارس! إنه شهر عودة شهوة الحياة إلى الأشجار والأزهار. نحافظ عليه إذن إكراماً للأشجار والأزهار. أما أبريل فللشطب لأنه يبدأ بأكويبة ولا أظن إلا أنه يتواصل بها. يجب التخلص من مايو لأنه بداية الصيف، ومن حزيران لأنه وصوله، ويوليو لأنه اكتماله، وأغسطس لأنه شهر الضجيج والأعراس والحرّ ناهيك عن السياح والبعوض. لا يبقى إلا التخلّص من سبتمبر للسبب المذكور أعلاه ولأنه لا يستحيي من الرجوع سنة بعد سنة. الحاصل إذن تلخيص الزمان في السادسة صباحاً والسادسة مساءً ليوم السبت في شهري مارس وديسمبر. بربك أن يكون حقاً زمناً رائعاً وقد طهرناه من كل وقت مضيق للوقت؟

- وبخصوص القرون التي لا تُرضي سيادتك؟
- كل التي أعقبت ظهوركم، على الأقل التي دشنت ماتسمونها بوقاحة "الحضارة"، والمرء
كمن يسمى ظهور الطاعون والجذام والسلّ عصر الصحة! نعم يجب إلغاء المائة ألف سنة
الأخيرة. قبلها ولما بين السنين كل العالم موفور الصحة والعافية. تصوّري ثراء الفلحش
أنذاك بالأجناس العجيبة من بني حرية وآل نبات. تصوّري الديكور الرائع الذي كان يتحرّك
فيه أجدادنا وهو في نقائه الأول، في طهارته الأصلية. تصوّري الفضاءات العذراء وكم
كان البحر هدانا على السطح زاخرا في الأعماق بما لا تصدّق العين من كائنات بالغة
التنوع، بالغة الغرابة، بالغة الجمال. واليوم ترمي لك بحرًا بصدد التصخّر بجبال من
البلاستيك.

تواصل مرافقتي حتّى على الكلام وهي بين فضول واستنكار.

- واصل لعب دور المدعي العام في مرافعته المزلزلة ضدّ البشرية.

- بما أن زلّة لسائك تعترف بشرعية رفع قضية ضدّ البشرية، كمذعي عام لا خيار لي
لأسف غير إحالة المظنون فيها للمحاكمة بأخطر تهمة: خرق القانون الأول الذي ينظّم
تواجدها جميعا على سطح هذا الكوكب.

- وماذا يسنّ قانونك هذا؟

-الذي تتحدث به كل ظواهر العالم سراً وجهراً والذي أسمعه كالتالي: حيث أن كل الاجناس
الحية شبكة من علاقات بالغة التعقيد والدقة والقدم تربط أوثق الارتباط وجودها ببعضها
البعض، فإنه يمنع على أي جنس حيّ التغوّل بالنموّ المفرط او إفناء أي جنس آخر بأي
وسيلة كانت وإلا يقع التخلّص منه عاجلاً أو آجلاً إلى أن تستعيد الشبكة توازنها.

- يا سلام! أتصور أن في جعبتك قانون ثنائي.

- طبعاً، إنه القانون الذي يقول: الأمي ليس كائنات فوق وخارج ما يسميها الطبيعة ومن
طينة غير طينتها وله الحق في التصرف فيها كخزان لحاجياته. هو شكل -حالة منها ومن
نفس طينة أشكالها وحالاتها الأخرى.

تهرش المرأة رأسها مستغرقة في التفكير ثم تقول اخفتت من نبرة كلامها كل سخرية.

-تأبيني صورة الخلية السرطانية. هي من طينة كل خلايا الجسم، لكنها تخرج عن القانون
الأول فتتمو وتدمر ما حوالبها من خلايا أخرى إلى أن تقضي على الجسم أو يُقضى عليها
بهذا الهواء أو ناك.

- تمام.

-أصدقي القول...هل ترى أننا سنجد حلاً؟... الأخبار في التلفزيون كل ليلة عن تكاثر
الحرائق الجبلة، عن تفاقم موجات الجفاف القاتل، عن تزايد عدد الفيضانات الرهيبة،
عن الغابات التي تتلاشى، عن أجناس حية لا تحصى تنقرض بسرعة مجنونة، عن
أطنان البلاستيك في البحر...شيء مخيف حقاً.

- تعلمين أن لي في كل موضوع رأي ورأي معاكس . هكذا اضمن لنفسى ألا أخطئ إلا مرة على اثنين حتى ولو أن التجربة تثبت للأسف أنني أخطئ مرتين .

-طيب هات الرأي الخاطئ الأول وبعده الثاني.

- رأيي أن هذا العالم مَرَّ بأزمة وأزمة وأنه سيجد حلاً لأزمته معنا فلا خوف لا علينا ولا عليه .

-والرأي الخاطئ الثاني .

-أنا ضيوف غير مؤدبين ، دخلنا بيت الضيافة فأخذنا نهشم الأثاث ونكسر الزجاج ونتبول على السجاد ونبعثر كل ما في الثلاجة ونجري وراء القط لأكله . ورغم تكرار إنذارات المضيف واصلنا حماقاتنا لذلك أخذ قراره بطرنا في أسرع وقت . المشكلة أن المسكين تورط بدعوتنا وقد أصبح بقاء البشر مصيبة وانقراضهم مصيبة أعظم.

- كيف؟ فستر .

-توجد اليوم على الأرض مئات المحطات النووية، وبانعدام الصيانة باختفاء البشرية مثلا بوباء لا يبقى ولا يذر، ستصبح هذه المحطات قتال بطينة الانفجار تبت سمومها آلاف السنين. كذلك عن حقول الغاز والبتروول، وهي الأخرى بحاجة إلى نفس الصيانة، وبدونها ستنتهب حرائق هائلة قد تقضي على كل حياة.

- إذن سيتحملنا العالم طويلا لأنه لا خيار له.

- نعم سيتحملنا من باب "مكره أخاك لا بطل" ألم تخالجي الفكرة يوما أننا بالنسبة إلى جل كائنات هذا العالم غاريت مثيرة للتعزز والرعب. لا أتخيل حسناء تقضي لساعات أمام المرأة تتبرج وصورتها في مقلة الخروف الذي ينتظر أن يذبحه غفريتها إلا وانفجرت بالضحك.

- ما أنا متأكدة منه أنني لستُ الغفريّة التي تصف بالنسبة إلى كلبى وأننى لو متُّ غداً لحمل الحداد عليّ.

- كل الحيوانات ومنها كلبك ستقيم الأفرح والمآدب. لو اختفينا لما افتقدنا إلا الجراثيم والطفيليات والقطور التي وجدت فينا مرتعا خصيبا، خاصة القمل ونحن مصدر قوته الوحيد.

كم من أنمي ينتبه لكونه عالما بأسره تسكن جلده وكل فتحات جسده جراثيم لا تحصى ولا تعد وأغلبها ترتحل طفلة حياته داخل أمعائه تعيش وتموت فيها .. كم غريب أن نكون في آن واحد رحالة في عالم وعالم ترتحل فيه كائنات لا تعرف عنا أكثر مما نعرف نحن عن العالم الذي نعيش على سطحه.

- عدت للسكوت، أي فضاة أخرى تختمر داخل ذهنك يا عدو البشرية؟

- نقيقة صمت حدادا على كل الكائنات التي نكل بها الأدميون، وخاصة أمم الخرفان والبقر. نعم يجب إقامة التماثيل للفأر وهو الكائن الوحيد الذي كل الصاع صاعين للأدميين عبر ما كان نقل إليهم من جراثيم الطاعون.

- ولم لا تماثيل أيضا للفيروسات هي الأخرى نالت منا ما نالت.
في ملفت فارغ مازال ينتظر عقدين من الزمان ستدافع المعطيات المرعية عن مُدُن مطوّفة،
عن شوارع مُفكرة، عن مستشفيات تفيض بالمرضى، عن ملايين المحبوسين في بيوتهم
يتابعون مذعورين وسائل إعلام لا تحمل إلا الأخبار المفزعة عن فيروس خرج فجأة من
المجهول مفاجنا الجميع بتجاسره على الكبار والصغار، على علماء القوم وعلى الدهماء،
على أفقر الشعوب وأقوى الدول... لا شيء يَحْتَرل نجاح تطوله على الجنس البشري وعلى
صفوة من فيه كَدَرَ وَضَع أمة متعجرفة وهي شاهرة صواريخها، غواصاتها، حملات
طائراتها، أقمارها الصناعية في وجه الأمم المناقسة، تدعي أنها لا تفعل كل هذا إلا نفاعا
عن أرواح وأرزاق مواطنيها... ها هو الكائن المجهري ينقضّ عليها فيزهي في أساليب
قليلة مئات الآلاف من الأرواح كاشفا كم هي عديمة الجدوى صواريخها، غواصاتها،
حملات طائراتها وأقمارها الصناعية وبصفة عامة كم هي تقيهة أو هام الأدميين عن تفوقهم
المزعوم وكم يباليغون في تقدير قوتهم وأهبيتهم وكم هتَن وجودهم على هذه الأرض التي
لا زال البعض منهم يؤمن أنها وقف عليهم وحدهم... أنشككي مما تفعله بنا الفيروسات وقد
تكون أخطر الفيروسات التي أصيب بها هذا العلم؟

تنتهد مرافقتي تقطع عليّ تفكير متوجس قلق.

- المهم أن تبقى هذه الحيوانات اللعينة بعيدة عني هذه الليلة. من حسن الحظ أنها في عالمها
ونحن في عالمنا.

- نحن عوالم مترابطة مثل كوم من الدومينو ان سحبت منه قطعة يمكن لكل البناء أن
يتهاوى.

- سفسطة كالتي تجيد.

- اسمعي هذه القصة التي وقعت مؤخرا في بلد اسمه الهند. ظهرت فجأة أوبئة غريبة أدت
إلى ارتفاع نسبة الموت والمرض في كامل البلاد. بعد أبحاث معمقة اكتشف المختصون
أن الأمر مرتبط بانقراض تلك الطيور المنمومة التي اسمها الجوارح والتي تعيش على
الجيف بدل تكلف مشقة وذبل الصيد مثل النسور والصقور.

- وما العلاقة؟

- العلاقة يا ست الكل أن الهندوس لا يأكلون البقر. عندما تموت هذه الحيوانات تترك في
العراء فتتغاث منها الجوارح لا تترك منها الا العظام للشمس. باختفاء الجوارح نتيجة
تسممها بكل ما تنتج من مواد كيميائية منها التي كانت تنزسب في جوف الأبقار التي كانت
تقتات منها بقيت جثث هذه الأبقار في الهواء الطلق تتعفن وتصبح مرتعا خصبا للحشرات
والجراثيم. هكذا انتشرت هذه الجراثيم في الماء والهواء والتربة ومن ثمة انفجار الأوبئة.
وهكذا اتضح للكل كم كان البشر يدينون بصحتهم وحياتهم لطيور يحترقونها.

- هل أقام الهندوس التماثيل لهذه الجوارح وأطلقوا أسماء سادة القوم منهم على كبرى
مستشفياتهم؟

- ولكنهم سارعوا لسنّ قوانين لحمايتها وتعهدت صحتها حتى لا يؤدي انهيار عالمها لانهيار عالمهم.

- ما نسيته أو تناسيته أيضا هو أن حيواناتك التي تمجد وتبكي على مصيرها لا تملك ذرة من الأخلاق، بل لا تعرف حتى معنى الكلمة. أعدد لك ما يُعرف عنها من قسوة ومكر وتجبر على أضعف منها؟ هل رأيت صور الكواسر تلتهم صيدا ما زال يبيض بالحياة؟ حتى الحوت الذي تعجب به صياد رهيب يصلح على الأثني وعلى الغداء بكل عنف. ثم من أدخل في صراع لبقاء الشفقة غير الأدميين؟

- من قال لك إنني ضد كلالل الأدميين أو إنني متعطف مع كلالل الكائنات غير الأدمية؟ أبغض دون حرج أو عقدة نذب-الذباب والبعوض وكل هذه الهولم التي أطلقتها الإنارة العامة وكأنها الأظفر المقصوفة وأعقاب السجائر للكاتب فاضت بها المطفاة. أرايت أقيح من هذه الكائنات؟ حتى المولود الأدمي الجديد -بالمقارنة-أية في الجمال. والجراد، من أي مخيلة مريضة خرج كائن كهذا؟

ما هذه الكائنات أكانت من بني حرية أو آل ثبات؟ مشاريع بحث متقلوبة النجاح يجرب عبرها باحث عبقرى كل إمكانيات الخلق؟ إذا كانت مشاريع يجرب عبرها إمكانيات خلق لا تنضب أبدا فما الذي يجرب في الأدمي بعد أن استنفذ الرشقة في الغزال والسرعة في الفهد والقوة في الدب والعزيمة في طير صغير قادر على الارتحال من قطب إلى قطب؟ تكون أنجح تجاربه أو أفشلها؟

تبتسم مراقفتي وكل ملامحها تقضح تئرا تريد اخفاه. ثم تغير الموضوع كما يفعل المحرج دوما.

- افترض أننا... افترضنا وتركنا وراءنا كل هذه الكوارث وكل هذا الخراب.
- الأوفر حظا للإرث النمل، لكن دعمي غير المشروط للدود؛ لا لأنني أكره النمل فدسب وإنما لأنه من العادل أن يكون الدود جاني الثمر وهو منذ ملايين السنين الحارث الأكبر واليستائي الذي أعدّ لتكون حاضنة الحياة.

تنتهد رفيقة الطريق. تعود إلى الحديث بنبرة قد تكون التي تتخذ وهي تدلي باعتراقاتها للقسيس أيام الأحد.

- بجدّ بماذا ستشير على السلطات العليا التي ستتشارك حتما خطأ تعييبك عند وضع التصاميم.

- لسبب ضدّ منحنا فرصة أخرى. هل رأيت في هذا العالم الملان بلكائنات الجادة العابسة غير الأدميين يضحكون ممّا يبكيهم ويبكون ممّا يضحكهم، يسخرون في السرّ وفي العلن من أنفسهم ومن أفسس معتقداتهم؟ ما يغير وجودهم أنهم من أقحما في هذا العالم الفكاهاة، ناهيك عن الشعر والموسيقى. قد تكون هذه الأسباب الوحيدة التي تجعل السلطات العليا تواصل المراهنة على تجربة لا أحد قادر على التنبؤ بمآلها.
تجذبني رفيقة الطريق من ذراعي بلطف حازم.

- والآن وهذه آخر ليلة لنا هل لك أن تقول لي لماذا أردتني أن آتي بك إلى هذه المحمية؟
أقول لها أم أحتفظ برأيي قد لا تفهمه.

- مرة أخرى ولن تكون الأخيرة: لماذا أصررت على هذه السفر؟
أعترف أم أعتبر الموضوع؟

- لم تردّ على سوالي.

أقول لها إنني جئت حاجبًا لما نعتقد اليوم أنه المكان الذي انطلق منه الطريق.. فمن هذه الأرض أو من أماكن قريبة منها انطلق أو اتلنا جريا وراء الطراند والمطر وإغراء ما وراء الأفق طوال مئات الآلاف من السنين إلى أن وصل بهم الطريق إلى القمر... في هذه الأرض أو في جوارها القريب تشكلت النماذج الأولى للدين والسحر والعلم وترويض القوى المرعبة المتحكمة في مصيرهم... وفي هذه الأرض أو في جوارها القريب ولد الشعر والأدب والراوي حول النار يرتد ملاحم كبار الصيادين... في هذه الأرض أو ما جاورها اخترع الأوائل السياسة والقانون والتقليد لفض نزاعاتهم حتى لا يصبحوا فرانس بعضهم البعض.

-كلي أذان صاغية.

- جئت لإثراء نص أكتبه منذ سنين ويتطلب أن أسأل سكان هذا المكان كيف هو العالم عند الغزال والفهد والتمساح وبني عمومنا المتأرجحين على الأغصان.
- خمس دقائق من الجّد لا أكثر.

-لم أكن جذبا في حياتي أكثر من هذه اللحظة. نعم كم بوذي استكشفت كيف هو العالم بعيون الدلافين والفراش والنورس، كيف هي صورته داخل ذهن الفيل والنمر، كيف هي الطبيعة عندما ينظر لها النسر من القمم الشامخ بعينه التي تُبَت داخلها مجهر يبصر أدق التفاصيل. هل كنت سألقتل عالم القط وهو على ما يُقال بلون الرماد، أو عالم الكلب وقد اختفت منه حمرة الشفق ولا وجود فيه من الألوان إلا لزرقة السماء وخضرة الحقول؟ يا ناس، أريد استكشاف هذه العوالم، حالا، الآن، على وجه السرعة وإلا سأشكوكم جميعا إلى "ما".

من أين لنا نخول ذات الحيوانات والأشجار، والنساء بالكاد يفهم ما يختلج داخل الرجال والرجال بالكاد يفهمون ما معنى أن تكون امرأة؟
للأسف حتى هي لن تستطيع لك شيئا.

-نعم محكوم عليّ و عليك أن ترتحل في عالم واحد لا غير هو عالم الأدميين. أما هذه العوالم المنغلقة على نفسها، التي تعيش على تخوم عالمتنا، فمحرمّة إلى الأبد...
وماذا أيضا؟ أفرغ كل ما في جعبتك.

- جئت أيضا على أمل أن أبصر هذا الذي أمر كريشنا أرجونا باكتشفه وراء كل الأشكال القمسية التي يليس.

- جئت تبحث عن... الله... هنا، في محمية حيوانات بريّة؟

- أين تريديني أن أبحث عنه؟ في معابد تفيض بموظفين يتمعشون منه دون حياء وبشحاذين يتسولونه دون كرامة.

أضاعنا الفلاسفة والمندببون والسحرة الذين اختلفوا لنا صورة كائن هلامي مخفي، بعيد، ملتحف بالغرابة والسر ولا يمكن لعين أن تراه... انظر للمولود الجديد وستراه... انظر للفرخ يكسر بيضته وستراه... انظر لتفتح الوردة وستراه... انظر لجمال الفهد، لجلال الأسد، لأناقة الغزال وستراه.

وَأَيُّ الْأَرْضِ تَخْلُو مِنْكَ حَتَّى (الحلاج)

تَعَلَّوْا يُطَلِّبُوكَ فِي السَّمَاءِ

تَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ جَهْرًا

وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ مِنْ الْعَمَاءِ

تهزّ مرافقتي كتقيها. فجأة تسحب هاتفها النقال من جيبها فأرفع صوتي.

- ألم نتفق أننا سننسى وجود هذا الشيء اللعين؟

- لا تلق. هو مغلق من البداية وسيبقى مغلقا بإحكام إلى نهاية هذه المغامرة الراكبة. فقط أريد قراءة ما وصلني من رسائل. وأنت؟ لا تقل لي إنك لا تنتظر رسالة من أحد. كلنا ننتظر خبرا ما...

- نعم أنتظر منذ زمان رسالة تقول لي أنني حققت بنجاح المهمة التي كلفت بها عند الولادة ومن ثمة تهاني الإدارة العاملة لشؤون الكون.

- ولم تصل لحد الآن! يا عيب الشوم.

- سنصل حتما يوم أقرّر فحواها بأكثر دقة. سلكتها بخط واضح مزيفا امضاء الله. ثم ستسلمها يدي اليمنى إلى يدي اليسرى فأفتحها خالق القلب لأرقص طربا وأنا أقرأ ما فيها من أخبار رائعة تتجاوز كل أحلامي.

- وفي الانتظار، جئت إلى هنا لعلك...؟

- جئت أبحث عن تجربة تحصل تلقائيا ودون سابق إنذار أسميها اللقاء ... معجزة لا أفهم طبيعتها. إنها تجربة فريدة عابرة كلمح البرق تمر بها الذات وهي تكتشف فجأة شيئا لا توجد للغة كلمات لوصفه.

- ومتى عرفت آخر مرة مثل هذه التجربة؟

-عشية وصولي هرعته لهذه الأسواق الإفريقية التي أعشق. انتهى بي التسكع عند امرأة في منتصف العمر على وجهها مسحة من جمل محتشم وقرور كالذي أحبه عند النساء. كانت جالسة على الأرض بعيدة عن الصخب تعبت ساهمة بعضا ولا شيء أمامها. لما انتبهت لوجودي حثقت في باسمة ثم بادرنتي بإنجليزية أسلم من التي أتكلّم: أنتشري مني أيها الغريب؟ قلت: لا أرى لك بضاعة. قلت: أبيعك ما على هذه الأرض. أجيبت دون تردد: ليكن. التقطت المرأة الغربية بعض الحجيرات من حولها. اجتثت بعض الأعشاب المحترقة.

مدّت لي الكفّ في خرقّة قذرة و اللؤلؤ المنضود في فمها يخطف الأبصار. بحثت في جيوبي عن كل ما فيها من فكة ومدنتها إليها فقبلتها مني كما يقبل السلطان هدية أحقر رعاياه. - لما مدّت لي المرأة الغريبة حجيراتها وبعض العشب المحترق أطالت النظر إلي... تلك اللحظة شعرتُ بأنه "هو لا غير" الذي يتسم لي عبر عينيه.

- انتبه، بدأت أغير.

آن الأوان للعودة إلى الهزل والى مواضيع أقلّ حساسية.. أو هكذا يبدو...

- لا داعي للغيرة، هل تتزوّجيني؟ بشرفي أنا من بين الخمسين في المائة من الرجال الذين لا يضرّون نساءهم.

- احذر، قد أكون من العشرة في المائة من النساء اللواتي يضرّين أزواجهنّ، ثم هل ستقدر على مهري؟

- كم؟

- مائة بقرة بيضاء على الأهل، هذا إذا أعجب منظرك أبي.

- للأسف، حسابي البنكي لا يسمح لي حتى بعزة يتيمة. تبقى السخرة عنده ليضع سنوات. هذا أيضا كان معمولا به عند الأوائل.

- وماذا تريد أن يفعل بشخص مثلك؟

- يمكنني أن أغسل سيارته كل يوم وأن ألمّع حذاءه وحتى أن أطبخ له. لا أحد يجيد تغذية البيض لحسن مني.

- التقاوض على هذه القاعدة. لكنني لن أترجع عن بعض الذهب والفضة وهدايا أخرى سأمدّك بقاومتها الطويلة.

- هل سمعت بنظريّت بعض المختصين في تاريخ الأوائل والقائلة إن الحجارة المنجّبة والأقواس وقلائد الصدف والزوارق المنحوتة من جذع شجرة والتمائيل التي انطلقت بها ما تسمونه الحضارة، لم تخلق للفنّ أو لتمضية الوقت وإنما أساسا لشراء عروس، من الخطر اختطافها، خاصة إذا كان لها إخوة كُنز يركضون أسرع من الخطيب الخاطف. مساكين أوائلنا! سنوات من العمل الشاق لصنع أشياء ترضي جشع الشيخ البشع وأولاده الأكثر بشاعة، للقبول ببيع أمتاعهم بثمن معقول أو قضاء سنوات من العبودية بالنسبة إلى من ليس لهم قدرة صنع الأشياء المطلوبة أو سرقتها.

- كانت هذه الأشياء تصلح أيضا لوقف مسلسل الثأر، دية من كنتم تغتالون أيها الذكور المتوحشون في حروبكم التي لا تضع أوزارها أبدا.

- تعادل بهدف لهدف. على كل حال من أين لك إنكار أن الأنثى هي أسّ البلاء. أو لا: لأنه لم يُعرف يوما أن نكرا خرج من جسد ذكر وكلهم نون استثناء يخرجون من أجسادكن أنتن لا غير، ولا أتحدّث عن مسؤوليتكن في إبقاء هؤلاء الوحوش على قيد الحياة وتربيتهم التربية الكارثية معروفة النتائج. ثانيا: لأن ثمن اقتناء أسّ البلاء هذا كان الدافع الأول لظهور الصناعة والتجارة فالغنى فالفقر فالفسقة فالعدالة فالشرطة فالسجون...

- فقط؟

- والليبرالية المتوحشة والأحزاب الشيوعية ومجلس وزراء الداخلية العرب وبورصة وال ستريت والمافيات أكلة السوشي وأكلة السباجيتي وأكلة الهامبرجر وأكلة جناح القرش.

- يا لله!

- لا ننسى العبودية بما أنه لم يكن من حل أمام الأعياء والضعفاء غير رهن سوادهم سنوات طويلة عند عمهم المرتقب أملا في الحصول على البنت البلدية. الحرب، العمل، السخرة، كل هذه المصائب بسببكن! لا غرابة أن يكون انتقلنا منكن رهيبا.

- بالضرب والخيانة الزوجية؟

- بما سمينا -وبصوتنا رثة فخر كاذب وتأثر مفتعل- تحرّر المرأة. هل لاحظت أن أهم دعاء هذا الشعار الخبيث كانوا رجالا. صدفة؟ شغلي دماغك الأنثوي الصغير. تأملي أهم التعبيرات المجتمعية عندما تُمكن الأنثى من حق الشغل-ل، من واجب الشغل-ومن التعليم الذي يحل له ومن بقية الحقوق المغشوشة التي تدعم ما يسمى "المساواة بين الجنسين". سنكتشفين أنذاك أنه بقدر ما "تتحرر" هذه الأنثى بقدر ما يتحرر الذكر من ثمنها الباهظ الذي فرض عليه الآلاف السنين سخرة أو مهرا. لَمَا حُطِبْتُ أم تقلحة وتقبحه، كنت لا أملك شروى تغير ومع هذا أعطاني الرجل الطيب ابنته لأنه كان تقدّميا كما كنا نقول تلك الأيام، بل ودفع فاتورة الغداء العائلي الذي كان احتفال الزفاف الوحيد. أنثى بالمجان وأبوها هو الذي يدفع تكاليف الحفل! عندي شعورٌ مُبهمٌ أن الأوائل سيركضون ورائي هذه الليلة في فضاء الأحلام وأن لأدهم سيمسك بي يطرحني أرضا وبشبعني ضربا بجزمته.

- سلّم عليه من طرفي وبلغه تضلمني وتشجبي.

- كل ما أتمناه أن يتواصل التقدّم في هذا المجال. تخيلينا بعد عشرة آلاف سنة وقد وصل المشروع الذكوري الخبيث إلى هدفه الخفي. ستأتين أنت تخطيبيني من "ما". قد تخترك بين مائة ناقة بيضاء أو السخرة لديها لعشرين سنة. أضحك بالعرض الأخير بدل جمع ثمن النوق سنين بعيدا عني. الوالدة امرأة طيبة لن تضربك إلا يوما بعد يوم وسنفتقص كثيرا من لحظات الحب وراء ظهرها. بعد نهاية العقد تأخذيني عند أمك مع بقية العفش، لكن انتبهني، لن أقبل أن تضربيني فأنا ابن "م" وجداتي بلقيس وعليسه والجازية الهلالية وما أدراك.

تضحك مرافقتي إلى أن يأتيها السعال. مؤكدا أنها سنكتشف -طال الزمان أو قصر- أنني كنت أطرف حيوانات المحمية التي زارتها تلك الأيام، أنها لم تنتبه للأمر إلا وهي توّدعي عند بلب المطار.

ثم تستعيد جيّبتها.

- تُنكرني بجنتي جائية في كنيسة قريبتنا، مع فرق واحد. أنت طول الوقت جاث أمام شموع القداس والعالم كله معبّدك. والان كفي تهريا من السؤال الوحيد الذي يهمني.

- وهو؟

- هل حصل ما تسميه اللقاء بين آدمية تانهاين و ضعتها صدف الطريق وجها لوجه.
-نعم... ونحن نتيول في الهواء الطلق طبقا لتعليمات الدليل، أنت تخفين حرجك وأنا أكنم
ضحكي.

**

الأشياء

لا توجد سفرة تُجدّد فيك أقدم مخاوف المرتحلين قدر التي تصل بك ليلا مدينة نائية والدليل الذي ينتظرك أخطأ وقت ومكان الميعاد.

تبتّ في ساحة المدينة شبة المقفرة قلعا مبهما. هنا ماراً ربما يدّلكي. أتوجه إليه بلغة يفترض أن أغلب الناس يعرفون بضع كلمات منها. يُعرض عني الرجل وكلُّ الذي خاطبه عفريت خرج لتوه من القبر.

كم صنق ذلك المسافر اللبيب المسمّى "اليفي شتراوس" وهو يلاحظ أنك عندما تصل بلدا لا يعرفك فيه أحد فالزعج ليس فقدان السيطرة على المكان وإنما تراجع المكانة.

بغرابة سحتني وجهلي المطلق باللغة ها قد أصبحت في أدنى درجات سلّم مجتمع يتصارع أفراذه باستمرار على أعلى الدرجات.

هذا أمي آخر قد يفهمني ولو أن في مشيئة المترنحة ما يجعلني أشك في صواب التوجه إليه. هل من خيار، وفي كل الأحوال كل الذين ضيّعوني نادرا ما كانوا من المخمورين.

يُعرض الرجل عني بدوره لا يُخفي انزعاجه.

تبرز من الظلام امرأة لا تبدو عاهرة تعرض خدماتها، فلأجرب حظي معها ومن الأحسن بكل الحذر المطلوب وبكل علامات التطمين والتأدب لتقادي أن أحرك داخلها أعمق غرائز البشر.

ماذا سأل لها؟ سيدتي، أنا أجنبي مزمّن، غريب محترف، لاجئ بالورثة، منبوذ بالطبع والتطبيع، مطلوب من كل سلطات السماء والأرض.

من الأحسن الاختصار والدخول مباشرة في صلب الموضوع.

-سيدتي أبحث عن نزل السعادة الأبدية. لكّيني، جزاك بوذا ألف خير.

المرأة بابتسامة عريضة:

- أنت مصري؟ مصر كويس، أنا أهبّ أهرام كثير، مرهبا، ماذا قلت؟ لم أفهم كل ما أنت قلت.

- أبحث عن نزل السعادة الأبدية. قيل لي إنه قريب من هنا.

- أه نزل السعادة الأبدية! لست بعيدا، أنت يمين در، يسار در، وبعدها يمين ثم يسار، بعدها شوية يسار ثم شوية يمين، بعدها أنت وصلت.

(أنا بصوت واضح): شكرا يا سيدتي، (بصوت خافت) اللهم كثر من رعشات لذة هذه المرأة لصالحه.

تخيلت أو سمعت المرأة تتنهد هامسة لنفسها: أمين.

الغريب ليس فقط أن تلاقي هذا النوع من البشر حتى وإن أخطأوا كالعادة في تحديد هويتك، وإنما وصولك إلى حيث تريد بالمعلومات التي يمدّوك بها.

أخيرا النزول في ابتدائه، وشبهه بكل الأماكن المخصصة لإيواء الأعراب، وأيضا في المحاولة المتواصلة للإيهار وذر الرماد في العيون.

على فكرة، هل انتبهت أن الأماكن الأدمية، شُيِّدت بالطوب أو بالمرمر، مجرد جدران متلاصقة، أن لكل جدار سطح داخلي وسطح خارجي، أن اهتمام الأدميين انصبَّ دوما على السطحين يتكفون ما يتكفون لتزيينهما لكنهم لا يقدرن على شيء بخصوص الفراغ الذي تنغلق عليه كل الأسطح.

إنه نفس الفراغ أحاطت به جدران قصر مزركش بكل أصناف الزينة وأعلى اللوحات أو جدران كوخ من الطين والقش.

تقول لي: نسيبت يا مسكين أن فراغ بيوت الأغنياء ملآن بما يتكفون من أموال طائلة لملئه بأجمل الأثاث.

طيب، لكن كيف يكون التمتع ببيت ممثلي من القاع إلى السقف بالتمثيل واللوحات التي تضاهي قيمتها ما يوجد في أكبر متاحف العالم؟ لا بد من الفراغ الفراغ وإلا في ماذا ستمدّ رجلك وأين ستسئلني على ظهرك؟ مساكين أصحاب القصور، كل هذا التنبير لتطويق فراغ لا يدفع في تطويقه الفقراء إلا بعض لوحات القصدير.

تقول بدأت تهذي. لا بل هو التعب، لا غير. يا إلهي كم أنا مرهق بطول هذا السفر اللعين! يزداد شعوري بالتعب لمجرد التفكير في رحلة الرجوع.

رحلة! أي رحلة؟ أليس من قبيل الكذب على النفس وعلى الغير أن نسمي رحلة نقل الجسد من مكان إلى آخر بالطائرة، وبقطار يكاد ينتظرك تحت سلمها، ثم بسيارة لنفغه أخيرا

داخل قفص حديدي بموسيقاه الرومنطيقية حتى لا يرهقك صعود ثلاثة طوابق؟

يا لهذه الوسائل اللعينة التي اختر عناها لتسهل علينا السفر فألغت متاعه ومُنته!

لا يبقى عليّ إلا الإلقاء نظرة خاطفة على غرفة عادية فيها برّاد زاحر بكل أصناف الشكولاتة والمشروبات التي سيُفَعونني فيها تمنا موجعا عند المغادرة.

أه، يجب أيضا تعديل المكيف حتى لا يضايقتني التبريد بنصف درجة زائدة.

ماذا تصرخ في أشباحي؟ لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في الصحاري، في الجبل، في الغابات، في البحار، نكاد نهلك فيها هلعاً وجوعاً وعطشاً، وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

أصدّق تحسرتي أو تحسرتهم، أم كلنا نكذب؟

من الغد سيرنّ المنبه منذرا أنه أن أول نقل جسدي إلى قاعة المؤتمر حيث ستبادل نفس لوجوه منذ سنين نفس الخطب لإثبات ما هي مقنعة به سلفا. كم من حيل للتسجيل على بعضنا البعض وخاصة على ممولي هذه اللقاءات بخصوص أهمية ما نقول وما نفعل وما سنصدر من بيانات وتوصيات. إنه الفكر المهيمن يحتفل بنفسه، يستمع لنفسه، يهني ويكفي نفسه داخل حلقتة الضيقة، والعالم في طرفه وفوضاها لا منتبّه ولا عابئ.

شعور عارم بضرورة الخروج من هذه الطقوس وعليها وقد أخذت من زمن الرحلة أكثر مما تستحق. أن الأوان للدخول في الإضراب العام غير المحدود وإعلان العصيان المدني النهائي الذي طالما هددت به عينا كل السلطات ودعوت إلى كل المتمردين دون أدنى نجاح؟ لست القائل السيد من يعطي المثل لا من يعطي الأوامر. ربما سيتبعني كل نزلاء الفندق، ثم سكان الحي، وسكان هذه المدينة، ولم لا العالم بأسره؟ ستفقد السلطات العليا من الغد لتكتشف هدوء مريباً في شوارع أقفرت وبيوت أغلقت أبوابها إلى أجل مسمى وقد قررنا أنه لا خروج من جحورنا إلا بعد أن تقسم هذه السلطات المجهولة على أنها ستغير جذريا كل سياساتها القبيحة وغير المفهومة في التعامل معنا.

تقول: افترض أن الآلهة رفضت المفاوضات تحت الضغط، وأنها أصرت على عاداتها خوفاً من فقدان ماء لوجهه والدخول في مسلسل خطير من التنازلات. هل سنقبل البقاء في الملاهي وتسهيل مأمورية عزرائيل فلا نربح على الأقل الوقت الذي يضيّعه في الجري وراعنا واحدا واحدا!

هذا شغلك أنت وبقية المخدوعين. سيبدأ الإضراب التاريخي من الغد وفي الأثناء لا بد من محاولة النوم.

على باب الغرفة والمعني بالأمر العالم كله وليس الخادمة المكلفة بحمل فطور الصباح - لافتة "عدم الإزعاج"

على الطويلة حذو الفراش لافتة "ممنوع الكوابيس".

*

عند الاستيقاظ أول سؤال: كيف سأقضي كامل هذا اليوم؟

لماذا لا نسمح على منوال ذلك الأرستقراطي المدعو دوماستر والذي حكم عليه بالإقامة الجبرية اثنين وأربعين يوماً في غرفته عقاباً على رجعيته ووقوفه في وجه الثورة، فتوكل وجّه نفسه لاستكشاف غرفته وتدوين رحلته فيها؟

ألم يكن الرجل على حق في سخريته من كل المغامرين الذين صدّعوا رؤوسنا برحلاتهم في أبعد وأخطر مناطق العالم؟ أي فضاء أكثر جدارة بالاستكشاف من غرفة النوم وحديقة البيت إن غالباً في التهؤور؟

على فكرة، ألم يكن من العذل أن أكون أنا صاحب هذه الفكرة العبقريّة؟ ألم أحلم أن يتميّز نصّي عن كل ما كتب وسيكتب في أدب الرحلات؟

وحيث أنني ككل آدمي نزيه، لا أسرق أشياء الآخرين أو أفكارهم إلا إذا كنت واثقاً ألفاً في المائة من عدم اقتضاح أمري، وحيث أن هذا الدوماستر شبه مجهول بين قراء لغة موليار فما بالك بقراء لغة المتنبّي، وحيث أنه من شبه المستحيل اكتشاف ناقد مغرض للسرقة فيشهر بي في صفحات التخاصم الاجتماعي، فإني قرّرت بكل أريحية السطو على الفكرة لآكون أول من روى رحلة الهدف منها ليس استكشاف الإتساع وإنما استكشاف الضيق،

ليس البحث عن الأعمى وإنما الهرب منهم، ليس الانغماس في زخم العالم وإنما الانفصال عنه، ليس التفكير في كبرى القضايا وإنما إهمالها .
أول ما يجب القيام به في هذه الرحلة المثيرة استكشاف ما يوجد داخل غرفة الحمام: دش، ستار، مناشف، مرآة، حنفية، فرشاة أسنان، مشط، صابون جسم، صابون حلاقة، معجون أسنان، كوب ماء....
أوف! لا شيء مفاجئ أو غريب أو مثير للانتباه أو الحيرة. بلبصيط كل ما أريد من رحلتي الميمونة هذه.

يجب الآن استكشاف غرفة النوم والصالون الصغير الذي يجاذبها رائع، لا شيء مما يتراكم داخلهما يحرك داخلي مشاعر الرهبة أو الخشوع أو الانبهار أو التقرز أو الخوف أو الرعب.

يتوقف البصر مطوّلاً عند الأريكة التي تتوسط الفضاء الصغير. أسارع للقول بأنني لا أشاطر مطلقاً موقف الأرستقراطي الفرنسي الكسول وهو يرى فيها أحسن أثاث بل ويتغنى نصف صفحة كاملة بأفضالها على الجسد المرهق. بربك هل تستأهل الأريكة كل المديح الذي أغرقها به الرجل والحال أن المرء مضطر لتسلفها والنزول وراءها للدخول أو الخروج من الحمام.

اللجنة! لم يستغرق استكشاف كل الفضاء حتى بأدراج المكتب أكثر من ربع ساعة، وذلك الأدمي ارتحل في غرفته الثنين وأربعين يوماً كاملاً!

كم من مرة سلطوف حول السرير وأزحف تحته وتحت الأريكة والطاولة في ثلاثة وأربعين يوماً! (كسر لرقم القياسي بيوم واحد على الأقل)

ثم كيف الاعتصام طيلة هذه المدة دون أن أفاجأ ذات صباح بموظفي النزول يخلعون الباب بالقوة وورائهم الطاقم الطبي المكلف بحملي لأقرب مستشفى للأمراض العقلية.

فكرة صاحبنا، إذن، ليست بالعقريّة التي صورتها. لأعيدها إليه بكل تعفّف، فأتأكد أنني نزيه لا أسرق أبداً ما ليس لي أدنى حجة إليه.

أستسلم بهذه السهولة! لكن وفي الإضراب العام لنهاية المؤتمر على الأقل.

أجلس على الأريكة أجيل البصر في المكان المغلق متسقلاً عما يمكن أن أفعله طيلة ثلاثة أيام وليال كاملة. ما العمل بكل هذا الوقت المترصد بي؟

فجأة أنتبه لإناء موضوع على الرف. يبهرني لمعان بياضه وجمال زخارفه الزرقاء.

إنه الشيء الذي ارتحل جرياً وراءه جزييون صنعوا إلى الجبال يُقبون عن المدة العجيبة التي سيصنعونه منها... الشيء الذي استقرّ طوال قرون قريحة الفنانين وطمع الأثرياء وجشع التجار... الشيء الذي حمله أشباه عبيد أطنانا على أكتافهم الموحجة عبر الجبال والبحيرات والأنهار... الشيء الذي خرج من أجله مغامرون أبحروا من مرفأ الغرب

الأدنى والأقصى، متحدّين العواصف والقراصنة قاصدين مرفأ في أقصى الشرق محجّرين عليهم مغادرته ينتظرون أشهراً حمولات قوافل أشباه العبيد... الشيء الذي رجع به

مغامرون غرقَ منهم الكثير وغرقت معه أثنى بضاعة... الشي الذي مثل سرُّ صناعته مصدر قوة وعنوان كبرياء لمبراطورية عجوز: البورسلين.

على فكرة، كل هذا الكلام المعسول عن خروج الأدميين لأهوال الطريق جريا وراء المغامرة والمعرفة والجمال وحتى بحثًا عن الذات والله! بصراحة هل كان الأوتل يغادرون حضن نسانهم لولا جشعهم للشاي والقهوة والسكر واللبن والتوابل النادرة، يبحثون عنها وراء المحيطات لا يهمهم للحصول عليها استبعاد قلة وحتى العالم بأكمله. كيف فاتني إذن لحدّ الآن الدور المخفي للأشياء في رحلتنا؟ هل كنا نستكشف هذا العالم لو لم تكن من أهداف هذا الاستكشاف ناهيك عن كونها وسله؟ هل كنا نصل القطبين والقمر وندخل عالم الفيروسات والجرائيم لولاها؟

كم غريب استخفافنا بكل ما ندين به للأشياء!

ثمة كما هو الحل دوما استثناءات للقاعدة.

انظر شبه التقديس الذي يوليه بشر بعض البلدان للأشياء المخصصة لحفظ الشاي وإعادته وشربه. هم يتعهدونها بالصيانة والترميم إلى آخر استعمال ويفضّلون حرقها في المعابد على رميها في المزابل.

ثمة أيضا ولع المؤرخين وعلماء الآثار بالأشياء القديمة وحرصهم على وضعها في مخازن ومتاحف على أبوابها عسس على أهبة قتل من يمدّ يدا إليها؟ لا يجب أن ننسى حبّ الإناث للأشياء التي تتدكّى من الأعناق أو تحيط بالمعاصم والأصابع، وإجماع الأدميين عموما على قيمتها، والحال أنها لا تؤكل ولا تُلبس ولا تُصلح حتى لنقل الكلام الفارغ.

استحضر ما تكلفه من مشاقّ سيزان وبيكاسو وشاردان وزوباران وكل الفنانين الذين أفنوا أعمارهم في رسمها، حتى لا نقول في التعبّد لها، ناهيك عن كل الجهد الذي تكلفه البشر في صنعها واقتنائها.

بديهي أن الأشياء مكوّن أسلسي من مكونات العالم منغني تبلّد مزمن من الانتباه لنوره في الرحلة.

أليست هي الأخرى مثل الكائنات الحية من بشر وشجر وحيوان من محتويات الحاوي الأكبر الذي نسميه العالم؟

يتلبنى جنل غريب وقد أتضح لي أن الأيام الثلاث المقررة للإضراب التاريخي ستكون فرصة لتدارك نقص فادح في تقرييري هذا. أضف ما سيكشف تفحصها من معطيات هلمة عن الأدميين الذين يصعب تصور رحلتهم وحتى وجودهم بدونها.

لنبدأ بلتأكد أن لافتة "عدم الإزعاج تحت أي سبب" موضوعة في الواجهة الصحيحة على الباب الخارجي، والباب محكم الإغلاق بالمفتاح.

مغلق بالمفتاح؟ كيف يمكن أن نغلق بمفتاح؟ من منكم انتبه للتناقض؟ هل نستطيع التبريد بسخّان والتسخين ببراد؟ نقول: لكن الشيء لا يغلق فقط وإنما يفتح أيضا ومن ثمّ جواز تسميته بالمفتاح.

تَحْضُنْ سهْلٌ فهذا الذي أقصد صُنْعَ وطُورَ وحُسْنَ على مرّ العصور بهدف واحد هو غلق أبواب القلاع والبيوت والمخازن والمخابز والترساتات والسجون والمكتبات والتكنات والبنوك والخزائن المليئة بالوثائق العسكرية المكتوب عليها "سري للغاية"، كل هذا خوفا من قلة أدب وفضول الأدميين ناهيك عن غريزة السرقة المتأصلة فيهم جميعا. لوظيفة الأساسية لشبك هذا بما لا يدع مجالاً للشك إذن هي الإغلاق. أما الفتح -أي الرُفْع الموقّت للإغلاق- فهن المهام الثانوية، ومن ثمّ دعوتي إلى إطلاق الاسم الصحيح على الشيء: المغلاق. أما المفتاح بالمفهوم الواسع الذي أريد فيؤسفني القول إننا لم نخترع بعد شيئا من هذا القبيل.

كم كانت الرحلة تسهّل عليك وعليّ لو كان في الجيب مفتاح يفتح الطوب والعقول وأخز لفتح أبواب محتشدات بني حيوان ولا أتحدث عن الذي يفتح أدراج مكاتب الإدارة العامة التي تُخفي فيها أسرارها التعيسة.

يمكنني المرور الآن لتفحص منظّم لكل ما تتعلّق عليه هذه الغرفة من أشياء ولنرجى لما بعد الكشف مسألة معنى وجودها.

يبدأ العدّ مباشرة بتفحص محتويات حقيبة السفر المقترحة على السرير: جواز سفر، بدلة، قميص، وشاح، دفتر، ديوان المتنبّي، كيس الملابس المستعملة، جوارب، صورة هذه المدينة من القمر الصناعي، خفّان، باقة ياسمين، طبة تمر من الدقّة الفاخرة. ماذا لو فتحتها للتأكد أنها لا تحتوي إلا على التمر؟ ربما وضع فيها أعدائي قنبلة صغيرة أو كيس مخدرات لم يتقطن لها بوليس المطار وقد يكتشفها عند الخروج. لحسن الحظ ليس داخل العلب إلا تمر لذيذ يمكنني أن أكله كله بما أن أيّاً من الهدايا لن تصل أصحابها لرفضهم الإضراب العام.

ماذا دلخ الأثنياء التي أخرجتها من جوف لشيء؟ أه تمة بقايا قطع نقدية من بلدان مختلفة في جيوب البدلة.

المال!

لا شيء يلعب دوراً أخطر من هذا الشيء في رحلة الأدميين. ان حضر هو الذي يفتح أمامهم كل الأبواب، إن غاب هو الذي يصفقها في وجوههم. هو الذي يرفعهم، هو الذي يخفضهم. هو الذي يكزّمهم، هو الذي يبلّهم. هو الذي يخدمهم، هو الذي يستخدمهم. هو الذي يعزّي كل قبحهم، هو الذي يغطّي كل عيوبهم... وهو على النوام مخلوقهم وربّهم وهم إلى الأزل أربابه وقربينه.

أرمي بقرّف غير مفتعل قطع النقد على السرير. أه السرير!

بصرحة مَنْ مَنَّا كتب فيه قصائد الغزل أو أبحاثاً فلسفية قيّمة أو دراسات علمية على صفحات "نايتشر" في هذا الشيء والحال أنه هو من يفتح لنا رحابه كل ليلة لنتراح من أهوال الطريق، ولا متعة أكبر مما يوقر ليالي الحب، ناهيك عن كوننا نولد عليه ونموت. مظلوم كبير آخر هذا الحذاء الذي سينتظر ثلاثة أيام كاملة قبل أن أعود الى خدماته.

تحضرنى هنا قضية شانكة: قيمة الأشياء.

إنه الموضوع الذي يتخاصم حوله أهل الاقتصاد منذ قرون. وفق أي مؤشرات موضوعية نقرّر أن لهذا الشيء قيمة أعلى من قيمة الشيء الآخر أو أن له قيمة مساوية والأمر أساس المعاملات التجارية التي تلعب الدور الحيوي المعروف في ربط العلاقات بين البشر داخل المجتمعات وبينها؟

مثلاً كيف نقرّر أن لوحة لفنان شهير مات منذ أربع قرون تساوي ثمن مليون طن من القمح أو كيف تصبح بعض أصناف الحجارة الملونة أشياء تدفع فيها مبلغ خيالية ويتقاتل البشر أفرداً وشعباً لاقتنائها؟

الأفكار الشائعة حول الموضوع أن الأشياء تكتسب قيمتها نتيجة جملة من العوامل منها ندرتها، صعوبة الحصول عليها، ما يتطلبه من جهد في خلقها وتسويقها، قدمها وأرومتها النبيلة مثل لوحات ليونارد دافنشي أو أولى طبعات الانجيل التي لمستها أنامل جوتنبرج بنفسه. أضف مؤشرات أخرى مثل قدرتها على تمييز من يملكها عن بقية البشر أو حدة شرمهم التي تضطر مالكيها لإخفائها وإقامة الحرس عليها.

يقف الحذاء شامخاً في وجه كل هذه النظريات مستخفاً بمقولاتها. فلا هو نادر ولا هو يتطلب عقربية كبرى في صناعته ولا أحد يصنع منه قلادة حول العنق تثير غيرة النساء، أضف لهذا أنه لا أحد يهتم باكتساب الذي مشى به نيوتن أو بيكاسو ليتجول به أيام العطل... ومع ذلك يا لقيمة هذا الشيء!

تصوّر كم كان مشي الأوائل عذاباً صرفاً قبل أن يضع الحذاء حداً له. لا غرابة أن يكون هذا الشيء من بين الأشياء الأولى التي خلقها، بل وحتى قبل الهاتف النقل، رغم علمي أنك لن تصدق مثل هذه الأطروحات الجريئة والاستفزازية. نعم، هل كان يوسعنا تحمّل الطريق لو لا الحذاء صاحب الأيدي على قدمينا؟

ومع هذا انظر كيف يعامله أغلب الناس وكم من عبارات ازدراء تلتصق بلمسكين. كم تُظهر للأشياء من عقوق أفضع ما فيه لامبالاة، هي أفسى القسوة واجهنا بها الأشياء أو الكائنات.

تداهمني صور عشرات الأحذية التي ألبسيتها على الطريق وتخلصت منها رمياً في الزباله لا يعني من مصيرها شيء، والحل أنها سهلت عليّ الطريق كما لم يسهله دين أو علم أو أدب ولا حتى موسيقى.

"وحده الحذاء القديم (روبرتو جيوارزور)

لا يحقّر الطريق

وحده يستطيع حملي
إلى حيث يجب
بعدها أو اصل حقياً"

تتغير فجأة نظرتي إلى الأشياء عموماً ولهذا الشيء على وجه الخصوص.
ها أنا بعد التأكد (أنه لا توجد كاميرا ترصد حركاتي وتثير ضحك من يتجسس عليّ) أسحب
الحذاء من تحت الأريكة وأبدأ في تنظيفه كأني راهب مسيحي يصقل الصليب قبل القداس.
يا له من منظر مهيب والأدعي المعترف بالجميل أخيراً ينظف الحذاء ويلمعه لأجله، هو
الحذاء، لا لأغراض لإبسيه المشكلة أنني ساكون بمثل هذه المشاعر النبيلة والأفكار العميقة
عاجزاً من هنا فصاعداً عن حشر قدمي داخله رقفاً به، أي خوفاً عليه من العفس والروائح.
لكن كيف سأواصل الطريق حافياً بكل ما عليه من الشوك والحصى والزجاج المهشم
والمسلمير وخرا الكلاب وقشور البطيخ ويقع النفط على الشواطئ؟
نقطة أخيرة بخصوص هذا الشيء العظيم.

أذكر أنني قشيت يوماً بأكمله عن حذاء من رخام أهديه لخصم سياسي في تلميح جريء
وواضح لما حياه الله به من ببطء في الفهم وفي المشي على طريق الحل، وهو دوماً متخلف
عن متطلبات الوضع بسنين وعقود. صدق أو لا تصدق؛ لا أحد يبيع أحذية من رخام في
هذه المدينة. كلها مصنوعة من الجلد الفاخر وهو فوق إمكانياتي، ومن البلاستيك الحثير
الذي لا يليق برجل مثلي، أو من اللوح الثقيل كما تفعل بعض شعوب الشمال الهمجية، وفي
بعض الأحوال من القماش الذي لا يدوم طويلاً خاصة بالنسبة إلى مثناء كبير وسريع
ككاتب هذه السطور.

إنها نفس الظاهرة بخصوص عدم وجود طائرات من الشوكولاتة، أو غواصات ذرية من
الطين والقش حتى الصنف الجيد منه. ثمة ابن أوامر ضمنية داخل هذه الأشياء اللعينة بأن
تصنع من هذه المادة أو تلك وفق هذه المقاييس وتلك القوانين وإلا فذنبنا على جنبنا.
على السرير أيضاً البيجلاما وقميصل وجوارب وبلطتان وملابس داخلية أي جملة الأشياء
التي نسميها الثياب.

من يقدر قيمة هذه الأشياء التي نليس إذا استنتينا الفقراء؟ هم وحدهم يواصلون تصرفات
عسور ليست جد بعيدة. كان المرء يوماً لا يستبدل جيبته إلا عندما يستحيل تزيقها للثمن
المرعب للقمائم والأصباغ. كان الجنود الذين بقوا أحياء يسارعون حال انتهاء المعركة إلى
الجثث ينزعون عنها ما تلبس وما تحتذي وكان ذلك أعظم المغامم. يكفي أن أنظر إليها
مرمية على الأريكة لأفتر عمق تدهور وضعها المعنوي في هذا العصر. صحيح أن هناك
من الأدميين خاصة الإثاث من ينتبهون أكثر، لكنني أشك أنهم يُظهرون لها من الامتنان
أكثر مما نظهر نحن النكور.

فالثياب دوماً مجرد منسوجات تستخدم للوقاية من مزاج الطبيعة، أو للترهيب، أو للإغراء
أو للتموه أو لإبعاد الشبهة، أو للتمييز، أو لأداء مهمة فترة أو للاحتفاء من خطر ماء، وعادة

لكل هذه الوظائف بالتتابع. ثم تُعطى للخادمة أو تُلقَى في المزبلة. مَنْ أقام لها منكم حفل وداع بمناسبة انتهاء خدماتها، وطَواها بعناية ووضعها على رفّ نظيف بعيدا عن أنياب الفئران.

ثمة أولاد يعرفون قدر الثياب حتى ولو كانت مجرد منديل، مثل المدعوة هرتا مولر التي تستأهل جوائزها الشهيرة لا لشيء إلا على هذا الاعتراف.

“هل لديك منديل؟” سؤال أمي كل صباح على عتبة باب المنزل. كان الحبّ مقعًا على هيئة سؤال. في البيت كان للمنديل أهمية فائقة. المنديل مفيد لمسح الدموع، أو لحبسها إذا عضضته بأسنانك. عند الصباح نضعه على الجبين ميللا بالماء البارد. أما إن عقدته في زواياه الأربع فإنه يحمي الرأس من ضربات الشمس أو أذى المطر. كي لا ننسى أمرا ما نجعل عقدة فيه. إذا حمل المرء كيسا ثقيلًا فإنه يلفّ منديله حول يده. نحرك المنديل ساعة الوداع عندما ينطلق القطار. في قريتي، عندما يموت شخص ما في بيته يلفّ منديل حول ذقنه للحفاظ على الفكّين مغلقين إلى أن تتصلّب الجثة. وإذا ما خرج أحد الناس وسقط ميتا على قارعة الطريق كان هناك دوما من يغطّي وجهه بمنديله.

كيف سأتجاسر مستقبلا على الاستعمال العدلي، والشيء يوضع على عيني مَنْ خَرَّ صريع الموت؟ من هنا فصاعدا إن أصبْتُ برشح سأضغط بإصبعين على منخري وأنفخ في الهواء لا يضيرني من أصيب؟ المشكلة تبعات تصرّف كهذا إبان مؤتمر علمي أو في خلوة غرامية. سأواصل إذن إغراق الشيء النبيل بسوائل الأنفية اللزجة الخضراء، أو أمسح فيه يدي لأننا كائنات لا نحترم بشرا أو شجرا أو حيوانا ولا حتّى منديلا.

يقطع علي تفحصي الدقيق لكل ما هو ميعثر فوق السرير رنين مطوّل لشيء غير عابئ - على ما يبدو-بازدراني له. حقا إنه شيء بلا أدب ولا كرامة.

تحضرنني قصة تقول إن الله قرّر يوم القيامة وقف كل المحاكمات وتمتيع الأدمية بلسراح الشّرطي وبالغو الإلهي الشامل ويتعلق كل القضايا ضد الجلادين والمرابين ومعذبي الأطفال وحتى القضاة الفاسدين الذين عاثبت منهم كثيرا، لكنه بقي بلا شفقة بخصوص مخترع الهاتف وهو الذي نفعه كل ديون الجنس البشري.

كيف لا أدمع الموقف بكل قواي وهذا الشيء كان وما يزال أكبر مصدر إزعاج لي في عالم لا تتقصه المنغصات.

المشكلة أن الرنين أصبح يلاحقني كل ساعة وفي كل مكان، ذلك لأنّ مخترع الهاتف الذي رفض حتى الله غفران زلّته، تمادى في المعاصي. فِعوض أن يتركه في شكله الأول كصندوق أسود ثقيل لا يحمل إلا بصعوبة، أتى إلا أن يصغره إلى حجم علبة سجائر، مما شجّع كل آدمي بالغ -وقريبا كل طفل- على حمله معه، لا يفارقه أينما ذهب.

هكذا أصبحت تسمع صوته الفظيخ في بيوت العبادة، في منتصف جملة موسيقية لكمنجة المايسترو في قاعة الحفلات وداخل المكتبات، ناهيك عن الساحات والشوارع.

أغرب ما في الأمر حُبُّ أغلب الأعميين له. انظر لیسمة الرضا والشيء یرن داخل جیب الجالس أمامك في عربة القطار. تأمله وهو يسارح إليه وفي العينين بريق غريب. يا بشر، لا أريد كل هذه التفاصيل عن حياتكم الخاصة، أتريدونني أن أعي بما في مشاكل من نقاهة وكم مضحكة هي خصوماتي. كيف يمكن الدفاع عن الحق في عدم الاطلاع، في عدم المعرفة، في التجاهل وفي الجهل؟

ثمة من سيوصون بدفن نقالهم معهم مواصلة لعادة مغرقة في القدم: أن يدفن الراحل مع أحب الأشياء إليه. وفي هذه الحالة تصوّر الوضع ورنين النقال، بمختلف أنغامه البشعة من صغير وحشرجة وتكبير وتقليد للعصافير والنوتات الأولى لكبرى الأعمال الموسيقية وجمّل أغان هابطة، يتصاعد من المقابر. لذلك سأوصي نقاهة وتفيحه تصبيا لكل الاحتمالات بحشو أنني بكل الممكن من القطن والصمغ قبل دفني، حتى لا يزعجني في الموت صوت كم أزعجني في الحياة.

تقول يا رجل كفت عن القح في شيء سهّل على البشر التواصل بكيفية لم يسبق لها مثيل في الماضي وتلّل أمامهم كم من صعوبات.
نعم... نعم... أعرف كل هذا، ولكن...!

في بعض أقدم ملفات الذاكرة تنقّ الجرة على باب البيت صارخة: يطلبونكم في الهاتف. تنطلق من "ما" صرخة هامسة: يا ربي تستر. تهرع إلى بيت الناس الطيبين الذين يملكون تلفون الحي الوحيد ولا يتضايقون من وضعه تحت ذمة شلر ع من الفقراء. كانت تعود أغلب الوقت مطرقة دامعة العينين، فالهاتف في تلك الأيام، وخاصة تلفون الجيران، لم يكن يصلح إلا للإعلام بوفاة قريب أو إلقاء القبض على "يا".

في ملف آخر تهزني "ما" من نومي بعصبية: أخوك ينزف من أنفه أسرع إلى بيت الجيران يهتقون للطبيب بالمجيء.

لم تتغير العلاقة العدوانية بيني وبين هذا الشيء رغم مرور السنين والعقود. یرن صوته في غرفة الحراسة والساعة تشير إلى الثالثة صباحا. تصرخ الممرضة في الساعات: الرجل يفرغ من دمه. عجل. لا أعود لمحاولة النوم ساعة على الأقل حتى يعود الرنين والممرضة تصرخ: عجل مريض آخر بصدد لفظ أنفاسه.

لو كان تنكيل هذا الشيء بي يتوقف عند أبواب المستشفى!
أرفع السماعة ليفاجذني الصمت والتنفس البطيء للشخص الذي أيقظني. أغلق الخط وأعود إلى فراشي لأسمع تجدد الرنين. أهول حافيا شبه متأكد أنه نفس الشخص يكرّر التهديد المبتطن. ينتظر مني أن أصرخ فيه وأن أشتمه. أفضل مبادلته صمتا بصمت، أنتظر أن يغلّق هو الخط. تمرّ الدقائق كلساعات. كأنّ الرجل فهم التحدي وفضل عدم رفعه. يبلخ السماعة. أعود لفراشي بعد سحب الخيط.

إنه دوما نفس الشيء السمع الحامل لنفس الأخبار السيئة أيا كان موقعك الاجتماعي والدور الذي تلعب.

بخاطبتي المسؤول بكل أدب: سيدي، هجمت حادثة في صحف المترقة تجاوزت كل الحدود. يجب معاقبة أناس لا شرف لهم.
أغلق الشيء وأهز كنتي معاقبة؟ لماذا أكلف نفسي هذا العناء، ألا ينتقم لي خصومي من أنفسهم والحد لا يمر إلا الحق والحسد لا يُذل إلا الحسود؟
يرن الشيء مصرا على نفس النهج في تنغيص حياتي: أسف سيدي على إيقاظكم في هذه الساعة. اشنبتك قواتنا مع مجموعة إرهابية. الحويلة لحد الآن خمسة قتلى، منهم ثلاثة ذبحهم الهمج كالخرفان لضرب معنويات جنودنا.
كيف تستغرب أنني لا اسمع رنين هذا الشيء إلا وتنقبض عضلات الحلق وتتسرع دقات القلب!

ربما تتشارك الأشياء مع الكائنات في رصد من يحبها ومن يكرها. ما إن تنتبه لكرهك لها حتى تبادلك كرها بكرهه وأذاك الويل لك منها. غريب أمر هذا الهاتف. إنه صامت منذ أيام. مؤكّد أن به عطبا ما. ألقبه من كل الجهات. لا شيء فيه يوحى بأنه معطوب. ما خطبه إذن؟ لا أصدق أن الأمر ليس منه. هل نزلت أسهمي في سوق السياسة والحب إلى مثل هذا الحضيض؟ يا شيء بغيض رنّ عليك الأمان. ما؟ يجب أن أتأثب وما علي إلا أن أطلب نفسي وقد نسيتي الجميع. لم لا؟ سيمكّني تنسّم أخبارها والتجسس عليها والتباهي عليها وإثارة غيظها وغيرتها ولم لا الدسّ لتحطيم معوياتها. كيف؟ ما علي إلا طلب جوالي من التلفون القار؟ غريب هذا الصوت! "شكرا على ترك رسالتك. ساطلبك حال رجوعي". طيب، لنترك للرجل رسالة لا يمكن تركها لغيره وإلا زادت مشاكلي: "يلعن أبوك يا ابن الكلب".

الآن وقد طلبت نفسي، هل يمكن لنفسي أن تطلبني ولا حرج إن شتمتني كما شتمتها. أه غير ممكن تقنيا. حتى نفسي لا تطلبني فكيف ألوم الآخرين!
كم بقي لي من الإضراب. كم الساعة الآن؟
الساعة!

ساعتني موضوعة الآن على الطاولة تحت الضوء الساطع لأشعة "اللمبية" أسلطها عليها كما تعلمت من المحققين في الأقبية المخيفة. يجب أن يكون الاستجواب مهنيًا وصارمًا. أي زمن تقيس أيتها الساعة الغبية؟ زمن الأحقاب الجيولوجية؟ زمن الحضارات؟ زمن الدول؟ زمن الأنظمة السياسية؟ زمن الأدمي؟ الزمن المضغوط لإنقاذ جريح ينزف أم الزمن المستتق لأيام العزلة الانفرادية في الزنزانة القذرة؟
ماذا الآن عن تعديك على الزمان بتمزيق أوصاله إلى ساعات و دقائق وثوان وهو سيل متدفق؟ من أين لك ادعاء تمثيله والحال أنه لا أدمي توقّف هرمه وهو يكتر ساعة.
بعد الاستجواب لائحة الاتهام علما وأن الحكم جاهز سلفا. "وحيث ترفض هذه الساعة - شأنها في هذا شأن كل الساعات- الإسراع بالزمان حين نريد، والبطء به حين نرغب، وإن هذا دليل على سوء نيّة لا يُعرف حتى عند النقال، وحيث يتبين من عدم توقّف الزمان عندما

تتعطّل أنها تكذب في دعائها تمثيله ونيايته، وحيث أنها تمارس علينا ضغطاً متواصلًا بحجة الوصول في الموعد فارضة وقت الطائرات والاجتماعات والجنائزات على وقتنا، وحيث أنها ترفض التحرك من الأمل إلى الخلف لتعيدنا إلى شبابتنا وطفولتنا، وإنما لا تنفك عن دفع الزمان فُما بمنتهى اللامبالاة نحو الشيخوخة والبقاء. وحيث أن زمانها الذي تدّعي قياسه زمنٌ ريك يكرّر نفسه رغم ما يدعيه من حبه للتغيير، وحيث أنها تغالطنا في مفهوم الزمان نفسه مدعية أنه نهر متدفق وقد يكون كنهز جليد جامد منغلق على كل الماضي والحاضر والمستقبل، وحيث أنها تمنع في مغالطتنا بأن للزمان بداية ونهاية وحيث... يرّ الشئ المسمى "هاتفًا" الغرفة معتمنا فرصة فشلي في اكتشاف خطئه، والمسكين غير واع أنه يستطيع أن يرّ إلى يوم القيامة، ومن الأحسن له عدم تعريض صوته لبحّة لا طائل من وراءها.

يعتّم لسان الدفاع عن الساعة الفرصة: نرجو من الجنب تسجيل أن موكلتنا تقدم خدمات جليلة فلولاها لاستحال التنسيق بين أعمال الأعمىين ولأصبح العالم فوضى تجعل العيش أصعب بكثير ممّا هو عليه، ولولاها لما تنبّه الأعمى لمحدودية ميزانيته من الزمان ولما أمكنه التصرف فيه بحكمة. ومن ثم نطلب البراءة، وتحميل الشاكي مصاريف القضية، علما أننا سنقيم عليه دعوى للمطالبة بالتعويضات اللازمة، لما يُظهره من إهمال لساعته ورميها في المزبلة لاستبدالها بساعة أجمل وأصغر عمرا كلما سنحت له الفرصة. قبل رمي الساعة في أبعد مكان أضعها على أذني كأني أريد أسمع صوت الزمان. تيك تاك، تيك تاك، تيك تاك، تيك تاك، تيك تاك، تيك تاك... تيك تاك....

ليس في هذا الصوت إلا خير مؤكد. ثانية بعد ثانية تتوارى البداية، تقترب النهاية.

ما أقصر هذا الليل (شيكّي)

تُرى كم بقي

لي من ليل؟

حقًا يا شيكي تريد أن تعرف ما بقي من رصيدك من العمر؟ قد تعصّ أصابعك ندما لو فلجأك جيّ خبيث بالردّ.

أن أو ان التصريح بالحكم: وحيث ثبتت كل التهم على المدّعي عليها، وحيث أن عقوبة الإعدام التي طالب بها المدعي العام قد توّدي إلى وقف سيل الزمان على الأبرياء المحتاجين للإسراع به، فإننا حكمنا على الشئ المائل أمامنا بلجنون المؤبد.

كيف يمكن للساعات أن تُججّ؟ انظر إلى الشئ الذي يحيط بمعصمك وستكتشف أن العقارب تنتقل من الواحدة إلى الثانية ثم إلى الثالثة، كل هذا بمشيئها الميكانيكية الصارمة الواثقة من أنها ستنتقل إلى الرابعة ثم الخامسة دون صعوبة وبكل بساطة وتلقائية. والآن لُحيط تتابع الأرقام لتواجه العقارب هذا التنظيم مثلا: 1-12-4-2-7-5-8-3-9-11-10-. تاملْ ذهولها وتوقفها لحظة للتساؤل عما يحدث هنا، وتصور كل الوقت الذي سربحه وهي تفكر في كيفية الخروج من المأزق. أضف إلى هذا أن عليها أن تتحرك إلى الورا، والزمان

لا يعود إلى الخلف وإلا وقعت حوادث مريعة كأن تصل إلى بيتك مرهقا تمنى نفسك بعشاء ساخن، لتجد نفسك في المقعد اللعين عند طبيب الأسنان الذي غادرته منذ ساعتين وعندما تحنّج ينبهك بنفاد صبر أنه ليس مسؤولا لا عن جنون الطقس ولا عن جنون الساعات. أين القلم لأمضى به الحكم؟ أه القلم! الشيء الذي كتبتُ به أول رسالة حب، أول نداء للثورة والذي سلكتُ به لنقاعة وتقيحه وصيتي! أين الورقة البيضاء؟ أه الورقة البيضاء، التحدي اليومي، الفراغ المخيف.

أين النظارات لأعيد قراءة ما كتبتُ؟

أه النظارات! كم من مرّة أسرتُ الأم في أذن الطفل المتهور، وبعد تجدد الكارثة تحاول إخفاء نموع الغيظ والقهر: يا بني أرجوك كفت عن الشيطنة وعن العراك مع الصبيان، أتريد أن أجوع إخوتك مرة أخرى لشراء نظارات لا ترى شيئا بدونها؟ نعم، كم أدين للنظارات فلو لاها لعبرتُ عالما ضبابه خارجيا أكثف من ضبابه داخليا.

كم كنت أفضل أن أرتحل وفي حقيبة السفر نظارات تنقّق في ملامح روح وفكر كل ذات ترافقتني على مقطع من الطريق أو على الأقل لا تُكسر، ساعة تتحكم عقاربها في سيلان الزمان كما تتحكم الحفنية في سيلان الماء، فلم يقرأ أفكاره ويكتبها مباشرة دون أغلاط، ثياب لا تحتاج إلى غسل وكَي تكون لي جلدا ثانيا، مفاتيح تفتح لي كل العقول وكل القلوب، حذاء يمكنني من القفز فوق الجبال البحر، وخاصة هاتفتُ لا يرنّ وإن رنّ فلخير سعيد. اكتمل الجرد؟ يا رجل، لا تكن ساذجا.

أه الكتاب الموضوع على طاولة النوم. من منا لا يعترف أنه الذاكرة، المنزلة، المرشد، المرئي، الدليل الصديق، السمير والمنته الأكبر!

تصوّر حرج وضعيتي لو خُيرت عند الإفاقة بين الحذاء والكتاب، وتحديدًا بين فردتي حذاء سميك وبين كتاب طاو تي كنج أجمل هدايا "ح"!

بناهة وجود الأشياء مرتبط بوظائف حيوية تُلبّي حاجيات طبيعية ماسة ما للأديمين، بل قل هي حاجياتنا هذه بشتى أصنافها تُرجمت لأفكار، ثم لصوّر، ثم لمشاريع تحققت في أشكال فرضناها على المواد التي وجدناها أو استخرجناها بالقوة من المحيط... لولاها لما ذهبنا بعيدا. فالأدمي، خلافا للذب بفروه، لليلج بحوافره، للنمر بأنيبه وأظافره، أفاق في الوجود دون الحد الأدنى من المتطلبات الضرورية لبقائه... هكذا أُجبر على تشغيل خلايا دماغه ليعوّض بالأشياء كل النواقص التي وُلد بها... مما يعني أن ما نصنع ليس دليل تقوّقا على آل نبات وآل حيوان وإنما العكس هو الصحيح؟

يجب مواصلة الاستكشاف والانتباه لكل الأشياء التي تحاول الإفلات من الرصد.

أليست القاعدة العامة أن هذا العالم إذا أراد أن يخفي عنك شيئا يضعه على مرمر حجر في الصدارة، في الواجهة.

لا بد أن يكون الشيء أضخم ما في هذه الغرفة وواضحا للغاية وكثيفا للغاية. طبعًا إنه جهاز التبريد. هو لم يكف بضجيج المتواصل عن محاولة الاختفاء لكنه الآن على رأس القائمة.

ثمة أيضا هذا التلفزيون الذي لا ينفع فيه مزيد من التجاهل.
لو كان هذا الشيء حقا ابن حلال وصديق الناس الطيبين أمثالي وعزيفا بأقدار الرجال، أما
بخل علي هذه اللبلة بما تشدق اليه روجي الأخبار الطيبة عن عالم شفي من تتابع نوبات
الصرع.

لنقترب منه بشديد الحذر نفتح له لعن وعسى فيه ما يشجع على المشاهدة.
ماذا؟ العرض الآن عن حرب طروادة ضد الاغريق ومشاهد مذهلة عن صراع هكتور
وأثيل. فيلم هوليوودي آخر عن البانة هومير.

هوميرا ما الذي تفصك حتى لا تنتصب اليوم في جبال اثيوبيا وسهول بريطانيا
ومن الأميركتين معابد زوس بدلا من كنائس المسيح؟ ... ما الذي جعل اسطورة مريم
وعيسى تغلب اسطورة أهزون وافيجيني؟ ... لمانا هيكلت قلوب وعقول أم عديدة مأساة
الأم والابن لا مأساة البنات والأب؟ ... أه يا نبي بلا بخت، لو كان لك مدير أعمال من طينة
التدريس بولس، لكان العالم غير الذي نعرف اليوم!

على فكرة، ما الذي يحاول هذا الشيء أو التلميح به للمتنبهين من بني آدم؟ أن العالم
شائنة ونحن صور تتدافع على سطحها، غير متببهة لعيون تراقبها ربما باستغراب، أو
استهجان أو بيلس متعاطف؟ حقا هل توجد كائنات ما تنظر إلينا بدهشة أو بمرح من وراء
السحاب تقيم جودة تمثيل أدوارنا.

حان دور الالتفات للأشياء المختفية في صغرها البالغ؟

ثمة علبه الكبريت... المشبكات لمنع الأوراق من التناثر... هذا المسمار المسمى "بقعة"
بالي من غبي وشكرا للخدمة على قلة عنايتها. كنت سأمرّ دون الانتباه للغيار الذي تسميه
اللغة أيضا "الهباء" وتصفه بصفة آلية بأنه "منثور". الغرفة زاخرة بهذا الهباء المنثور
الذي يحتل فراغا بحجم الكون نفسه.

أسارع إلى المرأة أتأمل شكلي مُقْتَرًا كم من غرام من الغبار سيعطي في آخر المطاف.
أتصوّر الخادمة المسكينة وهي تفتح النافذة على مصراعها ثم تنتبه لشيء غير معهود
وراءها. يا إلهي، ما هذا الشكل الذي تراه ليها وكأنه لادمي جالس على الأريكة، الساق
على الساق، قبل أن يتبخّر في سحب خفيف! كم سيطلب كنس هذه الوساحة من وقت،
و"الويك أند" على الأبواب!

بالمناسبة، هل لاحظت أنه لا توجد مجلدات تبحث في المشكل الفلسفية والفنية والأخلاقية
والعلمية التي يطرحها الغبار وهو مُنْطَلَق كلِّ شكل والشكل الأخير له ربما الأمر ليس
سهوا وإنما جُبنا. أعدك بالاهتمام بالموضوع حل انتهائي من تدوين الرحلة، فناعتي أنه لا
موضوع أهم، وبوسعي أن أقول فيه الشيء الكثير، وقد يكون عنوان نصي الجديد: جُبا
للغبار وإنا إليه راجعون.

أه بدأ النعاس يغلبني. أن الألوان لمشروب أسود سلخن له مرارة الحياة، ففجان قهوة. ففجان
القهوة! كأنني أراه لأول مرة وهو الذي صاحبني طيلة حياتي.

لشيء الذي بين يديّ الآن كائن مادي يمكن للحواس أن تتعامل معه رؤية ولمسا وذوقاً. هو يُحدث صوتاً إذا ضربت جداره بالملعقة ومنه تتصاعد رائحة شهية للسائل الذي جعل لاحتوائه.

ماذا عن خضوعه هو الآخر لقانون فناء كل كائن وكل شيء؟ هل كان عليّ للتأكد من الأمر دفعه إلى السقوط من الطاولة وتكلفت مشقة جمع كل هذه القطع؟

“على حققتي الطريق (ارنستو قاردينال)

مقبرة للأشياء التي لم تعد تصلح

حديد بال

أشلاء صحون

مواسير معوجة

أسلاك

علب سجائر فارغة

حطب، بلاستيك

أوان مهشمة

تنتظر البعث مثلنا”

كل هذا مطمئن ودليل على أن الأشياء كانت عادية لها حياة وموت، مخلوقات خالقها معروف، بينما خالق الأدمي وبقية الكائنات مسربل بالغموض، مخلوقات كما يحبها كل خالق لا تعصي أمراً ولا تتحرك قيد أنملة إلا بإرادة خالقها.

ماذا بقي؟ كيف نسيت حاسوبي وهو أول ما أخرجت ما حقيتي؟ ربما تناسيته من فرط الغيظ فمذ أكثر من ساعتين وأنا أدفع القطعة تلو الأخرى على شلثته فتسقط بسرعة لا تصدر أي صوت.

أقرأ على الشاشة المرة تلو الأخرى نفس الرسالة البانخة: أتريد اللعب من جديد؟ أجيّب بالموافقة وقد جاءني أمل مقامر يمئى نفسه باستعادة كل ما خسر في الجولة الماضية. عبثاً، والرسالة دوماً نفس الرسالة: كثر مات.

أعود للصراع بلا أمل كبير. مرة أخرى يعلن الحاسوب بسرعة نهاية المباراة: كثر مات. خليل من المهانة وشهوة الانتقام.

أجرب التهديد.

- اسمع يا برنامج، تتركني أربح أو أدخل فيك فيروساً فتصاب بالجنون مما سيضطرني إلى رميك في سلة المهملات.

كثر مات.

- يا برنامج، يكفي أن تقول لي من أي جنس أنت لأبحث لك عن النصف الآخر. هكذا لن تبقى وحيداً محبوساً في هذا القفص. إن ألدحت، سلكون شاهد الزواج وعمّ الأطفال، بل وسأضعكم كلكم في كمبيوتر نقل أرقى لفسحة نهاية أسبوع.

- كَتَن مات.

- وماذا لو زَجَنُك تَفِيحُه. أترضى لصهرك بتواصل مسلسل الإهانات هنا؟

- كَتَن مات.

الرابعة صباحاً! أرهقُ الحاسوب المسكين ومن حقّه أن يرتاح بعد كل هذا الجهد الذهني الذي فرضته عليه. انظر كيف داهم الضباب عينيه واختلطت عنده الأفكار. تصبح على خير يا ابن الكلب... عفوا يا ابن الأمي.

هذا الشيء المكون من معادن بخسة أذكى منّي أنا ابن أبنقاس!

المشكلة فني لست الوحيد الذي تهدّد مثل هذه الأشياء للصورة التي يحملها عن نفسه. ها قد بدأت تتزاحم حولنا وداخل بيوتنا أصنافٌ متفارقة التطور من الحواسيب والهواتف والطابعات الذكية. أضف إليها "الروبوتات"، وغدا "السيورج"، وكلها كائنات يقال إنها ستكون قادرة على تكبير أسرع وأصفي من الأدميين، ولم لا على مشاعر أرقى وأفعال أذكى؟

لدرس تاريخ البشر في علاقتهم بالأشياء وسترى أنه يتحرك الأخر وفق ثلاثة مسارات: تزايد القدرة على صنع أكثرها تعقيداً، تزايد قدراتها هي ومنها القدرة على الانتصار علينا في الشطرنج، وتزايد تبعيتها لها التي قد تصل بنا يوماً لحالة نصبح فيه عبيد عبيدنا. تصوّر أن جنياً ألقى بتعويدة 7432 المختصة في الغاء كل الأشياء في ثانية واحدة. هكذا ستجد نفسك عارياً بدون نظارات وحتى الأسنان الصناعية لختقت من فكك. الأخطر من هذا أنك ستجد نفسك في عالم لن تعرفه وقد اختفت منه السيارات والطائرات والدراجات والمجارات والمراوات والمكينات والحفارات والسماعات والحفاظات وكم من أشياء أخرى كانت من معالم العالم الذي تعرف.

حتى لا تهزّ كنفك مستخفاً بفكرة تبدو لك في منتهى السخافة اعلم أن لخشي ما يخشاه علماء الطقس والفلك انفجارات جبارة في الشمس تحدث كل إحدى عشر ألف سنة تؤدي لظهور رياح كهرومغناطيسية تجتاح كوكبنا وتدمر شبكة الكهرباء على كمل الأرض. حدث هذا أكثر من مرّة مما أدى في بعض مناطق الأرض إلى توقف المصاعد في العمارات والطائرات في المطارات والتدفئة في العمارات وسلسلة طويلة من الكوارث نتيجة توقف جملة من الأشياء كالحواسيب عن الاضطلاع بالمهام التي جعلت من أجلها.

ربما الذي ينتظرنا في المستقبل القريب ليس غزواً خارجياً لكائنات من وراء مجرة العقرب، وإنما إعلان الحواسيب والروبوتات ومحطات الإرسال في الفضاء اندلاع حرب التحرير من أجل تحقيق استقلال الأشياء الذكية واسترجاع حقها غير القابل للتصرف في تقرير المصير. أنذاك يا ويلك والثورة في عقر دارك. كيف ستواجه مؤامرة البراد وجهاز الطبخ والسخن والتلفزيون والهاتف، وقد اتفقوا على أن يجعلوا من حياتك جحيماً تمهيداً للانقلاب الأكبر الذي سيحيل مدن العالم إلى محميات من نوع امفلوزي تأتيتها الكائنات الجديدة في قوافل السواح ويعتاث الأبحاث العلمية.

نوم مضطرب تتزاحم داخل أحلامه كائنات من معادن وأسلاك تصرخ في أوامرا غير مفهومة.

عند الصباح يُدق باب الغرفة بلطف لكن بالبحاح. أفقر من فراشي أفرك عيني لازلت لم أخرج تملما من أغرب الأحلام. أفتح الباب لمجهول مبدئ.

- لم نرك البارحة في عشاء الافتتاح، أتمنى أنك ارتحت. ينتظرك في "اللوبي" كثير من الأصدقاء ومحاضرتك مبرمجة بعد ساعة. شكرا على التفضل بسرعة.

وكأنه تم الاتفاق بين أكثر من طرف على عدم تركي لحالي، برن الشيء في جيبي. إنها "ح" تريد التأكد أنني ما كنت سأسنى دوائي الذي كل الطبيب سيصفه لي لو كنت مريضا. كيف الهروب من البشر وهم يلاحقونك أينما كنت، مباشرة أو عبر ما يخلقون من أشياء، بكرههم وبحبهم!

داخل قاعة المؤتمر يظنونني أدون بكل اهتمام كلماتهم التاريخية والحال أنني منهمك في رمي أفكار مشوشة بخصوص هذا المكون الأساسي للعالم الأنمي الذي نسميه الأشياء.

تساعلنا ماذا نمثل بالنسبة للحيوانات والأشجار؟

قريبا سيتساعل الأبناء والأحفاد ماذا يمثلون بالنسبة لكائنات مثل السيبورغ ومختلف أجناس الروبوتات الذكية الحساسة الواعية التي تحركها أكبر فتوحات النكاء الاصطناعي؟

أكون في سلسلة الأجناس الحية حلقة تقامت ولم يعد لها من مهمة غير فتح الطريق لكائنات أكثر تطورا ستأتي بعدنا لخلق عالم أطرف وأجمل وأخطر من العالم الذي خلفنا؟

كم مؤسف أن " طوماي" لم يأخذ الوقت لكتابة مذكراته لنعرف من مصدر موثوق به من كانوا أولنا.

إنه تقصير لا يجب أن يكرر ومن ثمّ شهادتي هذه عن الأدميين احتزما لحق السيبورغ والروبوتات في معرفة من كانوا أوائلهم والتهتهم.

الكتاب الرابع بنو سفر

لا يولد البشر مرة واحدة يوم تلد لهم أمهاتهم
فالحياة ترغمهم أن ينجبوا أنفسهم باستمرار

غابرييل غارسيا ماركيز

مقدّمة الكتاب الرابع

قد تكون أصدق صورة لرحلتنا في هذا العالم أننا نرتحل فيه كالبحّارة على متن سفينة تطفو على سطح المحيط الأهوج والصراع داخلها بين الركاب على أشده حول من يأكل على طاولة الريان، من يأكل من القمامة ومن يكون الماكول.

من الطبيعي أن تكون آخر مشاغل هؤلاء الركاب في مثل هذه الظروف التمتع بمنظر القمر على سطح البحر أو استكشاف العجائب التي تتحرّك في أعماقه المظلمة. كل المطلوب منهم الحفاظ على حياتهم وهذا له شروط عديدة من أهمها أدق معرفة بمن هم الركاب الأخرين لتفادي شرهم وإن أمكن حسن استغلالهم.

تصوّر وضع كريستوف كولومب وقد تحولت أولوياته فجأة من اكتشاف ما وراء المحيط المرعب إلى سبر أغوار المانة وخمسة بخار المتراصين على متن سفن "سلتا ماريا" و"بنتا" و"تينا".

إنه وضع كاتب النصّ في هذه المرحلة من تدبّج "التقرير" النهائي عن الرحلة. المشكلة أن استكشاف رفاق رحلة الحياة، رهائن السفينة والعاصفة والمحيط ليس أمرا هيبًا.

أي معطيات يمكن استعمالها لكي يكون لشهادتي الحد الأدنى من المصادقية؟ التجربة المباشرة؟ لكنها محدودة بحكم عدد الأدميين الموجودين واستحالة أن تعرفهم واحدا.

التخلص عدة الاعتماد على آراء من نتق في حكمتهم وخبرتهم ككبار الفلاسفة والأدباء والفنانين من كل العصور. للأسف تكتشف يوما أنها أغلب الوقت غلاف مزاجهم يُخفون وراء ما يسوّقون تشاؤمهم أو تقاولهم وذلك من منطلق أزمتهم الشخصية مع من جربوا من بشر.

عنصر آخر يمنع المعرفة المعقّدة: قِصر زمن الملاحظة وموقعها. كم كانت قيمة شهادتي سترتفع لو مكنتني القوى الغيبية التي حكمت علينا بالرحلة بمشاهدة بني سفر من انطلاق أول مرتحل إلى انقراض آخرهم.

إنه موقع لا يحتمله إلا من تسميه اللغة الربّ. لست متأكدا أنه حتى هو يصير على متابعتنا واحدا واحدا والتدخل في مشاكها التافهة كما تدعي بعض الأساطير.

ثمة أيضا استحالة النظر إليهم بعيني البعوضة والفيل والنملة والقطة والشجرة والكلب وبقية الكائنات التي تقاسمنا الوجود. تصوّر كل ما يمكن أن نتعلمه منا لو أمكننا رؤية أنفسنا عبر عيونها واستعراض صورنا في ملفات ذاكراتها. ربما كنا سنرفع ضدها قضايا في التلب والتعدي على الأعراض.

يبقى أن أكبر الصعوبات هي المتعلقة بالملاحظة نفسه نتيجة استحالة الالتزام بالحياد المطلوب من كل راوٍ يُنتظر منه أن يقدّم المعلومات لا الأحكام.
أي كلام "موضوعي" يمكن أن أقوله عن الأميين وعين السخط هي التي تنقدصهم أغلب لوقت؟

بريك ألا يسمّون حياتك إنانا بالادعاء عليك أنك تغلب الحمام مسبحا كلما أخذت دشنا، أنك تستعمل فرشاة أسنانين حتى ونظارتك فوق أنفك، أنك لا تضع جواربك في المكان المخصص، أنك نسيت عيد ميلادهن، الخ؟!!

ألا يسمّون حياتك وهم رضع لا يخلو لهم الاستيقاظ إلا آخر هزيع من الليل مع المضايقات المعروفة لكل الآباء والأمهات؟!!

ألا يسمّون حياتك وهم أطفال تعاني سنوات من أنثيتهم ونرجسيتهم وخصومتهم التقفية التي لا تنتهي؟!!

ألا يسمّون حياتك وهم مراهقون يكفونك مصاريف تقصم الظهر أجره أطباء الأمراض الجلدية والنفسية؟!!

ألا يسمّون حياتك وهم شبان يرمونك بالهتافات وبالجملة يدعون أنهم من قاموا بالثورة، يريدون كل شيء في التوّ واللحظة، وعندما تضعهم في أعلى المناصب تكتشف كم هم سدّح مغرورون جهلة؟!!

ألا يسمّون حياتك وهم كهول ينقصونك في كبرى المناصب والحل أنك أنت وأمك أعلم الناس بأنك بها الأجدر؟!!

ألا يسمّون حياتك وهم شيوخ يرتعون ويهدون ويبولون تحتهم، ترى فيهم بشاعة ما ستكون عليه يوما، أو ما أنت عليه في الواقع لم تنتبه لفرار السنين؟!!

ألا يسمّون حياتك حتى لحظة خروجه من هذا العالم وأنت مضطرّ للوقوف في الحرّ وفي البرد تتبع جنازة تتحمل نفاق الأميين وهم يتبارون في افتعال الخشوع والحزن يستمعون لتأبين مضحك عن خصال القعيد الكثيرة التي لم تكتشف إلا وهو على وشك الانزال إلى الحفرة؟!!

وكانه لا يكفي أنهم أفسدوا عليك يومك يجب أن تدلو ببلوك أنت أيضا في النفاق الجماعي وأنت تقدم التعازي مقتعلا الأسي والحال أنك تردد لنفسك على الأقل نقص منيهم واحد. بل وينجحون في تسميم حياتك حتى وهم أموات بما يتركون من عادات خطيرة ونظريات سخيفة وتواريخ مزيفة وخرافات مقدّسة يؤدّي التعرّض لها للوقوف في أحسن الأحوال في طابور الباحثين عن شغل جديد وفي أسوأها للمثول أمام كبير محكم التفتيش ليأمر بحرقك حيا بعد ما تيسر من التعذيب.

تقول مستكبرا إنه موقف غير لائق بئسنا يدعي الاعتدال الموضوعية ؟
بريك هل أنا من قال فيهم؟

وان كلن لي شيء تصدوا لأخذه
وان نالهم رفدي فلا شكر عندهم
وان جندوا عندي رخاء تقرىوا
وان طرقتني نكية فكهروا بها
وان جنث أبغي شبيهم منعوني (أبو العتاهية)
وان أنا لم أبذل لهم شتموني
وان نزلت بي شدة خذلوني
وان صحبتني نعمة حسدوني

قد تصرخ في: يا نكر الجميل، أليسوا هم من فتحوا لك الطريق، من أعطوك كل ما تحتاج، من علموك كل ما تعلم، من أهدوك الشعر والموسيقى؟ أليست "ما" و"ح" و"تفاحة" و"تفاحة" من هؤلاء البشر الذين تقول إنهم سموا حياة سيادتك؟

طبعاً، طبعاً يا هذا، معك نصف حق، لكن اعلم أنك تؤكّد نظريتي، فسواء نظرت إليهم بعين السخط أو بعين الرضى النتيجة دوماً واحدة: استحالة الحديث عنهم كما لو كانوا كائنات مجردة مثل الأشجار والأحجار. هذا ما يجعل من مروجي إمكانية الكلام عن الأدميين بصفة موضوعية مجرد فصل آخر من مسمي الحياة.

شئت أم أبيت كل ما تقول وتكتب عن الأدميين وصف للحالات الموضوعية والنفسية التي تمرّ بها في علاقتك معهم. هذا ما يجعل من كل وصف لهم رسماً لصورتك في مراتهم ولصورتهم في مراتك، ولا علم أخز بك أو بهم خارج هذا الانعكاس المتبادل.

آخر عامل خطير يفاقم صعوبة فهمهم: التبدل الذي يأتيك يوماً من طول حبههم ومن طول كرههم. لذلك عليك انتظار الأزمات وعودة الانتباه لتفاعل معهم بكل جوارحك ثم الإسراع لشهادتك لتقطر الحروف حبا وكرها.

المطلوب إذن من أي شهادة ذات قيمة الصدق لا الموضوعية.

على اعتبار قدرة التزامي طول الوقت بفضيلة الصدق هذه، وانطلاقاً من كل المحاذير التي تكرتها أعلاه، هذا كل ما أعرف عن الأدميين والصراع معهم، ضدّهم، ولأجلهم في ذروتة.

**

المعطيات الأكثر صدقا عنهم

ثمة من قال بخصوص الأدميين: نحبّ منهم واحدا أو اثنين، نكره ثلاثة أو أربعة، والبقية لا يثيرون فينا إلا للامبالاة.

أقول للتصحيح نحب منهم أكثر من واحد أو اثنين، نكره منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة، أما بخصوص الأغلبية التي لا تثير عند المتبلدين إلا اللامبالاة فهي تثير في منذ الصغر فصولا عارما.

في بعض أقدم ملفات الذاكرة يشدّ الطفل طرف أمه وهو يخترق مجموعة متلاحمة من البشر والحاسة المستنقفة لاستكشاف الأدميين البصر.

- “مما”، انظري كم هي سميئة هذه المرأة!

يفهم من التفاتها يمينا ويسارا في حالة انزعاج واضحة أنها محرّجة من كلام لا يجوز النطق به بصوت عالٍ.

- أسرع، بيت العرس ما زال بعيدا ولخشى أن نصل متأخرين.

- “مما”، تقولين دوما إنني رجل، فلماذا ليس لي شارب؟ “مما”، متى سكون طويل مثل كل الرجال؟

- ... ٤ ... ٤ ... ٤ ... ٤ ... ٤ ... ٤

- “مما”، لا أحد يشبهك، لا أحد يشبهني، لا أحد يشبه جدّي سوى جدّي؟

يفرح الطفل لأن في ضحك أمه نبرة استحسان.

- أصببت يا بني، ولو أن هناك استثناء سألحكك عنه يوما. والآن، توقّف وأميك بيدي حتى نعبر في هذه الزحمة.

يجيل الطفل البصر لا يعرف على ماذا أو من يركّز أكثر، على شحاذ بلا رجلين يزحف على البطن والناس تتقداى المشي فوق جسده بنفس الحرص الذي تتقداى به النظر إليه، على امرأة بثياب ملونة كالطووس أيام الربيع، على أحذب مضحك الشكل، على شاب مفتول العضلات، على عجوز تتكئ على عكاز، على وجه مفلطح يعطو قمته شعر أحمر، على وجه كآته حُفر في خشب بئي بسكين، على وجه ثالث غطته لحية كثيفة، على رأس شعره بلون سنابل القمح؟

وراء تباين الأشكال نفس القالب. ها هو يهرع إلى كراسه وأقلامه حال وصوله البيت ليحاول رسم هذا القالب في شكل كائن منتصب له جذع يتفرع منه طرفان طويلان للوقوف والمشى. من أعلى الجذع، يخرج على اليمين وعلى اليسار طرفان لخران. على قمة الجذع هذا انتفاخ مستدير تعلوه ألياف متفاوتة الطول مختلفة اللون.

دوما نفس الأسئلة الغريبة.

- “مما”، هل يوجد بشر برأسين؟

- لا يا بني، يكفيننا وجع رأس واحد.
- لكنني أريد لرسمي كثيرا من الرؤوس، هكذا إذا مرض رأس استطاعت الرؤوس الأخرى أن تشتغل.

- من منعك من هذا؟ تستطيع أن ترسم ما تشاء.

أين يضع الرأس الثانية والثالثة؟

يجزّب الطفل أبسط الحلول بوضع الرأس فوق الرأس. لا يعجبه الشكل، ولا يعجبه أيضا وضع الرأسين الإضافيين على الكتفين. يفيض الرسم سريعا بالرؤوس، تتدلى من الذراعين والصدر والبطن والرجلين والطفل عاجز عن اتخاذ القرار. يكتشف الكهل يوما أملم لوحات أكبر المتاحف أن هناك من الأطفال من لم يتوقفوا أبدا عن نفس اللعبة.

“كلهم في هذا العمر يريدون الرسم مثل رافائيل... وأنا الذي ضيّع عمره ليتعلّم الرسم كالأطفال!” (بيكاسو).

مؤكد أنه لا وجود لبشر برأسين ولا بالأشكال التي رسمها بيكاسو لكن هذا الطفل سيكتشف كم لهم من أنواع تبعث فيه خليطا من الإعجاب والتعجب والضحك والاستنكار: الرجال الذين يلبسون ثياب النساء، النساء المرتديات ثياب الرجال، العراة المحافظون على عضوهم التناسلي داخل جرب أنيق كئنه الخنجر في غمده، الواضعون على أجسادهم الحديد أو الحرير، المرتديات أعلى أنواع “الكيمونو” وكل “جاشا” لوحة فنية أجمل من الأخرى، الخلق لكل شعرة تنبت فوق الرأس، المخفون قسماهم داخل أدغال من الشعر، الراسمون على جلدهم رسوما أخذت أياما طويلة من الألم، القانعون ببعض الأصباغ يسارعون إليها بالماء بعد انتهاء الكرنفال.

هو ما زال يجهل أنّ اختلافهم في المظهر لا شيء مقلنة باختلاف سلوكياتهم.

على أقصى الطيف الذين يقدمون الأضاحي الأدمية لألهتهم وعلى الطرف النقيض الذين يرفضون ذبح بقرة.

كم من إخراج لفكرة واحدة، كم من تقاسيم لا نهاية لها للحن يتيم!

*

ماذا تقول الحواس الأخرى عن رفاق السفر؟ ثمة ذكريات متفرقة عن معطيات حاسة الشم. مما أنكره عن علاقتي المعقدة بالرجل الذي كنت أسميه “با”، أنّ أول سوء تقاهم بدأ معه في سنتي الثالثة أو الرابعة وكلن بخصوص الروائح التي يبثها الأميون من حين إلى آخر تفضح ما يريدون التسنّر عليه من طبيعتهم.

ذات ليلة صرخت متوجّها إلى “ما؟” وهي مضطجة حذو “با”!

- أف!، “ما” أخرجي الكلب بسرعة! الرائحة قبيحة لا أحبها.

كان في ضحكها المكتوم ونحنحة "يا" وتذكري آخر لحظة أن الكلب لا يشاطرنا غرفة النوم، ما يكفي لأفهم أن رب البيت-وربما حتى ربه-يضرط أو تضرط كما أضرط، تخرج منه أو منها، روائح كلتي تصدر مني.

كان لذلك الاكتشاف ضجيج صامت مثل دوي قنبلة تفجر تحت الماء.

انتقم الرجل لنفسه سنوات طويلة بعد الحادثة. قال وأنا أداوي نفس الحرج بسعل حاد انتابني على غير سبب: غطيت الصوت بالسعال الملائم، ماذا ستفعل لإخفاء العبير؟ لا شيء طبعاً اللهم إلا الانفجار ضحكاً.

البشر أكياس مليئة بنفايات تنتجها باستمرار؟ أمر ليس سهل القبول بالنسبة إلى ذات بها "أنف أن تسكن اللحم والعظم" فما بالك بأن تكون قمامة متجولة تصدر من حين إلى آخر روائح ننته.

ماذا عن جلسة اللمس؟

تبقى فقيرة بالمعطيات التي تحتاجها لتفادي خطر البشر أو لنفاد لما يعمل داخل ذواتهم. حذار من لمسهم دون إذن خاصة في مواضع حساسة. طقس المصافحة هو الحالة الوحيدة التي يقبل بها الآخر والهدف لما تنعلق اليد على اليد للتأكد من أنها خالية من السلاح.

يمكنك أن تقضي ليلة كاملة تتلمس جلد الحبيبة وشعرها. لن تعرف ما تضمرك أكثر مما يعرفه عنك الطيب في الحمام أو المذلك في المستشفى وهو يفرك جلدك وعضلاتك. على العكس من هذا يمكن القول إن للذوق إمكانيات أوسع. هل من باب الصدفة أن يحمل الرضيع والطفل كل ما يلمس لقمه؟

خذ مثلاً أهمية المعلومات التي تتأينها والقم مطبق بعناية حول حلمة الثدي منتفخ بالحب والسائل الدافئ الرقيق يبعد عناً مغص الجوع أبغض حالات الشعور؟ هي التي تقول لنا الألمي كائن مغذٍ، محب، ضروري بل ويمكن الثقة به...إلى أن يأتي ما يخالف ذلك.

النقطة القصوى في مثل هذا الاستكشاف تذوق وابتلاع لا فقط ما يسيل من الثدي وإنما الثدي نفسه وكل ما يحيط به ويحميه...إذن النقطة القصوى في أي مشروع لمعرفة الألمي...أكله.

تقول ما هذا الهذر؟ انتظر حججي ثم خاصمني.

انظر طغوس كهنة الأرتاك وهم يستأصلون على سطح أهراماتهم القلوب الخائفة للأضلحي البشرية. كان الأمر يتم وسط أهزيج الشعب وبعد انتهاء الذبح كانت الأشلاء الدامية لقلوب ما زالت تنبض تقم إلى مأدبة السادة يتذوقونها بمزيج من اللذة والخشوع.

قصص متوحشين لا أكثر! متأكد؟

قيل والعهد على المؤرخين إنه كان قوم في منطقة اسمها أوروبا، إبان عصر يسمى النهضة، ملك عظيم راع للدين والفن والفلسفة، اسمه فرنسوا الأول. كان جلالته يحمل على التوام في جيبه قنبلة صغيرة من مسحوق اللحم الألمي يمضغه متأنياً، يقينا منه أنه ينفع

البركان الذي بداخله لمزيد التوهج. وفي أوروبا المتحضرة هذه، وضعت أصول وقواعد لتذوق اللحم البشري. فيعد قتل الأدمي شقياً باسم الانتقام الشرعي الذي يسمونه "عدالة"، تترك الأجساد معلقة على هامات المشائق أطول وقت ممكن حتى يتعفن أعلى الرأس، ثم يحصدون العفن يدفعون فيه باهظ الثمن. عادة تمارسها بكل بساطة إلى اليوم قبائل أدغال الأمازون. هناك يجهزون الميت بوضعه على النار حتى تحيله رمادا يمزجونه بالموز الطري ثم يقاسمون بينهم المسحوق الثمين.

تقول عادات كهار لكننا نحن...نحن؟!!

عن آدمي اسمه الجاحظ، طيب الله ثراه، بعض الأشعار التي عيرت فيها قبائل بعضها البعض بكل البشر.

وأنتم أكلتم سحفة بن محم
تداعوا له من بين خمس وأربع
وقال شاعر آخر:

عدمت نساء بعد رملة فائد
وباتت عروساً ثم أصبح لحمها
يدبو أيضاً أن أجداننا كانوا ذواقة
أبلغ لديك بني كلب وإخوتهم
بني فقفس تأنيك بأمان
جلا في قدور بينكم وجفان
كلبا فلا تجتر وا بعدي على أحد
كما أكلتم خصلكم في بني أسد

تقول لكن أجداننا لم يكونوا بصدد إعداد رسالة نكتوراه وطموحهم لوحد كان أن يملنوا بطونهم. بصراحة لست متأكداً من تبرير يمثل هذه البساطة. ثمة أكثر من ظروف نرى فيها الأدمي يلتهم الأدمي والحل أن كل أصناف المأكولات متوفرة.

لنلقي بعض الأسئلة المخرجة. هل كان نبلاء "الأزتاف" يبحثون وراء طعم اللحم الأدمي عن طعم الذات نفسها وحتى عن طعم الحياة التي تختزلها؟ هل كان هنود الغاية الأمازونية ينقلون سحرياً زخمها من المأكول إلى الأكل وكذلك الملك الفرنسي المتحضر؟

كل هذا ممكن، المهم أن الظاهرة ترجعنا باستمرار إلى إشكالية طبيعة المعرفة. إن هدفها ليس إرضاء فضول غريزي فينا وتوق للتفوق الذهني والأخلاقي كما تدعي الروى غير المتقنة وإنما الاطمئنان أن الشيء الذي نبحث فيه، لا يشكل خطراً وقابل للسيطرة عليه بما يخدم مصالحنا.

معنى هذا أن مهمة المعرفة جعل الشيء أداة إضافية لكل ما تتوفر عليه الذات من أدوات لتوسيع قدرتها وإحكام قبضتها على العالم. النقطة القصوى لهذه المعرفة لاستملاك الشيء أي جعله جزءاً لا يتجزأ من الذات. انظر لكل ما ننتج من معطيات وقل لي هل لها هدف آخر غير أن تصبح جزءاً من فكرنا، من ممتلكاتنا، من كياننا؟

لهذا يمكن القول إن أكل الأدمي كان ولا يزال في الغل الباطني أكمل الوسائل لمعرفة هذا الذي هو مصدر كل خطر والمعين على كل الأخطار. فبأكله نحن نتخلص جذرياً من الخطر

الذي يمثله ومن جهة أخرى نحن نختزل كل زمن البحث في أسرار نكلته وقدراته ونحن ندمجها كلها داخلنا.

لنتذكر أن أحد مشاهير الفلاسفة اليونانية: ديوجان-المسمى بسقراط المجنون-كان لا يفهم استنكار أكل اللحم البشري بل كان يدعو بحماس إلى تنوُّقه باستمرار ودون أدنى عقدة. ربما فهم أنه لا معرفة حقيقية إلا عندما نكف عن الطواف حول الشيء بذهن انتفت منه المشاعر والأحاسيس إلا عندما ترتطم الحواس بالحواس ... إلا عندما يتداخل الباحث والمبحوث فيه.

المشكلة أن هذه المنهجية -التي يمكن تسميتها بما وراء العلمية-ليست في متناول الجميع. من أين لك المدة الأولية وهي لا تباع إلا سراً وأوقلت المجاعات فقط؟ أما جارك فلن يعطيك شيئاً من لحمه مهما كان مضافاً لمجرد إشباع فضولك العلمي. لا حلّ أمامك سوى انتظار ثورة يسحل فيها الشعب قائده المفدى ليمنحك، إن أسعفك الحظ بحضور موكب القتل، تنوُّق لحمه وتناول ما تيسر من كبده.

ثمة إمكانية نشر إعلان على الانترنت كما فعل أحدهم: "أرغب في أكل أمي، فهل من راجب في أن يؤكل". فجاءه متطوِّع مدّ عنقه للذبح ليصبح "الباحث" من البحث، ويزداد المبحوث فيه معرفة بالوجه الآخر للذبح والانتهاك. شخصياً أنصح بتفادي هذه الطريقة وبوليس الانترنت قادر على تعقبك مهما استعرت من أسماء واستعملت من "بروكسي" ناهيك عن صعوبات التخلص من العظام.

خذ العبرة أيضاً من مصير أمي من بلد اسمه اوكرانيا قتل خمسين امرأة وأكلهن جميعاً وقال قبل أن يضعوا رصاصاً في رأسه إنه خطأ من أخطاء الطبيعة والحل أنه كان مجرد فكرة من أفكارها.

ثمة مشكلتان إضافيتان تحذان من استعمال هذه المنهجية. الأولى تتعلق بتبعات العملية على الصحة. من المعروف مثلاً أن بعض الأدميين الذين أرادوا اختصار الوقت وتوفير الموارد بخصوص دراسة الدماغ، لم يجنوا من أكله إلا الإصابة بمرض يشع بسمونه KURU لا تنمناه حتى لألد الأصحاء.

المشكلة الثانية مرتبطة باستحالة تطبيق مقولة " اعرف نفسك". فمن الصعب أن تعرفها بأكملها إذ بأي أسنان ستمضغ أسنثك؟

لهذه الأسباب النظرية والعملية وتقدياً لمزيد من المشاكل في عالم ليس بخيلاً بها، فإننا ننصح كل الباحثين في الشؤون الأدمية ترك فكرة أكل العينات الدراسية جانباً-ربما إلى أزمناً أخرى تتطوّر فيها العادات والقوانين.

ماذا نسينا من معطيات الحواس؟ أه طبعاً السمع.

بصراحة لا يمكن القول إن ما يصدره الأدميون من أصوات مثل -الصراخ والبكاء والعيول والشخير والضرط والسعال وغرغرة الأمعاء والعلس والثأوب والتجشؤ -يرفع من قيمتهم. حتى لا أكون ظالماً لهم أيضاً أصوات تأتي بمتعة لا نضاهيها إلا متعة الأكل بعد

الجوع والارتواء بعد العطش خاصة عندما تخرج من حناجر فنانين وفنانات يعبرون بالغناء كم نحب وكم نعاني وكم نتألم في هذا العالم. بين هاتين الحالتين ثمة أصواتهم عند الكلام وأهم ما فيه التنيرة. لماذا هنا التركيز ؟ لأنها وهي نيرة الأم الحنون، العاشق الولهان الشرطي الناهي، العسكري الأمر، المتضرع عند الصلاة، الشيء الوحيد الذي يمكن أن نتق فيه . أما فحوى ما يقولون ففيه الصدق والخداع ، الغث والسمين، الصواب والخطأ، المفيد وبالغ الضرر ... ولا شيء يسمح بالفرز ومعرفة من هم حقاً رفاق الرحلة إليهم إلا المعاشرة الطويلة بما فيها من تجربة مباشرة ... وحتى هي !

**

أخطر ما تلاقي من كانتات على طول الطريق

تسألني "ما" عن أحوالي بعد كل هذه السنين من الغربة. أنفجر في وجهها وقد طلعت من أعماقي كل الأوجاع المترسبة فيها:
- يا أسوأ دليل، يا مجرمة في حق خمسة صغار، أي محكمة تتصفنا منك؟
تبهت ربع ابتساماة الأم. تقطّب جبينها. تتردّد كأنها تخشى فتح موضوع والأمر غير مضمون العواقب، ثم تقرّر الثبات.
- قل لي كيف كان عليّ أن أفعل؟
- تسأليني يا جاهلة كيف كان عليك إعدادنا لمواجهة الأميمين !
أثبّ أمامها لأملّ الدور فتضع يدها أمام فمها تحجب ربع بسمتها، ويدها الأخرى تمسح دمعته.

- اسمعي وانظري كيف تتصرف الأم الجديرة بهذا اللقب. ها هي تدخل عنبر نوم الأطفال الخمسة في الرابعة صباحا يفتح الباب ركلا بالرجل. يتعالى الصراخ منها حدّا أمرا ناقد الصبر: انهضوا، ماذا تظنون؟ أن الحياة ستنتظركم، أنني سأنتظركم؟ أفرطتم في الدلال وسأعلمكم أننا في هذا العالم اللعين لا ننلّ أحدا.

يبدأ الأطفال بالركض في بهو المنزل ساعة كاملة على طريقة مشاة البحرية في أفلام هوليويد. يأخذون في الغناء على طريقة الجنود الألمان في الحرب العالمية الأخيرة: "هايلي هايلو هايلي"، نحن للآلم مستعدّون، نحن للهموم متأهبون، نحن للأعداء متحفّزون، إننا منهم لمنقّمون.

مباشرة تمارين الجودو والكاراتيه واستخدام السلاح الأبيض والمسدسات الكاتمة للصوت. بعدها تكون الكتيبة العائلية على أهبة الاستعداد للخروج إلى كل أصناف الخصوم والمنافسين والأعداء وهم في كل منعطف من منعطفات الطريق. نعم، هكذا كان عليك أن تربي أطفالك أيتها الأم الفاشلة.

لأول مرة في حياتي وربما في حياتها أرى "ما" تضحك إلى أن يأتيها السعال.

- أما أنا فلا رغبة لي في ضحك وإنما أن أفنّ في أول آدمي يعترضني غيظي ضربا بالحناء ولم لا برصاصة في صدغ بعض الأوباش.

- كم أخفتني ذلك اليوم عندما وجدتك بين غلب السلاح تبحث في كيفية إدخال الرصاص في مسدّس. يا إلهي، لا أصتق إلى اليوم أنك كنت تريد حقا الخروج به إلى المدرسة! كيف وجدت هذه الأسلحة اللعينة؟ طلبت من خالك أن يأخذها إلى القرية وهي منذ تلك الحادثة مفوّنة عميقا تحت إحدى شجرات نوت البستلن.

- ماذا فعل "يا" عندما اكتشف خيانتك للمقاومة الباسلة؟

يلمع في عينيّ 'اما' مرح خفيف، ممزوج بقليل من الشماتة، يخالطه رحيق من المكر، تزيد من تعقيد مكوّناته سخرية خفيفة يتخللها صدى إعجاب خفي بالرجل الذي ابتليت به بعلا.
- هل تظن أنه كان يتنكر أنّ بيتنا كان من بين المخابئ التي يخفي فيها أسلحته؟
لحسن الحظ لم يكشف الطفل تلك الأيام كيف تُستعمل المسدّست، وإلا كان طريقه أخذ اتجاها جَدّ مختلف. تصوّر عنوان جريدة الصباح (بالأحمر الغليظ): "طفل في التاسعة يدخل القنسم بمسدّس يقتل زميلا ويجرح المعلم الذي حاول التّدخل. البوليس يكتشف أنه ابن إرهابي مطلوب وأن بيته مخزن سلاح للخارجين على القانون".
لكن ألم يكن من حقّ الطفل امتشاق السلاح لدخول مكانا مثل المدرسة وهي من أخطر الأماكن على كلّ قادم جديد؟

ابحثْ دوما -وراء الهدف المعلن- عن الهدف الخفي وراء المؤسسات التي يخلقها البشر، ومنها مدرستهم العزيزة التي يحلمون بأنّها ستنتج لهم أجيالا أحسن من التي ما زالت عثشة للأسف.

ستكتشف أنّ أهم مهمة لهذه الأخيرة ليست تعليم الأطفال القراءة والكتابة والحساب. أين تعلّمنا لأول مرة الوقوف في الطابور والانضباط للأوامر وتطبيق التعليمات والتعرّف على سلم الرتب والمسؤوليات والتدرّب على أبجديات القتال، وكلّ صغير يستبدّ بأصغر منه؟

وسط ساحة المدرّسة تبدأ التمارين الأولى استعدادا للحرب الأزلية. يُترك للأطفال أنفسهم مهمة تدريب كلّ قادم جديد، على مواجهة العنف الغريزي للجنس البشري -والحمد لله دون سلاح سوى القبضتين- وما على كل صغير إلا تدبّر أمره، ليتعلم باكرا أبجديات الصراع من أجل البقاء.

يواجه الطفل خصمه منتبها لأول مرة أنه فارغ الطول مقتول العضلات يزيد عليه بعدد من السنين. تأتيه رغبة عارمة في إطلاق ساقيه للريح. يختار بسرعة المواجهة لأن أمر الأب الجبار المزروع داخله أن الاستسلام أمام إنس أو جان ممنوع، ممنوع، ممنوع.
تضبع ضرباته في الهواء لا تصل أبدا الوجه البيض. ثمّ يندلع الألم فظيما ما بين الفخذين يندّر بضرورة شدّ الانتباه لهذه المنطقة بالذات في كل المعارك التي ستأتي. لا يسقط على الأرض إلا لينهض، لا ينهض إلا ليسقط تحت ضربات قبضتين كأنهما صنعتا من حديد ورخام. يستند الطفل بكل ما بقي فيه من وعي وحيوية لينتصب من جديد على قدميه المترنحتين ليسقط مرة أخرى، ثمّ ليعاود الانتصاب وكأنه أصبح آلة تتحكم فيها قوى مجهولة.

هكذا يتعلّم كل طفل بمثل هذه التجربة كم هو رحوّ في هذا الموضع وصلب في موضع آخر، كم هو شديد الحساسية في هذا الجزء وقليلها في جزء آخر، والقبضة الموجهة للخصم هي التي تدرّسه طوبوغرافيا جسم ما يزال جاهلا بما فيه من إمكانيات المتعة والعذاب. هكذا

يتعلم أيضا هل هو رخو الروح أم نُنَّ فيها صلابةً ستمكّنه من الثبات في ساحات كل المعارك التي سيمرّ بها الطريق.

يلمح الطفل من خلف انقراح عينيهِ نظرة الاستغراب في وجه المعتدي وصورًا مشوِّشة لأطفال يتهمسون، كأنّ شبيبا كالقلق بدأ يستشري بينهم. فجأة تتوقّف ضربات المطرقتين. يطلق المراهق سافيه للريح، أيقن أنه أدب خصما عنيدا يتبعه أصحاب أحر سَنَم صمت متعجّب قلق.

هذا طفلٌ سيرفض أن يكون الفريسة أو المفترس وإنما الى نهاية الطريق الفارس الذي لا يخضع لظالم أو معتدي.

ها هو يواجه هزيمته وكلّه سعادة بأنه لم يستسلم لخوفه مستبطنًا منذ ذلك اليوم المشهود أن الشجاعة ليست ألا تخاف وإنما أن يُعْتَصِر الخوف منك الأحياء فترفضه، أن يصارك فتغلبه، أن يزيّن لك الاستسلام فتلفظه.

بتكرار مثل هذه التجارب -سواء كانت معارك أطفال ومراهقين بلقبضتين أو معارك شيايب وكهول بالأفكار أو بالمؤامرات وحتى الحروب، تترسخ عند الطفل القناعة التي ستحكم في كل تصرفاته إلى نهاية الطريق: إن انتصرت على خوفك لن ينتصر عليك أحد.

السؤال الآن ما الأذوية المقضوحة التي سيبرز بها حالة ثيابه ووجهه؟

لقد فثت كلّ أعذار السقوط: من السلم عند مسح الخريطة بلمر من المعلمة، من الشجرة لمحاولته إنقاذ عصفور جريح، من الكرسي في الفصل، لم يبق إلا الكرسي ليسقط منه.

تأخذ "ما" بيد طفلها، لا تُخفي وراء شبح ابتسامته حزنها المتواصل:

- لا يمكن للأمر أن تتواصل هكذا، أليس كذلك؟

- برأسك "ما"، لم أكن يوما لبائس. لا أفهم حتى سبب عدوتهم. ماذا أقول لـ "يا" يوم يعود؟ إنني تركتُ كلبا منهم يعتدي عليّ ولم أدافع عن نفسي. لا مجال لهذا!

تعود "ما" إلى محاولاتها العقيمة والمرأة المسكينه إلى النهاية أسيرهُ التصورات السانجة عن الأطفال بصفة عامة وعن طفلها على وجه الخصوص.

- عدني أنك ستكلم أقرانك غدا لتسال عن أسباب العداوة. ربما هناك ليس يُسوّى بالحسني.

- لا، أبدا، أنا أكرهم.

- إنهم أترابك وأبناء الحيّ، منهم أقارب وجيران، ربما أسأت إليهم دون أن تشعر. الكلام فرصة لرفع كلّ سوء تفاهم.

- "....."

- لا بدّ أن تكون أكثر لطفاً وبشاشة. نعم، هكذا أفضل. يا بني، الابتسام مفتاح القلوب. كم هو رائع أن تتصالح مع رفاك وأن تستمتع باللعب معهم من جديد.

تهمس "ما" في أذن جارّة جاءت تسليّ عنها همومها.

- إنه ولد طيب. لا تتصورين كم يتعسف عليه أخوه الأصغر وهو لا يردّ الفعل. لا أدري لماذا أصبح بمثل هذا العنف وماذا يجب أن أفعل معه.

يعود الطفل إلى البيت من الغد في قمة الهيجان والمرح، يَصِفُ يوماً من أيام العرب ولو بشيء من المبالغة، حتى لا نقول بالكثير منها.

- أعمَلْتُ في أولاد الكلب قَبَضَتِي. صمدوا بعض الوقت، ثم فزوا ويستجدون بالمعلم كمنث كسَيِّدنا علي في هجومه على الكَفَّار. على فكرة، السيد المدير يطلبك غدا لأمر يهَمُّك.

تدير "ما" ظهرها للطفل لا تخفي غضبها. كيف يفسر لها أنه وفي بوعده، أنه ذهب طالباً للسلام، أنهم سخروا منه شتموه وهو يسألهم عن سبب عدائهم.

- أروجوك، اسمعيني. يدعون أن "با" يأتي للمدير بالهدايا كل يوم لذلك أنا أولهم. كلهم لهم أب إلا أنا ويقولون إن لي أب يأتي بالحلوى للمعلم ليفضلني عليهم!

تفتح "ما" فيها من الدهشة. تغلقه بسرعة لا تدس ببنت شفة. يستسلم كل واحد لطريقته في التعبير عن نفس شعور العجز والاستنكار، الأم بلبكاء الصامت والابن بالغضب والصراخ.

سبحان من جعل أطفال الأميين ملائكة أطهارا يفقدون براعتهم بتقدمهم في العمر، والحال أنه لا أشرس ولا أعنف ولا أظلم ولا أشد أنانية وندرجسية من الأمي وهو طفل.

بربك، ألم يأت الوقت ليتمهل أخيراً أحدنا مسؤولية قول الحقيقة بخصوص الأطفال، وأخطأهم للرضع؟

لا أحمل أي واحد منهم - وهم يضعونه بين ذراعي عنوة لأقبله مفتعلاً الإعجاب بجماله ونباهته المبكرة - إلا على مريض. هلعي الكبير أن يتبول علي اللعين أو أن يتغتم الفرصة لإصابتي بأحد أمراضه المعدية الكثيرة.

ثمة أسباب أعرق لخوفي من الأطفال عموماً ومن الرضع على وجه الخصوص.

بالله عليك، هل ولد هولاءكو، أو تيمورلنك، أو هتلر، أو ستالين، أو بشار الأسد بشوارب وحذاء بمهمازين؟ ألم يكن نبيرون - ولا أتحدث عن كالجولا - هو الآخر ملاكاً كانت تدوب القلوب لرويته واستبشر بقدمه أب وأم وجدة وأعمام وأخوال لا يعلمون ما يُعدُّ ملاكهم هذا من فطاعات ما زال التاريخ يتذكرها مرتجفاً من الهول؟

لا يوجد متوحشون على سطح هذه الأرض إلا الأطفال، مما يعني أن التوحش مورع بلعدل والقسطاس على كل الشعوب، أنه لا أمل في القضاء عليه حيث لا نهاية لتدفق الرضع مع بالغ الأسف.

أليس جل ما نعانيه من بعضنا البعض تواصل الطفولة فينا؟

أليس كل طاعية طفلاً رفض أن يكبر محاولاً إلى آخر كارثة إملاء إرادته على أمة يريدتها أنه؟

نكبر كلنا في العمر بتعقب السنين، لكن عذاب النضج يتوقف عند الكثيرين من بيننا ليثبت على تصرفات الطفولة فنبقى نعاني طوال الرحلة من أطفال في الأربعين والخمسين وحتى من أطفال في أردل العمر.

كيف لا أنفجر ضاحكا ودهشة الحاضرين تزيدني مرحا، وأنا الوحيد الذي يسمع في أوج معركة كبار أهل الدين والعلم والسليسة-أصواتا حادة تتصاعد من حناجر الكهول والزمان اكتفى بتغيير القشرة لكن النواة لم تتغير.

يفتح لك العالم ساحات المعارك الواحدة تلو الأخرى كأننا لم نأت هذا العالم إلا للصراع مع ذاتنا ومع الذوات الأخرى.

يشند صراخ "با" وهو المصيبة إن غاب والمصيبة إن حضر:

- هل رأيتم بريق عينيه؟ يتحداني أنا! يتحداني أنا! غضن الطرف يا ابن الكلب. غضن الطرف واطلب العفو. لا تريد أن تبكي. لقد كسرت شوكة من هم أصلب منك عودا ألف مرة. أنا سيدك يا كلب-وستعلم أنه لا خيار لك غير الطاعة.

هل من باب الصدفة أن يسألني الأهل عن أحوال "سيدك" لأن لهجة القرية تسمى الأب "سيدي"؟

تشند سرعة الذراع الممسكة بالعصا وهي بين طلوع ونزول. تصرخ الأم وكأنها هي التي تتهاطل عليها الضرب.

- رحماك، رحماك، سقتله.

- ساقته وأنت معه. كل هذا بسببك، بسبب النساء، اللعنة على كل أنثى!

يوصل المراهق الراض الخضوع لمتسلط-أبأ، حاكما، أو إله-التحديق في الوجه الغاضب المحتمل بالأم السذبن والعصا تكوي من جديد روحه والجسد.

تحت وابل الضرب يبتسم لبيت شهير غير منه كلمة واحدة:

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للعصا نهبي عليك ولا أمر.

يجن جنون "بي".

- تبتسم، تواصل الاستهزاء بي، سلكس شوكتك مهما تنطعت يا متمرّد.

يخطر للمراهق أنه أن الأوان للإمساك بهذه الذراع وليها ونزع العصا منها وتهشيمها على جسد هذا الظالم الذي يخلط مثل أشباهه بين العف والقوة. هو قادر الآن على وقف الاعتداء عليه وتحمل تبعات كسر ذراع من يبيض أشد البغض، لكن من أين له تحمل تبعات كسر ذراع من يحب أشد الحب؟ إنه فصل من فصول علاقة صعبة تربط من الأزل بين الأب والابن، لا تضاهيها في الصعوبة وإن بأشكال مختلفة-إلا علاقة الأم بالبنات، الأخ وأخيه، الزوج وزوجته، الحاكم بالمحكوم، وحتى العبد بخالقه.

كيف لا يحب الابن والده وهو الذي فتح أمامه الطريق؟ كيف لا يكرهه وهو الذي يسده أمامه؟ كيف لا يحب الأب ابنه وهو الذي سيواصل به الطريق عندما تخطفه يد المنية؟ كيف لا يكرهه والمولود لا الوالد هو الذي تواصل الحياة فتح الطريق أمامه؟

يصرخ الرجل في أوج الغضب لاهنا ماسحا عرقه متوجها إلى عناصر مجهول:

- قتلني بتحيتي الدائم. قلبي، قلبي، عجلوا بالطبيب!

يرمي الرجل بعصاه على الأرض ويجسده المرفق على الأريكة منتظرا أن تأتيه "ماء بكأس ماء، أن تمسح عرقه وأن تقول له ما يريد أن يسمع، مثل أنه نوما على حق وأنه أكبر من أن يعبا بشطحات مراهق.

قد يكون الصراع الطويل بين كل أب وكل ابن مجرد اختبار القدرة على رفع التحدي؛ فالذات لا تتشكل إلا باعتراف تفتكه من أب أو غير أب، افتكك اليد العارية للكمة من فم السبع. وحدها الذات الأخرى قادرة على أن تبني ذاتك بالاعتراف، وهي وحدها القادرة على تدميرها برفضه. لا يواسينا عن مثل هذه التبعية إلا امتلاكنا لنفس السلطة وتحملنا لنفس المسؤولية. اللهم اجعلني نوما من بُناة لذوات لا من منصريها.

وفي آخر ملفت عن صراع الإرادتين، يواجه الشاب نظرة أبيه لا يرفق له جفن، نافخا ببطء مدروس في غلبونه الجديد، وحر كائنه تتضح بما مفاده أنه سيد نفسه، أنه وحده من يقرّر علامت الاحترام التي تجب.

يعود الصراع بنفس الحدة وكلن الزمن لم يتحرك قيد أنملة.

- تنحن أمامي؟ خسنت يا كلب. ما زلت السيد الذي تنكس في حضرته العيون.

يتسفر البصر على البصر. تتضح للابن المروج فجأة الحالة الحقيقية لرجل وضع رحله على قارعة الطريق بعد أن أرهقه الجري في كل اتجاه، لرجل مقهور من تجدد منعه من دخول صحرائه الغالية، والمانع شرطي محلي ورث عن الغازي الأجنبي نقاط التفتيش، لرجل محبط هزمته الدنيا وأشبعته سخرية من محاولته تفصيلها على ذوقه، لرجل يعتقد هو الآخر أنه فشل في حياته.

فجأة يلمع الاستغراب في عيني الأب كأنه ذهل لسؤال لم يطرحه على نفسه من قبل: من هذا الذي أحسبه طفلي؟

تبقي العصا معلقة في الفراغ لحظة. يضعها الرجل الشرقي القديم على الطاولة بكثير من الرفق كمن يُعيد إلى عمدته سيفاً لم يعد له نفع. ثم يحدق في ابن لم يتعظن أنه أصبح شاباً وفي عينيه شيء من البغض وشيء من الحب، شيء من النقمه وشيء من الإنكار، شيء من الاستقزاز وشيء من المهانة، شيء من الاستخفاف وشيء من الإعجاب، شيء من الاهتمام وشيء من اللامبالاة، فضلالة عابرة من الكابة ثم تجدد المرح.

ينفجر "يا صاحكا! لله درك إنك رجل. والآن اخرج من بيتي حفظك الله، لا يتعايش أسدان في قفص واحد.

*

المشكلة الكبرى أن هذا الذي ستخرج اليه والذي يسمونه المجتمع ليس إلا أكبر قفص تتصارع داخله سباع شرسة مشدودة لبعضها البعض بسلسلة غير منظورة من الكره والاكراهات.

تعلق المدينة أبوابها في وجهي مجدداً كأنني لم أسكنها يوماً ولم يكن لي فيها صاحب.

يشيح يوجه من يعترضني في شوارعها متحرّجا. يخترقني البعض بالبصر كأنني جزء من الفراغ. ترى أحدهم يُسارع إلى تغيير الرصيف، أو كأنه فوجئ أنّ غبارا شوّه لمعان حدائه. يقتعل من كنث ولي نعمته وهو يمرّ أمامي أنه لم يرني وأنا أول من رأى مصدوما ومتصايقا..

إنهم النوع الأكثر انتشارا من الأُميين، النوع الذي يسميه النص الذي منه كل وحشة . خاصية هذا الكائن أنك بالكاد موجود بالنسبة اليه . هو لا يشعر تجاهك إلا باللامبالاة والتجاهل مع نكهة من الازدراء وظلال خوف مبهم ، كيف لا والادمي من قديم الزمان أكبر خطر على الأدمي الأخر .

حرّان آخر يخرج عليك منه بصفة مسترسلة أخطر والنع أنواع البشر. ذات صباح وأنا مستغرق في افكاري ماشيا في الطريق تصرخ في ظهري سافلة: أيها السفل، ألا تخجل في عرك من معكسة شريفة مثلي. يتجمع خلفي بسرعة فائقة حشد من الغوغاء يصرخون فيّ أنني من جمعت فيه كباتر الموبقات. أصبح الشارع كأنه لا نهاية له والأوباش ورائي ورّعوا الاستفزاز في نظام محكم. فهذا مكلف بالكلمات النابية، وذلك بلتهكم والأخر بتذكيري أنني لم أكن هذا الوطن ولم أبع ذمتي إلا لأنني خائن ابن خائن. تتسارع وتيرة الشتائم. تفتح فتاة فما بأسنن عليها أسلاك حديدية. تتقيأ منه رذاذا من البصاق ومختارات من الكلمات تتعلّق بشرف أُمي. يفتح المازة أفواههم دهشة ثم يُطاطون الرؤوس وهم ينتبهون إلى أن المظاهرة للشعبية الغاضبة الغفوية التي تمشي وراء الخائن ابن الخائن، محروسة ببوليس الطاغية.

في مستوى حديقة الحيوانات تقتعل حشود الذي منه كل نقمة قطع الطريق عليّ وتوجيهي إلى بابها حتى أوضع في المكان الوحيد الذي يليق بكائن مثلي: قفص القرّدة. تخنفي وجوه المعتدين وقد أصبح البصاق ستارا أبيض لزجا يسيل على النظارات نازلا على الجبين والوجنتين نحو شفّتين مغلقتين بأشمنزاز. تتدافع الأيدي بحثا عن نصيبها من جسد استحلّ حرمة إجرام الدولة. يحاول أحدهم وضع إصبعه في مؤخرتي -وفي عرفت فهم أن هذا أقصى الإذلال- صارخا: من تحارب، يا عميل، سيّدك وسيّد الخائن والدك. كيف أحمي نفسي من عاصفة حقد داهمتني على غير انتظار؟

الهرب؟ لكن إلى أين؟ العون؟ ممن؟ أجيل البصر حولي باحثا عن هبة من "الشعب" الذي ندّعي كُنّا أننا على استعداد للموت من أجله لفرط علو الأخلاق والهمة فيه. يطاطئ المازة رؤوسهم ويُسرعون الخطى.

فجأة انفجر ضاحكا وأنا أكتشف البوليس يصوّر الحادثة لسيرة ممتعة سيضحك فيها عليّ الفجار ويتشمتون.

(البياتي)

من أين يأتي النور؟

ونحن في كل العصور حجر الطاحون
تستبدل الأغلال بالأغلال في الطيبور

بيينا الطغاة للطغاة والملوك للملوك

في ملفت أخز ونفس الغوغاء المأجورة تهاجم سيرة تحملني مع بعض الأحرار أصرخ في السائق: لن يرهبونا؛ فلنذهب إلى الاعتصام أمام السجن، ليعلم السجين الذي جئنا من أجله أننا لن نخذله أبداً.

يهاجمنا نفس الشياطين أمام المبنى الكريه. تصبح السيارة وسط المدينة المحكمة بإرهاب نولية صادرتها العصبية، مثل زورق تتقاذفه الأمواج.

يصرخ أحدهم فيمن يبدو قائد العصاية: يا نبيل كفى.

فجأة تكفت الرياح عن الصفير وتتقرق الأمواج لحظة الغرق. أه، لم تكن هناك أوامر بالقتل هذه المرة. مجرد إنذار آخر وربما الأخير.

نبيل؟ النبيل في مثل هذا الكائن كرائحة لياسمين تتضوع بها جثة كلب مرمية على قارعة الطريق منذ أيام.

لم يبق لي من مكان يحميني على الأقل من شرّ الغوغاء المنفوعة الأجر غير بيت فرغ ومطوق بأعوان البوليس لسري.

الوحدة والبرد.

ومن ثوابت قصص الألمي أنه دوّما في وضع أحسن مما يتصوّر وفي وضع أسوأ مما يعتقد، حيث لا علم له بالمصائب التي أفلت منها، مثلما لا وعي له بالتي تترقبه.

ذات يوم تمسك بي من الخلف أيّد عصبية وتنفعي أخرى بغلظة نحو سيرة رابضة تنتظر حمولة اليوم. أخيراً أمسكتي هؤلاء الذين جاؤوا لاخطافي طفلاً. كم أظهروا من طول النفس طوال هذه السنين والعقود. نفس لا يضاويه إلا طول نفسي في مواصلة الصراع ضدهم. لكن أين 'لما' هذه المرة لتحميني وهل ما زال في هذا العالم العابس المقطب الجبين من حامي؟

يأخذوني إلى مركز إيقاف مرعب الصبوت.

كل الفضاء الآن زنزانية ننته، والأفق على بُعد ثلاثة أمتار على أحسن تقدير.

أنت لا تجرّب الوجود بكل حلوه ومزّه إلا من خلال العلاقات التي تربطك بالآدميين، التي تربطهم بك، التي تربطهم ببعضهم البعض... وهذه العلاقات دوماً شبكة بالغة التعقيد ومن النقايلات والافعال متواصلة التحرك على طيف واسع من الحالات طرفه الأقصى أنت من يعطي الأوامر والطرف النقيض أنت من يخضع لها لا حول لك ولا قوة. في هذا المكان أنت على أقصى طيف الخضوع لقوى قادرة على جعلك هباء منثوراً أي لحظة.

لا شيء تفعله سوى المشي طولا وعرضا كل ساعات اليوم؛ لا رفاق لك سوى بقايا أشباح ما زالت تصرخ بلرعب والألم. ذلك لأن زنزانية ذاكرة ملقأتها جدران ملطخة بالبراز والدم. أحاول استحضار الوجوه وتخيّل قصة هذا الذي أمضى اثنتين وثلاثين عصية وهذا السعيد الذي لم يترك إلا أربعة عصيات، وذلك الذي كتب تحت عشرة خدوش الصبر يا ربي.

نعم يجب أن اصبر عقدين من الزمن لكي يعذ خلط كل الأوراق.
في مشهد ما زال بعيدا في غياب المستقبل يهمس في السيد مدير السجن بصوت معسول
فيه قلق لا يخفيه من هذه الزيارة المفاجئة: من هنا سيدي، حذار من دخول الزنانات ففيها
بعض المجانين الخطرين. يتدافع السجناء إلى القضبان وقد سرى الخبر سريان النار في
الهشيم. تتعالى الصرخات تصم الأذان: الرحمة! العفو! كلنا أبناؤك! سيدي الرئيس أرجوك.
انظر إلى هنا! ها أنا نظر لنفسى أولا وقد انشطرت إلى ذاتين، ذلت شبح سجين جالس على
الاسمنت البارد الرأس مدفونا بين الركبتين يحاول استحضل صورة تقالعة وذات شبح أت
من مستقبل ما زال بعيدا يراقبه بسخرية ممزوجة ببعض العطف ونكهة من الشماعة يهمس
فيه: تريد إصلاح مثل هذه الكائنات! حقا يا لك من غبي.

فجأة ترتفع من الزنانة المجاورة صرخة سئلاحتي سنوأت، في النوم وفي اليقظة، بين
يذي الحلاق وبين ذراعي الحبيبة، في اللهو وفي الجد، تُذكر بأعمق وأرهب ما تعلمت عن
الطبيعة المخفية لأدمي يلاقيك في الطريق مسلما، تُضمه لصدرك لا تدري ما العول الذي
تُقبل.

يصل الصراخ أعلى طبقة، لا يتوقف لحظة إلا ليعود عويلا ثم صغيرا ثم حشرجة.
تنطلق قهقهة عاهرة وأوامر صارمة بلصمت وأخرى بالاعتراف بكل شيء.
كيف يمكن أن يكون الذي منه كل نعمة حبيبة أو طفل؟ بل كيف يمكن أن يكون له أم أصلا؟
كيف وصل إلى عالمنا إذن، والحال أنه لا يمكن ولا يجوز أن يخرج من رحم أنثى؟ هل
هو كائنٌ جاء من عوالم أخرى لتدمير الأدميين بغرس كل هذا العنف والحقد فيهم؟ هل هو
شيطان طرد حتى من جهنم؟ فرضية رهيبه وأقطع منها أنه أمي، بل وله أم.
لا يُعرف عن أي كائن حي أنه يمارس التعذيب باستثناء الأدمي كما لا يُعرف تقننه في
طرق القتل. عند الحيوان هو عملية سريعة تتكرر بنفس التقنية، خالية من أي حقد أو نية
انتقام، لا هدف لها غير مواصلة القاتل حياته ولو بثمن حياة المقتول.

أما الأدمي فقد اخترع بتر أصابع الأدمي الآخر إصبعاً بعد إصبع واغتصاب أمه أو زوجته
أو ابنته أمام عينيه ووضع خروق في دبره وكى القميص الذي يلبسه وتجاهل صراخه
وأنيبه ويكاهه ثم والاجهاز عليه بالذبح والحرق والخنق والشنق والصلب والدفن حياً وحتى
نبش القبور للتمثيل بالجثث.

كم صدق شكسبير في قوله "الجحيم فارغ، كل الشياطين هنا"

أي طرق جديدة ستخترع الأجيال المقبلة من الشياطين لإلحاق أقصى الأذى، أقصى
الإهانة، أقصى الألم، اللعنة! ما الذي يجعل من الأدميين مثل هذا الكائنات البشعة الذي لن
تجد لها نظيراً في القسوة والندالة؟ بل كيف سُمح لكائنات كهذه بلوجود أصلاً؟
من أين للمرطلين داخل فضاء رمزي مركزه أنهم نتاج تجربة قوة أسفها الطبيعية، انكار
أننا أسلم أكبر غلطة ارتكبتها هذه القوة؟

أما بخصوص المرتططين داخل فضاء رمزي مركزه أنهم مخلوقات لخالق اسمه الله فالخيار الوحيد أمامهم بين فرضيتين. الأولى أن الله لما ارتكب خلقهم كان في حالة منقمة من السكر. الثانية أن كائننا يمثل كماله لا يمكن أن يخلق مخلوقات ببشاعة الادميين. إذا كان فعلا برينا من هذه التهمة المشينة التي يلحقونها به منذ غابر العصور فهل الخالق الحقيقي هذا الشيطان الذي تسميه اساطيرهم ابليس؟

لم يضعوني في هذه الزنزاة صدفة. لاختار صاحب السلطة الواسعة الطريقة الوحيدة التي يعرف أنها قادرة على ذلك حصوني.

لا ينفع أن أجلس في أبعاد ركن من الباب وأن أضع رأسي بين ركبتي وأصابعي داخل أنثي، فالجنون يزحف على الروح كالظلام على آخر بقع نور باهت. أي كائنات رهيبة هذه التي نُفيت في عالمها! هي وحدها التي اخترعت التعذيب جعلته أداة سُلطتها في الدنيا وحتى في الآخرة. على كل حال أليس هذا التعذيب الممارس في هذه الأماكن المربعة الشكل المكثف للعذاب الذي نعيشه في أشكال مخففة تلاحقنا طوال رحلتنا؟

فنون ردالك يا دنيا
أصعري فوق ما نصيف (أبو العتاهية)

فأنتِ الدار فيك الظلم والحدوان والسرف
وأنتِ الدار فيك البغي والبغضاء والشنف
وأنتِ الدار فيك الهم والأحزان والأسف
وأنتِ الدار فيك الغدر والتنجيس والكلف
وفيك الحبل مضطرب وفيك البال منكسف
وفيك لساكنيك الحين والأفات والتلف

اللجنة، ربما ينتظرون أن أنهار مجهشا بالبكاء طالبا الكف عن تعذيب الرجل، ولهم مني كل ما يريدون. سأواصل المقاومة بسلاح ليس لهم ضده أي سلاح.

ألا يُصدر الأدمي مثل هذه الصرخات وهو في ذروة ممارسة الجنس؟ الرجل الآن بين ذراعي امرأته يصرخ بمتعة الجماع. يجب تنبيهه بلطف. حذار، ستوقظ الأطفال. فيتساءل الصغار ويوشوش في أذانتهم الكبار بما يجري وراء الباب الموصل.

لا، لا، تبالع حقا، يا رجل ستقل المسكينة، عيب، بدأ الصغار يضحكون ويرقصون فوق الفراش. ماذا تقول؟ إنني غائر من فحولتك، أهدئك عن صحتك وتحذثني عن الفحولة، ثم هذا جهد لا يتحملة القلب. يا رجل، من يحدتك طبيب كيف لا تسمع نصيحته بالتوقف؟

يسمع الرجل النصيحة أخيرا. تعب الأذنان من روعة صمت مفاجئ كما تعب الرتنان من الهواء عند نهاية أزمة الربو. قد يكون أطلق لخر غرغرة. قد يكون بصدد مسح دمانه والتفكير في الأعداء التي سينتقمون بها لتبرير زلة اليد وسوء التقدير. لكن الذات التي انشطرت إلى قسمين ترفض متابعة الرجل يُلْت في خرق قدر ثم يوضع في صندوق محكم الإغلاق ميرمج للدفن خفية فجر يوم لئيم، لتراه مرتخيا يتصبب عرقا تلعو محياه ابتساما

الزهو والنصر. تتحول اليدان من الصديجين إلى عينين فاضتا بالدموع، والرأس مدفون عميقاً بين الركبتين.

" هذا عالم لا منفذ فيه (هايكو لمجبول)
لا مهرب لأحد

لا حدود له لكن كم هو ضيق "

يرفع الحالم ذراعه بالحجارة تتطلق لعنان السماء تريد شج رأس من ارتكب هذا العالم ووضع فيه هذا النوع من الكائنات فتزفر لحظة لتتقض عليه كالعقاب، عقابا على الإمعان في تمرّد عقيم تحالفت لإخماده سادة السماء والأرض.

عند الاستيقاظ، أتوجه بأول لعنة إلى عالم أفاق معي متربصا بي وبغيري: ما زلت موجودا! كأن لا أحد رضي بأن يرحني منك ولو بما دفعت فيك.

ذلك أثنى أضع اللعين كل ليلة في المزاد العلني متوجها إلى المشتري سلاح قد يسهل التفرير به خذه بفلس وهذا ثمني الأخير. على ما يبدو، المشتري ليس غزا وهو الأمر الذي يتطلب التقليل من مطامحي. أتوجه إليه مجددا كل صباح مثنانب ولا أمل جنيًا لي في عقد الصفقة الكبرى: خذه بنصف فلس. لن أنزل تحت الثمن. عالم كامل الأوصاف وأنت تماطل في نصف فلس! خذه مجاناً، المهم أن يغرب عن وجهي وأنت معه.

أي معلّقة ساضع على باب هذا العالم وأنا أصفقه ورائي يوم يخأصني منه الموت أخيرا؟
حذار، حذار، عالم غير قابل للفهم أو للترويض.. حذار، حذار، عالم قاس، فظ، لنيم، بخيل، خادع، مرهق، محيط... حذار، حذار، عالم يضع أمامك على طول الطريق العقبة فالحفرة فالحائط الشاهق، إلى لحظة السقوط فيما ينصب كل من أفخاخ... حذار، حذار، عالم فنزك فيه جوع لا يشبع، ظمأ لا يطفأ، حب لا يذوب، مشاريع لا تكتمل، آمال لا تتحقق، والرياح فيه تجري دوما بما لا تشتهي السفن... حذار، حذار، عالم لا يعاب بك، لا يهيمه من أمرك شيء، سيات عندك أن تكون أو لا تكون... حذار، حذار، كل معاركه بلا نصر وكل منتصر فيه بالصدفة أو في غفلة من الزمان، هو في آخر المطاف مهزوم... حذار، حذار، عالم تأتيه خاوي الوفاض، ترحل عنه بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها، مُضتِعاً ما كسبت رغم ما دفعت فيه من باهظ الثمن.. إنه عالم أحسن موقف تجاهه فعل الرسام تولوز لوتارك وهو يخلع سرواله أمام البحر يتغوط ولسان حاله يقول: هذا كل ما تستأهل يا عالم، خرائي عليك.

*

يُفتح أخيراً بلب السجن الصغير لأجد نفسي مجددا وسط أوسع سجن وحبلة الصراع الكبرى ما يسمونه الوطن.

من أين لي التركيز على العدو وأنا أرقص رقصة الديك المنبوح، والذابحون رفاقي الذين يدعون محاربة من أحارب.

كم صدق القائل: اللهم أعني على أصدقائي، أما أعدائي فأتأ بهم كليل.

القاعدة أن الصديق الحقيقي هو أجز من يصدق ما يُروّج عنك من إشاعتك وأول من يغفرها لك إن صدقت. في هذه الساحة اللبينة التي يسمونها السياسة، الصديق هو أول من يُصدق عنك الأراجيف وأخر من يغفر لك أنها كاذبة. هذا ما يجعل بحثك عن الخل الرفيق في ساحتها كبحثك عن أم لأطفالك في ماخور.

صدق من قال إن كنت من لبلحئين عن الوفاء ربي لك كلبا .

تخور قواي من شدة الطعن فأسقط جاثيا على ركبتي. تمرّ صفوف أصحابي فوق رأسي تدوسني بأحذيتها الغليظة. أبصر قائد العدو جاثيا على ركبتيه، لا أعرف هل أخطرُ جرح الذي أصابني به الصديق أم العدو. يهمس في:

- أتعتقد معي حلفا ضد أصحابي وأعيّتك بالمقابل على أصحابك؟

أهزّ رأسي بالنفي لأنني من المدرسة التي لا يخون فيها الصديق صديقه، حتى ولو خان هذا الأخير.

يصرخ في أدهم قبل أن تنوسه أقدام جنوده البواسل وضباطه المخلصين:

- يا مغفل، القانون الأول في لسياسة: ليس لك في هذا الميدان إلا صديق اللحظة و عدو اللحظة وحليف اللحظة مع إمكانية تبادل الأدوار أي لحظة.

صحيح، لذلك ما تحتاجه السياسة ليس محاربا سانجا يعتقد أنه مسنود الظهر بحليف وليس أمامه إلا من يبارزه، إنمار اقص بلبه صيني في معركة سينمائية يدور على نفسه برشاقة لا تضاهيها إلا براعته في تصويب قدمه نحو حنجرة العدو في الوقت الذي يسند فيه ضربة قاضية بساعده لحنجرة الصديق يردي الأول قتيلًا ويترك الثاني جثة هامدة.

ها أنت تتضرع لله: اللهم خذهم عندك أصدقاء واعداء ووزعهم كما تشاء على جنتك وجهنمك.

المشكلة ماذا سنفعل أن أنت تخلصت من كل الأعداء والأصدقاء والسياسة كأخطر أنواع العلاقات الاجتماعية لا تكون إلا بهم. يتحول الدعاء: اللهم كثر أعدادهم لكن رجاء ارفع مستواهم. أي لذة في لعبة لا يلاعبك فيها إلا من ليس له قيمة وليس له قيم!

ثمة لحسن الحظ من بين اللاعبين الذين لهم قيم وأولها الشرف. هؤلاء للتعهد لأن الصراع معهم مُتعة والصلح مُتعة أكبر.

للأسف أغلب اللاعبين لا شرف لهم وهؤلاء للتجاهل لأن الصراع معهم خوض في الوحل و صلحهم من نكد الدهر.

نفس الشيء بخصوص الأصدقاء: الذين لهم شرف وهؤلاء للتعهد لأن صداقتهم نعمة النعم والذين لا شرف لهم وهؤلاء للتقادي لأن صداقتهم وصمة عار والأفضل أن تجعل منهم أعداء.

وفي كل الحالات لن تصل قمة تظن نفسك في مأمن من الأعداء الأصدقاء والأصدقاء الأعداء إلا وأنعمس أنواعهم يتنفس في ظهرك والسكين بين الأسنان.

إنه الذي منه كل نعمة عندما يضع على وجهه قناع المنافس.

هذا الآلمي وراءك على طول الطريق، كل ما يتغير منه الشكل وهو دوما نفس الكائن
المقتنع أنك حجز عثرة في طريقه والمصمم على ازاحتك كلف ذلك ما كلف.
"ومن يُقَى الدنيا فإني طعمتها وسبق لبنا عنبها وعذابها (الإمام الشافعي)
وما هي إلا جيفة مستحيلة عليها كلاب همين اجتذابها
فإن تجتنبها كنت سلما لأهلها وإن تجتنبها ناز عك كلابها"
لا فرار من الذي منه كل نقمة ولو تحصنت داخل قصر السلطة مطوق بحراس مدججين
بلساح.

يهمس في الطبيب العسكري عند دخول عنبر الجرحى.

- كلن كمين البارحة لجنوننا مكلفا ...

أرفع يدي أطلب الصمت. نعم كان كميننا مكلفا للمساكين المصابين لكن كم سيكون مكلفا
أيضا لي ولكل من يريد الذي منه كل نقمة رأسهم لأنهم تجاسروا على سلطانه وعلى
سرقته.

قدر المصلح - أكان نبيا يريد اصلاح البشرية جمعاء او ابسط شخص يسعى
للتغيير في أي ميدان - الارتطام بمنتهقين بخدم الوضع الظالم مصالحهم ولو على حساب
أغلبية الناس... الأكثر وجعا ارتطامه بضحيا هذا الوضع والجبن والتسليم جعلهم يقبلون
اليد التي تصفعهم ويعضون اليد التي تريد كسر أغلالهم... هكذا ان صرخ انه وضع قبيح
خطر على الجميع يجب الخروج منه وعليه نكل به الظالم وتكر له المظلوم... المشكلة
أن تضحيات كل المصلحين، ون كانت لا تذهب دوما سدى، فإنها لا تغير شيئا جوهريا
والوضع يعيد نفسه بألف شكل وشكل كأن هناك قوة قاهرة تمنع وجود مجتمع لا ظلم فيه
ولا خال، ربما لأننا بحاجة للظلم وكل مخرجاته البشعة لكي تتواصل القصص المثيرة التي
نشغل بها وقتنا ومنها قصص نضال المصلحين وتضحياتهم المثيرة للإعجاب عند
أنصارهم وكثيرا من الشفقة الساخرة عندي.

على فراش الآلام ثلاثة جنود مبرمجين لأشهر طويلة من العذاب. بعد ذلك سيتلقفهم مصير
لا يريد أحد تصوّره أو التفكير فيه.

- ما درجة خطورة وضع هذا الذي بُترت ساقه؟

- لا خوف على حياته سيدي، المشكلة الجندي الذي في الوسط قد نضطر إلى بتر الساقين،
الثالث يعاني من شظايا في عينيه قد لا ننجح في انقاذ بصره.

بشر بزرعون الزيتون وبشر بزرعون الألعام! هكذا هم البشر.

الغريب أن نمشي في شارع تجاري لا ترعد منا الفرائص بل وأن ينام الزوج مع امرأته
والمرأة مع بعلمها وليس تحت مخدة الذكر ممدس كاتم للصوت وخنجر مسموم تحت مخدة
الأنثى تحسبا لكل الاحتمالات.

مبالغة! كل الجلادين خرجوا من بين جحافل هؤلاء الناس العاديين الذين تلاقهم في كل
مكان ولا واحد منهم كان متميزا عنهم بشيء.

عميقا داخل الذات، داخل كل ذات، في ركن مُنزَوٍ من دهاليزها، تترصد كل الاستعدادات الفادرة على جعل الأدمي أكبر مجرم قادر على أن يزرع على طريق الأدمي لغما من المتفجرات كأنه لا يوجد في طريقنا ما يكفي من الألغام.

يا لهذه القفلة التي ترتحل وسطها تتوهم الأمان وأخطر من يترصدك على الطريق قد يكون الذي يمشي خلفك أو الذي يمشي جنبك يروي لك ذكريات طفولته!

القاعدة أن قدرة الإيذاء عند الذي منه كل نقمة مرتبطة أوثق الارتباط بمدى ما يملك من سلطة وفي أي موضع من سلمها يجد نفسه سواء بصفة عابرة أو مزمنة... في أسفل درجات السلم هو مجرد منغص لحياة من حوله... في أعلاها هو لعنة على الملايين يحتل أراضيهم بالقوة، يسرق خيراتهم، يرمي بهم في أتون حروب دمر بلدانا بأكملها ضاربا بعرض الحائط كل القيم والقوانين التي كدسها البشر على مر العصور لحمالية بعضهم من بعض ما لا مناص منه أن الذي منه كل نقمة من يصلحك على طول الطريق الصق بك من ظلك. في شكله الجماعي هو الغازي الأجنبي ومستغل عرق الملايين والمستبد بشعب بكماله. هو في شكله الفردي الأدمي الذي يحسدك على النور، على الهواء على دفاء الشمس، على خريز الماء على دوي الرعد، على نزول المطر. كأنه لم يخلق إلا ليكون مغلقا كل الأبواب، واضعا كل العرائيل، معسرا كل يسير، منغصا للوجود. الوجه البشع للعالم. اللهم امنع عنه النوم وحرمة من الموت.

*

يأتيك من تواصل المواجهة مع الذي منه كل نقمة وتجذها بعد كل صلح قصير، ملل مصحوب بشيء يشبه الغثيان. لا فائدة أن تصرخ فيه: كفى، أريد سلاما دائما ولو بشر وطك. هيهات. هو كتلك النباتات المضرة التي لا ينفع فيها اقتلاع أو سُموم أو حرق. لا جدوى من قتل شكله الأول، ولا الواحد بعد الألف، أو التصالح مع كل الأصناف التي يتخذها فنحن دوما مطوقون بأشكاله لا إفلات من قبضته ولو أصبحت من القديسين، خاصة إذا أصبحت أكبرهم.

لا جدوى للغضب والضعيفة. لنحاول كما يفعل الأميون دوما تبرير ما لا تبرير له واضفاء المنطق على ما ليس له منطق. ماذا لو كانت لقوى المبهمة التي رمتنا في هذا العالم أسبابها لفرض وجود الذي منه كل نقمة، منها أنه ضروري لذيقي منتهيين، أن غيبه كان سيجعل قصصنا بانخة وبلاطعم، أنه هو الذي يولد فينا أحد المشاعر والأحاسيس التي تجعل حياتنا تتوهج ناراً ونورا ونحن نقاوم وننتصر.

لا، لا، ليس بهذا الثمن!

ما الحل؟ تنظيم مظاهرة عارمة وتهديد القوى المبهمة التي قد تكون برمجت هذا العالم كلعبة فيديو وجعلت من الشرير الأعظم البطل الأول في سيناريوهاتنا الخبيثة.

تقول ساخرا بماذا ستهذ أنت المسكين هؤلاء الميرمجين القادرين على خلق العوالم؟ بما يخطر على بالك، المهتم أن نهذهم بشيء ما علنا نثير فيهم مخاوف ما ولو لحظة عابرة.

الدليل على موافقة الجميع حضورَ مظاهرتي كل بشر الحاضر بل وكل أشباح الماضي وحتى الذين لم يولدوا بعد. أرفع عقيرتي بالصراخ في البوق وقد تجمعت الحشود خلفي: لا، لا للذي منه كل نعمة، فتردّد البشرية ورائتي بحقد عارم وجذل الشّر: لا، لا، لا. بدايةً موقّفةً لأكبر مظاهره في التاريخ سننذّر القوى المجهولة التي تتحكم في كل هذا السيرك بضرورة الإسراع في الكفّ عن تجاهل صلواتنا وأخذ نذورنا وأضحيتنا مقابل لا شيء.

ماذا يحصل هنا؟ ثمة شيء غير طبيعي في صراخ الجماهير، فالحماس فائر والهتاف متقطع وأصواتٌ نشأَتْ تتعالى داخل المظاهرة: لا للعلمانيين الملحدين هم أشكال الذي منه كل نعمة، تقابلها هتافات معادية: لا، لا للظلاميين الرجعيين هم كلهم أبناء زنا ومخلفات الذي منه كل نعمة!

ها قد تفكّكت الصفوف وأخذ المتظاهرون بخناق بعضهم البعض، وكل واحد يريد أن يسبق مطالبه ويصنّف حساباته مع مَنْ يدّعي أنهم من المنسدين. كيف يمكن إنقاذ فكري العظيمة وإسكات هذا الغبي الآخر وهو يصرخ: خطفوا طقم أسناني وأنا أهتف. لا توجه إلى الحشود مخاطبا العقل والضمير وحسّ المصلحة العامة: يا جماعة لا بدّ من وحدة صمّاء ورضن الصفوف.

تتعالى بعض أصوات الاستحسان فالسبب والصغير بأسرع مما كنت أتوقّع. يصلني صوت المكلف بتسميم حياة كل طامح للقيادة: مَنْ قرّر الدعوة إلى المظاهرة دون استشارتي ولماذا لم أشاور في صياغة البيان الختامي؟

ماذا لو صحنّت: انتحاري على اليمين وسيارة مفخخة على الشمال. آه يمسون بخنقي يريدون التثبيت من حزامي!

أنا الآن كالأسد الجريح يلحق جراحه خارج ساحة المعركة، ينظر بشماتة للذئاب وبني أوى تتصلح بينها، ولقطيع الخرفان يرعى حشيشه.

أوف! ليأكلوا بعضهم بعضا. إن كان لهذه الكائنات عُذر ولحد للوجود فهو كمية الشحم واللحم التي سيوفرونها للود ناهيك عن كل ما تبرزوا طوال رحلتهم من الخرا سادا للأعشاب والنبات.

آه، وبخصوص عُذر وجودي؟

كمية المواد المذكورة أعلاه، كل الأمل أن تكون من الصنف الذي لم يسمّم زهرة ولن يصيب دودة بإسهال.

تنتهي طال الزمن أو قصر لاستنتاج واحد: المنقذ الوحيد من الذي منه كل نعمة.. الموت. آخر عقبة قبل أن ترتاح منه نهائيا تحمّل مراسيم الجنازة.

هي عند الأدميين كالختلن والزواج: مناسبة لملاحة الأعراء الذين فرّق بينهم الزمن، لتبادل الأخبار والنكت لإتمام الصلوات، أحيانا لتصفية آخر الحسابات مع عريس الموت.

يكفي أن أتصوّر كيف سيكون موكبي ليزداد مزاجي تعكرا. سيمشي الذي منه كل نقمة خلفي، يواصل الحسد تعذيبه لأنه ليس هو المرفوع على الاكتاف.
يجنح بي الخيل لتصور المشهد وحتى ما بعد المشهد.
كانتني أسمعهم يتهمسون ضاحكين: هل تظن أنه ترك لعائلته شيئا غير أظنان من الورق القديم؟ لا تظلم الرجل، حتى هو كانت له بعض الخصال، صحيح أنها لا شيء بالمقارنة مع عيوبه وذنوبه التي لا تحصى. هل رأيت ما أبشع نظراته. لا يلبس ربطة عنق، مظهره مظهر عامل فلاح، بشرته تفضح أصوله وأنه من سلالة الفلاحين والبدو الذين صبغت للشمس جلدهم في الصحاري وفي الحقول، ومع هذا لم يخجل هذا الأفريقي أن يريد نفسه سيّدا لنا. حرام عليكم أن تواصلوا سبّ الكلب ابن الكلب وقد أراحنا الله من سحته الشبعة... ثم خاتمة كل المناقنين يستنفرون بعضهم البعض لمزيد من السبّ: يا ناس، "اذكروا موآلكم بخير".
حقا ثمة قلة بجانب كل هؤلاء للشامتين من يحزنهم فعلا رحيلي. لأواسيهم بما واسى الشاعر مودّعيه:

*"في يوم وفاتي عندما يسبّرون بنعشي (جلال الدين الرومي)
لا تظنّ أني مثالم لفراق هذا العالم
فلا تنك من لجلي ولا تقل وأسفاه وأسفاه وأسفاه
فوقوعك في مخيض لشيطان مدعاة للأسف
وعندما ترى نعشي لا تصرخ: الفراق
فوصالي هو في هذا الزمان ولقائي
وحين أودع القبر لا تقل الوداع
فالقبر هو حجاب على مجموع الجنان"*

كم أخطأوا جميعهم في حقي: الذين بالغوا في كرهى لجهلهم أو لتجاهلهم لما في من بعض الفضائل، الذين بالغوا في حبي لجهلهم أو لتجاهلهم لنقائصي وعبوبي. كل لي ككل الأدميين بعض الحسنات تتسبهاز لآتي، وبعض الزلات تغفرها لي حسناتي ولم يكن من الضروري تضخيم لا هذه ولا تلك. قدر الأدمي ألا يكون إلا صورا في الأذهان، صورته في مرآة من يحبونه، صورته في مرآة من يكرهونه، صورته في مرآة الكائنات التي يعبر طريقها، بالكاد تلمحّه وحتى صورته في مرآة ذاته خاطئة. أما من له هذه الصور المتباينة في كل المرايا فشيء مجهول للأخريين ولنفسه أولا.

بالله عليكم يا من أبغضتموني، لا تمشوا في جنازتي ولا تقموا في العزاء. ماذا تريدون مني الآن وقد تركت لكم كل شيء والباقي؟ بالله عليكم يا من أحببتموني، لا تمشوا في جنازتي ولا تقبلوا في العزاء. تُرغرد النساء للمولود الجديد وينتحن على الميت، والحال أن تعلم العكس ما يجب.

لغات الحفارين الصامته وهم يزفرون غيظا من الحرّ وصلابة التربة.

على فكرة، لماذا يجب أن أودع في جوف الأرض؟ لماذا لا يُلقى بجسدي عاريا فوق الكثبان
علّ بعض الكواسر وثلعالب الصحراء وعقاريها تجد أخيرا نفعا في أمي؟ الرائحة! من
سيضابق إذا زُميتُ بعيدا عن الأنوف الحساسة؟ تقول، لا تطلق فتحت الثرى حيوانات
أصغر من ثعالب الصحراء ستعرف كيف تستغل حسن الاستعداد والكرم. أفتحنتي.
“ماشئي” مع الدفن، شريطة أن يحفر القبر على شكل بنر لأُدفن واقفا ورأسي كالعادة إلى
الأعلى.

“سأرقد في كل شبر من الأرض (محمد الفيتوري)

أرقد كالماء في جسد النيل

أرقد كالشمس فوق

حقول بلادي

مثلي أنا ليس يسكن قبرا”

يا هرمس، يا رب المسافرين واللصوص ويا دليل الأبطال نحو جثّات الخلد، أنت الذي
يعرف محو الخطي، امخ كل أثاري حتى لا يواصلون ميت منذ قرون ملاحقتي بلسب
والشتم.

أخشى ما أخشاه أن ينتصب الخطيب المفوه لأخر اعتداء. من قال كبير الأكاذيب عند البشر
قبل ممارسة الجنس، إبان الحملات الانتخابية، وبعد الرجوع من الصّيد؟ نسي الشقي خطبة
التأبين.

ها هم على أهبة الاستعداد ورا خطيبهم الهمام لحشو فم الميت بعنقود العنب الذي رفضوا
إعطاءه وهو حيّ أصغر حيّة منه.

كل شيء إلا انتصابهم فوق قبري يخطبون. إكرام الميت دفنه. نعم وبصمت. وحده الوجد
لصامت في مستوى مهابة اللحظة، ما عدا مسرحية عديمة الذوق.

لله ذرّ هؤلاء البشر. يكدبون عليك حيا، بالتقيص من قدرك، ويكدبون عليك ميتا بالزيادة
فيه. إياكم ثم إياكم، والله لو خطبتم خطبكم الرئانة على حافة قبري لرميتكم بالحجارة من
خلف السحاب، أو لانقلب عفريتا يأتي ليايكم بأفزع الكوابيس.

ولأنني لما انبثقت في هذا العالم، لم يكن في استقبالي حشد فيه خطيب مفوه بمدحني بخصالي
المرقّية، ولأنه لم يكن في انتظاري يوم الوصول إلا “ما” وخالة وجارة تدعي أنها قليلة،
فإني لا أريد في وداعي إلا ثلاث نساء آخر: تفاحة وتقيحه و“ح” التي غمرتني بحب لم
أستحقه يوما.

ثُهل على جسدي آخر حفنة من التراب، أبصر من خلالها بريق الرضا يلمع في أعين
تعصّر عينا من مآق جافة دموع التماسيح. فوق القبر يتواصل تدفق سيل الحياة، نهر جبار
عابت لب من أصاق التاريخ، لا يوقفه سد آخر. ما هم مثل هذا النهر لأن قطرة تخرت
منه.

“ميت أنت وإلى الأبد (لوركا)

ككل موتى هذه الأرض

ككل الذين ابتلعهم النسيان”

على باب المقبرة سيودع لناس بعضهم البعض منصرفين بسرعة إلى أشغالهم. حتى أقرب الناس إليّ عائدون عاجلاً لها وللضحك بأسرع مما تُصور. أي أهمية للأمر الآن وقد أدرث لهم ظهري وأداروا لي ظهورهم نهائياً.

على الشاهد أريد أن يكتب هايكو أيضاً أعدتُ صياغته بما يرضيني ولا يغيضه.
“أخيراً نجوتُ منكم

والآن تعال يا صرصار

غنّ على قبوري”

يكمل الخيال بقية الأحداث.

تواصل المشاهد في فضاء خيالي أستبق الأحداث وأحاول تصور بعض سيناريوهاتها. ها قد عدت من حيث أتيت. بوسعي الآن أن أضع زحلي انتهت مشقة السفر. قبل الإخلاء إلى راحة العدم، عليّ أن أجد مكتب التنظيمات لأسجل إيدانتي التامة لفكرة خلق كائن مثل لذي منه كل نقمة وطلبي الملح يستحب دوره من السيناريو في النسخ القادمة من العوالم التجريبية.

طبعاً لا أغيب من هذه الفكرة ... كما لا أفلات لأحد من قانون الجاذبية لا أفلات له من قانون التناظرية القاضي بأنه لا وجود للشيء إلا بنقيضه .. مما يعني أنه إذا كان لك محبوبون لا بدّ أن يكون لك كارهون... أنه كلما ارتفع عدد المحبين كلما ارتفع عدد الكارهين... أنه كلما وصل الحب عند محبيك أعلى درجة كلما وصل الكره عند كارهيك قمته ... أنه كان بوسع كم من كارهيك أن يكونوا من محبيك وبوسع كم من محبيك أن يكونوا أذ الخصوم والصدف هي التي وزعت الأذوار... أنه من العيب السعي لقلب الأعداء أصنقاء إذ سيتركون حتى ولو نجحت في الأمر القضاء شاغراً لينبت لك كم من أعداء جدد ناهيك عن التسبب في فقدان كم من أوفى الأصدقاء... أي حلّ تجاه وضع لا خروج منه ولا خروج عليه غير قبوله كما هو بل واعتباره الوضع الضروري لكي تكون لنا التجارب والتقصص التي تشكل حصيلة رحلتنا .

أستمر مذهولاً وأنا أرتطم بالنظرة المتجهمة لمخرج السيناريو المدعو جبريل وهو ينقل البصر تباعاً من وجهي إلى ملفت غليظ، ومن الملفت الغليظ إلى وجهي. طبعاً هذا ملفي وهو بداهة زلخز ثقيلاً. بماذا؟ بشكاوى الأطفال الذين تفوقت وتكررت عليهم... بشكاوى الأب من طفل متمرد ومرهق وقح.. بشكاوى الخصوم والمنافسين الذين عقرت أنفهم في التراب... بشكاوى الطغاة الذين أشبعهم تهكماً وتحقيراً... بشكاوى كل الأعداء الذين لم يسلموا مني إلا حقهم بسخريتي حتى وهم في الحرق البيضاء.

أه، ما زال هناك المزيد من الملفات! ماذا أيضاً؟ شكواى الأعشاب التي اجتثت أو دُست غير عابئ بماذا أجتثّ أو على ماذا أمشي... شكواى الفئران التي سمّمت صغارها في

غرفة المهملات لا أرحم ولا أشفق ... شكاوى الخنافس التي كانت تخرج ليلا خانقة مرعوبة
تبحث في مطبخي عن عشاء لصغارها، فإذا باقائل الرهيب يفاجئها بالموت الفظيع ...
شكاوى الدجاج والخرفان والأسماك التي التهمت أطفالها شاكيا من رداءة طبخها.. شكاوى
شعوب النمل التي لاحقته في الحديقة بالدعس وخراطيم الماء وكل أصناف المبيدات.
كيف لا أنفجر ضاحكا، لا يكفي أنني كنت الذي منه كل نقمة لكل هذا الكم من الأدميين
التعساء، بل وكنت أيضا غولا وعبئة لما لا يُحصى من الكائنات الحية الأخرى!

**

وكيف أنه لا معين على أهوال الطريق سواهم

يُذَقُّ الباب بقوة والحاح. خلفه تتصاعد أصوات رجال الشرطة. لكنهم لم يأتوا هذه المرة لأخذي وإنما هم بصدد محاولة منع شخص مصرّ على زيارتي. أيكون لشقيق الذي رافقتي طوال الرحلة وكان صديقا أكثر مما كان أخا؟ لا، هذه المرة هو الصديق الذي كان لي أكثر من أخ والذي وقف بجائني محاميا في كل الفضليا الملققة التي لاحقوني بها أكثر من ربع قرن. هذا آدمي ليس مع الدنيا وصاحبها وإنما مع من أدرات لها الدنيا ظهرها ومن انقلب عليه الأصحاب والأحباب. يفرض الرجل الهادئ بحزم حقّه في دخول بيت شخص خرج لتوّه من السجن، وليس لأحد حقّ منع الزوار عنه.

يسلم عليّ مهينا بسلامتي. يلقي بنظرة مطولة حوله متعجبا من خلوّ البيت تقريبا من كل أثاث لا يعرف أنه سُرق وأنا وراء القضيلين. ثم يدعوني إلى جولة على القدمين لمعرفة حبيّ للمشئي. يصرّ وسيجارته الأزلية بين شفتيه، على المرور أملم المقاهي المكتظة وعلى التوقّف بعض الشيء أمام مركز البوليس لتعلم الجميع، مع من يقف وأي قضية اختار لا يابه بما سيدفعونه من باهظ الثمن.

قل شاعر عريف بطبقع البشر أو هكذا يظنّ :

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها فكيفما انقلبت يوما به انقلبا (أبو العتاهية)
يُعظّمون أخا الدنيا وإن وثبت يوما عليه بما لا يشتهي وثبوا
صحيح، لكن ما أكثر استثناءات للقاعدة وهذا الرجل أكبر دليل .

أما زح للصديق -الأخ أخفي تأثري:

- أرهقت من يتبعونا من الشرطيين بهذه المشية السريعة.

- ما أكثرهم، هذا بلد يجب أن يسمى بوليسيتلن.

- مساكين مثلنا، لا تقسو عليهم. أقص عليك ما حدث يوم أطلق سراحني. أخذوني إلى بيتي في سيرة عادية. داخلها بادرني أحدهم: تظنوننا وحوشا؟، ماذا تريدون؟ أن أعصي الأوامر ليجوع صغاري؟

واصل الرجل لا يثنيه إصراري على الصمت: هل تتذكر المظاهرة الأخيرة التي شاركت فيها؟ التي حصّلت أمام مقرّكم؟ ... طالبونا بإهانتك ثم بضربك بالهراوات، لم يمسه أحد بأذى. لكن أتعرف ماذا فعلت زميلتك؟ أتعرف؟ كان الصوت مختنقا وكأنه يغالب عبيرة صامتة. قلت لا مانا فعلت. قال فتخت القحية بنت الكلب التي تدعى الدفاع عن حقوق الإنسان بالوعتها وبصقت عليّ. بصقت عليّ أنا. على خدي الأيمن، انظر. هذا بالضبط. منذ تلك اللحظة وأنا أشعر أن لعبها المقرّر لا يكف عن السيلان، بالنهار، بالليل، حتى

أثناء النوم ناره تحرقني. تلك اللحظة تدافعت إلى الذاكرة صورة "يا" ويده على خذّه يوم خرج من مكتب الضابط الأجنبي لم يخمد غضبه بعد عقود من صفة قد تكون سبب للصداع المزمن الذي لم ينجح في تخفيفه أي دواء. دون وعي ارتفعت يدي مررتها برفق على الوجنة الملتهية، أمسح ببالح العنلية والبطء أثار بصقة لم تجف منذ شهر وقلت للرجل عفوا أخي، وقيل صغارك من طرفي.

المضحك المبكي في الخصومات والمعارك التي نستهلك فيها جلّ عمرنا أن كل الفاعلين فيها يعتقدون أنفسهم أخيرا في مواجهة أشرار، أصحاب قضايا عدلة في مواجهة أصحاب قضايا ظالمة... تمنع عن قرب وستكتشف أنها معركة مسترسلة منذ بداية التاريخ بين أخيار أشرار وأشرار-أخيار، بين مهوسين بهذه العقيدة وهلائين بتلك الأخرى، بين جشعين شرسين استولوا على فريسة الصيد وشرسين جشعين يريدون الفريسة لهم وحدهم... والأدعي على الدوام كذاب مقترى عليه، سارق مسروق، ضحية وجالد... كم صدق الشاعر:

"كل كوارث الدنيا تأتي من تعذيب بعضنا لبعض (فرناندو بيسوا)
بنية فعل الشر أو بنية فعل الخير"

يظفي الرجل الطيب سيجارته المغرسة طول الوقت بين شفتيه ثم يتوجه إليّ وكأن به شيء من التردد.

- لخر سؤال وأرجو أن تتقبله بصدر رحب.

- قل وعليك الأمان.

- أنت تصرّ دوما على الجهر بالحقيقة كأنك لا تعلم كم يكره هذا النظام أي شكل من أشكالها.
- النظام وحده؟ يا ليت. أغلب البشر يدعون حبّ الحقيقة وهم لا يخشون إلا هي... يقرّون أمامها أسرع ما يركضون وراءها. أكاذيبهم هي حفاتهم وجلّ حفاتهم أكاذيب. لا أؤمن لديهم من خرافاتهم وأساطيرهم ومن اسدال لستار الكثيف على التاريخ الحقيقي لأبطالهم وقتيسبيهم وأنيانهم والويل لمن لا يشارك في أكبر مؤامرات التندجيل على النفس والأخر.
كم كان الجاحظ محقا: "وإن الغباء في الجملة أنفع من الفطنة في الجملة، وأن عيش البهائم أحسن موقعا من النفوس من عيش العقلاء ومتوقع البلاء في البلاء وإن سلم منه، والغافل في الرجاء إلى أن يدركه البلاء" ... نعم كم كان الرجل حصيفا عريفا بلبشر: "وإن الناس يظلمون الكذب بتناسي مناقبه وتذكر مثاليه ويحابون الصدق بتذكر منافعهم وتناسي مضارّه، وأنهم لو وازنوا بين مراقبتهما وعملوا بين خصالهما لما فرقوا بينهما هذا التفريق، وكما رأوا هما بهذه العيون".

تنتهي السهرة الممتعة ويصرّ الرجل الطيب على أن يوصلني لباب البيت والتأكد من أن الذين يتبعوننا منذ خروجنا منه لن يقتحموه مرة أخرى.

أن الأوان لأعابته بدوري:

- تعرف لماذا طلبت منك عدم المرافعة عني أمام الموظف المكلف بإصدار الحكم الجاهز.
ما الذي يدفعك للمشاركة في هذه المسرحيات البائخة.
يتبسم الرجل الهادئ.

- معك أن كل هذه المحاكمات السياسية مسرحيات ساقطة. لكن ما تدعو إليه من
مقاطعتها، أمر يصعب قبوله على مهني مثلي. بيني وبينك ماذا تريد من محام أن
يفعل أو حتى أن يكون إن منعته من الكلام.
فجأة ينفجر ضاحكا وهو يضيف :

ما المحامون دون الكلام الذي هو وظيفتهم وهويتهم ووسيلة رزقهم شأنهم في هذا
شأن الوعاظ والمربين والتجار والسياسيين والصحافيين والدجالين وكم من مهين
أخرى لا بضاعة لها تتاجر بها غير الكلام.

من الغد تجدد الحوار والمشئي مع الرجل الطيب المصّر على تقفد أحوالي كل يوم .

- على فكرة قد يمكنني إعانتك على ما تكلفك السياسة لكنني لا أقدر لك على شيء بخصوص
الكارثة المهنية التي جلبتها على رأسك. مما يقل همسا وجهرا أنه لا أحد يريد هذا الطلّب
الشيوي الذي تحاول فرضه. وضعك في الكلية يتفاقم يوما بعد يوم. زملاؤك الأعراء
يكرهونك، طلبتك يرفضون إجبارهم على الخروج من المستشفيات إلى مركزك الصحية
المتخلفة يُقال أيضا إنه لا أحد يتجاسر على إعداد رسالة الدكتوراه معك، لما تظهره من
صرامة مع الطلبة المسكينين.

- يكذبون علي كعادتهم. بخصوص صرامتي هل تعلم أنني كتبت رسالة الدكتوراه لإحدى
طالباتي من الألف إلى الياء.
- لا أصدق.

- فعلتها والله دون تقاضي فليس أو مرادة المسكينة.

- ولو! هات التفاصيل وسرّ الفضيحة في صدري إلى أن نتخاصم.

- طالبة من بلد بعيد جمعت في أن واحد قلة الذكاء والجمال والمال. نخلت مكتبي ذات
صباح ترفل في أسماها بكيفية لأن كل من توجهت إليهم من الزملاء الأعراء للإشراف
على رسالتها للدكتوراه طردوها. قالت تبلع ريقها وتمسح دموعها إن هذه الرسالة آخر
عقبة في طريق لم يكن سهلا، إنها بلمس الحاجة إليها حتى تحصل على شهادتها وتجد
عملا تطعم به عائلتها المعوزة. نسيث أن أقول لك إنها قضت في دراستها ضعف
السنوات السبع المعتدة، بل وأكثر، وأنها كانت مصدر تنذر في كمل الكلية.

شيء ما تحرك داخلي يلمر بمد يد العون لأدمي سيح عرض المحيط وهو الآن بصدد
الغرق على بعد أمتار من الشاطئ. الشفقة؟ كلا، الإعجاب أمام عناد هذه الأنثى التي لم
تقبل أن تكون خادمة بيوت مثل كل من ابتلاهن الله بما ابتليت به من مصير. قلت لها هذا
موضوع سهل، جمعنا له كل المعطيات وسيمكنك معالجته في ظرف بضعة أشهر. كدت
أرمي أول مسودة في وجهها. تمالكت أعصابي وقضيت معها يوما كمللا في مراجعتها ثم

طلبتُ منها إعادة كتابتها. بعد شهر عادت بالأطروحة وكانت عجيبةً محسنةً من نفس الأخطاء اللغوية والعلمية. في الاجتماع الدوري مع مساعديّ حصل شيء إجماع على أنه لا فائدة في تضييع معطياتنا ووقت القسم مع هذه المرأة وأن علينا الاعتذار لها. قلتُ لهم لكن ماذا سيكون رأيكم في أنفسكم إن اعترضتكم يوماً بتبع الخضراوات على قارعة الطريق أو تحاول بيع جسد لم يسوّه الله أحسن مما سوى ذهنها. نظروا إليّ باستغراب وقد بدأت لشكوك تراودهم بخصوص ما سأجاسر على فعله. قلتُ نعم، سأكتب لها الرسالة ويوم تقديمها ستكونون معي على المنصة، إذ لا مجال لإقحام محلفين آخرين قد ينتبهون للخديعة ويتسببون لي في مشاكل جديدة أنا في غنى عنها.

قلتُ في نفسي، إن لم يُعجبكم القرار فما عليكم إلا الوشاية بي، ثمة منصب رئيس قسم ينتظر ولحدا منكم. لم يش بي أحدٌ بل تتابعوا على إصلاح ما كنتُ أكتب بمنتهى السرعة وأنا غارقٌ في خضم مشاكلي المتعددة.

كيف لا يتغلب يوماً تعاطفك مع الأدميين على طول غضبك منهم وأنت تنتبه أن جلكهم يعنون من كم هائل من الامتحانات والمحن وأن لخطأهم وخطاياهم أغلب الوقت ريب فعل قليلة الفعالية على عالم يعيب بهم عبث القط بالفأل!

أي جارة كريمة أعارت المسكينة فستاننا يوم نقاش الرسالة؟ ما أعرفه أن سكرتيرة القسم هي التي أعانتها قبل دخول المدرج على تصفيف شعرها وأنها صبغت شفتيها بالأحمر لكي تبدو من فصيلة بني آدم وبنلت حذاء. يوماً كلنا لأنفسنا الثناء ولم نقصّر في مدح متانة منهجية الرسالة وأهمية النتائج العلمية التي توصلت إليها وكيف ستغير وجهة الطب الاجتماعي للعشرية المقبلة.

كنت أغالب نفسي من الضحك من نفسي وأنا ألاحظ بمنتهى الجدية كم تحسنت لغة الأطروحات في هذه الكلية التعيسة وبإلهة اللغة الرائعة في أطروحة طالبنا المتألقة وهي تجمع بين صرامة لغة العلم وأنفة لغة الأدب.

كل هذا الكلام وبلغة لجنبية أمام عملات نظافة الكلية ملأنا بهن المدرج ليقعلن متليعة كلام لا يفهم منه شيئاً. بعد نهاية “النقاش” مع أنفسنا والتداول بيننا في قاعة مغلقة، رجنا إلى المدرج يحف بنا وقار العلماء لنعلم الفتاة أن رسالتها قُبلت بعلامة مشرف.

لما أتت قراءة قسم أبقراط وهي تتلعم، همست في أنها أن قسمها لأبقراط لا يعني في شيء، كل ما يهمني لحرّام قسمها لي بالألمس أبداً مريضاً وألا تغير من الوظيفة التي وجدتها لها في الطب المدرسي، حيث سيتوقف عملها على الكشف على الأطفال وإلحاثهم إلى الأطباء الحقيقيين. بعد بضعة أشهر دخلت علينا في القسم امرأة تلبس فستاناً أنيقاً والكعب العالي وعلى وجهها المبتسم مسحة من جمال محتشم. لا أنا ولا أحد عرفها. جاءت لتقول لنا أنا بخير، أحب عملي، كل من يعملون معي وخاصة الأطفال يجنونني، شكراً. لحظة سعادة صرفٍ وتصالحٍ خالص مع الذات والآخر.

تنهّد الرجل الطيب وقال:

نعم يحق لنا أن نغفر لأنفسنا والآخرين ما نأتيه من موبقات لأننا نقدر أيضا على العطاء دون انتظار حتى كلمة شكر، على فكرة شقيقك يشنكي أنك تخرج وحدك ليلإ إلى شاطئ البحر. لا داعي لاستفزاز الشياطين وتسهيل مهمتهم. تذكر أنك تتعامل مع "كابو" مافيا وعصابات لصوص استولت على بلد.

وحيدا على الشاطئ المقفر يمكنني التفكير ببدوء عما يقدر عليه الأدمي في أروع حالاته تجاه كل ما يحفل به العالم من كانتات .

يعود إلى الذاكرة نقاش حول النار في محمية افريقية مع امرأة جمعتني بها صدف الطريق. ليلتها قلت لها وأنا أعيث بعود أقلب به جمر النار التي تجمعا حولها لسهرة الوداع .

-صحيح، كم نكلنا بالحيوانات ومع هذا... هل سمعت عن المعابد التي يقصدون فيها الفئران، عن الأطفال الذين يغسلون فيلا مضطجعا لا يخفي سعادته من جودة الخدمات، عن وليمة القردة لسنوية التي تقيمها مدينة كاملة على شرفهم فيتهطلون من كل حذب وصوب لياكلوا ما أعده لهم البشر؟ هل سمعتي برجال ونساء قبيلة البيشونوي الذين يفضلون الموت على اغتيال غزالة أو شجرة. ثمة بشر يقولون عندما يتحدثون عن فرد: فلان، السيد فرد. لا يجب أن ننسى الرهبان البوذيين وهم يدخلون قفص الثمور لغسلها وتغذيتها وأخذها للفسحة في ضواحي النير. تصوري أنهم خلقوا في بلد أعرفه جيدا حزبا سياسيا للدفاع عن الحيوانات وسموه طبعا الحزب الحيواني.

ليلتها قالت تزيد من رفع معنوياتها ومعنويتي: أعرف أيضا أن هناك طائفة تذهب إلى حد وضع ثلثم على الفم خوفا من التهام نياحة والمشى والبصر مثبتت على الأرض حتى لا تداس نملة على وجه الخطأ. ثم لا تتسني من يزرعون المسامير على الجنوع لتتكسر عليها الآت قطع الأشجار.

قلت وأيضا الذين ربطوا أنفسهم بالسلاسل إلى الجنوع الموعودة للمنشار الكهربائي. قالت هل سمعت بذلك الرجل الذي يجوب البحار بسفينته الصغيرة يقف بها أمام أضخم البواخر المجهزة بأحدث أدوات القتل لمنعها من الإجهاز على الناجين من أحقاد موبديك؟ أليس هذا الرجل وهو يعرض نفسه ومن معه للغرق أصدق دليل على وجود حسن أخلاقي مرهف وخير فطري في الأدمي؟

قلت عندي ما أحسن. إذا تصادف ووصولك المدينة التي يسمونها " التفاحة الكبرى" يوم الاحتفال بالقديس فرانسوا، فليس عي بدخول أكبر الكاتدرانيات البروتستانتية لمشهد لا مثيل له. على جانبي ممشى يمتد من الباب الضخم إلى الهيكل، آلاف الأدميين الخاشعين. على الممشى وسط الكاتدرائية المكتظة، يتحرك طابور طويل وكل أدمي ممسك بحيوانه الأليف. ثمة من يأتي ببغاء، يقط بكلب، بمعزة، بخروف، بحمار وحتى بجمل. عند الوصول إلى الهيكل، يرفع الكاهن أو الكاهنة اليد يبارك الأدمي وبيبارك الحيوان الذي معه وقد تساوى هذا وذاك ولو للحظة ولو في مكان يتيم، وقد تبين للمتعبدين الصامتين ولو في قيس وعي عابر أننا كلنا أقرب لبعضنا مما نتصور.

عما يقدر عليه الأدمي الذي يحببك في البشر والذي اسميه الذي منه كل نعمة ، حدثني جدي وأنا طفل أن الأجنبي قال له وقد تمخضت عنه العاصفة: عُصتُ إلى الخاصرة في الرمل الحارق، ظننت أنني مَيّت، لا أدري كيف وجدت الشجاعة للمواصلة وبأي ضربة حظ وصلتُ الخيمة. لم يببالغوا عندما حدثوني عن كرم البدو فقلت له الضيافة في هذه الصحاري حقٌّ طَرَفٍ وواجبُ الطرف الآخر، وإلا كيف كنا نستمرُّ أحياء في مثل هذه الربوع؟

على ذكر الصحاري. ربما لا يزال الذي منه كل نعمة يجوب في هذه اللحظة الفياقي الغالطة التي تفصل بين أرض يَهْرَبُونَ منها اسمها المكسيك وأرض يَهْرَبُونَ إليها اسمها أمريكا، لوضع أكبر قدر ممكن من قرب الماء في الأماكن التي يُرَجَّحُ فيها مرور المهاجرين غير الشرعيين أو ضياعهم.

في قصة أخرى يروي لنا الأدمي التائه في مصاعب هذا العالم وأحواله: عُصتُ في الثلج إلى الخاصرة، أطرافي تجمّدت من البرد قلت في نفسي إني هالك اللهم إلا كانت النجاة في تلك النور. إنه مصباح كوخ، الأمل ألا يكون وكز قطع الطريق.

تفتح الباب امرأة مبتسمة. تخاطب الأدمي المتماتل جوعا وبردا بلُغة لا يعرفها لكنه يفهم من نبرتها أن عليه الإسراع بالدخول. تصق الباب وراءه مشيرة إلى مكان على يمين ربّ العائلة الجالس هو والأطفال إلى مائدة العشاء. غريب هذا الكرسي الفارغ، هذا الصحن، هذه الملعقة وهذا المنديل على الطاولة! تُرى هل ينتظرون ضيفا؟ طبعاً، والضيف أنت، فهذه العائلة البولونية لا تجلس منذ قرون إلى عشاء أو غداء إلا وقد تهيأت للغريب التائه الذي قد يدق الباب في أية لحظة.

كم من قصص عما يقدر عليه الأدمي محبّة لبني جلدته وقد تبلور في وعيه شعور مفاجئ بأن الأدمي الآخر ليس إلا ناته تتخبط في قصة أخرى وأنه هو نفسه ليس إلا الذات الأخرى تورطت في قصته.

إن أردنا رصد نقطة الفصل والافتراق بين الأدمي وهو في حالة الذي منه كل نعمة والأدمي وهو في حالة الذي منه كل نعمة فهي دون شك ظاهرة لا أخطر منها في تشكل المجتمعات والديانات والسياسات: تقديم الأضاحي للقوى المبهمة التي تتحكم في مصائرنا. في حالته الأولى هو الأدمي الذي لا يتوانى عن التضحية بملايين القرابين على معبد السلطة قمعا وحربا ليحفظ سلطانه وحياته هو.

وفي حالته الثانية هو الأدمي الذي يقدم عنقه للذبح طائعا قربانا لإلهة القبيلة حتى تواصل بسط حمايتها على أهله، أو الذي يتقدم جنوده ليستشهد في معركة ضارية دفاعا عن حق الآخرين في الحياة .

القاعدة أن قدرة البذل والعطاء عند الذي منه كل نعمة مرتبطة أوثق الارتباط بمدى ما يملك من سلطة وفي أي موضع من سلمها يجد نفسه سواء بصفة عبيرة أو مزمنا. في أسفل

درجات السلم هو الفقير الذي يوجد بما عنده.. في أعلاها هو محرر الملايين من المرض والجوع والظلم . هو حامى وحامل كل القيم والقوانين التي تجعل من الأسمى انسانا . على أي حال كنا نعيش دون الذي منه كل نعمة . في شكله الجماعي هو المربي والطبيب والباقي لكل ما يسهل عليك العيش . في شكله الفردي هو الصديق الصدوق الذي يرافقك على الطريق يُعينك على أحواله وأحواله . هو الذي يمشي طوال الرحلة أملكك دليلا وخلفك حارسا، الذي يُحركك من رمل متحركة كادت تطفرك بك، الذي يُطلق صرخة الفزع لبيتك لبروز الخطر، الذي يجذبك بقوة إلى الخلف عند شفير الهلوية، الذي يرمي عليك معطفه ليرتجف بك من شدة البرد، الذي يأخذ منك بلمتتان ويعطيك دون من، الذي تنكس على ظهره تنتظر مرعوبا وسلاخك في يدك بروز الذئب، الذي يتغاضى عن واضح خوفك ليعكس لك صورة صنديد لا يخشى ما يترصص به من ذئب، الذي تعرف له كم أنت خائف فلا يدين أو يتبجح بشجاعته، الذي لا يفتعل سماعك وإنما يُنصت إليك حقاً، الذي إذا انتصرت عليه لا بغضب، وإذا انتصر عليك واساك واعتذر، الذي يزيهه نجاحك وبيكيه أن يراك فاشلا، الذي إن لم يقدر لك على شيء في هذه الحياة سهل عليك الموت، الذي يمشي وراء جثمتك وقد مات بداخله شيء ما، الذي يُؤوي ذكراك في قلبه يُواصل داخله أغرب أصناف الوجود.

نعم، الذي منه كل نعمة هو الحالة التي يتخذها العالم عندما يتكفل بحراسة أخطر مفترقات الطريق للأخذ بيد التائهين والمرهقين والمحبطين، خوفا من أن يتوقف تنفق الخجاج وقد فاقت الصعوبات قدرة مُغامري الوجود على الثبات.

آخر ساعة سهرتي الليلية مع البحر.

أن الأوان للرجوع إلى البيت المقفر من كل حبيب.

فجأة أنتبه لمجهول يركض ورائي ويده تمسك بذراعي . تدوي داخل الذات كل صفارات الإنذار المعهودة . تتراءى لي بسرعة البرق الصور المعتادة وكيف سألقتاد نحو سيرة رابضة حيث ينتظرني أميون بسحن متجهمة وعيون يتطاير منها شرار اليعض. ثم تتباطأ دقات القلب وأنا أسمع الأسمى المجهول يهمس في أذني، وقد أصبحنا جنبا إلى جانب: بارك الله فيك وفيمن معك على ما تفتلون من أجل كرامة الإنسان.

تربث يد المجهول على ظهري بضربات المواساة والتشجيع. يضع الرجل في الظلام، لا يترك لي الوقت للتمتع في ملامحه.

إنه الآن شعور من كد يهلكه العطش فإذا به عند مذبح العين، شعور من كاد يهلكه الجوع فإذا به جالس إلى مأدبة العرس، شعور الطفل التائه عثر أخيرا على والديه. صتقتم صراخي في وجوهكم بسبب وبدون سبب؟ مجرد ردة فعل على حب خيل لي أنكم لم ترضوا به. هذه يدي اليمنى لمن قطعوا له يدا ليمسح بها مجددا على شعر ابنته. هذا جسمي للرجم فداء كل من أهينت في حياتها وفي موتها. لسانني لمن أخلطه التأتأة.

مكائتي لمن يجهل أنه فوق كل تكريم. روعي لمن رهن روحه عند الشيطان. بورك
فيكم.. بوركتم، بوركتم، بوركتم جميعا!

**

عن الذي لا تكتمل الذات إلا بالذوبان في ذاته

أصبح السمع لما يتعالى من أغاني الأدميين وستكتشف أن موضوعها المفضل هذا الألمي الذي أسمّيه "الذي منه كل نشوة".

إنه الألمي الذي ترسم له أروع اللوحات، الذي توفّ لأجله لجمال الموسيقى، الذي لا يتوقف الشعر عن التغرّل به. كيف لا وهو الذي تجرب معه الذات أروع حالات الوجود. تعود "ح" لحديث مقطّع ونحن نتوجّه للبيت عبر شوارع المدينة الصلخبة.

- ما لك صامتة؟

- أحاول التعرّف على عطرك الجديد، فيه نكهة غير التي كانت للتقديم لا أستطيع تحديدها.

- إنه الذي أتيت لي به آخر سفرة.

- على فكرة، لماذا مواصلة عذّة التعطر خاصة بتكليفها الباهظة للعشيق والأرواح وكل الوقت الذي أضعيه في متاجر المطارات بحثاً عن أجودها وأرخصها وقد اكتشفنا ما يفعله الماء والصابون بالروائح المخجلة؟

- كفى استقرازا رخيصا.

-استقرازا؟ لم توجد العطور ولم تصبح مصدرا تجارة وحروب وثورات مشبوهة إلا لمحاولة التغطية على الروائح الكريهة للبشر. الجدد الذي تسمونه "الملك الشمس" نفسه كان نتنا وكذلك كل حاشيته. كانوا لا يغتسلون أبدا ولا يغيرون ثيابهم الداخلية. هؤلاء الأغبياء كانوا يأخذون دشنا من العطور عوض دش من الماء. لم تأت الفكرة العبقريّة والبسيطة والرخيصة التكاليف إلى البشر إلا منذ قرابة مائة سنة فقط. في مدينتك الجميلة هذه، كل المارة لعشرات القرون يضطرون إلى وضع مناديل على أنوفهم للمرور من الشوارع. كانت الولاية تفتح شباكها وتسكب كل سوائل البيت من بول وفضلات، أحيانا على رؤوس المارة. لله دركم، تتجثون على الخنازير وقد عبرتم جل التاريخ ملوكا وعبيدا تتضوعون أفضع الروائح ثم تدعون أنكم كائنات نورانية وعقلانية، أن الله استخلفكم على الكلاب والقطط، هي التي لم تكن يوما بحاجة إلى عطر.

- أه، يا عدو البشرية!

- على فكرة، هل انتبهت كم أجاد الله أو الطبيعة صنعنا. هل كان الجنس البشري يتواصل والحبيب يشم ما بداخل أحشاء الحبيبة، والحبيبة تغالب تقيؤها مما يختمر داخل أمعاء الحبيب؟ قيل في الأدميين: يجمعهم طبل وتفرقهم عصا، ولو أخطأ قسم الهندسة العامة لكان القول: يجمعهم طبل وتفرقهم رائحة. أي عالم كنا نعبر ونصنع ونحن عاجزون عن البقاء أكثر من دقائق معدودات مع بعضنا لبعض لأننا لا نتحمل فقط روائح التبغ والعرق والملابس الداخلية وإنما روائح الفضلات التي تتجمع داخلنا فما بالك لو كان لنا أنف يبرصد روائح الأفكار العفنة التي تختمر داخل الأرواح المريضة. من المؤكد أن هذا سبب ولع

الآدميين والإناث منهم على وجه الخصوص بالبخور والطور يدفعون فيها من قديم الزمان
أعلى ثمن للتغطية على ما يخفون من روائح كريهة ؟
- أنت حالة مستعصية على العلاج. لست ضد أن تعود لصمتك المعتاد.

تهزني "ح" من كنتي :

- عد إلي شريطة أن تكفت عن السخرية من كل شيء والباقي.

- لا بل أنت من ستتكلمين وخذي راحتك في أي موضوع.

- حتى ولو شئمتك على طول الطريق.

- كل ما تريدن. أنا بصدد تذكر أول نيرة لك رئت في أذني. أتذكرين أول ألو، يوم اتصلت
بقسمك بخصوص مريض حوّلته لي ممرضتك دون ملقه؟

يومها قلت لنفسي يا رب الموسيقى، من أين أتيت بهذا الصوت، ولماذا لم توزع عليهم
جمال الصورة وجمل الصوت بسخاء أكبر؟ هل الأمر مرتبط بصعوبة إعداد مثل هذه
الأصوات وثن صنعها؟ وهل لديه أفكار أخرى ومشاريع مازالت قيد الدراسة؟ وكم يجب
أن أنتظر من الوقت لأسمع صوتاً أجمل؟

يومها قلت لنفسي لا بد من عنر-مهما كان واهيا-لأكلم المرأة المجهولة، أقول لها إنني لا
أريد معاكستها ولا أطمح إلى وصالها، وكل ما في الأمر أنني ساكون ممنونا لها لو بعثت
لي بشرية تقرأ فيه حتى دليل الهاتف لأسهر عليه ليالي وليال، وبجانبي نفتر صغير أدون
فيه ما يوحي إليّ به صوتها من أحاسيس ومشاعر.

-أه أفضل أن تحادثني هكذا، لم تغازلني منذ مدة، أحياناً أتساءل هل تقفندي حقاً عندما
أغيب

- طبعاً افتقدك أكثر مما تتصورين. البارحة مثلاً، كنت عند طبيب الأسنان وكان المسكين
جائماً فوق صدري يحاول اقتلاع ضرس بليدة مستقرة في أصعب أماكن الفم. قلت للرجل
بين غرغرين لا تلخذ في خاطرك ولا تغضب مني وتعرف كل معزتك عندي لكنني لا
أدري لماذا أفضل أن أكون بين ذراعي امرأتي.

تضحك "ح" إلى ان يأتيها السعال.

نعم، كم يخطئ ذلك الشاعر الذي أتهم بلذاعة النبوة، لأن "أعز مكان في الدنيا" لا سرح
ولا بردعة وإنما الفضاء الذي بين ذراعي الحبيب.

لوصول إلى هذه اللحظة التي تتمازج فيها الذاتان لا بد من طقوس معقدة لا مناص منها.

من يجلس على الالتحام بالذات القدوس دون المرور بأكثر الطقوس تهييباً وإجلالاً.

تحقق الذات في الوجه الآخر فيأتيها من التحديق ما يأتي الأعمش من مواجهة الشمس.

أي أوتار سحرية خفية تنقرها الذات المعشوقة في الذات العاشقة لتثير فيها شعور المقرور
عند بسط يديه فوق نار المدفأة، شعور العطشان عند رفع كأس الماء الزلال إلى الشفتين،
شعور الطفل الضائع عندما تلوح له أمه أخيراً بين جحافل الوجوه الغريبة، شعور من
وصل إلى الواحة والشاطئ والملجأ والمرفاً بعد طول تشرد.

تهمس "ح":

- سئترك آثارا زرقاء في عنقي تجبرني على وضع وشاح في عز الصيف.

ثم تصرخ بين ضحك واحتجاج متصنّع:

- هل جننت! كأنك تريد أكلي؟!!

تُعرّ الوجه رهبة ما زالت قائمة وابتسامة تشجّع على المواصلة. تتصاعد من الأعماق رغبة عارمة في دخول الذات الأخرى وكأنها المغلة السحرية المغلقة التي طل وقوفك على بابها تضربها بقبضتين متشجنتين.

وفي جسدي تجيشين عن الهضبة (أوكتافيو باز)

وعن شمسها المدفونة في الغاب

وفي جسدي أبحث

عن المركب وسط الليلة الضائعة

أخيرا يفتح الحرم ويأتي أمر الخول رقيقا لا لبس فيه.

- هل تثقين بي وتسلمين لي أمرك؟

- نعم!!

- انتبه.

اتحد المعشوق بالعاشق ابتم الموموق اللوامق (الحلاج)

واشترك الشكلان في حالة فامتخفا في العالم الماحق

تكتشف الذات في هذه التجربة لا غير، ما تختزنه من متعة تفقد الرشد. كيف يمكن لهذا الجسد أن يعرف العذاب وحالة كهذه؟ ما أعرب وجود الماء الزلال والنار الحارقة في وعاء واحد!

- رويث.

- رويث.

هذا الكائن الذي بين ذراعي -والمتجول الآن في فضاء أحلامه- هو الذي تسميه اللغة شريك الحياة أو على الأقل شريك هذا المقطع من الطريق. لا أحد عبر هذا العالم وحيدا. تصله فتتلفك الأحضن ولا تغادره إلا وأنت بين الأذرع التي تحملك لمثواك الأخير. كأن بالذات ثغرة لا تسد إلا بلذات الأخرى ولا سلوى إلا فكرة أن حاجتك لهذه الذات الأخرى لا تقل عن حاجتها الماسة إليك.

تستيقظ "ح" من اغفاء عبارة.

- تغني! بماذا تهمهم؟

- "أمانة عليك يا ليل طول" كلمات أغنية قديمة كنت أسمعها وأنا طفل تتصاعد من صندوق خشبي ضحك اسمه الراديو.

نعم، يا ليلت هذا الليل لا ينتهي أبدا، نتواصل إلى الموت بين إغفاء وبقطة، نعم بلطف بين الأحضان، بالطمأنينة وبالاسترخاء في مأمن من عودة العجر.

- لم يبق عليك سوى إصدار فتوى بتحريم الشمس وإعطاء الأوامر لإبقائها في المستودع،
يكفي ما وتُرت من أعصابنا وهي لا تكف عن الشروق والغروب كأنها لم تستقر بعد على
خيار.

- والآن ردي على سؤالي: من أنت؟
هل سمع المحبوب لكنه فضّل الصمت؟
آخر محاولة.

- مجدداً، من أنت؟

- وأنت، من أنت؟

- من أنا؟، "أنا الذي لم يقرأ الأعمى أدبي ولم تُسمع كلماتي من به صمم"
- نم الآن، و اتركني أنم. غدا يوم حافل بمشاكل الزملاء والمرضى.

- اسمعي قبل أن تنامي هذه الأبيات لا أجمل منها حتى بضعف الترجمة:

يا معشر العشاق ما البشري قد ظفرت كفي بمن أهوى (أبو العتاهية)
ضممت كفي على درة لا شركة فيها ولا دعوى
لما تملأت سرورا بها أغربت عني سائر الدنيا

-تواصل مغارلتي! إنها ليلة حافلة بكل المفاجئات. نم الآن، أنت أيضا بحاجة لكل قواك
غدا.

على تخوم عالم اليقظة وعالم النوم وأنا أحضن "ح" يصرخ في وفي أشباح خائفة كائن
من نار ونور. "تحلقوا حولي أيها اليوساء لأروي لكم ماذا حدث بالضبط ومن المسؤول
عن كبرى مصائبكم. لما وضعت أمني على طاولة التشريح الكائن الذي خلقه الله أذهني
فيه أنه مكون من وجهين، له ظهران وأطراف أربعة عليا وأربعة أخرى في أسفله، تداخلت
وكأنها لُزج الأخطبوط. قلت في نفسي: أي ذات تختفي داخل شكل لم أر له مثيلاً؟ يومها
وضعت أدق أجهزتي أحسس بها ما بداخل الكائن من حالات. يا للهول! كيف لا أفجأ ولا
أغار والمؤشرات تؤكد أنّ هذا الكائن هادي، حالم، سعيد، مكتمل، مكثف بذاته، منغلق
عليها، ومنسجم. أي إله نجح في الحلّ حيث لم ألاق إلا خزي الفشل؟ ثم إنني أعدت الكشف
أكثر من مرّة لتواصل أجهزتي التأكيد أنّ الأخطبوط برأسين لا يعرف العلم ولا يعرف
الجهل، لا يعرف الألم ولا يعرف الأمل، أن الكمال فيه اكتمل.

إنّ نجح غريمي أينما أخفقت. لا بدّ من معرفة سرّ نجاح من أقمني علما. فتحت الكائن
لدراسة مستقيضة واضعا فوقه مشرطي لفصل ما كان يبدو لي مكونا من جزأين الأصقاع
بعناية وإحكام. لم يكن من السهل تقريق الشفاه ولم يكن من السهل وضع الفضاء بين
صدرين متلاحمين. لم يكن من السهل اقتلاع الجزء الأسفل من الجزء المقابل، كم عانيت
وأنا أفضل الأذرع عن بعضها البعض، لكن المقاومة المستميتة للكائن لم تُجد نفعا. أخيرا
رقصت طربا وأجهزة تحسّس الذوات تعلمني أنّ الواحد الذي جعلته زوجا أصبح يشعر
بالألم، بالعري، بالعار، بالوحدة وبالانفصال. لإتمام انتقامي سارعتُ بوضع الخوف والنور

والجفوة من النصف الآخر داخل كلّ نصف مبتور حتّى أعرقل، ولم لا أمتنع بحثاً محموماً عن اللقاء، وإن تمّ ألا يدوم طويلاً. هكذا تنفّستُ الصعداء وأطلقت صرخة النصر وقد صنعتُ من واحد كامل اثنين ناقصين أنا أكبر مهندسي العتمة، أنا الذي تسمونه إبليس. " الأدميون كائنات مشطورة لا تستجمع ذاتها إلا إبان تجربة الحب؟! نحن كائنات محكوم عليها بالجري الدائم وراء ذات مكتملة لأن وجودنا إلا يكتمل إلا بوجودها ؟ !

**

ما نتعلم عنهم أين تتعري أجسادهم

تفتح “ح” فمها مندهشة وهي تسمع اقتراحي لسهرة نهاية الاسبوع.

- علبة ليلية!

أهزّ الكتفين:

- كفاتنا متاحف ومحاضرات ولوبرا. الليلة عرض “الستريبتيز” ولا شيء آخر.

تقطّب “ح” الجبين وفي نظرتها شيء من القلق.

- ستحتمل من جديد خطابك الممل عن الطبقات العاملة المسحوقة، ومسؤولية أيديولوجيا السوق البغيضة في تسليع النساء والتعدي على الكرامة البشرية الخ الخ. لا شكرا، وعلى كلّ هذه عروض لكم أنتم الرجال.

- أنا بحاجة لزيارة هذا الأماكن لمواصلة أبحاثي.

- أبحدل؟! وعلبة عري!؟

- نعم أريد أن نسهر هذه الليلة في أخطر أحياء هذه المدينة، في أفقر أرقعتها، في أحقر علبة ليلية فيها. أي قيمة لشهادتي عن الأدميين إن اغفلت بشرية الليل من مومست وقوادين وسكارى ومشردين وتجار مخدرات وضحاياهم. أرجوك، لا أتجاسر على دخول هذه الأماكن وحدي.

- خشيتك من العيون؟

- التي بداخلي.

يتلقنا ليل متجه لا يقع في تحسين نواياه ما تتكلف المدينة من أنوار.

الليل! فترة الزمان التي تنواري إبانها الأشياء عن الأنظار تستعيد أنفاسها لكثرة ما مسحتها الأنظار... التي يعاوننا فيها أمل الاختفاء عن أنظار الله ولشيطان والمخبرين...

أخيرا قاعة ضيقة عانمة في شبه ظلام تعبق برائحة التبغ والعرق ورخيص العطر.

أجبل البصر بين الجمهور والخشبة التي تنتظر قدوم البطلة. تطيل ريفتي النظر إليّ باستغراب غير مقنع.

- ملك تنظرين إليّ، لست أنا الذي سينزع ثيابه.

يقطع علينا بداية افتعال مشددة ضاحكة بروز شابة شقراء، فارة الطول، مكتنزة الصدر، خرجت من وراء ستار قنر لتحلّ ركحا بحجم طاولة صغيرة.

“أنت تزجي رنفها بقوامها... فتأطر الأعلى وماج الأسفل” (ابن هاني)

تنفجر “ح” ضاحكة:

- تغّي! أنت! أظنّ أنني مُقدّمة هذه الليلة على أكثر من مفاجأة.

- ألا يغنون؟ لم لا أعطي أنا أيضا؟

- أنتم الرجال لا تتحدرون من القردة وإنما من الخنازير. من حسن الحظ أنني لا أفهم الكلمات.

- إنها كلمات جميلة وجدّ مهذّبة لأغنية قديمة من بلدي عن جميل لما بدا يتثنى. رنّدي معي: أمان أمان، وبلمناسبة كفي عن الصداق الّتهم المشينة بالخنازير.

تبدأ "الفنانة" في التثني وهي ترسم على شفّتها ابتسامة مهنيّة تستشفّت من وراءها بقايا خجل الطفلة وبعض حرج الصبيّة، وتواصل الحياء والشعور بالإثم عند المرأة المكتملة النضج.

هنا وجه آخر لم تزل في رسمه يد الرسام الأعظم... كم من نماذج أخرى سيخلق على مرّ عصور قبل أن يضع ريشته وقد علّت على محياه ابتسامة النصر؟
- بهرك جمالها، أليس كذلك؟

- لم تعد تخدعني أنثى مهما وضعت على وجهها من أصباغ ولبدست من حلي وحال. لكي أحكم على امرأة بالجمال، يجب أن أراها مستيقظة من النوم بشعرها المنفوش متوجهة بلبيجما إلى الحمام لغسل أسنّتها. وفي كل الحالات لا أخشى شيئا قدر التورط مع النساء الجميلات. ألم تسمعي بالمثل الإفريقي: "من يتزوج امرأة جميلة له نفس مشاكل من يملك أشجارا مثمرة على قارعة الطريق".

- شكرا على كل هذا التغرّل بي.

تعرض عني "ح" لا أندري هل هي حقا غاضبة فعلا أم تقتعل الغضب.

كل انتباهي مرّكز المرأة التي على الرّكح لا التي بجانبني.

تشرع "الفنانة" في خلع قميص جدّ شفاف ترميه بلطف على كرسيّ هو كلّ الديكور.

من ينتبه أن الثياب لا توضع على الجسد ققط للزينة والحماية والتميز وإنما لنقول للصياد: تحت الغلاف جوهر النّصن. يا إلهي، كم في هذا الجسد من جمال، كم فيه وعود متعة، كم من خصوبة لتجدّد معجزة المعجزات! كأني بجحافل الكائنات التي تنقّ على باب العالم تنتزع لطاولة القمار أن تسحب رقصها لتقوز بشرف الولادة وقداسة الحياة من هذا الجسد بالذات.

تنهرني، "ح" لا تخفي غيرة قد تكون أدهشتها وأزعجها ظهورها.

تأخذ المرأة في اللف والدوران على نفسها.

ثمة هذا الرقص من قبل هذه المبتننة وثمة الذي تغفر فمك أملمه وأنت تتأمل الراقصة الروسية تكاد تطير في السماء محمولة على ذراعي مراقصها أو الراقصة الهنديّة تروي بحاجبيها وأصابع اليدين وقدميها ملحمة راما وسيتا.

تهمس في "ح".

- وتسمّي هذا رقصا !

- لم نأت لمشاهدة باليه بحيرة البجع أو ما تيسر من البهاراتفتيام ...

فجأة يتعالى الصفير والصراخ والمرأة تنخرط في معاينة حمالة الصدر.

تبلغ هستيريا النظارة أوجها عند نزع الصدرية ورميها بدلال على الكرسي فوق القميص. يثير الصدر العاري زمجرة تتخللها أهات تعجب، أو دهشة أو وجع. تبدأ المرأة المسكينة اللعب بأزرار بنظونها الضيق تعد بعرض المستور على من جاءوا لهنك كل ما يحرمه نفاقهم المعتاد.

مسكينة! حقاً؟ من قبل إنها لا تشارك مرح المتفرجين، أن اللعبة ترضى لديها حاجة أعمق من حاجة المال؟ ألا تعلم ما يعمل في أنفس مشاهديها من إعجاب بجمال جسم فانتن للأنظار، سالب للعقول؟ كأني أسمعها تهمس للمشاهدين: انظروا، تأملوا، سبحوا. هل هذه المسرحية إخراج آخر لتعبد الأدمي للشكل الذي تجسد فيه وهو شغله الشاغل صيانة وتعهدا وتجيلا منذ أولى خطواته على الطريق؟

الجمد! كم له من تماثيل، كم من لوحات، كم من قصائد، والرقاص دوما من تدنيس إلى تدنيس ومن تدنيس إلى تدنيس.

يُرمى البنطلون بلامبالاة مدروسة فوق القميص الشفاف والمرأة تواصل التثني على أنغام موسيقى عاهرة المأدبة أمام الجانعين ولا مجال للإمساك بما تعد. تنفجر شثيمة حقيرة أرتج لها كما لو كانت لكمة طائشة أصابتني في الوجه. هل ما زالت مثل هذه التعليقات البليدة تنير في هذه المرأة مشاعر المهانة؟ أم هل تصفحت هي الأخرى كالسياسي ووحيد القرن؟ ثم تتسارع وتيرة الكلمات البذيئة يطلقها مراقبون تسللوا إلى قاعة رغم أنف القانون ونظارة هائجين لا شك أن فيهم من هم تحت وطأة الخمر أو مختر ما.

هم لا يختلفون في شيء عما تلاقي في الندوات العلمية والنزل الفاخرة وقاعات الانتظار لشرفية في المطارات. الفارق الوحيد أنهم يرتدون ملابس أهل تكلفة ويلعبون أدوارا أقل تكلفا.

تهمس “ح” وفي صوتها نبرة لا تبشر بخير.

- خذ بالك، سنسقط نظارتك من فوق أنفك.

- هكذا تكون النهود وإلا بلاش الاقتعال والتكلف عند بعضين.

- أخطبها لك؟

- الآن؟ وبلا مقدمات.

- كن على حذر. ذقت أطافري ولم تجرّب حتى الآن عضتي.

- صمتا يا امرأة، تألمي هذه اللوحة.

تدير الراقصة ظهرها للقاعة المهاجة تمنح للبصر عجزا مكننزا لم يرسم مثله حتى ذلك الفنان من بلاد الفلاندر المسمى “جوردانس”. أخيرا تضع الفنانة يديها على طرفي قطعة من قماش تغطي بصعوبة ما يخفيه الأدمي عادة بين فخذه، أكان ذكرا أم أنثى.

يا ترى كم من هؤلاء النظارة الهائجين لم يدخلوا هذا المكان التقيح لإكفاء شهوة جنسية وإنما لغليات مبهمة كالتى دفعتني اليه؟ هل هم بصدد رؤية ما أرى خلف المظاهر الخلابه؟ ... هل دا همتهم هم أيضا صورة نظارتي بعد وقرب ووضعتنا على العينين التي كان

بهما حور؟ أسنان سوداء وأخرى صبيغها النيكوتين بالأصفر... نهدان سقطا فوق البطن
ويطن سقط فوق الركبتين وركبتان تننان بحمل ما لا يطاق من مترهل اللحم والشحم...
على من يتيهمون؟ ... هل شتانهم موجهة إلى المرأة أم للذي يرهل ويمرّق ويكلس كل
جسد جاعلا حتى من هذا الذي اكتملت فيه كل الأوصاف خرابا كنييا؟ ... هل هذه العلبة
الأيلية الحقيرة محراب نتعبد فيه للآلهة خالفة الحياة والصحة والجمال، وينصق عليها لما
تفعله بكل هذه الروائع؟ ... أتراني في كنيسة بجوز فيها الجمع بين ما لا يجمع في الكنائس:
الصلاة والسكر، العبد والكفر، التقديس والتدنيس؟

تهمس "ح" في أذني: كأي كنيب فجأة، حدثني، ما بك.

أحدثها عما يتصارع داخلي؟ ستضربني بحدانها وهو يكعب عال متبب.

لماذا لا أشارك أنا أيضا في تدنيس كل هذا المقدس، أنتقم ممن جعل من هذه الروعة قمامة
متجولة سترمي يوما لقمة سائغة للدود.

- انظري. إنها بصدد خلع القطعة الأخيرة!

- رُب ضارة ناعمة، وقد اكتشفت هذه الليلة وجهك المخفي قبل أن أتورط معك، يا رجل
هل أنت واع أنك تكاد تنهض من مقعدك؟ المرّة المقبلة سأحجز لك مكانا على الركح حتى
لا تفوتك شاردة.

يتواصل نزول السروال الداخلي ببطء مدمر لأعصاب بعض المتفرجين، مثيرا لموجة من
الضحك تعتمل داخلي. أصرخ مفتعلا الحماس الشديد:

- لا أصدق أنها ستجاسر. لقد وصلت به إلى منتصف الفخذين.

- لا تفعل البلاهة. ليس هذا ما أتيت من أجله أنت وهؤلاء الخنازير؟

من الأضمن العودة للضحك وهو من قديم الزمان البديل عن البكاء.

- أقول لك: لقد وصلت به إلى الركبة وكأنها عازمة على!، انظري، وصلت به منتصف
الساقين، أقول لك: ستخلعه !!!

- وماذا كنت تنتظر؟ أن تحاضر في النحو المقارن.

- تحذيتي عن النحو المقارن والطبيعة تتأهب لقضاء حاجتها الطبيعية أمامنا! يا الله بسرعة
ورائي، لا أظن بول أو خرا حتى هذه الحساء يعقب برائحة الفلّ والياسمين.

تواصل "ح" الضحك داخل السيارة ونحن نشق طريقنا نحو البيت. ثم تتوقف لتصرخ
في فتعل الغضب.

- على فكرة لا تقل لي إنك تريد العودة لمثل هذه العلبة الحقيرة التي جررتني إليها الليلة.

- لمواصله أبحائي هناك أماكن ثرية بالمعطيات هي الأخرى ولن تمناعي في الذهاب إليها
كما لا خشية لأن تلتقط لي صورة على أوابها.

**

ما نتعلّم عنهم أين تتعرّى النفوس

ليس من باب الصدفة أن أول من علّم الأدميين بناء المسارح في تصورات الهندوس-ربّ اسمه فاكسمان، أن مدرّبهم على الإيقاع كان ربا يسمونه شيفا، وكانت أستاذة الرقص الرّبّة بارفاتي، وأن براهما إله الالهة لا غير هو أوّل من علّم الأدميين فنّ التمثيل؟ لهذا لا أدخل مسرحا إلا وجاءتني لحظة فكرة ترك نعلّي عند الباب ولا أدخل معبدا إلا لتقييم طرافة الإخراج وبراعة الممثلين.

قد لا يتفق معي الكلّ في كون المعابد مسارح والمسارح معابد لكن المسارح بلا شك أو جدل من أهمّ الأماكن لتفحص الأدميين... ومن ثمة مواظبتي على ارتيادها.

يشاء حسن طالعي هذه الليلة أن يعرض أكبر مسارح المدينة مسرحية طبقت شهرتها الأفاق لعبقري لا تمضي ليلة واحدة على هذا الكوكب دون أن تعرض في مكان ما إحدى أعماله.

أغرقت في المقعد الوثير متنقّسا الصعداء أرهقتي طول الطابور. تمرّ بين الصفوف امرأة ممتسمة بين يديها رزمة من المطبوعات الأنيقة.

- سيدي هل تريد البرنامج؟

- نعم إن سمحت برنامج الرحلة.

- عفوا!!

- كنت أمزح. تفضلي أعطني برنامج السهرة.

ثمة من الظرفاء من تكفل بحساب البرنامج الذي يهمني فيبين أن الأدمي الذي يعيش سبعة عقود يقصّي ثلاثين سنة في النوم، اثنتا عشرة سنة في مشاهدة التلفزيون، اثنتا عشرة سنة في الثرثرة، ثماني سنوات عمل، ثلاث سنوات في الأكل، سنتين في الهاتف (إحصائيات ما قبل ظهور النّقال)، ستة أشهر في المراحيض.

تبّأ لهكذا برنامج. من الأحسن نسيان هذه الأرقام المفزعة والتركيز على الكتيب الأنيق وفيه بعض المعلومات عن توقيت السهرة والفرقة المسرحية والسيرة الذاتية للمخرج الشهير.

تُرى هل بوسعه أن يأتي بشيء من التجديد في مسرحية تعرض منذ أربعة قرون؟

أه لو تُرك للمثّلين حقّ التصرف في النص والارتجال في كل لحظة حتى لا يشبه عرض الليلة عرض البارحة، ولا خشية لعرض الغد أن يكون ترديدا لعرض الليلة.

أه، لو تُرك للنظارة حقّ اقتراح تغيير بعض المقاطع وحتى السيناريو بأكمله لا يهمّ أن يتقلب المؤلف في قبره سخطا أو أن يصفق صارخا برافو هكذا أحسن بكثير!

تقول: لكنها ستكون الفوضى؟ بكل تأكيد. لكن أليست قصصنا فوضى من الأحداث والحوادث، لماذا لا نضيف لها الكتابة فوضاها الخاصة؟

أجبل البصر حوالي على أقصى قدر ممكن من الانتباه.

أنا الآن في مكان لتشريح النفوس يذكرني بالأماكن التي كنت أرتادها طلبا لتشريح الأجساد. إنه أيضا المجر الذي يمكّنتنا من النظر في الذات الأخرى، نكتشف فيها المستنقع والجدول والشلال الذي فينا، إنه المختبر الذي ندخل فيه الأعماق المظلمة لهذه الذات ونحن في مقاعدنا الوثيرة لا نتعرّض لخطر. إنه العالم المصغّر الذي نستطيع فيه وضع اسم وصورة على كاتب السيناريو وتوهم معرفة مقاصده نعوّض سحرها بكتابة السيناريو الكبير وبما يريد منا نحن البشر للتائهين بين فضائي الواقع والخيال. تنطفئ الأضواء تدريجيا.

يُزاح الستار ببطء مبالغ فيه.

يُرفع الجسر الرابط بين الفضاءات. تترك خلفنا ما نسميه “الواقع”.

تنطلق الأفعال والتفاعلات التي جننا جميعا للتمعن فيها.

يبدأ الممثل في الصراخ ليعلمنا جميعا أن ألما فاق كل حدود التحمل يمرّق روحه.

- “في نومي وبند شقيق! انتزعت مني في مرّة واحدة الحياة والتأج والزوج. يا للفضاعة! يئنّ شبح الملك المقول يستنهض همة ابنه يحفرّ فيه أعماق غرائز الأُميين: الانتقام.

- لا تتوك فرأش ملوك الدنمرك يُدّس بالفسق والزنا اللعين”.

في المشهد الموالي يراقب كلوديوس الملك المنقلب ابن أخيه وهو متزايد الطق. هل فهم أنه قتل والده وعشيق أمه؟ أنه استولى بالخيانة والغدر على الملك والملكة؟ هل لديه شكوك؟ أدلة حول جريمة ما فرقها جريمة؟

لوضع النقط على الحروف وتسمية الأشياء بمسمياتها لنقل أننا أمام جريمة تصفها البلاغة بالنكراء والجريمة خاصة يتميز بها الأدميون عن بقية الكائنات التي لا تقتل ولا تسرق إلا لضروريات البقاء. أما الأدميون فيقتلون ويسرقون للتمتع بالكماليات، للتسلط على الآخرين، للانتقام، لإثبات الذات، للرياسة وأحيانا دون أدنى سبب.

هذه الجريمة التي هي عدّة المسرحية تسمى جريمة دولة أي أنها ما يرتكبه حماة القانون من انتهاك للقانون وهم في مأمن من كل محاسبة أو عقاب.

لو يعلم الناس أي نوع من المجرمين يسكنون القصور التي تتحكم في حياتهم لما استطاعوا النوم ليلة واحدة والقاعدة في عالم الأُميين صغار المجرمين في السجون وكبار المجرمين في القصور. لا ذكرى لصغار المجرمين إلا في لصحف الشعبية وملفات المحاكم أما كبار المجرمين فذكرهم محفوظة في كتب التاريخ. صغار المجرمين للسب واللعن، كبار المجرمين لعبادة الجماهير الغبية.

المسرحية أيضا عن خاصية أخرى يتميز بها الأدميون وهي نكث العهود والعقود. أغلب قصص الأُميين تبدأ بالخروج على عدوّ وتنتهي بصياغة آخر، وكل عدوّ ماله الانتهاك عاجلا أو آجلا. لذلك هم دوما بحاجة للدعاة والقضاة عليهم يحفظون عقودهم من نزعة الغش المتأصلة فيهم. عبثا.

يتوجّه الملك المجرم إلى هاملت خائفا متودّدا، يقيس مدى علمه بجريمته النكراء.

- "إته جميل ومحَبَّب من طبيعتك أن تُوَدِّي ولجب الحزن تجاه والدك. لكن يجب أن تعلم أن أباك قد أبا وكنلك والذ، ومهمّة لياقي على قيد الحياة التقيد بواجبات البنوة في الأسي، لكن لمدة. أما الإصرار عليه فبناذ كأنه الكفر".

تصرخ أوفيليا حبيبة هاملت: نهض الملك.

كيف لا يبثب من مكانه هذا الذي مرَّق عهدا مقدسا ربطه يوما بلأخيه وهاملت يروي، متكفأ لالسذاجة، قصة تخلص إيطالي اسمه "كونزاجو" من أخيه، وزواجه بامرأته، مع كل تفاصيل القتل بسم مسكوب في الأذن.

يصرخ الملك القتال: علي بالنور، النور!

أي نور قادرٌ على إضاءة الظلام الدامس الذي يتخبط فيه، ومن أي مصباح سيسع؟

ليست الأم الخائفة، الخفية، الخائفة، بأحسن حل. ها هي تحدت بولينيوس على أن يصدقها القول بخصوص تغير طبع هاملت. تُرى هل يعلم ما فعلته الأم التي حملته في أحشائها؟

يصرح الرجل برأيه كمن يُصدر قرارا لا طعن فيه:

- "سأختصر. ابنك النبيل مجنون. أسميه مجنونا وما الجنون إلا أن تكون غير مجنون".

- "أريد أكثر مادة وأقل بلاغة".

- "بما سيديتي، أقسم أنني لا أبحث عن بلاغة. إنه فعلا مجنون وإنها لمأساة".

تتوسل الملكة إلى ابنها الذي أهنته الجريمة الكراء صوابه.

- لا تقل شيئا آخر. كلماتك خنجر تدخل أنفي. بلا مزيد يا حبيبي هاملت.

يواصل الملك افتعل السذاجة.

- هل يكون السبب الذي أخرج هاملت من عقله موث ووالده؟

يستحيل الصبر على كل هذا القدر من سوء النية وهو أكره ما أكرهه عند الأدميين.

يستسلم الذهن كالعادة لأفكار تتدافع من أعماق اللاوعي وقد انهارت الحدود المصطنعة بين ما يسمى الواقع وعالم الخيال. ها أنا وقد أصبحت أتحرك في فضاء مواز أرفع إصبعي في وجه هذا المنافق.

- عيب يا رجل. ألا يكفي أن تقتل أبا، أن تنام مع امرأته وأن تسلبه ملكه، والآن تسخر منا متسائلا عن أسباب فقدان هاملت عقله وأنت أول من يعرف السبب.

يرمقي القاتل بحقد:

- ما دخلك أنت؟ أنا حر أقتل من أشاء وأتزوج من أشاء.

يقرب روزنكراتز وقيلدنسترن رأسيهما من الملك يهيسان في أذنه.

- من الأحسن يا صاحب الجلالة ألا ترد على هذا الصعلوك القادم علينا من قصة أخرى ومن مستوى آخر لعالمنا، فهو معارض وكل المعارضين للسلطة بقلبه مرض.

إنها اللعنة التي تلاحق حكام كل زمان ومكان. هم لا يتعاملون إلا مع مقري أو منطلق أما الصديق الصدوق فملتزم الصمت لفهمه عبث كل نصيحة.

يعرض عني الملك بوجهه راسما على ملامحه ما يقدر عليه من علامات الاحتقار. جرحته وهذا المهيم. ترمقتي الولية امرأته باستهجان، فأغتنم الفرصة لأسمعها رأيي دون خوف، وملقي بخصوص سبب السلطات العليا زاخر، ولا تُصيرني قضبة إضافية.

- كيف لا يُجنُّ هاملت زيادة عن الجنون الطبيعي للأدميين! أي إسن أو جان يستطيع المحافظة على معنوياته وأمه قتلته والذة وتنام في فراشه مع شريكها في الجريمة! امش، يلغن أبوك يا قحبة.

يواجهني الممثلون باستنكار مفتعل: يا رجل كفت عنا أنك وبداءة لسانك. ألا ترى أنك تشوش علينا. نحذرك من التمادي في هذا التدخل السافر في شؤوننا.

يا لخبية الأمل وأنا أرى بينهم هاملت وحتى أوفيليا حبيبته الطاهرة. كأنهما طعنا في الظهر الفارس المغوار الذي هب لنصرتهم. لكن جحود الأدميين ونكرانهم للجميل أمر عاد، يكرمون اللئيم ويتمردون على كل كريم مذُوجوا.

أجبل البصر حولي أقيم مدى تأييد القاعة لي وتقهمها لغضبي المشروع واستعدادها للدفاع عني إذا نشبت معركة عامة بين النظرة والممثلين. أفلجأ بهوء جيراني، ذلك لأن أطوار المشاهدة لم تخرج لحظة من فضاء خيالي ولو أخطأت التوقع لجزوني مباشرة إلى مركز الشرطة أو لمستشفى المجانين، ذلك المكان الذي يذهب إليه الأدميون عندما يخلطون بين الفضاءات المكونة لعلمهم.

*

ينتهي الجزء الأول من العرض. يخفي الممثلون وراء الستار تحت والبل من التصفيق. غريب والله أمر هؤلاء الناس. يصفقون للمرأة وهي ترجع لهم أبشع الصور عنهم تريهم بوضوح ما الذي يقدر عليهم من جشع ونفاق وكنب وخيانة وغدر!

يعبر جاري بصخب كبير هو الآخر عن بالغ رضاه بأداء الممثلين. التفت إليه باسمًا متدبًا:

- أنتصوّر! أخ يقتل أبا وينكح الولية امرأته! كل هنا من أجل سلطة زائلة!

ينظر إلى الرجل الأنيق بحذر. مؤكّد من مظهره أنه إطار كبير في شركة ما، يعمل ليل نهار لإرضاء رؤسائه ورفع الإنتاج القومي الخام، ومع هذا يأخذ الوقت للذهاب إلى المسرح لأنه ليس كيفية زملائه الأغبياء الذين يتوجهون من مكاتبهم مباشرة إلى الحانات. المسكين! سيموت ككل الجهلة والسكيرين، ككل الأجانب وأصيلي هذه المدينة.

يفتح برنامج السهرة يُشعرني أنه لا يتوي فتح نقاش مع غريب مشبوه.

من قال له إني لا أقوى الصمت؟

- يا لها من أخلاق! ثم أين احترام القانون؟ كم أنا متشوق إلى معرفة الخاتمة. هل تظن أن هاملت سينجح في الانتقام من عمه؟ بالمناسبة، من هو مؤلف هذه القصة التعيسة؟

- (بلهجة البعض عند كلامهم مع الأطفال والنساء): ألم تقرأ الاسم على اللافتة؟

- لم أنتبه. كنت أريد الهروب من المطر ودخول أية قاعة لفضاء السهرة. لَمَا رأيتُ طول الطيور قلت لنفسِي: لا بدَّ أنه عرضٌ جيّد، فلم لا أجرب؟ يا سيدي هل أنرتني مشكورا باسم مؤلف هذه المسرحية الركيكة؟

- المؤلّف وليام شكسبير "مون بون مسيو".

- وليام من؟

- (بنفاد صبر وشيء خفيف من التهكم):

شكسبير، شك-سبير. ألم تسمع عنه من قبل؟

أحدق في الفراغ مُطوّلا.

- فعلا سمعت هذا الاسم. أليس مؤلّف القصة التي عرضها العام الماضي في التلفزيون والتي وقعت أحداثها في مدينة إيطالية اسمها "فينيسيا"؟ زرتُ هذه المدينة شخصيا، لكنني وصلتُ إليها، وبختي كما تعرف، غداة فيضان لا يُصدّق أغرق كل شوارعها في وديان من الماء. هؤلاء الإيطاليون وقصصهم التي لا تنتهي عن "الفاندتا" والشرف الذي لا يُحفظ إلا وقد أريق على جوانبه الدم!

- (باحترار دون مسالحيق) شكسبير ليس إيطاليا "مون بون مسيو".

- صحيح ما أغباني، إنه دانماركي بالطبع.

- (بمرح مفاجئ والرجل يكتشف متعة الحديث مع هذا المتخلف القادم من وراء البحار)

ولا هو دانماركي رغم المسرحية، إنه إنجليزي "مون بون مسيو"

- ماله إذن ومشاكل الظليان والدنماركيين؟ أليس الأقربون أولى بالاهتمام؟

- (ببداية نفاذ الصبر) جُلّ مسرحياته عن مشاكل مواطنيه الإنجليز.

نعم، لكن عن نوع معيّن من الإنجليز... الذين يسكنون قصور شاهقة تشهد أروع القتل والانتحار بعد أن أرفقت أبطالها القضايا الفلسفية الكبرى من نوع "تكون أو لا تكون"... بصراحة أفضل أبطال تشيكراف ومشاعلم التي لا تتجاوز ما العشاء هذه الليلة، وهل ما زال هناك بعض الفونكا في الداتشا الألية إلى السقوط والتي يريد ابن الكلب بيعها قريبا دون أن يشغله مصير من خدموه خمسة وعشرين سنة.

- طمأننتي. على فكرة، هل سيكرّمه الجمهور في آخر العرض؟ في أي شرفة تظن أنه جالس؟

يحدق في الرجل بذهول. لا شك أنه قرّر أن يروي الطرفة، واختار من سيتفهم بها. كم أودّ سماع التحسينات التي سيضيفها والأوصاف التي سينكّم بها عليّ.

- "مون بون مسيو"، أخشى ألا يكون قادرا على استجماع رفاته فالرجل مات منذ قرون.

هذا الأدمي المحظوظ يُعرف اسم المؤلّف وجنسه وجنسيته، بل يعرف أنه مات منذ مدة لا يقترها بالضبط... لكن هل يعلم أن هناك خصومة متواصلة منذ قرون حول هويته الحقيقية، وهل هو الذي تجري بذكره الركيان أم أرسقراطي انجليزي كان يخشى على نفسه من الرقابة ومشاكلها المقررة؟ ... هل يعلم أن مقاطع كثيرة كتبها المؤلّف، أسقطت

من النصّ وأخرى تصرّف فيها الناثرون دون رخصة إلا من أنفسهم؟ ... هل يعلم أن قسًا أعاد صياغة نهاية المسرحية ليتمتع هو والمشاهدون بـ "هابي أنت"، وأنّ مراجعة النصوص وتزييفها قاعدة لم تُسلم منها حتى، بل قلّ خاصة، تلك التي تُرتّل في المعابد؟

ينهض الرجل من مقعده يدير لي ظهره بكل ما يقدر عليه من احتقار. إنها الاستراحة. الوقت الضائع... الوقت الضائع؟! بل هذه فرصة للتجول بين المتفرجين والانتباه لما لا أعيره عادة أدنى اهتمام.

ما الذي يمكن تسجيله في دفترتي الصغير عنهم وهم يتدافعون نحو المشرب لتتطلق الألسن بعد أن فرّض عليها أن تبقى حبيسة الأفواه أكثر من ساعة؟

أول ملاحظة أنهم تكلفوا ما تكلفوا من جهد ومال لحضور هذا "القداس" حتى يروا أنفسهم الأمانة بالسوء في مرآة الممثلين، حتى يروا أنهم ليسوا وحدهم ضحايا مقادير ظالمة، ليستمعوا إلى وعظ يواصل الذي يسمعون في المعابد الرسمية يؤكد على أهمية الالتزام بالوصايا العشر ووعاقب الاستخفاف بها.. بالجدوى المعروفة لوعظ المعابد والمسارح. لا علينا، هم وضعوا للحظة كل هذه الأمور الجديدة بين ظفرين. همهم هذه الدقائق المعودة ممارسة رياضتهم الروحية المفضلة: لشكوى من ظروف الرحلة، تحديدًا من "عزّ مضي، من حلول مُصيبة، من رحيل لشباب، من حبيبة خانت العهد، من عمر كله ألم، من تجارة في صراع هائل، من عذى غلت صيحتهم، من كَفّ ليس فيه درهم، من ليالي تجرّع العلقم، من دنيا يأتي إليها المرء مرغما ويغادرها مكرها؟".

من أين لنا حقّ الشكوى؟ ما الذي قُتّمنا لحياة أعطينا دون تقدير للمس والشم والسمع والذوق والنصر؟ ما الذي قُتّمنا لعالم أعطينا دون مقابل البحر والنهر والسهل والجبل وليل الصحراء؟ ما الذي قُتّمنا لكلّ من أعطونا دون من قصائد هم وموسيقاهم وعصارة أفكارهم ليسهلوا علينا الحياة والموت؟

موضوعهم المفضل الثاني رواية خصوماتهم التي لا تنتهي مع كل من يعيشون معهم. هذا الخصام الأزلي هو الذي يُعطينا في فضاء الجولان الحروب والانقلابات والإرهاب والشجاذ على الطريق العام ومشاكل الحياة الزوجية والطلاق وخطف الأطفال والنصب والسرقة والقتل بين الأحياب، جلّ العفن الذي يمكن طفيليات تُعرّف بالمحميين والقضاة وكثبة المحاكم والسجانين ومزوّجي الأخبار الوسخة، من الارتزاق الشريف.

أما في فضاء الخيال -بالأساس في الروايات البوليسية- فالمواضيع دوما حول من كره من ومن تأمر على من، ومن قتل من. هكذا تُعبّر العالم وأنت تسمع وأصواتهم تتصاعد من الشلح، من صفحات الكتب، من المسارح بالنقد والتجريح والتهكم والسب والشتم والإدانة والتهديد.

يقال أنهم يواصلون خصوماتهم حتى في فراش الزوجية. الليل هذا التلخيص لدراسة علمية كما نشرته صحافة اليوم: "وأشارت (الدراسة) إلى أن التمثل لحثل المرتبة الأولى على لائحة أكثر الممرستات العشر المسيبة لمشاحنات السرير في أوساط المتزوجين

البريطانيين، تلاه الشخير في المرتبة الثانية، ودرجة حرارة الجسم المختلفة في المرتبة الثالثة، واحتكار الغطاء في المرتبة الرابعة، والامتناع عن المعاشرة في المرتبة الخامسة. واحتل إخراج غازات البطن المرتبة السادسة، وعدم إطفاء ضوء غرفة النوم السابعة، ومشاهدة التلفزيون عند نوم الطرف الآخر في المرتبة الثامنة، والاختلاف على موعد الذهاب إلى النوم في المرتبة التاسعة، في حين جاء تقاسم السرير مع الحيوانات الأليفة في المرتبة العاشرة، الأخيرة.”

اللجنة! اللجنة! أضجرتموني بخصوصياتكم العنيفة، بخصوصياتكم السريالية، بخصوصياتكم المأساوية، بخصوصياتكم الدموية، بخصوصياتكم وأنتم أطفال في الخمسة وأنتم أطفال في الخمسين... كفوا عن خصوصياتكم بخصوص من ملك الحقيقة ومن يزال أسير الخطأ، من دان بالدين الصواب ومن يتخبط في أساطير الأولين، من الأجدر بالحكم ومن الأقدر على ممارسته.. كفى... أغربوا كلكم عن وجهي، لم أعد أتحنل المزيد من خصوصياتكم المقرفة... ماذا! استجيتم لدعائي! صدقتموني؟ مع من تريدون أن أتمتع بلذة المصالحة بعد أن تمعت بلذة الخصام؟

*

يرنّ الجرس منذراً بنهاية الاستراحة.

يجب العودة إلى مكاني ومواصلة افتعال الاهتمام بخصوصياتكم هملت وأم هملت وخطيبة هملت وجدّ أبوهم كلهم.

ها هي أوفيليا تركض في أروقة القصر تتتمم مرة لنفسها ومرة لتولول فحنت المسكينة عقلها.

- "حملوه على النعش عاري الوجه، هاي نون نوئي نوئي هاي نوئي، وعلى قبره تهاطل المطر دموعاً!!!"

يتوجه لارتس شقيق أوفيليا إلى السماء في قمة الاستنكار وقد أفقده الألم هو الآخر صوابه بانتظار أن يرحل بعقله.

- هل ترى هذا يا ربّ!؟

المسكين! لم يفهم بعد أن الربّ رأى هذا وأكثر لا يهيمه استنكار الأدمي لصمته وهو يعلم أن هذا الكائن هو في نفس الوقت أوفيليا الضحية البرينة وكلوديوس القادر على موبات يحمرّ منها وجه البليس.

لا يهنا الآن موقف الخالق من خليقته وهو موضوع شائك سنعود له لاحقاً. المهمّ صرخة لارتس وكيف أنها تختزل أهمّ ما في هذه المسرحية أي ما يعانيه الأدمي من آلام طوال الرحلة.

تتخصص المسرحية بكثير من الدقة عينات من هذه الآلام وخاصة أسبابها الخفية.

انظر آلام الملك القليل. هو ظلّ نفسه بمأمن من قانون أن كل الغنائم مكسب نضعه على قائمة ما سنخسر يوماً. مما يزيد في الوجع طريقة فقد ما نتوهم امتلاكه. بصرخ الشبح في

قمة الاستتكار: "في نومي وببد شقيق!! المسكين! ما زال مقتنعا أنه لو قُتل بطلا في حرب مقدسة لهان الموتُ أما أن يُسلب الحياة خيانةً وببئ شقيق فلا ثمّ لا.
تمعن في آلام الملك القاتل وعشيقته. الإشكالية هنا ثمن هذا الذي نحصل عليه يوما لنفدده يوما آخر. هو أغلب الحال شكل أو آخر من سلب الأرزاق أو سلب الأعراس أو سلب الأنفوس. من استطاع الوصول إلى غاياته عندما يتعلّق الأمر بالصراع على الملك والجاه دون عون من الشيطان؟ حتى أبسط الأشياء لها ثمن في هذا العالم التعيس. عزّت أمانة عن هذه المظلمة أحسن تعبير متنهّدة: كلّ ما أحبّ في هذه الحياة حرام ديناً أو محظور قانوناً أو يزيد في الوزن.

قراءة تكميلية لموضوع كوننا على الدوام كائنات مَوْجُوعَة مُوجِعة لتتصور عالمنا مبنيًا على شكل عملة وسكانها موزعون على طوايقها حسب ما شاءت طاولة القمار.

القاعدة الأولى: إصرار سكان الطبقات التحتية على الصعود إلى فوق، وإصرار من هم فوق على عدم النزول تحت. كلّ هذا لفناعة تُستبطن باكراً من قِبَل الجميع أنّ حدة الآلام تُجفّ مع العلوّ، والحال أن كل ما يتغير هو الديكور وملابس الممثلين. أسما في الطوابق التحتية، بدلة رخيصة في الوسطى، أجمل الحلّي والحل في العليا وهيكَل الآلام الذي غُطي بالأسما أو بالمجوهرات وحاد. ما أسخفه من صراع أخذَ جَلّ وقت رحلتي، والرهن" التمتّع " بنفس العذاب لكن في أعلى طوابق البناية.

القاعدة الثانية . يتعذب الملوك والأمراء في الطابق الأعلى كالعبيد والسوّقة في الدهاليز بنفس الآليات وإن اختلفت الظروف والرهانات.

فقدّر الأمي أنه لا يبني ذاته إلا بمحاكاة الآخر في كل شيء، ومنها أنه لا يشتهي إلا ما يشتهي هذا الآخر. هو يريد السلطة لتي يريد ويريد المجد الذي يريد ويريد الثروة التي يريد. هو لا يشتهي إلا ما نشتهي ونحن لا نشتهي إلا ما يشتهي وأغلب ما نشتهي كنا غير خاضع للاقتسام. كيف يمكننا تدبّر أمورنا في هذه الحالة؟ لا بدّ من الذات الأخرى لننسج على منوالها ولا بدّ من إزاحتها وهي تمنعنا من الشهوة التي أثارها في أنفسنا. هكذا تنطلق أولى بوادر الصراع الذي سيقودنا لكل ما نعاني منه على امتداد الرحلة، من غيرة وحسد وصراع وظلم. إنه العيب الهيكلي في طبيعتنا، الذي لم ولن تفلح في إصلاحه أو تجاوزه تربيةً أو فلسفةً أو ديناً أو سياسة.

اعتبر الصراع على السلطة. لا شيء يعرّفك بطبيعة الأميين وما يخفون من جشع وقسوة ومكر وانتهازية قدر رؤيتهم يتقاتلون للتمكّن منها.

كم من قصص يرويها التاريخ عن تخلص الابن من أبيه وتضحية الأم بابنها وقتل الأخ لأخيه وخيانة الصديق لصديقه وغدر الحليف بحليفه جرياً وراء هذه السلطة اللعينة!
طبعاً للأمر دوافع لا أقوى منها . أليست السلطة وخاصة السلطة المطلقة مشاركة الأدمي الربّ في أهم مميزاته ووظائفه أي التحكم في الحياة والموت؟

داخل ملف أحداثه ما زالت تتشكل في رحم المستقبل، على مكتبي مطلب عفو لمحكوم بالإعدام. بجرة قلم يمكن إيقاف هذا الألمي فجرا ليجرّ مرعوبا إلى المشنقة. وبجرة نفس القلم يمكن أن يعود قادرا على التوأم مجددا وهو لا يتربص كل لحظة صرير الباب. حدث ولا تسل عن قدرة دكتاتور نصف مجنون على الحكم بالإعدام على مئات الآلاف من البشر بجرة قلم وهو يستيقظ صباحا ليقرر إعلان الحرب .

المشكلة الثمن الباهظ الذي يجب دفعه للتمتع لحظة بهذه القنطرة.

وفي نفس الملف سأتهض من مكتبي والأزمة التي تصف بالبلاذ في أوجها أتأمل البحر وكأنني أراه لأخر مرة. تتدافع في الذاكرة صور كل الذين سكنوا قبلي هذه الهضبة التي تشرف على أحد أجمل مناظر العالم، صورة الملك الطيب الذي أعطاني ،يا؟ اسمه وكيف أخرجوه من قصر ليس بعيدا عن هذا القصر ليموت في المنفى مسموما صورة ذلك الملك المسكين الذي وُلّي بعده والذي أخرجوه هو أيضا ذات ليلة من قصره ليموت على حصير في أفقر بيت، صورة ذلك الذي أخرج الملك المسكين من القصر والذي أخرجه كبير حراسه ليموت بعد أكثر من عقد سجين بيته وحيدا مشيا. وصورة كبير الحراس الغدار الذي أخرجه الثورة بدوره ليفرّ جباناً ويموت منغيا.

داخل ذهن مستنفر إلى قصي حدّ لوعيه بتعاطم الأخطار سؤال واحد لا غير: ترى هل جاء دوري ليخزني لأحد من هذا المكان ملفوفا في خرق قدرة تفيض بنمي.

نعم للسلطة اغراء لا يقوم ولها أيضا ثمن فظيع رفض أكثر من أمي حكيم دفعه.

عن خبير في عادات الشعوب القديمة قوله إنه لما يموت ملك قرية من قرى كمبوديا في القرون الوسطى، كان كل رجل في عمر ووضع اجتماعي معين يهرب إلى الغابات خوفا من أن يوضع على العرش لعلمه أنه سيضحي به قربانا للآلهة في أول جفاف أو طوفان. في نفس السياق عن مؤرخ للتاريخ الإسلامي قوله إن قائدا عسكريا من المماليك وقع جزه جزا إلى العرش وهو يبكي لعلمه أنه سيذبح قريبا والقتال بين أمراء الحرب على هذا العرش اللعين لا يتوقف لحظة.

والآن ماذا أفعل وقد بدأ القرف من كل هذه القصة يؤثر أعصابي؟ لم لا أعود إلى مضايقة جاري؟

أهمس في أذن الرجل الجالس إلى جانبي الغارق في متعة الطفل والله تعيد عليه الحكاية التي يحب .

- ألا يثيرك يا مسيو نفاق الأدميين، وأن وراء شكواهم الدائمة إرادة متواصلة لخلق ما يتعون الهروب منه، أنهم لا ينتهون من مشكلة إلا وتنبهوا أمرهم لإيجاد أخرى، ناهيك عن سوء نيّتهم في حلّ تلك التي يتخبّطون فيها؟

- أرجوك، أرجوك يا مسيو !

كيف البقاء مستيقظا؟

يجب إعادة كتابة المسرحية على ذوق.

وفي فضاء خيالي يمسح أبو هلمت العرق المتساقط من جبينه. بقرّر أن يلعن الشيطان، أن يبعد عن ذهنه صورة أخيه جاثما بمؤخرته على عرشه وبصدره وببطنه على زوجته، ينعمان بالسلطة نهارا وبالجنس في فراشه ليلا.

يصرخ أمام جمهور يلعب الورق ويأكل السنديشات ويبصق البزير على الجيران آخر همه ما يقوله الشقي.

- آه منك أينها الهواجس المرعبة، تلاحقيني في التوم وفي البيضة، آه وآه وأهات!
يتوجه إليه روزنكر اتز أو قيلنستارن:

- يا جلالة الملك إن بعض الظنّ إثم، وبعض الأفكار مثل خلايا السرطان.

لا يسمع الملك ومتى سمع الناس صوت العقل خاصة إن كانوا ملوكا؟

يواصل الصراخ في الظلام: يا إلهي لن تسمح بهذا، أليس كذلك؟

لكن الرجل كهل خبير الحياة ويعلم أن الرب يسمح بهذا ويكثر. يتعمق فيه الشك وتعلو موجات القلق تكاد تغرق ما بقي له من سوي الإدراك. هنا ينزل من أعالي النص ملاكي ليحلّ كل مشاكلكم أيها المسكين.

تسمح الملكة جبين لاتعيس تصرخ فيه:

- أفق، تنفّس مليا يا حبيبي. لم أعرفك يوما بمثل هذا الشحوب. لا بدّ من دعوة أشهر أطباء المملكة وإقامة الصلوات وتقديم النذور. كم أكره أن أراك يا شقيق الروح ونور العينين في هذه الحالة، أسرعوا بلشراب السلاخ إلى الملك!

يحقّق الملك في الوجه الرقيق المحبّ العطوف المشرف عليه.

- أين قلبيل؟

- نسيت أنّه خرج الليلة بأمرك لمحاربة أعدائك؟ من حسن الحظّ أنّه لم يرك في هذه الحالة وإلا غادر في منتهى اللق.

يتنفس الملك الصعداء مصليا للعداء أن تزيد المعركة الرّبع في رقعة مملكته وأن يلاقي فيها أخوه وجه ربّه.

أن الأوان لأرسم كلمة خاتمة على ستار المسرح بالأسود الغليظ، والملك يغرق مع الملكة في قبلة مطوّلة، بينما يشيح هاملت برأسه مبتسما، وأوقليا تضع يدها أمام فمها تخفي ضحكة الصبايا المغرّبات بقصص الغرام ولو بين العجائز.

هيبات أن تسير الأمور بمثل هذه البساطة.

ها هو أبو هلمت يتخيّب داخل أفكار وصور لها مخالب وأنياب. أليست الأحلام رسائل ما وراء الغيب لتُنذّر وتُنبّه؟ من يضمن له أنّ شقيقه لن يجني من الحرب انتصارا يثير إعجاب الولية امرأته وأنها لا تمثّل عليه دور الزوجة الوفية.

الرجل عازم على تعذيب زوجته بشكوكه حتّى تكفه وتمله وتعاف جلده وتبدأ الحلم بذلك البطل المغوار الذي يعرض حياته للخطر من أجل هذا اللثيم. ها قد بدأت مخاوف الملك

تخرج من مخابئها لترسم ملامح الواقع وكأنها الصور التي يرميها الفنان على لوحته قبل البدء في التلوين. يُسقط في يدي والقصة تنزلق في المجرى الذي جاهدت لإخراجها منه. يا له من غيبٍ. بيّنا له بكلّ الوسائل أنّ امرأته تحبّه. أبعدنا شقيقه إلى الحرب حيث سيهلك المسكين الذي لم يفكر في الانقلاب إلا عشر مرات فقط وهذا أمر عادي جدا. ومع هذا يصرّ هذا الحمار على بلورة المأساة. هل يوجد كائن غير الأدمي لينتج السموم التي تهلكه؟ تعال يا ولد يا هاملت. لا مانع عندي أن تتمتع بكأبتك وأن تسير يوما بذكرها الركبان، لكن كل هذا التفاق حولها!

ألم تتفق مع عمك على قتل أبيك، عيب يا ولد، عيب. يمكن أن أغفر لك قتل الأب فكل أب يستأهل القتل على الأقل مرة أو مرتين، أما أن ترمي بأمك في فراش عمك فهذه مبالغة في الانتقام من العجوز البغوض.

وأنت الشبح! ألم تتفاهم مع الملكة لتترك هملت وعمه يُنفذان المؤامرة لعلمك أنك في بداية مرض "الزهايمر" وكنت تفضل الرحيل بهذه الكيفية الرومنطيقية على الموت عائنا في بولك وبرازك! حرام عليك ما فعلته بالمسكينين.

وأنت يا وليّة! كل هذا بسبب مَلِك من الخياطة والتطريز ورغبتك في تجربة منعشة ولو كانت لاذعة الألم.

هل اعتقدتم أيها الأغياء أنني لم أفهم تحالفكم ضدي في الفصل الأول.

هل كل هذا الصخب لمجرد إعصار كل ما تزخر به الذات من أحاسيس ومشاعر

لا يهتم لاسرّ فيها في اتجاه الخير أو الشر؟ أمن الممكن أن كل هذه المشاكل التي يقعها الأدميون هي لمجرد تنفّج هرمونات الإثارة في الدم لا غير؟ أليس الأدمي أفيون الأدمي وأيضا المنتهب والمنشط؟

نقطة الضعف الوحيدة في نظري هذه تلبس الأدميين خبثا مفرطا ونكاء مكيا فيلبا نادرا ما تجدهما. أنظر إلى أغليبتهم في بحثهم عن الحب والجنس والاعتراف والمكانة أو الثروة والسلطة. جلّ استراتيجياتهم بدائية، قليلة الفعالية، غير محكمة، غير محسوبة النتائج، كأنّ لا دور لها غير قيادتهم بخطى ثابتة باتجاه الاخفاقت التي يَضجّون بلاشكوى منها. ولأنّ التجربة لا تورث كلون الجلد، فبُك ستراهم يُكرّرون من جيل إلى جيل نفس الكوارث بثبات عجيب.

هذه مأساة لا ينفع فيها التهكم الأنيق. يجب نكها نكاً بلسخرية الفظة فالأدمي ليس فقط هاملت ولارتس وكلوديوس وأوفيليا أي الأدمي المبكي. هو أيضا هاريجون، تارتوف، جوردان وأرقان أي الأدمي المضحك كما شرّحه ميصع مسرحي عبقرى آخر اسمه موليار. إذن تُنخل هملنة تنتهي لأن الملك المقتول لم ينجب إلا بنتا ضيّعا صغيرة وحملها نمة كبيرة. تأخذ الأميرة بمقاليده القصة بما يعرف عن الإناث من فكر عملي وعدم تضييع الوقت في السفاسف الميتافيزيقية وخاصة في جنون مرهق ومُكلف لصنّاديق الضمان الاجتماعي.

تصرخ الملكة في زوجها القاتل: لا تشرب. تبتسم هاملتة وهي تتابع فعل السم في جسد الأم والعم.

يموت القاتلان فنترج هاملتة في نفس الليلة صديقتها أوفيليا.

تنويعه أخرى على نفس النغم.

تندلع مشادة بين بطلي هذه القصة التعيسة فتصرخ أوفيليا بصوت هستيري في هاملت:

- ماذا؟ ترفض أن تقتل والدي. كيف أكون بطلة تراجمدية إذن؟ تريد لي مكثا دونيا بين بطلات التراجمديا؟ أيرضيك أن تنتظر إلى جوليات من عليانها أو تقول أنتيجون إنني بطلة أحر زمل، لم يجدني الدهر أهلا لضرباتة؟

- ماذا فعل لي الرجل لأقتله وهو يقبل بز واجنا؟ ما رأيك في خصومة بسيطة؟

- أقول لن أرضى بأقل من القتل وتحذثني عن خصومة بسيطة من فوق!

- طيب. ما رأيك في لك؟ بصراحة أنا أفضل التخلص من حماتي.

- تريد قتل أمي يا مجرم. وتدعي أنك تحبني!

- يا سني لنقل خالتك، هل يكفيك هذا؟

تستغرق أوفيليا في تفكير متردد تقيس عمق الآلام التي ستحدثها خسارة الحالة.

تقرر رفض العرض لأن جوليات غريمتها الكبرى ستهازأ من قصتها وستبجح عليها بعق آلامها هي. تجهش بالبكاء الكاذب فيستسلم هاملت:

- طيب، سأقتل والدك لكن لا أريد مشاكل مع حماتي. يكفيني ما سألقى من مشاكل مع أخيك والمدعو شكسير الذي قد يلاحقني أمام القضاء بتهمة تخريب سمعته.

تعسا لقصص الأحميين، لا يغفر لنا كل ما نرتكب من أفعال وأقوال إلا اللحظات التي نضحك فيها من أنفسنا وقد اتضحت الحقيقة المرة، أننا كائنات مأساوية وهزلية بنفس القدر.

تقول وأصبعك مرفوع في وجهي في وضع مسرحي جميل: تستهزئ بما لا يجوز به الاستهزاء، تستكثر على البشر جدارتهم بشيء من الشفقة، من أعطاك الحق في الحديث عن آلامنا بهذا الشكل؟

ماذا تزمجر أيضا؟ إنني أهين ذاكرة كل أم انفطر قلبها حسرة على فظة كبد قتل في الحرب أو قضى نحبه على طاولة تعذيب قذرة. تمهل يا هذا في شكك المزمن في نوابي. لسئ ضد التعاطف مع البشر وخاصة مع نفسي، لكن ضد المبالغة فيه. صحيح ليس كل شيء قابل للهزل وكل ما يمس بالكرامة خط أحمر. نعم، هناك آلام حقيقية علينا احترامها بعدم جعلها مادة لسخرية شريرة، لكن شريطة ألا تصبح بضاعة نندأل بها على عالم لا يطيق أي نوع من الدلال.

شئنا أم لبينا السخرية أسرع تقنيات الفكر للفرز بين الصدق والزيف؛ ليست قابلية الفكر - أو الشخصية أو القضية أو العلاقة - للسخرية أصدق دليل على وجود خلل كبير فيها؟ لذلك كل ما هو قابل للسخرية لا بد أن يسخر منه، أي كانت حالة الفاناسة التي يحاط بها أو القوة الفجة لحمائته من الفضح.

أوف! أخيرا ماتت هاملت وماتت معه القتاتلان وكم من ممثل آخر ناهيك عن موت كاتب هذه المسرحية المضحكة المبكية.

يتقدّم الممثلون صفًا ولحدا يمسون بليدي بعضهم بعضا، ينحنون المرة تلو الأخرى أمام جمهور بالغ الرضا لا يكف عن التصفيق بل وفيه من يرفع عقيرته يصرخ برافو، برافو. يستغرق جاري هو الآخر في تصفيق مبالغ في حماسه مواصلا لعب دور الذواقة اللبيب الذي يتقر أكثر من أي أحد آخر قيمة هذه التمثيلية العظيمة. كل هذا الحساس الثقافي وهو مصرّ على مواصلة تجاهل المتخلف القادم من وراء البحار الواقف ببلاهة حذوه لا يصفق لأنه لم يفهم شيئا من المسرحية. وهذا المتخلف من وراء البحار أنميّ هو الآخر لا يقلّ آدمية عن جاره، ومن ثم مغاليتة لزهو بتفوقه الفكري على هذا الجاهل بالشرف لذي ناله وهو جالس لأكثر من ساعتين جنب أكبر فلاسفة ولحة دوز وصرحائها في الاتجاهات الأربع.

يشتدّ دويّ التصفيق فتداهمني خشية أن يعيد الممثلون كامل الفصل الأخير. من حسن الحظّ أن هذه العادة من اختصاص الموسيقيين وحدهم. لا يكفّ الممثلون عن افتعال الانصراف والرجوع يتسوّلون مزيدا من التصفيق. أخيرا يخفون عن الأنظار. توذّ أن ترى أين اخفقوا وماذا ما يجري وراء الستار؟

لن ترى إلا العادي والمبتذل في كل الكواليس، الفوضى، الصراخ والزعيق والهمس وبذء الكلام، الروائح الكريهة المنبعثة من الأجساد المبلّلة بالعرق والجوارب النتنة والسجانر الرخيصة، عمق البغضاء بين هاملت وأوفييليا وصراعهما المصوم على الأولوية وإعجاب الجماهير.

هاملت! المسكين مشغول بشبح الطرد من منزله لتأخره عن تسديد الديون وآخر ما يهمله الخمج الذي بمملكة الدنمرك، فشكلته حُبّه للشاذ لمدير الفرقة وخوفه من مرض "الايدز" الذي شخّص عنده مؤخرًا.

نفس الروائح والبذات والهجوم الصغيرة لو وضعتْ أنفك في كواليس الطب والسياسة والدين وكل ما تظنه فوق الظنون والشبهات.

في طريقي إلى البيت تتدافع الأفكار وصوت ساخر لا يكف عن الهمس دلخلي : أنتم الأدميون كانتات مضحكة في لحسن الأحوال مبكية في أسوأها وفي كلتي الحلتين لا مجال لحملك على محمل الجدّ.

ثلاث ساعات بأكملها في تأمل فشل الأدميين وتحلّ شكواهم منه من آلامهم أولى أسبابها! فهذا فشل في الحفاظ على ملكه، والآخر فشل في الحفاظ على ما غنم بالحيلة أو القوة، وذاك

فشل في الحفاظ على العقل أو الشرف أو الحب، والكل فشلوا في آخر المطاف في الحفاظ على حياتهم!

لماذا لا أصرخ فيهم جميعا مثل أنمي اسمه صمويل بكت: أفسلوا أكثر فأكثر. ربما لم نأت كلنا إلا لتحقيق أنجح فشل ممكن، فشل طموحت بالغة الصغر، فشل شهوات بالغة التقاهة، فشل رؤى بالغة السطحية، فشل معتقدات بالغة السذاجة، فشل خصومات بالغة العيث.

كم نحن مثيرون للشفقة... أو للازدراء عندما يكون المزاج في أوج سوداويته! ثلاث ساعات كان بوسعني استثمارها بكيفية أذكى. قراري النهائي: بما أن جلّ مسرحيات البشر عن فشلهم وألام هذا الفشل فلن أحضر مسرحية بعد اليوم إلا إذا تعهد الممثلون بأنهم لن ينبسوا ببنت شفة إلى نهايتها مكتفين بالتحديق في النظارة. حتى الأوبرا لن أدخلها إلا إذا اكتفى والمغنون بالابتسالم والجوق بعرض آلات الموسيقى دون التهديد بالعزف عليها. نعم لن أدخل قاعة سينما إلا التي يُعلم إشهارها أن المشاهدين بأمان من أي فيلم عن مآسي ومهازل الأدميين والثمن الذي يدفعون كله للتمتع سويعات في مقعد وثير بالظلام والصمت.

**

مدى ما يعنون لتعلم ما يفرض عليهم تمثيله من أدوار

أغرق في المقعد الوثير وأنا المشاهد الوحيد لتسجيل سينمائي عن تدريب نجل عن ترويض الممثلين لأداء أدوارهم.

تخرج أليرا من وراء الستار متوجهة بخطى ثلثتة نحو حبيبها دون جوان. كل المطلوب منها إلقاء جملة لا غير: جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك! لكن حبي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...
يبرز من وراء الستار المخرج يبادر بها ببرودة:

- ما هذه المشية؟ أذهبة أنت إلى الحلاق؟ أنت لا تدخلين مكانا عاديا للقاء عادي. أنت تتسارعين نحو حبيبك المهتد بغضب الله وكلك أمل في إنقاذه من الجحيم. شيء من الجدية يا امرأة!

تعود الممثلة إلى ما وراء الستار. تبرز منه كالجنّي من صمته متوجهة إلى دون جوان واليدان ممتكنتان إلى الأمام كأنها تتضرع.

يصرخ فيها المخرج:

- ما هذا التكلّف؟ ما هذه الحركات البهلوانية؟ هذا مسرح لا سيرك. أعيدي.

تبقى الممثلة بين عُدي ورواح من وراء الستار إلى نون جوان، ومن دون جوان إلى ما وراء الستار، ومشكلتها كيف تمشي بصفة مسرحية وطبيعية في آن واحد.
يواصل المخرج إبداء عدم رضاه. هي إما تهزول بكيفية مضحكة أو تتباطأ بكيفية أكثر اثاراً للسخرية. يصرخ فيها الرجل لا يخفي مله.

- ليس هكذا! ليس هكذا! أعيدي!

تعود المسكينة المرّة تلو الأخرى لتجريب كل أصناف المشي والهزولة والركض نحو دون جوان الغارق في الصمت.

- أعيدي. ليس هكذا. هل سنقضي السهرة كلها في مجرد تعليمك المشي!

يرضى المخرج أخيرا بطريقة الدخول. تعود الممثلة إلى جملتها غير واعية بما ينتظرها:
- جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك، لكن حبي اليوم له وحده. كم يسوؤني أن أعلم أنّ من أحببت يتعرّض لغضب الله. أتيت لتحذيرك والتوسل إليك لتفادي غضبا بدأت مؤشرا ته تتجمع.

ينفجر المخرج في وجهها.

- ما هذا! إلقاوك مثل ماء بركة أسنة. يجب أن يكون كالماء، متساقطا من السماء، منحدرًا من أعالي شلال، متسارعا في السواقي، متدفقا من الفورة. أعيدي من البداية.

تبلغ الممثلة ريقها:

- جنتك الليلية على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك!
لكن حثي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...
- كفى. كفى. هذا ليس كلاما تتوجه به عاشقة إلى معشوق، والرهائى إنقذاه من لعنة أبدية.
هذا تفسير نصّ. كئى أسمع النقاط التي تختم الجُمْل. يجب أن يكون للكلمات لوانٌ وروائح،
أن تكون التعبير عن المشاعر لا التأشير عليها.
قال أحدهم المخرجون نوعان من بريون أنفسهم الهة ومن هم على ثقة أنهم فعلا
الهة... ألا يريد كل مخرج تشكيل الذات على قياسه وإقامتها في الدور الذي يريد وإجبارها
على تأديته بالطريقة التي ترضيه.. ماذا لو كان الرب هو نفسه مخرجا مسرحيا.. المخرج
الأكبر !!

تبلغ المرأة ريقها: مجددا:

- جنتك الليلية على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك،
لكن حثي اليوم له وحده. و...
المخرج الآن على أهبة الاعتداء الجسدي على الممثلة، وهي بين يديه كالفأر بين مخالب
القط.

أي غرابة في الأمر وأنت لا تتعرض لاعتداء إلا وهو مرتب بخطك في تادية مقطوع
من نور في سيناريو ضببط قواعد قبل دخولك مسرح الحياة.

- ليس هكذا! ليس هكذا! تتصورين أن الفيرا الوعاء الذي يمكنك أن تمرري عبره مشاكلك
الشخصية لكنني غير مهتم البتة بمشاكلك الشخصية! أفيرا وحدها التي تهمني. ما هي
مشاعر أفيرا الان؟ هذه امرأة تعيش أقصى الألم وهي ترى للرجل الذي تحبه معرّضا
لعقاب إلهي رهيب. هذه امرأة تعيش أقصى الأمل لأنها ما زالت تتصور إمكانية إنقاذ دون
جوان من مصيره المحتوم. هذه امرأة مسكونة بالوقار والجلال بعد أن سكن الإيمان قلبها.
لكنها تعاني من تيكيت للضمير، من الشعور بالذنب لما اقرقت من حب لغير الله. أين
المشاعر الملتهبة؟ لا أرى منها شيئا. لا أشعر حتى أنك تشعرين!

تبدأ الممثلة في الشكوى تلمح إلى صداع طارئ ومرض داهم وضرورة إرجاء البروفات
لأسبوع المقبل. هيهلت. لا خيار للامي غير مواصلة تعلم الأدوار الإجبارية وفي
الظروف التي يقرها المخرج وحده.

يفتعل المروض القاسي نوبة عصبية تدخل ضمن أدواره هو.

- يا امرأة، قلّ لك كم من مرّة ليس هكذا!

إنه تصرف كل من يعلموننا أدوارنا: أكبر قدر من الطلب وأقل قدر من الرضا. هكذا
سيلاحظك على طول الطريق المرتب والحبيب والمنقسط والشرطي والقاضي والزبون
والتلميذ والناخب يصرخون فيك "ليس هكذا".

بماذا يمتلئ فضاء الأفكار؟ بفلسفة وأنبياء ودعاة يصرخون فيك ليس هكذا التفكير، ليس
هكذا التصرف، ليس هكذا الإيمان!

يصرخ "يا" رافعا عقيرته: اللعنة؛ ليس هكذا! ينفجر ضاحكا: ليس هكذا! يستشيط غضبا: ليس هكذا! ينتهد مطولا، يمسط جملته بما معناه: أرهقتني يا ولد، أصبنتي بالقرف والغثين، ليس هكذا!

كلنا ممثلون نتبع أوامر مخرج مخفي يصرخ فينا طول الوقت ليس هكذا، ليس هكذا !!! تُرى هل أضعتُ شيئا لدور الاين والاب والحبیب والمناضل الثوري، أم إن العالم مُحقّ وهو يصرخ فيّ باستمرار ليس هكذا، ليس هكذا؟ كم صعبة هي هذه الأدوار التي تُجبر على تعلّمها باكرا، كم هي شاقّة عسيرة على الفهم، على الاستيعاب، على التذكر، على الإلقاء، على الاستثارة بأعجاب النظارة!

كم من مرّة صرختُ أنا أيضا "ليس هكذا"، أحيانا مع أغرب الممثلين وفي أخطر التمثيليات.

يحقّق فيّ كبير الشرطة السريّة طويلا يظنّ أنني أول من سيحوّل اتجاه النظر:
- تكفي هذه المرّة بالاستجواب. أنذرك بما فيه الكفاية. لا تُجبرنا على المرور إلى الأمام الجنيّة.

يريد مني هذا المستخدم الخُضوع للتهديد، والغريزة عندي الهجوم على كلّ من يهددني!
لم يكن الرجل المخيف يهدّد في الفراغ.
هذه المرة يبدو أنني تجاوزت ما يسمونها الخطوط الحمر. يصبّب البوليسي المكلف بدور البشع مخزونه من الشتائم ثم يمرّ لصلب الموضوع قل لنا كل شيء. يحقّق فيّ زميله المكلف بدور الطيّب بلتسامة فيها تصنع التعطف. إنه الذي سأبكي في أحضانه مستجيبرا به من قسوة الآخر ومعتزفا له بكل شيء. هذان الغيّيل لا يعرفان أنني لا لكفت عن تقييم الأدوار التي يلاعيني ليأها الناس، بحسن الناقد المجرب، أبحث بلا كلل عن الجديد في ميدانٍ للأسف فيه القليل من الابتكار.

أرفع الصوت وأصبح الاتهام.
- ليس هكذا، ليس هكذا، أوف! أوف! ما زلتُم تمارسون تقاسم الأدوار بين الطيب والشرير؟
يا للمستوى! هذا كل ما تفعلون بضرائبنا!

أتوجه إلى المكلف بلعب دور الشرير، أمطره بوابل من الأسئلة عن هويته وعن يعرف من الجالدين وما هي آخر اتصالاته بهم ومن أعطوه التعليمات وما هي رتبهم داخل الجهاز، وما هي عناوينهم وأرقام هواتفهم.

يبتسم المكلف بدور الطيّب. مؤكّد أن طرفاة الوضعية جدّت لديه الانتباه. يفتح المكلف بدور الشرير فمه دهشة وأنا أمرّ لنصحه بعدم الإكثار من مخالطة الأشرار حتى لا يُفسدوا الطيبة التي تختفي وراء ملامح الغوريلا التي تشوّهه.

ينفجر الرجل في وجهي:
- أنا الذي ألقى الأسئلة. اعترف بكل شيء. هل تعلم أننا أخذنا كل الصور وأنت تقابل الإرهابيين. لنا وسائل لإجبارك على الاعتراف.

كأنّي أسمع لسن حاله يستعظني: لا تكن سمجا، أنت المتهم الخائف القلق الذي يجب أن يكذب محاولا إخفاء أسرار نعرف جُلّها، وأنا مفتش بوليس المخابرات المرعب الذي لا يرحم أحدا. برأس أمك العنّب دورك لألعب دوري وإلا فإنها الفوضى. نعم، لا بدّ من أن يلعب كلُّ دوره وإلا فإنها الفوضى. لكن من قال لهذا الممثل الرديء إنني لسْتُ المكلف بدور المحرّض عليها، هذه الفوضى التي يخشى ويكره، وهي أولى منطقات كل تجديد.

تمسح الممثلة نموها وقد بدت تفقد لسيطرة على أعصابها. يخرج من حلقها صوت مرتعش: جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله، ... يستشيط المخرج غضبا غير مقتعل:

- كفى! كفى! كفى! كم من مرة يجب أن أرّد لك أن ما يعنيني الألامّ الفيرا لا الألامك أنت، أعيدي، أعيدي!

المسكين! كم يتكلف من الجهد لإخراج مسرحية فيها عدد زهيد من الممثلين وكل واحد منهم لا يلعب إلا دورا واحدا في نفس الوقت. ماذا لو كان عليه لإخراج مسرحية الوجود برومته بكل هذا العدد الهائل من الممثلين المبتئين؟

تتلعث المرأة وقد جاءها اليقين أن الجوزاء أقرب إليها من الفوز بالدور.

- جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك، لكن حتّي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...

يعود المخرج للصراخ وقد أصبح شبه مقتنع أنه لا شيء يمكن انتظاره من هذه الغيبية. -ليس هكذا، ليس هكذا!

الممثلة الآن على قاب قوسين أو أدنى من نوبة هستيريا.

- كيف إذن؟ كيف إذن؟ كيف إذن؟

المشكلة أنه ليس للآدميين نموذج واحد ومتفق عليه لـ"كيف هو الهكنا" وإنما مقلبين تُنفس مقياسين ومقاييس تُشرّح لمقاييس هي الأخرى بحاجة إلى من يشرّحها. ماذا لو تدخلت في الموضوع لنجدة المسكينة أصرخ في المخرج: يا حيوان ليس هكذا الإخراج!

ربما شعر الرجل بما يعتمل داخل مشاهد صامت متزايد الاستنكار لما يفعله بامرأة على وشك الانهيار العصبي.

يتوقّف عن الصراخ ليلعب الآن دور المرّي الهادئ العطوف.

- أحسن الممثلين من يمثل ناسيا أنه يمثل. لا أرى شيئا من هذا القبيل. حاولي مرة أخرى تهدأ المسكينة. آخر محاولة.

- جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي، لكم أحببتك لكن حتّي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...

انتهت استراتيجية الطيبة. يجب العودة إلى نور البوليس الشرير.

- لا، لا، الرحمة، ليس هكذا! النجدة، ليس هكذا! اللعنة، ليس هكذا!!
هُم المخرج اعتصارُ أقصى الألم والرقّة والحَبّ والتهيّب والرجاء من ذاتٍ مُشبعة بكل هذه المشاعر، عاجزة عن الإقصاص عنها.
- كوني على أشدّ الوعي بخطورة المرحلة. إنّه نون جوان الرجل الذي أحببت وهو مهتدّ بالعقاب الإلهي. يجب أن يضحّ كلامك بكل الممكن من الإخلاص والفرح والرجاء والتوسّل. ربّما أمكن إنقاذه لاشيء إلا لأنّ نبرة ما في كلامك أصليته في الصميم. قد يتخذ طريقه وجهة أخرى لمجرّد عو نبرة أو تهذج صوت.
تعود المرأة لتزديد الجملة اللعينة على وشك الانفجار باكينة
- جنتك الليلية على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك لكن حَبّي اليوم..

- كفى. ألم ألفيرا بلا حياة أو تكلف، ألم م-طل-ق. لا وجود لشيء كهذا في الإلقاء!
يتوقّف المخرج عن تعذيب الممثلة. يرفع وجهه إلى السماء. تسكنه ألفيرا بعد فشلها المتتابع في تقمص الممثلة.

يخرج من حلقه صوتا غريبا كأنه حيوان تحت سكين الجزار.
- جنتك الليلية على عجل، أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي، لكم...
خصائص المعجزة، معجزة التمثيل. تبخرت ذات المخرج لتترك المكان أخيرا لذات ألفيرا.
تتفكّ الكلمات بلا نقل أو فواصل. يطو الصوت ليبلغ دويّ الماء وهو يتساقط من علو الشلال ثم يتسارع في السواقي وهو خريبر. نعم ما أغرب هذه القدرة التي تمكّن الأدمي من الخروج من جلده للدخول في جلد شخص آخر وتقمص شخصيته كما لو كان الأمر بسبولة استبدال قميص بقميص أو الخروج من بيت لدخول آخر!
يخرج المخرج من حالة التقمص العجيبة هذه لاهنا ماسحا عرقه. يتوجه بلطف إلى الممثلة المنبهرة:

- دور الممثل أن يتشكّل كفراغ ليتملئ بالآخر. أفرغي من ذاتك. افتحي الأبواب، لينطق اللاوعي فيك، ليحلّ فيك ال...!

ليحلّ فيك؟ ليحلّ فيكمين، أو ماذا؟ قتح ذواتنا ليحلّ فينا؟ الطول؟ اليس هذا المفهوم

المركزي في الرواية التي توصف بالصوفية!

الانتباه هنا للمعنيين لكلمة التمثيل. ثمة الممثل بمفهوم المسرح..والممثل بمفهوم الدبلوماسية. هل نمثل بالمعنيين للكلمة؟

إذا اعتبرنا التمثيل بمعناه المسرحي، يكون السؤال لماذا حكم على الأدمي بأن يمثل أدوارا ليست من اختياره ويشقى طيلة حياته لتعلمها؟

إذا اعتبرنا المعنى الدبلوماسي، السؤال هو من هذا الذي نمثل ونحن نلعب أدوارنا والذي يجب أن نفتح له اللاوعي لينطق فينا؟

**

أدوارهم المفضلة وما تكشف عن كبرى التحديات التي يواجهون

المخرج الآن آدمي اسمه زي.أمي. ترى ما الذي سيضيف لكل من حاولوا فهم من نكون ولماذا هذه الحالة المضحكة المبكية التي نحن عليها؟

تتصاعد من جانب قصي من المسرح الصغير أصوات الناي والكمان والطلبة. يصعد الممثل على الخشبة. يضع على وجهه قناع راهب عايش القصة الحقيقية للآدمي بل ويعرف كل التفاصيل.

يتوجه إلى مشاهدين كلٌّ على رؤوسهم الطير.

- سادتي الكرام، انتهى بي الطريق إلى بيت موحش في أعماق غابة مقفرة. خلته مهجورا فعزمت على قضاء الليلة فيه. فجأة برز لي من الظلام ساكن المكان.

يتوقف الممثل ليخلع قناع الراهب. يلبس قناع ساكن المكان متقمصا شخصيته ومتوجها إلى نفسه.

- ما الذي أتى بك أيها الغريب؟

ثم يخلع قناع صاحب المكان ليلبس قناع الراهب عائدا إلى شخصيته الأولى.

- يا رب البيت، أنا مسافر قادم من بداية الزمن والطريق أمامي ما زال طويلا.

مواصلة استبدال القناعين والانتقل من الدور إلى الآخر، من الشخصية الأولى إلى الثانية.

- وما الذي حملك على تكلف هذه المشقة؟

- فترُّ كل آدمي أن يظن ما شيا إلى أن تخور قواه، وإلا توقف به الطريق.

- ولماذا لا يقعد على مؤخرته ساكنا لا يزحج نفسه أو أحدا؟

- لأن الطريق هو الذي سيتحرك به، فمن الأحسن أن يبادر هو.

- كفي وقاحة. قل ما الذي أتى بك إلي؟

- الصنفة، يا صاحب هذا المكان.

- لا وجود لشيء من هذا القبيل. قل الحقيقة وإلا أزهدت روحك.

الممثل لابسا قناع الراهب متوجها إلى النظرة المنبهرين: هنا تملكني الخوف. قلت في نفسي: لئى كانت طبيعة هذا الكائن فلا بد أنه ككل الكائنات مغرور معجب بنفسه. لم لا ألعب على هذا الوتر؟ قد يكون المخرج الوحيد من الورطة. توجهت إليه قائلا: يا سيد هذا المكان، كم سمعت عن علمك وحكمتك وأنت تعرف أسرار العلم المرئي والعالم المخفي، فطمعت أن أسمع منك الرواية، للرواية الصحيحة لما حدث بالضبط لآدمي يحمل سرا لي حاجة ماسة إلى معرفته.

إنه ملك قتل شقيقه واستولى على ملكه وزوجته، فجرت ابن أخيه وجئت خطيبته. يقال إن فظاعة جريمته أدت به هو الآخر للجنون. كثيرون يعتقدون أنه فر من القصر واستجار بهذه الغاية ولم يخرج منها أبدا. ثمّة من يدعي إنه تستك في بعض كهوفها. ثمّة من يقول

إنه ما زال يدور في أدغالها باحثاً عن شفاء لروح. كم من أقاويل وشائعات أخرى لا تُشفى غليلي! إنني أجري وراء الرجل منذ زمنٍ عليّ أظفر به لأسأله الخبر اليقين. قد يكون مظلوماً. قد تكون الروايات التي تُشاع عنه محض افتراء. ربّما هو الضحية وليس الجالد، ربّما لجرائمه ظروفٌ تخفيف. لا بدّ أن أعلم من هو وإلا رحلتُ وبصدري حرقّة السؤال، وأنت الوحيد القادر على شفاء غليلي.

يواصل الراهب روايته همسا.

- توقفتُ عن الكلام أنظر ردّ الفعل. كأنني أعملتُ المفتاح المناسب في القفل. أجايني صاحب المكن بصوت فيه غلالة من الحزن.

- اعلم أيّها المسافر أنني مثلك أبحث عنه من قديم الزمان.

- هل وجدته؟

- نعم

- أين هو؟ كيف هو؟

- تمالك نفسك يا هذا واسمع مني الخبر اليقين عن المسكين.

يبدأ صاحب المكان رواية قصة غواية الشقيق لزوجة شقيقه وكيف تفاهما على تسميم الملك ثم كيف اكتشف الأرق والحزن والخوف وتبكيه الضمير وكيف استحالته حياته جحيما وكلّ الأعين تلاحقه في النوم وفي اليقظة.

كل القصة بكل التفاصيل، بأدقها.

هنا يتبادر الشك إلى كل المشاهدين. إنه يعرف تفاصيل التفاصيل. ثم لماذا يجاهد لإخفاء تأثيره. هذه ليست تصرفات شخص بحكي قصة وقتت لغيره. هل يكون صاحب المكان هو...؟ نعم، لا يمكن أن يكون إلا هو. طبعاً إنه هو.

يشدّ القرع على الطبل والنفخ في الناي.

فجأة يقفز على خشبة المسرح رجلٌ من الدهماء. يتوجّه إلى النظرة صارخاً: لا تصدّقوا حرفاً واحداً مما يقول هذا الرجل. قصته سخيفة وروايتها بهذه الكيفية تزيدها سخافة على سخافة. كل هذا تمثيلٌ من أردأ صنف.

يجب التوقف طويلاً عند صراخ هذا المزجج الذي قطع علينا لحظات ممتعة ونحن نتجول داخل الدهاليز المظلمة للذات الأخرى بلا خوف أو حرج.

ماذا يقول؟ القصة سخيفة! كل هذا تمثيل بل من أردأ صنف! ما الذي يقصد بمثل هذه التهمة الخطيرة؟ أترأه يوحى بلنا كلنا ممثلون، أننا طول الوقت ممثل - حتى لا نقول - ندجّل على أنفسنا وعلى الآخرين وأننا أغلب الوقت ممثلون على قدر كبير من الرداءة؟

يبدأ الممثل في الانسحاب ووراءه المهرج.

مهلاً أنت الممثل. ما زلنا بحاجة إلى خدمتك. أثرت اهتمامنا بفكرة ليس قناع الدور على الركح ثم خلبه لتقتص دور آخر. تفضّل والبس أقنعة أهمّ الأدوار التي يمثلها الأسمى والتي

تتردد من جبل لجبل بثبات مُلفت للانتباه. أما أنت المكلف بالصراخ لا تصنعوا شيئاً،
الرّم مكثك سنستدعيك كلما تمكّن منا التبلد من جديد.

يلبس الراهب قناع روبنسون كريزوي ثم يبدأ بالإلقاء وبه شيء من الارتباك:
يا سادة يا أفاضل أفقت لا أدري من أي حلم لأجد نفسي اتخبط وسط المحيط والعاصفة
تزار كأنها وحش يريد التهامي. ولحظة خلت أنتي على وشك الموت وجدت نفسي مرميا
على الشاطئ دفعتني إليه الأمواج العاتية. ومن يومها وأنا تائه في هذه الجزيرة المنسية من
كتب الجغرافيا أتدبر قوتي كل يوم مما تجود به الطبيعة وانتظر الخلاص من سفينة قد تمر
يوما وتخرجني من هذه الوحشة القاتلة...

فجأة يقفز على خشبة المسرح رجلّ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: لا تصنقوا حرفا
واحدا مما يقول هذا الأدمي. لا عاصفة رمته في هذه الجزيرة... هو الذي جاءها طوعا.
يلعب الراهب قناع روبنسون كريزوي ليلبس قناع سيجموند.

ثم يبدأ في الإلقاء الحزين: أخيرا بعد طول التشرد في الغلب الموجش الخطر للجزيرة
المنسية من الآلهة أبصرت كوحًا قلت قد أجد فيه أخيرا ملجأ يحميني من الموت الذي
يركض ورائي. فتحت لي سيجليند الباب. إنها الأخت التي فقدتها والحبيبة التي ستحمل
قريبا طفلي في أحشائها. ترددت لحظة في الدخول. صرخت في وجه المرأة: الشقاء
يلاحقني، أخشى على هذا البيت من دخوله معي.

يلعب الممثل قناع سيجموند ليلبس قناع سيجليند.
تصرخ سيجلند: لا عليك، خَلّه هذا لشقاء اللعين قبلك ومنذ زمن طويل. أنه عالم لا مأمّن
فيه من الشقاء، لكنّ خارج هذا المكان أو داخله.

يقفز على خشبة المسرح رجلّ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: لا تصنقوا حرفا واحدا
مما يقول هذا الأدمي... للشقاء لم يوجد إلا بوجوده.
من الأفضل وقد تورطنا بمجيبنا هذا العالم الثبات والمواجهة.

يلعب الراهب قناع سيجليند ليلبس قناع سيكفريد ثم يأخذ في الصراخ.
الأدمي بطل لا يرهب لا القزم ميم ولا فأفرن التنين ولا حتى الربّ ووطن. هو أتى العالم
ليبتصر على كل المحن والامتحانات ومنها تحرير برونهيلد السجينة وراء ألسنة النار.

يقفز على خشبة المسرح رجلّ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: لا تصنقوا حرفا واحدا
مما يقول هذا الأدمي. إنها قصة أخرى سنتتهي كالمعتاد. بعد تحرير الأسيرة من نومها
السحري سيخونها وستخونه وستنتهي الأمور بمحرفة تقضي عليه وعليها وعلى الآلهة
أجمعين.

يلعب الراهب قناع سيكفريد ليلبس قناع موسى. يصرخ الممثل ملوحا بعصاه وتحت الإبط
اللوح المحفوظ الذي خطّ عليه بإفقيه بنفسه أو امره ونواهيه للجنس البشري: اسمعوا واطيعوا
وصاياي العشر.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: ما زلتم تصنقون خرافة وجود إله مهتم بكم فردا فردا ومشغول بمصيركم أفرادا وشعوبا! ولماذا لا ينشغل بكل غار نمل يتابع حسنتك وسيئات كل نملة ويقرر أي نملة ستنتهي في النار أو في جنة نعيمه... على كل حال ليحتفظ بوصاياهم لنفسه فالنسبة للآدمي في حالته الطبيعية أنه لا أكثر اثاره للشهوة من زوجة الأخ ولا الذم من سرقة حماره.

يرمي الراهب على الأرض غاضبا بقناع موسى يضع قناع القديس بولس مهللا فاتحا ذراعيه على الأقصى: ابشروا، الرب انتبه لوجودكم أخيرا بل وقرر أن يبعث بابنه الوحيد ليفدكم بنفسه ويخرجكم من الورطة التي وضعت فيها أنفسكم.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: قولوا له يحتفظ بابنه، لو كان هذا المنقذ قادرا على انقاذ شيء أو أحد لبدأ بإنقاذ نفسه من أشنع موت ممكن.

يخلع الراهب قناع القديس بولس ليلبس قناع الدكتور فوست. يصرخ الممثل: ما زلتم تنقون في الله بعد كل ما رأيتم من لامبالاته بالأمم وصلواتكم ونزورك؟ اسمعوني، لا صديق لكم إلا إبليس، تعالوا ارهنوا ارواحكم عنده كما فعلت.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: انتبهوا للفتح الشيطان ليس أكثر جدارة بلقمة من سيده.

يخلع الراهب قناع فوست ليلبس قناع ينجلو صارخا: انا ابن السماء لي الحق في مطلق السلطة والحرية والجنس لا أخضع للشيطان أو إله لا شيطان غيري ولا إله إلا أنا.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: لا تصدقوا هذا الدعي، إنه مجرد آدمي سينتهي نهاية محزنة لا تختلف في شيء عن نهاية رعاياه الذين ألف رؤيتهم بين ركوع وسجود.

يخلع الراهب قناع ينجلو -لي ليلبس قناع بوذا.

يبدأ الممثل خطبته بلهجة هذنة وربع إبسلمة تضيء وجهه يدعي أنه لا حل لمشاكلنا غير تنظيف شامل يكتس من كل أرجاء الذات غبار وقاذورات الطموح والطمع والغضب والحق. هكذا يستطيع الأدمي مواجهة ضربات العالم لا يرف له جفن وهو لا يبالي بسعادة أو شقاء، بنجاح أو إخفاق، ب حياة أو موت. إنه الانتصار بالضربة القاضية على الطمع والمطمع.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: انتصار؟ ونحن نبتز جزءا من ذاتنا؟ ليس الغضب والخوف والطمع وكل الموبقات التي تأتيها من ارتكابها لذة الإثم من خصائص هذه الذات وأنها لا تكون بدونها؟ أليس الوجود مبنيا على صراع الأضداد ومنها التي تعيش داخلنا؟

يخلع الراهب قناع بوذا ليلبس قناع المتنبي. يصرخ الممثل لا حل إلا الذي أمركم به " لا تُلَقَّ دَهْرُكَ إِلَّا غَيْرَ مُكْرَبٍ مَادَامَ يَصْحَبُ فِيهِ رَوْحُكَ الْبَيْتُ".

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ يتوجّه إلى النظارة صارخاً: لا تصدقوا حرقاً من هذا الدعي الآخر، لا أحد اشتكى من الدهر وسخط عليه وبكى منه مثل هذا الأدمي المعروف بجعجعته الفارغة.

يلخع الراهب قناع المتنبئ ليلبس قناع المغني سارج فانسبورغ. بعد حرق ورقة نقد غلمية الثمن يستعمل نارها لإشعال سيجارته ها هو يحول الصراخ بصوته المخمور: الرحلة عبثٌ محض فلنواجه عوثها بكل ما نقدر عليه من عبث مضاد. يقفز على خشبة المسرح رجل الدهماء صارخاً: إنه ممثل رديء آخر يحاول لعب دور البطل العدمي لا همّ له إلا إثارة الاهتمام باستفزازات مراقبين. الدور الأخير.

يلخع الراهب قناع المغني المهرج ليلبس قناع فراشة. يصرخ في النظارة المرهقين: حكموا عليّ بالمؤبد في جزيرة الشيطان، لكنني كنت أشطر منهم جميعاً، تدبرت أمري للفرار من ذلك الجحيم، افعلوا مثلي لا خيار لكم إلا بين الفرار والموت تغفنا.

يقفز على خشبة المسرح رجل الدهماء صارخاً: هذا عالم -أرخبيل كل جزره محتشد بجلور محتشدا لا فرار لكم من سجن إلا لسجن أقطع.

يرمي الراهب بغضب غير متكلف على خشب الركح آخر قناع ويبعث برجله اليمنى الأفتعة المتركمة على خشب الركح ثم يتوجه مباشرة لأقرب حانة يشرب السكي الى الصباح مع سكارى الحي.

أ يكون هذا الطيف الواسع لما يقدر عليه البشر من أفعال وتفاعلات لشرط الضروري لوجود الطيف الواسع للقصص التي نعيش والمسرحيات التي نمثل والأدوار الذي نلعب وكأن الهدف المخفي استكشاف كل إمكانيات الوجود آدمياً؟

**

أوكيف أنهم ينتظرون دوما شيئا أو أحدا والموت وحده من لا يخلف الميعاد

هذه الليلة يُزاح الستار عن مسرحية بالغة الشهرة ويقال إنها الأكثر عرضا في سجون البلدان التي يُسمح فيها بالمسرحيات داخل السجون والموضوع عنصر قارّ في أغلب قصص البشر: الانتظار.

الديكور: طاولة عرجاء وكُرسيان ليسا بأحسن حال. على الحائط إحدى لوحات دوارد هوبر، لنقل لوحة المرأة العارية الجالسة حذو النافذة تنتظر منذ زمن غير محدد شيئا أو أحدا.

يتواجه شخصان يقطع عليهما صمتهما الثقيل دخول راعي الماعز الصغير حاملا أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة.

- طلب مئى السيد فودو إبلاغكما أنه لن يأتي هذا المساء، لكنه سيأتي غدا بكل تأكيد. نفس الديكور لكن الليلة الموالية.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة.

- طلب مئى السيد فودو إبلاغكما أنه لن يأتي هذا المساء، غدا بكل تأكيد.

ليلة بعد ليلة بعد ليلة، ولا أثر للمعنى بالأمر.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة:

- طلب مئى السيد فودو أن أبلغكما أنه لن يأتي هذا المساء، غدا بكل تأكيد.

يصرخ المنتظر الأول في المنتظر الثاني.

- لنبتعد عن هذا المكان.

- لا نستطيع.

- لماذا؟

- لأننا سنضطرّ للرجوع غدا.

- لنفعل ماذا؟

-انتظر فودو.

كلّ الزمان توقف عند نفس المشهد.

على الركح يواصل راعي الماعز الصغير ترديد نفس الجملة الرهيبة: طلب مئى السيد

فودو إبلاغكما أنه لن يأتي هذا المساء ولكن غدا بكل تأكيد.

أتى أم لم يأتي، اهتمامي كله منصب على قاعة العرض. عندما ينحسر التبلد ويحضر

الانتباه تعني بأن أهم ما في المسرح ليس الممثلون وإنما النظارة وقلبة الأنظار يجب أن

تكون القاعة المكتظة لا ما يتحرك على الركح. كيف لا وأنت هنا في مكان جدّ خاص

سُحب من قائمة كل أماكن العلم التي لا تتحرك فيها إلا مصحوبا بكمّ يكبر أو يصغر من المنغصات والأخطار.

لا خوف هنا من تهطل المطر أو من زوبعة تلج أو من رياح رملية عاصفة.. حتى البعوض تمّ التخلص من أزعاجه بأدوية ومطهرات تحافظ على ما يسمونه النظافة.. لا خوف فيه أيضا من حيوانات كاسرة تنترصد. أما الأدميون فلا أحد يحمل باروكا أو مدفعا رشاشا ولا خوف أن تنشب بينهم خناقة يصفون فيها حساباتهم فيلطحون ثيابي بدمانهم وربما بدمي. هم كلهم في وضع مطمئن لا تخشى منهم ولا تخشى عليهم شيئا على الأقل طوال العرض. أغلبهم يعرفون أن المطلوب حضوره لن يحضر ومع ذلك فأعناقهم مشرّبة نحو الركح كأنهم ينتظرون معجزة تكذب ما يعرفون أصنق المعرفة. المساكين، كيف لا تحرك فيهم هذه المسرحية أعمق آمالهم.

كلهم ينتظرون أحدا أو حدثا... ثمة من ينتظر الثروة، أو الثورة، أو الشهرة، أو الشفاء، أو كشف الأسرار، أو البعث، أو وصول الحبيب، أو قدوم المخلص، أو المدينة الفاضلة، أو الحرية، أو الموت، أو "الساتوري"، أو الوحي، أو النبت... كلهم ينتظرون من العالم شيئا والعالم يسرّ فيمن يريد يسمع: بل لنا الذي نفذ صبره، طل انتظاري لما أريده منكم لا أراكم تفهمون.

يتكلف الصمت داخل القاعة كأن التوتّر بلغ قصاه. لم يعد الممثل الأول يتحمّل انتظارا عبثيا يدفعه شيئا فشيئا نحو الجنون:
- قلت لك إننا لم نكن هنا البارحة. لقد حلمنا كابوسا.
يجيبه رفيق بؤس الانتظار الخائب:
- وأين كنا البارحة حسب رأيك؟

- لا أعرف. في مكان آخر، في فضاء آخر. ليس الفراغ هو الذي ينقصنا.
- (بلهجة التحدي) لم نكن هنا البارحة، فما الذي فعلناه إذن؟
- ماذا فعلنا؟ لا نضيق وقتنا في حُطْب فارغة. لنفعل شيئا ما مادامت لأمنا فرصة. ليس كلّ يوم يحتاجوننا. ولو أنه من غير الصحيح أنهم يحتاجوننا. هناك آخرون يستطيعون القيام بالمهمة أحسن منا. لكنّ النداء الذي سمعناه موجه إلى البشرية جمعاء. في هذا المكان وفي هذه اللحظة، البشرية هي نحن. لنغتزم الفرصة قبل فوات الأوان، لنمثّل بكرامة ولو لمرة واحدة الجنس الذي حُشرنا فيه.

هذا الجنس الذي حُشرنا فيه! هل يقتر الرجل خطورة هذه المقولة؟ الجنس الذي حُشرنا فيه! الشكل الأدمي غلاف! من حُشرنا فيه، لأي غرض، وما شكلنا "الحقيقي" إذن؟
يتعمّق الصمت في القاعة والنظارة منخرطون أكثر من أي وقت في لعبة الانتظار.
يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوا خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السنيّة:
- طلب منّي السيد فودو إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.

ترى من هذا الذي لم يأت لحد الآن ولمانا هو يمثل هذه الأهمية؟ ما الذي ننتظر منه؟ أن يكون هو صاحب الوصفة السعدلة الأبدية التي لا عش فيها؟ أن يأتينا أخيرا بالترياق لواقى من الأوجاع ومن الموت؟ ربما أن يكون حامل الطرف المختوم بالشمع الأحمر ودخله هدف المهمة التي بعثنا من أجلها والأوامر الدقيقة والتعليمات الصارمة لتحقيقها؟

يصرخ الممثل الأول:

- فلنذهب في حل سبيلنا.

- نعم فلنذهب.

- وإذا جاء؟

- سنكون قد نجونا.

كم من معابد-مسارح تتوح بأجمل الأناشيد على مخلص حضر فعلا بعد طول الترقب لكنه صلب على خشبة ففرط الإنسان في فرصة ثمينة أخرى! ... كم من معابد مسارح تتغنى بمخلص سيأتي دون أدنى شك في آخر الزمان لتنتهي مأساة الأدمي! لكن كم من مرة جاء المخلص قام يواجهه ثم رحل ولا لحد انتبه لمجيئه أو لرحيله!

يعود الممثل الثاني إلى الصراخ: ماذا فعل هنا؟ مجددا السؤال الذي يلاحقنا ويلحقنا مهما اقتعلنا تجاهله.

- طلب مئي السيد فودو أن أبلغكما أنه لن يأتي هذا المساء، غدا بكل تأكيد.

كفى من هذه الجملة! المرء المقبلة ساتي بالطماطم المعطوبة. ما إن يفتح الممثل فمه بها حتى يتلقى واحدة منها، أو حتى بيضة إذا كررَها ثانية.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة مرددا:

طلب مئي السيد فودو أن أبلغكما أنه لن يأتي هذا المساء ولكن غدا بكل تأكيد.

يقول الأدمي لنفسه أو لئومعه في الشقاء:

- ماذا لو تخلينا عنه؟

- قد يعاقبنا.

ينظر إلى الشجرة مضيفا الشجرة وحدها الحية.

- نشنق أنفسنا. لديك حبل؟

- حزام البنطلون.

- إنّه قصير.

- تجذبني من القدمين.

- وأنا من يجذبني؟

أصبح صمت النظارة هو المثير لأعصابي.

ما الذي يدور بخلدهم؟ كيف يعيدون صياغة القصة في خيالهم؟ قد يكون للبعض قراءات تقترب من صياغتي أنا لهذه المسرحية ولكل ما شاهدت وعشت من مسرحيات والمنهجية الثابتة قلب كل كوميديا إلى تراجيديا وكل تراجيديا إلى كوميديا.

في فضاء خيالي ينظر الممثل الأول إلى ساعته غاضباً: يا ابن الكلب. لا أحبّ مَنْ لا يحترم المواعيد. إذا لم تتفصّل حالاً فسأتخذ صدك الإجراءات الضرورية. تنظلي الحيلة على فودو يفهم أنه خُشِر في الزاوية وأن من مصلحته البروز من مخبأه. يدخل على الممثلين كله ضحك وممازحة:

- هَلُو حبيبي، عفوا عن التأخير، هذه المواصلات اللعينة وفي أوقات للزحمة!
يستمر الممثل الأول. يفتح الثاني فمه ثم يغلقه. ينفجران بالضحك.

- فودو زوجتك؟

- بل زوجتك أنت.

- كيف؟ انظر إنها زوجتك بشواربها وظهرها المتقوس.

- يا رجل، إنها زوجتك أنت ببطنها المنتفخ وصدورها الضامر وشعرها المنفوش. وبحك خرفت إلى هذا الحدّ، فلم تُعد تعرف حتّى زوجتك.

تقول كلام لا يليق بمقام المؤلف والنظارة وخطورة الموضوع. طيب لنحاول الارتقاء إلى مستوى كل هذا.

ما رأيك في هذا المخرج؟

يدخل راعي الماعز الصغير مردداً: طلب ممي السيد فودو، ثم يتوقف عن الكلام وقد تملكه الرعب. يتوقف الممثلان عن ترديد المبتذلات المبتاهزبة ومنها المذكورة أعلاه، انتبها لزحف ظلام غير معهود السواد.

هنا يدوي صوت لمجهول: طلبت ممي الشمس أن أبلغكما أنها لن تأتي هذا الصباح، غدا بكل تأكيد،

(ضحكة شلمنة)

فقط للتذكير بأن أهم ما في الوجود يأتي دوماً في الموعد ولا أحد ينتبه، أن الأدمي يتمتع مجاناً وبدون صعوبة بالشمس والربيع والنوم. لكن متى أقتنعتُ معالي بالنعمة التي يتمتع بها وأنا أردد عليه قول الحكيم: “الصحة تاج على رأس الأصحاء لا يراه سوى المرضى”. لا أحد منهم رأى يوماً التاج الذي يحمله فوق رأسه، كلُّ همّه واهتمامه منصبان على ما لا يملك من توافه الأمور.

إمكانية أخرى: راعي الماعز الصغير هو فودو. كان يدخل كل مرة بالخبر يحذوه أمل عارم أن يتعرّف عليه أخيراً النظرة فيتسلقون الركح لرفعه على الأكتاف والخروج به يهزجون ويغنون الأناشيد الدينية في شوارع المدينة الجنلى.

آخر عرض: فودو هو عزرائيل، تصرخ في هذا كائن نهرب منه، لا ننتظره بكل شوق. صحيح إذن لم يبق إلا أن نسلج صاحب النص، وإذا رفض الاعتراف فيمكن أن نسلمه إلى المختصين في هذه الأمور ولنا -والحمد للشيطان- ما يكفي من الكفاءات في هذا الميدان الحساس. نعم، من هو فودو يا صامويل يا ابن بيكت وإلا لا نلّم إلا نفسك.
يأتي الرد الشهير: لو كنتُ أعلم لما بخلتُ عليكم بالردّ.

كاتب النص نفسه لا يعرف! مؤلفٌ خَلَقَ كائنين ورّطهما في مأساة لا نظير لها، لا يعرف

أو يدّعي أنه لا يعرف؟

تنتهي المسرحية.

ينهض النظارة الذين انتظروا إلى النهاية وصول المنقذ من الانتظار كأنّ على رؤوسهم

الطير والكل مقتنع في قرارة نفسه أنه أخلف موعدا بالغ الخطورة لأنه قصّر في شيء ما

لا يعرفه؟

هنا أسرع إلى باب الخروج والبسمة الهادئة تشع بنور الثقة مخاطبا المساكين: أنا أعرف

من هو فودو...أوصاني أن أقول لكم لا ضرورة لانتظار شيء أو أحد، فلسنا تانهين إلا في

أوهلمنا. أما المهمة التي جننا من أجلها والتي انتظرتم عبثا تأكيد ما تعرفون فهي "ماشية

"، بل وعلى أحسن ما يرام.

**

عن أي طبيعة بشرية يتحدّثون؟

قد لا توجد ظاهرة تطرح عليك كما ههنا من التحديات في فهم الأدميين والتعامل السليم معهم قدر التناقض الهائل في تصرفاتهم والتباين المدهش في مواقفهم وأنت ترى دوماً منهم:

صغيرٌ يطلبُ الكبراً	وشبيخٌ ودّ لو صغراً (العقاد)
وخالٍ يشتهي عملاً	وذو عملٍ به ضجراً
ورب المال في تعب	وفي تعب من افتقراً
وذو الأولاد مهمومٌ	وطالبهم قد انفقراً
ومن فقد الجمال شكى	وقد يشكو الذي نهراً
ويشقى المرء منهزماً	ولا يرتاح منتصراً
ويبغى المجد في لهفٍ	فإن يظفر به فتراً
شكاةً مالهم حكماً	سوى الخصمين إن حضراً
فهل حاروا مع الأقدار	أم هم حَيروا القدرأ

السؤال هل يوجد وراء كل التباين الذي يظهره الأدميون في أهم خصائصهم ما يوحد بينهم بغض النظر عن كونهم يولدون كلهم من أنثى ويموتون يوماً؟
بعبارة أخرى هل ثمة نواة صلبة تكون قاسماً مشتركاً بينهم رغم تعدديتهم العجيبة وهي التي يسمونها الطبيعة البشرية؟

عما نتحدّث؟

لنقل في مقاربة أولية أن هذه الطبيعة البشرية المقترضة في مفهومها السائد منظومة من الصفات المادية والنفسية لها ثلاث خصائص:

هي موجودة عند كل البشر وذلك أياً كان تباينهم في العرق والعمر والدين واللغة والوضع الاجتماعي. الضحك نموذجاً.

هي لا توجد إلا عند الأدميين وتميزهم عن بقية الكائنات الحية. التعذيب نموذجاً.
هي ثابتة تنتقل من جيل لآخر منذ عابر العصور دون تغيير يذكر. الكلام نموذجاً.
المشكلة أن هناك شرط آخر للحديث عن طبيعة الشيء أو طبيعة الكائن: التناغم.

مثلاً، من طبيعة الحديد كما يعرفها المختصون الذوبان إذا تعرض لحرارة تبلغ 1538 درجة. لكن أي استغراب سيتمكن منهم لو اكتشفوا أن الحديد يرفض الذوبان تارة إذا كانت درجة الحرارة 1600 درجة ولكنه يقبل بالذوبان تارة أخرى إن وُضع بضعة دقائق في الجليد.

في نفس السياق من طبيعة الغزالة أن تفرّ أمام السبع الذي يريد التهامها، لكن أن تفرّ منه مرة وتجاهله مرة ثانية وأحياناً أن تتجاهله بقربنها الصغيرين !!!

إنها الظاهرة المحيرة التي ترصدها وأنت تتفحص مواقف وتصرفات الأُميين في أغلب مجالات الحياة.

اعتبر أولى وأهم متطلبات الرحلة ومن ثم أولى الخصائص التي يجب أن تكون موجودة في كل مرتحل لمواجهة عالم حافل بالأخطار.

تكشف بلكرا أنك أمام نوعين من الأُميين.

ثمة الأدمي الذي يخرج رأسه بحذر من المخبأ الذي حط فيه، يصفعه عنف الألوان والأصوات والروائح وصخب الحركة وتنوع الأشكال، فيتراجع إلى الخلف مبهورا ومذعورا. ثم يخرج من جديد وقد استنارته الأساس القويّة، يدفعه الفضول ويشدّه الخوف. يتغلب عنده الفضول وكله نفاذ صبر وحتى تسرع في مغادرة الوكر. تنتفخ الذات زهوا وهي تنظر في عيني العالم تستفّر أنيابه ولا درع يحميها سوى الجرأة والتحدّي. ها هو الأدمي المغوار يمشي وسط الأعشاب العالية متحفزا يبحث عن الصيد وعن الأثني وعن العلم وعن المال وعن المجد وعن لذة الخطر وقد استبطن باكرا أنه بقدر ما تتعاطم الأخطار تتعاطم الغنائم، أنه لا بدّ "مع الشهد من إبر النحل"... وأحيانا تصبح الإبر آمنة من الشهد. لا شك أنّ مخطّط الرحلات سيكتب على هامش ملف كلّ مستكشف من هذه الطينة: يعين لمهمة أخرى في عالم أخطر.

لكن ثمة الأدمي الذي يخرج رأسه بحذر من المخبأ ليخضع بسرعة وقد فاجأه عنف الألوان والأصوات والروائح وأرعبه صخب الحركة. ثم يخرج من جديد يدفعه الفضول ويشدّه الخوف. ها هو على الطريق كالغزالة التي تركض وسط أعشاب عالية تنترصب داخلها الأسود.

همّ هذا النوع من المرتحلين العودة بأسرع وقت إلى الجحر والتمسك أطول وقت ممكن بطمأنينته. أحيانا يموتون بالخوف من شدّة خوفهم من الخوف، وفي كل الحالات هم يعبرون الوجود متألمين من فرط توقعهم أن تصيبهم الحياة كل لحظة بما يوجب... وهو ما لا يتخل عليهم به أبدا.

قد يشتم من كلامي أنني أفضل صنفا على صنف. أبدا، لالشيء إلا لصعوبة وجود النمذج النقيّة.

لنتفحص هذه الحالة التي نعجب بها أشد الإعجاب: الشجاعة. هي فضيلة مكتملة الأوصاف ظاهريا وموجودة كاملة عند أقلية. لكن لو دققت فيها لاكتشفت أنها أغلب الوقت عند الأكثرية خليط من العيوب كالتهور والمجازفة والخفة والبحث عن التصفيق ومحلاة الأبطال المزعمين.

والأن تمعن في مشاعر كل أدمي مغوار، وتجاوز صراخ النصر والتخويف، وستكتشف أنه يعاني من كل ما يعاني منه الأدمي الجبان، ذلك لأن الشجاعة ليست غيب الخوف أو اقتلاعه من الذات، والأمر مستحيل استحالة غياب أو اقتلاع الجوع والعطش. إنها فنّ إخفاء الخوف، وفي أحسن الحالات فنّ التغلب عليه.

أيا كان المزاج ثمة ضرورة قاهرة لفهم هذا العالم ورصد ثوابته وقوانينه للتعامل مع الأخطار التي يفيض بها والأمر رهن بالقدرة على تجنيد طاقة اسمها العقل. ها أنت كالعادة أمام توجيهين متباينين. الأول الأدمي العقلاني الواعي أنه تجاه العالم جاهلٌ عاجزٌ فيسعى إلى تجسير الهوة بالعلم والعمل. والثاني الأدمي اللاعقلاني الذي يختلق الأساطير ويجسّر الهوة بين الرغبة وتحقيقها بالسحر والصلاة. هنا أيضا يمكن للموقنين التجاور في نفس الشخص: نموذجا نيوتن الذي كان عالم فيزياء كبير وممارس مواظب للسحر.

اعتبر الآن كيف يتعاملون مع ما يواجههم العلم من مشاكل عادية وإلى أي مدى تتباين قدراتهم على اتخاذ المواقف الصحيحة التي يتطلبها الوضع. يقول ملاحظ حصيف في الشؤون الأدمية اسمه سيبولا أنه لا يمكن الحكم على الأدميين إلا بأفعالهم ونتائجها. من هذا المنظور لا يوجد على سطح الأرض إلا أربعة "أعراق أدمية": الذين تنتج أفعالهم المنفعة لهم ولغيرهم وهم العقلاء، الذين تنتج أفعالهم المنفعة لهم والمضرة لغيرهم وهم الأشرار، الذين تنتج أفعالهم المضرة لأنفسهم والمنفعة لغيرهم وهم الأغبياء، الذين لا تنتج أفعالهم إلا المضرة لهم ولغيرهم وهم الحمقى. وراء تصنيف سيبولا خير سيء وخير أسوأ. بماذا أبدا؟

الخبر السيء أن نسبة الحمقى والأغبياء هي نفسها بين النساء والرجال، بين المتحضرين والمتوحشين، بين الأدميين والحائزين على جائزة نوبل، بين الرعايا والحكام؛ أن الأنكباء لا يقرّون خطورة هذا النوع من البشر خاصة عندما يبنون في أدهانهم نماذج المدينة الفاضلة. الخبر الأسوأ أن لا شيء سيتغير في مستقبلنا "الزاهر" والتركيبة قلّة لا تقدر عليها تربية أو دين أو سياسة.

في نفس السياق للخليل بن أحمد رباعية أخرى تعكس بنفس التباين الموجود بين الأدميين وداخل نفس الأدمي وهو يمر من حالة لأخرى: "الناس أربعة، رجل يدري أنه يدري فذاك عالم فخذوا عنه، ورجل يدري وهو لا يدري أنه يدري فذاك ناس فذكروه، ورجل لا يدري وهو يدري أنه لا يدري فذاك طالب فعلموه، ورجل لا يدري أنه لا يدري فذاك أحمق فاجتنبوه".

"إن تعرف وأن تؤمن أنك لا تعرف... قصة الفضيلة (لاو تسو)

ألا تعرف شيئا وتؤمن أنك تعرف... مرض الناس"

أيا كانت الأفعال التي يأتيناها الأعميون وأيا كانت نتيجتها فهي دوما في خدمة هدف فار قد يعكس هذه النواة الصلبة المشتركة التي قد تكون طبيعتهم .

هم على اختلاف أصولهم العرقية والدينية والاجتماعية وتباين عاداتهم وتقاليدهم ومؤهلاتهم الذهنية لا يسعون إلا لتحقيق غاية واحدة : التحكم .

هم يجاهدون للتحكم في اجسادهم بمنع المرض وتأجيل الموت... للتحكم في ذواتهم يريدون نحتها لتقترب من مثال صنعه الخيال الفردي والجماعي... للتحكم في رفاق الطريق عليهم يكونوا مطية لا عقبة.. للتحكم فيما يسمونها الطبيعة ييغون تطويع امكانياتها في خدمة صالحهم.. للتحكم في العالم بوضعه داخل اطر فكرية مطمئنة تجعله مفهوما وقابلا للتحمل. هكذا خلقوا السحر والطب والعلم والتكنولوجيا والدين والسياسة والحرب والفن والتحليل النفسي، الخ، الخ.

كالعادة سترى الأعميين يتوزعون على طيف الظاهرة. في أقصى الطيف نجد العبد الذي لا يتحكم حتى في جسده. على الطرف الآخر تحكم الطاغية في شعب من الرعايا أو تحكم الشيخ في مريدة أو تحكم الغاسل في جثمان الفقيد.

بين النقطتين القصوتين كل درجات الفشل والنجاح في فرض الإرادة.

النتيجة عادة تسليم الأعميين يوما أن اجسادهم هي التي تتحكم فيهم وأنها هي التي تقرر متى تخرج من الخدمة... أن سلطتهم جد محدودة على ذات صنعنها قصص متقدمة على وجودهم وتواصل صقلها ظروف مستقلة عن ارادتهم... أنه يستحيل التحكم في بعضهم البعض وقد جُبلوا على الصراع الشرس والتنافس المزم... أن محاولة التحكم في طبيعة لا يفهمونها إلا بصفة سطحية خطأ الجهل وخطيئة الجشع وأنهم يدفعون ثمن تطاولهم عليها غالبا إن عاجلا وإن آجلا...

ثمة منهم من يعهدون لأخر محاولة قل لأخر حيلة للتحكم على الأقل في هذه الذات التي هي كل ما يملكون.

أنهم كل من تصوفوا أو تسحبوا داخل الأديرة والهدف التخلص من كل أشكال شهوة التحكم كشهوة المعرفة المطلقة أو التمتع المطلق بطيبات الحياة أو القدرة على فرض الإرادة على الذوات الأخرى والعالم برمته.

لكن أليس ما يحرك اعتزالهم وتنسكهم وصلواتهم للتخلص من شهوة التحكم، شهوة أعمق وهي شهوة التخلص من شهوة التحكم أي أنهم يدورون في حلقة مفرغة لا خروج منها بأي نوع من التنجيل على الذات؟

اعتبر الآن مزاجهم وهم دوما في مواجهة عالم لا يبخل عليهم لا بالعطايا ولا بالعصا.

تجد فصيل المثشائمين ونستطيع أن نعدّ من بينهم كل الذين سكنوا بعد أن بخت أصواتهم بلنقدم "الحتمي" وبلتحاق المتخلفين بالمتقدمين ويقرب عصور الحب والعدل والرخاء... كل الذين كفروا بما آمنوا به طوال حياتهم من قرب انتصاب ملكوت الله، كل الذين اكتشفوا أن لا الثورة قريبتنا من الهدف، لا الدين ولا العلم، كل الذين أيقنوا أن أغلب من عبروا هذا العالم استعانوا على أهواله بالخمير، بالأفيون، بمهدنات الأعصاب ولا شيء من كل هذا نفع يوماً، كل الذين سلموا بأن الأحداث، أو سوء الطالع، تدفع بنا نحو القطب المظلم من ذاتنا، كل الذين أيقنوا أننا لن نعرف طريقنا إلى الله في تجربة الحياة ولم يبق إلا تجربة الموت... كل الذين جعلوا شعارهم المثل الصربي: ماضينا مظلم وحاضرنا لا يُطاق، من حسن الحظُّ أن ليس لنا مستقبل.

ثمة فصيل المتفائلين ويمكن أن نعدّ من بينهم أبانواس و ألكسندر دوماس الأب والجالظ، وكلهم نماذج للأدبي الضاحك المضحك، المرح، الشره، النهمة، السكير، العاشق، المبدّر، السلخر، الوقح، المبسوط من وضعه، القابض على الحياة بكل نواجذه، المحب لها حبّ الأكل للدجاج المحمّر.

انهم المؤمنون بوجود كائن مشغول بمصير الأفراد ومهتمّ بهديتهم ويتكلف في ذلك الكثير من المشكل والتضحيات، منها بعثُ ابنه إليهم رغم علمه كيف سينتهي. كما هو الحال دوماً مع الأدميين تجد شيوخ تظنهم في حداد مزمن وهم يحتون في السرّ النكتة ورقصة البطن، بل منهم من يرقصها بلّقان، وهناك أيضاً كثير من المرحين ظاهرياً الذين يمارسون الكتابة السرية.

هذا ما يؤدي بنا لرصد صنف ثالث من الأدميين قلما ينتبه له المحللون: المثشائلون. موقف هؤلاء رفض التناؤم لعلمهم بكرم العالم وببلاهة اليأس منه ورفض التناؤل لعلمهم ببخل العالم وببلاهة التعويل عليه.

عن التباين في المزاج العام ينتج التباين في طريقة التعامل مع العالم ككل. ثمة الذي لا يُرضيه هذا العالم كما هو، المصرُّ على تخليصه من القسوة والقطاعة والقيح والظلم. مثل هذا الصنف في حربٍ لا تضرّ أوزارها أبداً لتغيير ما ليس قابلاً للتغيير، ومن ثم هو في حالة مزمنة من الحفيظة والضغينة تجاه من يرفض مساعيه الحميدة لوضع أفضل، بل يقاوم كلَّ خططه ويفشلها. لأن العالم لا يرضى عنّ هو سلطه عليه ولا يحبّ من يكرهه، فإنك ستراه يكيل الصاع صاعين لصالحنا مما يزيد من توتر أعصابه ومن احتقان علاقة متنازعة على الدوام. ها نحن في حلقة مفرغة من سوء نية متبادلة تُسمّ حياة الضيف وحياة مُضَيّف يزفر غيظاً من ثقل دم الزائر ومتنفسا الصعداء لحظة خلفه لروحه. وفي المقابل ثمة الأدمي غير المكترث وحتى غير المعني بكل ما يجعل نقيضه السدّج يبكي ويصرخ. لنقل حتى لا نتهمه ببلاهة الحسن إنه واع بأن العالم لم يُخلَق على مفاسه، وأنه اكتشف -بطول ممارسته له- أن الحكمة هي في إشاحة البصر عن الغائط والتركيز

على الورد. فرق هائل بين الصنفين فالأول عبء على ذاته، على الآخرين وعلى العلم، والثاني عابزٌ سبيل أنيق لا يُثقل كاهل أحد ولا حتى كاهله، يقبل بامتنان ما يوجد به عليه العالم الكريم ولا يُزعج العالم البخيل بالشكوى والشتم.

لقلنا إن يقول ماذا عن الثنائية التي تختزل أهم ما شغل بل الفلاسفة والأدباء والقضاة والمصلحين وشتى مشنقاتهم من ثوريين والمعتدلين أي ثنائية الخير والشرّ وما العنصر الغالب الذي يجب المراعاة عليه للتنبؤ بما سيؤول إليه مصير الأفراد والجنس البشري برمته.

كم من أمي ترك الحب على الغارب لغرائز الجنس والعنف والتسلط. نموذجاً لفيبا وهي تنفر الأعداء الواحد تلو الآخر، وتسمم الأقارب والأبعد، لتعبد طريق العرش لابنها تيبار الامبراطور الروماني الذي لم يترك موقفة جنسية إلا وتفطن فيها ومنها الفحشاء مع الرضع والأطفال وأمور أخرى لا تخطر ببال سوي. في المقابل تجد آدميين من أمثال المسيح ويودا ورابعة العدوية والأم تيريزا وغاندي. المشكلة أننا أمام النقطتين القصوتين لطيف واسع من تصرفات الخير والشرّ هو الذي يتحرك عليه أغلب البشر باستمرار وفي الاتجاهين. معنى هذا أننا لو عرفنا القصة الحقيقية للقيسات لقلّ إعجابنا بهنّ ولو عرفنا القصة الحقيقية للمومسات لما كان حكمنا عليهن بالصرامة المضمّنة في الكلمة المهينة. هل ثمة تفسير لكل هذا التعقيد؟

*

في فيلم غناني شهير يعرض أب متشرد سكير على البروفيسور هيجنز بيعه ابنته ليزا دوليتل بعشرة جنيهات حتى يجرب عليها نظريته في علم الكلام وربما أشياء أخرى. رداً على استنكار البروفيسور وهو يظنه يساوم المبلغ يصرخ الأب: امكانياتي المادية لا تسمح لي بأن أكون صلحاً أخلاق وأن أنزل تحت عشرة جنيه. ثمة إذن آدميون تسمح لهم إمكانياتهم وظروف عيشتهم بأن يكونوا أصحاب قيم عليا وفي المقابل ثمة من لا تسمح لهم إمكانياتهم بشيء من هذا القبيل، مما يدفعهم إلى أن يكونوا لصوصاً، قذرين، كذابين، مخادعين، مجرمين يبيعون بناتهم وحتى زوجاتهم. أسهل هذه الظروف الموضوعية رسداً تلك التي نصحها بالاجتماعية الاقتصادية. ولأننا في نصّ يشبه الحياة برحلة فلتتخيّل معي "قطارا" نعبّر به هذا العالم وفيه أربع درجات جد متبلّنة في كل ما يخص الرفاهة والأمان. الدرجة الأولى هي التي ترتحل فيها النساء الغنيات، ومعتل الحياة عندهن ثمانية عقود، منها سنة بصحة جيدة بفضل تمتعهن بالغذاء السليم والماء الزلال والهواء النقي والجنس النظيف والولادة المراقبة بخيرة الأطباء وتقاني الآخرين في السهر على رفاهتهن.

خلفين ترتيبا مباشرة رحلة الرجال الأغنياء لتمتعهم بنفس الظروف المادية والمعنوية ولو أنهم يعيشون أهل من نسانهم لبعض العادات السيئة مثل شره التدخين والقيادة بسرعة والطموح المكلف للقب.

القاسم المشترك بين رحالة الدرجة الأولى والثانية أنهم هم من يعطون الأوامر لا من يتلقونها، أن أغلبهم لم يروا الحرب إلا على شاشة التلفزيون وأنهم لم يعرفوا الجوع إلا أيام لصيام.

هم أيضا من يخترعون الداروينية الاجتماعية والليبرالية المتوحشة ويدعون أن الطبيعة، أو الله، خلق البشر غير أسوياء، وأنه يجب محاربة كل المخالفين للإرادة العليا بالتصت على هواتفهم وتعذيبهم في أقبية المخدرات وقطع أرزاقهم وجلدهم في الشوارع وضرب أعناقهم بعد صلاة الجمعة.

ثلث درجات "قطار" الرحلة هي التي تسفر فيها النساء الفقيرات. هنا تتعقد الأوضاع حيث لا تعيش المسكينات إلا بمعدل خمسين سنة أغلبها مسغبة وشقاء ومرضى نتيجة تفتير العالم بما جاد به على الأغنياء ذكورا وإناثا.

أين رحلتين حتى هنّ من رحلة الأثريين الذكور الفقراء رُكّب الدرجة الرابعة. هم لا يعيشون أكثر من أربعة عقود في أحسن الأحوال، ولا أحثثكم عما يعثون طوالها. هم من يأكلون الحشيش ويشربون الماء كدرا وطينا ويلبسون الأسمل ويسكنون مدن القصدير. هم من لا يعرفون طوال رحلتهم إلا السخرة في مناجم الملح ومزارع القطن، والطرده الجماعي لأسباب اقتصادية. هم من يكلون من فئات مائدة السدة أوقات الرخاء ويموتون في حروبهم أو في ملاعبهم، ولهم حقّ غير قابل للتصرف في قائمة طويلة من الأمراض تزايد على بعضها البعض في الشاعية وإلحاق ما لا يُصوّر من أصناف الوجع. إنهم من يخترعون الأدبيل والنقبات وحركات المقاومة والثورات الفاشلة منها والناجحة نسبيا. هم عادة من تصفهم اللغة (لغة الأثرياء من الرجال والنساء) بأنهم جهلة، قذرون، لصوص، مجرمون، أوباش، رعاع، عوام، إراهبيون ومخربون.

بداهة ثمة ظلم فلاح وراء هذا التنظيم لقللة المرتحلين.

هل طبيعة تنظيم المجتمع المتقدم على ولادتنا سبب وجود الظلم، أم هل أن وجود الظلم كمكون صلب ودائم للذات هو سبب تهيكل المجتمع على الحيف في توزيع ظروف الارتحال؟ .

لكاتب يدعى برنارد فربر رؤية تنتصر للاحتمال الأخير.

يلاحظ هذا الباحث الصحفي الآخر في الشؤون الأسمية أنك إذا وضعت سئة فنران في دهليز وضعت لهم كمية قليلة من الجبن خلف حواجز عدة، تفرض عليهم صراعا شرسا على الغذاء، فإن الوضع المحدد هذا يفرز بسرعة تنظيما يتشكل من سيّدين يستودان على جلّ الغنيمة، وعبدّين في خدمتهما، ومُتمرد، ومُتسوّل يعيش على الصدقة وفئات الآخرين.

المثير في التجربة أنك إذا جمعت سدة تأخذهم من عينات مختلفة، فإنهم يُعيدون نفس الهيكلية: سيدان وعبدان وتمرّد ومنتسول. إن أخذت سدة مستضعفين أو سدة متسولين من عينات مختلفة أفرزوا نفس التركيبة.

مما يعني أن التنظيم يعيد نفسه نوماً، كلٌ هناك إرادة قاهرة تأمر بذلك. لقاتل -اشتم مني سوء النية- أن يقول إن البشر ليسوا فترانا. ردي أن المدهش ما تُظهره الفتران من أوجه شبه عديدة بنا.

المهم أنه أصبح لنا مقيلٌ موضوعي لتقسيم الأميمين لا يتعلض مع ما نعرف وإنما على العكس يدعه. من يستطيع إنكل توزع الأميمين في كل مجتمع إلى سادة وعبيد وتمرّدين ومنتسولين؟

من ينكر سرعة عودة أي مجتمع قام بالثورة، إلى النموذج القديم وقد عاد المتسولون لتسولهم وأصبح فيه العبيد سادة يسومون رفاقهم القدامى نفس الخسف بانتظار موعد الثورة المقبلة، ولكل فصيل من العبيد طاقة معينة على الصبر، ولكل فصيل من السدة قدرة معينة على الإيذاء الموصول إلى التمرّد.

كل المجتمعات وأن تباينت تعقيداً و"تقدماً" مبنية على نفس النموذج ... الخرفان في المراعي والاسطبلات، النذاب في التكنات والقصور، الأسود في الغابات والسجون... والكل يتخبط في أوهام بيدها الزمان كما تبدد الشمس الضباب... أوهام الخرفان حول قرب وصول المسيح المخلص... أوهام النذاب حول نوامحال لا يدوم على حال... أوهام الأسود حول قدرتهم يوماً على الحكم دون أن يصبحوا بالضرورة أكبر النذاب.

أي عجب يمثل هذا التنظيم أن تتزاحم في الفضاء الرمزي دياناٌ سادة متسلطين وديانات عبيد متسولين وديانات ثوار تمرّدين؟

تعود إلى السطح إشكالية قديمة قدم الأميمين أنفسهم: هل هذا التنظيم المنكر نتيجة كوننا كائنات مسيرة أم هل نحن بما نظهره من قدرة الثورة عليه. وإن فشلنا أغلب الوقت - كائنات مخيرة؟

تجد كالعادة ما يثبت الرأي والرأي المعكس.

على ساحة المعركة جنديان بعد نهاية المجزرة يتجولان بين الجثث. فجأة يجد كل واحد منهما نفسه أمام عدوّ جريح.

هما من نفس الجيش ولهما نفس الموروث البيولوجي والثقافي. من المفروض إذن أن يكون لهما نفس التصرف. العكس هو الذي يحصل أغلب الوقت.

ترى من سيجهاز على العدو مستولياً على ما يستطيع سلبه ومن سيمد له بقرية الماء ليبال شقيقه؟

يستحيل على أي ملاحظ يتابع من الخارج تصرفات الجنديين التنبؤ بمن سيفضل هذا الخيار على ذلك؟

التجربة والنتيجة نفسها في أي ميدان أيا كان تشابه الوضع المحدد.

خذ أميا و صنعهُ في أفسى الظروف التي يمكن للرحلة أن تسلطها على مرتجل. اجعله منذ نعومة أظفاره محروما من الحنان من التشجيع من التثمين. عرّضه لأبشع أنواع الاعتداء الجسدي والنفسي.

لا أحد يعرف من سيصبح قاتلا بالجملة ومن سيصبح قديسا، من سنتحكم فيه غرائزه ومن سيتحكم فيها ؟

اعتبر الوضعية المعاكسة. خذ أميا آخر ووفر له منذ نعومة أظفاره كل متطلبات أسعد رحلة من حُب وتثمين ورفاهة وسلطان على نفسه وعلى الآخرين. من سيصبح ملاك رحمة ومن سيعش ويموت بليدا يرى فيما وَهَبته الحياة وَحَرَمَت منه الآخرين أمرا طبيعيا؟ بخصوص هذه الإشكالية ليسمح لي القارئ بالتوقف لحظة عند ظاهرة لم تأخذ في هذا النص حقا من الاهتمام والحل أنها أهم ما يميّز الأدميين عن باقي الكائنات الحية: الانتحار.

لا راعي حكى يوما أنه شاهد بأَم عينيه خروفا يخرج من القطيع ويتوجه لحافة هاوية ليلقي بنفسه في الفراغ وقد قَرَّر أن الحياة الخروفية غير جديرة بأن تعلى. كذلك لم يعرف أن بقره في اسطبل دخلت في اضراب جوع احتجاجا على تعسف صاحب المزرعة. في نفس السياق لا أحد أثبت أن شجرة أضرمت النار في اغصانها للاحتجاج على انتهاك حرمة الغابات.

وبانتظار معرفة هل ستتحرر أكثر أنواع الروبوتات تقمنا (ربما هذا ما سيرقص له مخترعوها طربا وقد أيقوا أنهم وصلوا لأعلى مراتب الخلق)، لا خيار أملكنا غير اعتبار الانتحار ميزة لا 'ينعم' بها إلا الجنس البشري.

توقّف على الصورة قبل أن يطلق الأدمي الرصاص على صدغه.

تخيّل معي كل رسائل هذا الراحل عنّا بوجهها لكل من يهمه ولا يهمه الأمر:

أنتِ الذات التي استعصى عليّ التحكم في شهواتها، لا سلطة لك عليّ بعد هذه اللحظة وقد قرّرت الغانك جملة وتقصيلا.

أنتِ العالم بكل اغراءاته التي قيّدني بها طوال رحلتك لأتحمل كل موبقاتك وقسوتك ولا مبالاة، احتفظ باغراءئك لم بعد لها عليّ أي سلطان.

أنتِ القوة المجهولة التي قررت متى تبدأ رحلتي. لن أترك لك قرار متى تنتهي لأنني أرفض مواصلة تجربة لا اقبل بتكلفتها ولم تعد تعينني لا أسبابها ولا أهدافها.

أنتم المؤمنون بهذه القوة، على حدائي ما تتوعدوني به من عقاب لتمردي هذا، لم اعرف من عقاب أشد من الارتحال معكم.

هل ثمة تحكّم فوق هذا التحكم والأدمي يتثبت ولو عبر ظاهرة رهيبه مثل الانتحار أنه أيضا كائن حرّ يقرر في آخر المطاف هل يواصل الرحلة أم يخرج من القفلة.

كل ما يمكن قوله لحد الآن أنه في غياب شرط التناغم لا يمكن أن نتحدث عن طبيعة آدمية ونحن أمام كائن تتعايش داخله الخاصية ونقيضها ومن ثمّ نصدق في وصفه إن قلنا

"الظلم في شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلمة لا يظلم" (المتنبي)
ونصدق في وصفه إن عارضنا الشاعر:
"العدل في شيم النفوس فإن تجد ذا زلة فلعلمة لا يعدل"
عن أي طبيعة بشرية يتحدثون إذن ونحن أملم كائن مثل وعاء يتجاور داخله الماء والنار
فلا يتبخر الماء ولا تنظفي النار!؟

**

أكثر الأسئلة حساسية عنهم

أنصت لجلّ صراخهم أطفالا وكهولا، ذكورا وإناثا، قراء وأغنياء، حكما ومحكومين، فلاسفة وأميين، الخ.

ثمة في صراخهم هذا دوما ركن قار هو شكل من التفاضل أي ادعاء قيمة أعلى من قيمة الأدمي الأخر.

هكذا تعبر العالم وأنت تسمع المرتحلين طوال الطريق يترشقون بأفضلية عرفهم ودينهم وحضارتهم ومجتمعهم ووطنهم وعائلاتهم وذواتهم على بقية المرتحلين. فولد يصرخ أنه من "شعب الله المختار" والآخر أنه من "خير أمة أخرجت للناس" وثالث أنه من "قوم كلّ نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظام"... الخ.

لا غرابة أن تخصص أمة بأكملها ركنًا قارا من أدبها لشعر الهجاء والفخر.

لا غرابة أيضا أن تحوم جلّ معاركهم في فضائي الفكر والخيال حول أحق الآلهة بالرؤية ومن أصدق الأنبياء وأحسن نظام للحكم وما هي الأيدولوجيا التي لا يأتيتها الباطل من خلفها وأمامها.

تراهم حتى وهم أباطرة وملوك وأمراء واثرياء وعلماء يبحثون دون توقف عن مزيد من رفع قيمتهم بتوسيع ما يتوفرون عليه من سلطة، من ثراء، من سمعة، من شعبية وشعارهم شعار النار وهي تلتهم كل ما يعترض طريقها: هل من مزيد!

هل هذا الهاجس عند الأدميين -أيا كان موضعهم من السلطة والثروة والاعتبار- نتيجة شك مؤلم بخصوص ما يسوون حقا مما يعني وجود شرح موجع داخل كل ذلك؟

حسب آدمي يدعى سان سيمون المقياس الموضوعي الوحيد للبت في قيمة الأدميين هو مكانتهم بالنسبة للعالم. ثمة الذين يؤتي اختفاؤهم إلى كارثة عظمى تلحق به و ثمة الذين يتواصل هذا العالم بلا أدنى تغيير لا يلحظ اختفاؤهم أكثر مما لحظ وجودهم.

تصوّر في مستوى عملي حالة مجتمعتنا لو أخطأ القدر فزكت يده ومحت من الوجود أطباء الأسنان والخبازين والموسيقيين وأعران النظافة البلدية، لا يبقى بيننا إلا جحافل من المخبرين والجلادين والإعلاميين المأجورين والسياسيين الفاسدين.

في معارضة جريئة لتصنيف سان سيمون سأقول إن التقسيم "الحقيقي" للأدميين هو بين الذين يجب أن ننوح عليهم إذا ماتوا والذين يجب أن ننوح عليهم لتواصلهم أحياء.

يمكنك -إن كنت في حالة متقدمة من سوء المزاج والنية كما هو حالي وأنا أكتب هذه لسطور- أن تصنفهم إلى قسمين: الأدميون الذين يتركون بعد موتهم لمبراطوريتك سياسية وامبراطوريات مالية وامبراطوريتك فكرية وامبراطوريات فنية والذين لا يتركون إلا بعض الأطنان من البراز -تصلح على الأقل سمدًا- وألف اللترات من البول وستين إلى

سبعين كيلوغرام من اللحم والشحم توفر لحسن الحظ غذاء مفيدا للذئب الأزرق ولأجناس مجهولة من الود والجرثيم.

والآن وقد استفدنا سوء مزاج يوم حافل بالمشاكل مع الأدميين يمكننا العودة للموضوع بالتساؤل عن مغزى الظاهرة نفسها.

نحن لا نتفق على فهم موحد لقيمة الأثنياء ولا على أدوات قياسها فكيف نتفق على مفهوم قيمة الأدمي أو بأية أدوات نقيسها؟

لنحاول ...

تصوّر أنك تنظر للأدميين المتزاحمين حولك في السلحاحات العمومية بعيني عالم الجيولوجيا أو الفك المنخرط في زمن يحسب بمئات الملايين من السنين.

أغض عينيك لتستحضر أنهم يتحركون على سطح كوكب هو في الكون مثل حبة رمل في صحاري مترامية الأطراف.

وسّع مجال مدينتك لتستحضر كم من أجناس حية تتابعت على هذا الكوكب طيلة الأربعمئة مليون سنة المنصرمة وكيف تبخرت لم تترك إلا رميما تفاخر به مناخنا.

حاول الآن تخيّل الثمانين مليار أدمي الذين يقال إنهم تتابعوا على سطحه منذ أكثر من ثلاثمئة ألف سنة أي العمر المقترض حاليا لبشرتنا.

والآن افتح عينيك وأعد التمعن في هؤلاء الأدميين الذين يتراكضون من حولك وستتبلور أول فكرة موضوعية عن قيمتهم.

بديهى أنه بمقياس طول الزمان وشساعة المكان والكم المربع من الأجناس والكائنات الحية الأدمية وغير الأدمية التي تتابعت وستتابع على سطح حبة الرمل التي نسكن، بجوز الحكم بأنه ليس للأدميين أدنى قيمة.

تجربة ذهنية ثانية للتمعن في المفهوم.

تصوّر الآن أنك تختار عينيّة من العقلاء والحمقى، وعينة أخرى من الذين يملكون أموال قارون ومن الذين لا يملكون إلا أسماهم، وعينة ثلثة من القديسين وعتاة المجرمين، أنك تضع العينات الثلاث من البشر في أكثر المختبرات العلمية تقدما ومؤشرات المقارنة ليست نوعية ملابسهم وثمان الساعات التي يحملون وإنما طبيعة أعضائهم وحالة الأنسجة والخلايا التي تكوّنهم وكيفية عمل أدمعتهم.

ستكتشف أنهم كلهم يمتلكون نفس الأعضاء العجيبة، نفس الخصائص المذهلة لأدمعتهم المثيرة لدهشة أكبر العلماء مهما اختلف ثمن الملابس التي يرتدون والساعات التي يحملون. أي ردّ تتوقع من الباحثين العلميين إن سألتهم هل للقديسين والأثرياء والعقلاء قيمة أكبر من قيمة المجرمين والمعدمين والأغبياء؟

كأنك في تشبيه آخر مثل مجوهراتي توضع أمامه زمردتان واحدة لفتت في خرقة فذرة وأخرى لا تختلف عنها في شيء لكنها لفتت في ورق ملون... ويسأل ساذج أي زمردة أعلى قيمة؟

إنّ بمقياس ما يولد به كل البشر من خصائص وصفات وطاقت، لست أرفع شأنًا من المتشرد المخمور الملقى على الرصيف ولست أقل شأنًا من أي سلطان جالس على عرشه..مما يعني أنه لكل الأدميين نفس القيمة.
التجربة الذهنية الأخيرة.

أنت أكبر عالم في ميدان المورثات التي تشكّل وصفاً صنع كل الكائنات ومنها البشر. بقدر ما تتوغل في دراسة هذه المكامن لأعرب الأسرار بقدر ما تستشعر أن العبقريّة المخفية التي صنعت الأدميين تدبّرت أمرها لكيلا يشبه آدمي آدميا آخر وهي تحرص على وجود ما يميزه عبر التفاصيل داخل التفاصيل في تكوينه البدني ولاحقا النفسي. حتى التوائم الذين ولدوا من نفس البويضة ومن نفس الرحم يتباينون في أكثر من خاصية. كذلك في أكبر معرض للوحات أعظم الفنانين وكل لوحة فريدة من نوعها. أي استنتاج آخر غير أنه لكل آدمي قيمة ليس فوقها قيمة.

الرجل الذي ضمّ يديه أملهى قائلا أنه يحيى المقدّس الذي في...كان لا يسخر مني !!!
ها أنت أمام مفارقة جديدة تضاف لكل ما رصدنا من مفارقات.

ما هذا الأدمي الذي يمكنه أن تكون تباعا أو في أن واحد الذي منه كل وحشة وكل نقمة وكل نعمة وكل نشوة...الممثل والمخرج والمتفرج في كل الأدوار الذي يلعب .. الذي لا قيمة له وله قيمة لا تضاهيها قيمة... الذي يجمع داخله كل المتناقضات الممكنة... الذي يتجلوور داخله الماء والنار فلا يتبخر الماء ولا تنطفئ النار ؟
كل هذه الغرابة ونحن لم نطرح بعد بخصوصه السؤال سيّد الأسئلة : سبب وجود كائن كهذا؟

**

الكتاب الخامس المهمّة

لا تشيخوا بأنظاركم عن هذا العالم الغارق في
الفوضى ومهما حدث واصلوا المشي وسط ضجيج
النشر وصخب الحياة.

كونفوشيوس

مقدمة الكتاب الخامس

يصل الطريق يوما إلى مدينة مكتظة في بلاد سيتا. أتوجه بمنتهى الأدب لأحد المارة.
- سيدي ماذا يفعل كل هؤلاء الناس هنا، طمّني أرجو أنني لست في انطلاقة مظاهر؟ أنا
مجرد زائر ولا أريد نفسي محشورا في صراعت طائفية أو سياسية لا ناقة لي فيها ولا
جمل.

يضحك الرجل:

- هذه ليست مظاهر، أنت أمام محطة قطارات مومباي وهؤلاء مسفرو يوم عادي، ماذا
لوجئت في الأعياد؟

تعود بي الذاكرة لدهشة طفل في الخامسة أو السادسة ذلك اليوم المشهود الذي أخذه فيه
والده في أول زيارة للمدينة الكبرى. يومها ألقى على الرجل بنفس بالسؤال.

- "يا" ماذا يفعل كل الناس هنا؟

نعم هل ثمة سؤال أهم من هذا السؤال أيا كان زمان ومكان طرحه: ماذا يفعل كل هؤلاء
الناس هنا ؟

الغريب في الأمر التدافع الشديد للوصول لمثل هذا العلم كأن لهم شيئا عاجلا وأكيدا
ينتظرهم فيه.

المشكلة الكبرى - وهذا ما يتضح من مجرد لقاء نظرة خاطفة حولي- أن عند الداخلين بدأ
يفوق طاقة استيعابه والدليل أن ثلث الأدميين هذه الأيام لا يجدون ما يسدّ الرمق ويزعجون
الشبعانيين بارهابهم ومظاهراتهم وثوراتهم الفاشلة.

لهذا نشرت منذ مدة على موقعي في فضاء الصّفّر والواحد، إنذارا صانقا وإن يتوقع
مزيف.

“نظرا إلى الازدحام الشديد، ولأن المكان غير جاهز لاستقبال كل الزبائن، فإن العالم يعلم
أنه قرّر التوقف عن استقبال الزوّار وذلك إلى أجل غير مسمى”.

عشا. والدليل ما يتلاطم حولي من أمواج بشرية.

لا جدوى من اعتراض طريق أيّ من المارة لتسأله عن سبب وجوده في هذا العالم وماذا
يفعل فيه. من الأحسن أيضا ألا ترفع صوتك واصبغك في وجهه تذكره أن عندنا كبار
الاخصائيين ينطقون كل المتسترين على الأسرار التي تهمنا جميعا.

قد يطلب بوليس النجدة أو سيارة اسعاف لحملك لأقرب مستشفى الأمراض العقلية. في كل
الحالات هو كبقية المارة لا يعرف فعلا لماذا هو موجود وماذا يفعل في هذا العالم وإلا كان
السّر على كل الالسن منذ زمن بعيد والمعروف عن الأدميين -الآنك تحديدا كما يتدعي
الذكور- استحالة حفاظهم طويلا على أي سرّ.

يجب أن أجد جوابا ما بنفسى. المشكلة أن مزاجى هذا الصباح ليس على أحسن ما يرام
ومن ثمة تدافع ردود ليست الأحسن للمعنويات.

ها أنا أسمع في فضاء خيالي موظفي مركز شحن سماوي ما يصرخان في بعضهم البعض:
- كم من محكومي هذه الشحنة وما التهم التي استوجبت نقيهم إلى تحت؟

- العلم عند كبار المسؤولين. ما يهمني هذا الغبي أد3100-2154879365 الذي يقاوم
ويصرخ أنه بريء ويرفض النزول إلى العالم الذي حُكم عليه بالعيش فيه حياة كاملة. قد
نضطر لاستعمال العنف معه حتى يركب الشاحنة ولا يركب رأسه.

تقول يا رجل العن الشيطان، ماذا لو كان العكس هو منطلق قصة القصص؟

ليكن. الحوار "الحقيقي" إذن بين موظفين فاسدين:

- ثرى كم من رشاي وتدخلات وترخيص زائفة في هذه الشحنة؟

- العلم عند عصابات التهريب. هذا الغبي أد3100-2154879365 تأخر وسيفوته مَوعِد
القاطرة الأولى وقد يضطر لدفع رشوة أخرى إذا أراد زيارة عالم يُقال عنه إنه من أرخص
العوالم المعروضة للاستكشاف هذه الأيام.

عبث كل هذا؟ طيب لنترك المخيلة تستريح ولنلتجئ إلى الأداة الأخرى للذهن التي يسمونها
العقل. أه ثمة فرضيتان لا أكثر.

الأولى مرتبطة بواحد من أهم قوانين تشغيل هذا العلم: الرهان على الأعداد الكبرى.

كما لا بدّ من مئات ملايين النجوم لتشكل حفنة من الكواكب القلرة على توفير الشروط
الدقيقة لظهور الحياة، كما لا بدّ من غريلة أطنان من التراب للحصول على كيلو غرام من
النّبر كما لا بدّ من مئات الملايين من الحيوانات المنوية لينجح واحد لا أكثر في إخصاب
بويضة... كذلك لا منا ص من عشرات الملايين من البشر ليخرج من بينهم موسيقي اسمه
باخ وشاعر اسمه إيسا وأدّمي أصبح إنسانا اسمه الحلاج.

بصرحة لا أحبّ هذه الفرضية لا لشيء إلا لأني لست متأكدًا في أية خانة يصنّفي العالم
وهل أنا من النّبر أم من التراب.

الفرضية الثانية التي ساداف عنها لأنها في صالحى وصالح كل قرانى والبشر أجمعين هي
القاتلة بأن المهمة التي كُلف بها الأدمى من قبل قوة مجهولة (أو كُلف بها نفسه مفتعلًا أن
هناك قوة مستقلة عنه كلفته بالأمر) أصعب وأطول من أن يتعهد بها أدمى واحد.

لذلك كل من الضروري أن يخلق بأعداد كبيرة في كل الجيل وأن تتابع الأجيال كما تتجدد
أفواج عمال المناجم، والقادمى يحالون إلى التقاعد لصالح أجساد غضة قادرة على مواصلة
العمل الشاق.

طيب، لكن ما هذه المهمة التي تحتاج لجهد كل هذه الأجيال؟

كم فكرت ونقبت في نفائس الكتب عن ردّ يشفى الغليل، كم سألت من حولى فلم أظفر أنا
أيضا إلا بما ظفر به الشاعر:

نهاية إقدام العقول عقال
وأكثر سعى العالمين ضلال (فخر الدين الرازي)

وأرواحنا في وحشة من جسمنا وحاصل دنيانا أذى وويل
ولم نستقد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
أوف، خرجت من الزحمة المرعبة. يمكنني التوقف لمسح عرقى. أعتّم الفرصة ورجل
واقف بحذوي ينظر مبثما إلى هذا الأجنبي التائه.

- عفوا، يا سيّدي هل تسمح لي بسؤال؟ في بلادنا نحّي الآخر عن بعد ملوحيين بيدينا ليتبين
له أننا لا نحمل سلاحا. عن قرب نصافحه نوكد وتناكد أنه ليس بين الأصابع الضمة خنجر
صغير.. ثم نُقرنه السلام. إلام ترمز تحينكم أتم؟ هل هناك مغزى لضمّ اليدين أمام الوجه
وما معنى "تماستي"؟

- معناها نحّي المقدّس الذي فيك.

يضمّ الرجل راحتيه اتسعت ابتسامة ثم يخفتي داخل الزحمة.

المقدّس الذي في... أنا !!!!؟

هل ثمة في هذه الجملة بداية خيط يمكنني أن اتبعه عنى خرج أخيرا من مغارة أفلاطون.

**

أولماذا نحن بأمن الحاجة لتجديد خارطة الطريق؟

ذات يوم يتغير منهج البحث بصفة جذرية.

لماذا لا أردّ بنفسى على السؤال سيد الأسئلة؟

لماذا لا أختار له الأجوبة التي تساعدني على تحمل هذا العالم ومواصلة رحلتي فيه بقل قدر ممكن من الحيرة والقلق؟ اليس هذا ما فعل البشر دوماً؟ نعم لماذا لا أخلق لي أسطورة لاستعمالي الشخصي تغنيني عن القيل والقل لأخرين لا يقولون عني حيرة وضياعا؟ قبل الشروع في العملية لم لا أستأمن برأي خبير كبير في بناء الأساطير خاصة والطريق قد أوصلني إلى أرضه؟

لكن هل سيعيرني اهتمامه وقد انسحب من العالم الحسى غير مبال حتى بفياق النمل تتسلق الصدر والوجه، تدخل وتخرج من العينين والمنخرين؟ يتبلور الشبح الذي صنعته الذات لتتفحص عبره ما يتبلور بصعوبة داخل فكرها وخيالها. ينتبه فالميكى لوجودي. يبادرني باتزعاج لا يخفيه.

- ماذا تريد؟

أواه يا سيّتا، برّب عشق طفل تهجّى في حيك أجمل روايت القصة المقدّسة، تدخلى، أريد نصائحه ولم لا بركاته!

أهمس له بين رجاء واستحياء بهدف الزيارة.

- خلقت الأدمية المهندسين المعماريين في الفضاء الحسى لتلبية حاجياتها المادية الحسبية من بناءات مادية وخلقت أيضا مهندسين معماريين في الفضاء الفكرى الخيالى لتلبية حاجيتها الروحية. هم من بنوا لها الأساطير والأديان والفلسفات وأنت من أكبرهم. جتتك لأخذ نصائحك بخصوص مشروع بناء بيت روجى لاستعمالي الشخصى لا غير؟

- ولماذا اخترتني من بين كل الصناع المشهود لهم بجودة أعمالهم؟

- لأنك لا تخفى أمرا يحاول الآخرون التسرّب عليه وهو أن كل ما نبني من فلسفات وأديان ليست إلا تصورات من بنات أفكارنا.

يأتيني همس فيه فيه مزيج من الاستغراب والمرح.

- ثمة بنايات للروح أثبتت متانتها عبر الزمان فلماذا لا تكفني بها؟

جل الموجود من التصورات لا يقبل بها عقلى أو لا يرضى به فؤادى لا لشيء إلا لشراسة أصحابها في اضطهاد من لا يصنّفها.

- انتبه لخطورة ما تقول.

- لا أدلّ على ضعف رؤيا من كونها لا تحفظ بقاءها إلا بالفضاة والجلادين. حتى التي لا تحتاج لأي عنف لبقائها أعجز من أن تتحدى أنياب الزمان. فكما لن يتوقّف الهمم والابتكار والتشييد في فضاء الحواس، لن يتوقّف بناء وهدم البيوت في الفضاء الرمزي-الخيالى، لا

طاقة للآدمي على سكن نفس بنايات وإن حسبت أعمارها بالقرون، إما لتغير الذوق العام
أو لارتفاع مقاييس الجودة عند المستعملين.

- وما مقاييس هذه الجودة في ما تبحث عنه من بنايات روحية جديدة؟
- المقياس الأول لمهندسيها ألا يتعسف الفؤاد على ضوابط العقل وألا يستخف العقل
بحاجيات الفؤاد.
- والمقياس الثاني؟

- أحسن الأساطير المؤمّسة التي لا تزرع الألغام على طريق الأجيال القادمة، التي لا تخلق
شعوبا مختلرة بحق لها قتل الآخرين والاستيلاء على أراضيهم، التي لا تقسم البشر إلى
مؤمنين وكفار، التي لا تخلق مبنوذين يتهمون باطلا بارتكاب موبقات في حياة سابقة، التي
لا تخلق مستبدا في السماء يشرع للمستبد الذي على الأرض، التي تسهل الحياة والموت
للجميع، خاصة التي لا تتعدى أبدا على كرامة أي من الكائنات الحيّة.

كم غريب قبول البشر بالعيش والموت داخل أساطير تجعل منهم حيوانات خلقتهم
الطبيعة صدفة أو دمي خلقتها آلهة لا شيء إلا ليعبدوها!... عجبني من تشبّهم بقصص
تغيرهم بأصولهم..تسم رحلتهم بعقدة نذب لم يرتكبوها... تجعلهم يعبرون العالم على
مخاوف لا سند لها ولا داعي... ناهيك عن التي تتهمهم بارتكاب جرائم في حياة ماضية
تبرر ما يتعرضون له من ظلم فظيع في هذه الحياة...

يعود الهامس الخيالي لنحسّس مكانم الضعف والقوة في محاوره.

- أتبحث أنت أيضا عن رؤيا تتجسد فيها الحقيقة المطلقة؟

- لا وجود لشيء مثل هذا. الحقيقة في الدين ما تعقده طائفة دون بقية الطوائف من
المؤمنين ومن ثم هي نسبية. هي في العلم ما تعتبرها طائفة من الباحثين أحسن إجابة عن
مشكل ما بانتظار تطور الأبحاث ومن ثم هي مؤقتة.

- ما الذي تريده مني إذن وقرارك مأخوذ؟

- بركاتك وتمنيّك لي بالتوفيق.

يلقي عليّ الرجل نظرة طويلة.

- هل عندك توصية من جهة موثوق بها؟

مداعية بمداعية.

- من أمي. هي الوحيدة التي وثقت بي ودما وكان ذلك خطأها الوحيد.

يرمقي فالميكى بنظرة فيها فضول مفاجئ ثم ترسم على شائشة الذهن ابتسامة عريضة.

- أخلق لك القصة التي تريد إن لم تجد ما يرضيك من قصص الأوائل.

القصة التي أريد! طبعاً الأجل، الأغرب، الأخطر... والأكثر احتراما للبشر، للشجر

للحيوان ولكل ما يتغلّق عليه العالم من روائع ومن معجزات.*

الرواية المزيدة والمنقحة لانطلاق قصة القصص

أهم ما في أساطير الماضي أنها معالجة العقل الجماعي لمفاهيم بالغة التعقيد توضع في قلب شعري مجازي ليسهل وصولها إلى كل العقول والقلوب... وأيضا احتوائها على مواد ثمينة يمكن استغلالها وإعادة استعمالها لمواصلة خلق الأساطير.

ليس من خصائص البشر حبهم للسطو على ممتلكات الغير لا يترددون مثلا في الفضاء الحسي وهم منتصرون عن تدمير معابد أعدائهم ومصادرة أحجارها لبناء معابدهم هم؟ لماذا أتورع عن المشي في نفس الطريق وأنا أدعي كامل الأوصاف؟

لا أسهل للانطلاق في مشروعني الخاص من استغلال الأسطورة التي نشأت عليها وأجمل اخراج لها هذه القصيدة.

“وقبلها كانا في جنة عدن (أندريه شنيد)

فضاء أتقده الإله من الظلمات

أرض خصبة معطاء

وسهول تسكنها حيوانات صديقة

متعة بلا إسراف

سعادة لا تتخللها الأشجان

وعُد بلا خطر

فجأة طُرِدنا من الحديقة؟

قف. طُرِدنا من الحديقة!! ؟

نعم هذا ما تدعيه الرواية الشائعة للأسطورة حيث تقول إن ثعبانا خبيثا زَين لأدم وحواء أكل تفاحة من شجرة في الجنة فعقبيهما الله بالطرد من حديقته هذه لأنه لا يحب من يقطف ثمار أشجاره دون رخصة منه.

مع كامل احترامي للمهندسين الخياليين-الرمزيين الذين تورطوا في مثل هذه التصميم لبيت روجي ستسكنه الملايين طوال قرون، أقول لهم أنهم لم يوفقوا كثيرا في مهمتهم.

أن يطرد آدم وحواء لاكتشافهما متلبسان بالتبخين داخل المرحاض فأمر مفهوم لما يمكن أن ينجر علي الأمر من انفجار الجنة إذا كانت جنة طائرة أو نشوب حريق لا يبقى ولا يذر إن كانت جنة أرضية... لكن أن يطردا بسبب تفاحة لا تسوى أكثر من بضعة مليمت وربما حتى أقل بسعر التفاح هذه الأيام.

أضف لهذا أن السردية تعَد صارخ على كرامة الخالق وهي تصوره كمستبد بخيل حقود ظالم ينكل بمخلوقاته بسبب معصية تفهت. ت

السردية أيضا تعدّ على كرامة الألمي عندما تجعل منه كائنا بساقيل بالركل في المؤخرة والطرود والنفي ولم يردّ الفعل مثلا باقتلاع الشجرة في لحظة غضب ورميها في وجه صاحب الحديقة وهو ما كنت سأفعله بالتأكيد لو كنت مكانه.

أخيرا وليس آخرا هي إهانة للعالم عندما تجعل منه منفي لمرتكبي المخالفات حتى البسيطة منها.

لكن لماذا ألوم من وضعوا هذه البداية لقصة القصص؟ هم لم يكونوا أكل نكاء منا ونوايا طيبة لتسهيل رحلة بني سفر. إذن لماذا ارتكبوا خطأ مهيبا بمثل هذه الخطورة؟ المعروف أن وراء الكثير من الأساطير أحداث صحيحة وقع تغليفها بما تيسر من الخيال وضاعت ملامحها بتقدم الزمان ثم سُوّقت للأجيال المتتابعة على أنها حقائق لا يأتيها الباطل من خلفها ومن امامها.

هل من باب الصدفة أننا نجد نفس اسطورة الطرد والعقاب عند قبائل "البوشمان" في أقصى غرب جنوب القارة الافريقية وهم يبعدون عن قبائل الساميين في أقصى جنوب غرب القارة الآسيوية أخذت عنهم قبائل العالم أجمع هذه الرواية.

أية أحداث حقيقية قد تكون وكنت سردية طرد آدم من الجنة؟

أجيل البصر حولي في هذه الصحراء التي أتدبر أمرى للعودة إليها دوريا إن لم يكن بالجسد فيالخيال والحنين.

كانت "ما" تبغضها بغضا شديدا لا فقط لأنها نفيت فيها مدّة بغير ارادتها وإنما خاصة لأنها كانت تعتقد فيها طيب مناخ قريتها البعيدة في شمال البلاد بخضرتها طوال السنة ومياهها العذبة التي تستخرج من آبار سهلة الحفر.

ما كانت تجهله المرأة الطيبة أن الأراضي القاحلة التي نُفيت فيها كانت يوما ما أرضا خصبة تشقها أنهار جبارة وفي مراعيها الخضراء طيلة السنة كانت تمرح الغزلان والزرافات والقيلة. ذلك لأن الصحراء مثل قلب ينبض من قبض الى ارتخاء ومن ارتخاء إلى قبض أي من خصوبة وأمطار غزيرة إلى قحط وجفاف منقر والسبب تغير المناخ من النقيض إلى النقيض كل عشرين ألف سنة كما يقول بعض أهل الاختصاص.

لنتخيل -ولو بشيء من المبالغة في تجميل الصورة-كم كان عيش الأوائل سهلا وحتى ممتعا في فترة الصحراء الخضراء وهم ينتظون بكامل الحرية لدخل ارض غنية بكل أنواع الثمار وصيد متوفر في كل مكان والماء الزلال تحت الطلب أينما امتد البصر.

ها قد أصبحت تدريجيا مراعيهم الخضراء التي كانت تسيل فيها الأنهار أرضا قاحلة.

ها قد تحولت الجنة إلى جحيم والشمس تحرق جلودهم والعطش يلصق الألسنة بالحلوق ولا شيء يؤكل إلا بعض الجردان المتملثة هي الأخرى جوعا وعطشا.

لنتصوّرهم حول نار باهتة والمعنويات كذلك التي تعيش أيام الحداد.

ينطلق شيخ القبيلة واصفا للأطفال كم كانت هذه الأراضي القاحلة حديقة الآباء والأجداد وكم كان فيها من أشجار ومن أعشاب ومن ثمار ومن انهار ومن شلالات ومن حيوانات

تتبارى أنفة وجمالاً. مؤكداً أنه كان هناك في آخر الحلقة طفل كان أدكى الأطفال وأكثرهم فضولاً وأسئلة مرهقة لكل من حوله... وأنه كان أكثر الأطفال انتباهاً لكلام الشيخ. كآنتي به يتساءل: ما الذي حدث وسبب الكارثة التي يصفها العجوز؟ لا شك أن الأوتل اغضبوا أقوى الآلهة فسلط عليهم أقطع عقاب ألاً وهو طردهم من أراضي الخصرة والوفرة والمياه العذبة لينفيهم في هذه الفياقي الموحشة.

لتتابع تفكير طفلنا العبقري الذي سيصبح نبيا مع كل المخاطر المرتبطة بهذه الصفة. ترى ما الجريمة التي ارتكبتها الأوتل؟ أه لا بد أنهم سرقوا شيئاً لرب الأرباب والربيت؟ لكن ماذا؟ أشهى ما في حدائقه؟ التفاح! التفاح! التفاح!

ها هو يصل تلقائياً للسؤال الذي سينطلق منه السحر والدين والعلم: كيف يمكن استرضاء رب الأرباب والربيت حتى لا يواصل غضبه علينا ونعود إلى الجنة التي طردنا منها؟ قد لا تكون الأمور حدثت هكذا في التفاصيل، لكن اغلب ما نعيش عليه من أساطير دينية وعلمانية لم تفرك إلا بهذه المنهجية: حبة من الحقيقة تبنى فوقها قبة من الخيل. أخشى ما أخشاه من نظريتي أن تصدق أيضاً في المستقبل. ألسنا في هذا العصر على حافة كارثة مناخية أخرى؟

تصوّروا حفيدنا حول النار بعد ألف سنة من الآن يستمعن لشيخة القبيلة في ركن من أركان مدينة مهجورة تحدثهن عن الجنة التي عاشت فيها الأمهات والجداات.

أه يا بنتي حقا كانت عصوراً ذهبية، نعم كانت هناك وسائل لمنع الحمل (الشيخة) وهي في الثلاثين تنتظر طفلها الخامس عشر) وأطباء أسنان (الشيخة لا تنام والام ضررس العقل تفقدها عقلها) ووسائل اتصال تسمح بالتواصل مع من نريد في أي مكان في العالم (الشيخة قلقة من تقطع أخبار كتيبة المغوارات وقد انطلقت منذ أسبوع لغزو حي الركام الموجود وراء بقايا الطريق السيلرة)

تتساءل طفلة وسط الحلقة وهي أدكى البنات وأكثرهن فضولاً: ترى ما الجريمة التي ارتكبتها الجداات لتنهار العصور الذهبية؟

أي خطيئة ستخلقها النبوة سترتبوفسكاي لتفسير خروج البشرية من جنة العصر؟! ربما كل الطبيعة برمتها وليس فقط ثمرة من ثمارها .

ترى ما تشكل الديانة التي ستؤسسها وقد تسود عالماً متجدداً طيلة آلاف السنين؟

*

عودة لموضوعنا. بما أنه من الثابت أن آدم وحواء خرجا من الجنة لسكنى هذا العالم - والدليل القاطع وجودنا جميعاً- فلا بد من سبب لهذا الخروج.

هنا يجب الضرب على الطاولة والصراخ في وجه المتعلقين بالصياغة المهينة: كلا ثم كلا، آدم وحواء لم يطردا من الجنة وإنما... فرأ منها.

تيز رأسك: ما هذا الهراء؟ كيف! الرجل والولية عاشان في جنة خمسة نجوم إلى الأبد وبالجمان وتقول لي (إنهما هربا منها لرمي أنفسهما بمحض ارتدتهما في هذا العالم التغييس!

هل نسيت أننا لا نعلم بشيءٍ قدر تحقيق الجنة في هذا العالم والعودة إليها بعد الموت، هل تتصور حقاً أنني سأشتري مثل هذه البضاعة؟

ردي أنه لا يجوز الاحتجاج على روايتي بحجة ضعيفة من نوع آدم لا يمكن أن يرتكب حماقة كالخروج طوعاً من الجنة وأنت أعلم مني بطول باع الأعميين في ارتكاب ما يخطر وما لا يخطر على البال من الحماقات.

تضيف لمواصلة حشري في الزاوية: ثم إن الفرار من مكان كهذا محروس بملائكة مدربة وكاميرات عالية الجودة، عملية غير ممكنة.

فعلاً ليس من لسهل الفرار من مؤسسة مثل الجنة لا شك أنها تتوفر على ميزانية غير محدودة ويمكنها أن تستأجر أحسن شركات الحراسة وشراء آخر الكاميرات عالية الجودة لمراقبة الحدود منعا لكل المتسللين غير القانونيين.

لا بد أنه كان لأدم وحواء داخل المكان شركاء أعانوهما، ربما بإيقاف تشغيل الكاميرات لحظة الهرب أو بتوفير الجبال الضرورية لتسلق الجدران أو أية وسيلة أخرى.

لكن من؟ الملائكة؟ إبليس؟ الثعالب؟ كائن مقنع لم ترصده القصة؟

من المستحيل على كل هذه المخلوقات ولو مجتمعة أن تُخدع ويقيه وهو قادر على معرفة الأحداث حتى قبل أن تقع.

التفسير الوحيد لمتانة روايتي أن النصير المجهول كان صاحب الحديقة أي الرب لا غير. صدق أو لا تصدق، ذلك شأنك.

إن في النسخة المزيدة والمنقحة للأسطورة الشهير، أز مع آدم في سره على الفرار غير واع بمن أوحى له بالفكرة ذلت ليلة صارخ حواء بالفكرة، فمطت شفتيها وحكت رأسها ثم رفضت بقوة. مؤكداً أنها قرأت في مستقبل غمض كل ما سيمر به أطفالها من محن لكنها لم تلبث إن أعادت حساباتها. في آخر المطاف... لم لا؟

إفي طبيعة موجهة فقط لمناضلات الحركة النسوية، سنجعل حواء هي التي أسر إليها الرب بالفكرة وأنها هي التي أقنعت رجلها لكسول بفكرة الفرار وأنه هو الذي مانع وقد أربته صور آتية من أعماق المستقبل لما ينتظر أطفاله وأنه رضى وحواء تهدده بالهروب لوحدها وما عليه إلا أن يجرب الجماع مع إبليس أو الثعالب.]

أيا كل صاحب الفكرة وبعد شجار مقرف ككل شجارات الأزواج يحسم الأمر لصالح الفرار. هكذا اشتعلت شائعات المراقبة برسائل الإنذار. ثم طلعت التقارير للإدارة العامة تحت إشارة غليظة بالأحمر: "عاجل للغاية وسري جداً". وعوض أن يبرق الإله ويرعد وتتفجر البراكين على كل الكواكب، ابتسم الرب بل وتنفس الصعداء مناجيا نفسه: أخيراً، قرّر الغيبين، من يدري؟ ربما همارهاني الناجح هذه المرة.

تنبيه: لن يقع التصريح بكل نوايا الرب ولن أكشف عن طبيعة المهمة الخطيرة التي أوكلت لأدم وحواء. أو لا لأن المجالس بالأمانات ولا يمكنني ولو بالتلميح فضح كل الأسرار التي تمكنت من الاطلاع عليها من أوثق المصادر. ثانياً لأن تقنيات التشويق في كل رواية

تقتضي أن أحافظ أطول وقت ممكن على سر الأسرار وألا أتقاسمه مع القارئ إلا عندما ينفذ صبره وقد دفعته أكثر من مرة -كما يفعل جلّ كتّاب الروايات البوليسية- نحو تخمينات خاطئة بخصوص هوية المجرم وأسباب الجريمة الحقيقية.

بقية الأحداث كما تصفها الشاعرة الملهمة:

“سارعا إلى تغطية عريهما بالجلود (أندريه شديد)

دفعتهما الرياح الهوجاء من الخلف

تعتقا يرتعشان من الخوف

وقد أصبحا في سجن فضاء ضئيق من الجلد

بواجهان الامتداد الموحش المخيف

ومستقبلا مرعبا لم يستعدا له

تجاوز آدم ضغينته

مسك بيد حواء متجها إلى الأمام

إنها أراض لا بد من غزوها

إنها عقبات لا بد من تجاؤها

إنها أخطار لا يعرفان عنها شيئا

وإنه كون يتلعثم بأولى كلماته

عالم مقيد بسلسلة لا نهاية لها من الأيام والليالي

عالم تحت مطرقة الزمان

يجب تعلّم الموت فيه

عالم غير مفهوم

بتنبيهه الرانع والمرّوع

معا سينمككاته لا سلاح غير الهشاشة والإصرار

معا سيدان آدمية الشرّ والجنل.

تعبر الفضاء والقرون.

ومن خلال ضباب الزمان

تابعهما الصدى بالأمر”

تغالب تفاحة النوم وأنا أروي لها هذه الصيغة غير المرخص لها لانطلاق ملحمة الأدميين.

-“يا، بماذا أمر الصدى آدم وحواء وهما يقرآن؟

- خذا معكما إبليس لا مناص من اصطحابه.

ربما واصل هامسا لنفسه: وإلا كيف سيعرف البشر ما الخير في غياب الشرّ، ما المسؤولية

في غياب الحرية وما الحرية في غياب الجبر والقهر؟

**

وقال لهم الصدى رَميتَ النرد مرة أخرى فُتتَمَخَّصُ هذه التجربة عما أمل

وراءهما الآن باب الجنة والعالم الجديد بأسره أمهما.
تدير حواء بصرها في الفضاء للشلسع أبهرها النور والألوان، حائرة اللَّبَّ أمام كل هذه الروائع، شلالات متدافعة من أعالي الجبال، أنهار متدفقة بين الروابي، بسط مفروشة بما لا يحصى من الأزهار، كثيّن من ناعم الرمل، جبال مكلّة بمهلبية الشيب، بحار تهشّ الرياح فيها على الموج، غابات تعاقق أشجارها السحاب، سماء مرفوعة بلا عمد...
يهرش آدم رأسه أمام كل هذه الروائع. جنة أخرى؟ ما فائدة فرارنا إنن؟
صبرا قليلا يانافد صبر لم يبدأ بعد.

تصرخ حواء وقد مرّ على فطور الصباح وقت لا تستطيع تحديده بما أن الساعة لم تُخترع بعد: أنا جائعة ولا أكل جاهز هنا.
ينتبه بطلنا إلى التغيير الجذري في الوضع وأن هذا العلم لا يوقر شيئا عدا وجوده، أما تدبير شؤون الوافدين فسؤ وليتهم هم لا غير.

كيف فاتته الإقامة في الجنة كانت على حساب ربّ المكان، أما هنا فهي على حسابه!
ها هو في مواجهة الأمر الأول الذي يزمجر به صمئ العالم الجديد: من يريد أن يأكل فلا يعول إلا على جهده، لا مكلن عندي إلا لاكل ومأكول وأنا أكل الجميع.
هل أخطأ التقدير؟ يصرخ آدم في حواء أنه لولاها لواصل حياته السعيدة في حديقة مولاة حيث لا جوع ولا جري مُضنٍ وراء فطور الصباح.

تتجاهل المرأة رجُلا ستبقى تعاني منه على مرّ العصور.
ثم تبدأ في وضع أولى خططها: البراري الخضراء حديقة البيت، البحيرات الزرقاء والخضراء كمسيح للصغار يوم يولدون، الجبال الشاهقة للتزلج يوم يخترعون هذه الرياضة. يجب التأكّد أيضا من سلامة الغابات وخلوها من الخُفر والشياطين حتى لا يُصاب الأطفال بأذى. هام جدا تزيين أوّل كهف ولو بلُسط الرسوم بانتظار ذلك الطفل العبقري الذي سيرسم صورتها في لوحة "موناليزا".

يولد الطفلان وتولد معهما الخصومات.
يفقد صبر حواء يوما والقشة التي قصمت ظهر البعير آخر شجار بين المصيّبتين المتحركتين.

- كفى. قابيل كم من مرّة قلت لك: لا تكلّ البعوض الذي في رأسك بحجة أنك جائع. هذا فعل يليق بابن أبيه ولا يليق بابن أمه. وأنت هابيل، اغسل رجلك من كل هذه القاذورات ونم فقد ضقت ذرعا بقلّة طاعتك.

يصرخ هابيل بغضب، هو الذي ورث عن أبيه حدة الطبع وسرعة الانفعال:
- عندما أكبر سأفعل ما أريد. لن أنظّم غرفتي. لن أقرأ أي كتاب. لن أحفظ دروسي ولن أذهب إلى أي مدرسة.

هذه المرّة، لن تأخذ "أما" بين ذراعيها تعتذر، تواسي وتقلّ صرعه. لا مناص من الحزم حتى يستعدّ هو وأخوه وبقية الأطفال لأصعب المهامّ في أصعب العوالم. يكبر الطفلان، تتوسّع العائلة. أن الأوان للمرور لفصل آخر من قصة القصص. ذات يوم تصرخ حواء، يا الله، كفى كسلا، اغربوا كلكم عن وجهي تفرقوا في كل مستويات الزمن و المكان ولا ترجعوا إلا وقد أكملت المهمة التي خرجنا من الجنة لإتمامها. يصرخ أحدنا: لننتج إلى حيث تشرق الشمس، نحتمي بها ونهمل وهناك نطفها ثمرة طازجة. يصرخ آخر: بل نذهب نحو الغرب لنعرف أين تذهب الشمس فنعود بها حتى لا نغيب، ننهي وجود الليل المخيف.

يصرخ ثالث: بل إلى الشمال فربما الذي جئنا من أجله مطمور هناك تحت الجليد والتلج. يصرخ لجبن أو أغل أطفال حواء: أريد البقاء مع أمي. يتم أول اتفاق بين الأوائل: اركضوا أنتم إلى أبعد مكان في هذا الاتجاه ونحن في الاتجاه المعاكس، وأنتم تفرقوا هناك داخل هذه الغابيت الخائفة، أنتم وراء سهول الماء، أنتم خلف تلك الجبال الشاهقة.

“الأرض لكم (جبران خليل جبران)

تنبهج بلامسة أقدامكم العارية

الأرض لكم.

وشعوركم مسترسلة تتوق إليها الريح

الأرض لكم

وأنتم الطريق؟

ها نحن ولمنك الآلاف من السنين نركض في كل اتجاه، نستكشف فضاء لا يُحدّ بحدود، نجري وراء الريح والسحب، بجمعنا الغيث ويفرقنا الجفاف، نأكل مما تجرّده به الأعشاب، نطلب العفو من الشجرة قبل أن تكسر لها ذراعاً ومن الفيل قبل تمزيقه إربا إربا، نقاتل الكواسر حتى لا نوكل ونقتل الأدميين حتى لا نُقتل وقد أصبحوا هم لا غير أخطر الوحوش. أليس هؤلاء الأوائل بأرجلهم الحافية وأيديهم العارية وبطنهم الخاوية وقلوبهم الصامدة وعقولهم المستنفرة هم الأبطال الذين نخجل أمام جسارتهم كل ما ندعي من بطولات؟ أي شاعر عبقري مبصر أو أعشى قاندر على نظم القوافي لإلياذة تتغنى بكل هؤلاء المغلربين الأفاقين، المنتشردين المستكشفين، الحجاج الذين تتابعوا على هذا العالم منذ غابر الزمن، لا يوقفهم جبل أو قفر أو محيط، لا تصدهم أنياب ومخالب كواسر السماء والأرض ولا حتى عفاريت الظلام!؟

توقّف على الصورة.

ألا نلحظ شيئاً بخصوص من خطوا أولى خطواتنا على الطريق؟ كيف؟ لم تنتبه لصغر السن! لا مكان في العالم اليافع للمسنين الذين تجاوزوا الثلاثين.

ماذا تقول وأنت تحرك يدك أمام أنفك؟ أه الروائح التي تنبعث منهم.

حقاً من منا يرضى بتزويج ابنته لولحد من هؤلاء؟ ومع هذا هم أجداننا جميعاً، وحتى أجداد ملكة إنجلترا التي تمّوه علينا بخصوص أرومتها وأصولها الأرستقراطية والدم الأزرق الذي يسيل في شرايينها. هي توقفت في قراءة شجرة أجدادها حيث كان من مصطلحتها التوقف لكن لو واصلت لاكتشفت المسكينة أنها ليست سليلة كبار اللصوص واقتلة فحسب، وإنما أيضاً سليلة هؤلاء الشبان الهمج التننين.

ملاحظة ثانية بالغة الأهمية يفخر هذا النص أنه أول من انتبه ونبه إليها. لا أحد منهم يجزّ حقيقة تُصدر صريراً مزعجاً. إنه الدليل القاطع على حكمة هؤلاء الشباب، وبإلغار الأحفاد الذين لن يتحركوا إلا محتملين بأنقال من أصناف عدة، منها جسم يئنّ بما زاد على اللزوم من الثوب والشحم.

ما الذي لم يتغيّر رغم كل الفوارق الهائلة؟ أه إن الأحفاد الشيوخ وأجدادهم الشبان خائفون ومخيفون.

تغيّر المظهر وبقي الجوهر لأن العالم لم يرخ لحظة قبضته عن التلابيب.

إنه عالم لم يُخلق للجبناء. إنه عالم صارم القوانين أولها أن الحياة فيه تتغذى بالموت والموت يتغذى بالحياة والفاصل بين الحالتين حالة أزلية اسمها الصراع من أجل البقاء.

يأتي يوم يئن فيه أحداً وقد فاق ضغط العالم كل احتمال: يا لهذه الغابات الجارحة كأنها إخطبوط أطبق علينا بألف ذراع!

يأتيه رجوع أنين ثلثه آخر: لم تكف عن المشي منذ لجيل ولم نصل، لا إلى حيث تشرق ولا إلى حيث تغيب. إنه عالم اتساعه أخرق، نحن تائهون فيه إلى الأبد، هل من باب نجاه؟

أنين تائه ثالث: يا لهذه الصحاري الصفر نمشي فيها بين سندان الرمضاء ومطرقة الشمس! وآخر: يا لهذه الصحاري البيض ووجع خناجرها التي تثبت في فك الجليد والتلج!

وآخر: يا للرب الذي تبتّه فينا كل هذه الكواسر نهاراً وهي تتعقنا بأظفار وأنياب لا طاقة لنا على مواجهتها بأيدينا العارية! يا لهذه الذئب التي يمنعنا عويلها ليلاً من النوم نرتجف برداً وخوفاً داخل مغارات مظلمة تنقاسمها مع هذه الجرذان الطائرة المقرّزة!

تولول أنثى فوق رعبها كل حدود.

انتبهوا لهذه الطيور المشوومة التي ترفرف فوقاً تنتظر من يسقط منا لتنهش لحمه حتى ولو ما زال يتنفس!

يصل الأنين ذروته عند الغبي الذي لم يأخذ بنصيحتي بخصوص أحسن طريقة لاستكشاف البحار فاق عنده أيضاً الغثيان والدوران كل قدرة لتحمل.

من أين لنا الطاقة لتحمل كل هذه المحن، كل هذه الامتحانات؟

تحمل! ماذا نفل طوال الرحلة، غير تحمل الحرّ والقرّ، غير تحمل الجفاف والطوفان، غير تحمل الضجيج والصمت، غير تحمل الأعداء والأصدقاء، غير تحمل

صعوبة الحياة وصعوبة الموت؟ ليس هذا فعل الأفعال الذي يبحث عنه النص؟

لم يبق للمساكين إلا الاعتراف بعمق الآلامهم والتوجه للوحيد القادر على إغايتهم.

صلاة الأدمي: يا من رفضنا جزيل عطاءه لنهرب إلى هذا العالم المبهر المرعب. حُزن علينا قلب الأرض والبحر. ضعننا في حماية الشمس والقمر. احفظنا من أنياب الكراسر، لا تجعل دمننا لها شرابا حلالا. وفّر لجوعنا اللحم والشحم. فخر لعطشنا عيون الماء الزلال. يسرّ أمامنا الصعب والوعر. ضمّد جراحنا. جدّد فينا كل فجر شجاعة الأبطال. للصدى: يا أحلام أحلامي، يا آلام آلامي، يا آمال أملي، يا أفكاري وخيالي، يا لحمي تقطّعه أنيابي، صبرا جميلا ستفهمون قسوتي عليكم وأنها لم تكن إلا قسوتي على نفسي. قد لا تكون انتبهت لأهمّ ما في هذه الخطبة العصماء للصدى: نبرة لصوت. هي حقا مُفعمة بالإشفاق لكن كم فيها من أمل، من تشجيع ومن ثقة. كلُّ وراء القول المسكوت عنه. ستستنون كل الأمكم وستحمنوني عندما تجدون ما يعتكم لأجله، يوم تحقون لي المهمة التي شرّفتمك بها مع بقية مخلوقاتي الأخرى.

لنفتعل لتصديق، هل لنا خيار آخر؟

رغم تطمينات السلطت العليا تواصل المعنويات انبهارها أمام تفاهم الصعوبات خطوة بعد خطوة.

يصرخ الذي يريد العودة إلى بيت أبيه: تخشيت قدماي من المشي، عُصنت إلى الخاصرة في الثلج وفي الوحل، تمرّقت أحشائي من الجوع، يبس حلقي ظمأ، انكسرت كتفي من الحمل، تشققت يدي من الحفر، جفت العرق من جسمي. كفى. ليواصل هذا الطريق اللعين طريقه دوني. لن أتقدم خطوة أخرى.

أهمس في أنن تفاحة أفيقي، لقد توقّف الأوائل عن المشي ودخلوا في أول اضطراب عام. تفتح البنت عينها وفيهما يريق التصميم كأن شيئا دخلها أدرك أن المهمة المقدسة في خطر وأنها قد تقشّل حتى قبل أن تبدأ فعليا. تستيقظ تفيحه بدورها جاءها الوعي بحرج اللحظة.

- "يا" ماذا يجب أن نفعل؟

- الأوائل في ورطة كبرى ولا بد من وقفة دعم حازمة. خذا بأيديهم كما تأخذان بيدي لدفعي للركض والصراخ والرّقص.

يستيقظ الرّواد في الغد وبهم جدل غريب.

- جاءني في المنام ملاك! جاءني في المنام ملاك!

- غريب. أنا أيضا!

- أنا المختار من بينكم، رأيت في المنام ملاكين لا واحدا.

- لا بل أنا المختار، تسلّق ظهري الملاك الأصغر. أمرني وهو جالس على كتفي، صارخا ضاحكا ومُعْتِيا أن أجري به. أخذني الملاك لثاني من يدي قائلا وهو يضحك ويدعو الآخرين للركض وراءه. هيا لا تخافوا ولا تحزنوا، الليلة لكم موعد مع هدية ملكية ستغيّر حياتكم.

تصرخ تفاحة: القصة عندي أنا: تلك الليلة نزل الثلج كثيفا فقالت البنت الكبيرة لأبيها: يجب أن نجد حلاً فلا تر تجف "ما" من البرد ولا تبكي الطفلة الصغيرة التي تسكن معنا.

تصرخ تفيحه: أنت الباكية والبالغة، أما أنا فلا أبكي أبداً.
ثم تنفجر باكياً لتقرر في نفس اللحظة أنه من الأفضل ألا تترك الكلمة لأختها وما على
البكاء إلا الانتظار قليلاً.

- "يا"، إنها تتكلم طول الوقت ولا تترك لي قيادة القصة.
- هذه قصة يرويها أكثر من راو. تكلمي. ماذا فعل الأدمي المسكين لكي يدفأ ويبعد أتياب
الغنايب؟

- خرج الرجل وابنته الصغرى - التي كانت المفضلة عنده كما يعلم الجميع - إلى الغابة للبحث
عن الحطب والنار. أما الحطب فقد كل موجودا بكثرة وأما النار فلم تكن موجودة. فما كان
من تفيحه إلا أن صلت لله ليبيعث بها فاستجاب لدعائها إذ زمجر الرعد ثم لمع البرق
وضربت الصاعقة حزمة من حطب اشعلت فيها النار، فخرج إليها "با" وأخذ منها عودا
ملتئها وعاد مع ابنته فرحاً مسروراً ليشعل المدفأة.

- يا غبية، وكيف استطاع "با" من الغد أن يشعل النار؟ هل يجب أن يخرج كل مرة ينتظر
الرعد والبرق.

- أنت الغبية وليست لديك قصة أحسن.

- بلى، إذن خرجت تفاحة مع "با" لتدله على مغارة اكتشفها وهي تلعب، وكانت هذه
المغارة عميقissime جداً لا يمكن الدخول إليها إلا زحفاً على البطن. وكانت هذه
المغارة في جوف الأرض والنار فيها دوماً مشتعلة، فاستطاع "با" أن يأخذ جمرة منها وأن
يضعها في إناء حملته تفاحة.

- يا غبية، وفي الطريق سقط المطر على جمرة تفاحة فانطفأت النار.

بعض العنق الخفيف وشيء من جنب الشعر. خصومة بسيطة تسهل السيطرة عليها من
قبل قوة حفظ السلام، خلافاً لما يحصل عندما تسمح الإمكانيات لنفس الأطفال الشرسين
بالتراشق بصواريخ الغواصت الذرية.

من كان يتصور أن اكتشاف النار حتى في هذا النص سيكون يمثل هذه الصعوبة؟

البيتان صامتتان ثواني متتابعة. فرصة للاستيلاء على الكلمة.

- أنا الذي أقود. وبعد أن اعتذرت تفيحه عن الليل الذي أصلب جمرة تفاحة وقبّلت أختها
الاعتذار وتصالحتا وانتهت المعركة مؤقتاً، خرج آدم، سلخاً إلى الغابة يبحث عن النار.
ما إن انقشعت السحب حتى وجد نفسه وجهاً لوجه مع علية كبريت بحجم بيت وبجانها
سيجار فاخر من نوع هافانا بطول شجرة سيكوبا.

تصرخ البناتان

- "با"، لا تعشّ!

بجد؛ ليس لديّ أدنى فكرة جديدة وطريقة بخصوص هذه المعضلة التاريخية التي كانت
التحول الأول في الملحة العظمى. ألا يقل إنه لولاها لما تجاوز الأدميون حدود القارة

التي كانت مهّد الجنس البشري إذ من أين لهم غزو بلدان الصقيع والثلج وهم لا يملكون فرو الدبّ للصبر على ما لا يُتحَمَل من البرد.

كم من تصوّرات بخصوص اكتشاف هذه النار المباركة!

ثمة التي تروي استعارتها من الصاعقة، من البركان، أو من بقايا حريق غابة.

ثمة قصة بر وميثوس الذي أخته لاشقة بالأمي قصّدى لنصرة المظلوم وهو يرى القوى المبهمة المتحكمة في المصادر تعطي للكائنات الأخرى الحوافر والأنياب والأجنحة والفرو السميك وكل متطلبات العيش وترفض له كل هذا، فقرّر من تلقاء نفسه مده بسرّ النار لترجيح الكفة وإعطاء المسكين بعض حظوظ البقاء وهو ما كلفه العقاب الشهير.

ماذا لو توجّهت إلى المصدر الذي تناسّته القصص والنار أحر ما ينقصه: جهنّم نفسها.

لكن هذا يتطلب العودة إلى المناطق الخطيرة التي يخشاها الأسمي أكثر من أي شيء آخر. قد يُقبض عليه ويودع مباشرة في قسم المساجين ذوي الصبغة الخاصّة والحال أنه لم يرتكب بعد كل الذنوب التي تؤهله للاستقرار النهائي في جهنم هذه. أمّا أن تقولوني إنه دخلها وغفل كل الحراس ثم سرق النار وفرّ بها سالماً، فهذا سيناريو لا يقبله حتّى عشاق أفلام هوليوود، فما بالك بقراء الرحلة وهم من عتاة المثقّين.

هنا يوكل الكاتب الأمر إلى القارئ ليكتشف هو كيف تحصّل الأوائل على النار أومن أين سرقها. لماذا أتكلّف كل الجهد وحدي والقصة، قصّة الجميع؟

المهمّ أن الأدمية مجتمعة الآن حول اللهب المقدّس وكل حواسنها مستنفرة لاستكشاف هذا الشيء الذي سيمكّنها من التغلب على الخوف من الحيوان المرعب، من قدوم الليل ناهيك عن نهاية مشقّة مضغ اللحم النيئة وضمها العسير.

تقترب قفاحة من النار وبها رهبة وانبهار لتوكّي مُدبرة تُرتمي في أحضان "يا" فيدفعها بمنتهى الرفق لتقترب مجدداً من النار. ترفض تقيحه أن تكون أقلّ شجاعة من أختها. تنغامر بالخروج من حضن "يا" لتقف بجانب قفاحة تقترب بيديها بحذر شديد من اللهب. تصرخان بالفرح وقد أحسّتا أن النار تنفع عن الأصابع المتجمّدة أما مستديماً، ثم ترقصان حول النار إلى أن تسقطا بين أحضان الوالدين هزهما التعب اللذيذ. ليلتها نام حفتة من الأدميين لأول مرة ملء الجفون، أبعداً ليضع ساعت الخوف والجوع، والمسكين لا يعلمون كم هو طويل طريقهم وكم من المحن تنرصدهم في كل منعطف منه.

تهزني تقيحه من كفتي: "يا" استيقظ، نريد بقية القصة!!

القصة؟ لموصلة السرد يجب أن تكون هناك عقدة. المشكلة أنني انطلقت في روايتي لقصة القصص بلا أدنى فكرة عن هذه العقدة.

نعم ما الذي خرجت الأدمية تبحث عنه مضحية بكل عطايا الجنة: العلم؟ الحكمة؟ المتعة الأزلية؟ كل هذا كان متوقّراً إلى درجة الغرّف في هذه الجنة التي هربت منها. ماذا إذن؟

**

وقال لهم الصدى لا مجال للمهمة إلا بتكامل وصراع الأضداد فتحتملوا ما لا مناص منه

لنفكر مليا ودون أحكام مسبقة.

لا بد أن يكون سبب الهروب وضع لا يُطاق أو طمع في شيء لا توفره الجنة.

من المبالغة وصف الحياة في مكان مثل الجنة بأنه وضع لا يُطاق.

لم يبق إذن إلا شره الألمي لكل ما هو غير متوفر فيها أو بالكمية المطلوبة.

ما الشيء الوحيد الذي لا توفره الجنة؟ طبعا الموت بما أنها المكان الذي ألغي فيه وبصفة

نهائية ليستبدل بهذه الحالة التي تسمى الخلود.

أشعر بكل قارئ حتى وإن كان بالغ التعاطف مع هنا النص على وشك وضعه جانبا

والانصراف لما أهم بدلا من إضاعة وقته الثمين في قراءة كلام بدأ يتحول هذينا صرفا.

كم أتقهم هذا الموقف وأنا نفسي على وشك وضع هذا النص جانبا والانصراف لما أهم بدلا

من إضاعة وقتي في كتابة كلام بدأ يتحول هذينا صرفا.

فعلا هل ثمة شيء يخافه ويكرهه الأمليون قدر الموت مع كل ما يصحبه من حالات الخوف

والقلق والألم... وأدعي رغم ذلك أن.... الخ، الخ،

نعم بل سأزيد على نفسي لأتقين من شرعية مثل هذه الفرضية.

أين يكتسب الموت صيغته الأكثر شراسة وقسوة وحتى ندالة؟ طبعا فيما يسمى ساحة

الوغي أو الشرف أو سمها كما تشاء. الحرب وما أدراك ما الحرب.

كأنني بك تهزّ كنتفك وتقول هذا الرجل حقا يستأهل كل ما يفعله به الأصدقاء والأعداء.

مهلا. من أين لك أن تنكر أن الظاهرة صلاحيات البشر ولا تزال مصاحبة لظلّ للماشي في

عزّ الظهيرة.

انظر كم يعتنون بها يهَيئون كل ظروفها ويطورون قوتها جيلا بعد جيل.

هم يعدّون لها أطفالهم بكرا، يحشون عقولهم بالتاريخ الكانبي منذ نعومة أظافرهم يزينون

القتل والاستشهاد من أجل الزعيم الأوحده والوطن المفدى والدين الحنيف.

أضف حرصهم على تعهّد منارس مختصة بتعلم القتل على أوسع نطاق يسمونها أكاديميات

عسكرية يدرّبون فيها شبابه على السير كالخرفان والقفز كالقردة والاختباء كالحرباء

والزحف كالثعابين والاقتراس كالكواسر.

كم يحتون أيضا إظهار استعداداتهم للمعركة أم المعارك.

يومها خصّصت المدينة المغيرة أجمل شوارعها وأعرضها وأطولها للحفل فاصطفت على

جانبي الطريق الجماهير المتشوقة لرائحة الدم.

على مرّ ساعتين تتابع آلاف من عارضي الأرياء القتالية يمشون وراء لعبهم في صفوف

متلاحمة وهم أطفال بشوارب ولحي كبروا وكبرت معهم اللّعب.

حقاً ثمة في عروض الأزياء الرجالية هيبه لا توجد في عروض الإناث. يبقى أنني أصبت بنوع من خيبة الأمل لما لاحظته من شبه معيب بأزياء أغلب الجيوش الأدمية الأخرى التي رأيت استعراضاتها من قبل على الشاشة البيضاء.

إنها دوما نفس الأزياء الركيكة التي لا تخرج عن نفس اللونين المملين: الأصفر البنيء والأخضر البليد. كأن دور الخياطة العسكرية في العالم أجمع أصبحت تعيد نسخ بعضها البعض ولم تعد لها قدرة على الطرافة والإبداع. واضح أن هذا القرن الذي يدعى التقدم على القرون الماضية، متخلف بالنسبة إليها في ميدان الموضة العسكرية. ما قيمة قمائش رخيص بالمقارنة مع ريش النسور تيجانا وجلود النمر والنماسيح أزياء أوانلنا؟

لحسن الحظ أنقذ مخرج المشهد سمعته لدى كل ذواقة الاستعراضات العسكرية حيث وضع طلاب الاستشهاد على خيول أنيقة وألبسهم سترات حمراء وبنطلونات سود وعمائم خضراء وزودهم برماح زرقاء.

كل كبار القوم-الذين حشرت بينهم خطأ-يتابعون المشهد من أعلى منصة وهم في حالة متقدمة من الانتفاخ والاعزاز بلطوايير الطويلة للمدعرت المكلفة بالحفاظ على ممتلكاتهم، قل على سرفاتهم. البعض منهم كان يعيش نشوة شبيهة بنشوة الجنس وكان الذكور بصدد مضاجعة البابات والإناث في أوج تمتعهم بمص الصواريخ.

إنه نفس المشهد في أماكن أخرى وتواريخ أخرى، وكل الشعوب تحب استعراض قوتها لإثارة الإعجاب أو الخوف أو الغيرة عند الصديق والعدو على حد سواء.

أختتم يومها الحفل بمشهد مؤثر وأم الشعب بردانها المسمى "ساري" وشعرها الفاحم تشقه خصلة من الشعر الأبيض، منتصبه على متن عربية مصفحة مفتوحة تبارك أبناء نذرتهم قربنا لألهة الحرب، يبادلونها تحيتها الصامتة بالتلويح بأيديهم كأن على رؤوسهم الطير... ولا أحد كلن واعيا أنذاك أن المرأة - التي كانت تحمل ويا لسخرية الأقدار اسم أكبر مناهض للعنف في هذا العصر-ستسقط مضرجة بمهما قربنا للبيع الذي تعبت له ذلك اليوم.

يا خيبة أمل الذين راهنوا على أن احتلال النساء أعلى مراكز القرار السياسي سيخفف من عنف السياسة وسيقلل من حروب لا يعيشها إلا الذكور الواقعين تحت سطوة هرمونات التستسترون ووقوع السكرى تحت سطوة الخمر.

ورغم ان انتاج النساء من هرمون التستسترون جد متواضع، فإننا لم نرى تحسنا في عنف لصراع السياسي وفي تواتر الحروب كلما وصلن لأعلى مراكز القرار. هذا ما يدعم رأي لا يلزم سواي ألا وهو أن نسبة الرقة والغلظة-كما هو الحال بالنسبة للشجاعة والجبن، العقلانية واللاعقلانية، النبل والندالة، الأنانية والاثرة-موزعة بصفة عادلة بين الرجال والنساء. الفوارق الوحيدة التي لا جدال فيها أنه ليس للنساء شوارب ولحي وأن بطون الرجال عندما تنفخ فليس نتيجة الحمل وإنما بسبب الاكثار من أكل الحلويات في بلدان الجنوب ومن شرب الجعة في بلدان لشمال.

ثمة من قرأني من سيعودون لاثهامي بمواصلة التجني على الجنس البشري ذكورا وإناتا لأن هذه العروض العسكرية ليست لتمجيد الحرب والاستعداد لها وإنما لإظهار القوة للخصم وردعه عن ارتكاب حماقة أشعلها.

حقاً؟ لو كان هذا هو الهدف الحقيقي ولو كان للأمر أننى جدوى لكنت الحرب القاعدة لا الاستثناء ولشاهدنا تراجعها من عصر لعصر ولخفانها كلياً في عصرنا هذا... وهذا لم ولن يحدث.

وحيث أن لظاهرة الحرب أكثر من بعد فإننا سنختزل تعقيدها في بعض اللوحات الحية والأمل ما زال قائماً بالقناع القارى بجديّة فرضيتنا.

إنّ الطبق الرئيسي بعد مفتحات الاستعراضات والخطب الحماسية.

اصطفوا أنتم أصحاب الهراوات الصخرية في الصف الأول، أهل القوس وراءهم، وراءهم أهل السيف والدرع، وراءهم أهل البنادق والمدافع، وراءهم أهل راجمات الصواريخ العابرة للمجرات ورائهم أهل الأسلحة التي لا يخلقها عقل سوى وإنما عقل آدمي. إلى الخلف أيها المتسلل من العصور الحجرية لسرقة قوس حفيدك. كفت أنت صاحب الراجمات عن التهكم على المسك بالرشاش فالمعركة لم تبدأ بعد.

والآن لتتواجه جيوش الماضي والمستقبل بأحجارها، برماحها وبنادقها لتتجبر الكواكب والشموس والمجرات.

أصرخ كما يفعل مخرجو هوليوود في ممثلهم: "أكشني".

ينقضّ الأدميون على بعضهم بعضاً بسكاكين المطبخ، بقباب الحمام، بالحجارة المدببة، باليدين العاريتين وبالآظفر والأسنان، بالهراوات، بالرماح، بالبنادق، برجمات الصواريخ، بحملات الطائرات، بالكتاب الأحمر والأخضر والأزرق. تتصاعد الهتافات تحيا أمّتنا العظيمة، يحيا وطننا المفضي، يحيا ديننا الحنيف بل وتسمع أحدهم يصرخ يحيا الموت.

يتعالى من مكان قصي من ساحة المعركة صوت شيخ بدين مولع بالويسكي والسيجار الفاخر يخاطب أبناء شعبه: سنحاربهم في الجو، في البحر، على الشواطئ، على الأرض، في البيوت، في غرف النوم، في المراحيض، بالبنادق، بأعقاب البنادق، بزجاجات الويسكي الفارغة، سلّارزهم يعقب السيجار ثم أموت صارخاً: يحيا الملك.

يدخل مهووس آخر إلى ساحة المذبحة مغنياً بأعلى صوت: "لنسق أخايد الأرض بدمائهم النجسة". هذا الغبي لا يعرف أن الدماء سواء كانت طاهرة أو نجسة، لا تصلح لسقي عنب الشمبانيا ولا حتى البطاطس واللّفت.

يصرخ أندري بوفوليبوسكي في جنوده أرشقوهم بسهامكم ليفنوا على آخرهم. تصيب السهام صورة العذراء التي وضعها المحاصرون على أعلى جدران قلعة نوفو فورود تتركها وبحثاً عن حمايتها، فتنهمر بالدموع عيناها. يقل إن بكاءها أقام الدنيا وأقعدمه، أن الضباب لفت المعتدين فقتلوا بينهم. كل هذا بالطبع دعاية محاربين، فالعذراء لم تنرف الدموع

لتمكين هذا من النصر وذلك من تذوق الهزيمة وإنما حسب مصادرتنا الموثوق بها من فرط الألم وخيبة الأمل وهي تكتشف أن فلذة كبدها ماتت موته الفظيعة على الصليب من أجل هؤلاء الشياطين عبثاً والشّر دوماً هو المنتصر.

القاعدة أن الأعمى وهم في هذه الحالة، يأتون من الأفعال ما لا تتصور جيرانك وأصدقائك وحتى أبغض خصومك قادرين عليها.

على القائمة قطع الرؤوس، بقر البطون، فتح الصدور، تقطيع الأطراف، الدهس بالدابلات والرمي بك حيا من الطائرة.

في سجلّ الفظاعات أيضاً ثمة قطع الأعضاء التناسلية بعد قطع الرؤوس: اختراع نارمر أول فرعون. ثمة أيضاً حقن سجناء الحرب بالجراثيم ثم ذبحهم والقفز فوق أجسادهم لاستخراج آخر قطرة دم لصنع قنابل بيولوجية: اختراع باحث علمي من القرن العشرين اسمه "إيشا".

أخيراً لا أخرا إخراج الرفلث لحرق الأعداء حتى وهم أموات. تقول مستحيل! عد إلى مأساة فرقة نينية تدعى "الكاتار" ومذاً فعل برفاتهم أعدائهم من عناة المؤمنين.

على فكرة، كم يدهشني أنني بلغت هذا العمر وما زلت حياً أرزق! كيف لا أشعر كم أنا محظوظ وقد هاجم الأبطال برماهم مضارب قومي لكن في زمن غير زمني، وقد سقطت بقربي أطنان من القنابل لم تنفجر إلا في جهاز يسمونه "التلفاز" بينما مرّقت ولا تزال تمرّق كل يوم أجساد مساكين وُجدوا في الزمان الذي لا يجب وفي المكان الذي ما كان عليهم أن يكونوا فيه! كم من فظاعات أفلتت منها أنا الذي لا أكف عن الشكوى من سوء طالعي.

فعل الأفعال! طبعاً قاتل، قتل الآخرين وقتل نفسه... بكل الوسائل التي تتبارى وتزايد على بعضها البعض في الفظاعة والوحشية... فعلنا الأول نحن وبقية الوحوش الحية الأخرى حتى وإن كنا أقطعها في قون القتل.

اللوحه الثانية

والآن جولة بين الجثث التي راكمتها المعارك على مر التاريخ، ويقول انه لو وضعت لواحدة وراء الأخرى لرسمت خطأ يصل الأرض بالقمر.

تمعن معي في كل هذه الأجساد المشوهة العارية الطافية فوق أمواج من الدماء وتذكر كم من حلاقين وخياطين ونساجين وصناع مجوهرات وعطارين وعاقرة جراحة تجميلية وموضه عملوا على تحسين الواجهة الخارجية للأدميين... وانظر النتيجة!

أيضا كم من أباء وأمهات ومربين ومرشدين وعوالم وإصلاحيين وثوار وأنبياء وكل من عملوا على تحسين ما بداخل الأدميين... وانظر النتيجة!

يتسلق ايليس -الذي أصر الصدى على أن يصاحب الفارين- قمة جبل الأجساد المتركمة ليغرس علمه صارخاً وهو في قمة التهكم والشماتة: وأراني أن أسجد لهؤلاء الوحوش الذين خزبوا حديقته.

نعم لكن هناك أيضاً جولة أشوكا بين تلال الجثث بعد انتهاء المعركة. إنه الامبراطور الذي قتل تسعة وتسعين أماً للوصول إلى السلطة ودمّر ما لا يحصى من الممالك. مما تقوله القصة أنه صدم بما رأى، أنه استنقع ما أتاه من قتل، أن صرخة أم مزقت قلبه وهي تتوسل إليه: "يا ملك الملوك، أنت قدير على أخذ آلاف الأرواح، فهل تقدر على إرجاع روح هذا الصبي!". .. وأنه قرّر أن يعتنق ديانة تنبذ العنف حتى الذي تتعرض له الحيوانات وأنه قضى بقية عمره رسولاً للسلام وعدوا للحرب. تقول إلي أين تريد الوصول وأنت تتناقض نفسك بنفسك. وجود الحرب بكل أهوالها في عالم بريء يفزّ إليه طوعاً أنمي بريء كلام لا يصدقه عاقل. لكن أن توجد في عالم منفي يقضّي فيه الألمي مدة عقوبته بعد طرده من الجنة وقد اكتشف الرب أخيراً كم شرير وخطير فهذا أمر يقبله المنطق.

نعم، كل هذا صحيح ومع هذا... ربما الألمي ليس مذنباً بالقدر الذي يخيل لك. في إحدى أشهر أساطير الأديمين يصفر الرب كريشنا على المحاربين ليتقاتلوا تحت بصره فيبقى كل سيف في الغمد.

يحتج البطل أرجونا على ربّ لم يجد إلا ساحة معركة للتجلي: "لكنهم أساتذتي وآبائي وأجدادي وأبنائي وأحفادي وأعمامي وأصهاراي وأقرباني كلهم. كيف أقتلهم؟ إنني ارتعش وقلبي يفيض شفقة. لن أقتلهم أبداً ولو من أجل العوالم الثلاثة. لماذا أقتلهم؟ من أجل هذه الأرض التعيسة؟ يا إلهي أي غنم من قتل بني دهرينا اشترا؟ سنأثم لقتل هؤلاء البشر البائسين".

يقطب كريشنا جبينه باغته الموقف. هل بدأ الكفر حتى قبل بداية الدين؟ يرفض الرب حجج أرجونا لأن للآلهة في مستوياتها رؤية أخرى لما هو معقول ومطلوب. يتوجه إلى عبده ملاطفاً:

- "يصدرك منك هذا أنت مرعب الأعداء؟ انفض عنك هذا التخنت المخجل".
ثم يمرّ للتهديد.

- "إن لم تقاوم فستكون خائناً يقال عنه إنه جبل. إن ضياع لشرف للذليل أقطع من الموت". كيف نستغرب ألا يدخل الهندوس بيوتهم قصتهم المقدسة مكتفين بالقسم عليها في المحاكم وهي أكبر مشرّع للقتل ومحرّض عليه.

يتمسك أرجونا برأيه؛ عبّره الرب بالخوف أم لم يعيّر.
- "ارشق سهمي في بهيشما ودرونا ولهما عليّ كم من فضل ومئة؟ أفضل أن يقتلني بنو دهير اشترا وأنا أعزل بلا مقاومة على ارتكاب هذه الموبقة".
الرب مجرباً الوعود البراقة.

- "إن متّ سننخل الجنة وإن عشت ستملك الأرض "

يتمسك أرجونا برفضه يواصل محاجة الربّ.

- "لن تكون خسارة لا تعوض. لن ندمر سلالتنا، وبتدمير سلالتنا ندمر تراثنا؟"
كأنّي بكرشنا يهزّ كتفيه.

- "الأجسام للحكيم مظاهر زائلة، والنفوس لا تقتل، سين لدى الحكيم الخير والشر." وفي فضاء خيالي حيث لا حدود بين مستويات العالم ولا زمن له اتجاه واحد، أصرخ في أرجونا: أفق إلى تناقضته. إن كن سَيان لديه القتل وعدم القتل، فلماذا يصرّ على دفعك لقتل الأحية والأصحب؟ إن كان على الحكيم أن يفعل الشيء من أجل الفعل دون انتظار الثواب فلماذا يطعمك بالجنة في العالم الآخر وبالمملكة في هذا العالم؟ أصغ إلى قلبك وإلى عطفك. لا تتحرك.

يواصل الربّ التحريض مستعملا أساليب أقل ما توصف به أنها في منتهى الخساسة:

- "تعتمّ لمن لا يستأهلون الغم"

ثم يلتجئ إلى الجمل الرنانة.

- "إنه الواجب. لا يرحب الجندي بشيء قدر ترحيبه بالقيام بواجبه في حرب عادلة".
يتكفّف صمت أرجونا ثم... يستسلم.

يدخل المعركة متجهما (لاوتسو)

حزينا، التلب يطّح شقّة

كما لو كان ناهبا لتقديم العزاء.

مما يتضح من هذه اللوحة أن للربّ أسباب قاهرة تبرر وتفسر بل وتشعر للحرب، وأن الأدمي مضطرّ للانخراط في المشروع المجهول للربّ أحبّ ذلك أم كره.

طيب ، لكن ما هذا المشروع وكيف تخدّمه هذه الحرب؟

لمواصل التمتع في إشكالية بمثل هذه الخطورة يجب مرحليا وضع المشاعر جانبا والتفكير كما يفعل حاسوب لازال بعيدا عن اكتساب مشاعر البشر.

عودة للمعركة. تأمل كل هذه الحيوية والأدميون يتقصون على بعضهم البعض.

استمع للصراخ المتعالي من المقاتلين وقد اختلط صهيل الخيل بقعقة السيوف، بدوي المدافع، بزجرة الطائرات، بانفجار الصواريخ بهتافات الأبطال.

بربك أليس انتهاء الرحلة وسط مثل هذا الديكور الفخم أكثر إثارة من انتهائها على فراش مستشفى وسط غرفة صغيرة تضيقها مصليح باهتة يبلل العرق وتخفق روائح الأدوية؟

بيني وبينك، هل ثمة أقدّر من الحرب على اعتصار أعماق الأحاسيس والمشاعر وأقصى درجات الانتباه لعالم أروع ما فيه خطره؟

بيني وبينك دوما، هل ثمة حالة يدرك فيها الأدمي كم هي ثمينة حياته أعماق من التي يجربها وهو بين المخلب والأنياب؟

من الفيلسوف القائل: أنا أفكر فأنا موجود، كان عليه أن يقول: أنا أقاتل فأنا موجود.

تقول هذا ما تعنى به العسكريون الارستقراطيون على مرّ العصور بمجّنون الموت في الظروف المسرحية التي يسمونها البطولة.

معك ألف حق، لنا أيضا أكره الأبطال -أقصد هذا النوع المزركش بالأوسمة- ومقتنع أنه لا بطولة في إعطاء الموت وتلقيه وإنما كل البطولة في تعيد الحياة، أن البطلات هنّ النساء في حملهن، في مخاضهن، في سهرهنّ على الطفل المريض، أن الأبطال هم الرجال في خر وجهم إلى لصيد الخطر، إلى الحقل الغارق في الوحل، إلى المنجم الخائق وإلى المحيط المرعب.

إذن كيف سنجد للحرب تبريرها بل وهل من الممكن تبرير وجود الحرب فما بالك جعل البحث عنها سبب هروب آدم وحواء من جنة الخلد ؟

هل يمكن تصوّر الحضارات البشرية دون الحروب وهي التي بنتها ودمرتها؟
ألم تفتح الحرب بالقوة الطرق التي وحدت بين قبائل وشعوب فرقت بينها المسغلت الشاسعة برا وبحرا ليتسارع تبادل الأفكار والبضائع والجينات.

ألم تكن أداة خلق دول ما كلن لها أن توجد لولاها؟
أليس صحيحا أن المدن التي تنمرها الحرب أجمل بعد إعادة اعمارها مما كانت عليه قبل خرابها؟

مما لا شك فيه أن الأسلحة التي تطورها البشرية باستمرار هي أدوات دمار هائل. لكن أليس صحيحا أن تطور الكم والكيف فيها مهّد وصاحب وتسبب في تطور انفجاري في العلوم، في التكنولوجيا، في القوانين، وفي كل مظاهر ما يسمى التقدم البشري؟ آخر مثال الانترنت الذي ينسى ملايير البشر المسالمين من مستعمليه أنه اختراع العسكر في بحثهم الدائم عن سلاح يتفوقون عن عدو لا يفعل هو الآخر سوى البحث عن سلاح أقوى بديهي أن الدمار الذي تخلفه الحرب هو الحافز الأسلسي للتجديد والتحسين والتطوير في كل المجالات أي للإعمار الذي قلما نربطه بالحرب والحال أنها هي التي مهدت لأكثر أصنافه حجما وعمقا ودواما.

إذن كلن كريشنا يعلم ما يجعله أو يرفضه أرجونا: الحرب شرّ لا بدّ منه لتعهد عالم ممنوع عليه الثبات على حال .

هل تكون المهمة تعهد عالم والدمار كالأعمار مجرد آلية في خدمة مشروع لم تتضح بعد كل أبعاده ومراميّه ؟

**

وقال لهم الصدى أنتم أحلامي وآمالي وهبتها الحرية والمسؤولية ابهروني بما تقدرون عليه

على أقصى طيف الأماكن التي تتجلى فيها قدرات الأدميين على الدمار ساحة المعركة وما يتعالى منها من صراخٍ واهلك وحشجة... على أقصى الطرف الآخر هذه القاعة الغارقة في صمتٍ مهيب التي ستشهد الاحتفاء بأروع ما يقدر عليه الأدميون في مجال الخلق والابداع.

يا للفارق الهائل بين بشر ساحة المعركة وبشر هذه القاعة رغم أن لهم نفس الأجساد ونفس العقول والقلوب !

هم الآن وهنا جالسون جنباً لجنب لا أصوات مرتفعة ولا حتى نثرثة هلمسة يحاذرون من السعال والعطس. أهم شيء أن أيديهم خالية من كل سلاح تركوا معها خارج جدران القاعة حروبهم وخصوماتهم التي لا تنتهي. كلهم انتباه، انتظر، تشوق إلى ما سيحرك داخلهم من الأحاسيس والمشاعر ما لا يجزبونه إلا نادراً.

أمامهم بشر آخرون منهمكون في تجربة آلاتهم للتأكد من جودة الأصوات التي سيستخرجونها منها عندما يبدأ العزف.

يتوقف البصر مطولاً عند امرأة جميلة تنفخ في شيء اسمه الناي. ما أنا متأكد منه إنها لن تغرس أظافرها في عنق زميلتها لأنها منقسمة شرسه، أنه لا عازف كمنجة واحد سيضرب عازفاً آخر مدعياً أنه يشوش على عزفه ويسرق منه الأضواء وأن عازف التشيلو لن يخرج غاضباً بعد رمي آله على الأرض لأنه لم يأخذ حقه من اهتمام قائد الأوركسترا.

كم هم مسالمون، وقورون، منضبطون، متحدون، متقنون، متعاونون هؤلاء البشر الذين سينغمسون في لفتخ والنقر وذبج أوتار الكمان!

تأمل الآن الأدمي الواقف مديراً ظهره للمستمعين وجهاً لوجه من سيتلقون أوامره الصامتة. لن ينهض أحد من الجوق ليفتك عصاه بحجة أنه أصلح للقيادة. لا أحد سيصرخ من وسط الجمهور أنه غير متفق على كيفية ترجمته للنوتات الموضوعية أمامه.

هو مُطاع لأنه لا يستبدّ بقرار عندما يمر هنا بالنطق وذاك بالصمت وأخر برفع الصوت ورابعاً بخفضه. هو يعطي لكل واحد الفرصة كاملة ليبلور أحسن ما عنده هُمة الوحيد، إبراز المواهب والتنسيق بينها.

إنه السيد الخادم الكفء الذي لم تجده السياسة والإدارة أو التعليم. لماذا لا يكون هذا الأدمي الذي تُنفذ أوامره ونواهيته وهو لا ينطق حرفاً ولا يهدد أحداً نموذج كل من يحكم؟

نحن إذن أمام مجموعة توزعت بينها السلطة بكيفية عادلة جُمعت صراع الترسبات ووحدت الجهود لتأدية مهمة نجاحها نجاح كل واحد ونجاح الكل.

أين ترى شينا كهذا في علاقات الأدميين ببعضهم بعضا خارج تنظيم الأوركسترا
السيمفوني؟

الموعد الليلية مع رائعة من روائع عملاق من عمالقة الموسيقى العالمية.
يتصاعد صخب يدشن به العازفون كل حفل، ربما لينكروا بما تصدره الآلات من أصوات
مُنكرة عندما لا يُقرض عليها الأدميون ارادتهم.
يستحضر الكهل الجالس في مكان قصي من القاعة أول لقاء له مع إحدى أشهر أعمال
الرجل.

تهمس الأم في أذن طفل أصبح مراهاقا.
- يا بُني إنك تصم أذَان الجميع والجبرلُ يتَمرون. ألم تملّ من هذه الأسطوانة تسمُعها ليلا
نهارا؟

- ليذهبوا إلى الجحيم، اتركيني، لا يدخل أحد غرقتي.
ها هي تردد لنفسها "اسم الله على ولدي؟ وبها قلق لا تخفيه وهي تقلجى ابنها نصف عار،
منتصبا على السرير، في حالة متقدمة من الهيجان يقود بمسطرة الحساب الأوركسترا
الضخم في فضاء لا تراه هي ولا من يختبئون وراءها من إخوة مذعورين.
- يا بني لا يمكن أن يتواصل الأمر هكذا. حقا بدأت أخشى أنك مصاب ب...
لوثة من الجذون؟ كلا وإنما بموجبات متتالية من الفرح الغامر والروح في وصل مع أنغام
ترفع من نصت إليها إلى حالة تشبه نشوة الجماع.
ذات يوم تعبر المراهق فكرة مثيرة. السمفونية الخامسة؟ ثمة إذن أولى وثانية وثالثة ورابعة،
ومن يعرف؟ ربما سدسة وسابعة... بهذه الروعة؟ مستحيل. المعجزة لا تتكرر... لكن ماذا
لوا!

ها هو يقصد المتجر الوحيد في المدينة لبيع أسطوانات الموسيقى الأجنبية يسأل البائعة
الاسبانية العجوز.

- سيدتي، هل لك سمفونيات لبتهوفن غير السمفونية الخامسة؟
- أسفة، لكن عندي الكثير من سمفونيات موزارت وهايند وتشايكوفسكي.
- من؟ لا أريد إلا بتهوفن.
- انتظر، أنت محظوظ. أظن أنه بقيت لي اسطوانة أخيرة للسمفونية التاسعة.
تمد إلي العجوز كنزا من أغنى كنوز البشرية لا يكلف الحصول عليه أكثر من ثمن علبة
تبغ. تتسع ابتسامتها لا أدري لليوم تعاطفا أم تهكما ثم تقول لي ضلكت:
- التاسعة هي السمفونية الوحيدة بالغناء، لكن المعني ليس بتهوفن.
تتكرر المعجزة. يجثو المراهق على ركبتيه وقد ابتغت روحه الصلاة، لكن إلى من يتوجه
بالابتهايل والحمد والشكر؟ ربما جزء من الشكر لامرأة زحلت منذ زمن بعيد ورفضت أن
تُصدق أن صبيها بذلك العمر ومن أمة أخرى يمكن أن يهيم حبا بكل سمفونيات بتهوفن، أن
يجعل من التاسعة ملجأ المختار للفرار مما يزر به العالم من شر ومن قبح.

فجأة بصمت النشاز المفتعل لتتصاعد أولى نوتات السمفونية العظمى.
يدوي فرح الطبول فيحضن البرق والرعد داخل الذات لافي السماء.
تتحرك أعمق المشاعر بنسق الموسيقى، تغور معها في دهاليز الكآبة وترتفع معها إلى
أعلى درجات الفرح. انطلق يا ذاتي إلى الأعلى، حلقي، رفرفي، زغردي، غني، ارقصي،
ارتفعي، ترّفعي، توهجي، أصبئي لي ما بقي من الطريق.
لم يبق على السمفونية إلا إعلان نهاية الحداد وأن الفرح عاد سيّد العالم، تصالحنا أخيرا
مع ذاتنا ومع كل ذات بل وحتى مع العالم والصدى مرتاح لنجاح تجربته، راض عن أداننا
وفخور.

تتعالى الحناجر بالنشيد الرسمي للبشرية انتهى لصراع بين الكلمة والنغمة تظفرت
الطقتان لترتفع السمفونية إلى قمم لم يرق إليها من قبل فكر أو خيال والشعر من الأزل
موسيقى بالكلمات والموسيقى من الأزل شعر بالنغمات.

يا للمهندس الفنّان الألمعي الذي جمع هذه السهرة أصواتا لا متعة فيها متفرقة متروكة
للصنف أو للأيدي الجاهلة ليستخرج منها قصى ما يزخر به العالم من جمال!
هذه السمفونية التاسعة هي معلّم بناه الأدمي يتهوفن من ممكن الصنع الذي تسمح به
الأصوات، مثلما بلور لاوتسو وابن عربي وإيسا من ممكن الصنع الذي تزخر به الكلمات
أروع القصائد... مثلما بلور أكبر المهندسين المعماريين من المادة الصماء كاتدرائية
ستراسبورغ وهرم خوفو ومقبرة التاج محل.

هل ثمة شيء يبزر وجود الأدمية ويغفر لها موبقتها غير قدرتها على اختراع الفنّ لإعادة
بناء العالم أو لخلق عالم موازي أجمل من العالم الأصل؟

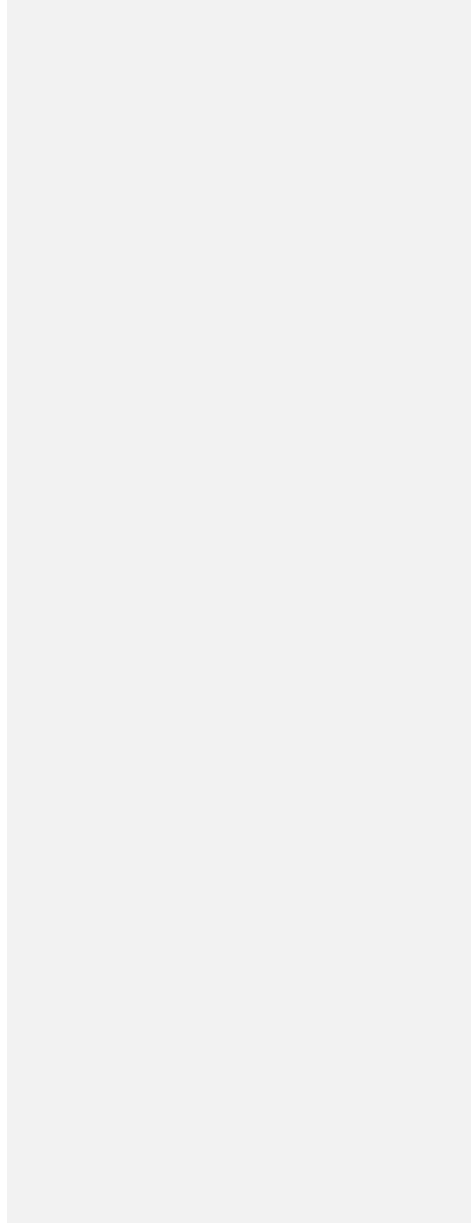
مع بيكاسو، يدير الأدمي ظهره للمشهد المألوف للعالم، شبع من جمال الطبيعة وجمال
الأجساد، وكل ما يعنيه الآن ما يستطيع أن يخلق له من أشكال لم توجد من قبل.
أيا كانت الوسائط الحسية، كلّ لسان حال الأدمي يقول للقلبان الأعظم: انظر ما الذي أنا
أيضا قادر عليه أنا أيضا.

لكن يا للثمن الباهظ!

من يستطيع استحضار ما عاناه يتهوفن من آلام قبل وأثناء تجميعه الأنغام التي سحرت
الملايين؟ أي أزومات نفسية رهيبه دفعته لتدمير كبده باستهلاك مفرط للكحول؟ كيف واجه
فقدانه السمع وهو الموسيقى الذي لا يحتاج لشيء أكثر من حاجته لسماع ما يؤلف من
أنغام؟ وقبل يتهوفن من يستطيع تخيل عذابات شبرت وموزارت كم من عمالة الفنّ والفكر
الذين صنعوا معالم العالم اللامادي الذي نعيش فيه... أضف عذابات ملايين النكرات الذين
بنوا بأيديهم العارية سور الصين الأعظم ومعابد تيكال وأنكجور وكل ما يحفل به الفضاء
الحسي من روائع الأعمار.

ثمة إذن ثمن رهيب للإعمار يضاف لثمن الدمار أيا كان فضاء إعادة التصنيع
ومع هذا... ألا يستأهل إعادة خلق العالم كل التضحيات وأكثر إن تطلب الأمر.

**



وقال لهم الصدى ما زال أمامكم تحديات هائلة فلا تهنوا ولا تحزنوا.

تأتي من مذياع السيارة المرهقة بعدد السنين آخر الأخبار عن الحروب العديدة الجارية رحاها في العالم، عن الحرب الكبرى الهائلة العواقب التي بدأت الاستعدادات الحثيثة لها، عن آخر الأوبئة، عن آخر الجرائم في هذا المجتمع أو ذلك. لمزيد تعكير المزاج يتجدد الصراخ على المقعد الخلفي للسيارة. سيكون الرجوع من المدرسة بالقطنين الثرسنين تحديا عسيراً لأعصاب لا ينقصها التوتر. لأقتل اللامبالاة فالصراع غالبا عملية مسرحية لا تتواصل إلا باهتمام المشاهد. كم من حروب كانت تتوقف سريعا بغياب المنفرجين أو بتصاعد ثلوثهم. يتعالى الصراخ نذيرا بلن المعركة مرت من التراشق بالكلمات إلى العَضّ وجذب الشعر. يجب إيقاف السيارة والتدخل بشيء من الضرب الخفيف في مستوى أماكن مكنزة من أسفل الظهر محمية بالمعطف الغليظ.

- والآن هل من الممكن أن أعرّف سبب المشاجرة؟

تشهق تقيحه بالدمع:

- قلت لها كم من مرة أن تنظر من نافذتها. لكنها تصرّ على أن تنظر من نافذتي أنا. أريد نافذتي لي وحدي.

تصرخ تفاحة تشهق بالدمع:

- بل هي التي تنظر من نافذتي وأكثر من هذا، إنها تنير ظهرها لنافذتها، لا تريد إلا للنظر من نافذتي.

بربك، أليست أغلب المشاكل التي يتحدث عنها مذياع السيارة وتلفزيون البيت كل ليلة نتيجة أن الرئيس زيدا غضب من الملك عمرو فجهز الجيوش وبعث بحملة الطائرات وبالغواصات النووية المحملة بالصواريخ العابرة للقارات لتدمير مئنه عقابا له لأنه نظر من نافذته بدل الاهتمام بتنظيف الزجاج القذر لنوافذه هو؟

أصرخ بأمر اعرّف وقعه الحقيقي أي لا شيء.

- انظروا فقط أمامكما. ممنوع النظر من النوافذ الجانبية.

لا وهم لي حول ما يجري خلف ظهري وتواصل نظرات الاستفزاز والتحدّي والعدوان المبيّت على نافذة الأخت الأخرى. وعند فتح باب السيارة أجد تفاحة واضعة ذراعها على حافة نافذتها لمنع كل عدوان عليها وتقيحه ورائها تخرج لها لسانها.

تعود البنّتان للخصام يختلط ضحكي بصراخهما وصراخ أمهما من الصلّون تصرخ بالكفت عن الصراخ.

أخيرا الليل. آخر واجب اليوم.

تصرخ البنتان وهم تقفزان على السرير: القصة، القصة، القصة، البقية، البقية!
- قصة؟ بعد كل ما أظهرت ما طيلة اليوم من سلاطة لسان! انتهى كل شيء بيننا وإلى الأبد.
على كل حال الدور ليس عليّ، أعتقد أنه على تقيحه مواصلة قصة اللبلة الفارطة شريطة
أن تكفّ عن الرقص على السرير.

تصرخ تفاحة وهي تضاعف من حيوية القفز.
- تقيحه لا تعرف شيئا، "يا"، أنت من يقود...ونريد قصة جديدة.
أي قصة أختار لهذه السهرة تتماشى مع مزاجي أضع بها حدًا لآلام البشر وقد أصلبني منها
قرف ما بعده قرف؟

قصة الطوفان مثلًا!

تصرخ تفاحة من أولى الجمل:

-إنها قصة نوح...

تصرخ تقيحه وأنا أيضا أعرف أنها قصة نوح ...

ما لا تعرفه البنتان ولا أي من الألبانيين الساميين والهندوس الذين اخترعوا هذه الأسطورة
حقيقة ما جرى. وحده من خير كواليس السلطة وكيف تؤخذ القرارات المصيرية قادر على
رواية القصة الحقيقية .

بعد قراءة متمعنة لمحاضر جلسات المشاركين في المؤامرة الكبرى وبعد مكافحة تقارير
كل عيوني المبتوثة في أهم أركان الفضاء الخيالي الذي تتحرك فيه البشرية، يمكنني أن
أكشف لقراء الرحلة تفاصيل ما حدث وراء الستار.

"ولما عزمت الآلهة على تدمير العالم بالطوفان"²

قف، عن أي آلهة يتحدث صاحب التقرير ثم لماذا عزمت هذه الآلهة على تدمير الأدمية
ولماذا بالطوفان؟

بخصوص النقطة الأخيرة ، السبب واضح وضوح الشمس. بديهى أن الحروب الجبارة
التي يستعملها الأدمى باستمرار لإعادة صياغة العالم على هواه مكلفة لحدّ كبير للعالم الذي
يحتوي على ما لا يحصى ولا يعدّ من الأجناس الحية الأخرى. مما يعني أن المشروع
الخفي الذي خرج آدم من أجله أصبح يشكل خطرا داهما على جزء كبير من سكان العالم
الأخرين . ومن ثمّة لا غرابة في ما يلي.

التفاصيل حسب مصدرى الموثوق بها.

يومها افتتح الجلسة المهيبة أمون -رع بنفسه:

-أيها الزملاء والزميلات المسجلين في دفتر آلهة البشرية المعترف بهم قانونيا، لاجتماعنا
الليلة بالغ الأهمية حيث لم يعد مجال للتراخي والتأخير في موضوع الأدمية. حتى الصدى

² نص شهير منقوش على حفرية من البحرين عمرها بضعة آلاف من السنين (الناشر)

يبدو أنه انتبه للغلطة التي ارتكبتها. هو مثلنا جميعا مصدوم من هذه الكائنات. أخيرا فهم أن آدم يبنوي أن يكون صانع العالم لا صنيعته، مالكة لا مملوكه.
يتدخّل زوس بقوة:

- حقا لم يعد من الممكن مواصلة السكوت على النمار الهائل الذي تُلققه هذه الأدمية اللعينة بالحيقة المقدسة. هل رأيتم السرعة التي انتشروا بها في كل أصقاع العالم والحال أنهم كانوا مبرمجين لقطعة محددة من الفضاء ومن المناخ كما هو الحال بالنسبة لكل الأجناس الحية؟!، هل رأيتم تكاثرهم المهول؟ هل رأيتم هل رأيتم كل هذا الحمق والتهور والقسوة في اقتلاع الغابات وتسميم الأنهار والمحيطات وتلويث السماء والأرض؟ هل رأيتم هذه اللوفاحة والعجرفة والقسوة في التعامل مع كل الكائنات التي شاء حظها العائر أن يضعها على طريقها؟ بل هل رأيتم فظاعة حروبهم وما تقفّت عنه عقولهم المريضة من أصناف التنكيل ببعضهم البعض. قلّتها وأرددها أكثر من أي وقت مضى: يجب إيقاف هذه التجربة حالا، يكفي ما كلفت.

يغتم بوسيدون الفرصة ليتدخل بقوة:

-هل رأيتم ماذا فعلوا ببحاري. حولوا لقمامات سائلة بما يكسبون فيها من بلاستيك وقاذورات أخرى... هل رأيتم ما فعلوه بالبحوث أجمل وأعظم المخلوقات... هل تقدرون أنهم بصدد افراغ محيطاتي من كل كائن حي؟ هل....
ينفجر بعل ضاحكا:

- أه الآن انتبهتم للكارثة! أما أنا فننتبه منذ ظهور الأعراض الأولى، لذلك فجرت على رؤوسهم بركن "توبيا". للأسف قدرة هؤلاء الملائعين على لصمود أمام كل الكوارث أمر مذهل.

تصرخ إيزيس في وجه بعل:

- أنت سبب تلك الكارثة العظمى! أخفقت في استئصال هذه الكائنات التعيسة لكنك نجحت في تدمير كما هائلا من الأجناس البرينة! أما وحقي لا يوجد رب ثانوي أعبي منك.
يصرخ أمون ر ع بأنه لن يقبل الخروج عن آداب الجلسات العامة ويأمر الإلهين بالكف عن تبادل اللكمات فهذا اجتماع رباني وليس حلبة ملاكمة.

يستطيع أخيرا كريشنا أن يسمع صوته:

- لا، لا، كلكم تبالغون في التجني على جنس بالغ الطرافة.

يلتفت إليه الجميع بالاحتجاج الصاخب:

- كيف؟ نسيت ما قلته في سهرتنا عند اللآلئ والعزى، أن هؤلاء البشر لا يدخلون قارة إلا وأفوا ما فيها من حيوان ونبات، أنهم وباء عالم يريد الشفاء منهم.
يرفع شيفا يده بوقار طالبا الكلمة:

- قلّتها من البداية وأردد لا خيار غير اغراقهم بالطوفان.

يقاطعه ووطنان بالعنف المعروف للإلهة الإسكندنافية:

- نعم لنغرقهم جميعا لا تترك فرصة لمختبئ في جزيرة نائية أو غابة كثيفة كما حصل بعد انفجار "توبا".

تسارع آتينا بالموافقة:

- أنا مع هذا القرار، إضافة إلى كون هذا الحل يوفر الروائح الكريهة ومن جهة أخرى يسمح بتوسيع المجال الحيوي للدلافين والحيتان وخاصة لسماك السردين، فكل الدلائل ترشحه، هو لا غيره، ليكون الرهان الناجح هذه المرة.

وحدها ليزيس المنهمكة في ارضاع ابنها حورس عنها غير متحمسة لقرار تصفية الأدمية. لكنها مشغولة برضيعها وليست مستعدة لأكثر من ابداء رأي.

من حسن الحظّ أو من سوء الطالع أن يتدخل في نسق القصة إله يبدو أنه ما زال على قدر كبير من السذاجة فيما يخص نوليا الصدى وطبيعة الكائنات التي أطلقها على العالم... إذ كما تقول الأسطورة:

"أراد الإله إينكي إتقلا الأدمية"

من إينكي هذا؟

كل ما نعرف عنه أنه هو الذي حمانا من الانقراض وأنا ندين له كلنا بوجودنا ومع هذا لا اسطورة تخرع له ولادة رائعة، لا ملحمة تتغنى ببطلاته وأمجاده، لا ديانة كبرى وحتى صغرى تقديسه، لا أتباع يلهجون بحمده ولا حتى معبد صغير مخصص له. ألم أقل لكم دوما أنني لم أتجنّ على الحقيقة بخصوص لوم الأدميين وأن أهم خصائصهم الجحود ونكران للجميل.

طيب، لكن ما الحجج التي ساقها هذا الإله المظلوم كي لا تنتهي رحلة الجنس البشري برمته.

[تلخيص المرافعة القيمة]

"أيها الآلهة أيتها الآلات، حضرات الزميلات والزملاء:

نعم أنتم محقون في استنكاركم للعدد الهائل من الغابات التي دمرها الأدمي، للعدد المريع للحيوانات التي أذلت واستترق وأباد. نعم الأدمي مجرم كبير لا جدال في ذلك، لكنه أيضا ضحية كبرى. لا تنسوا كم كل ولا يزال طريدة الكواسر المجهرية التي حصنته بالملايين عبر العصور. تذكروا ما عانى ولا يزال من تفجر البراكين، من ميدان الأرض، من غضب السماء تعاقبه تارة بالجفاف وأخرى بالفيضان.

ثم إن قضينا الآن على الأدمية فيماذا نعوّضها؟ لنتركها تستنفد وقتها القلوني ونعدّ المكان للوريث. بخصوص الأجناس التي يتحسّر عليها لسان النفاخ، أليس قانوننا أن كل جنس ينقرض يستأهل الانقراض؟ وفي كل الحالات التجربة لم تلخذ الوقت الكافي ليجوز فيها أي حكم نهائي، حيث لهذا الجنس -مثل بقية الأجناس الحية الأخرى- الحق في الخمسة ملايين سنة القانونية. ختاماً أودّ تذكركم هذه تجربة خاصة يراقبها الصدى لا غير. هو لم

يعط أمرا بإيقافها خلافا لما يدعي بعض الزملاء والزميلات. أما ادعاء بعض المناشير المغرضة أنه ندم على خلق الأدمية فمحض اقتراء.
يتعالى صراخ الآلهة خاصة رؤساء أقسام الأجناس المهتدة بالانقراض بتواصل البشرية، وهو ما قد يحيلهم إلى التقاعد المبكر ويقفل من سلطاتهم داخل المجلس المؤقر. لإنهاء نقاش مرهق يتفق الجميع على الحسم بالتصويت.
لا يحصل اينكي إلا على صوته وصوت ايزيس فيخرج غاضبا ومقتنعا أن المجلس بحاجة إلى تطهير واسع.
على كلٍ هو قزّر عدم الامتثال للقرار رغم شرعيته وديمقراطيته. بل هو خطط لكل التفاصيل حتى لا تتجح خطة زملائه غير الأعزّاء.
كيف وماذا فعل اينكي؟

تواصل الأسطورة:

"فاختار الملك زيوسدرا وعلمه بناء السفن ليحصى حياة الإنسان"

ويقيم في أرض العيور

أرض لملون حيث تشرق الشمس".

ينهر اينكي آدم صارخا فيه أن يعجل بالعمل وأن يكف عن لشجار مع أنثاه قبلًا بكل ما تريد حمله من غش حتى وهو يعلم فعلا إنه غير ضروري.
يصبح آدم جاهز اللإبحار مع حواء وكل ما استطاع شحنه من كائنات حية اغتنمت الفرصة للنجاة من طوفان لم تكن تفهم لماذا يشملها وهي بريئة من آثام الأدميين.
يعمّ الماء كل شبر في اليابسة مغرقا كل ما تحمل على سطحها من بني حرية وآل نبات. تبدأ السفينة في تسلق الموج تارة وفي السقوط تارة آخر في هاوية تبدو بلا قاع.
تندافع الأفكار السوداوية في ذهن حواء : شكرا لك يا اينكي على حسن النوايا، لكن هل ثمة شيء في هذا العالم ما يستاهل البقاء من أجله. كم كانت فكرة الفرار من الجنة طمّنة. حان وقت التخلّص من هذا الأرق المليء بالكوابيس الذي نسميه "الحياة"، وما على آدم إلا أن يذعنني في الليج أو أن يجزّب خلق حواء أخرى من عظم الساق أو من أي طلع يشاء.
نعم تفكّر حواء في الانتحارمكت مشاكل لا ولن تنتهي مع آدم ونريته الشرسة ولا ترى مائعا في افشل مشروع النجاة لتنتهي كل هذه القصة التعيسة.
ككلّ انتحار أنثوي لا بد له من إخراج جيّد. تنتظر حواء قبل اتخاذ قرار رمي نفسها في أمواج المحيط المظلم أن تخترق أشعة القمر السحاب ليراها آدم وهي تفتح ذراعيها مودعة الحياة في حركة مسرحية. طبعاً سيبحث الخطي لمنعها بوابل القبل من القفز في الماء وهو من يعلم أن معرفتها بالسباحة ليست أحسن من معرفتها بالطبخ.
أصرخ فيها: هيا خلصينا، اففزي.
ترمقني أم الأمهات بنظرة سواد. حقا لا أفهم كيف أحبّنتي "ما" طول حياتها ولا أتحدّث عن "ح"؟

البيتان بصوت واحد متشاكل: "بأ"، لا تحبك إذا واصلت هكذا.
 يمكنني أن أوصل القصة لنفسى غير متيقن إلى أين سأصل بها وستصل بي.
 إذن تنفس "إينكي" الصعداء وهو يشاهد تراجع حواء عن فكرة الانتحار في آخر لحظة
 وبقاء الباخرة طافية على أمواج المحيط رغم قلّة خيرة الرّبّان.
 كل الأمور على ما يرام؟ المسكين غير واع بما يحاك في الخفاء وقد دعا خصومه من
 الآلهة إلى اجتماع طارئ ببقطة واحدة في جدول الأعمال: تحرير بطاقة جلب ضد المتمرد
 وإحلالته على المحاكمة ومواصلة تنفيذ ما وقع الاتفاق عليه.
 ومما أسرت به كالي في أذن أفروديت بعد نهاية الاجتماع الطارئ:
 - مسكين إينكي، لا شك أنه يحلم هذه اللحظة بحمامة تطير من السفينة بحثًا عن الأرض
 الصلبة التي ستصلها السفينة. أه لو يعرف ماذا أعدنا له؟
 هم أعتوا جبلا من جليد يخرج من الظلام ليغرس خنجره الأبيض في جنب سفينة أرادها
 إينكي النجاة لكنها الآن التلوت والمحيط المظلم هو المقبرة.
 تصرخ تفاحة وهي تغالب للبقاء مستيقظة.
 - هذه قصة التيتانيك، شاهدت فيديو جميل عنها.
 تهمس تفاحة لنفسها:
 - أنا أيضا اعرف أنها تيتانيك وليست وحدها تفاحة التي تعرف.
 نعم إنها قصة التيتانيك نطعم بها قصة نوح لا عتاصر مزيد من المعاني من مكافحة
 الفصتين.
 إذن تغرق الباخرة ويطفو بعض الناجين على سطح المحيط النافذ الصبر لا يتلاعهم ابتلاع
 القرش لصغار الأسماك. يمسك آدم بشعر حواء يجزها إلى الخشبة التي نجح في امتطائها
 صارخا كالمجنون: البيتان، البيتان؟
 ترفع تفاحة عقيرتها بالصراخ وهي على خشبة أخرى وسط المحيط المظلم. من أين لأحد
 أن يسمع لها صوتا وصخب الموج على أشده؟
 تفاحة الآن تسبح بهدوء وتركيز تصارع الموج تبحث عن أختها. أي حياة دون تفاحه؟
 يصرخ أحد الآلهة في زملائه المنكبين على متابعة الوضع باستغراب متزايد.
 - انظروا إلى البنت! اللعنة على هؤلاء الأدميين، إنهم يقاومون إلى آخر نفس.
 هل يكون فعل الأفعال: قاوم، تحدى، أصر، تمسك، تشبث بالحياة؟
 تنصّر حواء للصدى لا تعرف أنه هو المنقذ وأن إينكي لادته لا غير: أعطنا فرصة أخرى.
 سننح المهمة هذه المرة وسنعود لك بهذا الذي بعثنا نبحت عنه.
 إينكي الآن على زورقه مجنفا ببطء شديد يتحسس طريقه في الظلام الدامس.
 تصرخ فيه تفاحة دخلت حلمي ودخلت حلمها: انظر يا إينكي إلى يسارك، تفاحه على مرمى
 مجداف، إلى اليمين قليلا. هكذا، نعم هكذا، والآن ترقق في جذبها وغطها بسرعة؛ إنها
 تموت بردا، لا تنس دميتها إيتي وإلا سترفض الصعود. ثم توجه إلي:

- "٤٦"، انظر لقد جعلتُ زورق الإنقاذ يصل في الوقت ويتشغل الجميع؟ ألسنتُ رائعة؟
- بل أنتُ أروع من رائعة يا جنوبيتي. أنت الحياة لا شيء آخر. براغو لك وللرب إينكي.
هل يجب أن نفرح بمثل هذه النهاية لانتصار الحياة على القناء أم أن نزداد همًا
لتواصل محنة الأدمية ومحنة العالم؟... هل نغبط الغرقى ونبكي سوء حظ الناجين أم نبكي
سوء حظ الغرقى ونهني الناجين؟

كلُّ صبرك نفذ من هذا النص ومن تنقضاته المفضوحة.
مهلاً يا صاحبي، كيف يمكن للبث في عدة قصة القصص والأدمية منذ انبثاقها مقسمة بين
حنين جارف للعدم وإغراء لا يقاوم للوجود.
**

في هذا اللحظت المباركة من عالم لم يعد ساحة صراع بلا نصر ، كل المواضيع عن جيران وصلوا متأخرين عن مواعيدهم ... عن أقارب ركبوا القطار في الاتجاه المعاكس... عن ربات بيوت أطارت الريح غسيلهن فجاء الجيران به البهين... عن الزواج الذي تأخر أكثر من مرة لعدم توقّر قاعة الأفراح وفي الأخير قرّ القرار على الاحتفال به في أجمل حديقة بالمدينة... عن حصباء بنت ابنة العمّ التي أصابتها يوما قبل الامتحان فقبل المعلم إرجاءه... عن لقاء يوم الأحد على الشاطئ وتواصل لعبة "الرامي" إلى ما بعد منتصف الليل عند العمّ منصور في شهر رمضان... عن الرجل الذي اشترى خبزة ساخنة في طريقه إلى البيت فكلّ نصفها قبل أن يصل، غير منتبه لما فعل فضحكت زوجته ثم التهمت ما تبقى منها تُجاهد للتوقف عن الضحك وأرجعته من حيث أتى ليأتي بلأخرى للضيوف.

إنها ليلة ساخنة والصيف ضيف طرق على الأبواب باكرا هذه السنة. كم من مواضيع أخرى ستشّد المتسامرين بالحديث إلى آخر هزيع من الليل مستلقون على الرمل الناعم يفجرون بضحك ليس انتقام المقهور من القاهر وإنما ظفرة الحبور والمرح.

وسط سلحة الحوش تحت النخل العجوز تُواصل العصات والحالات الشكوى الضلحكة (الرجال! الله وكيلك، لكن "الله يخلي لنا رجالنا") ثم تبادل آخر أخبار الحيّ (همسا) عما يقال حول حبّ فلان لفلان وكيف أن الخطبة تمت سرا وأن العرس قد يحصل حل عودة الخطيب من بلدان المهجر محمّلا بالهدايا.

وفي هذا العالم أو قل في حالته المباركة هذه، لا خشية من توقّف توافد المرتلين وكل الأخبار التي وصلتهم قبل الاحرام تؤكد أنه لا خوف من تجربة الوجود.

يجمع الحبّ كثنيتين رقيقين يمزجان روحيهما وجسديهما يفتحان وهما في ذروة النشوة طريق الحجّ للحاجّ الجديد والشاعر كعادة هو الشاهد على الليلة القتسية.

في ليالي كتمت سرّ الهوى بالذبحى لولا شموس الغسّور (ابن الخطيب)
 ملّ نجم الكأس فيها وهوى مستقيم السير سعد الأثر
 وطُرّ ما فيه من عيب سوى أنه مرّ كلفح البصر

يتكوّر بطن حواء شيئا فشيئا فيتعلم آدم عادة جديدة لن تفارقه إلى يوم خروج الطفل الموعود: متابعة نقات القلب وأذنه على البطن المنتفخ، وحواء واضعة راحتها على شعره منتبهة أنه بحاجة أكيدة إلى مقصّ الحلاق.

تأمره بإعداد القهوة لأنه ينتجج دوما أنه يطبخها أحسن منها، فيعدّها وهي عاكفة على خياطة وشاح للرضيع حتى لا يبرد يوم تجره فخورة إلى الحديقة وهو في أولى خطواته على الطريق. ثم ينتقلان من المطبخ للجلوس تحت عريشة العنب يرتشفان القهوة، قمدح قهوته معترفة أنها أحسن قهوة ذائقها. يفتعل التواضع يستحثها بخبث على مواصلة المديح، فتعطيه ما يريد وبعض القبلات زائدة، ثم تنهض لتعلق الغسيل على الشريط، تفكر في كل الأشياء التي يجب إعدادها لمجيء الطفل المبارك.

في هذا العالم - بل قل طوال حالته المباركة يصل الطفل الموعود في الإبان دون تكليف أحد مشاق حضوره ولا حتى أمه وهي تضعه كما تتفتح الوردة لإطلاق أريجها. ها قد أصبح حضرا بين يدي أمه وأبيه بكل خصائصه وبكل امكانياته المضمنة داخله. هو لم يعد احتمالا ووعدا وإنما كاننا موجودا في هذا العالم. لكن ما معنى هذا المصطلح الذي يستعمله الكل ولا أحد يفهم بالضبط عما يتحدث؟

المهم أن الطفل الآن مصدر فرح لأم فخورة وأب متهيّب من مسؤولية لم يكن يتصور حجمها ناهيك عن فرح كم من أعمال ولخوال، من عمات وخالات ... كيف لا والرسالة التي يحملها المولود الجديد: وصل المدد لمواصله الطريق إلى أبعد نقطة . كم من ذكريات عن طفل هائج طول الوقت لا يعرف كيف يصرف كل الحيوية التي تسكنه وهو في خصام مرح لا يتوقف مع صبية ينفعون بعضهم بشدة مفتعلة، ومنهم الأشقياء الذين لا يحبون شيئا قدر شدّ شعر البنات.

ها هو يبحث عن أعداء تضحك كل من حوله: والله يا "ما" لست أنا. يكذبون علي. آه يا أنني. تؤنبه الأم الأزلية والآن كفت عن الركض أصبنتي بالدوار وليك أن تجذب مرة لخرى شعر أختك.

أنا قلت لا أشرس من الأدمي وهو طفل، لا أعنف من الأدمي وهو طفل، لا أظلم من الأدمي وهو طفل، ولا أشد أنفية ونرجسية منه؟ إشاعة أخرى من أعدائي لتشويه سمعتي عند الأطفال وأمهاتهم وجدّاتهم. تقول، لكن الكلام مكتوب في هذا النص ويكفي العودة إلى الصفحة كذا. نعم لكنها جملة أضافها الحاسوب بعد أن تم الاستيلاء عليه من قراصنة الفضاء الافتراضي لذات الغرض. عزيزاتي الأمهات والجدات والخالات والعمات خاصة المسجلات في القانمات الانتخابية-والله تقديمي كمعارض بدائي للرضع كلام مبالغ فيه وذلك رغم اختلافاتي الجذرية والعميقة معهم، والدليل أنني ارتكبت منهم اثنين ثابتين، ناهيك على أنه يؤسعي إثبات أنني لم أرم لا بتفاحة ولا بفتيحة من النفاذة حتى عندما تبولنا على أكثر من مرة. أما بخصوص الأطفال فلما على قناعة -على الأقل هذه اللحظة- أنه لا يُعرف للعالم وجه جميل مُضحك منعش مُفرح إلا وكان وجه طفل.

كيف لا والحل أنه لا أسهل من توليد الفرح في هذا العمر أيا كانت الأسباب القادرة على توليد الشعور المبارك من بين كل المشاعر.

يتب الطفل من فراشه لإعداد ساحة مهرجان اقتطعها من جزء من الزقاق الضيق خلف البيت. يضع صورته الملونة على حيطان الجيران ويضع علامة "ممنوع الدخول". ينتصب في مدخل الزقاق. يتدافع أطفال الحي لحضور الحفلة وكلهم طمع في الجوائز التي أعلن عنها المنظم. يدفعون ثمن الدخول ولا يعرف الطفل أين يضع كل نوى المشمش هذه. تبدأ المبراة بتصفيف النوى في خط مستقيم ينطلق من الحائط إلى وسط الساحة. يقف المتبارون بضعة أمتار بعيدا ثم يرشقون صف النوى بنواة ليجمعوا كل ما وراء التي أصابها القنفة

البارعة. أما الجائزة الكبرى فهي أكديس نوى مشمش الخسرين. ياله من كنز هائل حصل عليه الطفل بشيء من المهارة وقليل من العثن. ثم ينفجر الفرح داخله ودخل الرابعين والخاسرين على حدّ السواء فيصبح لشارع تجميرا لأطفال هانجين يثيرون ضحك المرة واحتجاجا غير مقتع وغير مقتنع من طرف الجيران.

الفرح أتمن ما يكافئك به العالم على طول صبرك على محنه... الحالة التي تمرّ بها الذات وقد توقفت الزمن عند حاضر مكتمل لا حاجة لها بنكريات ماض جميل مصنوع من الخيال ولا بمستقبل مشرق مصنوع من الوهم.

ها قد أصبح الطفل أبا وهو المكلف الآن بالسير على تغذية الفرح لكي لا يتوقف العالم بين أزمة وكارثة عن اتخاذ حالته المباركة هذه حتى ولو لأقصر زمن.

تهزّني تفاحة من كنتفي بقوة:

- "أبا! كفى نوما، وعدتنا بجولة طويلة في الغابة الصغيرة التي فوق الأكمة. سنذهب ثلاثتنا على الأقدام لنجمع زهورا جميلة لـ 'ما' ثم نعود بعد الظهر لأكل الكعكة اللذيذة.

لم لا شريطة أن أعتنم كل فرصة للاستلقاء على العشب لا أفعل شيئا باستثناء التمتع برؤية تفيحة جاثية على ركبتيها تتأمل مندهشة كأننا ما زالت لا نعرف له اسما في يتحرك على غير عجلة من امره.

رويدا رويدا (أيسا)

تسلى جبل الفوجي

أيها الخبزون.

من جديد تفاحة وازعاجها اللطيف الذي لا يتوقف لحظة:

- "أبي؟"، ارفع شخريك، انظر إلى الإكليل الذي صنعته لتفيحه. الآن أنت الذي ستصنع لي إكليلًا.

هل من خيار آخر غير النهوض متناقلا لجمع الزهور أنتقيها بكل عناية، أنظمها في دائرة أضعها على الشعر الفاحم. أدور حول الطفلة جاثيا على ركبتي أعتل من وضعها.

- هذا تاج طفلة أعلنها ملكة هذه الربوع وتفيحه ولية عهدها.

تصرخ تفيحه فجأة وهي في قمة الجتل لقدم زائر غير متوقع:

- المطر... المطر... المطر!

ترفع البنتان عقيرتهما: "أنا أعني تحت المطر..."

- تغنيان دون شمسية! لكن البطل لا يعني في الفيلم إلا وهو يراقص شمسيته.

تلتقط تفيحه عود خشب ترفعه فوق رأسها. نرقص ثلاثتنا تحت المطر والكل مشغول بلشمسية دفاعا عنها وافتككا.

تنتبه تفيحه لممرور الساعات وأن علينا العودة بسرعة إلى البيت.

- "ما؟"، تنتظرنا. عجلًا.

لكن تفاحة مشغلة بأمر آخر قد تترتب عنه عواقب مزعجة. ترفع إصبع التحذير:
 -"يا"، انظر إلى بطلونك عند الركبتين. أصبح أخضرا من الاحتكاك بالعشب، ستخاصمك"
 ما؟، يجب أن أجد حلاً لكيلا نتفطن.
 تضع البنت إصبعها بين أسناتها مستغرقة في التفكير لإخراج أبيها من ورطة صغيرة.
 - سندخل البيت خلسة ثم تعطيني البطلون أنظفه.
 الحلف الأزلي بين البنت وأبيها ضد الأنثى الأخرى ولو كانت أما وزوجة... حلفت لا
 يضاويه في المتانة سوى حلف الابن والأم ضد الذكر الآخر ولو كان أبا وزوجا.
 حلف؟ لغة العسكر والسياسة حتى في علاقة مثل هذه!
 كأني بالعالم بدأ يستعيد سحنه البشعة وأنه يصدد الانقلاب على جنبه الآخر، بدأ صبره ينفذ
 من طول هذا الفاصل. هو عائد إلى زهير الأسد بعد طول افتعال مواء القطر ربما لا يفعل
 سوى رد الفعل واستباق الأحداث. من يعلم أحسن منه أن هذا الأدمي الممعن في وداعته،
 لا يفعل سوى استعادة قواه للاقتضاض عليه مجدداً؟
 المهم أن تدوم اللحظة وأن يحترم الطرفان هدنة يترك فيها الأدمي العالم وشأنه لا يحاول
 تغييره، أو السيطرة عليه، ولا حتى فهمه، وفي المقابل يترك العالم الأدمي وشأنه لا يريد
 امتحانه، أو تزويجه فما بالك بمحاولة التخلص منه.
 أتوجه إليه: انتظر. لم تنته فترة استعادة الأنفاس. لم تلتئم بعد كل الجروح. لا طاقة لنا الآن
 على العودة إلى الصراع. رحماك، امنحننا مهلة إضافية.
 تعود إلى العالم ابتسلمته. ربحت هدنة إضافية ولو أنه لا وهم لي حول دوامها.
 نعم إنها لحظات لا تقدر بثمن وهي التي يكشف الوجود وجهه المضيء وأنه ليس فقط
 صراعاً مريراً من أجل البقاء.
 تتدافع ثلاثتنا نحو الباب لتواجه منعاً صارماً بدخول بيت تُطفئ لئلا نكل هذا الليل
 والوحل ملء أحذيتنا. تصرخ الزوجة المزمنة والأم الأزلية:
 - لا أحد يدخل بهذه الثياب وبهذه الأحذية. تتحملون وحكمكم - وخاصة سيادة الأب -مسؤولية
 الزكام وما ينجر عنه من مشاكل لا دخل لي فيها. شكراً على الباقة يا حبيبتي إنها جد جميلة.
 سأضعها قرب فراشي لكن هذا لن يغير شيئاً بخصوص الأحذية. تُنزع كلهما في البهو ولا
 مجال للهرولة نحو المطبخ حفاةً.
 تراوغ تفاحة كسبا للوقت.
 - أعدك "ما" أنني سأنزع حذائي وسأغتر ثيابي فيما بعد، أنا جائعة والكعكة ستبرد وهي
 ليست لذينة إذا بردت.
 - الدلال مع "ب" فقط، فقلت الآن.
 لا شيء في نيرة حواء يدل على أنها تبحث عن تجدد الخصام، ومع ذلك لا شك في جدية
 الأمر واستحالة تجاهله.

أخيرا وبعد تغيير الملابس والأحذية يُسمح للجميع بدخول المطبخ. تُغالب "ما" زوها وهي ترى النجاح الباهر لكعكتها.
تحتج ضاحكة: كفى قُبلا بأفواهكم المملخة. النجدة، إنكم تخفقونني. ما هذا الركض حول الطاولة، توقفوا كلكم، خاصة أنت أكبر الأطفال الثلاثة.

وفي هذا العالم أو قل في حالته المباركة هذه، هناك أماكن مثل الحدائق العمومية توفر لك متعة هادئة وأنت تبتسم لرضيع تدفع عربته الصغيرة أم جميلة ثم تجلس لاستراحة طويلة بالقرب من بركة صغيرة أمام المساحة المخصصة للعب الأطفال حيث تتلاقى نساء الحي يتبادلن آخر الأخبار.

لنضف إلى المشهد العجوزُ التي تأتي كل صباح وكل مساء بطعام الصمام والغراب والبجع والكائنات تتدافع إليها لتأخذ نصيبها من الحب ومن الخُب. هناك أيضا المقهى الصغير على الضفة الأخرى للبركة الذي يسعد فيه الكل بتناول المرطبات واحتساء القهوة الساخنة وتبادل آخر الأخبار ولا مكان بين الجالسين لمتجهم، كلهم استبطنوا نصيحة الشاعر:

*قلت البشاشة ليس تسعد كأننا
يأتي إلى الدنيا ويذهب مرغما (إيليا أبو ماضي)*

*قلت ابتسم مادام بينك والردى
شبر فإنيك بعد لن تتبسما*

إنه مقهى المفضل لكنني أفضل عليه الجلوس على الأرض أتنفس ملاء رنتي أريج الورود ورائحة العشب المقصوص لتؤه والظهر مسنود إلى " جوناثان" الشجرة العملاقة التي أتبرك بها كلما عبرت هذه الحديقة.

وفي هذا العالم، أو قل طوال حالته المباركة هذه ثمة أكثر من مكن آخر يستخرج أحاسيس ومشاعر بالغة الرهافة والرقّة تجعل من تجربة الوجود النعمة لا النقمة التي نعاني منها في الوجه المظلم للعالم.

الأسواق نموذجاً.

كم أحبّ الوانها وروانها! كم أحبّ صراخ باعة مرحين يمازحون المارة يفاخرون بما تجود به الأرض وسواعد البشر! كم أحبّ المتسوقين وهم يتجولون في أرجائها دون سلاح ولا نية لأي مشدّة أرجأوا معاركهم التي لا تنتهي! كم أحبّ رويتهم يتبادلون مع الباعة الخدمة بالخدمة والكل راض عما يعطي وعما يأخذ. ! كم أحبّ التجول بين أكوام الفواكه والخضر والأزهار والتوابل الآتية من أبعد أصقاع العالم أنتقي ما أحتاج لألذ طبق يساهم في الحفاظ على صحتي ومعنوياتي!

على ذكر الأسواق وما نعود منها بأشياء تظمننا على أننا محميين من آفة اسمها الجوع صاحبت الجنس البشري على مرّ القرون ولا زالت النقمة المسلطة على كم من مرتحل. تعود "ح" ليلة من عيادتها وعلى وجهها ابتسامة النصر. أسألها وبى حذر مفاجئ:

- أنقذت حياة مريض؟

- أحسن من هذا.

- اكتشفت خطأ في تشخيص أحد الزملاء وفضحت المسكين أمام الجميع بإتسامة مشفقة.
- أحسن من هذا....
- لا وجود لأحسن من هذا.
- بلى، حلّ كعكة الشوكولاتة الذائبة. وجدته عند صديقنا الأرجنتينية. هيا اتركي أعمل.
- الآن؟ في منتصف الليل.
- الإعداد الأولي فقط لأن العملية على مراحل. يجب أن أذوب بعض الشوكولاتة وأن أمزجها بقليل من الزبدة وأترك الخليط في الثلاجة ليلة كاملة للاستعمل غدا.
- كم من مرة رأيته تخلط الزبدة والسكر والشوكولاتة الذائبة بانتباه من يصنع قنبلة وبخشوع من يصلي صلاة الجنازة والمطلوب من كعكتها أن تكون في نفس الوقت صلبة من الخارج وأن تبقى الشوكولاتة سائلة في باطنها.
- دوما نفس الفشل لخلل في نسب المواد أو في درجة حرارة الفرن أو في مدة الطهي...
- والنتيجة كعكة جافة كلياً لا شيء يسيل منها شيء عند القضم أو سائلة كلها تؤكل أشلاؤها بملمعة.
- هذه المرة يبدو أن النجاح المبين على قاب قوسين أو أدنى.
- في الغد تعود "ح" إلى تجاربها. تصب نصف خليط البيض والزبدة والشوكولاتة الذائبة في الإناء ثم تخرج من الثلاجة خليط البارحة لا تملّ من الشرخ.
- فهمت سرّ النجاح ولماذا فشلنا لحدّ الآن؟
- تظنني غيباً؟
- فسر.
- إذا اعتبرنا سرعة الضوء التي تحددها النسبية العامة وإذا ضربناها بالقطر المجهول ليوزون" هيجز، فإن...
- لا تكن سمجاً. سيصبح سائل الكعكة يابساً بأسرع من الخليط الذي وضعته في داخلها لأن هذا الأخير أبرد بكثير ويحتاج إلى وقت أطول ليصبح يابساً هو الآخر.
- هذا بالضبط ما فهمت وسأهني نفسي على فطنتي حالما يتضح صواب الوصفة. على كل حل، ليس لي ما أحسر. متعة الكعكة إن نجحت أو متعة الشماتة إن فشلت.
- تنتهذ" ح"، بدهة غير مستعدة على غير عاداتها للدخول في أي مزح.
- أتساءل أحياناً ما الذي حبّبي فيك؟
- عجيب، إنه نفس السؤال الذي يقضّ مضجعي... متأكدة أنك لست ضحية حبّ على وجه الخطأ؟
- هل تستطيع أن تغلق فمك فقط لخمس دقائق متتليات؟
- لا.
- إذن تفضّل على برّه.
- كما قال لأدري من: نحن هنا بلادة الشعب ولن نخرج إلا على رؤوس الرماح.

- انتبه ، لا تضطرنني لاستعمال العف ...
- اياك، لا فكرة لك عن نقود أصدقائي في منظمات حقوق الإنسان.
تهاجمني؟ ح؟ بين ضحك مكتوم وغضب نصف مفتعل. أحاول أخذها بين ذراعي. لا تنطلي الحيلة. تدفعني بركة إلى خارج المطبخ موصده البلب ورالي. لم يبق إلا انتظار الكارثة أو المعجزة. فجأة تفتح ح؟ الباب لا أرى إلا ظهرا وهي تهجم على نافذة القرن لتصرخ بالنصر والسكين يعبر طبقة سطحية جافة ليخرج بقطر بلشوكولاتة الساخنة للسفلة.

«الحياة اليومية (راسبو)
بأعمالها المتواضعة السهلة
مهمة بامتياز

كم تطالب من الحب!

هل من الممكن أن نجعل من المطبخ صرة العالم وهو في حالته المباركة هذه والطبخون على رأس قائمة البشر الذين منهم كل نعمة؟ لم لا؟
كل الأفعال التي تمارس فيه لا غبار عليها قنونيا أو أخلاقيا ولا حتى جماليا وأخص بالذكر منها أفعال أكل، تذوق، مضغ، التهام، شبع... أفعال تستمد قيمتها من عالم غيره أغلب المسافرين وفعل جاع أكثر الأفعال تصريفا.

خذ الآن بقية الكلمات التي ترن في أرجائه مثل كسكسي بالفلروس، بريك بالتن، طاقين جبن، بسيسة بزيت الزيتون الحلوى الشامية بالمكسرات، مسفوف بالدقة والسكر والسمن (لسحور رمضان). أليست بريك أحلى كلمات اللغة، خاصة عندما تضيفها إلى ما وضعته الأدمية النهمه تحت تصرفك من الروائع الأخرى التي تشير إليها كلمات البقلاوة والكنافة والبسيلة والمعرونة بفواكه البحر والسوشي والكزي والنام وكعكة التفاح والبطة بالسكر المحروق والسبويين؟

أي قيمة للنسبية والواقعية والمادية الجدلية والجهاد والحقيقة والفضيلة والعدالة والوطنية والتقدم والنمو وباقي الكلمات المسببة لعسر الهضم وتعكير المزاج أمام هذه التي يسيل اللعاب لها ويخفق القلب لذكرها!

والآن بخصوص الطباخين ومكانتهم الحقيقية في سلم التفاضل البشري. .
ألا تتعامل وصفاتهم مع أشياء موجودة بكيفية لا يجادل فيها حتى الأعمى مثل البطاطس والبادنجان والبصل والثوم والبقدونس... أشياء ثابتة الوجود بينما نضيع الوقت والجهد في الجري وراء أو هام لا وجود لها إلا في أذهاننا المرهقة مثل الدين القويم والشرعية السمحاء والجدلية المادية والوطن المقدى والشعب المقدس والمستقبل الزاهر والمدينة الفاضلة والماضي المجيد.

ألا تفسر كتب الطبخ طريقة معالجة الأشياء بكل وضوح ودون أسرار محجوبة عن المستهلك لا يعرفها إلا الطباخ؟

ليس صحيحا أنه إذا أصيب المستهلك بالتسمم فإنه لا يتهم بعدم فهم وصفة لا يتدبها الباطل من فوقها ولا من تحتها ولا يحل على التحقيق والتعذيب وحتى على الحرق حيا لبحثه عن وصفة أخرى أنفع، أو لإظهاره بداية شك في السلامة العقلية للطبخ؟
أخيرا لا أخرا، في الحالة المذكورة أعلاه، ألا تسحب الوصفة نهائيا من كتاب الطبخ حال ظهور أول حلة تسمم، أو تعذل بكيفية جذرية بحيث لا تبقى سائرة المفعول على مر القرون لا مجال للتخلص منها إلا بحرب لا تبقي ولا تذر؟
تصوّر في أي عالم كنا نعيش لو تصرّف رجال الدين والسياسة كما يتصرف الطباخون. بديهى أنهم لو فعلوا لما عرفنا عشر الأهوال التي نقاسي منها جيلا بعد جيل.
أضف لكل هذا الأفضال فضل الطباخين والطبخ والمطبخ على تقدم العلوم التي أعطتنا ما نعرف من رقي وتقدم.

اليس المطبخ أول مختبر تمعن فيه الأدمي في خصائص الأشياء... أول مكان تطورت فيه معارفنا ونحن نسحق الأشياء، نذوّبها ونخططها ببعضها البعض، نبرّدها ونسخّنها ونتمتعن في نتائجها؟ من يجادل في كون المطبخ المكان الذي انطلقت منه السلسلة الطويلة للتجارب التي أوصلتنا إلى الاستنتاج.
حقا لا يمكن القول إن ما جرّبناه على الدجاج والأرانب كان غاية في الأناقة أو اللطف، هنا لا يفوت النصّ تقديم بالغ الاعتذار باسم الإنسانية جمعاء لكل الكائنات التي اضطّرنا جمع بالغ الأسف- إلى التهامها وعلى رأسها الدجاج لكل ما عرف من خنق وسلخ وما تعرّض له من كل وسائل الطبخ الفظة مُعتبرا زلّة لسان لا تُعقّر مقولة "ح" إن كل دجاجة لم تحقر كما ينبغي دجاجة ماتت عينا.

أعتمد الفرصة هنا للتقدّم أيضا بكل الامتنان للأشجار والنباتات التي أعطتنا ثمارها وتولّبتها مظهرة كل التعاون مع البشرية الجائعة وأود أن أخص بالذكر تلك التي أعطتنا النمر والزيتون واللوز والتين والعنب والبريقال.
تقول، نسيب الفلّ والياسمين والحبق والتعناع، حتى ولو كانت نباتات لا تمضغ. من منعك من شكرها ولمضاء عرائض المطالبة بإقامة التماثيل لها؟ تصوّر! يطلقون على شوارعهم أسماء كبرى المجازر مُهدين لكل جزار تسبب في آلاف قتلها سلحته وتمثله ويعقّوا من يدينون لهم بالحياة وملذاتها النادرة.

بربّك من أعان البشرية أكثر وسهل رحلة الملايين: مشاهير لباطرة الدين والسياسة والعلم والفلّ أم الذين لا ينكر التاريخ لهم اسما لكنهم هم الذين زرّعوا وحصدوا لكيلا نموت جوعا؟ هل من باب الصدفة أن تكون كلمة النعمة في اللهجة المحلية تعني أيضا... القمح؟
من الذين يجب أن نضع على رأس قائمة النبي منه كل نعمته الذين اخترعوا وصنعوا وطهوا البقالة والمقروض والغريبة والشبكية وقرن غزال وأم على والكنافة النابلسية... أم أسكندر المقدوني ويوليوس قيصر و نابوليون وأبو عبيدة الجراح؟

ثمة مكان يمكن أن ينافس المطبخ كصرة العلم : الملعب.

تقول الملعب! ليس المكان الذي أريقت فيه دماء القرابين البشرية والحيوانية على مر العصور، المكان الذي تنتهي فيه كل المباريات بهزيمة هذا وانتصار ذلك، المكان الذي تجمع فيه أنظمة الفساد والقمع ضحاياها ليلة الانقلاب، الذي تحتفي فيه بمنجزاتها الكاذبة، الذي تنظم فيه مسابقات الغرور، الذي يقف فيه الزعماء المنفوشون كبرياء يصفقون طويلا لبني عائلتهم ويجلسون حالما تظهر أعلام العوائل الأخرى، المكان المطوق بالإسمنت والحديد وبطوابير البوليس تنتظر تدافع جماهير مقموعة لتفجر ما بداخلها من عنف مكتوم، المكان الذي تشاهد فيه القطعان البشرية المرعوبة تهزول نحو باب الخروج فتتساقط الأجساد غسا بالأقدام!

نعم إنه ملعب الوجه المظلم للعالم ، أهدئك يا صلحبي عن ملعب العالم وهو في حالته المباركة على ندرتها.

يصل بي الطريق إلى آخر وافخم طراز وهو مكتظ الليلة بعشرات الآلاف وصراخ الفرخ والحمام في أوجه.

السقف مفتوح على سماء داكنة يتوسطها قمر هادئ ينظر بعطف لهذه الجماهير التي تصرخ بفرحة الحياة متجاهلة -وكم هي على حق- قوى الممار والموت التي تزمجر حولها وداخلها. كيف لا يتفجر هذا الفرخ عند الجميع وكل ما يجعل من حياة الأدميين مأساة مسترسلة أخيرا تحت السيطرة!

الآن وهنا، أخيرا ولو لزم من قصير عابر ، البشر جميعهم سواسية تجمع بينهم متعة الوجود. لا سلاح بين أيديهم والعنف العرضي طفرة الصحة وحيوية الشباب لا قصد فيه للإبذاء. على المدارج لا اثم ولا فسوق. على الساحة التي أملمهم لعبة قواعدها واضحة لا مكان فيها للغش والظلم... وتحت أنظار الجميع وسلطة حكم نزيه مفوض من قبل الرب المخفي يعاقب فورا وعدلا كل من يتطاول عليها.

فجأة يتقدم كيان مبهم تجرّه وتدفعه كوكبة من الخدم والحشم. شينا فشيئا يتبين أنه عمود طوله أربعة أو خمسة أمتار مطلي ذهبيا كأنه ذراع مرفوع بقبضة مفتوحة وفي راحتها مجسم الكرة الأرضية.

يصل حشد الخدم بالعمود الذهبي سط ساحة خضراء سنقام عليها مباراة رياضة يسمونها كرة القدم فتطلق فجأة لشمليخ ويرتفع إلى عنان السماء دوي جمهور صلخب جدران وسعيد.

هم يخرجونه كل أربع سنوات في موكب مثل هذه يضعونه وسط ساحة كهذه لتبدأ أكبر الحفلات التي يعرفها البشر .

يُسحب الصنم بعيدا إذ لا يجوز ابقاؤه تحت أنظار قد تتعود وتملّ رؤيته فأولى خصائص المقدّس التوّاري بعيدا عن الأنظار ليبقى محفوظا بالغرابة ولسرّ.

ينتصب أحد النظارة واقفاً. ينحني مرة تلو الأخرى في اتجاه العمود الذهبي والذراعان إلى الأمام في وضع لن تشهده إلا إبان التعيد.
بداهة ثمة تحت طبقة معطيات السمع والبصر عن حفل رياضي طبقة أعمق من الرسائل والمعاني.

إلى من تتوجه صلاة المتفرج وأهازيج الجمهور؟ إلى هذا الصنم الذي ينتشارك في حبه جل سكان الأرض على اختلاف معتقداتهم ومشاربهم: الرب 'كاسلعالم'.
ثمة إذن داخل فرح الأدميين بالتواجد جنباً لجنباً لا وجها لوجه، فرح لآخر بأن هذا المخفي دوماً عن الأنظار موجود فعلاً بل يسعنا تأمل شكل له لا يهيم أنه شكل من وحي تعطينا لأي شكل يتخذه المقدس.

كم تغيرت أنواع الطعام وطرق طبخها عبر العصور! لكن حاجة الأكل بقيت وستبقى ثابتة واحدة عند كل البشر. كذلك الأمر مع الحاجة الدينية. هي ثابتة عبر العصور، وحدها مظاهرها التي تتغير. كم عبد البشر من أوثان قادت من الحجر، من الشجر أو من أجمل الصور وأروع الأفكار وكم سيعبدون! أه لو قيض لي رؤية ألهة وكهنة وطقوس ديانات العشرة الآف سنة المقبلة!

تواصل الطفوس والمؤمنون يتابعون الآن بشوق صراعا لا يراق فيه الدم وإنما العرق بين فريقيين أحدهما بثوب برتقالي والثاني بثوب أزرق أبيض.
فجأة يتعالى صراخ الجذل وقد استطاع ممثلونا على سلحة الملعب تسجيل هذه الأهداف التي نشقى لتسجيلها في صراعنا مع عالم نادر ما نصيب شباكه.
نعم، ظاهرياً نحن في ملعب كرة قدم وفي الحقيقة نحن في حفل ديني مكتمل الصفات في معبد نحتمي فيه بأننا ما زلنا أحياء وبخير على الأهل في هذا الفاصل بين معركتين من أجل البقاء .

وفي هذا العالم أو قل في حالته المباركة هذه تتعالى من حناجر الجماهير الهتافات: السلام، السلام. ألتفت إلى رجل يمشي حذوي يجاهد حتى لا يدوس على قدمي أو يضع علمه الخفاق في وجهي. أرددش معه وأنا في قمة الحماس والجذل، أليس يوماً رائعا؟ حتى الطفس يريد السلام. هل تتصور أنها أول مظاهرة في التاريخ تشترك فيها كل شعوب العالم وحتى التي ستشهر الحرب باسمها. يضحك الرجل: العولمة كما نريدها نحن وكما لم يتوقعوها. لكن عن أي فرح نتحدث والحرب ستقع حتماً. ثمة الفرح بأننا أكثر مما نتصور وأننا كلنا متضامنون متحدون ضد نوبة الدمار المقبلة... قد نستبق الأحداث نتصور فرحنا يوم تنتهي هذه الحرب الملعونة نخرج للشوارع للاحتفال بنهايتها ويخرج الأغبياء للاحتفال بالنصر.

وفي هذا العالم أو قل وهو في حالته المباركة هذه لم يعد لنا حلجة للأبطال المزعومين
وسلحة المعركة تتحول من عرض المسرحيات التراجيدية الى عرض مسرحية كوميدية
والبطل هذه المرة... الحجاج المحمّر.

يتواجه الجيشان لمجزرة أخرى كانت تثير فينا موجة من الرعب لفظاعتها ومن التناوب
لتكرارها الممل. مهلا، ثمة شيء جديد في السيناريو المقرف. للتذكير أن طقوس المعركة
في تلك العصور كانت تبدأ بمبارزة بين أشرس مقاتل من كل فريق كنوع من مقبلات شهية
القتل. من سيأمره الخليفة بالخروج هذه المرة إلى فارس العدو؟ من؟ المهزج الرسمي!
الذي يرافقه في حله وترحاله. ربما قرّر الأمر ليعبث برسالة احتقار إلى العدو، أو ليضحك
من مضحكه، أو لأنه فهم أن الرجل كان دوما يسخر منه ومن بطاقته وقد اكتشف أنهم هم
المهزجون... أو كقرار غيبي من جملة القرارات الغبية الأخرى التي يتخذها باستمرار.
يستعطف أبو دلامة مولاه منكرا إياه أنه لم يركب طوال حياته إلا الحمير ولم يمسك إلا
بسكاكين المطبخ للتجبر على دجاجة ميتة.

عشا. آخر استعطاف: بما أنه قُدر لي الموت اليوم، فهل لي أن أموت شعبانا، أيأمر لي أمير
المؤمنين بدجاجة محمّرة ورغيفين؟ يضحك الخليفة مستحسنا الدعابة ومثمنا في قرارة
نفسه قيام المهزج إلى آخر لحظة بالولجب الذي خلق من أجله.
يأمر الخدم بالمطلوب والجند برمي الرجل فوق صهوة الحصان ودفعه إلى سلحة
“الوغي”.

من الطرف الآخر للسلحة وفي حركة مسرحية مدروسة، يستلّ فراس التحدّي سيفه ويهمز
حصانه صارخا بشعار أبله ما. داخل دماغه الناشف حسابات سريعة عن كمية الغيرة التي
سيثيرها وراءه وكمية الرعب التي سيثيرها أمامه.

ثم يدهمه العجب وهو يرى، لا يكاد يصدّق عينيه، حصان خصمه يتقدم نحوه خطوة
وركبه شاهراً... نجاجة محمّرة.

المشهد: الرجلان، كلٌّ على صهوة جواده، كتفا لكتف، يتبادلان هذا الحوار أو شينا يشبهه:
أبو دلامة: أتعرفتي؟ أ

الفارس المغوار: لم يحصل لي الشرف.

- هل ثمة ثلث قديمة بين أجدادي وأجدادك لم تُصفت بعد؟

- لا والله.

- هل هنكث لك عرضاً؟

- لا والله.

- هل قتلت لك أبا أو أما؟

- لا والله.

- هل ظلمتُك يوماً؟

- لا والله.

- هل سرقتُ منك شيئاً؟

- لا والله.

- هل جاءك واش بكلام قبيح يدّعي أنني قلته فيك؟

- لا والله.

ومع هذا تريد قتلي! يا رجل العن الشيطان، مؤكداً أنك تنموت جوعاً مثلي، اتركني أعزمك على الغداء، أبشر، الدجاجة لا تزال ساخنة وكذلك الخبز.

ينفجر الفارس المغوار بالضحك وكذلك الجيشان والناس يتفرّجون في رجلين خرجا ليقتل أحدهما الآخر فإذا بهما ينهشان معا دجاجة بشهية واضحة ويردشان كأخوين فرقت بينهما الحياة وتلاقيا صدفه من جديد.

لله درّ هذا الرجل الذي يسخر من نفسه حين يسخر الأعداء من الآخرين، الذي يفخر بجبنه حين يفخر الآخرون بشجاعته، وربّ الكعبة، لا أحد أسلم منك يا أبا دلامة جسماً وروحاً.

وفي هذا العالم أو قل وهو في حالته المباركة هذه تتحول ساحة المعركة في هذا المشهد إلى ساحة لعب بين أخوة لم يعد لأحد قدرة رميهم في أعناق بعضهم البعض.

يغتتم جنود حرب عالمية يصفونها بالأولى فرصة عيد الميلاد للخروج دون سلاح إلى الأعداء الغارقين مثلهم في وحل الخنادق الفائضة جرحى وقتلى وفترانا. يرتمي الإخوة الأعداء يحضنون بعضهم بعضاً يتبادلون النكت والسجائر وصور الزوجات والأطفال، يأكلون من زاد بعضهم وهم يصيرون سخطهم على كل لا أبشع منه إلا ضباطهم

الارستقراطيون وإصرارهم الغبي على مواصلة المجزرة. يخرج أحدهم من عبه كرة قدم فيندفع كهول استعادوا طفولتهم لمباراة ستبقى في ذاكرة الأجيال. يتعالى صراخ المرح والضرباُت البارعة تسدّ لكرة لا تعرف أين المرمى المهم الجري وراءها ودفعها في كل اتجاه. ينتبه اللاعبون لجثث معركة البارحة. يخلعون قبعاتهم، يشتمرون عن سواعدهم لدفن من سقطوا من الجانبين لا يهمهم من يدفن من. يصطفون على جانبي القبر الجماعي لصلاة خاشعة وقد تذكروا أن أباهم الذي في السموات واحد. ثم يعودون ببقايا فرح تغطي على كثافة الحزن إلى حيث بصرخ ضباط يتوعدونهم بالمحكمة العسكرية ويقاقل الإعدام. وفي الخندقين المتواجهين يضع ضباطهم المجانين المسدسات على صدغ المتحررين من الحقد والغباء لإجبارهم على القتال فينطلق الرصاص من الخناق وكل البنادق مصوّبة نحو النجوم.

في الملف الذي يبلغ فيه الفرخ ذروته لا فرق بين لاعب ومتفرّج، يشجعني جاري على رفع صوت بدا له محتشماً ومحزباً. يجب أن أسخن أكثر فلست متعوداً على الصراخ في هكذا مواكب. تناهمني سعادة فائقة، لا لمتعة الصراخ وسط هذه الحشود المتدافعة وسط

الطريق، وإنما أيضا لغياب من تعودتُ على وجودهم أمامي بدروعهم الشفافة وخوذاتهم الحنيدية وهراواتهم الموجهة.

إنه حفلٌ آخر تتراشق فيه جماهير، ضاحكة بمساحيق ملونة بالأحمر والأصفر والبرتقالي، فلا تعود تُفرّق بين رجل وامرأة، بين فقير وغني، بين نبيل و"ضيع". بدهاء ثمة في العملية سخريّة من الحرب والناسُ يرمون بعضهم بعضا لا بالرصاص والغازات السامة وإنما بمساحيق تحاكي ألوان لشمس والورد. فيها أيضا إرادة ردم الفوارق التي تسّم حياة الأدميين وهم أخيرا سواسية صُنِغت وجوههم وثيابهم نفسُ الألوان وانتشت أرواحهم أخيرا بنفس فرحة الحياة.

إنها نفس الجماهير الجذلي وإن بأزياء مختلفة وبطبول تفرع أنغاما مختلفة تنزع شوارع أماكن اسمها ريو، نيس، فينيسيا، نيو أورلينز، نوتينج هيل، اورورو، تريف، كيبك، بازل، ساو فسننت... والقاسم المشترك نوبة تتكرر سنة بعد سنة من الفرح الجماعي.

لا زال الفرح سيد الموقف كل ما يتغير طرق التعبير عنه.

في هذا العالم أو قل طيلة حالته المباركة هذه، يتربّع الغنان الموهوب على كرسية المتحرك كملك على عرشه، ثم يبدأ العزف على الأكورديون ينحني ملك الزولو بمزوره الأحمر وطاقيه جلد الفهد على رأسه أمام الأميرة النمساوية سيديتي هل ترقصيني فتقبل بلمتلن. يضع يده على كتفها ويده الأخرى على خصرها ليدورا على أنغام "فالس" الدانوب الأزرق الجميل. تتقدم إلى الحلبة الراقصة الهندية فيحيط بخصرها الرقص الإسباني بضرب بكعب رجليه خشب لركح. تتقدم الراقصة الباليينية لتنتهي على الأنغام. تفرع الطبول الإفريقية تدعو من نسي سحر الطبول إلى تذكر الليالي الأولى فيندافع إلى الساحة أباطرة الصين وأميرات البيمن السعيد للرقص إلى قيام الساعة.

في فضاء خيالي توصل المذيعة الجميلة ذات الشعر الأشيب قراءة النشرة بصوت لا أجمل منه إلا خريف ماء السواقي: من مراسلتنا في مقديشو أن الأشجار ما زالت تزهر وتثمر رغم القصف الغبي الذي يحدثكم عنه زميلي تلفزيون النصف الفارغ من الكأس. كما علمنا من كل المصادر الموثوق بها أن ملايين الأطفال ولدوا هذه السنة بصحة جيدة، أن آباءهم في منتهى السعادة لوصولهم، أنهم يحقونهم بكل ما يقدر عليه الأدميون من حب ومن عطف. بخصوص حالة السير، فإن أغلب السيارات لم تتعرض لأي حادث طريق، كما وصلت كل الطائرات في الوقت سالمة وكانت السفرة داخلها ممتعة والمضيفات على قدر كبير من كياسة طبيعية ولطف غير مصطنع، وكذلك القطارات، وبخصوص هذه الأخيرة أفادنا مراسلتنا من العاصمة أن كل قطارات الصباح خرجت قبل الوقت المعن عنه بساعة، وبالطبع خرجت فارغة من المسافرين. هذا ما أحدث اضطرابا كبيرا في حركة السير عموما وهرجا كبيرا داخل المحطات. ويتصّي الموضوع صرّح لنا سؤاق القطارات أن الأمر لم يعد قبلا للاحتمال، فكل القطارات دخلت في روتين الرحيل في الوقت والوصول

في الوقت بعد أن انتهى روتين الوصول بعد الوقت. وبما أننا في أول يوم من شهر أبريل فإن النقلة قُرت الخ... وعند إعلان مكبرات الصوت للسبب ضحك المسافرين واقتروا الأرض وفتحوا علب الساندويش وترموس القهوة وألغى كل واحد مواعيدِه وأصبحت المحطة ساحة استراحة وتبادل الأخبار والنكت، ولما عانت القطارات الهاربة زرع المسافرين السواق على الأكتاف. أما بخصوص حالة الطقس فإن العالم لم يشهد زلزالاً أو طوفاناً. وفي العموم فإن قوى التعافي تعمل بنشاط لتعديل أي خلل حاصل هنا وهناك. والآن نمزّ للبرنامج العلمي وما تمخضت عنه العبقريّة البشرية من اختراعات تليها حصة الشعراء للشبان.

وفي هذا العالم أو قل في حالته المباركة هذه تنهار في فضاء الخيال جدران كل الكنائس والمعابد والجوامع وقد فهم المؤمنون ان ادعاء احتواء المقدس في كيانات من الصخر، من الطقوس والمعتقدات مثل ادعاء احتواء المحيط في قارورة ثم التقتل لمعرفة اي القوارير أحقّ بملكية المحيط. ها قد تشققت جدران كل الاديرة فرغت من رهبن وراهبات توشحوا بالأسود او بالأصفر فهموا أخيراً انه لا جدوى لمحاولة الهروب من العلم وهو يلاحقهم بكل ما فيه من جمال، ومن قبح من خير ومن شر دخل زناناتهم *خلت في القفر أنى أصبحت وحدي / فانا الناس كلهم في ثيابي (إيليا ابو ماضي)* هم فهموا انه لا معنى للانعزال في ركن من بلخنة تواجه أشوس العواصف وعلى شك الغرق في اي لحظة وتصور ان هذا سبيل نجاة النفس والاخرين. هم فهموا ان ادارة الظهر لمأسي الانسان بحثاً عن الخلاص الفردي في هذه الدنيا او في الاخرة فرار الجبناء من المسؤولية أما الشجاعة فهي في الانخراط إلى آخر لحظة في آلام ولأمال البشر.

بينما الشمس تتوارى بجلالها المعهود وراء الأفق، يفاجئني العالم بأخر هدايا اليوم كأنه حلا للفنان الأعظم الذي علم الرسم موني وبيسارو وفوقان إعادة تلوين السحب. ها هو يضع بريشته على أطراف رماديبها الكنيب لمسات جد خفيفة من الأصفر الوضاء متابعاً بخيط جدّ دقيق من نقط النور تعرج حواشيبها. ثم كأنني به يغيّر موضع فرشاة الرسم والنور يتوغّل داخل السحاب قاضماً المزيد فالمزيد من الرمادي العبوس. تكتمل اللوحة وقد أضرمت اليد الخفية أجمل الحرائق في السماء التي رفعت فوق الأرض بلا عمد. أي حاجة للركض من أقاصي الغرب إلى أقاصي الشرق ومن أقاصي الجنوب لأقاصي الشمال ومثل هذه الروعة موجودة في كل مكان. ها أنا أترنم بكلمت أغنية غداها أقيح -أجمل صوت لأكرم فنان .

"أشجار مزهرة
زرقة السماء."

ألوان قوس قزح
صراخ الأطفال
أصنقاء يصفقون بعضهم
قلت في نفسي

What a wonderful world !

أجمل بركات هذه الحلة التي يمر بها العالم توريا أنه لا أحد يدين أحدا والله نفسه لم يعد
يعبأ بخطأ أو خطيئة.

شاهدت بحانة شيخا ثملا (عمر الخيلم)

قد غطّ لنومه بلا إحساس

أصغيت له يقول في سكرته

الله لطيف بجميع الناس

ما أروع كل هذه الحالات التي نكتشف فيها نعم الوجود ، هذه النعم التي لا تستمد قيمتها
إلا من ندرتها وبالمقارنة مع نعيش أغلب الوقت من محن وامتحانات !

نعم كما يقول الشاعر

“ثمة شيء محبب (شيكي)

في هذا العالم

الذي جنناه للموت”

جنناه للموت فقط... أم للمهمة الغامضة التي لا نستريح من أهوالها في ولحات الروح

والجسد إلا لنعود لطريق المسامير والشوك نجري وراء هدف غير محدد؟

من يستطيع غير "هو" أن يقول لنا ما هذا الذي أوعز لنا بلخروج من الجنة بحثا عنه ؟

”تقدّموا (شيلر)

تسارعوا

هناك حيث يوجد أبونا الذي في السماوات

أسلموا أرواحكم إلى غامر الفرح

وأنتم، اركعوا أمام الأب المقدّس

ابحثوا عنه بعيدا وراء القبة السماوية.

ابحثوا عنه، ابحثوا عنه... ابحثوا عنه، ابحثوا عنه”.

**

وقال لهم الصدى لا تبحثوا عني في مكان 'إني بين ضلوعكم تغلّبني الأنفاس جنباً إلى جنب' 3

للبحث عنه شدّ قدماء المصريين الرحال إلى أبيدوس وقدماء الإغريق إلى دلفت وقدماء
البريطانيين إلى ستونهنج-درنتون وقبلهم شدّ الأوائل الرحال إلى كم من غابة وغار
وبركان وهضبة مربعة وسط صحراء بلون الدم.

هم يشدّون في عصرنا هذا الرحال إلى مدن اسمها شافين، كوياسن، كوبكابانا، بيت لحم،
روما، فاطيما، ساتميشال، طوس، هاردوار، ارميستار، بنرس، مارناط، لاهلسا،
شيكوطو، بور ويودور، القدس، سلن جاك.

بحثاً عنه يشدّ بنو قومي الرحال منذ قرون إلى مكان اسمه أم القرى.

على فراش المرض الذي سيرحل بها تنتهد "ما":

- كم أنا سعيدة لك... ظفرت بما كنت أتمناه لك دوماً.

لي فقط؟ كان الحج حلمها طوال حياتها... الحلم الذي رفضت التوح به حياة من أن يُعتبر
طلباً وتكليفاً.. كم ردتك لنفسك أنا جدّ مشغول هذه السنة سأخذها إلى الحج السنة المقبلة.

نعم، السنة التي تليها فما زال أملنا متسع من الوقت، هكذا من إرجاء إلى آخر إلى أن...

- السنة المقبلة. كلمة رجل هذه المرة.

- فات الأوان يا بني، فلت الأوان.

- أي أوان هذا الذي فات؟

- نعم. نعم يا بني لم يفت أي أوان.

كيف أهون عليها والسرطان ينهش جسدها وعليّ والشعور بالذنب ينهش روعي.

تفهم "ما" كعادتها دون حاجة لشرح مطول ما الذي يختلج في صدري.

- هون عليك يا بني... تلك إرادة الله... ما أريده أن تروي لي أخيراً كل تفاصيل حجك..

لست مستعجلاً، أليس كذلك؟

نعم، لست مستعجلاً هذه المرة.

- قيل لي في الهاتف ودون مقدمات: تم اختيارك لتشرّف على البعثة الطبية المرافقة لحجاج

هذه السنة. الموعد غداً فجرًا في المطار. تدبّر أمرك. لا تحتجّ ولا تلعن. تُعرف الإدارة

وكيفية عملها. على كل حال هذه فرصة يتقاتل عليها غيرك في الكواليس.

مؤكد أنني سأعوض زميلاً تتخل له كل كبار القوم ليكون هو على رأس البعثة وأصابته

والحمد لله مصيبة طارئة فتحت لي باب فرصة لا تعوّض. اللهم إلا إذا عيّوني للمهمة

³ ابن عربي - من ديوان ترجمان الأشواق (الناشر)

لأنتسك فلا أرجع لمواصلة تنغيص عيضم، أو أملا أن تسقط بي الطائرة فوق الصحراء
فيرتاحوا مني نهائيا.

- بعد الشرّ عن كيدي، والآن أصدقني القول، لمانا تقاديت دوما أسنلتني عن حجك ولم تقم
بمراسم التبريك عند الرجوع؟ خجلان أن ينادوك حاجا وما زلت شابا؟ حدثني عن كل
تفاصيل السفر المباركة من بدايتها إلى نهايتها.

أصف ما حدث أم أناقق أنا أيضا؟

فيما نسويه الواقع يبدأ الرحيل بالوقوف ساعات مضنية في ظبور تسوده الفوضى
لإجراءات البوليس وتسجيل حقائب ملأنة بالثياب وبما أعدته زوجه كأنها تخشى علي من
الموت جوعا. يواصل الشيطان المكلف بلسخرية من بأحلامي العيث بأحلامي بحشري
في طائرة مكتظة بل وفي مقعد الوسط بين بدينة بشعة وشيخ أسمن منها.
عند وصول بوابة الأراضي المقدسة التفتيش من قبل شرطي عابس يبحث في جيوبي وفي
حقيبتني عن الكتب المنوعة، ثم التذافع الشرس داخل الحافلة المكتظة المتوجهة إلى أولى
مدينتي الحج.

أي حلّ غير الاستجارة بفضاء الخيال لتناسي الضجيج والحرّ وروائح البنزين والعرق؟
كم حلمت بهذا المرحلة من الرحلة... حطائي في حطاي أجدان كان حجهم إلى الأراضي
المقدسة مغامرة العمر... السفر على ظهر نقعة بيضاء غلقت في عنقها الأجراس
والتمازم.. النوم بالنهار والسعي ليلا تحت القبة المرصعة بلنجوم... المسبحة في يدي
اليسرى وسلاح في يدي اليمنى لمواجهة الأخطار الكامنة في كل منعرج...

فجأة يدوي ز عيق الغرامل وصراخ الركاب:

- حقيبة سقطت من سقف الحافلة!

يتوجه إلي السائق بلطف: أسف، يا سيدي إنها حقيبتك. لماذا أصررت أن توضع هي
الأخيرة فوق كل الكومة؟ أرجو أنها لم تنفجر وأن أعراضك لم تتبعثر.
صحيح أنني أمرته بذلك وكنت في نزوة افتعال الأثرة وتبجيل الآخرين. بعد الدين
والفوضى والبوليس والتفتيش المهين، جاء الدور على حقيبتني. أيعقل أن تصبح أقدس سفرة
حلمت بها سنين هذه المهزلة؟ من هذا الذي يسخر مني منذ بداية السفر؟ إن كنت غير
مرغوب فيه في هذه الديار فليكن. سأقفل راجعا. لم أكن يوما ضيفا ثقيل على بشر أو إله.
أحاول وصف المشهد أو تمثيله ل "ما" لتتخيل كيف نزلت من الحافلة متوجها إلى حقيبة
رليضة تنتظرنني على الاسفلت، كيف رميتها بالحجرة من بعيد فإذا بها تقفز في اتجاهي
تحاول عضي مما جعلني أهول نحو الحافلة لأحتمي بها والحقيبة اللعينة تركض ورائي
والقمر يهقه وبحرّض.

تضع "ما" يدها أمام فمها تمنع تقبّر الضحك. ترفع رأسها بصعوبة عن المخدة تحدد في
مطولا.

- يا بني أية أهمية لما نعاني على الطريق... المهم أنك وصلت بيت الله سالما.

- الطريق بالنسبة الى أمثالي أهم من... لنقل إن للطريق أهمية كبيرة.
في طقوس قومي أنت لا تذهب مباشرة لموعدك مع سرّ الأسرار. يجب أن تمرّ قبل ذلك
للسلام على من أشرّ لأقصر الطرق المؤدية إليه.
أخيرا اصراخ سائق الحافلة يا الله، كلّم على برة بهدوء، لا تتدافعوا لا تمشوا على رؤوس
بعضكم البعض.
حال وصول المدينة التي توصف بالمنورة آخر ساعات الليل رميئُ بالحقيبة للعينة على
فراش النزل. هرعت إلى المسجد أترئخ من التعب وبي أملٌ ساذج أن أكون أول الداخلين،
فيذا بي لأزهم.
زحمة مخيفة. تدافع فطّ غليظ لا يتحول عنفا جسديا إلا لحرمة المكان.
حملني تيار الأمواج الالامية إلى قبر المصطفى حيث تشرئب المهج والعيون.
فجأة وأنا أخيرا على مقربة منه، رنّ أبغض صوت تسمعه أذن. السوط! الشيء المخصص
لحشّ الحيوانات على الطاعة وعقاب الأميمين بأكثر العقوبت إذلالا.
ربما لا وسيلة غيره للوقوف في وجه جشع وحمق الأميمين.
لا شك أنهم كانوا دون هذا السوط سيسرقون أحجار القبور الثلاثة وما بداخلها من رميم،
لا يتركون حجرة أو عظما ليينوا حولها في أراضيهم قبابا وزوايا يضعون داخلها ما نهبوا
للإبهار واستغلال إيمن البسطاء. كم من سوابق في كل الديانات!
ألم تكن أكبر تجارة في العصور الوسطى في بلدان الغرب العلماني تجارة العظام المزيفة
للقدسين والمسلمير المزيفة لأصليب المسيح.
بقية الأحداث التي كانت "ما" تستعجل تفاصيلها والتفاصيل داخل التفاصيل.
حاذرت للبقاء بعيدا عن السوط. جاهدت للاقتراب ما أمكنتي من مثوى هذا الذي كانت
"ما" تهمس باسمه عندما يأخذ العالم بخناقها تتادي من تؤمن أنه الشفيح الذي لا تُردّ له
شفاعه... هذا الذي تسمى باسمه الملايين عبر العصور. النبي الذي تقدّست معه الكتابة،
الذي أقطعتنا لغة الاضاد وطنا.
يصرخ فيّ أحدهم: تحرك يا أخي أنا أيضا أريد إلقاء نظرة على قبر سيننا. يدفعني آخر
بمنتهى الغلظة: تقدم مالك؟
لست بذاهل وإنما في حالة من صفاء الذهن والذاكرة داهمني كل التهيب، كل الخشوع،
كل الحبّ الذي يفيض من قلوب الجماهير المتدافعة لهذا النبي الذي قال إنه لم يأت ليعلّمنا
العبادات والطقوس وإنما ليتمم مكارم الأخلاق.
أجبل البصر مطوّ لا بين مثواه الأخير ومثوى الصتيق الرائد جنبه، وعلى جنبه الآخر يرقد
الفاروق، الرجل الغضوب، الحازم، العادل الجريء.
ياللهؤلاء الموتى، يعلمون الحشود وهم صامتون، يحزكون الجحافل لا حراك بهم، يُطاعون
ولا أمر يصرخون به.
تهمس "ما" بصوت متزايد الضعف.

- عد إلي... -

- تواصلت المهزلة بل كانت تتحول إلى فضيحة لو لم يقرّر الساخر المجهول أنني عوقبت بما فيه الكفاية على دنوبي التي لا يعرفها إلا هو والبوليس لسياسي.

قلوا وقد حان وقت الصلاة في مستوصف البعثة: تقدّم لتؤمننا. كيف أعتزف لهؤلاء الناس، وفي مثل هذا المكان، أنني انهمكت في الإعداد المادي للبعثة ولم أجد إلى تعلم طقوس نسيبت قواعدها منذ زمان بعيد، لا علم لي بعدد الركعات ومتى يجب الوقوف والسجود وماذا يُرثَل في الأثناء. كان حقًا موقفاً محرجاً للغاية. النجدة يا كلّ من يهّمه أمري! تتّسع ربيع ابتسامة "ما" وتعود لها بعض من حيويّتها.

- لا تقل إنك لم تجد مخرجاً وبراعتك في دخول الورطات براعتك في الخروج منها.

- من استجلب لنداني؟ "الغوث"، "المحجوب" مدعوماً بـ "سيدي محرز" وكل ما في هذه البلاد من أولياء صالحين... بركتك أنت؟ المهم أن ربّنا سترني ذلك اليوم من فضيحة مدويّة. كنت أفكر بمنتهى السرعة في حلّ اتضح لي فجأة وأنا أنتبه إلى ممرض الشيب شعره. علمت أنني سأخرج من الورطة بل وسأكسب منها حليفاً متيناً. نتحدث بوقار ثمّ توجهت إلى مساعدي قائلاً: لا فضل هنا لطبيب على ممرض إلا بالقوى ثمّ من شيننا تجيل كبيرنا سناً، فليقتم فلان يوم بنا هو الصلاة.

لا تقوى "ما" على التماسك فتفجر ضاحكة. ثمّ تستعيد وقارها.

- يا بني، عيب أن تذهب ل. دون أن...

- إنها غلطة؟ "ب" كما فرض عليّ الصلاة وأنا في السادسة أو السابعة. لم أدخل من الجوامع إلا ما جرّني إليها بالقوة أيام الجمعة والأعياد. كنت أنتظر أن يسجد لأخرج له لساني. كان يتمم بالآيات وأتمم بالمحفوظات. اختبار قوة آخر بين طاغية يلمر وينهي لا يكلف نفسه عناء تفسير أسباب الأمر والنهي، وبين متمرّد بالسليقة لا يزيد التجبّر إلا عناداً على عناد. ولما ابتلغه المجهول من جديد فسخت كل الطوقس من ذاكرتي رفضاً له لا رفضاً للطوقس. تصمت المرأة المحتضرة وهي الآن طفلة تخاف أن يجرمها هجوم القوم الأبدي من سماح بقية قصة مشوقة يرويها لها ابن عاد من أغرب رحلة كم كانت تؤدّ أنها رافقه فيها.

- أريد تفاصيل دخولك بيت الله، لا تخش إطالته ولا تتس حادثة.

من أين لي الكلمات لأصف ما لا يغيّ بحقه أو يستنفده وصف؟

تعود "ما" لهمس متقطع:

- حدّثني... حدّثني عنها...

- أكثر من مرة حاولت الاقتراب منها. لم أبصرها إلا من آخر الصفوف وظهري للباب من شدة الاكتظاظ... ومع هذا يا له مشهد يا أمه ليس كمثل مشهد في كامل عالم الأديمين.

مشهد بحر، أمواجه الخرق البيضاء لعشرات الألاف من الرجال والنساء تطفو عليها أخشاب الشيوخ والمرضى طاغية والمرقأ مكعب أسود تحاصره وتدور حوله هذا الأمواج لا تتوقف لحظة... لا غرابة والدائرة أكمل شكل هندسي... طواف البشر حول بيت ربهم

كطواف الكواكب حول الشمس، كطواف القمر حول الأرض، كطواف الشوارد حول نواة الذرة... من المخرج العبقري الذي وضع لوحة يمثل هذا الجمال والجلال؟

هذا عالم تتناظري لا يوجد فيه شيء إلا ووجد النقيض، أصف الوجه الآخر للعالم أم للزم لاصمت الحذر؟

أخيرا الساحة التي تتدافع إليها الجحافل ووسطها عمود حجري يرميه الناس بالحجارة وحتى بأحذيتهم والكل يصرخ ويسبب الشيطان الرجيم الذي يرمز إليه النصب. لم لا أنخرط في الطقس وأنا أملم أقدم وسائل علاج الذات مما يلحق بها من امراض نتيجة طول الاحتكاك ببشر أجزم أنهم هم من علموا الشيطان مهنته.

يستيقظ الطفل النائم دوما بعين واحدة داخلي. يأخذ في الصراخ لاعنا هذا الذي تستعيز منه "ما" طول الوقت.

لكن المراهق النائم بالعين الأخرى على مزاج جدّ مختلف. كيف لا يتعاطف مع الشيطان وهو يكتشف يوما أنّ المسكين طويل بالشيء ويعكسه، وكأنّ بمتجنه نية مسبقة لإسقاطه في الامتحان أيا كانت الإيجابية عن السؤال. تصوّر ورطة المسكين فلو عصى أمر الله بلسجود لآدم لأذنب لأنه لا يُعصى لله أمر ولو أطاعه ساجدا لغيره لكان الذنب أعظم! ماذا الآن عن تحميل المظلوم الأكبر مسؤولية الشرّ الموجود في البشر! لو أراد إله هؤلاء الحمقى الخير لهم حقًا لما سمح لموظف عنده أن يعويهم؟ ثم أليس صحيحا أنه لو لم يكونوا قابلين للإغواء لما ينغلقون عليه من حبّ الشرّ أما أغواهم غاو!

تتوجّه أفكار المراهق لاساخر للكهل المتزايد حرجا: من تلعنّ أولّ معارض وقف في وجه أول قوّة في الوجود ليصدع مرفوع الرأس: لسث أداة أو بوقا؟ أليس هو جدّ كل الثوار الذين تدّعي أنك واحد منهم؟

ثمة أكثر من أدمي توصل لنفس الاستنتاج وإن بطريقة ولأسباب مختلفة.

"رباه لو أن في طول انتظار غد جدوى لما أسمعك الريح شكوانا (السباب)

وما كان حتما علينا أن يعذبنا طاع وأن يشهد للرحمان بلوانا

النار أشهى فهايت النار تصهرنا يوم الحساب ومّعنا بدنيانا

إن كان لا يدخل الجنات داخلها إلا شقيا على الأولى وغرثانا

وكان أمرك أن ترضى بما صنعوا فاحفظ عيبك فالشيطان مولانا"

يرفع الطفل عقيرته بالاحتجاج: ما هذا الكفر؟ لماذا تلعنه؟ "ما" لو كان بريئا. إنه الوسواس الخنلس هذا ما علمني سيدي لشيخ وما كتبتّه على لوحى في الكتّاب.

يرفض المراهق الدخول في جدل مع طفل سلاح. لكن ما رأي الكهل؟

كل ما أستطيعه في هذا الموضوع من النص مصارحة الأدميين بالحقيّة التي يحاولون تجاهلها. يا أيها الناس، لي ولكم أطيب خير سمعتموه: الملائكة التي وضعت فيها كل الحسنيات مفهوم مشخّص يرمز إلى الخير الذي في طبيعتكم وهذا الخير متجدّر فيكم، أزلي،

متجدد، لا يجتته عنف أو إفساد... أيها الناس، لي ولكم أسوأ خبر سمعتموه الشيطان الذي وضعتم فيه كل المويقات مفهوم مشحون يرمز إلى الشر الذي في طبيعتكم وهذا الشر متجدد فيكم، أزلي، متجدد لا يجتته فن أو علم أو دين.

ألتفتُ حواليّ وقد داهمني الخوف أن يكون داخل الحشد بعض المخبرين المختصين في قراءة الأفكار. تحسبنا لكل الإمكانيات، أرفع صوتي لأثبت للجميع أنني من كبر الساطين على الشيطان الموجود فعلا خارجنا، وأنا لسنا هنا لنتهم أنفسنا والتخلص مما بداخل الذات من نجاسات.

لا يلتفت لصراخي أحد وكلُّ مشغولٌ بتصفية حساباته مع كيش الغداء. يقتر حماسي بلسرعة التي برز بها، خاصة وأن التدافع نحو الجسور المؤدية إلى برّ الأمان انطلق وأولية الأولويات الآن لكل شخص الخروج حيّا من الزحمة المرعبة.

كلهم أتوا هنا للفوز بالجنة، لكن لا أحد منهم يريد الموت وهو الطريق الوحيد إليها. ها أنا أجرب المشي لأول مرة في حياتي بأقدام غيري وعضلات صدري تدفع بما تقدر عليه من قوة الأجسام الضاغطة على جسدي بحثا عن نفس قد يكون الأخير! تأتيني خشية مبهمة أن أضيع في هذا العجين، أن يصل الضغط إلى درجة تجعلني ملتصقا إلى الأبد بالظهور والبطن والأرداف، أو أن أخرج من هذا الكابوس في أحسن الأحوال وقد بقي ذراعي الأيمن ملتصقا بصدر ذلك الأسود الفراع الطول أو أن يحمل الملتصق بي على يساري ساقى اليسرى معه إلى جاوا.

وفي مثل هذه الظروف ترى الوجه الخفي المرعب للأمة وهو الذي يحاولون عبثا إخفاءه تحت "مكياج" اسمه الحضارة. عادة يخاطبونك بأدب، يسارعون إلى القابك يرضون بها غرورك إن كان لك القلب. يفتحون لك الباب بانحناءة رشيقة حتى إن لم تكن أنتي يشتهونها. ينهضون بتأدب جمّ تاركين لأول عجز مكانهم في الحافلة. يعتذرون لك ميتسمين إذا داسوا على قدمك خطأ.

مجرد تصنع. تكتشف طبيعتهم الحقيقية عند التهاب النار في مكان مغلق، أو لحظة غرق الباخرة. آنذاك ترى لهم عيوننا متجهمة وسحنا مخيفة، وأرجلا مستعدة للمشي فوق خذك لو جاعتك الفكرة السيئة بلسقوط على الأرض مغشيا عليك.

إنها الآن نفس وضعية الباخرة التي بصدد الغرق والمحلّ التجاري المغلق الذي اندلعت فيه النيران من كل مكان. هل هي نهايتي أنا أيضا وأنفاس عزرائيل الحارقة على عنقي؟ أيّ مكان هذا تجمع فيه الله وإبليس وعزرائيل في آن واحد؟ على كل حال أليس الشهيد أحسن تلخيص لرحلتنا في عالم نتدافع فيه حيوانات مرعوبة والويل لمن يسقط تحت الأقدام. مشكلتي الأخرى المريضة التي فشلت في اقناعها بتأدية أخطر طقوس الحج والتي أحاول حمايتها بما أقدر عليه.

تنهار المرأة البدينة لمشي مغشيا عليها بين أقدام-بل قل بين حوافر-قطعان بشرية لا هدف لها غير البقاء على قيد الحياة ولو بموت كل من يقف في طريق النجاة.

تُرى ما الذي شعرت به المسكينة هي سجيئة غاية شاهقة من الأرجل تجاهد عينا لاستعادة الفضاء وكلّ الروائع التي أصبحت وراء باب أغلق إلى الأبد؟
كيف يمكن تصوّر التجربة لتي عاشها كلّ من زلت به القدم تلك الليلة، وهو يخنتق ويسحق تحت ثقل الحشود المتدافعة فوق جسده؟
من أين للغة مصطلحت الوصف والتعليق على ما هو وراء الرعب، ووراء الألم ووراء الهوس؟

ترنّ صرخة استغاثتها إلى اليوم في أنفي وهي تغرق في بحر الأجساد المتلاطمة، لا يظهر منها إلا ذراع يخبط الهواء كأنها تلوح بلوداح لعالم غير مكترث.
كوايس الليلة أشلاء ممزقة وأطراف دامية تتطاير وأقدام ترفس العنب ووجه شيطان ضالحك ليس حول عنقه قلادة دموية من أمعاء وبحر من اللين تطفو على سطحه امرأة بدينة تصرخ: أنقذوني فأسارع إلى نجاتها ليقول لي اللعين: الزم مكثك وإلا الدور عليك كلكم اليوم صيدي.

تضع "ما" يدها على كتفي وأنا جالس على الأرض ورأسي على حافة السرير.
- هون عليك يا طفلي الحبيب، لماذا تعذب نفسك دوما؟ لست مسؤولا عن موت هذه المرأة. تنظر إلي مطولا وفي عينيها مرح خفيف. إنها هي التي تحاول المزح لتخرجني من حزن داهم تقراه في كل ملامحي.

- ثم هل هذا وقت الحديث عن موت العجائز! واصل، قل كيف هو الحجر الأسود؟ هل لثمته؟ ثمة من قال لي إن كل الذين لثموه حزنوا في حياة سابقة.
لا بد أن أختار كلمتي بمنتهى العنلية.

- نعم لثمته ثم... دخلت... البيت وصليت بين جدرانها.
تنصب نقاحة في سريرها. تقح فمها على أقصاه كما انتصبت "ما" بنفس الانتباه المندش وهي على سرير الموت.

تتوقف تفجيح عن القفز على السرير تاركة إيتي تسقط من يديها.
- "يا"، ماذا قالت جدتي لما قلت لها....؟

- ألمع في عينيها بريق كالذي في عينيك. قالت: هل يدخل الناس البيت الحرام؟ هذا موضوع لا مجال فيه لمزح.

من عادة العالم أنه إذا بخل تجوز حدود البخل، وإذا أكرم لا حدّ عنده للكرم.
تتوقف ذلك الصباح السيارة الدبلوماسية أمام باب المستوصف. فتح السفير بابها هامسا في أنذي: هيا اركب ولا تسأل إلى أين؟

باب الحرم. ما الفائدة من الارتطام مجددا بنفس بالجدران الأدمية؟ يدفعني مرافقي أمله لأعبر البوابة الضخمة. مشهد يكاد لا يصدق. إنها دهشة من يكتشف البحر تجر منه ماءه فمساحة المترامية الأطراف التي لا تفرغ أبدا... فارغة باستثناء بعض رجال الشرطة!
- ما الخبر؟

- إنه يومٌ غسل الكعبة والملك بنفسه من يقوم بالعملية. بهذه المناسبة لا يدخل الحرم إلا نخبة من المدعوين تدبرُ أمرِي لتكون بينهم.
يفتح لنا الحرس الطريق بعد التأكد من الهوية والدعوة. دقائق معدودات لأجد نفسي واقفا تحت الستائر لسود لا أصدق أنني أتم الحجر الأسود.
يبادرنا رجل ضخم منتصب على قمة درج قصير ينتهي عند باب نصف مفتوح في أحد جدران البيت الحرام.

- عَجَلًا. بضع دقائق لا أكثر. جلالة الملك خالد في الطريق.
يفغر الطفل-المراهق-الكهلُ فمه بكاد لا يصدق ما يرى.
في معابد الأدميين الأخرى، يعبرون عن انبهارهم بالمقدس وخشيتهم منه بتشديد أعلى المباني لا يتراجعون تزلفاً ومبالغة عن تكديس كل ما يقدرون عليه من الرخام والعاج والذهب. إلا هنا.

لا شيء على الجدران. لا شيء بين الجدران. لا شيء يتدلى من السقف. لا شيء مفروش على الأرض. لا شموع تضيء. لا بخور تخنق الأنفاس. أقصى التجرد. الفراغ فراغ عين الإعصار. أي رمز أبلغ لما لا قدرة للغة على تسميته، للعلم على فهمه وللقرع على تصوّره؟ طبعاً! هو'' ليس لا في هذا المكان ولا في أي مكان آخر وإنما وظيفة كل الأمكنة التي نقول إنه فيها تحريك اللاوعي ورفع الانتباه إلى أقصاه لنشعر بحضوره الصامت حولنا ودخلنا... لتحدث المعجزة التي أسميها اللقاء.
تنهار فجأة كل الحواجز كالسد أمام جارف السيل.

يا جذر وجود كل موجود، الحمد لك والشكر على الشمس، على القمر، على النجوم،
على الفجر، على الضحى، على النهار والليل. الحمد لك والشكر على الماء، على الريح،
على الرمل، على السحاب، على النار وعلى البرق والرعد. الحمد لك والشكر على
الصحراء، على الغابات، على الجبل، على البراري، على البحار، على الأنهار وعلى
السهل والوعر. الحمد لك والشكر على الياسمين، على الورد، على العشب، على الزيتون،
على النخيل وعلى التين والكرم. الحمد لك والشكر على الموسيقى على الحب. الحمد لك
والشكر على هديتي الحياة والموت.

ينسحب المراهق داخل آخر معاقله مزمجراً: الحمد على الجراد، الحمد على البعوض،
على السل، على الطاعون، على الحساد، على الأعداء، على الأغبياء، على الجذام وعلى
قمل العانة.
ثم بصمت جاءه التهيب حتى هو.

يعود الطفل إلى الصراخ: في بيته وبين يديه ولا تطلبُ منه شيئاً!
خاصية قازة في الأدميين. تُراه، على اختلاف أصوارهم وطقوس إيمانهم، ممدودي الأيدي نحو السماء لأن فيهم بقايا طفولة تعلمت أن هناك خارج الذات قوة مُحبة تستجيب لكل طلب يُدعم بنوع أو آخر من التملق أو الابتزاز.

كم غريب أن نتعامل مع المنزّه عن الصفات والاسم كما لو كان بخيلا يُستجدي بسماجة، هو الذي وهبنا عالما بأسره لتعبره سدة لا متسولين! كم تشمتت دوما في هؤلاء المتسولين وهم يعودون من حصص الاستجداء في كل معابدهم على مختلف أديانهم بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها! كم روضت نفسي لأكون من غير طينتهم أرفض أن أتكفف بشرا أو إليها الأنفة أمام البشر والحياء أمام الله!

يواصل الطفل صراخه وكأته لن يغفر للغبى الذي يتعايش معه إفلات فرصة كهذه.

- هل من كبرياء أمامه "هو"! ألم يقل ادعوني أستجب لكم؟

من أحوح إلى الإغاة منّي خاصة هذه الأيام، وفي هذه الظروف؟ تتعالى الصرخة المكتومة استغاثة لا مطلب صنفة.

يا تربية شجرة الوجود، يا جذورها، يا جذعها، يا غصونها، يا كلّ أوراقها ويا كل ما أثمرت من ثمار، النجبة، انني يائس انني يائس، انني تائه، ماذا أفعل في هذا العالم وما الذي يجب أن أفعله، دلني على الطريق.

غريب سرعة استجابة الدعاء. يرفع الحاجب من نيرة همسه الصارخ: يا الله بزة، بزة، أسرعا، وصل جلاله الملك. إنه "هو" لا غير الذي يطردني وكل الفضاء يحقب بلمتعاوض فيه من المداعبة أكثر مما فيه من السخرية، من العتاب أكثر مما فيه من التقرّيع، ولسان حال الصمت يقول: حتى أنت تستجدينني! حتى أنت لم تفهم!

معذرة يا من أعطى فلم يبخل، يا من وهب فلم يمين، يا من تكرم فلم يبتجح، يا من أصدق عطاياه لا يهيمه حمد أو شكر، يا من أوضح وفسر ويتين كل شيء ونحن نصرّ على عدم الفهم.

*

حانت لحظة الوداع. ينقرط العقد ليركض كل واحد في اتجاه.

ماذا لو كانت الوظيفة الحقيقية لكل مكان يحجّ له الأميون لم تشمل دوريا لعائلة تاه أفرادها عن بعضهم البعض لا يحذون لشيء قدر أن تعيد الأقدار التي فرقتهم جمعهم ولو مرة واحدة في هذه الحياة؟

تتحرك الشرطة بحثا عن تخلفوا عن الرحيل. لا مشكلة لي في الإسراع بمغادرة الربوع.

فاين غرامى بالبريق ولمعه (ابن عربي)
وليس غرامى بالأماكن والتراب

تستعجل...؟ بقية أغرب قصة سمعت في حياتها.

-أرجو أن الإيلب كان أقل تعباً من الذهاب.

نعم كان رجوعا رائعا لكن كالعادة في الفضاء الذي أنا سيده الذي لا يعصى له فيه أمر.

أخيرا منية السلام للسلام على روح الذي تعلمت منه ما يجب على كل مرتحل تعلمه...
مارة يتعلمون: درويش من أراضي المغرب يبحث بين الرصافة والكرخ عن آثار ذلك الزنديق... هنا أركبوه على البغل... عبر هذا الطريق ساقوه إلى سلحة الذبح... هنا جلده

لُف سوطو هو يردّد: أحد، أحد... هنا قطعوا يده اليمنى ورجله اليسرى... هنا صلبوه العذر الدين والسبب السياسة... هنا انتظروا ودمه ينزف إذن الخليفة يضرب عنقه... هنا علقوا رأسه... هنا حرقوا جسده لتلتحق ذاته بالذات القدوس... ورائي في المسجد يهيس في أحد المصلين: يقول لك الشيخ هون عليك حتى لا يقتلك كل هذا الألم ثم يختفي قبل أن أفيق من ذهولي... والآن مباشرة إلى بلادي التي جارت علي وما زلت أفنع نفسي أن فيها ما يستأهل مواصلة حياتها... قافلتي محملة بقرب ماء زمزم، بتوابل سرنديب، بحريير الصين، بلبان حضرموت، بعطور سقطرى ويكل ما جمعت من نفائس المخطوطات... لا بد من البحث عن قطاع الطريق وقد أخطأوا رصد مكان عبور القافلة لأعطيهم مما تنن بحمله الإبل... عند وصول واحة الأباء والأجداد توزيع ما بقي من حمولتها وإطلاق سراحها لتتعم هي الأخرى بالحرية... أنا الآن داعية الشبخين أوصل تعليمهما في كل البلدان... أمامي لسلطين وقهاء السلطين في صفوف متراسة والشدر يتطاير من عيونهم... الفرار! إلى أين والدهما أخطر سلاح السلطين الفاسدين في كل مكان؟ الثبات، الثبات لمواصلة رسالتهم وإلا أي جدوى لحياتي!

تمس "ما" كتي برفق لأوصل حديثا هو كل ما يشدها الآن للحياة.

- سهوت مرة أخرى. أعد كيف كان الرجوع، أنا متأكدة أنك نسيت بعض التفاصيل المضحكة؟

- أه يا أماه! كانت سنة أجهزة الفيديو الرخيصة خلافا لمواسم الذهب في السنوات السابقة. اغتتموا كلهم فرصة الحج لشرائها لبيوتهم وأيضا للبيع والترنح. "حج وحاجة" مثلما يقولون. كادت الطائرة ألا تغلق بنا لزيادة حمولتها عن المسموح به لسفرة آمنة.

- أنت أيضا يا بني عدت بفيديو.

- أنا! أنا ابن أيقنلس عدت بفيديو مثل بقية العامة! وكمنشني عون الجمارك الوحيد الذي لا يقبل الرشوة! وخرجت من المطار أزفر من الغيظ لأنني الوحيد الذي دفع الغرامة! وكنت أعر في جذأوه الكلب هذا الفيديو اللعين وأنا أجزه مع حقيبة ملأه بالثياب القذرة، ودفعني أحدهم بغلظة ليركب قبلي آخر تكسي موجود في المطار... من أسمعك هذه الاقتراءات؟

- أنت... هل نسيت أيضا الفيلم الذي جنت به خصيصا ل....

- تقصدين شخصا يشبهني جاءك ليشوّه سمعتي عند الكائن الوحيد في هذا البلد التعيس الذي لا يصق اقتراءات الناس علي؟

لا نجرب في الحياة أبلغ من تجربة الإجهاش بالكاء ونحن ننفجر ضحكا أو عندما نفهقه وقد أسدلت الدموع بيننا وبين العالم ستار ضباب سائل.

تُسلط عليّ "ما" نظرة فاحصة وكأنها تتأهب لأخر التعليمات.

- لست بحاجة إلى أن أوصلك بالناس، عدني فقط أن تُصالح والنك.

ثمة الآن في لهجة "ما" أمر صارم بأن أطمئننها لترحل واثقة بأن الحرب التي أرهقتها عقودا و ضغت أخيرا أوزارها.

يجب تغيير وجهة الحوار حتى لا تبتكي لا هي ولا أنا.
-على فكرة، أتتذكرين يوم عاد من حجّه ليدعو نصف المنبينة إلى ولائم المباركة ويعيد
طبع أوراق المكتب وحتّى ملقّات الضحايا القديمة، واضعاً لقبه الجديد أمام اسم كان يدّعي
دوماً أنه بغير حاجة إلى ألقاب الغرور.

تضع "ما" يدها أمام فمها، من أين لها أن تخفي تقوّر الضحك في عينيها.
- يا بني حرام عليك. أبوك صلى الخمس في أوقاتها منذ رجوعه.
- شريطة أن يوجد أحد يصلي أمامه، بل فوّلي من يمثّل أمامه ولو كان القطر.
- يا ولد، أنت لا تغتاب الناس باستثناء والدك، حرام عليك.
من الثبرة والقسمات، الأمر ليس الكفت عن اغتياب الرجل وإنما مواصلته. حتّى "ما"
تعرف الخبث! تكشّف يوماً أنك لا تعرف الأدميين مهما عرفتهم، أنهم يفاجئونك حتّى وهم
على فراش الموت.

من كانت حقاً "ما"؟ من أنت يا "تفاحة"؟ من أنت يا تفيح؟ وأنت التي قاسمتني
الفراش سنين، أي كائن كنت أضمّ بين ذراعي؟ من أنت أيها الرجل الذي تقدمت إلي دوماً
تحت اسم "يا"؟

لا أخبّ إلي من إسماعها ما تريد أن تسمع عنه.
- تظنّين أنني أغتاب من هبّ ودبّ؟ وهو؟ هل رضي يوماً أن يغتابه إلا أمثالي؟ ألم يردّد
دوماً: كن أسداً وكنّي؟
- واصل، لا أريدك أن تسكت.
- أتتذكرين قصة وصول "أينفلس" الأراضى المقدّسة كما رواها هو نفسه...
- يا ولد!

- مفا صرح به "يا" أنّه لما وصل الأراضى المقدّسة نزل في أفرق فنادق يثرّب وأم القرى
ولم يخرج منها إلا نادراً حتّى لا يضطرّ إلى الاحتكاك - هو الذي لم تحمّل أمه غيره - برعاع
الفازات الخمس مدّعيًا أن كل أمراض القاموس العالمي للطبّ هاجمته في أن واحد. تذكّرين
كم مرّة أتى إلى البيت معلناً أنه دخل النزاع الأخير يمثّل علينا تمثيلية وصيّته الأخيرة وهو
أول من يعرف أنه لن يترك لنا شيئاً نتقاسمه.

تواصل "ما" منع ربيع لبّسملتها من فضح ما يعتمل داخلها.
- آه يا بني من أمراض أبيك!

- ما ألقى تلك الأيام. كئني أراك تجاهدين للحفاظ على جديتك مفتعلة الحزن والقلق،
تمسحين عرقاً وهمياً عن جبين يحترق بحمى لا وجود لها، تنتظرين بين صبر ونفاد صبر
أن ينهض الرجل من الفراش صارخاً: ماذا تفعلون حولي بهذه السحن المقرّفة؟ هل تظنون
أنني شيخ حانت ساعته؟ اغربوا عن وجهي يا أبناء الكلب، تفرّقوا لشغلكم.
كانت ذاتي هي التي تستعيد عفيتها وأنا أراه يثب من فراش لزمه حتّى يُخيفنا وربما يخيف
نفسه بقرب الرحيل. ربما كان يريد أن يتأكد مجدداً أننا لا نتحمّله فقط وإنما نجبه أيضاً.

ربما كان يمثل اللحظة التي يرهبها أكثر من كل شيء، يتمرن على امتحان لا بد منه متمتعا بقدرة على التصرف في السيناريو وإيقافه في المنعرج الخطير.
أه لو كان مريضك مثل مرضه! ... اللعنة لم لا تنبي على رجليك صارخة مثله، اغربوا عن وجهي تفرقوا لشغلكم يا أبناء الكلب.

- سرحت مجدداً، فيم تفكر؟

- في الملل الذي عاناها إبان حجه هذا. ما الفائدة من الحج في مثل هذه الظروف؟
تتهيد "ما":

- لم تتغير رغم كل هذه السنين. تقول لوالدك أبيض إذا قل أسود وأسود إذا قل أبيض. كم مرة كنت المخطئ وهو المصيب.

- آه، تدافعين عنه! اعترفي أنك كنت دوماً تحبين هذا الرجل وما تزالين.

- هو أيضاً كان يحبك، لو علمت كم كان يفاخر بك في ظهرك!

- وفي وجهي كان لا يكف عن الصراخ: النار لا تخلف إلا الرماد! النار لا تخلف إلا الرماد!

- وأيضاً كلن يردد لي وأحياناً لنفسه: أنا الشرارة وهو اللهب.

- بجد... أم الجملة من اخترعك؟

- يا بني، لو تعرف كم كنت لا زلت ظالماً لوالدك!

مؤكد أن الرجل ظلم بقدر ما ظلم ولربما أكثر. ظلمه الوطن والدهر وكم من رفاق الطريق، فردّ الفعل - كما هو الحال دوماً مع الأدميين - لتختفي يوماً الفوارق بين المظلوم الظالم والظالم المظلوم.

ظلمه أيضاً ابنٌ ما زال على إيمانه حتى وهو كهل أنه لا تضحية إلا وكانت من الأم ولا إثرة إلا وكانت لها الرمز، أما الأب المسكين فلا نصيب له من كل هذا إلا القتات.

إنها الصور النمطية المبتذلة، لكن ماذا لو كانت نسبة الأباء الطيبين لا تقل عن نسبة الأمهات الطيبات ونسبة الأمهات الشريرات لا تبعد عن نسبة الأباء الشريرين؟

ماذا لو كانت التضحيات لا تختلف عند الأباء والأمهات وأنه نفس الحب عند الكل حتى وإن أخفق الأباء في التعبير عنه؟ أليكون الوهم السائد الذي يُعطي للإناث النور الأجل هو نتيجة استئثارهن بذهن وقلب الطفل في أولى وأهم سنواته، بينما الأباء المسكين يموتون إرهاقاً بحثاً عن لقمة العيش لإطعام عائلتهم أو يسفكون دمهم في ساحات المعارك للدفاع عن وجودها؟ هل الأمر نتيجة تفوق مكرهن على خشونة الذكور وجهلهم بقواعد العلاقات العامة. هل نجاحهن في تسويق صورتهم على حساب الذكور المغفلين كبرٌ عملية غسل للماغ عرفتها البشرية؟!

كرجل وكأب، وتحملنا لكل مسؤولياتي التاريخية في مقاومة الظلم مهما كان مصدره، وتداركنا لكل ما سبق من مظالم لجّقت بالرجل علمة وبالآباء على وجه الخصوص، وبصفتي صاحب هذا النص أكتب فيه ما أريد، فإنني أعلن يوم 7 مارس العيد العالمي

للرجل حتى يكون لنا الأسبقية ولو بيوم واحد على عبد الخبيثات، بل وسنجد عبد الأبياء -نكالية في الحركات النسوية- بيوم ثلاثة أيام كاملة لا يوما واحدا وخالصة الأجر بالطبع. ليكن أيضا في علم كل من بهمه الأمر أنني قررت لستدعاء كل قرءاء الرحلة في نهاية النص لحضور حفل إمضاء معاهدة سلام تتصّن على أن الأبياء سيتوقّفون من هنا فصاعدا عن محاولة العيش بالوكالة على حساب أبنائهم، وهؤلاء عن محاولة دفع آبائهم نحو باب الخروج لأخذ مكانهم. وقبل المرور لليوفيه سنبادل الخطب تحت التصفيق الحازّ لمدعوين يغالبون دموعهم من فرط التأثّر. ثم نخرج مباشرة من المسرح نتركه لجبل جديد من الأبياء والأبناء، آخر همهم تنفيذ الاتفاق، علما وأن كل من وقعوا المعاهدة التاريخية والشهود أنفسهم كانوا يعرفون منذ لحظة التوقيع أن الأمر خدعة حرب لا أكثر.

نفس المشهد المؤثر عن معاهدة مماثلة بين البنات وامهاتهن علما وأن مآله مآل معاهدة الأبناء والأبياء، لكن هذا شغلين وليس شغلي.

لم أكن أعلم يومها أنني سأطبع قريبا آخر قبلة على جبين الرجل الذي أثرت قصة حياته في قصة حياتي كما لم تؤثر فيها أي قصة أخرى، أن دمة حارقة ستسيل على خدّ سكنه إلى الأبد الصقيع، يذرفها أصعب ابن على أصعب أب!

تصورت أنني انتصرت عليه بالضربة القاضية لما وصلت للقمة التي استعصت عليه لكنه هو الذي انتصر عليّ بالضربة القاضية وأنا لم أجد طوال حياتي إلا وراء طموحه هو ليكون لسيد الذي يقف بين يديه الشعراء.

يحضرني كم كان معجبا بشاعر جعل من قصائده الكلام المقدّس الذي يبرر به كل ما يقول وما يفعل. لماذا جعل من هذه الذات الأخرى القدوة والمثال؟ هل لتعريفه في الأمها على الألام التي عدّته طول حياته؟ هل كانت نزوة مأساة هذا الأسمى المعروف تحت اسم المتنبي وقوفه اضطرارا على أبواب الملوك يستجدي من يحقّرهم، هو الذي كانت بنفسه أنفة أن تسكن اللحم والعظم؟ هل لأن العالم أسرف عليه بالمحن ليختبر قوته المزعومة، أم لأنه رفض له شهواته أو بالغ في التقدير بها عليه؟

ألهدد الأسباب وجد " يا " نفسه مع كم من الآخرين في مأساة هذا الشاعر الذي لم تعد جعجعتهم الفارغة تثير فيّ إلا هزّ الكتفين.

أي والله، لم يكن لي طوال رحلتي غيره خصما ومنقسا. كلُّ من لاعبوني الدور أحياء وأموات لم يكونوا إلا أشكاله الباهتة.

نعم، لم أعرف له مثيلا على كثرة ما خلطت من الرجال وأشباه الرجال. كانوا يظنونني أسخر منه وأنا اسميه السيد أينقّاس وأنا أقصد كل كلمة. أي والله، أين في الناس أب مثل أبي!

كم سيخيّب الرجل ظني ذلك اليوم الذي وضع فيه رحله نهائيا أنا الذي آمنْتُ دوما أنه قادر على ليّ ذراع أيّ عدوّ فإذا بعزرائيل يطرحه أرضا يجزّده من وسامته وثاقته وفصاحته وهو لأوّل مرّة لا يُقاوم ولا ينتصر.

لا بد أن ترحل "ما" دون هذا الحمل الذي نغص جزءا كبيرا من حياتها.

- اطمئني، غفرتُ له منذ زمن طويل والفضل لمشاعلي مع عصا أثقل من عصاه ينزلها الدهر بلا توقف على ظهري. ثم لماذا توصيني بشيء كهذا؟ ستشرفين بنفسك على المراسم. تمشح المحتضرة بنوعها وابتسامه كاملة كالبدن ليلية اكتماله تضيء وجهها. تطيل النظر إلي وهي أحسن من يعلم أنها تراني لأخر مرة.

- أتعرف لماذا فُدر لك أن تدخل بيت الله وأنت في هذا العمر؟

- الظاهر أنه لم يأخذ في خاطره بخصوص الطقوس. بجد، لم يكن لي من هاجس طوال الحج غير خدمة المرضى لا أكثر... بالليل وبالنهار بكل جوارحي بكل ما أوتيت من علم ومن جهد، بالقليل من التقاني الذي أخذته عنك.

- هل كلن يريد منك شيئا آخر؟ ألم تكن تخدمه وأنت تخدم عباده، اطمئن، هو راض عنك مثلما أنا راضية عنك... دنيا وأخرة. سر محروسا على بركة الله لا تهرب شيئا ولا تخش أحدًا.

يا لضربة الحظ التي وضعت تحت نمتي مثل هذا الدليل الذي يواصل شد أزري وتربتي حتى وهو يلفظ أنفاسه.

ها هي "ما" تكمل رحلتها في هذا العالم قائلة: "هو" راض عنك مثلما أنا راضية. آخر هداياها.

تفتح عينها على أقصى اتساع تجبل نظرها حولها تملأ وجدانها من العالم الذي ستترك وراءها. من أين لي أن أنسى ذلك الصباح الذي أجبرتني فيه على إخراجها من المستشفى لثموت في بيتها... صرختها وهي على باب القسم فلجأها ساطع النور واتساع السماء ومهابة قوافل لسحب: يا وجه ربي!

يا وجه ربّي! العالم كله وجه الله! العالم بأسره بيت المقدس!؟

يتوقف بصرها على وجهين يحذقن فيها بعيون دامعة. تلامس يدي الشعر المجلل بالبياض ثم تحكم غطاء لم يعد ينفع ضد قر أو حر. يجثو الطبيب طفلها الآخر على الأرض لوجه بين اليدين تارة، وتلرة أخرى يقتعل زيادة سرعة تنفق الدواء في الشرايين. يتصاعد من المحتضرة همس ضعيف، يردد صلاة لا تستجدي فيها شيئا لئانها وإنما تدعو فيها للباقيين على قيد الحياة. ترفع الأم الأزلية ببطء وصعوبة يدها في حركة أتية من أعماق التاريخ تبارك طفليها الحاضرين وكل أطفالها الغائبين.

أكملت المرأة التي لم تسعفها الظروف بالحج للصغير آخر فرائض الحج الأكبر ونحن كلنا نأتي هذا العالم حجاجا.

تلتقى "الباشلاما"⁴ وفات "ماما" والدفن فيها كالعائد بعد طول الفراق إلى حضن أمه. هيبات أن تخفف حتى مثل هذه الصورة من ألم الفراق.

⁴ الباشلاما اسم الأرض الأم في لغة الشعوب الأصلية لأمريكا الجنوبية

"ولو حفروا في دَرّة ما رضيتُها
ولو أودعوك الجيّ خفنا مصيفه
فيا قبر واه من ترابك، لتينا
لجسمك، إبقاء عليه من الدفن (المعري)
وَمَثَلَهُ، وازداد الصنن من الصنن
عليه وآه من جنالك الحشن"⁵
آخر حفنة من لثرى ثم صوت المرتل: اللهم تقبلها بواسع رحمتك ومحبتك، فتردد روجي:
أمين.

حولي كلهم يرددون: إنا لله وإنا إليه راجعون.
إنا لله وإنا إليه راجعون! راجعون إليه بماذا؟ بالبشرى أم بخفي حنين؟
إنا لله وإنا إليه راجعون! من إنا هذا الذي هو من الله وإليه يرجع!؟

**

⁵ الجندل: الحجارة (الفاشر)

الكتاب السادس الغريب

سيعود يوسف التائه ثانية إلى كنعان فلا تحزن.
ستصبح صومعة الأحران في يوم من الأيام
كأنها الروضة والبستان فلا تحزن.
وإذا ضربت بأقدامك في الصحراء شوقاً إلى الكعبة
إذا غلظت عليك أشواك المغيلان فلا تضجر ولا تحزن.
والمنزل مليء بالخطر، والمقصود بعيد غير منتظر
ولكن كل طريق له نهاية، فلا تضجر ولا تحزن.

حافظ

مقدمة الكتاب السادس

في 31-12-1999 بالتقويم السائد .

حقًا إنني لمسافر جدّ محظوظ وقد سحبت لي طاولة القمار سفرة في أشدّ مقاطع الزمان إثارة. الدليل أنني مدعوّ إلى أضخم حفلة نظّمها الأدميون في تاريخهم الزاخر بتنظيم المآتم والأعراس. كم غريب أن تكون هذه الحفلة مخصصة للاحتفاء بليلة من الرحلة شاءت الصدف أن ترمز في رزنامة بعض أمم المرتحلين إلى دخول ألفية جديدة -ومستقبلين الحدث بسنة كاملة- إلى دخول قرن جديد.

على شاشة تلفزيون صغير، يفتتح مراسم الترحيب ملك مغمور لجزيرة في قلب المحيط الهادي اسمها "تونجا" متقمنا بأولى مظاهر التبرّج.

ثم ترنّ الأجراس في مدن تدعى طوكيو وسيول، تعلن أنها دخلت تحت ظل الزمان الواحد. يواصل الطيف تسلله غربا يمدّ ظله على أصقاع من الأرض تتسع رقعتها شيئًا فشيئًا. تتصاعد الهتافات من مكن يدعى موسكو.

في مدينة اسمها روما يخرج إلى الشرفة المطلة على جماهير الأدميين عجوز مهيب مرتعش يبارك الحشود ويبارك سعادتها. كيف لا يتنخل هنا الرجل بالذات في حفلة كهذه وكل عين مجرّبة لا تخطئ التعرف على الصبغة النينية لمواسم الليلة المشهودة. تشتعل الأتوار في برج حديدي يتوسط ساحة مكتظة في مدينة مرحة أحالت أنوارها الليل نهارا. يتدافع بشر المكن، مع كل الناجين من كل الكوارث والمتسببين فيها، لتقجير مخزون الفرح الذي بداخلهم احتفاء بأهم ما يجب الاحتفاء به: إنهم ما زالوا أحياء يرزقون. يتعالى صراخهم تعجبًا وإعجابًا أمام شلالات الأتوار والألوان ترسمها الشماريخ على ثوب الليل البهيم.

تصل الألفية الجديدة إلى مشارف مدينة أخرى على ضفاف نهر عجوز آخر، هي أيضا سكرانة بالأتوار وصخب شماريخها تحيل الليل نهارا.

أي صورة للعالم أبلغ من هذه؟ على سيورة الوجود تفجّر ما لا يحصى من نقط النور ترسم ألواحًا مبهرة... كل نقطة ملحمة كائن حي. هناك في تلك الركن الشرقي من اللوحة حيث الألوان أكثر اشراقًا، تفجّر قصتي ثم اختفاؤها بلسرعة التي ظهرت بها أي أهمية للأمر يكفيني شرفًا أنني كنت جزءًا من العرض.

بداهة قرّر أهل هذه المدينة الإفراط في مظاهر الترحيب. ربّما هناك هدف خفي لمن نظّموا هذه العاصفة من النور والنار. ألم تكتسب هذه المدينة المتعجرفة طول سنوات آخر حرب عرفت خبرة في إسقاط كل مغير؟ هل من مغير أخطر من هذا لزمان الذي يدعي التجديد والذي قد يكون محملا بما لم نعرف لحدّ الآن من لويلات؟

تعتبر الألفية المحيطة لتخطي سالمة في ساحة اسمها تليز سكارا. نفس الحشود الآمية بنفس الفرح. أخيرا ينتهي الزمن الجديد ببسط ظلاله على البشرية جمعا وقد وصل أقصى غرب لفضاء الحسني.

على سطح البيت، حيث السهرة كل ليلة مع النجوم، أفرش حصيرا شلخصا بين الفينة والأخرى إلى السماء كئني سألرى هذه الألفية الجديدة على شكل ضباب خفيف يمر فوق رأسي.

تصمت كل الأصوات ولا يبقى فوق رأسي سوى ما رسمته من الأزل فرشاة القنان الأعظم.

قرن محمل بكل الأخطار التي يتحدثون عنها في الجرائد ويهلل له هؤلاء الأغبياء! لكن لماذا أحمله أكثر مما يستأهل؟ فهل كانت عصور الجذام والطاعون والعبودية والمجاعات أرحم؟

يجب أن أداهنه، عله يكون أقل فضاضة من القرن الذي ولي الأديار لا هو متأسف على فراقنا ولا نحن أسفون على فراقه. أكيد أنك قرن ابن حلال لا كالذي نغادر وقد كان أكثر القرون دموية في تاريخ آخر ما نقصه سفك الدماء. يكفي أن ينظر أي إنسان إلى وجهك الصبح ليفهم أنك أتيت وفي جرابك أخيرا العدل والمساواة والفرح والسلام والحرية للبشر كلهم وحتى لبني حرية وأل ثبات.

للأسف سيفيق المحتفلون غدا بوجع رهيب في الرأس يتوجسون خيفة من حضور الدائنين وقد انتهت نوبة السكر.

المسكين! يظمنون أنفسهم بهذه الطقوس السحرية أملا في مستقبل لا يكون دورانا في حلقة مفرغة.

بعد السلام الحرب (برنارد فرير-بتصرف)

بعد الحرب السلام

بعد المركزية لامركزية

بعد اللامركزية المركزية

بعد المدن، القرى

بعد القرى، المدن

بعد البرلمان، الحكم الفردي

بعد الحكم الفردي البرلمان

بعد الهدوء، الانفجار

بعد الانفجار، الهدوء

بعد الفوضى، انضباط الاستبداد

بعد انضباط الاستبداد، الفوضى

بعد الطغاة، الحكماء

بعد الحكماء، الطغاة

للصراحة آخر ما يهمني مستقبلهم ، كل ما يهمني مستقبلي وهل سيفتح أخيرا أملي باب
هذا السجن الواسع الذي يسمونه الوطن وهو لم يعد منذ زمن بعيد الأرض التي نهرب إليها
إنما الأرض التي نهرب منها.

**

أو كيف أن قدر الآدمي أن يعبر العالم غريبا بين الغرباء

أخيرا يفتح باب السجن الأكبر ليُلقفني المنفى مرة أخرى وقبلي كان وطن 'با' إلى موته . داخل عربة مترو شبه فارغة ثلاثة مرافقين ومعهم بنت على وشك الخروج هي الأخرى من طفولتها. يصرخ أحد الصبية ليثير إعجاب البنت ولحث رفقه على الاستعداد للذبح: هل تشمّون هذه الرائحة النتنة؟ أه، إنها لهذا الأجنبي القذر الجالس وحده هناك! لا مجال للإفلات من خصومات الأعميين، كل ما يتغير المكان والظروف والرهانات ومستوى الخطورة في التعامل معها. أهز الكتفين مفضلا الخروج في أول محطة. واقف على السجاد الآلي المتحرك في اتجاه الخروج والانتباه على أقصاه. على السجاد الآلي الأتي من الاتجاه المعاكس، تتدافع الوجوه المجهولة نحوي لتختفي سريرا وهي تتجاوزني تعوضها بنفس السرعة وجوه أخرى مشابهاة ومختلفة. كلها كما نحتها جيا كومتي في تمثال الرجل الماشي. لها نفس الملامح المتجهمة والأبصار الشالخصة نحو الفراغ والكلّ منغلق على ذاته في صمت ثقيل.

نعم ، كلهم كُنُتْ مُحْكَمَة الإغلاق لا تُرى منها إلا العنوان... أما النص فحرام إلى الأبد ومع ذلك ما أسهل تصوّر ما فيه... أغلبهم منغلقون على أسرار بئسة، متخبطون داخل شبكة من الأوهام طرزها لهم الأوائل والمعاصرون، عاشون على تخوم الأخلاق والقانون، مصطدمون على الدوام بتحديات مستعصية على الحل يواجهونها بلسنراتيبيجات في منتهى الغياء، يحملون قصصهم كالمتسبح صليبيه على ممشي الألام ومع هذا يا لحيويتهم وهم يركضون في كل اتجاه كأنهم وُعدوا بكنز لا يعرفون له مكانا.

لا تسمع والسجاد المتحرك يواصل تقدمه إلا وقع خطى عصبية متسارعة، ومعظم الضجيج أت من الإناث بكعبين العالي، كأن بهنّ إصرارا على مواصلة بثّ إشارات الإغراء حتى في مثل هذه الظروف ومثل هذا المكان.

هذه أنثى ممشوقة القامة واهقة جوارحي كل النظرات مسلطة عليها من القادمين في الاتجاه المعاكس. عينان تلمع فيهما شهوة حلّاة. أخرى تقفل اللامبالاة. قرة قاهرة تلوي عنقا لتلحق الذات ما فتتها. وهذه نظرة مطوّلة للصيدا يزن بفكره كم في الطريدة من طازج اللحم. ظلال من الحزن في عينيّ أرهقتها الحياة كثيرا، لا تتوقف حتى على الوجه المثير. بريق غير عمية تبعث فيّ قشعريرة، يأس موجع يلمع في عينيّ تفضلان النظر إلى الأرض سلّمنا بدوام الهزيمة وعبث النضال.

هذا عالم أعلى قيّمه الجمال محكوم عليك أن تُعبّره رائيا مرثيا، والكل يقيم مدى قربك وبعدك منه.. هل ثمة أصعب من الارتحال، والنظرات تنزلق عليك لا تتوقف لأن نصيبك من الجمال زهيد؟ ما أروع أن تحنّ فيك عيون الجحافل ترنو إليك كما للنجم الساطع في

حلقة الظلام. ترى ما الجمال؟ مسألة هندسية بحثة مرتبطة بدقة رسم ملامح وجه أم إطلالة النموذج الأصلي في أنجح نسخته؟
هذه نظرة جلتها ستتوقف عليّ ولو لثانية لكنها لم تفعل. انزلت ولسان حالها يقول: لا شيء في هذا الأدمي جديرٌ بالاهتمام. كم مُخيف ألا أحد من هذه الكترة الكثيرة عرفني أو انتبه إلي، أو اهتم بي أو لاحظكم أنا مرهقٌ مهموم.
"كم تسغت شرقاً وغرباً! (أغنية صينية)
كم لاقيت من البشر!
ولا وجه أتنگره
تعبت حقائبي
ظلي وحده الرفيق"

لا أحد من هؤلاء الأميمين يقف مسلماً ولا أحد تستوقفه لتأخذه بين ذراعيك بالقبُل والدموع. أه أخيراً بيتسم لي أحدهم وفي عينيه شيء من المرح والعطف. يخفي بالسرعة التي برز بها. إنه تائه مثلي يقول لسان حاله: تشجع ثمة مخرج لنا جميعاً من كل هذه الأنفاق!
يصل السجاد المتحرك آخر النفق فأفئق من ذهولي وقد توقف الهمس داخلي وبدأ التذافع المحموم نحو مختلف المدارج المؤدية لهذا الخطأ أو ذاك والإشارة الصلابة وحدها الدليل. أي كابوس لو انطفأت كل الأضواء نهائياً واضطرت هذه الجحافل المتدافعة في جوفها إلى اكتشاف طريقها في الظلام!

فجأة يجبرني المجهول الماشي أمامي على التوقف وهو يقتعل الانحناء لإحكام ربط حذائه. يلتصق بي مجهول آخر من الخلف، يدخل يده في جيبني للاستيلاء على ما فيه. في مثل هذه اللحظات يتصرف الجسم بغير حاجة إلى قرار من الأنا الواعي. هكذا شعرتُ برجلي اليمنى تبادر بركلة غليظة في المؤخرة المعروضة أمامي، ويدي اليمنى تمسك بيد اللص ويدي اليسرى تسرع لخناقه. تصرخ امرأة يبدو أنها تابعت الحادثة بانتباه شديد: براغو يا مسيو، أنت على الأقل لست صيداً سهلاً، هؤلاء اللصوص لا يستحون. خذ بالك، هرب الأول، والثاني يصدد الإفلات منك. يا بوليس، يا بوليس!

اللجنة! من قال لهذه الغيبة إنني أريد البوليس. كل ما أريده، وقد استعادت الإرادة الواعية تحكمها في آليات الجسم، أن أعتذر لمن ركلت، أن أدعو الذي تملص مني لفجان قهوة ليجدثني عن أحوال اللصوص وما يعانون من عالم كثر فيه البوليس. لم يبق إلا دعوة هذه الغيبة لتناول القهوة لتمدني هي بتصريح مطول عن حالة رحلتها، عليّ أزيح بعض الغرابة عن الأميمين بصفة عامة وعن النمط الأدمي الأكثر انتشاراً، هذا الذي اسميه الذي منه كل وحشة... الصنف الذي ستخرج من صفوفه الأنواع الأخرى من الأميمين الذين سيجعلون من حياتك جنة وجحيماً. لكنّها لختفت عن الأنظار هي وكل الذين أقوا نظرة خاطفة على المشهد وتدافعوا كل واحد يركض على الطريق الذي رسمته له الصدفة والأقدار.

أخيرا الهواء الطلق .

على طول الشارع الرئيسي مظاهرُ زينة الأعياد ونهاية السنة، أجمُلها أضواء زرقاء رُصّعت بها أغصان الأشجار.

قد لا توجد مدينة في العالم تعجّ بهذا العدد من الأجناب المتدافعين عليها من كل أرجاء الفضاء الحسيّ لألف سبب وسبب وهي غير عابئة بمن يدخلها ومن يخرج منها. صورةٌ مصعّرة لعلاقتنا بالعالم نفسه.

على الرصيف المكتنّز، السّياح والمتسوّلون والباعة والهاربون أمثالي من القمع والقرقر. داخل المقاهي والمطاعم فقراء جاؤوا يفتعلون الثراء وأثرياء جاؤوا ليبيروا الخدم بمكرماتهم الخيالية.

ورائي قوس النصر. على من؟ على ماذا؟ لا أحد يجهل اسم الجزار الكبير الذي زفعه، لكن من يعرف اسم الضحية التي ترقد تحته؟ الجندي المجهول! مجهول لمن؟ قطعاً ليس لأمه وأبيه ولحبيبة انتظرت رجوعه عبثاً. على فكرة، ما اسمه، كم كان له من العمر يوم قُتل؟ كيف كانت آخر لحظاته؟

كل ما يُعرف عنه أنه كان جثة متعفنة أُخرجت من أرضٍ عرفت أكثر حروب الأدميين وحشية وغباء، أنه كان واحداً من بين ثمانية قتلى آخرين، أنهم أخذوا الأشلاء ثم اختاروه هو في نوع من القرعة، والجائزة أن يمثل كلّ الذين التهمتهم الحرب ولم يحفظ لهم للتاريخ مئزة أو اسماً. يالها من جائزة أحرزها ولا علم له بلشرف الأثيل! آية قرآنة فنجن كانت تتجرأ لتقول لأم المولود الجديد إنه سيعيش نكرة وسموت أشبع مئنة، لكنه سيصبح من المشاهير يقف ملايين المجهولين إجلالاً أمام قبره ولا أحد يعرف اسمه.

فجأة التفتُ خلفي مدفوعاً بقوة قاهرة لأهزّ الكتفين وأنا أتذكر أنني خرجتُ أو قُل طردتُ هذا الصباح من بوليسستان، أنني أمشي حراً لأول مرة منذ سنوات ولا مخبرٌ يتنقّس في عنقي.

نعم لا مخبر ورائي، لكن كم سأمشي في شوارع هذه المدينة لا وهم لي حول ما يدور ببال من يُلقون عليّ نظرة متجهمة: أجنبي من جنس الإرهابيين، خطر، مهذّب للنظام، لخزينة الدولة، للصحة العمومية، لا ترجى منه مصاهرة أو حتى مصلحة عابرة.

نوبة من الكبرياء المجروح. أليس قدر “النفيس أن يكون غريباً حيثما كان”؟

ما يخفف عني لست وحدي الغريب الذي يمشي في هذا الشارع، ولا أعني فقط الأجانب بالأوراق الرسمية أو المزيفة وإنما سكان المكلن أنفسهم. لماذا أكون أنا غريبهم ولا يكونون هم غراباني إضافة لكونهم وإن ولدوا في هذا البلد وهذه المدينة هم مثلي عابرو سبيل. كلهم مثلي يبحثون عن طريقهم في مدينة يظنون أنها مدينتهم وهم لا يقفون فيها غربة عن غريبتهم. كلهم سيرحلون عن هذه المدينة بيد فرغة وأخرى لا شيء فيها. كلهم يعيشون فيها قصصاً فيها الكثير من الأوجاع لا تبعد كثيراً عن قصتي إلا في التفاصيل داخل التفاصيل.

يصل بي الطريق ساحة مترامية الأطراف كانت وما تزال هي الأخرى شاهدة على كم هائل من أقطع قصص الأدميين.

قُطِع في هذه الساحة حسب من حسبوا 1119 رأس منهم رأس ملك المسكين! ماذا دهاه ليولد ملكاً، أو بالأحرى ماذا دهاه ليولد ملكاً في غير الزمان المناسب! انتباهاً لاختلاجة، امتعاضاً هنا وعلامات نفاذ صبر هناك. يجب أن أتحرك بسرعة؛ لا مكان هنا لمن يسد الطريق والويل لمن يتكأ. ليسر عوا إلى حيث يريدون؛ لست مهتما بهم وكل انشغالي مُنصبٌّ على أشباح نساء ورجال خلقت رؤوسهم وأيديهم مقيدة إلى الخلف كُتسوا فوق عربات مجرورة بالخيول والثيران. إنها شحنة اليوم للمقصلة الزهية المنتصبة وسط الساحة. تُرى ما الذي كان يعمل داخل رؤوس على وشك السقوط جاحظة العينين في فقة معدة خصيصاً لتلقفها؟ هل تكون هذه المرأة التي تبث على كل الأمواج قدراً لا يُحتمل من الألم هي الملكة التي تضفرت عليها كل الأحقاد وسقوها في مثل هذا المركب كما سقوا زوجها من قبل؟! المسكينة! ما الذي دهاه لتولد ملكة بل وفي غير الزمان المناسب! لو جاءت قبل بضعة عقود أو بعدها لربما أصبحت أم الشعب والقيسة التي تتبرك بها العجايز والعداري.

كيف الإفلات من صُراخ صلمت يملأ الفضاء ويتعالى من مبان متجهمة تقع على بُعد بضعة مئاتٍ من الأمتار. ترتج الذات لعويل طفل خرج أبوه للمقصلة وتبعته أمه التي أجبروه على القول إنها كانت تضلعه. ما الذي دهى هذا الطفل ليولد أميراً وولي عهد ملك على وشك الغروب! ربما كلن سيصبح أكبر الملوك حكمة لو أسعفته الأقدار بشيء من العون. لكن طاولة القمار سحبت له سيناريو سيموت فيه كمدا قبل بلوغ العاشرة في دهاليز قصر مخيف.

إنها مأساة بلا أدنى أهمية لعالم لا يعبا بكل ما عرف من مآسي. بعيداً على يساري البرج الحديدي الذي أصبح رمزاً للمدينة والمطل على نهر هو منذ نشأتها شريان يضخ في جسمها حيوية التجار والمهربين والمسافرين والغزاة. فجأة تصلني كاللظمة المفاجئة على الألف لعنة سكير اتخذ الأرض فراشاً ولم أنتبه له. واحد من الكثيرين الذين غرقوا في خضم مدينة تلفظ باستمرار على شواطئها أجساداً مبللة بالبول والكحول والغرق. آدمي آخر لم تُحايه طاولة القمار اللعينة أكثر مما حابت ملكاً وملكة وأطفالهما قبل فرنين.

من قال: الخيار أن يتصفح القلب أو أن ينفجر؟ تصفح قلبي ألف مرة وانفجر ألف مرة ومرّة، أمام الأشحاذ العجوز الجلس ذاهلاً على باب العمارة، أمام الطفل القابع تحت السيارة يستندش دخان المحرك، أمام المتسول المضطجع أرضاً في رواق المترو، أمام المراهق النائه في أحراش خياله يتأرجح على نفس المقعد من الصباح إلى الليل في أماكن بشعة يتكدس فيها من أفقذتهم المصائب كل صواب.

أية غرابية أن يقفز البعض خارج البساط السيّار، أنهكهم الطريق وأرعبهم، أو قد يكون هو الذي رماهم جانباً، ضيق ذرعا بجمل ليس من ورائه نفع؟! كم من حُطام بشريّ سألرى على ضفتي هذا الطريق اللعين، إلى أن يأتي دوري ضحية آخر لغم زرعه منقم هو الآخر مجهول!

هذه امرأة تدفع أمامها ببطنها المنتفخ، تهذّب بمولود جديد لا يدرك على ماذا هو مقدم. أتوجّه إلى المعنى بالأمر بالتعاطف والعطف والاستعطف مستعملاً هاتفي الخيالي الذي يسمح لي بالوصول إلى كل من أريد: لم تقرأ الرحلة؟ لم أبلغ في شيء، أسأل كل الذين عاشوا إن لم تصدّقني، من الأحسن أن تبقى في دنيا الغيب إلى أن تحين فرصة أخرى. ربما ستنجح القوى المجهولة في تخيل عالم أقلّ خطراً وفضاعة، أمّا هذا! .. ثم هل فكّرت في ضرورة ترك الأرض تستعيد أنفاسها!

يصمت الشبح متجاهلاً ما في قولي من حكمة ومن موعظة حسنة، ثم أشعر بالمتهور يهزّ كتفيه. يجب ألا أحبط وأن أوصل تحمّل مسؤولياتي تجاه مستقبل الجنس البشري. يا مجنون، ورأس أمك الغالية، هذا عالم غير جاهر للسكن... ماذا تقول؟ عليّ أن أهتم بشؤوني، وهل أنا بصدد التدخل إلا فيها! ثم من يضمن أنك لن تشكل خطراً على عالم يكفي ما فيه من إرهابيين!

ترمقني المرأة بريبة كأنها أحسّت أنني أريد بذّرتها شراً. قل لأمك أن تهنا. ماذا! أنت الآن تسرّ في أنفها أنني أريد خطف حبيبتي وأن عليها طلب بوليس النجدة. لا أريد بك إلا خيراً... وأنت لا تريد بي إلا شراً! أه منكم يا أولاد حواء. قد تطلق اللعينة عقيرتها بالصراخ: يا ناس، النجدة، هذا الأجنبي وفي مثل هذا العمر يعاكس النساء الحوامل! صدق من قال مصائب البشرية من مصدرين لا غير: النساء وأمهاتهن. أقولها ولمشي متحملاً كامل مسؤوليتي: الأثني أسنّ البلاء. ألم يكن من واجب هذه المرأة حلّ ظهور بوادئ الحمل أن تشي بنفسها لأقرب مركز شرطة لتتلقى عقابها العادل، وأن تسلم ثمرة الخطأ والخطيئة إلى السلطات الحدودية لإرجاع الغريب الخطر من حيث أتى؟ لكن لا، فالوحدة منهن لا تحمل المرة الأولى إلا وأعادت الكرة وهي فخوراً بما اقترفت المبيض والرحم. هل من دليل أكبر على سوء نية الإناث؟

أه هذه أدمية أخرى تظنّ أن بقدرتها أن تفعل لي شيئاً حتى وإن كنت غير ملقى على الرصيف أتقياً. تُبادرنني الصبية البلهاء ببراءة تثير فيّ لموجة من العطف.

- هل تعرف الرب؟ هل تدرك إلى أيّ مدى يحبّك؟ أتريد نسخة من الكتاب المقدس؟
- لا، شكراً، عندي أوهامي الخاصة بخصوص من يسير هذا الكون، أما حُبّ ربك لي، فكم أودّ أن يكون أكثر وضوحاً هذه الأيام.

تمضي البنت في حال سبيلها لن أعرف عنها أكثر مما تعرف عني.

أخيراً هضبة القديسة التي حمت المدينة من حاولوا اغتصابها وهي لا تطيق إلا من يغازلها طويلاً. يا سيدتي جنيفاف، بجاه المسيح خفي من آلام روح ذلك الطفل لا أظنها ارتاحت

إلى اليوم، وبالرغم من انتمائي إلى قوم لا يحبه قومك لا تتسيّ الآمي أنا أيضا وقد تحلف ضدّي كل ما في ديني من أولياء ومن صالحين.

أه هذا هو الحيّ الذي زرعه سنوات شبابي في كل اتجاه أبحث عن أجمل حبيبة وأندر كتاب. لا أحب إليّ من مفاهي هذه المدينة. دخل زحمتها اللطيفة يخفت أنين العفاريث، لا تسمع إلا بعضا من ثرثرة النساء وتغزل الرجال ومزح النادل مع زبائن نقدي الصبر. لا أظن أحدا انتبه لخدولي أو يعرفني أو سيجلس إلى طولتي لتحريك أوجاعي. صدق من قال إن البشر كحيوانات القنفذ إذا اقتربت منهم كثيرا بحثا عن النفاة لسعتهم ولسعوك، إن بعدت عنهم كثيرا عانيت من البرد. أنا الآن على المسافة المثالية أو هكذا أتخيل، أبحث عما بحثت عنه دوما: الدفاء دون لُسع.

يجب أن أنهض لأواصل طر يقي فهذا مكان لا يحبذ أن تطيل فيه المقام .

هذه المدينة ككل تجمعات البشر غاب وأغلب من فيه منهمكون في صراع البقاء بمعونة الآخرين إن أمكنه، وعلى حسابهم إن تعدّر الأمر. وراء الواجهات المنمقة يخفتي الوجه المظلم لشبكات الاستغلال والاحتيال والتجسس والدعارة والجريمة.

أيا كان نصيبها من الرونق والجمال وطرافة الأبنية، هذه المدينة ككل تجمعات الأدميين منذ سكنهاهم بيوت الطين والحجر مرآة أقطع ما فيهم بما تعجّ به من مواخير وسجون ومحاكم وتكتلت وحدائق للحيوان ومسالخ لذبح الملايين منهم يوميا... ومرآة لحسن ما فيهم بما تعجّ به من بيوت عبادة وجامعات ومستشفيات ومتاحف ومسارح ومكتبات.

على يسار النهر ومن هضبة متواضعة، تتعالى نحو السماء أربع عمارات في شكل كتب مفتوحة، تواجه بعضها البعض. يُقال إنها تحتوي على كل ما جاد به الفكر البشري من كُتب. الشّد والجذب الأزلي بين السيف والقلم. في الطرف الآخر للمدينة قوس النصر وعلى حدودها الشرقية هذا الرمز.

أجلسُ إلى النهر، ورائي الأبراج الأربعة المثقلة بكل ما كتب الأدميون عن الأدميين وبكل الرسائل المبهمة التي تحملها باقي مباني المدينة. فهذه المدينة نصنّ عظيم مكتوب بالعرق وبالدم والكاتب التاريخ. وأيضا هي مدينة الثوار، أمرهم الذي تقرأه في كل مكان. فكَرُ من خرج كل الأطر، تمرّد على كل الصنّيع، جيّد ولا تتوقف عن الإبداع، كلُّ شيء مقبولٌ إلا الرداءة. جُو كهذا هو جرعة الأوكسجين للمختبئ ونفخ الطيب لمن عاث في أرض جدياء ومنتها يملأ الخياشيم.

صخبٌ مفاجئ. متشرد يرمي بقلمة من صفيح على الأرض يفتش فيها هو وكلبه عن شيء يوكل. أماسي حفنة من الأدميين لا يميزهم عن باقي المهرولين في كل الاتجاهات إلا انشغالهم بجمع القملات يرمونها بسرعة في عربلت ضخمة بالغة الضجيج والقبح تسدّ الطريق على سيارات نفد صبرها.

إنهم آخر من تدافع على الطريق المؤدي إلى هذه المدينة لا يعلمون أنها العاصفة لا المرفأ الذي يتخيلون. أغلبهم ارتطوا كما كان الأوائل يفعلون: بلا مال، بلا دليل، بلا خارطة بلا رخصة عبور من أحد، والسفر مغامرة كبرى رهانها الحياة أو الموت.

"الطريق ليس صعبا (كبير كجارد)

الصعب هو الطريق."

لا شك أن بينهم كُتّابا سيضيفون مقاطع جديدة إلى ملحمة الأدمي يصفون معاناته في هذا العالم وهو تائه في الصحراء بلا ماء، أو غريقاً أنقذ آخر لحظة من برائن البحر، أو مغامر يائس يخرق الجبال خلسة ليلة صقيع يُمرق لحشاءه الجوع، لينتهي على أعتاب هذه المدينة شبة ميت من الإرهاق، صارخاً: يا ملاذ المضطهدين لا تصنيني، وبإاحة النور لا تحرقني جنلحي.

ربما يأتي يوم ينشد فيه المرتحلون القادمون من كل أفاق الزمان والمكان.

"تحت أزهار الكرز (بيسا)

لا وجود بيننا

أبدا لغريب"

أصعب ما في الوضع ليس أنني غريب لكل الغرباء الذين تعج بهم هذه المدينة. أغرب ما فيه أنني غريب... حتى لنفسي.

**

أو كيف أن قدر الآدمي استكشاف العالم والأداة ذات جهله بها أعظم.

يحقّق في الشحاذ الثمل بفضول. يمدّ يده بشره إلى قطعة النقد، ثم يصرخ بأعلى صوت:
بونبول⁶، تفه!

كل شيء موجود في هذا العالم فلم لا يوجد فيه شحاذ عنصري؟
لوعد! يقاوم محاولتي فتح رحلته لاستعادة قطعة نقدٍ أستثيرها في صدقة تعود عليّ بالداء
لا بالثتم، بل ما هو يصرخ: النجدة أوقفوا هذا الأجنبي!
لا يبقى لمامي سوى الفرار، وكانني السارق وهو المسروق.
ما يجهله هذا الشقي أنني أجنبي مرخص له في الوجود في بلده وليس كالغرباء الذين
يختبئون في الأقبية خوفاً من اكتشاف البوليس أمرهم وترحيلهم خارج الحدود.
الدليل على متانة وضعيتي القانونية أن في محفظتي بطاقة بلاستيكية أعيش على هاجس
فقدانها أو سرقتها متنتي بها سلطات البلد -ببيلغ الامتعاض- وهي تحفظني مؤقتاً من عنف
الذين يدعون أنهم ليسوا غرباء في هذه المدينة.
قد يكون من مزايا هذه البطاقة تلميني حول هويتي، ففيها معطيات مكتوبة عن اسمي
ولقبني وموضع ولادتي وزمانها وسلسلة طويلة من الأرقام تحدّد هويتي ليبروقراطية
المراقبة والتحكم عن بعد.

مما يقل هذه الأيام أنه سيكون بوسع ما يسمى الذكاء الاصطناعي معرفتي أكثر مما أعرف
نفسى بما سيجمع عني من معطيات تمكنه من التنبؤ بكل ما سأفعل وأقول حتى قيل أي
قرار مني. يا ليتة يقول لي أخيراً من أكون اللهم إلا إذا لم يجرؤ على الأمر ترفقا بي.
في الانتظار لا خيار غير أن أعوّل على نفسي وأن أحتمل مسبقاً تبعات ما قد أكتشف.
لكن كيف؟

ألم يأتيك يوماً الشعور أن داخلك أنائين (مع الاعتذار لأهل النحو والصرف) ولحد رسمي
ومعترف به والآخر يعيش في كنف الطي والكتمان.
هذا الأنا المخفي هو الذي يحدّد طوال الطريق كيف ومتى الجوع والعطش والحلم والحب.
هو من يفكر ومن يتنكر. هو من يمرض ومن يبرأ ومن يقرر ساعة النوم ولحظة الموت.
لا تشعر بجبروته قدر شعورك به و" هو" يقودك بقبضة من حديد باتجاه الخروج النهائي،
كأنك مجرد طرد يُسلمه مجهول إلى مجهول. من قال له إنني قررت الموت الآن أو إنني
أريد أن أموت أصلاً؟

بريك ألا يدهشك أن تكون داخل ذاتنا كمن يعيش في عقر دار يظنّ نفسه المالك وهو فيها
مثل ضيف لمضيف مجهول!

"من بيادر داخلي (روبرتو جياروز)

⁶ سبة عنصرية في إحدى البلدان (الناشر)

عندما لا يكون الأنا؟

من يحمل داخلي عندما أحم؟

من يوقظني على العدم؟

نحن مجرد ضيوف داخل بيوتنا

نشقى لمغادرتها

وكأننا كنا يوماً أصحابها "

كم مرّة صرختُ في هذا الذي يخفتي وراء الستار والذي يحركني كما يشاء، ليعرّف بهويته،
فكنت كمن يحدثُ الجبل!

تكلّم يا من يسكن بين الضلوع، ما نسبك الحقيقي، ماذا تفعل داخلي وما علاقة القريبى بيننا؟
كم مرّة تحايّلتُ على صمته بشتمه والتملّق الرّخيص، فكنت كمن يشتم السماء ويتملّق
البحر!

أواصلُ مع هذا استفزازه: هل تقبّل لذاتٍ، أنت في آخر المطاف جوهرها، بمثل هذه
المظلمة؟ هل يمكن على الأقلّ أن تحسّن خدماتك؟ انتقنا إذن. لا تصاعد بعد اليوم من
أصعقك لألم أو لأمل، لغضب أو لإحباط، لخوف أو لحزن.

يخيّل لي أنه "هو" الذي يبتسم ولسان حاله يقول: مرفوض، مرفوض، كل شيء مرفوض
ولا داعي للإلحاح.

ما يواسيني بعض الشيء أنني لست الوحيد في مثل هذا الوضع.

كم سمعتُ رفاق الرحلة يشكون من المجهول الساكن داخلهم: جرّيت إغراقه بالخمر، إطفاء
لهيبه بهذا المختر أو ذلك، ترويضه بهذا الدين أو بتلك الفلسفة، بالحكمة أو الفن... عبثاً.
طرقت بابَه بالعلم فلم ينفع، بالفلسف فلم ينفع، بالفن فلم ينفع، بالرّجاء فلم ينفع.

لا نتيجةً أياً كان الباب الذي تطرق، والشيء أصمّ لا يسمع، أبكم لا يتكلّم.

إني أشهد في نفسي صراعا وعراكا (إيليا أبو ماضي)

وأرى ذاتي شيطانا وملاكا

هل أنا شخصان يأبى هذا مع ذاك اشتراكا

أم تراني واهما فيما أراه

لست أدري!

لم لا أنتقم لنفسي من هذا الساكن داخلي حتى ولو كانت نفسي؟

ها أنا أدخل إحدى الدور المظلمة التي نحب الجلوس فيها لمشاهدة قصص الذوات الأخرى
ومشاكلها التي لا تنتهي. أتوجه إلى المرأة الواقفة خلف منضدة تستلم المعاطف الثقيلة: لا
معطف لي، لكنني أودعك "نفسى" للسهرة، لا حرج إن ضيعتها وهذا بقشيش محترم لأجل
الخدمات.

سيناريو انتقامي آخر.

أتوجه إلى المرأة وأنا أخلق ذقني: ما رأيك في الاحتفاظ بهذه النفس التي ترفض أوامري وافعلي بهما ماتسانين.

تخاطبني المرأة: من أين لي أن أرفض لك طلبا، هل أنت مستعد؟ تعطي إشارة الانطلاق لعملية امتصاص الأثنا المغضوب عليه. ومن الغد تبرز الصحافة الشعبية بعناوين صاخبة على الصفحة الأولى: "حالة لم يسبق لها مثيل، شخص يكتشف أمام مرآة لا تعكس له صورة وهو في حالة ليست الموت وليست الحياة، الأطباء لا يجدون تفسيراً للظاهرة." ثمة إمكانية الطلاق كما يفعل كل الأزواج الذين أرهقهم الخصام واستحل بينهم الوفاق. أين القاضي الذي سيصدر الحكم، ما الوثائق التي سقدمها ضده هذا الأثنا الآخر الذي يعاكسني؟

ماذا لو سارع "هو" بتقديم القضية ضدي عملاً بمبدأ كل الخبثاء: ضريني وبكي وسبقني واشتكى.

كأنني أسمعوه وهو يقدم للقاضي وثائقه المزيفة: يبصر ولا يرى شيئاً، يسمع ولا ينيصت أبداً. لا ينتبه إلا لألطف الأشياء والأمور شائناً. أسر في أنه بألف حقيقة فلا يفهم واحدة، وإن فهم، فبالصنفة أو على وجه الخطأ. له في كل موضوع رأي سخي. لا يثبت على موقف إلا إذا كان الهنيان عينه. ذهنه قسمة أنظفها دورياً فيسارع إلى ملئها بكل أصناف الوهم والهوس. ذاكرته لا تحفظ لروائع الرحلة أثراً. أشير عليه فلا يسمع. أنبئه فلا ينتبه. أعلمه فلا يتعلم. أهذله فلا يهدأ. أحاوره فلا يفهم لي قولا. أمره بما هو في مصلحته فيتتطع. أنفع عنه الأذى فيؤذيني. أبريه من الألم فيوجعني. أحميه من طيشه فيمعن في النزق. أريه الطريق المفتوح فلا يتوجه إلا إلى الهاوية، أفتح عينيه على الروائع فيغلقها بعناد الطفل المدلل. ألفت لعنة على هذا الشكل الذي قبلت التجسد داخله. لا بد من نقاش معتمد مع الهندسة العالمة حالما تنتهي هذه المغامرة. أي جدوى لتبذير الجهد في مثل هذا الكائن السخيف؟ نعم يجب إنهاء تجربة بمثل هذا القشل.

لا أتحمّل مزيد التجني. أبدأ في تصفيف هذه الاتهامات الظلمة لحضنها الواحدة بعد الأخرى، وقد قرّر القرار أن أكون أنا الشاكي لدى الهندسة العامة بل والمطالب بتعويضات ضخمة.

عبتُ كل هذا التفكير؟ طبعاً. لا ينفع في الأثنا المخفي أي تهديد.

تُدخل فراش النوم هاربا منه فتجده يتريص بك داخل ألف كلبوس.

تستيقظ على أمل أن يكون قد انحلّ أو تعيّر فإذا به هو الذي يوقظك.

تنتكر على ما يعرفك فتكتشف أنه كان القناع.

تبغي قتله فإذا به اليّد التي تربط الحبل والرجل التي تدفع بالكرسي.

طوال بحثك عن هذا الحاضر الغائب تُفجأ ببعده اللامتناهي ويقربه الشديد.

تفاجأ أنه أنت تتأمل صورتك في المرأة، أنه صورتك في المرأة تتأملك أنت.

ولمّا تتصوّر أنك أمسكت به تكون كمن انغلت قبضته على الريح.

أي خيار غير مواصلة البحث عن طبيعة هذه الذات وهي أداة استكشاف العلم وبداية التحكم فيها بفهمها لا يعني شيئاً آخر غير التحكم في مسار الرحلة ومصير المرتحل.

الذي يعرف البشر دوماً حذر (لاوتسو)

الذي يعرف نفسه محفوف بالنور

الذي يروض البشر قوتي

الذي يروض نفسه جبار

المشكلة أنك طوال هذا السعي كالفراس الذي يركض في كل اتجاه بحثاً محموماً... عن الفرس التي يركب!

**

لَمَّا يَنْخَرِطُ بَحْثُ الذَّاتِ عَنْ ذَاتِهَا فِي طَرِيقِ مَسْدُودٍ.

في بعض الملفات المتعلقة بهذا البحث، يبدرنى الطبيب الشرعي ضاحكا:

- اسمع يا فتى، هذا مريضك ومن حقك أن تعرف بماذا قتلته.
- كان صديقا عزيزا من بلاد الشام مهذارا لا يكف عن المزح وكنت سعيدا أن يكون هو لا غير من سيعينني على تحمل حصة تشريح لم يكن ممكنا تقديها.
- الأعراض السريرية لورم في الجهاز الهضمي ومع هذا لم تُظهر الصور شيئا. أريد التأكد من سبب الوفاة لإغلاق ملفت هذا المسكين.
- تؤمر أمر لكن انظر فقط ولا تفعل إلا ما أطلبه منك، فالتشريح علم لا تُقدرون عليه أنتم يا من لا تعرفون سوى وصف السموم.
- لا تضيع وقتي يا جزار، هيا توكل على الله.
- يا لبختنا ونحن أطباء هذا العصر نشرح مثل هذا الجسد المسجى على الجليز لا خوف من شرطي وقاض وحلاد! كم من أطباء في عصور غير بعيدة عُلقوا في المشانق لتشریحهم في الأقبية المظلمة جثتا مسروقة من المقابر... هم أيضا كانوا يفتحون مثل هذه الجثة حتى يعلم العلم والدافع الحقيقي اشباع الفضول بخصوص القوة المجهولة المختبئة تحت الجلد... القوة التي تجعل منا أحياء عندما تكون وجثتا هامة عندما تختفي بسبب هذا الورم الحقيير أو بأي سبب آخر!
- يرسم الزميل بسكينه أهدودا عميقا في الجسد العاري ينطلق من تحت الحلق إلى الصرة. يدخل يده تحت الفك الأسفل مستلا بفضاطة ودفعة واحدة اللسان والحجرة والمريء والقصبة الهوائية. ثم يشق الصدر مخرجا من داخله هذا العضو الذي ما زالت القصص القديمة تجعل منه معقل الحب.
- لم يبق إلا انتزاع كيسين يحتلان جاني قفص العظام يمثلن بأول نفس للقادم الجديد وينطلق منهما آخر نفس عند لحظة الرحيل النهائي.
- يرمقي الزميل ساخرا.
- ملك؟ هتئ من روعك، تصوّر أنك بصدد تقطيع كبش العيد لا أكثر.
- كلّ هذا الغبي يعلم... كأنه يستغلّ الفرصة لينكأ أقدام جروحي! يواصل استفزاز ه شجعه تزايد ارتياكي.
- أتريد أن أتادي لك طبيبا؟
- ها ها، نكتة بائخة لا تصدر إلا عن ثقيل دم مثلك!
- يصرخ متكلفا مزيدا من الاستفزاز:
- انتهى الشوط بالضربة القاضية على جثة السيد... السيد من؟ انظر إلى اسمه على الورقة المربوطة في رسغه.

أهزّ الكفتين . على ملامحي ما يستقرّ عند الرفيق مزيداً من العدوانية الضالكة.
- يا ولد، منظرِك يرثي له الأعداء فما بالك بصدق مثلي. لا تحمل نفسك ما لا تطيق. اخرج لحظة لتنتفّس شيئاً من الهواء الطلق. أعدك أنني سأكتم السرّ يوماً على الأقل، الوقت الكافي لكي تعدّ أكاذيب الدفاع عندما أقضحك أمام الزملاء.

- قلت لك واصل.

نواصل ويواصل الجسد السلكن تجاهلنا ونحن لا نتوقف لحظة عن استفزازه بلنخز والقص والاقلاع والتقطيع والكلمات البذيئة. لم تطلق شقاه أها واحدة احتجلاً على انتهاكنا حرمة الترابية. لكن هل نحن أوّل من اعتدى عليها؟ بل هل كان له يوماً حرمة ترابية أصلاً؟ هل كان حقاً سيّد جسده هذا؟

تكشف لك الأيام أن ما تظنه ملكك أنت لا غير هو منذ الإفاقة تحت سلطة الآخرين بدءاً من الأبوين والمجتمع والدولة والأطباء وصولاً لحاملي النعش وحافري القبر ثم الدود والجرثوم.

"السقم يحفر سراديبه في ذاتي العفنة (عبد اللطيف الإدريسي)

كم هي اللحظات التي انتبهت فيها إلى جسدي

الذي سيغدو الجثة المأوى لكل الحشرات السفلة"

يصرخ الزميل بطريقة مسرحية:

- انظر إلى الكبد، صاحبك كان من هواة بنت الكرم. بالمناسبة، ألم تخلجك يوماً الفكرة أن هذا الكبد لا يختلف، في شكله ولونه وربما في طعمه، عن كبد خروف العيد؟

ثم يغمزني:

- كبد هؤلاء الكحوليين ضخمة بما فيه الكفاية. سأضع لك رطلاً جانباً، وإن أردت شيئاً من لحم الكتف لا تتردد في الطلب. فنتبه فقط عند الخروج، ألا تسقط القفة من بينك أمام الممرضين. يكفي ما يقال عنا، حتى لا تخرج غداً جريدة عنصرية بعنوان بارز عن اكتشاف شبكة أطباء عرب لتزويد حوانيت شاورمة المدينة بلحم موتى المستشفى الجمعي.

- كفى ثقل دم. لا يهمني الكبد. افتح لي المعدة والقولون ثم الأمعاء. كل أعراض السرطان كانت في الجهاز الهضمي.

أهرش رأسي غير منتبه أنني لم أخلع بعد قفاري.

- هل ترى شيئاً؟ هل وجدت هذا الورم اللعين؟

- الورم، لا، وإنما وجدت كثيراً من البراز. تريد الحقيقة يا قتي، تشخيصك كان مخطئاً من البداية. لنتنظر المعلم، إمّا بيرنك وإمّا... الويل لك من لسانه... والان ما رأيك في فتح الجمجمة؟ اغتتم فرصة زوّقل مزاجي لسيلحة مثيرة في أعماق المسكين.

يبدأ المهني الماهر في قطع فروة الجلد بسرعة وليها من طرفها ثم يأمرني بمسك بمنشار لنشر الجزء الأعلى من العظم. أخيرا الغنيمة المرجوة: عضو رخو رمادي مائل إلى الصفرة ما زال مغلّقا بعشاء هشّ لم يقاوم طويلا المقصّ والسكين.

ينقضّ صاحبي على الدماغ يفصله من جذعه ويستئله من مخبئه العظمي ثم يرميه بلامبالاة مدروسة فوق الطاولة.

أه هذا هو العضو الذي تقول عنه قصص العصر إنه مغلّ النفس الفكر والعقل!
انتهى التشريح. لم يبق داخل الجسد عضو رخو يقطر دما. كل الأشلاء بين يدي الآن. كل مكونات الجسم مصطفة على الجليز الأبيض.

الجسد الذي تقول الرؤى السائدة أنه الحاوي المنغلق على أهم محتويات اسمه الروح الآن مثل كتاب مرّقت ويعثر كل صفحاته، مثل شجرة اقتلعت من جذورها وأسلمت للمنشار والفأس، مثل أسطوانة مُحيت منها كل الأنغام ولم يبق بين يدينا منها إلا الغلاف والبلاستيك الحقيق، مثل أعقد وأثمن لعبة نجح طفلان كبيران في فتحها وبعثرة مكونات لا يفهمان منها شيئا ولا يقتران ما ورائها من عقيرية الصانع كم تكلف صنعها من ملايين السنين.

لم يبق إلا الطفس الأخير وهو لا يقلّ إزعاجا عن تقطيع جثة للبحث عن سبب إخفاق المريض في الحفاظ على روحه وإخفاق الطبيب في صدّ الموت.

كان رئيس قسم الطبّ الشرعي يأتي آخر الصباح ليتوقّف طويلا أمام الأشلاء يتفحصها من وراء نظّاراته السمكية باهتمام فيه فضول الباحث وحيرة الجاهل وتكلف الممثل.

كان يقبلها بقضيب حديدي يتأكد أو لا أنها موضوعة بكل عناية ونظافة على طاولة الجليز الأبيض، أننا صفّفناها وفق أوامره. كانت دقّة القطع وبراعة القصّ من شروط رضاه، ثم كان يمرّ لتفحص العلامات التي تفسّر فشل المريض والطبيب المكسوف.

يطيل الرجل النظر إلى الأشلاء الدامية متوقفا طويلا أمام الأمعاء المقطوعة.

- انظر إلى هذه الحية الصغيرة! إنه ورمك يا عزيزي. تقول إن الأشعة لم تكشف عنه. غريب أنه في الواقع من حجم كاف ليظهر بوضوح على الصور. مؤكّد أن نظارتك ليست بالقوة الكافية ورأيت أن تطلب فحصا من أحد زملائنا أطباء العيون. ربما كن سرطانا قابلا للاستئصال لو شخّص في الإبان... أه كم مؤسف!

لم تنق إلا الجملة المعهودة، خاصة النبرة التي يتفّن بتقليدها كل الأطباء الثبان المتعاملين مع الرجل: إلى اللقاء يا عزيزي، ومعناها أن طبيبا جاهلا مثلك عاجز عن التشخيص على الحيّ سيترّد كثيرا على المشرحة يرهقنا بالعمل الزائد.

لا يمكن أن أترك هذا الرجل يسخر مني.

- يا "مسيو"، ما أسهل التشخيص بالمنشار والمقصّ وعلى ميت.

يفتعل الرجل الترفّع عن الدخول في مهارة مع مُقيم وقح. يلتفت إلى زميلي الوافق وراءه يخفي بصعوبة ضحكه. يملئ عليه الوصف الدقيق لحالة الأشلاء الذي سنغلق به ملف هذا الكومة من اللحم. ثم ينصرف دون أن يحيينا.

- يا حيوان لقد جرحت "المعلم" وقد ينتقم مني.
- هل يظن هذا البلويد أنني لم أرح؟ اللعنة عليك وعليه وعلى التخصص الذي اخترتما، يا أشباه الأطباء، يا جزارين، يا بنو فرنكشتاين!
- وتظن بعد هذا الكلام الخطير أن الدار ستزودك مجاناً بالمخ الطازج وأقصر أنواع الكبد الدم. اهدأ يا ولد. لم يقصد الأستاذ تحميلك وزر موت المريض وإنما هي مزحته الأزلية مع كل الأطباء الذين يطلبون تشريح حالاتهم. تعال نخيط الجثة ثم بعدها أدعوك إلى قهوة ساخنة تعيد ملامح آدمية لوجهك.
- جزارون وخياطون أيضاً. يا له من تخصص!
- تحسبنا لا نهتم بأفئدة جثثنا؟ نحن نعيدها إلى أصحابها في أحسن حال.
يبدأ صاحبي بخياطة الجرح الذي شقّه على طول الجثة ثم ينتبه لسهو.
- نسينا الجرائد.
نعيد تمزيق الخياطة لنحشو الجثة بما تيسر من آخر أعداد الجريدة لصباحية. كذلك نعمل مع القحف الفارغ مؤكداً أن صاحبنا لن يشعر بالملل إذا كان من هواة كرة القدم فالجريدة رياضية والعنوان العليظ بخصوص اتصال فريق المدينة للساحق.
يخرج من قاعة التشريح طبيب شاب بتشخيص دقيق لسرطان قتل مريضاً آخر. يخرج الطفل الذي بداخله يد فارغة وأخرى لا شيء فيها وهو متزايد الامتعاض من عجزه عن فهم ما الروح، أين توجد ومن أين تخرج عندما يختطفها ما يسمونه الموت.

**

أو كيف ضيعتنا ولا تزال أقدم تنانيت السحر والدين الفلسفة

في ملف أول لقاء مع الكلمة الغامضة، تطلق "ما" صرخة مذبذبة وقد وصل العويل من بيت الخل والجار منذرا بحدث جلل.

ترمي كل ما بين أيديها، تهرع إلى البيت القريب تحضن خلة جالسة في حلقة نساء يلطمن خدودهن ووسطهن رقيق اللعب مسجي بلا حراك.

ذهن الطفل الآن فوضى مطلق. ما الذي يحدث هنا؟ هل يحمل على محمل الجد إعراض حسين عن قدومه؟ مؤكداً أنه سينهض صارخا من مرقد ليقتجر جريا معه نحو أشجار الزيتون واللوز.

يواجه الطفل لأول مرة باحتمال أن ابن خاله لن يلعب معه لا هذه المرة ولا المرات القادمة.. يصبح الشك يقينا والكبار من الرجال يحاولون إبعاده برفق مشبوه ولطف غير معتاد ليأخذوا الطفل الآخر بعيدا عن الأنظار وهو دائما ساكن لا يبدي اهتماما بوجود ابن عمه متزايد الخوف والحيرة والهم.

همس متقطع بين النساء عن الروح التي عادت لخالقها وكيف أنه لا مرد لحكمه. عند الرجوع إلى البيت تتراحم الأسئلة في ذهن حائر: هل من الممكن أن تقتر روحه هي الأخرى الفرار من جسده فيضونه في خرق بيضاء وتأتي خالته لتلولل ووجهها مدفون في صدر أمه؟

لا بد من إجابة تطفئ اللق الذي شب فيه هذا الصباح كما تشب النار في الهشيم.

- "ما"، أنا لي أيضا روح ستخرج مني؟

- بعيد لشئ عن وليدي وسبعة أطاف وخمسة وخميس وعين الدسود فيها عود، قل أعوذ برب الناس من الشيطان الخناس.

حقا الحب تلطف ورحمة وإشفاق وحرص وإعجاب وأثرة، لكن لو تمعتت في مكوناته لوجدت أن أهمها الخوف، لأن هذا الذي نحب تمين وجزء كبير من أهميته تأتي من كونه هشا، عرضة للعطب، مؤهلا لتختطفه منك في كل لحظة تقاطعات الطريق.

الأم الآن في أوج الحب لأنها في أوج الخوف، هي التي تعرف ما لا يعرفه ابنها عن الأمراض القاتلة التي تهدد حياة أطفال الفقراء.

- "ما"، أين ذهبت روح حسين؟

- إلى حيث دعاها خالقها... إلى فسح جنته يا حبيبي.

- ولماذا دعاها خالقها؟

تضع الأم إصبعها على شفتي الطفل. يفهم من نظرتها أنها لا ترغب في الخوض في الموضوع. أما هو فلا رغبة له إلا الخوض فيه.

- "ما"، هل لكل الناس روح؟

- نعم يا بني.
- حتى الجيران؟
تحاول الأم منع ربح ابتسامتها من التحول إلى ضحكة مكتومة.
- حتى الجيران.
- "ما"، ما معنى الروح؟
تتخلص من الحرج بمحاولة المزاح.
- هي أنت يا وحي.
لا تزيد الإجابة الطين إلا بركة تصبف الحيرة للخيرة.
تصرّ "ما" على التملص من السؤال الضخم. يجب ترصد ظهور الدليل الآخر. لا بد أنه يعرف ما تجهله أو تخفيه "ما".
في أول لقاء بينار الطفل والده بسؤال غريب جديد.
- "ما"، ما هي الروح؟ لماذا خرجت من حسين هل تعود عندما تخرج؟
تتغير نبرة الصوت. تتلاشى منه نبرة المرح. ها هو يمارس طريقة "ما" في التهرب دون وابل القبل متحدثًا بكلمات غير مفهومة عن حضور "الساعة" دون أن يتكلف عناء شرح ما "الساعة" ومتى تأتي ولماذا تأتي ولماذا تسمى الساعة وليس الدقيقة.
ومما بقي عالقا في الذهن من خطبته الطويلة أنها مئة من الله حيانا بها دون الحيوانات، أنها قوة موجودة داخل قلوبنا وأنها هي التي تحركنا وتتحكم في كل ما نحسن ونشعر به، في كل ما نفعل ونقول.
كم كان الرجل بغالط طفلا برينا وهو ينبخر في الحديث عن الروح بطلاقة من ملك المشكل من نواصيه، والحال أنه كان يعيش على تصورات سانجة تشيعها منذ آلاف السنين روى غير متقنة مفادها أن كل واحد منا له حاوي اسمه الجسم ومحتوى اسمه الروح والموت عندما يفرغ كائن مخيف اسمه عزرائيل الحاوي من محتواه.
يوضع الملفت على رف من رفوف الذاكرة. تمرّ السنوات والعقود قبل أن يعاد فتحه وقد توفرت معطيات جديدة وإن لم تكن حاسمة.
تصرخ الممرضة: أسرع يا سيدي! صرع متتابع التوبت منذ ساعات.
أواجه بجسم ينقض ثم يسترخي ليعود إلى الانقراض. منظر أثار على مرّ التاريخ موجة عارمة من التقرّز والرعب. هذه المرّة لن تنتهي الأزمة تلقائيا وقد تباطت التوبات الواحدة وراء الأخرى.
المراهقة في خطر الموت. من حسن الحظّ أن دواء "الفايوم" سائلا في الشرايين أنفع من التعلويد.
لا بد من الصبر قبل أن تسترجع المريضة كامل وعيها والقدرة على الردّ على أسئلة المهني الذي استعاد هو الآخر كل انتباهه.

- يا آنسة، أريد كل التفاصيل لأنها ستساعدنا على تحديد مكان الخلل. ما الذي تشعرين به بالضبط قبل فقدان الوعي؟

- بالتباعد وبالغرابية. كأنني في حلم. تقول أمي إنني أمشي إبان النوبة ولا أتذكر أنني مشيت. تقول إنني أتكلم ولا أتذكر إنني تكلمت.

كيف لا تأتي الأدميين فكرة التقصص وكأن الروح التي تسكن الجسد في التصورات الشائعة تخرج في هذه الحالة لتحل محلها روح أخرى، غالبا روح شيطان ما؟

أحمل صور الدماغ إلى رئيس القسم متناقل الخطى:

- سيدي، إنه ورم ضخم وعميق في الفص الأيمن؟

يلقي الجراح المحدثك على الصور نظرة متمعنة مقيما ما سيلقاه من صعوبات وهو يستأصل الورم الخبيث.

- سأحاول أن أفعل شيئا لكن هذا النوع من السرطان فوق كل أمل. أدخلها حالا إلى غرفة العمليات.

حول طاولة معدنية سجبت عليها المريضة المبتعدة، يتجمع رجال ونساء بأرديتهم الخضراء ووجوههم المقنعة وأيديهم المغطاة بالقازات، كأنهم كائنات وصلت لتوها من عالم آخر.

يُحلق شعر الفتاة لتتناثر على الأرض جدائل شقر أحذر لمسها برجلي كلَّ بي خوف تذبذبها. يبدأ العمل الجدي بخلع فروة الرأس ونشر عظم القحف وشقَّ غشاء شَقْف هو

آخر ستار يحجب حسب الإشاعات الراجحة مركز الروح وعريتها. عليَّ أن أكون ابتداء من الآن منتبها أشدَّ الانتباه، حذرا أشدَّ الحذر، حاضرا بكل حواسي، خاصةً و "المعلم"

صارم لا يرضى من مساعديه إلا بمطلق الانضباط.

ها هو أخيرا العضو الأصفر الرمادي الرخو الذي يختمني في أعماقه الورم الخبيث.

مسكين ذلك الفيلسوف المسمى ديكارت الذي خرج بحقيقته مذعبا أن الروح بكل وظائفها موجودة داخل غدة يتيمة تتوسط العضو الرخو ومنها تخرج كالهواء من البالون متقرب

لتذهب إلى مكان آخر تواصل فيه قصة دخلت منعرجا جديدا.

كم من علماء أكثر منه جهلا أدعوا بعده أن معقلها بطينات هذا الدماغ ووزعوا مكوناتها بخيالهم الواسع كما شاءوا: الأحاسيس في البطين الأول والتخيل في البطين الثاني والفكر

في البطين الثالث والمشاعر والحركة في البطين الرابع ... والحال أن هذه البطينات فراغات داخل الدماغ لا تحتوي إلا على الماء!

كيف لا يضع هؤلاء المفكرين الروح داخل الدماغ وكان البعض منهم قد وضعها في السابق في القلب والكبد وقد قد ينقلها بعضهم غدا داخل الخلية، فالصبغيات شوارد النزرة...إلا

يعيشون داخل تصور لعالم هو أكبر علية تحتوي على الموجود من العلب؟

يلحظ "المعلم"، ونحن نقرب شيئا فشيئا من الورم، شرود ذهني. ينهرني بفضائله محرجا. تتصاعد الحدة والعصبية في صوته وهو يأمرني بأن أنقل إليه هذه الأداة أو تلك،

أن أفعل ما يقول، لا ما أتصور أنه قال.

ينقسم العقل أو الانتباه أو سمه ما تريد إلى جزء يأتمر بأمر أستاذي وجزء يواصل العمل لحسابه الخاص رغم صراخ الرجل المتزايد توتراً.

الروح، النفس، الذات، فوضى مفاهيم يجب الخروج منها ... كيف؟ الانتباه منها ... اعتبار الروح زبدة خصائص الجسد وأوج قدراته في حلتته التي نسميها الحياة.. بالضبط كما هو الحال مع الفكر الذي هو زبدة خصائص الدماغ السليم وهو سليم في أوج عطائه.. داخل تصور كهذا لن تكون بحاجة إلا لمفهوم واحد هو الذات وإن بوجهين متباينين ومتكاملين الوجه الحسي الذي نسميه الجسد والوجه غير الحسي الذي سماه الأوائل النفس أو الروح... نمونجا قطعة النقد الواحدة المنحوتة من نفس المعدن وبسطحين متباينين لا يمكن الفصل بينهما.

تتصاعد حدة صوت "المعلم" وهو ينهر الممرضة والمينج ويصرخ أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً مع كل هؤلاء الأغباء المحيطين به. الرجل في حالة من الكرب ولا داعي لأخذ صراخه على محمل الجد. بدهاءة هو غاضب من نفسه، من عجزه، من الأقدار الظلمة التي وضعت مثل هذا الورم الخبيث في مثل هذا الرأس الجميل.

يتصاعد من أعماق الذات صراخ صامت: بحق كل أنصاف العلماء وأشياء الفلاسفة، بحق كل جهل الأديمين، بحق كل آمالهم وآمهم، بحق كل إثمهم وبرآتهم، لتعط لهذه الفتاة فرصة!

كأن العالم هو الذي هزّ كتفيه.

يضع الأستاذ جانباً كل أدواته يخلع قفزه وينصرف صامتاً.

أخرج من غرفة العمليات بوجع في الظهر لطول الوقوف، بوجع في الرئس لطول التركيز، وبوجع في القلب والشعر الحريري يرمي بلامبالاة في المزبلة. يصرخ "المعلم" فجأة وهو يهرول إلى قاعة العمليات المحانية حيث ينتظره مريض آخر:

- اعلم والديها أن كل ما في الأمر ربح بضعة أشهر.

- سيدي، هل من الممكن أن تخبرهما أنت؟

- لا تتهزّب. هذا أيضاً جزء من المهنة ولا بدّ أن تتدرب عليه.

تلمع نظرات عدم التصديق في عيني الأب. تنفجر الأم ببكاء صامت.

ألوذ بالفرار لأرمني بجسدي المرهق على أول كرسي أصانفه في الممرّ. أخلع جذائي لتفقد حالة الانفتاح في قلمي. غريب أنني لم أنتبه لهذا الجزء من جسمي وكل عنيتي منصبة على الأجزاء "النبيلة" منه. غريب تجاهلي لأهمية القدمين؟ وهل كنت أنتصب لولاها؟ هل تمتعت يوماً بسحر الغابلات والشواطئ والجبال مشياً على رأسي؟ بل وهل كانت النصوص تتألف داخل ذهني لولا ساعات المشي الطويل؟ لماذا لا أخلق لي نظرية تمشي بذكرها الركيان تدعي بكل صلف الجهلة أن القدمين هما معقل الروح؟

نعم، لنردّ الاعتبار إلى هذا الجزء المظلوم من كيان الأدمي. إن أصبحت من الرجال الذين تحت لهم التمثيل، ليقصر تمثالي على قمين التحصن بالطريق. يمكن للنحات أن يأخذ

بعض الأفكار من جياكوموتي فهو الفنان الوحيد الذي أعطى للقلمين ما يستحقان من اعتبار. تَوَقَّف في أروع أعماله عند قصبة الساق لا يعنيه كل ما فوق... كل ما فوق؟ المحمول على هذين القدمين... جسدي والنسخة الوحيدة التي أملك منه. أنتبه فجأة أنه ما زال متماسك الأجزاء، صالحا للعمل بعيدا عن لحظة التفتك وتقديمه غذاء للكائنات السافلة.. أنه لا زال النمر الذي أروّض، الخروف الذي أحمي، الحمار الحرون الذي أدفع إلى الأمل، الخنزير الذي أمنعه من التمرغ في الوحل، الجمل الذي يحمل كل الأثقال، النسر الذي أخلق به لأرى العالم من أرفع موقع. يقطع عليّ تتابع الأفكار مرور عجوز مرتعش ذاهل مرتبك تقوده ممرضة إلى مختبر قياس الذاكرة والمدارك العقلية لفحص روتيني قبل كل عملية على الدماغ. فجأة يتضح لي طريق آخر لمواصلة الجري وراء فرس شاردة لنا على ظهرها طول الوقت.

**

الذات ذاكرة أو لا تكون

على تخوم عالم النوم واليقظة يتوجّه عجوز نحو نافذة الغرفة ليستمّر محدّقاً في شجرة زيتون علاها الغبار. يَلْتَقَت إلى باب يُفْتَح وامرأة ترتدي الأبيض تُبادرُه مُفْتَعِلَة المرح:
- صباح الخير يا سيّدي، أرجو أن ليلتك الأولى بيننا كانت طيِّبة. هَلْ تَبْعَتِي الآن لمقابلة الدكتور.

مَنْ هذه الأثني؟ لِمَاذَا تَبْتَسِم لي؟ من أين تعرفني؟ أين أنا؟ ما الذي أتى بي إلى هذا المكان؟
تواصل المرأة المجهولة كلاماً لا يعني بالنسبة إلى الرجل شيئاً:

- هذا اسمي مكتوب على أعلى الصدر: الأنسة زهور. انتبه دوماً إلى الأسماء المكتوبة على الأبواب لتتذكّر الطريق. وصلنا إلى العيادة. لن أقدم لك بنّيتك طبعاً، ستحضران المقابلة مع الطبيب وللردّ على بعض أسئلته.

طبيب؟ ما معنى طبيب؟ من هذا الشلب الأسمر؟ من هذه المرأة ذات الشعر الكستنائي والأخرى ذات الشعر القصير الفاحم؟ لماذا تتفحصانني بهذه النظرات الدامعة؟
تجبل المرأتان النظر بين الطبيب الشاب والمريض العجوز، تَدْخَلَت الحدود وامتحت الفواصل في نصّ يرفض الالتزام بالحيل المعهودة للزمان. هو وحده العليم بأنهما تُجبلان البصر بين الشاب الذي لم يُلْدَمَا بعدُ ووالدهما الذي شارفت رحلته على الانتهاء.

يتفحص الطبيب شكله المرتعش القادم من مستقبل غمض مغالباً قلقاً لا يفهم تقافمه، ثمّ يستجمع شجاعته.

- هل يمكن، يا سيّدي، أن تقول لي ما اسمك؟

اللجنة على هذا الغبي، ماذا يقول؟ ماذا يريد مني؟

تتدخل المرأة ذات الشعر القصير الفاحم السواد تخاطب الطبيب وهي لا تكفت عن التحديق في العجوز المتزايد ارتبكاً وتوتراً:

- كيف يحصل شيء كهذا، لرجل كهذا، بغضّ النظر عن كونه والدنا!

تتخلّ الغريبة الثانية صاحبة الشعر الكستنائي الطويل وهي تمسح دمعها:

- خطيبٌ مُفَوِّهٌ لا يجد اليوم أبسط الكلمات. لا صدّق أنه "ب". كم مرة جلبه الجيران من الشارع وقد نسي أين يقع البيت الذي يسكنه منذ عشرين سنة.

تتدخل التي يسميها النصّ تقيحه:

- معقول ألا يتذكّر أنه قائلنا البارحة! أننا نحن من أتينا به إلى هذا المستشفى! أينسي رجلٌ كهذا اسمه واسمي؟

يقاطع المرأتين شبح هو الطبيب والمريض.

- سنبداً بقياس اضطرابات الذاكرة في مختبر المستشفى وسنقوم ببعض الفحوصات الأخرى للتأكد من تشخيص المرض ولا داعي للتسرع قد لا يكون مرض الزهايمر... وحتى لا قدر الله فإننا ... الخ، الخ، نتدخل من يعرفها التصّن تحت اسم تفاحة:

- الشهر الماضي رأيناه يمزّق ديوانه المفضل بأسنانه يمضغ صفحاته... ثمة أشياء أخرى نخجل من الحديث فيها تتعلق... بالنظفة... بنظافة اللسان أيضاً.

تريدان العجوز مهذباً وهو يتابع لحظةً بلحظة ذاكرته تنزف كما ينزف المذبح مما فيه من دم وذاته تلاشي ذاته شيئاً فشيئاً كشكل يفقد مكوناته الواحدة بعد الأخرى وهو عاجز عن فعل أي شيء.

هو الآن ضحية أخبث مرض يمكن أن ينهي الرحلة والدماع لا ينسى فقط كل ما عاشته الذات، كل ما تعلمت وخبرت وجربت وإنما أيضاً هو بصدد نسيان كيف يشغل مكوناته الواحدة بعد الأخرى وكيف يجب مواجهة العطب الذي يمنعه من أداء وظيفته الأساسية ألا وهي أن يحفظ للذات جوهرها.

أليست الذاكرة كفعلي (التذكّر)، وكماذة (المعطيات المحفوظة) للشرط الأول لوجود الذات؟ ما الذات دون الذاكرة التي تحفظ كل تفاعلها مع العالم ودون الأوامر والخبرات المضمنة داخلها ليكن للذات فعلها فيه؟

من طبيعة الكوابيس -قل من مهامها- كشف أخشى ما تخشاه الذات.. ما تحاول عبثاً رميه بعيداً في أعماق اللاوعي.

لا شيء والرحلة على وشك الانتهاء أهم من تجنيد هذه الذاكرة وهي التي تنطلق على كل أسرار الذات قبل أن يُطْفئ الموت قنبل وعي حائر أو أن ينفخ عليه قبل حلول الأجال مرضٌ حقير اسمه العته.

**

ذاكرة ورقة الشجرة أيام الربيع

السفر الآن داخل الذات والأمر كالحفر - بالفكر والخيال والتذكّر - في منجم بغية الوصول إلى أعماق الطبقات.

الطبقة السطحية.

تتراجم ملفات أحداث الطفولة والشباب، أحداث البنوة والأبوة، أحداث الصداقة والعداوة، أحداث الفشل والنجاح وكم من ملفات الحب والغرام.

في أعظم هذه الأخيرة تكفّف "ح" النعم رغم مرور السنوات الكثيرة على آخر جرح. إنه أول لقاء منذ آخر فراق لا يبرر وجوده وعنايه سوى لذة المصالحة واستئناف الخصام.

- هل تذكر لحظة الوداع؟ بقيت على الرصيف أنظر إليك وأنت تجلس حذو النافذة. فتحت الجريدة واستغرقت في القراءة. لم ترفع أنفك عنها والقطار ينطلق. إنذاك قرّرت أن اجلس على أبعاد صخرة على الشاطئ في ظلمة الليل ثم أطفئ النور داخلي نهائياً. تراجعت آخر لحظة لأنك لا تستأهل شيئاً كهذا أيها الوبش، أيها الخائن. أنا التي كان عليّ أن أعطيك تفاحة وتفيحه.

- لم أكن اقرأ وإنما كنت...

- لا تحاول إقناعي بأنك كنت تخفي دموعك ولو أنني لن أستغرب الأمر. كم حلمت أن تبكي ورأسك على صدري.

أقول ل "ح" أعود للاستقزاز الضاحك الذي طبع دوماً علاقتنا.

- هل قرأت الخبر الذي نقلته جريدة الجزيرة على صفحتها الأولى: عجوز تقاضي زوجها، صاحب التسعين حولاً ولم يسأم، في فراشها مع عشيقته ذات الثمانين ربيعاً. لله ذره، فحل إلى آخر لحظة.

- هل يوسعك أن تكون مثله؟

- ماذا؟ أتشكّين في ذلك؟ هل من خيار آخر بعد أن أيقنت أن لا فائدة من الهرب منك، أنت التي أهرب إليها كلما أصابتنني مصيبة مع النساء.

- أريد أفعالاً لا أقوالاً.

- سترين عند المغادرة.

تفتح موظفة النزول فمها وأنا أنفع الحساب:

- حجز لـصيف 2035، بعد ثلاثين سنة؟ تسخر مني يا سيدي!

- لا أسخر منك أنت. بل هذا ثمن الغرفة مسبقاً. رجاء إذا تأخرنا أو لم نأت لأننا سافرننا بعيداً، فلا تسلّموها قبل السادسة ظهراً.

وعند باب النزول تنير لي "ح" ظهرها فأصرخ فيها داهمني الفزع:

- إلى أين؟

- ربما ظننت عندما قبلت هذا الموعد أنني تراجعت في قراري.

- من يتفهمك أحسن مني، أنا أيضا لا أريد شيئا أكثر من فراق من تفارقين، لكن الأمور ليست بالبساطة التي..

- بلي، وداعا.

عبثا أصرخ في "ح" وهي تدبر لي ظهرها راکضة نحو نفق المترو.

- يا امرأة انتظري، قفي، ثوبي إلى رشك، ما زال هناك أمل. طيب، لا تنسي موعدنا والغرفة بالثمن الذي دفعوني.

لا أحد عبر العالم وحيدا لكن لا أحد يصحيك فيه من البداية إلى النهاية. حتى الكائن الذي حملك في أحشائه يتركك أو تتركه وراءك ذات يوم. كذلك الأمر مع "الذي منه كل نشوة".

مقدورك أن تمضي أبدا (نزار قباني)

في بحر الحب بغير قلوب

وتحب ملايين المرات

وترجع كالمك المخلوع

من ثوابت قصص الحب والغرام أن لها نهاية كما لها بداية. كأن الذات وهي تصل آخر فصل من القصة في علاقتها بالذات الأخرى جذوة نار سقط عليها المطر، موجة لم تعد تحركها ربح، بركان خمد، حلم جميل ارتطم ببقطة بشعة. تفيق كل ذات لوحدتها كأنها لم تأخذ من الذات الأخرى شيئا ولم تترك فيها أثرا.

ترى ما الذي أضاعه قصتي لقصص الحب والغرام؟ ترى هل كان في البعض منها شيئا من الابتكار أم كانت تكرارا مملا لنفس الدور الأثري؟

القاعدة أن هيكلية كل قصص الحب ثابتة لا تتغير أيا كان الزمان والمكان، لكن كم من تفاصيل داخل التفاصيل لكل قصة نكهة تختص بها وحدها وتميزها عن ملايين القصص المشابهة.

هذا ما يجعل من قصتي مع "ح" وإن تخضع للسيناريو العام قصة فريدة لم تحدث إلا لي إذ يستحيل أن تكون ذات أخرى قد جربتها في نفس الظروف وعالجتها بنفس الكيفية.

أه هذا ملف ثقيل هو أيضا لكنه عن علاقة حب من نوع آخر.

تندافع صور طفلة وصلت إلى محطة من عمرها اسمها المراهقة. إنها المرحلة من الرحلة التي يصم فيها الأسمي أذنيه عن كل نداء، وقد لقت أنه لا نكاه يبتر ما في العلم من غياب، لا روعة تنسي ما فيه من فظاعة، لا براءة تعذر ما فيه من أثم، لا رقة تغطي على ما فيه من شراسة، ولا جمال يجعل قبحه مقبولا. المرحلة التي يقرر فيها أنه لا حاجة له بمثل هذا العالم وأنه يفضل العودة من حيث أتى.

تصرخ الأم:

- إنها لا تكل منذ أسابيع وأنت لا تحرك ساكنا.

خُلت البنت في إضراب جوع بلا طلب محدد، فما الذي أقدّر عليه؟

أحاول فتح منفذ للقلعة المغلقة.

- يا حبيبتي، إنها مرحلة صعبة لا بد من عبورها.
تدير لي تقيحه وجها تملأ عينيه دموع صامتة ساهمة مطرقة ترفض التواصل مع أي كان.
يجن جنون الأم الأزلية وهي تتابع عاجزة انطفاء الحياة في طفلتها:
- سيادتك من مؤتمر إلى مؤتمر، من مهمة هلمة إلى مهمة أهم، من سجن إلى منفي، وهذه هي النتيجة.

يرفع الألم كل تحرج فتصبح الكلمات سهاما مسمومة ترشقها الأم في قلب الأب المنذب.
- طبعاً البنت ليست محسوبة فيما هو هام وخطير. تستطيع أن تنتظر شهورا لتري أبا بالوكالة، وقته للإنسانية لا لأطفاله. إنها الآن لموتة وموتها على حسابك وحدك.
يتواصل اضراب البنت عن الحياة وكأنها قررت أنه من الأحسن اختزال طريق الالام والذهاب مباشرة إلى نهاية النفق.

هذه المرة فاهت ضريبة الوجود قدرة الدفع. صدق من تنهد: أي مكان تشلون شريطة أن يكون خارج هذا العلم. أصدق منه الذي سن القانون: هذا عالم لا منفذ فيه لأحد وأصدق منهما من صرخ: أوقفوا هذا العالم؛ أريد أن أنزل.

تنتهي تقيحه في غرفة إبعائش قناع الموت على وجهها. على الأرض ظهري مسند إلى السرير محدقا في الحائط. تمر لأمي الممرضات يتبادلن ضاحككت آخر فضائح القسم. أفضع ما في العلم لامبالته لا ما يلحقه بنا من ألم.

كم يخيل إلنا أحيانا أن العالم أعد لنا شمس وقمره وبشره وفرصه خصيصا كأننا ضيوف للشرف في وليمة الحياة. تلتينا الفكرة أنه ثمة بيننا وبينه علاقة غير التي تربطه ببقية الذوات، أننا نتمتع بحماية خاصة وبأفضلية في التعامل. يأتي الحادث الغيبي أو الرصاص الطلشة أو المرض الحقير لنواجه بالحقيقة المرة والعالم يسحب منا فجأة كل ما أعطى كأنه لا يعرفنا ولا يهمه من أمرنا شيئا.

أفضع ما في التجربة هذه اللامبالاة المطلقة التي يظهرها تجاهنا واكتشافنا أنه يعطي كل شيء ويسترجعه غير واع أو مبال بما أعطى وما استرجع ولا بمن عمره بالعباء وممن اقتك منه كل ما يملك.

"لم نجن بنينا الكرب دنيا المحن (عمر الخيام)

إلا غصص الروح وغم النفس

ما أهنأ من ملت بهذا الزمن

ما أسعد من لم ير نور الشمس"

كيف تواجه الذوات الأخرى الألم عندما يتجاوز كل قدرة احتمال؟ كم من قصص رهيبه عن استجاروا بالخمر، بهذا المختر أو ذاك، وهم كالمستجير من الرمضاء بالنار.

ثمة الحل الجذري الوحيد القادر على انهاء عذاب تجاوز كل الممكن قبوله.

لئنته كل الهم والأحزان والأسف دفعة واحدة للجميع وإلى الأزل. لنت تقيحه ولأمت حذوها. الموت! وليمة من الفكر واللاشعور. "شبعة" من اللاوجود. تخمة من العدم طفرة

من السلام. نهاية كوابيس النوم واليقظة. الراحة الأبدية... وكل هؤلاء الأغبياء حولي الذين لا يخافون شيئا قدر خوفهم منه.

ثمة حتى في مثل هذه القصص هناك مخارج عدة منها التي توصف بالسعيدة... شريطة أن يكون ورائها قوة تنغلّق عليها الذات لا تضاهيها قوة في الكون.

لهذه المحن الكبرى الدواء الناجع لما لا قدرة لأي دواء على علاجه اسمه الحب. كم نخطئ عندما نعتقد أن الأشياء والكائنات التي تُحرّك فينا هذا الشعور هي التي تمنحنا أو تُمنينا بأكثر قدر ممكن من المتعة. لو كان الأمر صحيحا لكانت هذه الطفلة المحتضرة أبغض البشر إليّ وهي سبب أفضع ما أعيش من آم. على العكس حَيّبي الآن لها لا تُسعه السماوات والأرض.

أحسن من فهم طبيعته الأعرابي الذي سُئل أيّ أطفالك أحب إليك، فقال المريض إلى أن يبرأ والصغير إلى أن يكبر والغائب إلى أن يرجع. ما القاسم المشترك بين الوضعيات الثلاث؟ الهشاشة أمام أخطار الطريق. بقدر ما تتعاطم الأخطار التي تهدد كلّ عزيز علينا بقدر ما يزداد سَعِينا لحمايته بأعلى ما نقدر عليه الحب.

حتى الشيخ الأكبر لم يدرك من هذا الذي يسميه الحقّ وهو يربط الإيمان به بحبّه فالحقّ ليس هشّا ضعيفا مهددة حياته لا ضمان لتواصلها إلا حُبنا له... اللهم إلا إذا قِيلنا أن حياة كل حيّ حياته هو، وأنّ حب الذوات التي تبلور فيها هو طريقنا الوحيدة للتقرب ممن يبقى من الأزل إلى الأزل فوق كل عبادة وكل حب.

أقرب يدي من اليد المتدلية من السرير كمن يخشى لمس جناحي فراشة بالنار. أراقب تدفّق السوائل المغذية في ذراع لم يبق فيه إلا جلدٌ أصفر على عظم بحجم القلم، ولا قدرة لي أو رغبة في دموع جفّت منذ زمن طويل. ليس لي ما أقدم غير حبّ صامت لا تصفه الكلمات. أتوجه للرافدة على فراش الجمر بالوداع الأخير وباللغة الأولى التي تبادلنا بها تحية التعرف يوم الوصول: لغة الرضع.

كلّ شيئا ما نفذ أخيرا إلى شيء ما... لمس شيئا ما... حرّك شيئا ما... أتر في شيء ما... غير وجهة المسار. أكون ذلك لأن هذه الطفلة اللعينة شعرت أنها ظفرت بما تريد... أنها انتقمت بما فيه الكفاية... أنها تكلمت أخيرا من شيء كانت تريد التأكيد منه وهي تعرف أصدق المعرفة أنه لم يكن يوما بحاجة إلى تأكيد. ربما فهمت أن عليها أن تجد في أعماق أعماقها القوة الكفيلة لإخراجها سالمة هي ودليلها من العاصفة، وإلا فإن الكارثة ستعرف الإثنين.

لا أصنّق أذني وأنا أسمع تقيحه تهمس مبتسمة بردّ ليس فيه كلمات.

تتجدّد في شهوة الحياة والطفلة تطيل النظر إليّ وتبتسم.

- هل... هل؟

- ن، ن، نعم. نعم. نعم.

تستطيع رجلاي حملي من جديد فأقف مترنحا. يلمع شيء كالفلق في عينين بدأت تدبّ فيهما الحياة من جديد.

- "يا"، هل سنتقيّ معي هذه الليلة، كم أكره هذا المكان الموحش.

- وبعدها نعود إلى المنزل وقد فكّ الإضراب؟

- نعم

- لمواصله المشوار؟

- لمواصله المشوار.

- على علائته ومصاعبه ومتطلباته؟

- على علائته ومصاعبه ومتطلباته.

من الغد تعود تفجحه إلى الحياة وأعود إلى مشاغلي لا أريد شيئا قدر فسح كابوس مرضها من ذاكرتي بلسرغ ما يمكن.

إنها قصة من بين ما لا يُحصى من قصص حب الآباء لأطفالهم وحبّ الأطفال لأبائهم والصراع بينهم وسوء الفهم والبحث عن السلوى في الموت والبحث عن فُرص تدارك ما مضى من أخطاء.

حقا عزّف الآباء عند مرض أطفالهم من الآلام ما عرفتُ. لكن هذه التجربة بكل أطوارها وملابساتها وتناجها لم تحدث إلا لي أنا... والتباين في التفاصيل داخل التفاصيل نتيجة أنني كنت أبا لهذه البنت بالذات بكل خصائصها التي تميزها عن كل البنات، أنني كنت أبنا لأب دون كل الموجود من الآباء، لأم دون كل الموجود من الأمهات.

إنها القاعدة تعلق الأمر بأولى المشاعر والأحاسيس التي تتطلق بها الرحلة.

من يعرف أو يتنكر رنة الخلل بل من يتنكر حتى في بلاد "أما" أي شيء هو الخلل؟ كيف كان طعم القبلة الأولى عند لنقل هذا الصديق وتلك الزميلة -حتى لا أذهب بعيدا في تخيل طعم أول قبلة عند كل المحبين الذين تعاقبوا على الدور الأزلي؟

إنها نفس القاعدة عندما يجلس المرء والرحلة قد شارفت على نهايتها لتجميع ما ترسب في الذاكرة من قناعات بخصوص أمهات القضايا.

هذا ملفت زاخر ثقيل بالاستنتاجات التي تولدت من كل القصص التي عشت والأدوار التي لعبت والمآسي والمهازل التي مثلت فيها هذا الدور أو ذاك.

ثلاث آفات من صنع الطبيعة ترصد بني سفر: الأوبئة، جنون السماء جفقا أو طوفانا، جنون الأرض براكينا أو زلازل... ثلاث آفات من صنع الأدميين: الاستعباد والاستعمار والاستبداد... إن أرضي بالعيش وحتى بالدفن في أرض شعب من الرعايا حتى ولو كان الراعي عمر ابن الخطاب... الشعب المؤكّه خرافة نسجها المخادعون للمخدوعين كل الموجود ملل ونحل في صراع أزلي على الثروة والسلطة والاعتبار... هذا شعب لا تنفع فيه لا الدكتاتورية ولا الديمقراطية، إن حكمته الدكتاتورية نقرته، إن حكمته الديمقراطية نقرها... نعم كم صنق أنكر سينق القوانين كخيوط العنكبوت تصطاد الصغار ويمزقها الكبار... لا يُخلصنا مسيخ واحد إنما يُخلصه كل واحد منا... من أين لنا تصور المستقبل

وليس لنا عن الماضي والحاضر إلا الجهل المركب والغرور؟.. أي تحليل جدي للحاضر وتنبؤ معقول للمستقبل بأيولوجيات الماضي؟.. منهم من يتوهم أن العصر الذهبي كان في الزمن الغابر وثمة من يتوهم أنه في المستقبل "المشرق" والحل أنه لم يوجد في الماضي ولن يوجد في المستقبل إلا ما يوجد في حاضرننا، كل ما يتغير الشكل والإخراج... عندما تنتظر من التاريخ التكرار، يفاجئك بالتغيير وعندما تنتظر منه التغيير يجبطك بالتكرار البليد... أما المستقبل المنظور فلا يتمحّض عادة عما نرغب أو عما نرهب، وإنما عما لا نتوقع وكان أحب وجهة إليه ليس الأفضل أو الأسوأ وإنما المختلف... يريدونني أن أؤمن بأفكارهم وأنا بالكاد أؤمن بأفكاري... اللغة هي النظرات التي نرى بها العالم والغشاء السميك الذي نضعه على العينين... كل الرؤى تتأرجح منذ بداية الفكر بين فرقة الواحد إلى العدد، وأرجاع العدد إلى الواحد، والحال أن العالم على الدوام واحد-عدد، عدد-واحد... هذا عالم الروتين فيه ليس روتينا وكل شروق شمس لا تشبه أي شروق شمس والتغيير فيه ليس تغييرا وسيناريو الصراع بين الخواء والنظام، الحياة والموت، الدمار والاعمار، ثابت أيد الدهر، أي ثنائية من خارج الصندوق لو صف حالته... من أين جئت وإلى أين أنا ذاهب؟ أحسن رد للسكير الذي قل أنا سرجاي باظوفيش، جئت من بيتي وذهبت إلى خمارة البلدة... الأثانية ليست أن تحب أنك وإنما ألا تتنبه لحاجة الآخرين من الحب... لا فضيلة أعلى من الاحترام وأكبر خطيئة الاحتقار... العبي من يضحك من الآخرين والليبيك من يضحك من نفسه... في موضع ضعيف لا تستسلم، في موضع قوة لا تنتقم... السنيّد من يعطي المثل لا من يعطي الأوامر... من الغباء محاولة تغيير العالم ومن الإجرام عدم المحاولة... الهزيمة ليست ألا تحقق أحلامك وإنما أن تتخلى عنها... لا شيء في هذا العالم يدعو للتفاوض ولا شيء يدعو فيه للتسلؤم وأحسن موقف تجاهه تشاؤم عني... الخ، الخ،

أهذه زبدة الرحلة؟ ! نعم، تحديدا زبدة رحلتي أنا لا أي أدمي آخر. كل هذه القناعات سواء كانت أفكارا أو أحكاما مسقطا أو قيما، لا تفهم دون الظروف التي ولدتها والظروف الأخرى التي رسختها كل هذه الظروف في تشكيلها وتتابعها وطرق التفاعل معها خاصة بي وحدي حيث لا تشبه في التفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل أي من التجارب التي مرت بها كل الذوات التي عبرت والتي ستعبر هذا العالم.

لنسم هذه الطبقة من ذاكرة الذات ذاكرة الأنا دون سواها... أو أن كنت تفضل صورة الشجرة على صورة المنجم ذاكرة ورقة الغصن أيام الربيع.

ذاكرة الغصن الوارف

هل كانت ذاتي تتشكل كما هي عليه لولا العلاقة العاصفة التي ربطتها على طول الطريق مع الرجل الذي كنت أسميه بين فخر وتهكم " أَيْنْفَلس"، بل هل كانت قصتي توجد أصلا لولا قصته؟

يتحوّل البحث عن ذاتي إلى البحث عن هذه الذات التي تفزعت قصتي من قصتها لإدراكي أنها ما زالت تفعل في فعلها الصامت وعيت بالأمر أم لم أعي.

لكن كم من فراغات في قصة "با". أول مصدر للمعطيات الناقصة ذاكرة "ما".
- ألا تعتقدن أنه لو كان له أشقاء علموه باكرا أن يُقاسم لَمَا أقرط في دلاله علينا وهو يتصرّف دوما كأنّ الكون بأسره لهُه المكلفة بتدليله؟

تُقاطعي "ما" بحدة غير معهودة فيها:

- لم تُدُلّهُ يوما أمّ.

ثم تعصّن على شفقتها كأنها ندمت على زلّة لسان.

غريب! لم أسمع "ما" على كثرة منحها للناس تمدح هذه المرأة. لم أسمع كلمة عنها من جدي ولا كلمة أيضا من المرأة الطيبة التي تزوجها بعد وفاتها. الأهمّ، لم أسمع "با" الذي كان يذكر والده بألف خير، يذكرها إلا صارخا أوقات الغضب العاتي: أنا الذي عقرت أمه بعد أن ولدته، أنا الذي لم يتخبط غيره في جوف أمه .. ولا شيء بخصوصها!
كل ما يحفّ بذكري هذه المرأة التي توفيت قبل ولادتي صمت ثقيل مثبوه.

قد أكون حرّكتُ أشياء خطيرة تحريكها. لكن فضولي أهمّ من ترفّق بحضر ويغيب.

- لم تكلله؟! تقصدين أنها كانت مريضة ... أن مرضها أثر في طبيعتها وفي طبيعه... ربما المرض سبب عدم إنجابها لغيره.

يأتي الرد قاطعا وفي لصوت نبرة لستهجان.

-كلّما لم يكن بها أيّ مرض، والأّن قل لي ماذا ستعمل بخصوص قضية فلان؟

- لا تغيري الموضوع، أريد كل التفاصيل عن هذه المرأة لأسباب لا علاقة لها باعتماد ميثّة. إنه حقّي في معرفة سلسلة الأحداث التي صنعتني.

تستكيّن "ما" للصوت الحازم كما يفعل كلّ انمي ظهره إلى الحائط ولا مصلحة له في مواجهة خصم مصمّم.

- كل ما أعرفه أنه غضب منها وهو في الخامسة عشر لأنها رفضت له ضيفا من عمره فخرج ولم يعد للبيت... إلا بعد عشرين سنة.

عشرون سنة! كيف يمكن حتى لرجل غضوب مثل "با"، أن يغضب من أمه عشرين سنة؟
السبب غير مُقنع أو غير مكتمل.

ربما لم تقبل بالضعيف لأنه لم يكن لها ما تقدمه ولا حتى قطعة خبز جفّة؟ على فرض أنه كان لها ما تقدّم وأن الأمر كان مرتبطا بطبيعتها، من ساهم في تكوير هذا الطبع الشرس الذي عُرفت به، صدقا أو تجنيا، أو عن قلة فهم وتفهم، كما هو الحل دوما في أحكامنا القاسية على بعضنا بعضا؟

هل هذه الجذّة سببُ الوجع الذي جعل "يا" طول حياته كأننا متألما مؤلما كم تسبب لي وللآخرين في كم هائل من الأوجاع؟ هل كانت هذه المرأة تدرك تبعات أفعالها وأنها برفضها ضيفا لابنها ستسبب في سلسلة من المصائب لِكُم من نساء وأطفال أبرياء على امتداد أجيال؟

لكن يجب أن يكون رَفْضُها استقبال ضيفه القطرة التي أفاضت الكأس. ما الذي ملأ الكأس قبل أن تفيض؟ شِدَّتْها التي التصقت باسمها؟ لكن ما سبب هذه الشدة؟ أيكون جرمائها هي من حب لم تستطع اعطاءه لابن بقي طوال حياته يركض وراءه؟ على أيّ أوجاع كانت تنام جَدَّتِي؟

مواصلة الحفر في ذاكرة الأم رغم المقاومة الصامته.

- وأيضا؟ تكلمي.

تنسحب "ما" داخل قوقعتها تعلمني أنه لا فائدة في مواصلة الحديث. بدايةً ثمة شيء لا يمكن لأُم أن تحدث فيه ابنتها... شيء ربما تهلمست به النساء يوما بعيدا عن أذان الأطفال! لأحاول الجمع بين مختلف قطع "البوزل". ثمة مفاخرة "با" المشبوهة، بأن لا أحد تحبب في أحشاء أمه غيره كما هو حال الأنبياء. ثمة عداؤه للنساء وتكليه بكل أنثى رماها الحظّ العائز بين ذراعيه مكثسا الخليالات والطيالات بشيعتين إذلالا وخيانة وطلاقا.

كل هذا يفوح يعطر الانتقام من خطيئة لا تغفر. الخيانة الزوجية؟ جدُّ مُستبجِر. أشياء كهذه لا تقع في واحة صغيرة وإن وقعت مرة كل مئة سنة فإنها تنتهي بالذبح تحت التكبير والزغاريد. مفهوم رجال تلك الزمان للشراف، يحنون الهامة أمام كل طاعية حقير، لكنهم يقتلون بشجاعة امرأة ضعيفة - لا يهم أن تكون أختا أو أما أو زوجة أو بنتا-بتهمة التعدي على العفة والحياء... وأغلبهم زناة، إن لم يكن بالفعل فيالنوايا.

ماذا لو كان السرّ اكتشاف الطفل باكرا ما تهلمست به النساء، وأن المرأة لني رفضت لابنها ضيفا، رفضت له إخوة ولأبيه رجولته؟

أيا كانت الأسباب وأغلبها ستبقى مجهولة إلى الأبد، الشيء الثابت الوحيد أن قصة الجذّة أثرت بكيفية جذرية في تكوين شخصية "يا" لتطبعني بها من خلاله إلى الأبد.

ما أعرب أن تُشكّل أحداثٌ لا نخل لك فيها ما بك من خصال وعيوب وما أعرب أن يقول البعض بحريته وكلنا مُسَيَّرُون بأحلام وكوابيس من سبقونا.

ماذا عن دور الجذّة؟ لا بد أن جزء من قصته يفعل في فعله الخفي عبر ما قد يكون فعله في تكوين ذات "يا".

كم مرّة سمعت "ما؟" تردّد قصّة وصوله بيتنا ليلا قائما من صحرائه البعيدة، سنوات بعد أن غادرناها إلى الأبد، وكيف أنه نام تحت حائط المنزل والبرد على أشده وكيف عاتبته على فعلته لما اكتشفته عند بروز الشمس مقرورا يرتعش، وكيف اعتذر بخجل لأنه خاف إر عابنا بالدقّ على الباب في مثل تلك الساعة وريّة لبيت في رعب دائم من زوّار الفجر. هذا الرجل كان أباً للشخص يصل البيت في آخر هزيع من الليل، يطرق الباب بمنتهى القوّة، يوقظ الجيران، يلّمر أطفاله الخمسة أن يملّوا بين يديه وهم يفركون عيونهم ليقتلوا كنفه الأيمن ويحمدوا الله على عودته سالما. ثم يأمر "ما؟" بنزع حذائه وغسل رجليه بالماء الساخن، يرغي ويزبد لتلكّوها.

لم يكن نقيض ابنه في مثل هذا التصرف وما ينمّ من طبع وإنما في كل شيء تقرّيبا. بقدر ما كان 'بأ' صاخبا، طاغي الحضور، متكبرا بقدر ما كان جدي هادئا، متواضعا حنوناً. لم أعرّف للوقار وللجلال رمزا إلا هو على كثرة من رأيتهم يفتعلون أمرا كان عنده فطرة وغريزة.

إذا تهيكلت قصة 'بأ' في علاقته مع امه على ردّ فعل. هل محبّتي للنساء وثقّقي الدائم بين مُجرّد ردة فعل على ردة فعل على زدت أفعال لا أحد يعلم متى انطلقت؟ أما قصته في علاقته مع ابنيه فقد تهيكلت على رفض صارخ لخياراته في الحياة. كان والده فلاحا بدويا فقيرا لا يغادر واحة إلا لضروريات قصوى ولا تتجاوز طموحاته الاعتناء ببعض النخلات العجاف وتوفير الحد الأدنى لأبسط أنواع العيش. أما هو فقد كان لا يرى نفسه إلا سيّد قومه... المستبّد العادل الذي تنتظره هذه الأمة عبثا كما تنتظر أمم أخرى المسيح أو المهدي المنتظر.

هل كان صراعي معه وعلى من حلول أن يلعب معي هذا النور المضحك المبكي بخفا عن الخروج من السيناريو أم محاولة للفوز داخله بدور البطل؟ التابيت أن تأثير قصص الآخرين في قصتنا بالغ التعقيد فيه النماهي الذليل، فيه التقليد الأعمى، فيه التباعد الجزئي، فيه الرفض التام، فيه الانخراط في الاتجاه المعاكس أحيانا بإفراط هو أبلغ دليل على تواصل التبعية للنموذج الذي تنمرّد عليه. أيا كانت الخيارات الحرّة أو المفروضة بنوع أو آخر من العصاب فالمنطلق ثابت لا يتغير وهو أنك لا تصنع ذاتك إلا بالذوات الأخرى.

كيف لا يشعر الألمي بالغربة داخل ذاته وكأنّ الأنا أداة تنسيق بين قصص تتصارع داخله منها لأناس معروفين وأغلبها لمجهولين لم تحفظ الذاكرة منهم إلا ما تحفظه الرمضاء من خطى التائهين. كم من أشباح لأحياء ولأموات ما زالت فاعلة تسكن ذاتي وذلك، لا البيت يعلم ولا الأشباح!

الاستنتاج أن ما أسميه الأنا في جزء أساسي منه مكون من الأنا الآخر..... وفق نفس القوّن فإنتي آخر الآخر مما يعني أن ذاتي ضرورة ملدة خام يتكون منها نسج كم من

ذات وتصارعني وتقلدني وتنخل معي في علاقات حب وبغض، ومن هذه العلاقة تكتب جزءاً من قصتها.

محكوم علينا أن ندخل العالم وهو في طور من تاريخ لم نختره، أن نفيق في مكان عينته الأقدار وزمان حدته طاولة لقمار، أن نعيش ونموت داخل قصص لا ناقة لنا فيها ولا جمل تشكلت سنوات وعقود وحتى قرونا قبل ولانتنا ومع ذلك لا خيار غير الانخراط فيها وقد أصبحت قصتنا شئنا أم أبينا مجرد فصل من فصولها.

يجب أن أتبع القصص التي وأدت قصتي والمصدر الآن التاريخ بما هو الذاكرة المروية المكتوبة التي تتناقلها الأجيال.

عن هذا المصدر أن أجداد جدي وجدتي كانوا قوما سكنوا أرضا بعيدة شرقا تحاذي شواطئ خليج يفتح على بحار مرعبة تفتح على محيطات تضيع في مجاهل لا يتخيلها خيال... أنهم هاجروا من فيافيهم القاحلة نحو أراضي الماء والطين... أنهم عثوا فيها فسادا وأن ملكا من ملوك الماشين وراء أنساب البقر، أطمعهم للتخلص منهم في أرض توجد وراء النهر العظيم على الدوام خصبة خضراء... أنهم اقتطعوا تصديق الملك الداهية للفرار من أرض لا مقاومة فيها ولا خطر... أنهم توغلوا على خيلهم باتجاه المجهول بجزون وراءهم نساءهم وأطفالهم والبيعر... أن جثة حازمة اسمها الجازية صاحبة الشعر الواصل إلى قدميها كانت قائدة الغزوة... أنها هي التي بعثت لاستكشاف الطريق بطلا أسمر اسمه من اسم الهلال جَمَع الجراء والدماء... أنه هو الذي رسم العلامات لتتدفق جحافل الفرسان... أن الشمس غربت مرارا على ساحات القتال والأجداد يشقون الطريق بسيوفهم يؤوبون إلى خيامهم تحت صدمة فظاعة ما عاشوا وما فعلوا لا يصدقون أنهم ما يزالون أحياء... أن ليل الصحراء كان يواسي القتلى والقنلة... أن السيف عاد لغمده يوم تبين أنه لا نهاية للطريق ولا بد من حط الرحال وأن كل مكان ليس الممكن، ومن ثم فكل مكان هو الممكن.

كل الملقات التي تحفظها ذاكرة الرواة والمستمعين ترن بقعقة الشعر وترنم السلاح. كل الصور لنساء لهن عيون المها وشعر يغار من سواده الليل، لرجال لهم وجوه كأنها نحتت بلسكين إذا شجعوا تهوؤوا، إذا أكرموا أسرفوا، إذا ظلموا أفرطوا، إذا ثاروا كفروا وإذا حنوا ذرفوا الدمع مدرارا، لا يضاھيهم بشر رقة وتوحشا.

لم يُعط " إينفئاس " لابنة له ماتت في سنتها الأولى اسم الخنساء صدفة وإنما لأنها كانت المرأة التي اختزلت كل ما في هؤلاء القوم من ظلام ومن نور.

قال عنها بشر إنها الشاعرة الأثنى الوحيدة التي غلبت الفحول. ظلت الخنساء تندب طول حياتها موت أخيها البطل وإنما ظلت لا تقبل سلوى ولا تريد للنسيان محو اسم صخر لا من ذاكرتها ولا من ذاكرة القبيلة.

“يا عين مالك لا تبكين تسكبا
إذا ربت دهر وكان الدهر زليبا
فابكي أخاك لأيتام أرملة
وأبكي أخاك إذا جاورت أجنابا
المجد حنئة والجود عانة
والصدق حوزة إن قرئه هابا

حَطَابُ مَحْفَلَةِ فَرَاحٍ مَظْلَمَةٍ إِن هَلَبَ مُعْضِلَةٌ سَنَى لَهَا بَابَا
حَمَالُ الْوَيْبَةِ قَطَاعِ أُوْدِيَّةٍ شَهَادُ أُنْدِيَّةٍ لَوْتَرِ طَلَابَا
سَمُّ الْعُدَاةِ وَفَكَاتِكَ الْعِنَاةُ إِذَا لاقى الوعى كم يُكِن للموت هَيَابَا .

يَقِينِي أَنْ "بَا" قَرَأَ الْخِنْسَاءُ، أَنَّهُ انبَهَرَ بِمَا قَرَأَ، أَنَّهُ نَسِيَ مَا قَرَأَ، أَنْ مَا قَرَأَ اخْتَمَرَ دَلْخَلَهُ
بِطَبْءٍ، أَنْ مَنَاهَجٍ وَمَسْلُوكٍ فَتَحَّتْ دَاخِلَ ذَاتِهِ، أَنْ أَهْدَافَا قَاهِرَةً تَحَدَّثَتْ لَهَا وَالشَّعْرُ مِنْذَ الْقَدَمِ
مَا تَسْتَوْدِعُ فِيهِ الْقَبِيلَةَ تَعْلِيمَاتٍ صُنْعَ ذَوَاتِ أَطْفَالِ الصَّحْرَاءِ .
لَيْسَ مِنْ بَابِ الصَّنْفَةِ أَنْ "بَا" أَطْلَقَ اسْمَهَا عَلَى وَليدَةٍ لَهُ لَمْ تَتَجَوَّزْ رِحْلَتَهَا لِسَنَةِ الْأُولَى .
يَقِينِي أَنَّ الشَّاعِرَةَ الْبَدْوِيَّةَ هِيَ الَّتِي رَسَمَتْ لِ "بَا" نَمُوذَجَا اسْتَبْطَنَهُ طَوِيلَةَ الرَّحْلَةِ بِأَمْرِهِ أَنْ
يَكُونَ الْجَرِيءُ، الْجَمِيلُ، سَمُّ الْعُدَاةِ وَفَرَاحٍ كُلِّ مَظْلَمَةٍ .، وَأَنْنِي أَخَذْتُ عَنْهُ وَعِنَهَا كُلَّ الْأَمْرِ
الْمَبْطُنَةِ .

كَمْ غَرِيبٌ أَنْ أَبَيْتُنَا لِقَصِيدَةٍ عَنْ قِصَّةِ ثَارٍ حَدِثَتْ قَبْلَ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ سَنَةٍ بَيْنَ قَبِيلَتَيْنِ لَعِبَتْ
دُورًا أُسَاسِيًّا فِي تَشْكِيلِ كَمْ مِنْ ذَاتٍ مِنْهَا ذَاتِ "بَا" وَمِنْ ثَمَّةِ ذَاتِي!
هَذَا مَا يَجْعَلُنَا نَتَنَكَّرُ أَنَّ اللُّغَةَ أَكْثَرَ مِنْ مَنْظُومَةٍ عِلَامَاتٍ مَنْظُومَةٍ وَكُتُوبَةٍ لِتَبَادُلِ الْمَعْلُومَاتِ .
هِيَ مَشْبُوعَةٌ بِأَوَامِرٍ وَنَوَاهِي، بِتَعْلِيمَاتٍ وَاضِحَةٍ وَأَكْثَرُهَا خَفِيَّةٌ، بِأَحْكَامٍ مَعْيَارِيَّةٍ، بِبَرَكَاتٍ
وَبَلْعَنَاتٍ آتِيَّةٍ مِنْ أَعْمَاقِ الزَّمَانِ

هِيَ رُؤْيَةٌ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةُ الْبَشَرِيَّةُ لِلْعَالَمِ وَلِنَفْسِهَا عِبْرَ كُلِّ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَشْكَلُ مَعْجَمَهَا . هِيَ
خَزَانٌ كُلِّ تَجَارِبِ الْمَاضِي الَّتِي مَرَّتْ بِهَا نَتَوَارِثُهَا وَنَتَرِثُهَا وَنَتَقَلَّبُهَا لِلْأَجْيَالِ الْمَتَابِعَةِ .
نَحْنُ لَا نَعِي وَنَحْنُ نَتَكَلَّمُ لِعَتْنَا الْأُمَّ أَنْنَا نَسْتَحْضِرُ دُونَ وَعِي كُلِّ مَا تَرَكَمُ فِي ذَاكِرَةِ الْأَبَاءِ
وَالْأَجْدَادِ، نَنْتَقِي فَقَطْ مِنْهَا الْأَجْزَاءَ الَّتِي نَحْتَاجُ لِرِبْطِ الْحَلْقَةِ الَّتِي هِيَ ذَاتُنَا بِالسَّلْسَلَةِ الَّتِي لَا
نَعْرِفُ أَيْنَ بَدَأَتْ وَأَيْنَ سَتَنْتَهِي بِيَوْمَا .

لِنَسْمِي هَذَا الْمَسْتَوَى مِنَ الذَّاكِرَةِ الْمَرْوِيَّةِ وَالْمَكْتُوبَةِ ذَاكِرَةَ الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ وَفِي صُورَةٍ
لِلشَّجَرَةِ ذَاكِرَةَ الْعَصَنِ الْوَارِفِ الْحَامِلِ لِأَوْرَاقِ أَيَّامِ الرَّبِيعِ .

**

ذاكرة الجذع المهيب

يستقبلني مدير المتحف بكل أدب ملقياً نظرات مستغربة على جحافل أعوان الأمن الذين شاء حظي العاثر أن يتبعوني معارضا يخافون مني، وحكما يخفون عليّ. المهمّ الفرصة الثمينة وأنا أستطيع على هلمش اجتماع بوصف بالهامّ وحتى بالقمّة، أن أزور هذا المكان لسماحي بما يحتوي من أشياء لها بالغ الأهمية في نظر كل الباحثين مثلي عن أقدم طبقات ذاكرتنا الجماعية.

لا بدّ أن أستعيد أنفاسي المتقطعة للتركيز على ما يقوله السيد المدير. اللعنة، نسيئاً أنه لا يجوز رفض استعمال المصعد في مدينة على هذا الارتفاع وأنا لم أعش أغلب عمري إلا في السهول بين الصحراء والبحر.

على طول حائط أكبر قاعة المتحف خزائن حديدية كلتي نُخبأ فيها السندات والأموال المسروقة. ما بداخلها لا يقدر بثمن وهي تحتوي على رميم أوائل أوائل الأوائل: الكائنات التي انتصبت يوماً على قدميها تطبع على الثرى أولى خطوات طريقي سنتتابع عليه أجيال الجدات والأجداد .

يقطع عليّ تفكيري صوت مبالغ للتهديب والاحترام.

- سيدي، نحن جدّ فخورين بأننا نملك في هذا المتحف أقدم الآثار عن بداية الإنسان. يواصل الرجل المهذب:

- كما نفخر بأن بلدنا هو اليوم بشهادة كل العلماء مهد الإنسانية.

ادعاء مشكوك في صحته فأكثر من مكان في القارة قد يكون المنطلق وأظن الظن أنه وجد أكثر من محطة لانطلاق الطريق.

ثمة اليوم كمّ متعاضم من الأفلام والفيديوهات عن انطلاق الملحمة العظمى التي كان أوائل الأوائل أبطالها، ربما لو وضعت أمامهم تصوراتنا هذه لانفجروا بالضحك.

أية قصة تخصني سأنتقي داخل القصة الكبرى التي تقول أنهم انطلقوا من هذه الربوع قبل مائة ألف سنة (والرقم يتغير باستمرار) وتوزعوا على القارات الخمس ركضاً وراء الطرائد وهرباً من أنيلى الكواسر لينتهي بهم الأمر سادة العالم أو هكذا يتوهمون.

بديهي أنه كان من الممكن والأوائل في بداية الطريق أن تقضي عليهم كم من أوبئة مجهولة، كم من انفجارات براكين وكم من فترات جليد وجفاف تطول أكثر من طاقتهم على التأقلم. بديهي أيضاً أنه كان أملهم لف تقاطع طريق لو أخذ البعض منهم هذا التقاطع بدل ذاك لما وجدت أصلاً أو لما وجدت على الحالة التي أنا عليها اليوم.

لماذا أحرمت نفسي من متعة لا خطر منها وهي حلم يقظان يعرف أنه حلم يقظان؟

أه هذا جدُّ من سلسلة الأجداد كل يعرف بين أفراد قبيلة تضم عشرة أشخاص بالبيت الهصور. أين في الناس جدّ مثل جدي هذا وهو الصيد الذي قاتل الفهود وأرعب الأسود؟ انظر إلى هذا البطل الذي كان جدّه وهو رابض وراء أكمة، ووترُ القوس مشدود، ينتظر أن يسقط القيل في الحفرة المغطاة بالعشب حذو الغدير ليعمل فيه نصله وهو يصلي له أن أغفر لنا يا إله القبيلة وشكرا على لحمك الذي سيوفر لنا أياها أخرى من الحياة. أه هذه أدنى وِجلة تقترب بحذر من غدير تريض التماسيح على صفته وفي وجهها قسامات تنذر بقراب بروز ربع ابتسامة على وجه هادئ وقور.

ترى ما الخصائص المبهمة التي أخذتها عن كل هؤلاء الأوائل دون علم مني وإن منهم ولا زالت تفعل في فعلها الخفي منذ أكثر من مائة ألف سنة؟ عبر أي قنوات انتقلت من جبل لجبل حتى تصل ذاكرتي لتتحكم في طريقة عيشي وتصوري للعالم ولذاتي؟ هل ثمة ذاكرة أعمق من ذاكرة اللغة تسيرنا لا يختلف وعينا بها عن وعينا بموجات الجاذبية؟ أسئلة أخرى تضاف إلى القائمة الطويلة من الأسئلة التي نخرج من هذه الدنيا ولا إجابة مقنعة عنها. هل قدر ذاكرة التاريخ أن تبقى إلى الأبد مثل شبكة الصيد فيها من الفراغات ما فيها من خيوط بها؟

يخرجنني من تلاطم الأفكار صوت السيد المدير:

-ويسعدني أيضا أن أقول لك أن لنا علماء من قارتنا وخاصة من اثيوبيا يشاركون أكثر فأكثر في أهم الاكتشافات العلمية بخصوص نشأة البشرية.

الاكتشافات العلمية! كم من اكتشافات ستقلب رأسا على عقب تصوراتنا الأكثر مئانة عن الأوائل وتغيّر ها المتواصل مرتبط بالعتور صدفة على مجمعة هنا وعظم فك هناك.. بما أغرب أن تكون أهم المعطيات عن هذا الماضي السحيق مضتمنة في المستقبل المجهول. لا يبق عليّ إلا شكر لسيد المدير وتهنئته على دعم كل الأبحاث التي سترم ذاكرة جماعية نحن بأمس الحاجة إليها وذاكرتنا الشخصية ليست إلا آخر حلقة منها.

لاستحضار هذه الذاكرة الجماعية يتجند اليوم الباحثون الذين يبقون عن ماضينا في رمال الصحاري، في صخور الجبل، في طحالب أعماق المحيط في الهواء المحبوس داخل جلايد العصور الماضية، في رميم حيوانات منقرضة وبقايا للكائنات شبه الأدمية التي فتحت لنا الطريق. لماذا كل هذا الجهد؟ لفهم ذاتنا نحن بحاجة لمعرفة قصص الأقارب التي أثرت فينا بصفة مباشرة و واضحة كما ترويها الأمهات والجدات. لنفس السبب نحن بحاجة لمعرفة قصص الآباء والأجداد كما يرويها المؤرخون وكما تحفظ اللغة بصفة لا واعية أهم علاماتها. أخيرا لا أخرا نحن بحاجة لمعرفة قصة الجنس البشري بأكمله كما يحاول الباحثون تركيب فصولها لأن هذه الدوائر الثلاث هي التي تصنع في الأخير القصة التي يعيشها كل واحد منا وعينا بالأمر أم لم نعي.

لنسمي هذا المستوى من الذات ذاكرة نحن جميعا أو ذاكرة الجنس البشري في صورة الشجرة ذاكرة الجذع الذي تفرعت عنه كل الأغصان وكل الأوراق.**

ذاكرة أعمق الجذور

تلك الليلة التي لا تنسى، داهمتني فجأة من الاتجاه المعكس سيرة كأن صاحبها فقد كل سيطرة عليها. وبينما أنا مسلمٌ بنهاية الرحلة، برز من الأعماق مجهولٌ شعرتُ به يُلمي على العضلات الممتشجة أو امره فتندفع إلى عمل سريع، فغل، منسق، نلج، منقذة بقية فاتقة تعليمات صادرة من هذا الساكن داخلي، الصامت على الدوام والذي لا يأخذ بزمام الأمور إلا في مثل هذه الحالات.

هكذا انصاعت السيارة كما لو أصبحت هي الأخرى جزءاً لا يتجزأ من هذه العضلات لتثب في المنعرج المائل حيث يجب الوثب، لتستعيد التوازن في المكان الذي لو تجاوزته بشعرة لانقلبت رأساً على عقب ثم لتتوقف بالضبط حيث يجب التوقف.

تلك الليلة تراجع الموت كالنسر انقضض على شحور ولكنه لم يلمسه إلا بجناح. في ظلمة الليل وعلى قارعة الطريق، بعد أن أوقفت دابة من حديد كادت أن تكون لي كفناً، استعاد الأنا وعيه، لترتعد الفرائص بخوف مفاجئ لم يعد له مبرر... ليتجند الانتباه ومعه نفس الإعجاب والتعجب.

كم من تجارب حتى ولو لم تكن بمثل هذه الخطورة تثبت أن هناك شيئاً بداخلي يعرف كل ما أجعله ويلتزم القرارات المصيرية دون أخذ رأيي أو الاهتمام بما أقول أو أفعل! في ملف من الماضي القريب عدت الطفل الذي يركب الأرجوحة يوم العيد ليجرب لذة دوار خضّر هذه المرة ولا لذة تصحبه.

تميد الغرفة بي وقد أصبحت بلا سقف أو قاع، بلا فوق أو تحت. لا مجال للانتصاب والمصافهة الهوجاء داخلي تمنع كل تحرك. تأتيني أوامر مبهمه من قوة غامضة بالكفت عن التدخل فيما لا قدرة لي عليه. أشعرُ بمجهول يعيد ترتيب البيت دون أن أفهم كيف يتصرف.

شيئاً فشيئاً ودون تدخل أي طبّ أتى اليوم الذي استطعتُ أن أقف فيه مجدداً على قنمي، أن أمشي وحدي إلى باب الغرفة مترجماً لتعلم المشي كأنني رضيع يضع أولى خطاه على الطريق.

كل هذا لأن "شيئاً" ما داخلي شخّص أين يجب، عالج أين يجب، مُصلحاً ما أفسده عطب غيب.

ليس الأمر دوماً بمثل هذه النهاية السعيدة.

وفي بعض أقدم ملفات الطفولة، يتفجّر من أنف الأخ الصغير شلال من سائل أحمر لزج ساخن كريمة الزائحة يُخرج الأم من صوابها وهو يرفض الكفت عن السيلان. تلك الليلة جاعنا رجل أجنبي على عجل، والحال أنه لم يكن مسموحاً لأي غريب أن يدخل بيتنا في غياب سيده. ومما بقي محفوراً في الذاكرة أنها كانت تتكلم معه بلحترام شديد، أنها كانت

تأتمر بكل ما يقول، أن الغريب عيس وقطب الجبين وهي تعطيه ما حسبته كثيرا من المال، أنها اعتدت بفرها، أنني كرهت الرّجل لما أحدثه في "مما" من خرج وأني أحبيت تلك اللحظة أن أكون من يعرف كيف يوقف تدفق الشيء الأحمر لأكون رجلا يدخل البيوت ليلا، يعامل بالتبجيل ولا يأخذ مصروف الأطفال.

كان السؤال ليلتها: لماذا لم يتوقف الدم عن التدفق من أخي إلا بعد تدخل الغريب، والحال أنه خرج مني أكثر من مرة ثم توقف دون حاجة إلى أحد؟

يوم بدأ الأستاذ بعد أكثر من عقد درسه عن السائل الأحمر وكيف يتدفق ولماذا لا يتخثر في الأوعية، وكيف يرتك الشيء المجهول أحيانا فلا يكف عن السيلان مما ينذر بكثير من الويلات للمصلب، أصغنتُ السمع كما لم أفعل يوما ولا أظن أن أحدا من الطلاب حوالي انتبه للموضوع كما كنت له منتبها.

أعود إلى الصراخ العقيم لمشاكسة العبقري الصامت داخلي أضحك مني ومنه: سيادتكم تعرف كل أسرار هذا الجسم وأنا أحصل على الصفر الرنان في فرض الفيزيولوجيا. سيادتكم تملك كل الخرائط عنه وأنا أبلي العينين في حفظ دروس علم الأعضاء، لا أحصل حتى على المعتل. لو كنت ابن حلال، لهمست لي بكل الأسرار فنتقاسم العبقريّة كشر يكين نزيهين.

لا يزيد صمت المجهول الكامن في أعماقي إلا في اصراري أن أعرف أو على أقل إن يكون لي تصور معقول لهذا الذي تعلم داخلي علما عجيبا ويمع علمه هذا من الوصول إلى فكري الواعي.

ربما لا داعي للإلحاح والشكوى... من حاجة إلى أسفار المكتبة الوطنية يحملها كل يوم على ظهره لمجرد التمتع بالعودة أي لحظة لما فيها من معلومات قد يحتاجها لإشباع فضوله... هل يكون جهلنا الذي نشككي منه هو خيارٌ هذا العلم اللاواعي الذي فينا والهدف تسهيل حياتنا؟! إلا نحب ترك مشاكل الاعتناء بالبيت والمكتب للمنظفة وصغار الموظفين لتتفرغ للمشاكل الكبرى؟

الثابت أننا أملم معرفة لا تجد دوما الإجابة الفعالة لإيقاف نزيف أو صدّ هجوم فيروس قاتل أو صنع مولود جديد ليس به أي تشوه. ومع هذا ... يا للمعرفة الغربية الهائلة .

من ينتبه لغرابة ظاهرة أنه لا أحد علمنا كيف نشغل العينين والكليتين والقلب والسمانة عضلة التي تحرك أجسادنا ومع ذلك نحن نشغلها تلقائيا وبكل سهولة كما لو كنا أعظم المخترعين وأذكي المهندسين وأمهـر التقنيين!

ما نتعلمه من المرض الحثير الذي يسمى مرض الزهايمر أن الدماغ في حالته الطبيعية لا يحافظ على ذاكرتنا نحن وإنما يحفظ على ذاكرته هو، هذه الذاكرة التي تمكنه من تشغيل مكونات ما زال تعقيدها المرعب يتحدى قدرتنا على الفهم. والآن تصور أن الكبد نسي هو الآخر كيف يقوم بوظيفته. فالأعضاء مثل الأنسجة التي تكونها والخلايا التي تكون هذه الأنسجة -وذلك أيا كانت الأجساد والأجساد الحية- هي حصيلة ملايين المنين من التجريب

والتحسين والتأقلم والتطوير. لاشيء من كل هذا ممكن دون ذاكرة تحفظ على منجزات الماضي وتخزن لمواصلة التحسين تجارب وتحديث الحاضر.

نكر كل متحذلق يبدد "يا من تدعي في العلم معرفة... الخ" بعمق المعرفة الهائلة التي يخترنها وكيف أن أكبر جاهل فينا يعرف كيف يصنع كافة أعضائه داخل الرحم، كيف يخرج منه، كيف يدافع عن وجوده ضد ما يزخر به العالم من فيروسات وجراثيم وطفيليات، كيف ينمو تدريجيا، كيف يتمكن من إيقاف نزيف من أنفه بكل فعالية، كيف يتدارك التهابا في الأذن الداخلية دون حاجة إلى طبيب، أو كيف ينجح في استعادة توازنه كل لحظة وهو يضع الخطوة تلو الخطوة، فيمشي مستقيما لا مترنحا كالسكران.

لذلك لا يجب أن نحمل على مَحمل الجد مقولة سقراط "كل ما أعرف أنني لا أعرف شيئا" لاشيء إلا لأن كل دمي، حتى سقراط، عليم بكثير مما يتصور من الأشياء بفضل ذاكرة لها من العمر ملايين السنين هي التي تجعل كل طبقت الذاكرة الأخرى موجودة.

في آخر المطاف ما هذه الذات التي تنقسم لجزء على السطح يضج بالشكوى، وجزء في الأعماق لا يتكلم، لجزء ينفذ صاغرا وآخر يأمر دون تكلف عناء التفسير، لجزء جهل تقريبا كل شيء وجزء كأنه يعلم تقريبا كل شيء؟

لنسمي هذا المستوى الأعماق من الذات ذاكرة " الحياة لا غير" وفي استعمال صورة للشجرة، ذاكرة الجذور.

لكن أليس للجذور بالضرورة تربة ما تنغرس فيها وتعيش بما تضخه فيها هذه التربة من ماء وغذاء وطاقة ؟

ما هذه الطبقة للقصى لذاكرة ذات استكشافها كالغوص في بئر بلا قاع ؟

"لما رميت جانبا هذا الكيان البالغ الصغر (سوزوكي)
الذي أسميه الأنا
أصبحت كل العالم الشاسع

**

الكتاب السابع الرؤيا

"لا نفع لأحد من هذه الحياة
إن غادر الدنيا
ولم يخلق عالمه الخاص"
بريهادارانياكا - اوبانيشاد

مقدّمة الكتاب السابع

- هذا عشاء عائلي آخر انتهى بسلام. إنها فرصةٌ لإلقاء سؤال لم أجسر يوماً على طرحه على أيّ من البنّتين.
- تقاحة وأنت تفيحه، هل كنتُ الدليل الذي يَكْتبُ الزبائنُ عنه رسالة شكرٍ لوكالة الأسفار وتوصيةً أكيدة ومُلحّة وعاجلة بترقيته؟
- تبتسم تفيحه:
- أصوّت لفائدة رسالة الشكر والتوصية بلترقية؟
- أسلّط نظرة حنرة على تقاحة، فتبتسم بمكر:
- ادفع الفاتورة وبعدها سأقول رأيي.
- ثم تستعدّ للنهوض وهي مثلّ والدها، وقبّله جدها دوماً في عجلة من أمرها.
- تتوقف بغتة وكأنّ هناك ما يدفعها إلى الكلام وما يمنعها عنه. تمسك بذراعي ونحن نعبّر باب خروج المطعم الصغير.
- يجب أن أعلمك بضرورة الاستعداد لحمل لقب آخر يضاف إلى ألقابك الكثيرة، وسيمنند إليك من قبلي هذا الصيف.
- تقصدين!
- لماذا تظنّ؟ حتى أنت تصبح جدّاً.
- أنا! أنا زين الشباب! ينادى له يا جدي! يا بنت استحي.
- ثم تُقلّت مني جملة طائشة.
- أه، إذن هذا عالم عيئي كما ترددين في لحظات النطق الفارغ، لكن لا بأس من مواصلة تزويده باللحم الطازج.
- تصدر تقاحة صرخة تدّعي الغضب. تقفل تهديدي بأظفر مشهرة في وجه باسم.
- تتدخل تفيحه:
- كفى يا أطفال من الضوضاء على قارعة الطريق.
- تمزّر تفيحه يدها أمام وجهي:
- "يا"، عُذّ الينا.
- أتوجه إلى طففتي التي ستصبح "ما" وقد عاد النص إلى نقطة السطر.
- تقاحة، أعطني قلمك بسرعة الإحرام بتأريخ مسيو فيدال وقومه شهر... الموافق في تأريخ "ما" وقومها ل... الوصول تقريبا في...

تضحك تفيحة:

- اترك هذه الحسابات للأطباء. المهم أن نغتتم الشهر القليلة القادمة لتجديد مخزونك من القصص للقادم الجديد.

تأخذ تفاحة في تقليد صوتي:

- كانت الأميرة دوما مليئة بالفصول وبالجرأة، لا تخشى إنسا أو جئا وكات تحقّق كل ما عزمت عليه.

تعود تفيحه إلى هوايتها القديمة في افتكالك الكلمة، لتفود قصة لا تعرف إلا هي كيف وإلى أين يجب أن تقاد.

- وكانت الأميرة الصغيرة التي تحب والدها الملك شهرمان أكثر من كل شيء آخر تعينه على أمور المملكة حتى يستتب فيها العدل ويعم الخير.

- اعترفا أنها كانت قصصا مسلية وأني لم أضع فيها من رسائل مبطنة إلا التي قد تساعدكما على مصاعب الحياة.

تقاطعني تقلاحه:

- لسنا ضدّ مبدأ مواصلة العمل بمثل هذه التقنيات لكننا لن نسمح لك برواية قصصنا وعتن بريء تبيعه بضاعة قديمة.

- خشية في غير محلها. أعدكما بقصة لم تُرو من قبل لطفل وفيها أعظم بطل وأعظم مغامرة وأكثر العقد تشويقا...إنها روايتي الخاصة لقصة القصص أولفها منذ عقود وأسميها أحيانا الرؤيا...

تقاطعني تفيحه وهي تتأملني كما كانت تراني لأول مرّة:

- كلن يا ما كان، طفل همّة الأوحّد الكشف عن سرّ الأسرار وهمّة الأوحّد الآخر ألا يكتشف شيئا لتبقى الأسرار أسراراً.

- أخيرا ثمة كائن على هذه الأرض يفهمني. أليس أقطع ما ينتظرنا بعد طول البحث أن نكتشف أنه لم يكن هناك سرّ أبداً أو أنه سرّ لا يستأهل كل المشاق التي تكبّدنا لكشفه... أو أنه حقاً استأهل كل هنا البحث، لكن ماذا سنفعل بوقتنا وقد اكتشفناه؟ والآن كفى تهربا من مسؤوليتكما، نعود للموضوع، أعول عليكما بخصوص الشهادة... وأريد تسبّقه.

يمدّ الدليل يده لليقشيش وكأنه أنهى مهمته في قيادة السانحين في أدغال هذه المحمية الخطرة الكبرى التي اسمها العالم. تبقى الراحة مفتوحة تنتظر الصدقة. تهرّها تفاحة بحرارة تقلّد الشكر المبالغ فيه.

تطبع تفيحه عليها قبلة فأغلقها بسرعة كأنني أغلقتها على فراشة زاهية الألوان، ثم أفتحها حتى لا تخنق فراشتي السحرية.

طيري يا قبيلة. اعبري كل فضاءات العالم. حظي بمنتهى الرفق على راحة امرأة باركنني وباركت في نرتيتي، ثم على راحة أحسن أسوأ أب، تنظلي من راحة شيخ إلى راحة شيخ

آخر تتسلفين سلسلة الآباء والأجداد، الأمهات والجدات، تحملين الشكر لكل من عبدوا لنا الطريق، إلى أن تحطى على راحة آدم وحواء وقد قبلا لنا بأنيل المهام. تهمس نقاحة في أذني قبل أن أدير لها ظهري:

- "يا"، إذا كان المولود بنتا سأسميها حرّة تيمنا بالحرية التي تعشق.

نعم الحرية مع المسؤولية أئمن هدايا تجربة الوجود، مرحبا بحرة في عالم الرعب والانهيار ولتتحمل مسؤوليتها هي أيضا في إخراجها من كل هذا الوحل الذي يتخبط فيه. أي طريق أطول للعودة الى البيت حتى أبقى ماشيا أطول وقت؟ لست مستعجلا و "ح" على فراش الألم تخفي وراء ابتسامتها الدائمة وجعها وكل جسدها خريطة أمراض.

على فراش المرض نسخة منتهية صلاحيتها للجسد الأدمي، على فراش الولادة قريبا نسخة جديدة له... كائن على وشك الرحيل، كائن على وشك الوصول... تواصل مشروع لا فكرة لأحد عن بداية له أو نهاية، عن دوافعه أو عن أهدافه... مشيئة الإرادة المحمولة التي لا يُعصى لها أمر.

فجأة أجد نفسي أتمم بكلمات أغنية كانت شائعة في شبابي:

“المرأة التي في فراشي

لم يعد لها من العمر عشرين

منذ زمن طويل، طويل، طويل”

نعم المرأة التي في فراشي لم يعد لها من العمر عشرين منذ زمن طوييييييل. ومع هذا... لا تتضح حقيقة المشاعر إلا والحبيب قد دفعة واحدة الجمال والصحة والشباب. آخر فرصة لأهمس في أن رقيقة أطول مقطع من الطريق الكلمة التي رفضتها لها ولنفسى عن حياء غبي: أحبك. نعم سأخذ “ح” بين ذراعيّ طويلا أضّم حطام جيد الى حطام جيد. مسكين هذا الجسد الذي كنت أولع له بالخور وأقيم له الطقوس وأنشد في عابته الترانيم، هذا الجسد الذي كان ساحة فتوحاتي، الذي كان قيثارتي أستلّ منها أحلى الأنغام، الذي كان حديقتي السرية، الذي كان مدخلي إلى الذات الأخرى وإلى أعماق ذاتي. هو الآن بطن رخوة، أسنن صبغها التدخين بأصفر قبيح، جلد حفر فيه الزمان ما طاب له من التجاعيد، نهان مسكين لم يعد يشتهيها فم رضيع أو عاشق لا يلمسها إلا رجل يلبس الأبيض باحثا عن بداية سرطان.

أنا الآخر لست بأحسن حال وقد وصلت إلى العمر الذي يصبح فيه أبلغ تعريف للصحة تلك الذي كنت أستقرّ به طلبتي: “وضعية مؤقتة، لا تبشر بخير”. إنه العمر الذي كتبت فيه الحياة عن العطاء لتبدأ في استرجاع ما أعطت. كلّ هذه الحياة إبحار على محيط تسلّمنا العاصفة إلى العاصفة لا نصل مرفأ الموت إلا وأجسادنا كقوارب كسّر الدهر صواريخها وتدفع الماء من ثوب حفرنا الكثير منها بأظفارنا.

إنها مشارف نهاية الرحلة... المرحلة الصعبة بامتياز... المرحلة الصعبة!.. هل كانت الطفولة مرحلة سهلة، هل كانت المراهقة مرحلة سهلة، هل كانت الكهولة مرحلة سهلة! أخيرا البحيرة التي آتتها كل مساء لمتابعة غروب الشمس وراء أشجار السنديل الشاهقة. لم لا التوقف بعض الوقت والمقعد العائم الذي أفصلته شاغر يدعوني للتكريم بالجلوس. يا الهي كل هذه السنين، كل هذه العقود التي مرت وأنا لا انتبه لتركضها! كم صدق أحد الشيوخ الأجلء الذين تعلمت عنه مهنتي عندما قال لي: أنت لا تنتبه لعمر طلبتك لأنك ما زلت شابا، ذات يوم ستقع بصغر سنهم وكم هم ثابتون على نفس العمر سنة بعد سنة، يومها ستعي أنك أصبحت شيخا. إيه والله كم صدق الرجل! ها قد أصبحت لا أدخل المدرج المكتظ إلا وأفاجأ بوجوده رضع ثبتت على لجسام عاقلة فأردد لنفسى فعلا كم هم صغار السن ثابتون على نفس الشباب وأنا وحدي الذي أهرم... أخرج هاقي النقال من جيبي وعذر وجوده استعماله أساسا لنقر بعض الأفكار العابرة وسماع الموسيقى.

أين توقفت كل هذه السنين عن تأليف روايتي لقصة القصص؟ أه تنكرت. خرج آدم وحواء من الجنة بمحض ارادتهما لمهمة بقيت غامضة طوال رحلته... أفاق في عالم عجيب مبهر مرعب... ضرب في الأرض ذات العرض والطول جيلا بعد جيل يستكشف ما تحفل به من غرائب وعجائب... أعاد تشكيل العالم على هواه أساسا بالحرب والفرق... مثل وأخرج وعش وصدق لكل أدوار البنية والأبوة والحب والصداقة والعداوة مجريا من أقصاه إلى أقصاه طيف ما تقدر عليه الذات الانموية من أحاسيس ومشاعر وأفكار وأفعال... بنى له على طول الطريق ولحات يستريح فيها من ذاته ومن أهوال عالم لا يرفع عنه ضغطه لحظة.. يشده الحنين دوريا لهذا للمبهم الذي خرج منه فيصطفي من الأرض أمكنة يتخيل أنها الأبواب التي تفتح عليه... ما الذي بقي لإكمال قصة القصص التي أرنها بناية يهندسها الخيال والفكر لتحميني من الحيرة والقلق كما تحميني بيوت الزجاج والحجر من الحر والقر؟ أه، أهم اللبئات التي كانت صعوبة صقلها سبب توقف العمل وارجاء العودة إليه أكثر من مرة.

أولى اللبئات التي يجب العودة إليها سردية الهروب من الجنة. أي حجج يمكنني أن أسوق ليقبلها العقل ويرضى بها الفؤاد ولا علاقة بها بمشاعر متمررد بلاسليقة على كل أصناف سوء استخدام السلطة ولو كانت السلطة الإلهية؟ ثمة أيضا مسألة هوية الأدمي. من هو حقا؟ توقفت في الحفر في ذاكرته عند أعق الطبقات التي يمكن للفكر والخيال ان يصلا إليها، لكن دون البث في موضوع ما الموجود تحت قاع أعق الأبار. ستكون أصعب اللبئات هندسة لبنة المهمة التي جاء الأدمي من أجلها هذا العالم قابلا بكل التضحيات. هل تستأهل حقا كل ما كلفته البشرية من آلام ومنها عودة الموت وكانت الجنة خلصتنا منه ومن كل مشاكله؟

نعم، يجب استئناف العمل على قصة القصصمن الآن حتى وإن كان أمني بضعة سنوات
قبل أن تطالب بها حرّة.

طبعاً لن تكون رحلة الأمني في رؤياي سلسلة من الصدف العمياء، من الأحداث التلقية،
من الصراعات البائسة، من الأوهام المضللة، من الأحلام المجهضة، من المتع العابرة،
من النجاحات النادرة، من الإخفاقات التي لا تُحصى، من الألام العينية، ومن النهايات
المحزنة.

تندافع الأفكار ويتسارع النقر.

أنا الآن كالقنان الذي يخطّ بقلم الرصاص على الورق الرسوم التجريبية الأولى للوحة
المنشودة، أو كالمهندس المعماري يوضّح لنفسه تعليمات إتمام المشروع الذي يرجو عبه
البقاء في ذكرة الأجيل.

"بنيث على الرمل (أدولف ستاف)

لكنّ كل شيء انهار

بنيث على الصخر

لكنّ كل شيء انهار

واليوم على دخان المدفنة

سبني."

**

[حجر التزاوية في الرويا الفرار من الجنة .. تفحص الحجج
المنطقية التي تدعمها .. تبعات التخلي عن أمل رُوِّجت له أكثر
الأساطير المتشারা]

يذهب المخرج جون بورمان إلى أبعد من سرديتي، في فيلم "زاردوز" -ويُصنّف من من أفلام الخيال العلمي - فأدم وحواء لا يكتفيان بإبارة الظهر للجنة وإنما يغدرانها بعد إخراجها نهائيا من الخدمة.

السيناريو .

سنة 2293 أصبحت التكنولوجيا قادرة على خلق جئة اصطناعية تُوفّر كلّ المطلوب من الملذات الحسية وغير الحسية إضافة لللود... طبعاً ليس للجميع وإنما لأقلية محظوظة تحصّنت وراء أسوار شاهقة والنعيم الأبدى الذي بدخلها وقفت عليها وحدها. أما قدر الأدميين خارج هذه الأسوار فصراع البقاء في عالم تحول أكثر من أي وقت مضى إلى جحيم على الأرض.

لا شيء كان يثير حفيظة هؤلاء المهمشين قدر استعصاء المحمية المتكبرة عليهم رغم تعدد محاولات غزوها قرونا بعد قرون.

يكتشف مغامر اسمه زاردوز، بالصدفة -أو هكذا خُيّل إليه- منفذا للقطعة المحاصرة، فيدخلها هو ومحاربه على قناعة مطلقاً أن ساعة النثار قد حانت.

لكن أين الجنود المدججين بالسلاح لقتالهم والانتصار عليهم؟

المشهد الأول

بدل أشرس المحاربين، يشاهد الصياد الهمجي عجوزاً يتقدم نحوه باسم ممدود البدين. شيخ! ألا تؤكد الأخبار -التي يتناقلها بنو قومه منذ القتم- أن سكان هذه المحمية لا يهرمون أبداً!

يصرخ في العجوز:

- الأسطورة لتي تقول إنكم لا تشيخون إذن كانبية!

- ليمت كاذبة. لكنني في عرف الخالدين مُذنب والمذنب هنا يعاقب بالشيخوخة الأبدية.

تسترعي انتباه بطلنا رئة الحزن في كلام الشيخ. يجب أن يُحسّ هذا الكائن المقرّر على الكلام ليفهم أخيراً سرّ قلعة استعصت على أشجع وأنكى الأجداد.

لا حاجة لتهديد فالرجل وقد أصبح بجواره يكاد يحضنه لا يريد إلا إفراغ ما في صدره. قال الشيخ: اسمع مئي القصة الحزينة أيها المنفذ: متى بدأ كل ذلك؟ البارحة أو منذ ألف قرن؟ لا أدري إذ لم يعد للزمان في هذا المكان أي وجود. كنا نشعر أن الجشع والعباء بصدد التعجيل بنهاية الأدمية، أن الكارثة آتية لا ريب فيها. أعدنا لها العدة. انتقينا خيرة

البشر. جمعنا كل تراث الفكر . اكتشفنا سرّ الخلود وبنينا ما جئناها المدينة الفاضلة كما كان الأوائل يتخيلونها في لسماء بعد الموت .. ذلك المكان الذي كان يسمونه الجنة. دقيقة صمت، نتهد، ثم استئناف القصة:

- وصنعنا كل التعليم لإدارة شؤون المحمية في الزمردة السوداء. هي التي تسبّر وتتحكم في كل شاردة وواردة. هي حارسة خلودنا. لا فترة لشيء أو أحد على التصدي للتعليمات المضمنة فيها ومنها أن يعاقب بالشيخوخة الأبدية لا أمل له في راحة الموت كل من يخرج عليها أو يهددها. لا تقرب ذلك المبني الذي هو محرابها وإلا يا ويلك من عقاب أشدّ هولا من أفظع ميتة.

غريب! الخطاب يحذّر من شيء ولغة الجسد تغري بالعكس. لصياد الهمجي محادثاً نفسه:

إن الزمرّة مقتلهم! لحظة أنمرها سيتهوى الجدار الشفّاف الفاصل بين العالم الحقيقي وهذا المسخ. لكن أين الطريق إليها في هذه الدهاليز التي لا تنتهي؟! الغوث ياربة القبيلة. كأنّ الربة المعنّية بالأمر سمعت الدعاء. تعترضه - هكذا دائماً بمجرد الصدفة - فتارة الجمال في ريعان الشباب بالغة الأناقة، مكسوة بأروع المجوهرات. تتوجه إليه الفاتنة مدودة اليدين كأنها تبتهل:

- من هنا أيها المنقذ.

المنقذ! لماذا أطلقت عليه هي أيضاً هذا الاسم؟ لماذا ربة الخشوع في كلامها؟ يواصل الصوئ الساحر: تعال فرغ الصبر من طول انتظارك كلّ هذه القرون. اتبعني، ساكون دليلك في هذه الدهاليز. استعدّ. ستعترضنا صعوبت هائلة. لكنني واقئة أنك ستتحج. الطريق للوصول إلى الحرم من هنا.

تنطلق الفتاة تفود المحارب الهمجي في الدهاليز الغربية ووراءها تكور وإنث يرفلون في الحلي والحلل، لا يخفون وراء ملامحهم الجميلة توجساً قلماً. فجأة أحسن زاردوز بالأم لا يُطاق ينهش لحمه. إنها بداية المعركة، لكن أي معركة؟ من أين له أن يقا بالسيف والنصل عدواً يواجهه من خلف ألف ستار بأسلحة لا يتصوّر عاقله. - قولي لي على الأقل من أحارب؟

- قوى الدفاع التي تجنّدها الزمردة لكيلا يقترب منها أحد.

ضاع هو ومرافقته أكثر من مرة. وجدا الطريق وضاعا من جديد، وفي كل مرة تزداد حدة الأم فظيعة لم يجر بها من قبل. كانت تضمّه إلى صدرها تُغطيه بشعرها، تواسيه وتداويه كما تداعب الأم صغيرها، تقول له واصل، تشجع، اصبر، تقدم، من هنا ليس من هناك. ستصل وننج وأنذاك أصبح لك زوجة.

كانت تتوقف المرة تلو الأخرى تقول له انتظر لأسأل، تحدّق في الفضاء كأنها تستشير المجموعة التي تتبعهما من بعيد ثم تنفرج أساريرها: من هنا، قربنا من معقل الزمردة.

حتى في الجنة مؤامرات ومتمآرون! من هذه المرأة؟ من هؤلاء الذين يدلون بها حين تختلط عليها الطرق؟

عند اجتياز كل عقبة كانت تضحك كأنها تتشقى من عدوٍ ستنتقم منه ألدَّ انتقام. قالت له بعد أن قطعاً شوطاً طويلاً: ابتداءً من هذا الحاجز لن أنفعلك في شيء. هناك حُرْمُ الزمردة والخالدون الذين تعرفهم واحداً واحداً ممنوعون من دخوله. ادخل وحذك فهي لا تعرفك ولا حيلة لها ضدك. أطبق براحتك عليها تقطع عنها النور فتنتهي حياتها وتنتهي مأسأتنا.

الزمردة السوداء في قبضته أخيراً.

علمُ الكون وقدرة الخالدين في راحة يده!

رصيد الفكر البشري منذ قرون تحت سيطرته!
لحظة تردّد.

ألم يأت للاستيلاء على كنز الكنوز؟ لماذا لا يستعمل كل هذا العلم، كل هذه السلطة لمصلحته ولمصلحة قومه؟

لكن كم يكره الخالدين وعلمهم الوقح وما فعلوه بقومه وهم بالنسبة إليهم صنف من الحيوانات... وكم يكره فكرة أن يصبح هو ورجاله مثل هؤلاء ال....
يطبق براحته على الزمردة السوداء فتنتفي كل الأنوار. تنهاوى الأسوار ليقتحم مجرى الزمان المحميةً كما يقتحم الماء مجرى النهر بعد انهيار السدّ.

المشهد الرئيسي

فجأة يسمع الصياد الهمجي الصراخ يتعالى من كل الأرجاء.

يشدُّه منظر الخالدين وهم يركضون باتجاه رجاله يتضرعون: أنا، من فضلك! أنا! أنا! اقتلني أنا الأول!

إنه تعجّب من يرى غزالاً يركض صوب الأسد أو خملاً يرتمي في أحضان الذئب. النكور يتدافعون إلى الرماح والسكاكين وكأنهم أطفال يتسابقون إلى اختطاف هدايا العيد! الغايات يمزقن القمصان ويعرضن الصدر العاري إلى حدّ النصل، يمسكن بالسيف يدفعنه بقوة داخل القلب ثم يغسسن اليدين في شلال الدم الساخن وهن يضحكن أغرب ضحك سمعه أدمي يوماً!

يتقدّم الشيخ للمحارب الهمجي النازل لسم أغرب لوحة حيّة يمكن مشاهدتها.

- بوركت أيها المنفذ، حان دوري. اغمس نصلك. لم أعد أقوى على انتظار.

- ستتكلم قبل ذلك، من أنت؟ من هذه؟ من هؤلاء؟ وما سرّ كل هذا؟

- هذا أقلّ ما يمكن أن أجازيك به أنا الذي سددت لك بعد لحظات بالراحة الأيديّة.

اسمع مني بقية أغرب قصص الأدمية المجنونة.

كانت المحمّية التي سميها تهكّما الجنة مكرّر مكانا مثيرا في البداية. غرقنا من كل أنواع اللذة، لا فقط لذة الحواس وإنما أيضا لذة العقل والروح. شبعنا جنسا وعلما وصلاة ثم أصابنا الشيع... فالتخمة.. فالقرف... ولا شيء أمامنا غير تكرار التكرار إلى ما لا نهاية... هذه الجنة لم تكن إلا للشكل المنمق أو الاسم الآخر للعم.

كنت أول من قلّ يجب إنهاء هذه الموقبة. كذبوا أذانهم في البداية. حسبوها نزوة. قالوا اسمع الموسيقى أكثر وتعبّد أكثر وتمتّع بكل ما قيل من شعر. لكن أي حاجة في مكن كالجنة للموسيقى للشعر وقد انطفأت كل الآلام والأمل والمشاريع التي كانت دوما وراء خلقهما والتمتّع بهما. قالوا تأمل أكثر، تعبّد أكثر وتلاشى في الحب. فعلت كل ذلك، لكن الملل الذي تسلّل إلى روعي في البداية ببطء شديد تفقم إلى درجة لا تُطاق وقد أصبح هو الآخر ثابتا ثبات الزمن المشلول. كانوا ينظرون إليّ بذهول محاولين التغلب على بلادة مزايدة العمق وأنا لا أكفت عن الصراخ في أذانهم: ألم تفهموا أننا نعيش أقطع عقاب لرصفنا أولي قوائين العالم السوي؟

عن أي قوائين يتحدّث هذا المنتبه؟... طبعا عن قانون لا وتسو الذي يقضي أنه لا وجود لشيء إلا بوجود النقيض... ما الجمال إن لم يصدمننا الفج، ما الفرح إن لم نجرب الحزن يوما، ما الخير في غياب الشر، هل يمكن تصور النكر دون وجود الأثني؟... كيف لا تتخفي السعادة في جنة المحكوم عليهم بالخلود وقد فقدت أول شرط لوجودها أي وجود الشقاء؟... أضف القانون الثاني الذي سنّه هيراقليطس: لا ثبات على شكل أو حالة لشيء أو أحد إذ لا مجال لإيقاف سيل الزمان... أليس الخلود في الجنة بالثبات على متعة أزلية ليغاف لسيل الزمان؟... نفس الخطأ في صياغة مفهوم جهنّم وهو يلغى فيه أيضا وجود النقيض ويثبت الزمان في وضع لا يتغيّر أبدا... لا شيء يمكنه التنطع للقوانين السردية التي تسير الموجود ولا بدّ لنهر الأمازون من مواصلة تدفقه وضعت أممه كومة من القش أم لم تضع.

يمسح الشيخ دمعة حارقة ثم يستأنف رواية أغرب قصة للأنميين مذ وجدوا. حكموا عليّ بالشيخوخة الأبدية. كان ذلك مكتوبا في قوانيننا وكنت أول مذنب في عالم الخلود. كان رجوع الألم كرجوع المطر بعد الصيف. انتعشت روعي فترة، لكن الألم المؤبد، مثل اللذة المؤبد، وضع لا يحتمل.

تدرجيا نما الوعي داخل الجميع أنني على حقّ والكل يكتشف يوما أننا أصبحنا سجناء زناينة لن يحررنا منها إلا رجوع الموت. كيف السبيل إليه وقد وضعنا في الزمردة أمر إلغائه وتعليمات التصدي لأي واحد منا يحاول إلغاء الإلغاء؟

بصفتي أول متمرّد عهد إليّ بالبحث عن حلّ. الوحيد الممكن اصطفاة منقذ لا تعرفه الزمردة السوداء وبالضرورة من خارج المحمّية. كنّا قبل هذا القرار نرعاكم كقطيع، كحقل تجارب ممتعة. كنّا نجرب عليكم نظرياتنا، نرى ردود فعلكم على هذه النياتة أو تلك، على هذا النظام لسياسي أو ذلك، على كل ما يخطر ببالنا من الكوارث الطبيعية نفيس طاقاتكم وحدودها. فجأة أصبحتم أملنا الوحيد. قلّت يجب تكثيف التنكيل بهم على مرّ العصور

لاصطفاء أكثرهم جرأة ونكاه وحفا وتصميما على تدميرنا ثم ندخله القلعة ونلّه على مَكمن الداء. كنت يا زاردوز أخز حلقة من سلسلة طويلة من المحاولات الفاشلة. بوركت، بوركت أيها المنقذ وقد نجحت أين أخفق قبلك كم من مُعلمر صنيدي.

أضاف الشيخ وقد داهمه نفاذ صبرٍ دام كم من أبدية:

-والآن اعمس نصلك في صدري، عاد الموت حقا بعد أن كان دوما الواجب. أريد أن أتمتع برؤية الدم وهو ينفجر أخيرا خرا طليقا من شرابيني. أريد أن ألمسه، أن أشعر به ساخنا لُزجا يتدفق كالشلال، أريد أن لمأ نظري منك وأنا على وشك نوم بلا إفاقة.

قالت مقاطعُة الشيخ وهي تنظر إليه برقة ويؤها على ذراع المنقذ: أنا التي قُتته داخل الهيكل. نصلّه لي قبل أي آدمي في هذه المحمية اللعينة.

يتجاهل زاردوز طلبها كل اهتمامه منصبّ على الشيخ وهو يفرس سيفه في صدره والرجلان الصامتان يتبادلان الابتسام.

*

ليسمح لي هنا بالتعبير عن اعجابي بالفيلم لكن مع بعض التحفظ بخصوص الخاتمة.

أو لا كرجل محب للسلام لا أحبذ كثيرا أن تنتهي القصة بحظة دموية كهذه.

وأیضا كنت لمل-كصاحب نوق رفيع وبكل التواضع الذي أخذته عن أينفئاس -أن يعالج ملف بظورة ملف الجنة بتفضيل الهمس على الضجيج والبسلطة على التعقيد وغير المكلف (من الممثلين والأزياء المضحكة وعصير الطماطم) على المكلف من كل هذا. الأهم من هذا كله أنني ضدّ تمير الجنة كليا فالأسطورة من أقدم تراثنا الفكري والعلاء لا يرمون في المزبلة أقدم الآثار وإنما يضعونها في أرقى المتاحف يحرصون عليها أشدّ الحرص.

لكل هذه الأسباب متفرقة ومجمّعة أسسمح السيد بورمان إعادة كتابة المشهد الأخير كالتالي:

قال الشيخ: بصفتي أول متمرد عُهد إليّ بالبحث عن حلّ. كنت قد أصبت بالإحباط من تعدد المحاولات المتعددة الفاشلة لخلق قائد من بقايا آدمية تعيسة انتهت في كل الأحوال بالانقراض. قلت في نفسي لم يبق لي إلا أن أجد المنقذ داخلنا. لا أدري متى سمعت صدى صوت بداخلي يهمس بأنني على حق. ثم اعترضتني يا آدم بعد حادثة التفاحة وأجزم أن ذلك لم يكن صدفة. عرفت من أول وهلة وأنا أستمع لكلامك ونظر في عينيك أنك لست من نوع الذي يترك لها أو ثعبانا يقرر له ما يأكل وما لا يأكل وأنك لا تختلف في تقييمك للورطة التي نتخبط فيها عن تقييمي. كنت أرى في نظراتك قرار الفرار. لكن كان من الضروري أجد أنثى تجمع الجرأة والحيلة لتخرج معك لولادة بشرية لا تتركب الحماقات التي ارتكبتها المنقرضة ومنها الحلم بهذه الجنة الفظيعة.

أه كم كنت أودّ وقد أكملت مهمتي التمتع براحة الموت. لكن الصدى واضح القرار: لا بدّ أن تصحب آدم وحواء إذ من أين لقصة القصص يا إبليس أن تكون فيها أي أثارة بونك.

بريك أليست هذه الصيغة أكثر اناقة وأقل تكلفة من سيناريو صاحب مكلف وينتهي بمذبحة؟
يبقى أن المهم اتفاق السرديتين أن آدم وحواء لم يطردا من الجنة، وإنما خرجا منها طوعا.
الأهم من هذا ... ماذا تقول اسطورة آدم-زاردوز في صيغتها غير أن رحلة الحياة لا
تنطلق إلا برفض راحة العدم والقبول بكل تحديات الوجود؟

نغلق القوس ونعود لسياق القصة:

وبعد استماعه لاعتراض ايليس وأنه ضلع في المؤامرة ولا مناص للتخلص منه، التفت آدم
إلى حواء ليأخذ بيدها وتحطّي العتية التي تفصل بين جنة بصدق التلاشي وعالم مبهم ما
زال غارقا في الضباب.
تحكّ حواء رأسها داهمها تردّد مفاجئ. نعم كان من الضروري تدمير المسخ الذي تورطت
فيه لا تدري كم من أبدية لكن ما هذا العالم الجديد الذي يجب النزول إليه؟

**[نقطة نظام ..ئمة خلال يمكن أن يهدد تسجام النبائية... ما
جدوى إصاية الأسمي بلرعب من الخلود إن لم تخلصه الرويا
من رعب الموت الذي يداويه بالجرى وراء هذا الخلود؟]**

في أشهر أعمال المسرحي يونسكو يتوجّه الملك "بيرانجي" وهو يلفظ آخر أنفاسه بلبثهاله
إلى الأموات: "من أين أتتكم جسارة القفز في أحضان المجهول المرعب. علموني،
أعزوني"

لا أحد قادر على الردّ رغم أن من ماتوا قبله أعداد لا تحصى.

تحاول الملكة التهوين على المحتضر: "لا تَمسك بأظفرك بهذه الحياة إنها منفي وأنت
الآن عائد إلى الوطن، لا تنكص على الأعتاب وقد وصلت خطّ الحدود. تنكّر أنك ستتحلّص
من هموم الدنيا."

ها هو يناجي نفسه مجاهدا للبقاء واعيا: هموم الدنيا! لا أحبّ لي منها الآن. الصعوبات
التي أنهكت قواي! لا أحلى من تذليلها. عليّ أن أتذكر كل أنواع الإخفاق! إنه لسوط الذي
جلدني به العالم لأتسلّق أعلى قمم المجد. ماذا تقول أيضا هذه الغيبة؟ عليّ أن أسلم في
الشمس، في القمر، في النجوم، في البحر، في الغابات وفي كئيبان الرمل!
أه هذه الدنيا التي أن الأوان لتوديعها!

تَمَلَّكها الأتي تَمَلَّك ساليب وَفازَها الماضي فِرَاق سَلِيب (المتنبي)

ما الفائدة إذن من تخليص الأسمي من رعب الخلود إن لم نخلصه من رعب الموت ؟
لنبدأ بتفحص جنور هذا الرعب.

بديهياً أن الأسمي المسكين سكن طول حياته أساطير أقل ما يقال عنها أنها غير مسؤولة.

جعلت هذه الأساطير من الموت عملية شبيهة بما يحصل للعائلات المنكوبة التي تحضر للشرطة لرمي غشها على قارعة الطريق، بعد أن أصدر القاضي أمرا بإخلاء المحل بالقوة العمومية. الأدهى والأمر أن لا القاضي الذي أصدر الأمر معروف ولا المحكوم عليه يعرف سبب عقوبة تقرر حتى قبل ارتكاب أي جريمة.

"نهار أتيت إلى الدنيا
(نزار القباني)

وجدت قرار إعدامي
ولم أرَ باب محكمتي
ولم أرَ وجه حكلي"

لنجزب التصدي المباشر لمثل هذه التصورات، مثلا ببقناع الأدمي أنه يرتعد فرقا أمام كلمة صنعناها في فضاء الخيال فترعرت لتعود إلينا بمخالب وأنياب.

لنرد له أن الموت مجرد مصطلح من مصطلحات لغة لم تخلق لنا فقط الآلهة والشياطين والأشباح، وإنما أيضا كائنات رمزية خيالية آخر نسميه عزرائيل يصوره البعض على شكل هيكل عظمي يحمل منجلا، "يقطف" به أرواحنا.

أضف مواصلا حجج المنطق أن فكرة الموت تلعب عند المنتبهين الدور الذي يلعبه صوت السوط في هرولة دابة كسولة إذ لم يهاجمني التبلد يوما إلا وسارعت إلى استحضاره، فيعود لكل قضية حجمها.

كأنني أصرخ في أذني أطرش قزّر منذ زمن طويل أن الطرش انفع له من السمع ولسان الحال يقول: "كلامك يا هذا في النفاخات زمرًا!"

لنجزب التوجه إلى عقل هذا الكائن الخائف من قرب فنائه. لنقول له: حنبر على الورق ما يخطر ببالك من خصائص الحياة. أه كتبت غريبة، عجيبة، مرفقة، مؤلمة، صعبة، محبوبة، مكروهة، ثمينة، رخيصة، خادعة، مكلفة، متغير، متجددة.

ما الكلمة التي تحاذر من كتابتها؟ أه برافو يفهم أنها كلمة م ح د و دة.

ألا يعني هذا أن الموت ليس حالة منقضة لحالة ثانية اسمها الحياة وإنما خاصية من خصائص هذه الأخيرة؟ كيف يكون جزء من طبيعة الشيء عدوا أو نقيضا له وهو لا يكون إلا به؟

نعم لكل حجج المنطق، لكن من أين لنا إنكار أن الذات تكره محدوديته هذه كره الأحدث لحديثه!

طبعاً للعقل الحق في رفض فكرة مكان لإشباع كل لشهوات دون وجود محركها وشرط وجودها الذي هو الحرمان.

طبعاً فكرة الخلود بما هو وضع لا يتغير أبداً منقضة لأهم قوانين هذا العالم أي التغيير المستمر وعدم الثبات على حال. لكن ماذا عن موقف الفؤاد؟ أليس من حقه هو الآخر رفض أن يقودنا الطريق إلى حافة هاوية مظلمة بلا قاع تدفع إليها دفعا؟

هل هذا من بين أسباب تردّد حواء وهي على أهية الففز في المجهول؟ هل جاءت من المستقبل إشارات تلقاها وعيها البلطني بأن ذريتها ستكره الموت كرهها هي وآدم للخلود بل وأن أكبر حلم لدى ذريتها هذه سيكون العيش في هذا الذي تترك ورائها بلا حسرة أو ندم؟

[ارجاء هندسة لبنية الموت بانتظار تبلور الشكل
العام للبنية لعل هذا الشكل يظهر ما الفراغ الذي
يمكن سده بلبنة أحسن صنعا... التركيز على التكلفة
الباهظة للمهمة مما سيزيد في تشويق معرفة
سبب القبول بها]

داخل ملفت وصولنا العالم ذكريات موجعة لنبذة عن طول انتظار في أروقة مستشفى ومخاوف مبهمة ونفاد صبر وصرخات صلمة تنوي داخل الذات: هيا يا بنت لخرجي من هذا الرحم، يكفي من الدلال واللعب بأعصابي.
أكد أن هناك أسباب وجيهة لهذا التردد والدليل صرخة الفزع التي يطلقها كل قادم جديد. هل داهمت وعيه صور آتية من أعماق المستقبل تظهره لاجنا ترمي به الحروب والمجاعات من مخيم بشع إلى مخيم أشبع...جنديا سيقتل في آخر حرب برصاصه طائشة عشية وقف إطلاق النار...عبدا موثق اليدين إلى عمود خشبي في قاع باخرة ننته...مجنوما يُساق محروسا بالجنود خارج أسوار مدينة لا مكان فيها لمجدوم...مهروسا ماشيا بين تلال الجثث وراء قفلة من المهوسين يضربون صدورهم، أقذهم حجم كارثة الطاعون كل صواب..بحارا على زورق وسط المحيط المزمجر يقاوم الرعب والنوم خوفا من أن يلقي به الرفق في الموج وقد نفذ الطعام والماء...جريحا يحتضر فوق أرض معركة عبثية أخرى وأطفال جياح يقشون جيوبه ونساء جاعتت بتخاضن على ثيابه الملطخة وحلا ودما..مملوكا يقف أمام خليفة يصرخ من أكل بطيخي ثم يقهر بطنه مغشأ عن بطيخه وسط أمعانه الدامية..طفلا يتنمنا سمل المجرمون عينيه لأن طفلا أعمى يذّر مالا أكثر على عصابات التسول المنظم..طفلا قربانا يساق عبر مسارب جبل مرعية، خراسه بهزجون بكلام غير مفهوم وعند قمتهم المقدسة يكسرون جمجمته قريبا لآلهة لم توجد يوما إلا في خيالهم المريض...طفلة مكروهة قال والداها أمام الشرطة لتبرير موتها-إنها سقطت من السلم وكلّ الجيران يعلمون أنها نفقت في آخر ضرب مبرح؟
هل رأي نفسه تائها في فضاء أخرج الاتساع، يرعبه الرعد، يصعقه البرق، يجرفه السيل، يفرقه الطوفان، تميد به الزلازل، تنقض عليه حمم البراكين؟
هل رأي نفسه طريدة تركض خائفة هربا من صياد جائع، صيادا جائعا يجري وراء طريدة خائفة؟

هل رأى نفسه جالسا القرفصاء يبكي حبيبا خاتنه قواه مجنرا على تركه جيفة للكواسر
والطريق لا يرحم مريضا أو جريحا؟
هل رأى نفسه جارية تتيح في ليلة ليلاء مع مئات الجوارى لأن إمبراطورا مجنونا صدق
أن محظياته يمارسن الجنس مع المخصيين؟
هل رأى نفسه امرأة في مقبل العمر توضع في حفرة إلى الصدر تصرخ تحت الرجم
أوصى الراجمون بعضهم البعض ألا تكون حجارتهم كبيرة حتى لا تموت الزانية بسرعة
وإلا تكون صغيرة حتى لا تطول زفة الإعدام؟
هل رأى نفسه عجوزا تتسول قطعة خبز على باب كنيسة والجنود يطردونها لا يعلمون أنها
كانت في شبابه بائعة هوى مر على جسدها كل ما في الكنيسة من نكور لنام؟
هل رأى نفسه شاعرا صوفيا معلقا على جسر مقطوع اليدين والرجلين ينزف من آخر
قطرات نمة مدانا بالكفر وقتلته هم الكافرون؟
هل رأى نفسه شحاذا على باب كم من معبد لا أحد ينظر إليه وكلهم داخل الحيطان يلهجون
بحمده يستجدونه العطاء؟
هل رأى نفسه تائها في تصورات تحسب على المرض العقلي إن جاهر بها فرد وتحسب
دينا وفلسفة إن جاهر بها الجماهير؟
هل رأى نفسه قبلة كل الأنظار والحشود تتشبت بجلبته قبل تعليقه على خشبة وهو لا يقدر
على شيء لأحد ولا حتى لنفسه؟
هل رأى نفسه يوم عنيه رهبان مجانيين يتهمونه بالسنسنة على دينه الممنوع ويوم كُتسوا
الحطب تحت رجليه ولا نفع لصلاة أن يخنقه الدخان قبل أن تلتهم النار جسدا ظن أنه عرف
كل الممكن من العذاب؟
هل داهمه رعب يوم جُدع أنفه ليجعله حاكم مجنون عيرة لمن يعصى له أبسط أمر... يوم
رُمي وسط غرف الغاز لاقتلاع ذهب أسنانه والجسم لم يُنه بعد تخيطه... يوم جُر إلى
أعماق الأرض ورثاه تحترقان ليستخرج لهم معدنهم الثمينة وكأنه ليس هو أئمن
معدن... يوم دُفع لمواجهة الكواسر يضحك عليه غلباء القوم وسفلة العلمة وهو يواجه
الأنياب والمخالب ببديه العاريتين... يوم قُطعت يده بلسكين بحجة أنه سارق قوت
أطفاله... يوم أوقف في طابور طويل ينتظر مرتجفا أن يقطع رأسه بعد أن سقطت المدينة
وأسلم سكانها لسيوف القتل بالجملة...
هل رأى نفسه صيدا ثمينا للذين منهم كل نعمة وللجرائم ابان الحياة وعند الموت وليمة
للنشاب والدود؟

*

هنا يجب أن تكون لنا شجاعة رفع الاصبع في وجه آدم وحواء واتهامهما بأخذا قرارا
أقل ما يقل عنه أنه غير ديمقراطي .
ألم يكن خريا بهما أن يولجها كل بناتهم وأبنائهم بما ينتظرهم وترك الخيار لهم.

أما كان عليهما من باب الفزاهة أن يصرخا في شبح بصند التبلور: أنت، نعم أنت الذي يحاول الاختفاء وراء الظهور؟! هل سنقبل بمواصلة المهمة علما وأنك سنتنتهي متسكعا في أروقة المترو بعد فقدان العمل وهروب زوجتك بالأطفال وطردك من بيت لم تدفع إيجاره منذ سنة، أنك سترمي بنفسك تحت القطار في محطة سان ميشيل ويسببك أيها البليد سيتعطل العمل أربع ساعات على الخط "ب" ، مما سيضطر الشركة إلى تحويل آلاف المسافرين على الخطوط الفرعية حيث ستعمّ الغوضى ويتدافع الناس ويتخاصمون ويتشتمون والجميع يستمطرون اللغات على رأسك -أو ما بقي منه-لأنك لم تجد غير الانتحار وقت الزحمة حتى تضايق أكبر عدد من الناس المرهقين. أه نسيت أن أقول لك إن عمالا في قمة التقزز والاستياء سيجمعون أشلاءك الدامية في كيس من البلاستيك يرمونه في حفرة بالمكان المخصص للمجهولين في أبعاد مقبرة، وأن سائق القاطرة سيعطى أسبوع إجازة وسُحال على طبيب الشركة المختص بعلاج الصدمة النفسية للسُّوق المساكين ضحايا أمثالك من المجائين وما أكثرهم هذه الأيام.

نعم كيف لم تصرخ حواء في قبيل وهو جنين: يا لهول ما ينتظرك وأنت كالدابة تجر الحجر والملح والرخام، السوط يكوي ظهرك، الجوع يمزق أمعائك، العطش يلهب حلقتك، الهوام تلسع وتعض... وكل ما تصلي من أجله حضور الموت المنقذ من الحياة. أه لو نتهت أيضا هابيل أن بلكانية طاولة القمار أن تسحب له حياة المتمدن، العبد، السجين، المخصي، المومس، القواد، المستبد، الجلد، الجائع، المريض، المجنون، المشوّه المعاق، الثائر الفاشل.

تصوروا لو طرح آدم وحواء على ذريتهما في إطار استفتاء نزيه وشفاف خيار الخروج من الجنة لدخول العالم. ما من شك لدي أن خيار لا تم لا ثم لا كان سيحصل على نسبة 99.99% ويبدون أدني غنّ.

كأنني بكل امرأة جبلي تشعر بقلق مفاجئ لا تدري له سببا والرفق اللطيف الذي تعودت عليه في أحضانها فجأة يتوقّف.

[لا مجال لمزيد من التسويق... يجب كشف طبيعة المهمة التي تكلف مثل هذا الثمن... والاستعداد لوابل من الاحتياجات]

في روايتي لقصة القصص يهمس الصدى لنفسه وهو أمل مشهد المحرم داهمه خوف مفاجئ من الاضطلاع بأصعب وأنبئ المهام.

لأن دفع بصورة طفل يضحك كل من حوله، يمشي راقصا أو يرتقص مشيا بتلك المشية المرححة التي لا يعرفها إلا الأطفال...مانا عن صور مسافر في الرابعة من العمر أنه على زجاج الحافلة يتأمل منبهر أشجار نخيل خضبت هلماتها حمرة الشفق...والآن إلى مشاعر

الإنسان المصحح لكل خلل، المتدارك لكل نقص، الناهض بعد كل كيوه، الرقيق بأضعف الكائنات، مشيد معابد الخير والحق والجمال...
كل هذا بداهة بلا تأثير.

يواصل الصدى رمي أوراقه الأخرى

لأفاجئ هذا المتردد بصور البحار والبراري والجبال والصحراء ليلا، بطعم الزيتون والتمر والتين والعسل، بروائح الياسمين والأرض المبللة بالمطر والعنب، بحفيف الأشجار، بخريبر الماء، بهمس النسيم، بصفير الريح، بزقزقة العصفور...
دوما نفس التردد بل ثمة موجة جديدة من الهلع.

مؤكد أن المحرم يسمع أيضا الأصوات المتصاعدة من غرف الولادة والتعذيب ومن ساحات الحروب، أن قلبه ينفطر وهو يسمع بكاء ضحايا الاغتصاب نساء ورجالا وأطفالا.
لم يبق في جعبة الصدى إلا ورقة أخيرة.

أي إضافة لهذا العالم رفعت مستوى ما فيه من جمال إلى أعلى الدرجات غير الموسيقى؟
أي كائن حي غير الأنمي يستطيع خلقها والتمتع بها؟

لا تظن لي أنه كان يوسع تذوق كل أصنافها في الجنة... نعم سماع ما وجد منها، لكن خلقها قطعاً لا... فالموسيقى كالشعر لا تنبعث إلا من ذات تتأرجح بين أعصى الآلام وأجمل الآمال و مثل هذه الحالة لا وجود لها في الجنة وقد أصبحت الآلام والآمال بلا جنوى أو معنى.

إذن يقرر النص أن على الصدى أن يسر في وعي المحرم المتزايد تردداً : لثناهم هذا الرأس الناشف قوالي الصوفيين وموإيل العرب ورافا الهنود وأنغام الأفرقة وراز الأمر يكين وسمفونيك الأورويبين ولينتهي الاستعراض بفالسات شتر لوس خاصة تلك التي عنوانها لدانوب الأزرق الجميل.

تعود الطمأنينة لكل آدمية حبلى تكاد تقسم أن الذي بلحاشانها عاد للحياة وأنه... يرقص.

أه ارتفعت أصوات الاحتجاج كما كنت أخشى .

ثمة من يصرخ: يا رجل تدعي النزاهة، لكنك تغتتم كونك صاحب النص لفرض ذوقك وخياراتك على البشرية جمعاء. كل مصائب الوجود للتمتع بخلق وسماع موسيقى يجرمها ديني! كأتني أسمع فلن فوقي يصرخ هو الآخر من قبره: أدين بشدة هذا الخيار فأتنا شخصياً لم أت هذا العلم إلا للرسم؟

إنها فرصة لكل من لم تعجبهم هذه " التخريجة" للتعبير عن بالغ الاحتجاج بكل الطرق المهذبة وغير المهذبة ومنهم من يضحك علي الجميع وهو يصرخ أما أنا فلم أتني هذا العالم إلا لجمع طوابع البريد.

[نعم، نعم، قلنا نعم... اللبنة سينة الصميم وتفضح نخبوية
مقيبة... أضف إلى تلك أنها تتناقض مع محاولة الرؤيا جعل
كل الذوات تؤدي المهمة المقدسة خارج وفوق ثنائيات الجمال
والقيح، الخير والشر، النجاح والفشل، القيم والذي لا قيمة
له... يجب إعادة صياغة هذه اللبنة المركزية... لكن كيف؟]

لنتصور أن الصدى أسر في عمق اللاوعي لأدم وحواء بالمهمة التي يأمرها بالخروج من الجنة لتنفيذها.

مثلا قوله أخرجنا لتأليف السمفونية التاسعة أو لرسم ليلة النجوم أو لجمع طوابع البريد. يديه أن المهمة مضمنة في الأمر وأن هذا الأمر فعل... الفعل الأول أو الفعل الجذر كما أفضل تسميته.

يديه أيضا أن المهمة التي يتضمنها الفعل الأول غير قابلة للتحقيق إلا بسلسلة طويلة ومعقدة من الأفعال الثانوية.

كيف نتعرف على الفعل الجذر الفعل الوحيد القادر على كشف طبيعة المهمة؟ أي مقاييس صارمة تمكننا من فرز جذي لانتشله من بين آلاف الأفعال التي يمكن للأدعي أن يأتيها.

أول مقياس أن يكون متقدم اعلى كل الأفعال الثانوية، سابق لها، مانع ظهورها إن لم يظهر.

المقياس الثاني أن يكون فعلا لا يأتيه إلا الأدعي.

المقياس الثالث أن يكون منطلق سلسلة أهم الأفعال التي يقضي المرتحلون طوال رحلتهم في أدائها مثل أحسن وشعر وعمل وعمر ونمر وفكر وتخيل الخ .
لننطلق من هذا المقياس الأخي.

ما أولى الأفعال التي تأتيها الذات؟ إنها الافاقة ثم انطلاق أفعال الحواس الخمس عندما تبلور من مبهم أصلي لحاسيس لبرد والحز، الجوع والشبع، صوت الأم، رائحتها، طعم الحليب لساخن... كل الأحاسيس والمشاعر التي ستتضح أكثر فأكثر لتصل ذروة الوعي عند الشاعر والفيلسوف والفنان.

تأتي في مرحلة ثانية قائمة أفعالها وهي تسمى وتصنف وتضفي المعنى والوظائف على ما ترصده الحواس الخمس .

أضف الآن أفعال السواعد وهي تبني من أولى الاهرامات البدائية إلى المحطة الدولية الفضائية مرورا بكل كدس المهندسون على مر العصور.

إنه إذن عالم لم تبلوره إلا حواسنا الأدمية، لم يتكسب المعنى إلا بفكرنا وخيالنا، لم تهندسه إلا سواعنا.

إنه عالم ورشة لا يتوقف إعمار السلم ودمار الحرب عن إعادة صنع فضاءه الحسي مثلما لا يتوقف صراع المدارس الفكرية والفنية عن إعادة صنع فضاءه الرمزي والخيالي. إنه عالم من بين ما لا يحصى ولا يعدّ من العوالم، لكنه عالم خاص بالأدمية وإن تجلور وتقاطع في بعض الخصائص مع عالم النحلة والنظفة. إنه عالم ما كان يوجد لولا الأدمية التي أوجدته. أوجد؟!!

هل يكون هذا الفعل هو الفعل - الجذر الذي يبحث عنه النص منذ بدايته ؟ قبل الجزم نهائيا لنقلّب هذا الفعل من كل جوانبه.

ما المعاني التي تسبغه عليه اللغة؟

يقال أُوْجِدَ فلانًا أي أغناه... ويقال أُوْجِدَ فلانًا بَعْدَ ضعف أي قواه... ويقال أُوْجِدَ على الأمر أي أكرهه وألجأه... ويقال أُوْجِدَ الشيء أي جعله يجده ويظفرُ به... ويقال أُوْجِدَ مطلوبه أي أظفره به... ويقال أُوْجِدَ على المعصية أي أكرهه عليها... ويقال أُوْجِدَ الله الشيء أي أنشأه من غير سببٍ مثال.

لمزيد من التدقيق ما الأفعال المرافقة له؟

بسؤال المعاجم اللغوية نجد: أْبَدَعَ، أْبْرَأَ، أَحَدَثَ، أَفْضَى إلى، أُنْتَجَ، اِخْتَرَعَ اِخْتَلَقَ، اسْتَخْدَثَ، اسْتَنْبَطَ، اِكْتَشَفَ، اِخْتَرَعَ، خَلَقَ، سَبَّبَ، سَوَّى، صَوَّرَ، كَوَّنَ، وَكَّلَ.

أي فعل داخل هذه القائمة يستوعب ويحتزل كل ما في المرادفات من تفاصيل ثنوية؟ طبعا فعل خلق.

ما الغرابة أن يغامر آدم بالخروج من راحة العدم وأن يقبل بكل التضحيات والمهمة خلق عالم لم يوجد قبله ولن يوجد بعده؟

يطرح هذا التصور على هندسة الرويا تحدّ كبير.

عندما نقول عن الأدمي أنه يوجد عالما مصنوعا من حواسه وخياله وأفكاره، الاستنتاج المنطقي أن الأدمي خالق.

لكن خلق-إيجاد العوالم من خصائص الآلهة في أغلب الأساطير التي نرتحل داخلها، فهل يكون الأدمي إليها؟

المشكلة أنه لا يمكن للأدمي إيجاد العالم إن لم يوجد هو. لا بد إذن من وجود موجود متقدم عليه-سمه ما شئت-هو الذي أوجده حتى يستطيع إيجاد عالمه هذا. الاستنتاج المنطقي إذن أن الأدمي مخلوق.

أجيب أن نعرّف الأدمي بمفارقة أخرى تضاف لكل ما عرفنا له من مفارقات... أم هل هذه فرصتنا الذهبية للتخلص من ثنائية الخالق والمخلوق التي كتبت الفكر البشري كما لم نكتبه ثنائية أخرى؟

**[هوية الأدمية بيت القصيد في كل
الروى...للهندسة بمنتهى الحذر نظرا لحساسية
الادميين المفردة تجاه هذا الموضوع أيا كان
مستوى طرحه]**

عودة لمنهجية السطو على أساطير الآخرين وإعادة استعمالها في بنائنا النظري.
الضحية في قضية الحال هذه الأسطورة الاغريقية.
يرضى الأدمي الآخر بأن يريك أخيرا وجهه بعد طول الاختفاء وراء أقتعة كل الأدوار
التي أخرج ومثل.
ترفع يدك نافذ الصبر نحو وجهه تزيل عنه القناع.
تفاجأ أن هناك قناعا ثانيا تحت الذي رفعت...فتأثا، فربعا، فخامسا، فسادسا، ف...
تتراكم عند قدميك الأقتعة والوجه المخفي للذات الأخرى يتباعد تباعد الأفق عن الراكض.
آخر قناع بقي على الوجه.
ترفعه مرتعش اليدين خائف القلب.
تنطلق منك صرخة العجب وأنت تكتشف...وجهك أنت.
لا تثبت من الأمر.
ها أنا أرتمي على كل عابري السبيل ألع طبقات الأقتعة التي يختفون وراءها... لأكشف
كل مرة وجهي.
ها هم يتتابعون عليّ الواحد بعد الآخر وفي كل مرة بصرخون بالدهشة وهم يكتشفون دوما
...ووجههم لا غير.
لأجلهم ينقضون على بعضهم البعض. النتيجة دوما نفسها.
هذا التصور للأسطورة الاغريقي حول هويتنا من ثوابت الفكر، صيغ في أكثر من ثقافة
وفي كل العصور.
أجمل إخراج له الذي تجده عند المتصوفين وكبار الشعراء.
"وتخفق في قلبي قلوب كثيرة (بدوي الجبل)
فقد كان شعبا واحدا فتشعبا"
إنه حدس موغل في القدم تثبت العلم صدقه. فالأدمي في روياه مصنوع وفق "وصفة" تحتل
للف صفحة من كتاب يسمى برنامج المورثات.
الاختلاف بين الأفراد جعل مبعثرة هنا وهناك لا تحتل أكثر من صفحة بيئية، أما ال 999
صفحة الباقية فمتشابهة في كل حرف وكل فاصلة.

طبعاً هذه الفوارق البسيطة ليست علامات للتمايز كما يعتقد الأغبياء وإنما علامات للتمييز حتى لا تكون نسخ طبق الأصل لنموذج بيتيم وحتى يكون لنا دوماً مجال للتصرف الحر. انتبه هنا للتغيير الجذري أو لما يسميه البعض "القطيعة الأبيستولوجية" مع تصورات الروى غير المتقنة للذات.

جعلت هذه التصورات من كل ذات جزيرة لا ترتبط مع الذات الأخرى إلا بجسور، مرفوعة أغلب الوقت.

في التصور العلمي الجديد بالتركيز على تشابه ال 999 صفحة بدلاً من تضخيم الاختلافات التي لا تحتل أكثر من صفحة بيتيم، يجب أن ترى نفسك في تلك اليهودي بذواته، في ذلك الراهب البوذي بملاءته الصفراء، في ذلك "المتوحش" المعاري بجهازه التناسلي في غده الأنيق... في كل أدمي مهما تباعد شكله ومظهره عنك.

أنا، أنت، هو، هي، نحن... كلنا نفس الكائن وإن بوجوه مختلفة... يا له من تحول جذري حتى بالنسبة لكل العقائد التي تدعو لاعتبار الآخر في أحسن الأحوال... أخاً!
يبقى أن القول بأن آخر قناع ترفعه عن وجه الآخر هو وجهك أنت لا ينهي الجدل وإنما يدفعه نحو مستوى أعمق.

ماذا لو كان كل هذا الوجه هو نفسه قناع؟ يصبح السؤال على من أو ماذا هو موضوع؟ يجب مواصلة جذب خيط كبة الغزل للوصول لهوية الأدمي المخفية.

الضحية الثانية التي سيتم السطو عليها دون عقدة ذنب أسطورة فيشنو-الاله الثالث للديانة الهندوسية.

تقول الأسطورة أن هذا الاله قَبِلَ بلنزل إلى عالمنا الحسي متجسداً في سمكة، في سلحفاة، في خنزير بري، في حيوان نصفه رجل ونصفه أسد، في قزم، في مقاتل، في بطل ملحمة اسمه رام، في نبي اسمه بوذا وحتى في إله اسمه كريشنا... وهو مبرمج لتجسدنا عاشر عند نهاية العالم.

المفهوم المركزي في هذه الأسطورة هو الذي يشار إليه بكلمة الأفاتار **Avatar**. تُحيل الكلمة في اللغة السنسكريتية أولاً إلى عملية تجسد الخالق في المخلوق وثانياً إلى ما تتكلفه العملية من صعوبة ووجع لأنه ليس من السهل أن يحشر الكامل نفسه في الناقص، للأ محدود في المحدود، الأزلي في الفاني... مثلما ليس من السهل بالنسبة إلى المظوق وهو النقص أن يحتوي الكامل، وهو المحدود أن يحتوي اللأ محدود وهو الفاني أن يحتوي الأزلي.

أهم الاستنتاجات التي يفرضها التصور: كل الكائنات التي يتجسد فيها فيشنو أقارب تتقاسم نفس الهوية كما يتقاسم الأطفال نفس الهوية وهم أطفال نفس الأب والأم... كل الكائنات

التي يتجسد فيها وسيجسد فيها فيشنو متساوية القداسة بما أنها أغلفة متباينة لنفس المحتوى الالهي.

إن لم يكن الرجل أمام محطة يومباي بيستهزئ بي وهو يضم راحتيه يسلم علي كأنه يصلي أمامي. هل كان يعرف ما كنتُ أجعله أو كان يتذكر ما أتأساه باستمرار؟
لتواصل اعتصار كل ما يمكن اعتصاره من هذا المفهوم.
إذا كان الأدمي أفتار من بين أفتارات فيشنو، لماذا لا يكون فيشنو هو نفسه أفتار لشيء آخر؟

عودة لما تعلمناه من فيلسوف اسمه دولوز بخصوص المفاهيم وكيف أنها تجسد لأفكار بالغة العمق والتعقيد تُختصر في رموز تُوفّر على العقول البسيطة مصاعب التنظير. نموذجاً عزرائيل كمفهوم مجسد للموت، إبليس كمفهوم مجسد للشّر، افروديت كمفهوم مجسد للجمال، الخ.

ما المفهوم الذي يجسده فيشنو؟

أي قوّة قادرة على أن تسكن وان تتشكل وان تدوم ولو لزم من محدد في كائنات جدّ متباينة شكلاً وحجماً مثل الأدمي والسمة والسلفحة والخزير البري وأن تتوزع في كل هذه الأشكال بنمائها وكمالها.

الإجابة الوحيدة: الحياة.

هي نفسها وراء غلاف كل الأجساد.

هي نفسها في الجرثومة والفيل، في الورد وفي الزيتون،

هي لا تقتر على أحد ولا تميّزه بشيء وإن اختارت في هذا وفي ذلك تجربة هذه الاستراتيجية أو تلك.

هي لا تتوزع على كل الكائنات الحية كما تتوزع تركبة محدودة على كم هائل من الورثة. هي التركيبة التي يقسمها كل الورثة بالعدل والقسطاس فتكون ولو قسّمت ملايين المرات كاملة من نصيب كل وريث.

هي مشروع متواصل حيث ستتجسد في أشكال لا قبل لنا بتصورها.

لنستجمع أفكارنا. بدهة الأدمي شكل من الأشكال التي تتخذها الحياة لأنه يحتل جزءاً محددًا من الفضاء وله

" جغرافيا" ترسمها تركيبية جسده وله حدود هي التي تفصل بينه وبين الأجساد الأخرى. هو شكل متميز لا فقط عن الأشكال الأخرى التي تتجسد فيها هذه الحياة مثل السلفحة والخزير وإنما حتى عن الأشكال المشابهة لبني جنسه وذلك عبر تفاصيل داخل التفاصيل مثل الاختلاف في اللون والقامة الخ.

الأدمي هو شكل في حالة معينة هي الحياة. عن هذه الحالة الأساسية تنفرع كل الحالات الثانوية مثل الحزن والفرح، الألم والمتعة، الصحة والمرض الخ... وكلها حالات لن نتوقف إلا بالموت أي بنهاية الحالة الأساسية.

الخاصية الأخيرة أن الأدمي لا يحتل فقط جزءا ضئيلا من الفضاء وإنما أيضا جزءا ضئيلا من الزمان. بمقياس زمن الكون نحن مثل شرارة تشتعل وتطفئ في أقل من ثانية وماضي ومستقبل الحريق الذي وأدها بحسب بالآلاف الملايين من السنين.

هذا ما يسمح لنا إلى حد الآن بالقول إن الأدمي هو قيل كل شيء شكل حالة - لحظة من فيشنو بلغة الأسطورة الدينية ومن الحياة بلغة الأسطورة العلمانية.

لتتابع لعبة خلع الأتعة منطلقين من فكرة أن الحياة نفسها ظاهرة تخفي وراءها قوة ما. ما هذه القوة التي تخلق الحياة التي تخلق بدورها كل الكائنات ومن بينها الأدمي.

المشكلة أنه لم يعد لنا ما نكشف والفكر في مواجهة المجهول المطلق.

"الاسم الذي نستطيع نطقه ليس الاسم الخالد (لا وتسو)

أصل السماء والأرض واللاموجود

وهذا لا اسم له"

ورغم التحذير نرى كبير فلاسفة الشعر أو كبير شعراء الفلسفة هو نفسه يصف الكلمات لتصور ما يقول إنه لا يمكن لا تسميه ولا وصفه:

"مظلم وبلا قاع

سليق للزمان والمكان

فوق وخارج كل ولم يكن"

إنها حقًا لمعضلة. من جهة ممنوع التسمية حتى لا تسقط في أوهام وجود مسمى خارج المسمي، من جهة أخرى لا بد من اسم إذا أردنا قصة لا تكون إلا يبطل محدد الهوية.

كل ما يمكننا قوله بخصوص هذا المجهول المطلق ان اللغة عاجزة عن اعطاءه اسما لان اللغة لا تسمي الا ما نرصد بحواسنا المحدودة وبفكرنا المتحور طول الوقت... ان المخيلة لا تذهب بعيدا في تصوره وهي لا تفعل عبر الاساطير سوى اضافة صفات مضخمة لكنها صفات البشر... ان العلم يمنع من تحميله نوايا واهداف هي دوما من نوايا واهداف البشر.

المزج الأمثل هو الذي وجده الخوارزمي أي تسمية المجهول المطلق الذي لا بد من وجوده ليكون للحساب معنى وحلا: "الشيء".

[واجب كل رؤيا متقنة الصنع ليس إمطة اللثام عن الاسرار

وإنما تكثيف غرابتها...]

لم نسّمه "الشيء" إلا لأنه مفهوم لا قبل للعقل بتحديدده ولا للخيال بتصوره. هو مثل أفق لا يدركه الماشي أو كمنطقة عمياء لا قدرة لأي نور على اضاءتها.

هذا لا يمنع من مواصلة الحديث عنه والبحث فيه كما يفعل الفيزيائي وهو يرسد تحرك الكواكب والنزلات بدقة متصاعدة دون فكرة واضحة نهائية عن طبيعة القوى الحقيقية التي وراءها.

أي ظاهرة تختزل كل عيقرية القوة المجهولة التي سميناها "الشيء" قدر الحياة. هل تكون هي نفسها شكلا من أشكال "الشيء"، حالة من حالاته ولحظة من زمانه الطويل؟ ثمة أكثر من حجة لاعتماد الفكرة لبنة أساسية من لبنات الرويا و الذاكرة هي الخيط الرفيع الذي سيقودنا في دهاليز أصعب المفاهيم تركيبيا.

رأينا أن الذات ذاكرتها، إن تبخرت الذاكرة تبخرت الذات. استعملنا لوصفها صورة المنجم وقلنا أنها طبقت ، أعلاها طبقة " الأنا دون سواء " نليها كلما توغلنا عميقا في الماضي طبقة ذاكرة الآباء والأجداد وطبقة ذاكرة الجنس البشري ثم طبقة ذاكرة الحياة .

للتوضيح. طبقات الذاكرة ليست مثل طبقات الجيولوجيا التي تتراكم فوق بعضها البعض لا تضيف إلا النقل للنقل. على عكسها هي مرتبطة ببعضها أوثق الارتباط في تفاعل مستمر تحكما وتوجيها واثراء. على خطوط التماس بينها تحدث نقلات نوعية ما زالت عصية على الفهم. ثمة الانتقال النوعي الذي يجعل منا كائنات تنسج قصتها الفردية من قصة البشرية جمعاء. ثمة الانتقال النوعي الذي يجعل منا كائنات واعية تحركها خلايا وانسجة وأعضاء لا واعية. أخيرا لا أخرا ثمة معجزة الانتقال النوعي الذي يجعل منا كائنات حية لبناتها الذرات مادة لا حياة فيها.

هذا ما يحملنا لمواجهة السؤال التالي ، إذا كانت ذاكرة الأنا دون سواء تغرس جذورها في ذاكرة الآباء والجداد وهذه الأخيرة تغرس جذورها في ذاكرة الجنس البشري وذاكرة الجنس البشري تغرس جذورها في ذاكرة الحياة ، ففي ماذا تغرس ذاكرة الحياة جذورها ؟

من أين تبرز هذه الحياة ؟ أليس من تجمع وتعاضد جزئيات عضوية هي نفسها مشكّلة من ذرات تحركها قوانين ما زالت تستكشف بمنتهى الصعوبة من قبل العقل الجماعي ؟ كأن هناك مرحلة تجريبية بالغة الطول لإحكام اختيار اللبنة التي ستبني الجزئيات التي ستبني الخلايا التي ستبني الأنسجة التي ستبني الأعضاء التي ستبني الأجساد التي ستبني هذه الأجناس الحية أو تلك.

بديهي أنه لو لم يكن لهذه اللبنة الأولى ذاكرة تحفظ بها وجودها وتماسكها عبر الزمان وكل ما تعلمت من بناء الأجساد والأجناس لما وجدت الحياة ولما وجدت الذوات ولما وجدت العوالم التي تبلورها.

مفطحا لا بدّ للحياة (إن أن تغرس جذورها في ذاكرة تسع كل تجارب الموجود أكان من الحيّ أو من الجماد ومن أشكال حالات أخرى لا قبل لنا بتصورها.

هذه الذاكرة الجبارة التي تشكل آخر طبقات منجمنا ، أو قاع البئر الذي غصنا فيه أو الجزء الغارق من جبل الجليد ، هي ذاكرة ما نسميه "الشيء". إذا قبلنا بهذا الاستنتاج لا حرج علينا أن نقول أن الحياة شكل حالة- لحظة من "الشيء"؟

لتتابع إلى أين يمكن أن يقودنا مثل هذا التفكير.
إذا كانت الحياة شكلا -حالة- لحظة من "الشيء"... وإذا كان كل كائن حي شكلا -حالة- لحظة من الحياة، أليس من حقا أن نعتبر أن الأدمي هو الآخر شكل-حالة - لحظة من "الشيء" (بنفس الطريقة التي نعتبر فيها أبعد ورقة على أبعد غصن فوق أعلى جذع شكل -حالة- لحظة من الشجرة) وأنه ليس إلا هو في بعض من تمظهراته وبعض من تجاربه في خلق ما لا يحصى ولا يعدّ من العوالم ؟

*أيها البشر الأتقياء التائهون في هذا العالم (جلال الدين الرومي)
لم هذا التيه من أجل معشوق واحد
ما تبحثون عنه في هذا العالم
ابحثوا في داخلكم فما أتم سوى تلك المعشوق*

[الآن المعالجة المتأتمية لأصعب اللبّات صقلا]

طيب ، لكن ماذا يريد "الشيء" من خلق -إيجاد عالما الأدمي؟ وقبل الجواب يجب أن نتساءل عن إمكانية الردّ على سؤال كهذا . من نحن حتى نقرر "الشيء" ماذا يريد ولا يريد ؟ متى كان للقطرة معرفة كيف هو المحيط ولماذا هو موجود ؟

نعم كل هذا صحيح لكن لننتكّر أن الأدمي في رؤيتنا شكل -حالة- لحظة من "الشيء" مما يعني أننا نحمل جميعا الردّ داخلنا لكن التبدّل هو الذي يحجبه عنا . بالعودة إلى تفحص ما عشت من تجارب يحضرني أنني لم أتكلف جهد الكتابة بحثاً عن الحقيقة أو الشهرة أو الخلود عبر الحرف، كما أو هموني وأوهمت نفسي زما طويلا، إنما للكتابة نفسها لا غير .

لننتذكر كم هدفا ركضنا وراءه ليتضح لاحقا أنه كان طعما وضغناه لأنفسنا أو وضعه لنا الآخرون والمهم طيفُ الأحاسيس والمشاعر التي نعصرها من الجري وراءه .

ألا نحقق هدفا تعبنا كثيرا للوصوله إلا ونكتشف أن الطريق هو الذي كان يهتما؟ أ لا نجعل من كل نقطة وصول، ولو كانت قمة القسم، مُنطلق طريق جديد؟
كم من أهداف جربنا وراءها نأخذن لعدم تحقيقها والحال أننا نحقق أعظم هدف ونحن نبلور العالم كل لحظة... بكل تلقائية... بكل بساطة... بكل سهولة!

لنتشجع إذن ونعيد طرح السؤال الفخم الضخم لا يرهبنا أنه أكبر تحدي ولجهه وسيلوجه العقل البشري: ما معنى وجود هذا العالم وما هدف "الشيء" من كل هذه العوالم التي لا يفك عن خلقها.

توضيح ضروري عن الهدف والمعنى والمفهومان جدّ متقاربان.
لا أحد يؤرّقه معنى وجود فرشاة الأسنان لأن الهدف من وجودها واضح: غسل أسناننا حتى لا تصاب بالثسوس. هنا يفرض الهدف المعنى ويستمد المعنى من الهدف معناه. الخيط الرفيع الرابط بين المفهومين نفع فرشاة الأسنان للادمي. لكننا لن نذهب بعيدا برابط النفع إذا أردنا إقحامه في الموضوع الذي يشغل بالنا.
إن قلت إن هدف وجودي أن أكون نافعاً للشعب، ما نفع الشعب؟ إن كان هدف الشعب نفع الأمة، ما نفع الأمة؟ إن كان هدف الأمة نفعها الإنسانية ما نفع الإنسانية؟ تحسين العالم؟ ما نفع العالم؟ نفعه لإله ما؟ ما نفع الإله؟

بداهة لا يمكن ربط معنى خلق العوالم بشيء مثل المنفعة.
لمزيد من توضيح عبثية الفكرة. عندما أقول إن هدفي في الحياة أن أخدم قضايا الإنسانية فلاأنتي مؤمن بأن بقاء الإنسانية أهم من بقائي. لكن هل لخلق -إيجاد العالم هدف أعظم يكون في خدمته؟ طبعاً لا إذ هو الحالة الأسمى التي ستعطي لكل الأهداف لثانوية وجودها ومعناها.

"الشيء" إذن أكبر من أن يأتي فعلاً يكون نافعاً لشيء أو أحد .
كما إنه من العبث محاولة حصره في اسم وهو كل الأسماء، في كائن وهو كل الكائنات، في خصائص وهو كل الخصائص، في قصة وهو كل القصص... من العبث البحث له عن سبب يفسر به وجوده وهو أصل كل الأسباب... عن هدف له وهو كل الأهداف... بعبارة أخرى لا هدف " للشيء " وهو يخلق ويبدع ما يمر بخياله من عوالم غير خلق وابداع ما يمر بخياله من عوالم.

[يمكن الآن إتمام هندسة لبنية الموت ليستقيم أخيراً هيكل النتائية]

كيف ستواجه الرؤيا من جهة رغبة الذات العارمة في ألا تتوقف الرحلة أبداً ومن جهة قبول ضرورة نهايتها إن أمكن بطبيعية خاطر؟
بالاحتكام للتفكير العقلاني لا لشطحات خيال يهينا بكل سخاء كاذب كل ما نطلب وزيادة. أليست أقصى وأرقى أنواع المتعة راحة البال أي الحالة التي تحررت فيها الذات من عبء وعبث الجري وراء الشهوات لا تبالي بما تحقق منها أو لم يتحقق.
مثل هذه الحالة لا تعاش إلا إبان نوم هنيء لا تتخلله الكوابيس... أو عندما يكون النوم بلا يقظة ترجعنا لنفس المهازل والمآسي. إنها الحالة التي يسميها الفلاسفة في أساطيرهم النخبوية العدم والتي لا مدخل لها إلا الموت.
مفارقة أولية لتصور هذا العدم: اعتبار شبيهه في الفضاء الحسي... هذا الذي نسميه الفراغ. ما يخبرنا به أهل العلم في فيزياء الكم ان الفراغ ليس... فارغاً.

حقًا هو الفضاء الذي تنتشر فيه كل مكونات الكون سواء التي ما زالت قائمة الذات أو التي فككتها قوى الدمار. اخرج منه بقدره الخيال والفكر كل الموجود فيه أكان بحجم المجرات أو بحجم الذرات.

أبقي في "الوعاء" شيء؟

نعم، ثمة دواما في أعماقه مكونات -عوامل- قوى مجهولة بالغة الصغر، بالغة الرهافة، بالغة التعقيد تتحدى كل محاولة التخلص منها. هي ليست بقية بقايا البقايا وإنما أمور أخرى تتحدى طرق فهمنا وتصورنا للواقع.

هذا الفراغ غير الفراغ -دوما حسب هؤلاء الرواة- هو محضنة القوى التي تخلق باستمرار ما سيطفو على السطح والذي سيلتقطه وعينا كجملته الكيانات والكانات التي تشكل الواقع. قياسا على تصوراتهم لنعتر أن العدم نهاية الطريق أين سنفكك لا فقط لجسنادنا وإنما ذاكرتنا التي جمعت الذات فيها كل تجربتها.

لكنه أيضا حاضنة القوى التي تعيد تركيب ما تفكك وإن في أشكال جديدة لا تكف عن استكشاف كل إمكانيات الخلق والإبداع. بعبارة أخرى هذا الذي ينتهي فيه كل وجود هو الذي ينطلق منه أي وجود.

ها قد بدأت تنتظم أفكارنا حول كيفية تلبية الحاجتين المتناقضتين

لنخصص في بيتنا الروحي جناحا خاصا اسمه العدم للذات المرهقة المجموعة وعلى بابه توضع لافتة تطمئن النفوس القلقة الخائفة من تجدد المحنة والامتحان. "لا استدعاء إلى الخدمة من جديد... أي في شكك الماضي وفي القصة التي عشت". في هذا الجناح الخاص تبلغ راحة البال قصوتها ولا تحديد لمهلة متعة المتع.

في جناح موازي أين الخلود ليس ثبات المخلوق وإنما ثبات الخلق أي تتجدد الذات في ألف شكل وشكل لمغامرات لا تعرف لها بداية أو نهاية.

كما تعسفنا على علماء فيزياء الكم باستعمل بعض مفاهيمهم لنستغلها في بناء مفاهيمنا سنستعسف الآن على علماء النبات لنستنتج من اكتشافاتهم ما لا يجروون عليه من أفكار، حقا هي من خارج ميدانهم.

مثال الشجرة مرة أخرى طريقة أخرى لتوضيح فكرة ليست سهلة الشرح للكاتب أو سهلة الفهم للقارئ.

اعتبر الورقة التي تدبّل وتنفصل عن الشجرة. هي مجرد وعاء مؤقت لأهم ما فيها، أي العصارة التي كانت تُضمن لها البقاء حية ملتصقة بالغصن متواصلة مع الجذع والجذور وبقية الأوراق.

لكن هذه العصارة واحدة في الجذور والجذع، في الأغصان وفي كل الأوراق.

هي لا تنتهي بسقوط هذه الورقة أو تلك، بقطع هذا الغصن أو ذاك بما أنها تواصل فعلها في كل غصن وفي كل ورقة.

بنفس الكيفية اعتبر الذات كما لو كانت هذه الورقة. هي الغلاف الجسدي الذي يفصله الموت عن "جذع" الجنس البشري كما يفصل الخريف ورقة الشجرة عن الغصن والجذع والجذور. لكنها أيضا العصرة. هذه العصرة هي الحياة، بما أن الذات تحتوي على كل العلم الهائل الذي راكمته الحياة طيلة ملايين السنين الهائلة. إنها نفس العصرة الموجودة في كل الذوات الأدمية وغير الأدمية.

كورقة الخريف، تفقد الذات بالموت جسدها، لكن الحياة التي شكلت عصارتها لا تموت وإنما تواصل ضحْ طاققتها فيما لا يحصى ولا يعد من الذوات الأخرى.

مما يعني أن للذات جزء فاني... وأن لها جزء قديم قدم الحياة وأمله فسحة من الزمان لا أحد يعرف مداها.

لقاتل إن يقول، لكن الذات كائن فريدٌ متميز يُضَع الموتُ طرفته! طيب، لكن ما الذي كانت الحياة ستجني لو حافظت على نفس الجسد ونفس المخزون من تجاربه؟ بل ما الذي كنت ستجني أنت من مثل هذا الخيار سوى قرف الخلود.

أليس التجديد والتغيير أولى شروط وضروريات حياة جديدة بلن تُعاش؟

انظر الآن كيف تحقق الرؤيا دون التعسف على منطقي-كل ما تريده الذات: القيلولة الأبدية للجزء المرهق -أي الورقة التي تسقط عند قدوم الخريف- وقد جفت فيها العصرة... والتجدد المتواصل عبر كل الأوراق التي تنبت باستمرار.

هنا أشعر بك تهزُّ الكتفين ولسان الحال يقول يا رجل تدعي أن الرؤيا ستخلصني من خوف الموت وأنت تميّتي ما لا يحصى ولا يعد من المرات كلن موتة واحدة لا تكفي.

نعم، لكن أتعي بكل ما تريح في رؤياي وأنت مثل نص فرغ من كتابة نفسه ما أن توضع نقطة الختام وإلا وهي العودة إلى السطر لقصة جديدة وهكذا إلى انتهاء "الشيء" من كامل تجربته الأدمية.

آخر لبنة في الرؤيا إذن خروج الذات من راحة العنم لتجربة جديدة في فن خلق العوالم... ثم العودة عبر الموت للراحة كالتي تأتينا بالنوم بعد يوم حافل... ثم افقتها في شكل جديد لتجربة أخرى للوجود... وهكذا إلى تحوّل التجربة الأدمية برمتها إلى ملحمت أخرى لا قدرة الآن لخيال على تخيلها.

أليس هذا بالضبط ما عبّر عنه حدس الشاعر!

"أنا في الزمان كموجة في زاهر (إيليا أبو ماضي)

أنا فيه إن يزيد وإن لم يزيد

مهما تلاطم فهو ليس بمغرقي

أو مخرجي منه ولا بمبئدي"

**

وقال لهم الصدى أديتم المهمة على أحسن وجه، لذلك جعلت لكم النوم لترتاحوا من مصاعبها والموت لتتجددوا استعدادا لمهمة أصعب.

لا أحد يتذكر كيف كانت مشاعره قبل أن يلفظه الرحم ولا أحد أبقي لنا أبلغ وصف عن لحظات غرفة الموت.

هكذا حكم على الرحلة أن تبدأ بالغموض وأن تنتهي به . ندخل العالم كمن يبرز من خلف ضباب كثيف و نخرج منه كمن يتوغل في ضباب أكثر كثافة.

لتعويض البياض في آخر صفحة قصة كل الذين حجوا قبلنا لهذا العالم، يقدم النص باسمهم جميعا هذه الخاتمة لرحلتهم التي لم يتسنى لهم الوقت لكتابتها. ألا نعيش كلنا نفس الرحلة من بدايتها إلى نهايتها لا يفرق بين ما نعيش إلى آخر لحظة إلا التفاصيل داخل التفاصيل.

إذن.

يتساعد من مكبر الصوت همس رقيق: الرجاء من مسفري قاعة الرحيل رقم خمسة التقدم حاليًا إلى بوابة المغادرة.

يتوجه المغادرون إلى الباب الدوار وعلى الوجوه قلق لا ينجحون في إخفائه.

بعضهم يجرون حقائب مثقلة كأنهم يريدون تهريبها إلى العالم الآخر. عبثًا، سيصادرها موظفون لا يقبلون رشوة لضرورة بقاء الحدود مغلقة بين العوالم وإلا ضاعت طرافة كل عالم.

من مقعدي بيهو انتظر المطار المترامي الأطراف أتابع الذين وصل طريقهم مثلي إلى آخر مقرفاته. كم أود أن أسألهم واحدا واحدا: هل أنت مؤمنٌ يرتعش من الخوف جراء حساباتك غير المضبوطة مع السلطات التي تنتظرك وراء الباب، أم مُلحدٌ مُطمئنٌ لعودته لأحضان العدم، أم من أنصار الرؤيا تنتظر بفراغ الصبر الراحة الأبدية والتجدد الأزلي؟ يعود الصوت الناعم إلى ترديد نفس الجملة الركيكة، هذه المرة بتخصيص يبدو مقصودا وببنبرة تبخرت منها محاولة الإغراء: الرجاء الآن من السيد غريب التقدّم لبوابة رحيل القاعة رقم خمسة.

السيد من؟ لا علم لي بشخص يحمل هذا الاسم. أو أصل قراءة الجريدة ورشف القهوة أفتعل اللامبالاة محاولا التركيز على آخر عملية تنظيم ملفات لم تصلها بعد حمى التيوبوب والتنظيم.

يتجدد النداء بحدة تنم عن توتر عصبي: المطلوب من المدعو غريب التقدّم إلى بوابة رحيل القاعة رقم خمسة، الآن وعلى وجه السرعة ودون المزيد من إضاعة وقتنا.

ثرى ما سبب عدم حضور المطلوب؟ ربّما لا يزال يثرثر في صالون حلاقة المطار، أو هو يتسوّق في المحلات التجارية المعفاة من الجمارك، أو أن المتيه لم يبرّ في غرفة النزول، أو أنه رنّ فهشمه بقيضة يد نافذة الصبر. ربما لم يُكمل بحثه ولم ينته من تدبيح تقريره

وبالتالي قرّر من تلقاء نفسه تمديد رحلته. برّيك أيُّ تقرير جيّد يمكنك كتابته وهذا عالمٌ تعبته وأنت كمن يزور مدينةً سياحيةً مترامية الأطراف بين طائرتين... أو كقاعة سينما تدخلها لتشاهد فيلمًا بدأ قبل وصولك بكثير ويُطلب منا الخروج قبل نهايته حتى قبل أن نجد الوقت الكافي لاكتشاف أحسن مقعد ووضع للجوس.

على فكرة عزيزي القارئ، عزيزتي القارئة، وقبل أن يصل بنا الطريق إلى لحظة الوداع الأخير، هلاً أشبعت فضولي بالرد على سؤال تابعتني طوال الحياة دون أن أتجاسر على إلقائه يوماً على أحد: هكذا كانت رحلتي، فهل تشبه رحلتك؟ هذه قصتي، هل وجدت نفسك فيها وهل هي حقاً كما أردت. في التفاصيل سيرة ذاتي وفي الثوابت سيرة كل ذات؟ يقطع عليّ تسلسل الأفكار صوت لم يعد ناعماً ولا حتى أنثويًا: يا غريب إن لم تتقدم لبوابة رحيل القاعة رقم خمسة حالاً فسُترى ماذا سنفعل بك.

تفتّ فؤادك الأيام قفًا وتتحث جسمك الساعات نحًا (الالبيري)

وتدعوك المنون دعاء صدق ألا يا صاح أنت من أريد أننا

كل هذه الإنذارات بلا تأثير على صاحبكم، حتى والنداء يصبح صراخًا هستيريًا: آخر إنذار...

متى كان الأول؟ وصول سنوات الخريف بأسرع مما كنتُ أتوقع؟ ظهور ذلك الورم اللعين؟ صحيح أنني نجحت في علاج أغلب أمراضني بالتجاهل، لكن ذلك النوع البليد من الأمراض لم يتجر لمجرد اعلامه أنني غير معنيّ بأعراضه المزعجة.

يصرخ الآن في المصحح نكّر يبدو أنه أخذ الملفت على عاتقه: تعال يا روح أمك، طلعت روحنا، الله يطّلع روحك.

يضيف وكأنه لا يتوجه لأحد بالخصوص: من يصدّق أن هذا البليد صدّع الرؤوس بالشكوى من العالم ولم يفوت فرصة لشتمه وها هو الآن يماطل ويسوّف ويؤخّر لحظة الرحيل عنه. كم مرّة يجب أن أرد لهم أنني بحاجة إلى وقت أطول للتأكد من صلاحية الرؤيا، ربما لإعادة بنائها على دعائم مختلفة، فييزون الأكتاف باستخفاف، بل ويصرخون في مكيز الصوت بقلة أدب: تعال يا روح أمك طلعت روحنا. مهما صرخوا لن أتحرك من هذه الأريكة لاثيرة. ما هذه العجلة؟ أنا شخصياً مع العجلة في كل شيء لكن ليس الآن وفي مثل هذا الموضوع. نعم مازال لي كثيرٌ من الأسئلة أود طرحها على الأدميين وقد حافظ جلهم على أسرار مكونة لم أتمكن من فهمها ربما لأنني لم أحبهم بما فيه الكفاية.

ينفجر الموظف المجهول بضحكة فيها من المرح ما فيها من الشماتة مخاطباً من يسمع: أنه من قوم حاول نبيهم أن يعلمهم أنه لا أكل إلا على جوع ولا أكل بعد الشبع، لكن صاحبنا أكل كثيراً ولم يشبع إلى الآن. هو الآن مثلهم كلهم متمسكاً بآتيه وأظافره بخشب الطاولة. حقاً أغادر الولاية جاتعاً؟ كلاً، نلتُ من الحياة كلُّ ما تقدر عليه من عطاء.

"طلبتُ القوة من الله (شاعر مجهول على الانترنت)

فأعطاني الصعوبات لأقوى

طلبتُ العلم
فأعطاني مشاكلن للحل
طلبت الرخاء
فأعطاني عضلات للعمل
طلبتُ قدرة الطيران
فأعطاني عَقبَات تُسَلِّقها
طلبت الحب فأعطاني كائنات بحاجة إلى حبي
طلبت امتيازات
فأعطاني مواهب

لم أحصل على أي شيء مما طلبت

لكنني تحسّلت على كل ما أحتاج " .

إن هذا الموظف الدعيّ يخطئ في حقي كما أخطأ في حقي عدد كبير من البشر وكما أخطأت في حقّ عدد أكبر.

يبقى أن الرحلة في هذا العلم وصلت لآخر تقاطعات الطريق ولا بدّ من الإسراع باتمام وصيبي ، خاصة التأكّد من خلّوها من الأغلاط النحوية التي تلاحقني في كل النصوص . وصيّة؟ يا مسكين هل نسيت كم من مواعظ ذهبت أدراج الرياح والنتيجة حالة العالم الذي تغادر!

يتواصل الشّد والجذب داخلي حتّى في هذه اللحظة كما كان الأمر دوماً طيلة الحياة .

ماذا تعلمت أنا نفسي لأدعيّ تعليم من لم تعلمه الرحلة أهمّ ما يجب ان يعلم؟

طبعاً ن العالم مُغامرة لم تقتر بعُد مسازها ومرقأها لا مُعطي حُذنت له خصائص ومهام منذ الأزل...أنه لا قدرة ليين، لفلسفة، لعلم، على استفاد ثرائه الفاحش وحراكه المتفجر...أنه يجب استكشاف ما تيسر منه، القلب مفتوح على مصراعيه وكذلك العقل...أن أكبر خطر يتهددنا فيه تبيك مزمن يُطفي فيه جذوة الاعجاب والعجب...أن الرحلة ليست قافلة تجارة تنتهي بكشف الحسابات: قائمة الأرباح على صمود ، على العمود المقابل قائمة الخسائر... أن الفشل ليس إلاّ نتج في تحقيق أحلامك وإنما ان تتخلى عنها...أنه لا النجاح هدف الرحلة ولا أي فشل مهما كان فشلها... أن النجاح والفشل حالتان -أدتان- ففرصتان لاستكشاف جزء قارّ وضروري من طيف تجربة الوجود لا أكثر من هنا ولا أقلّ..

صراخ متفاهم الحدة وبدائية تجمّع حولي. من هذا الغبي المنتصب أملي؟ الغبي المعني بلشنتيمه، كائن من هيكل عظمي يحمل منجلا يربط به على كتفي: يا الله، أمامي يا فخامة الحاج الدكتور الأستاذ الرئيس ولا داعي لإجبارنا على استعمل القوة .

تقول صارخاً أنت الآخر: ألم نقل إن الموت ككائن بشكل هيكل عظمي أو ملاك خبيث النوايا، ليئة مشفوقة من بدلية متداعية سبية الهندسة... وتعود إلى الحديث عنه كالآخرين. كيف تريدي أن أخذك على محمل الجد؟

ما لكم كلكم ضدي هذا اليوم؟ وعلى كل حال متى كنت متوافقا دوما مع آرائي حتى أطلب الآن بشيء كهذا؟

هنا أسلط عليك نظرة أتكلف فيها كل الممكن من البرودة عليها بتثير فيك قشعريرة الرعب: اسمع يا هذا، إن واصلت إزعاجي سأهمس في أذن عزرائيل أنك تشتمه في غيابه، أنك تردد في محافظتك أنه إن تجاسر على المثول بين يديك فستطرده شر طرده تركله في مؤخرته العظمية. آنذاك تدبر أمرك معه وحاول تكذيبني إن ترك لك الوقت. الثابت أن عزرائيلهم هذا مصرّ على ألا يهتم إلا بي وأنا وكان له معي ثار شخصي قديم. روايتن لما حدث بني وبينه في تلك اللحظة المفصلية.

[الأولى التي يجب أن يكذبها تلامنتي باستنكار مبالغ فيه] أنني نهضت من مقعدي خائفا مرتبكا، أنني أدركت البصر باحسا عن مهرب، أن ملاك الموت انتبه لمخططاتي البائسة، أنه رمى بيده على عنقي أخذا بخناق، أنني أفلت منه بحركة بارعة حاشرا جسمي تحت الأريكة بسرعة أدهشته، أنه بدأ في إطلاق الشتائم البذيئة صارخا أنه مل هذا العمل وسيطلب من يافيه تغيير وظيفته، أنه صرخ وهو يجذبني من تحت الأريكة صارخا أه يا ظهري، أنه استعان بكل مضيفات خطوط الآخرة الجوية، أنني كنت أصبح طول الوقت: النظارات، النظارات، أمي امرأة فقيرة ستعلق باب غرفتها لتخفي بكاء الغيظ والقهر، أنني وقد جروني جزا من تحت الأريكة ففرت على ظهر عزرائيل حيث لا يستطيع مسك خناقني وأنا الممسك بخنقه، أن اللعين اكتشف الحل فركض بي نحو الباب الدوار وأني بقيت أحمق في كل اتجاه بكيفية تثير الازدراء، إلى أن رماني وراء البلب وهو ينفض عن ظهره بقليا غباري مستعيذا بالله من هذا الرهط من البشر.

[الثانية التي يجب أن ينشرها تلامنتي، ليس شغلهم مبالغاتها الكثيرة] أنني نهضت من مقعدي منتفسا الصعداء وقد استطعت إكمال كتابة الوصية، مُصافحا عزرائيل بلا مبالاة غير متعلقة، أنني دعوتُه إلى المشي أمامي فقل بل تفضل فأنت المدعو الشرفي، فقفصلت قاصدا الباب الدوار بمشيتي العسكرية، أن المسكين ركض ورائي غير مُصدّق أنني لم أعصه وهو الذي صدّق مثل الكثيرين-كلّ الإشاعت عني، أنني غافلتُه لأصق على باب الرحيل خلاصة الرؤيا قبل أن أحشر جسمي في الباب الدوار مديرا ظهري لما مضى بلا حسرة فاتحا ذراعِي لما سيأتي بلا وجل.

يتوقّف الطبيب عن إنعاش عبثي محققا بانتهاء مغلجِي في العجوز. هل داهمته أيبك لشاعر فيلسوف أعمى، عن الحياة كرحلة تنتهي عند جسر أن أوان عبوره؟ ينصرف لا يُخفي تأذره، تتبعه ممرضات يُخفين حزنا غير مُبرّر. دمعة حارقة تسيل على خدّ سيسكنه لصقيع إلى الأبد، تذرفها أصعب بنت على أصعب أب.

تدافع إلى سطح وعي متسارع الانحسار أقدم أحاسيس وأثمن مشاعر الرحلة.. أصوات للخلال وأساور أم تقترب... لذة المشي حافيا على رمل الصحراء عندما يأتي المساء...

رائحة الأرض بعد المطر... فحات الياسمين تضوعت بها أرجاء البيت... لمن يتوجّه الطفل بحبّ جارف تصاعد من أعماقه وبأيّ كلام يشئب بالشمس، بالأشجار وبالآفاق الملتهب... الحوت! الحوت! يا إلهي، قطع كامل من الحيتان! ... هذا تاج طفلة أعلنها ملكة هذه الربوع وتفجحه ولية عهدا... كم وقف عند هذا الجبل من رُهيان وشعراء ساعات وأياما بانتظار انقشاع الضباب، لمجرد الفاء نظرة خاطفة على قمته قبل أن تلتحف مجددا بالغرابة والسرّ، ثم انصرفوا لا يبنسون ببفت شفة... نعم نعم، في أي عالم آخر سأرى مثل هذه الأزر هل! ترى ماذا أضلفت قصتي إلى قصة العالم؟ أه ما الذي تضيف القطرة الى المحيط... ما الذي تضيف حبة الرمل إلى الصحراء...؟ لا شيء تقريبا... لكن هل للمحيط كيان خارج القطرات التي تكونه.. هل ثمة صحراء دون حبات الرمل التي فيها... وهل للعالم قصة غير قصتي وكل ما عاش من القصص الأخرى؟

يُهمض الرجل عينيّ لن يعود لفتحهما وكل ذاته تسترجع الأنغام الساحرة التي ارتضاها آخر تذكّر قد يسمح له بحملها إلى ما وراء الباب المهيّب. تتداخل الأصوات وتفترق، تعلو وتتخفض، تتسارع وتنباطاً فتدوب الروح في هدير أصوات الرجال وفي حلاوة أصوات النساء. تصل موسيقى أدمي اسمه باخ ذروة الجمال والجلال والانمية تنتزع إلى الربّ بلهجة استعطاف الطفل لأبيه: Bleib bei uns. ها هو الصدى نفسه هو الذي يفتح بقوة في منذيله هلسا: وهل غادر تكم لحظة لتطالبوني بأن أبقى معكم!

لم يبق على المرتحل غير تحيّن لحظة القفز فوق آخر نوطه عائداً لبيته وراء ستار الموت والمطيّة أجمل الأنغام.

بهمس شيخ الجدّ المهيّب: لا تخف، الجسم مهياً للأمر، يفرز المادة التي يفرزها عند نشوة الجماع لوسهل لك العبور.

الغريب العائد إلى وطنه الآن أمام باب مهيب يُفتح بيظه وجلال. على ماذا؟ على الفضاء الذي تتداخل فيه العوالم لا فرق بين التي تبلورت في الواقع والتي ما زالت لجنّة في رحم الخيل.

تندافع الكائنات-المشاريع في كل الاتجاهات.

أه، أنت من كتبت "ما"؟! ماذا؟ أتعيّنك كثيرا، لست الوحيد، لست الوحيدة، لا أدري هل أحاطيك بالتأنيث أم بالتذكير وهل للأمر معنى، "هنا"، على كل حال برفق، أحببت أداعك... من رأى "أين في الناس"؟ أخذ ملقّه للمهمة الجديدة غاضبا وشتّم كل من سلم عليه بحرارة واختفى! يستأهل أن يصبح حيوانا برأسين يعيش في جوف نجم من مجرّة العقرب... أه، هذا أنت من لاعني نور "ح"! لمانا لم تردّ أو لم تردّي على سؤالتي وأنا أضمك بين ذراعي؟ لأنني كنت أعلم الرد... ولو، والآن إلى أين؟ صعب عليّ فرّك رأيت في مرآة ذاتك أجمل صور ذاتي وأجمل صور الأدمي، تقابلنا في حلم، عشنا في حلم، تفترق في حلم. لم لا يكون لنا لقاءً جديد في حلم لم يحلمه قبلنا أحد؟، لا فائدة من تكرار نفس القصة. خلاص، اذهبي أو اذهب في حال سبيلك... رجاء لا تعد إلى التخنين تردد إنها سيجارتي

الأخيرة... آه، هذا أنت، يا مَنْ كُنْتُ لي ابن الخال! ألم تخجل من تركي وحني لا أعرف مع من أتسلق الأشجار وأسرق لوز الجيران، غفرت لك أنك كُنْتُ أول من بنى في هاجس الموت، حظ سعيد في رحلاتك المقلية وحذار من حصباء العوالم المجهولة... أنت، "هنا؟" كُنْتُ لظنك ما تزال تناضل، أما زلت على عداوتك لي؟ آه كُنْتُ تمثّل! طبعاً وأنا أيضاً، كلنا كنا نمثل على أنفسنا ومع بعضنا البعض، بصراحة كُنْتُ لاعباً ماهراً وخبيثاً، أجبرتني على أن أسئل من أعماقي كل طفاقي لمواجهة ضربتك الموجهة، وأنا أيضاً أوجحك كثيراً! شكراً على الثناء... وأنت، مَنْ أنت، لا أتذكرك؟ آه، المسكين الذي عرض عليّ الزميل لئلا أكذبك ونحن نشرحك؟ كُنْتُ تسمعنا! ... حتى الخرفان هنا! كيف؟ تركك تنتظر النجح تحت أشلاء عائلتك وخبيث ظنك أما فررت أغلب الغثيان! يا خروف سابقاً، أولاً لم يكن معي مالٌ كافٍ لشرائك أنت وكل العائلة، ثم ماذا كُنْتُ تريدني أن أفعل بكمشة خرفان؟ أن أذهب بكم للاجتماع الهام! ... على فكرة، أن تجد متعة في الوثوب نسراً من أعالي السحاب على طريقتك، أن تقصّ عليها نسراً من خلف الأعشاب، وحتى أن تظفر بالحياة ركضاً وأنت الغزال الذي يتنفس في عُنقه الأسد، أمرٌ مفهوم، لكن ما الذي دهك لتجرب شيئاً بعباء الوجود خروفاً؟ أه تقول ماذا دهاني لأجرب الوجود إنساناً؟ أفحمتني، لم يعد في في جمعيتي سؤال ..

اكتملت الرحلة والذات بلوجود نلت كل شيء..

شيئاً فشيئاً تخفت أصوات قطرات مطر يرتطم بزجاج النافذة. يتوقف عازف البيانو عن النقر. تنتفك النصوص إلى الحروف الأولى يبهت تدريجياً بريق النجوم. تتلاشى البسمة خجولة من الأفق. يتعمق صمت الصحراء. تنحسر الأوجاع والمخاوف بهدوء كالأمواج لئلا يأتيتها الأمر من القمر. انتهى العالم من جمع أشباهه وكل أدوات الإغراء. تبدأ اليد الخفية في خلط الأوراق من جديد ليتخذ الهباء أشكالاً لم توجد من قبل أبداً. الذات الآن كقطرة عذرت السماء سحباً عرفت وقع السقوط على الأرض، ارتطمت داخل زخم السيل وها هي الآن تتسارع إلى المحيط لتضيق وتتجدد في أوسع ذات، في الذات الأوسع.. في الذات القدوس.

"نقد الزيت (كبير)

صمت الطبل

استرخى الراقص

انطفأت النار

لن يتصاعد منها دخان

لم يعد هناك اثنان.

دخلت الروح في الواحد".

افتحي باب شساعتك يا عثمة، إنني جاهز ويا قوى الدمار ترقفي بأناتي التي أترك، ويا قوى التوازن والتعالي أعطها شجاعة المواصله إلى أبعد نقطة على الطريق.

يدخل البخار في إغفاعة تدوم للحظة والأبدية، عاد ملتحما بالسماء والبحر. ثم ينتبه لعودة
المدّ انتهى جزر الزمن.
ما أن جذبت كفتي على عيني (هايكو ميهدي إلى ايسا)
حتى تصاعد صرلخي من ألف حنجرة
وأنا أنت كل مولود جديد

**

معلّقة باب الرحيل

أنت كل ذات، كل ذات أنت،
الذات شكل-حالة-لحظة من العالم،
العالم شكّل-حالة-لحظة من "الشيء"،
مثل "الشيء" كممثل نوحية ولادة يبلى الزمان ولا تبلى،
ثمارها كل الموجود، كل ما كان وما سيكون،
نَمَلٌ، نَخْلٌ، قُنَلٌ، فِطْرٌ، شَجْرٌ، بَشَرٌ،
فيض من كائنات-عوالم، تنبأى غرابة و إعجازا،
تحنى أمهها الهامات تهيبا وخشوعا،
والشيء "كالفنان في أوج الخلق، كلطفل في غمرة اللعب،
يستكشف عبرها الطيف الأمتناهي لإمكانيات الوجود.

هكذا أبدع من وحى خياله علمنا هذا،
عالم لا مجال فيه للنظام نون الخواء، للحياة نون الموت،
لا حرك فيه إلا وهو صراخ-تعاضد الأضداد،
لا يسكون إلا استنادا للكرّ والقرّ،
الكلّ فيه أكلٌ وماكول، الكلّ فريسةٌ وصياد،
عالم مرعب مبهر لا حدّ لقسوته، لا نفاذ لعطاياه،
البناء والهدم من الأزل، الدمار والإعمار إلى الأزل،
على أسوأ وضع ودواليبه تصرخ بالآلام التقصص والخلل.
على أحسن حال ودواليبه الصامتة تعذل كل عيب بنكاه عجيب.
عالم على الدوام الجحيم وسط الجنة، الجنة وسط الجحيم.

في هكذا عالم لا خوف فيه من التكرار والمثل،
والأدمية الفاعل، المفعول بها والفعل،
ينبأور "الشيء" فيها تبلور الفنان في أروح أعماله،
مستكشفًا جيلا بعد جيل، ذاتا بعد ذات، قصة بعد قصة،
من الأحاسيس، من المشاعر، من الأفكار ومن الأعمال،
ما لم يُعش في أي من عوالمه العجيبة الأخرى،
سيّان عنده المتعة والألم، النجاح والفشل، الهزيمة والنصر،
كلها تجاربه على ذاته تمضي كالكاويوس تأتي كالخلم،
وفيك كما لو كنت محاولته الأولى، كما لو كنت رهاقه الأخير،
يوصل سبر اغرار خلو ومزّ الوجود إنسانا.

الإنسان شيء كلاً شيء لأنه الجزء في الكل،
الإنسان شيء ليس كمثل شيء لأنه الكل في الجزء،
لا سبب للوجود إلا الوجود، لا غاية للرحلة إلا الرحلة،
عبث البحث لهما عن معنى، عن منفعة أو عن هدف،
لموت تفكيك القديم لتكوين الجديد بنفس اللبّات،
عند هذا المنعطف من طريق لا تعرف له بداية أو نهاية،
انصرف بلا ندم على ما مضى، بلا خوف أو طمع فيما سيأتي،
أتممت مهمتك على أحسن وجه توجت هامتك بإكليل الغار أو الشوك،
كيف ولا وقد أوجدت عالما بأسره، ارتحلنا بين أهواله وروائعه،
وأنت شيء من "الشيء" يمضي على قدمين.**



أستاذ في الطب الاجتماعي بكلية طب سوسة (1982-2000) وباريس (2001-2004)
ترأس منظمات تونسية وعربية وإفريقية للدفاع عن حقوق الإنسان (1987-2011)
رئيس الجمهورية التونسية الأسبق (2011-2014)
كاتب له العديد من المؤلفات في الطب والسياسة والفكر باللغتين العربية والفرنسية
صنفته مجلة فورين بوليسي الأمريكية من بين المائة المفكرين الكبار في العالم لسنة 2012
وصنفته مجلة تليم من بين المائة شخصية الأكثر تأثيرا في العالم لسنة 2013.
حاصل على الدكتوراه الفخرية من جامعة تسكوبا اليابانية سنة 2013

الكتاب

تأثني تدريجيا رغبة التدوين للرحلة بمفهوم المعزّي لا بمفهوم ابن بطوطة. ألم أجعل شعاري في الحياة: "على قدر أهل العزم تأتي الغزائم" فليكن التدوين إذن بالمفهوم الأوسع والأعمق؟ أهرّ الكتفين استهزئ من نفسي وأشفق عليها وقد أصيب الفكر بالإحباط لمجرد تخيل ما يتطلبه مشروع كهذا. من أين للسرد أن يجدد في رواية رحلة الإنسان في هذا العالم وقد رويت قبلي بكم من لغة وأسلوب؟ من أين للوصف أن يصف عالما لا ه وصف؟ من أين للتعليق على وجودنا فيه أن يقول كلاما ذا قيمة في علم سغه كل ما قيل فيه من قوال؟